AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تصدير
من ص ٢٧٣ إلى ص ٢٨٩ (مهم جداً).

١/٥٩١٥٩٤

131.3
K97uA
c.1

أسس الصحة النفسية

الدكتور عبد العزيز القوصي

أستاذ علم النفس بمعهد التربية للمعلمين
ووكيل المعهد وزميل بالجمعية البريطانية لعلم النفس

الطبعة الثالثـــــة المنقحة

(١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م)

69016

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

للمؤلف

١ — محاضرات فى علم النفس (تظهر الطبعة الثانية قريباً)

وهى أساس مايلقى من المحاضرات فى علم النفس على طلاب معهد التربية .

٢ — قصة الحياة فى جميع الأحياء « مع الأستاذ طنطاوى » (مكتبة النهضة المصرية ٨ قروش) كتاب فى التربية الجنسية ليقرأه الناشئون قبيل المراهقة .

٣ — اللغة والفكر « مع آخرين » (توريدات المعارف)

مجموعة فى بحوث سيكلوجية اللغة وطرق تدريسها ومعها تقرير مفصل عن تجربة تعليم مبادىء القراءة والكتابة بالطريقة الكلية .

٤ — الإدراك المكانى Visual Perception of Space (Cambridge University Press)

بحث تجريبى أدى إلى الكشف عن العامل المكانى (K)

٥ — مؤتمر رابطة التربية الحديثة بباريس عام ١٩٤٦ « مع السيدة أسما فهمى »

تقرير مرفوع إلى وزارة المعارف عن مباحث مؤتمر رابطة التربية الحديثة الذى عقد بباريس فى أغسطس سنة ١٩٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يتبين من عنوان هذا الكتاب أننا نتناول فيه ما يسمى « أسس الصحة النفسية » وهو يتضمن خبرة شخصية بدأت منذ عشر سنوات تقريباً . وقد استقيت هذه الخبرة من الحالات التى قمت أنا وزملائى بدراستها فى العيادة الطبية السيكلوجية الملحقة بمعهد التربية للمعلمين ، ومن حالات الأحداث التى درستها أثناء عملى أخصائيا نفسانيا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، زهاء أربع سنوات . وكل من عيادة المعهد ومكتب الخدمة الاجتماعية يسيران على نظام واحد تقريباً .

ويرجع إنشاء العيادات السيكلوجية فى مصر إلى عام ١٩٣٤ ، حين قام المعهد بإنشاء أول عياد من هذا النوع . وقد ظهرت الحاجة إلى إنشائها عندما كان المعهد يقوم بتجربة تعليمية هامة فى الفصول التجريبية التى كانت ملحقة به فى ذلك . وقد لاحظ المشرفون على هذه الفصول أن عدداً قليلا من التلاميذ فيهم بعض الشذوذ ، سواء أكان ذلك فى سلوكهم الاجتماعى أم فى تقدمهم الدراسى ، وكان هذا الشذوذ أكبر من أن يتمكن المعلم العادى من معالجته ، لأنه يتطلب لمواجهته دراسة عميقة شاملة من النوع الذى لا يتسع له وقت المدرس ، ولا تمكنه خبرته من مواجهته. وقد قامت الهيئات فى انجلترا وأمريكا بإنشاء ما يسمى بالعيادات السيكلوجية لدراسة هذا النوع من الحالات ومعالجته وعلى نظام هذه العيادات أنشئت عيادة المعهد . فكان العمل فيها يقوم على أساس تضافر جهود الاخصائيين فى النواحى المختلفة التى يهمنا معرفتها لفهم الحالة والتمكن من معالجتها ، فكان التلميذ يدرس من الناحية النفسية ليعرف ما لديه من ذكاء واستعدادات أخرى ، وليعرف ما لديه من صفات نفسية مزاجية وخلقية ، وما إلى ذلك . وكان يفحص كذلك من الناحية الطبية

فحصاً دقيقاً ، لأن كثيراً من أنواع الشذوذ يرجع كله أو بعضه للأثر الناتج من العلل المزمنة أو الحادة ، أو من الخصائص الجسمية الأخرى ، وما إلى ذلك .

وكان من الضرورى أن تفحص كذلك العوامل البيئية المختلفة التى تؤثر فى التلميذ سواء أكانت هذه العوامل كامنة فى المنزل ، أم فى المدرسة ، أم فى الرفقاء ، أم فى مجالات قضاء وقت الفراغ ، أم فى غير ذلك . وفى كل هذا يجب الوقوف على هذه المؤثرات بكافة أنواعها : نفسية أو صحية أو بيئية ماضيها وحاضرها. لهذا كان من الضرورى الاستعانة بجهود سيدة مدربة تدريباً خاصاً تتصل بالمنزل لجمع المعلومات التى يصح أن تكون لها علاقة بمشكلة الشذوذ . وتقوم هذه السيدة أو الاخصائية الاجتماعية بعد ذلك بزيارات متعددة ، لتنصح من فى المنزل بما يجب عليهم اتباعه مع الناشىء .

ويشترك مع الاخصائيين بأنواعهم الثلاثة السابقة ، النفسانى والطبى والاجتماعى فى كثير من الأحيان مدرسون وإخصائيون فى المسائل التربوية ،لوضع الخطة اللازمة لمواجهة الشذوذ أو علاجه على ضوء المعلومات التى جمعت من الميادين المختلفة .

وقد سار العمل على هذا المنوال ، وقامت العيادة بدرس عدد قليل من حالات التهتهة والسرقة ، والتأخر الدراسى ، وفقد الثقة بالنفس ، والاضطراب النفسى والعصبى ، والمشاكسة ، وما إلى ذلك . وقد نجحت العيادة نجاحا غير قليل مع عدد من الحالات ولم تنجح فى بعضها . والحالات التى كان النجاح فيها جزئياً أو معدوماً لم تكن أقل أهمية من الناحية العلمية من الحالات التى كان النجاح فيها كبيراً ، ذلك لأن العيادة تمكنت — مع هذا كله — من الوقوف على الكثير من العوامل التى أدت إلى ظهور السلوك المشكل ووقفت كذلك على العوامل التى أدت إلى عدم النجاح فى مواجهته ، مما يساعد كثيراً فى وضع الأسس الوقائية والعلاجية .

وما كاد العمل يسير فى هذه العيادة الناشئة من سنوات قليلة ، حتى زاد عليها الضغط من جهات متعددة . فقام كثير من الآباء والنظار بإرسال أطفال وتلاميذ بسبب ماظهر عندهم من مشكلات فى السلوك . ولم تتمكن العيادة من مواجهة الضغط ، لعدم تفرغ أعضائها للعمل بها تفرغاً كاملا ، فكانت تقبل فى كل عام عدداً قليلا من الحالات يتراوح بين خمس عشرة وخمس وعشرين ، وبهذا تمكنت فى العشر السنوات الماضية من درس ٢٢٠ حالة وقد مكنتنا الظروف من دراسة بعض الحالات باستيفاء ، على حين تمكنا من ذلك فى حالات أخرى .

وفى أوائل سنة ١٩٤٠ أنشىء مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، وبدأ هذا المكتب بدرس مايرسل إليه من الأحداث الذين يتشردون أو يرتكبون الجرائم المعروفة عنهم وكان من نصيبى أن وكل إلىّ فى أول صيف ١٩٤٠ أن أكون الاخصائى النفسانى لهذا المكتب ، وبقيت فى هذا العمل أربع سنوات قمت فيها بدراسة ثلاثمائة حالة تضم أعماراً مختلفة ، وجرائم وذنوباً مختلفة ، قام بها صبيان ، وعدد صغير من البنات .

وتمكنت فى حالات عيادة المعهد ومكتب الأحداث معاً — وهى تربو فى مجموعها على الخمسمائة حالة — من دراسة ظروف كل حالة ، وفى هذا درسنا البيئة والأهل والأخوة والوالدين والرفقاء ، ومعاملات المدرسين وأصحاب الأعمال وغيرهم ، وبذلك اتسع ميدان الدراسة اتساعاً كبيراً شمل بيئات تختلف فيما بينها اختلافا شاسعاً ، وشمل صنوفاً مختلفة فى السلوك والمزاج والعقلية والمستوى الاجتماعى والثقافى والعمر والجنس وما إلى ذلك .

يضاف إلى كل هذا أننى قضيت صيفين فى العيادات السيكلوجية فى لندن وذلك فى عامى ١٩٣٤، ١٩٣٦، وكنت ملازماً فى هذين الصيفين للدكتور هاملتون بيرسون رئيس قسم الأطفال فى معهد لندن لعلم النفس الطبى ، ودرست معه عدداً غير قليل من حالات الصغار والمراهقين التى كانت تحال إلى ذلك المعهد .

وقد جمعت نتائج كل هذه الخبرة فى هذا الكتاب الذى جاء مشتملا على ثلاثة أجزاء: يشمل الجزء الأول منه القواعد العامة للصحة النفسية ، وأغلبها قواعد نظرية مدعمة بالأمثلة العملية المشتقة من الحالات التى درسناها بما فى ذلك أثر الناحية الصحية وأثر الوراثة ، كما يشمل نزعات الطفل الفطرية ، وتعدل هذه النزعات مما يؤدى إلى تكوين خلقه وعواطفه وميوله واتجاهاته .

وأما الجزء الثانى منه فإنه يشمل بيئة الطفل الاجتماعية ، وقد قسمنا هذه إلى جزءين: البيئة المنزلية بما فيها من والدين وإخوة ، والبيئة المدرسية بما فيها من تلاميذ ومعلمين .

والجزء الثالث منه يشمل بعض المشكلات التى تعرض للآباء والمعلمين والقائمين على تربية الأطفال ، وتدرجنا فى شرح كل هذا ، مبتدئين بالمشكلات الأولى من نوم وتغذية ، وبينا أسبابها وآثارها النفسية ، وأهميتها فى نشأة الفرد ، وتدرجنا إلى مشكلات الطفولة المتأخرة ثم إلى مشكلات المراهقة فعرضنا للمشكلات الجنسية ، ثم ختمنا الكتاب بفصل عن التربية الجنسية ، اكتفينا فيه بعرض عام غير مفصل لما يجب أن يعمل ، وببيان تفصيلى عما يعمل

فى الخارج مما يمكن أن نسميه التربية الجنسية المقصودة ولعل دراسة مايعمل فى الخارج فد توحى لنا بما يمكن عمله فى مصر وبالفعل قمت وزميلى الأستاذ طنطاوى بوضع كتاب يقرؤه المراهقون فى هذه الناحية وسميته « قصة الحياة فى جميع الأحياء » .

وقد حرصنا عند استشهادنا بحالات مما درسنا ، ألا يتمكن القارىء العادى من معرفة أصحاب هذه الحالات ، وقد ضحينا أحياناً بالإشارة إلى بعض الحالات الطريفة ، لا لسبب إلا لأن شرحها قد يسهل الاستدلال على معرفة أصحابها .

وأجزاء الكتاب الثلاثة موضوعة بحيث يمكن قراءة كل منها مستقلا عن الآخر ، فأولئك الذين لايطيقون قراءة الأجزاء النظرية المتعلقة بالوراثة والبيئة والجسم والعقل والغرائز والخلق واللاشعور يمكنهم أن يقتصروا على قراءة الجزءين الثانى والثالث وأما الذين يدرسون علم النفس دراسة منظمة فيحسن بهم أن يقرأوا الكتاب بأجزائه الثلاثة .

وعلينا أن نشير إلى أننا راعينا فى فصول الجزء الأول الاختصار الشديد ، إذ أنه لايمكن فى كتاب كهذا أن نقوم باستيفاء مادة أى فصل من فصوله ، ولكننا حاولنا مع ذلك أن نحتفظ مع هذا الاختصار بالوضوح والشمول والدقة العلمية . وعلى ذلك يتحتم على من ينشد دراسة هذه الفصول دراسة وافية أن يكمل قراءته من مراجع أخرى أكثر استيفاء. لهذا راعينا أن نذيل كل فصل بثبت واف لخير المراجع عن هذا الفصل . وليس معنى هذا الثبت أن كل مرجع فيه قد استعمل استعمالا صريحا فى صلب الكتاب . ولكن يلاحظ أن هناك استعمالا ضمنيا كافياً لأهم وأغلب ما جاء فى هذا المراجع . والغرض الأساسى من إيرادها فتح ميدان هذه الكتب للقراء .

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة إلا أن أشكر جميع من عاونونى فى تجهيز مادة هذا الكتاب ، وأخص بالذكر منهم زملائى أعضاء العيادة السكلوجية بمعهد التربية وأعضاء مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة . وإنى مدين بالفضل دائماً لأستاذى الجليل اسماعيل محمود القبانى بك ، فكان أول من علمنى علم النفس وملأنى اهتماما به وتحمساً إليه ، وكان يقوم دائماً بتشجيعى وتهيئة الظروف لإتمام هذا الكتاب . وقد قرأ الكتاب فى صورته الأولى ، وأبدى عدداً من الملاحظات كان للأخذ بها أثر بين فى تحسينه . وكان للأستاذ محمد فؤاد جلال الأستاذ بالمعهد فضل عظيم أيضاً ، إذ أنه اقتطع جزءاً كبيراً من وقته قرأ فيه الكتاب وفحصه فحصاً تحليلياً دقيقاً كان له أثر فى إدخال عدة تعديلات عليه . وأقدم جزيل شكرى كذلك لزميلى الأستاذ أحمد على والأستاذ محمد قدرى لطفى ، فقد قرآ الكتاب فى صورته النهائية وأبديا ملاحظات

أخذت بها فجاءت عباراته صحيحة واضحة من الناحية اللغوية . وكانت لهما فوق ذلك ملاحظات أخرى كان لاتباعها أثر طيب . وأتقدم بالشكر كذلك للأستاذ محمد خيرى حربى والأستاذ محمد أنيس على تطوعهما بتجهيز ثبت المصطلحات وهى عملية تحتاج إلى جهد وصبر . وانى مدين فوق ما تقدم لصديقى عبد الهادى أفندى مصطفى المفتش بوزارة الشئون الاجتماعية إذ تطوع بتيسير العمليات التمهيدية اللازمة لإعداد هذا الكتاب مما جعل العمل فى مجموعه يسير بدرجة كبيرة من السهولة والسرعة .

وأشكر آخر الأمر السيدة زوجتى فلم يقتصر فضلها على تهيئة الجو الصالح للعمل المثمر وإنما امتدت يدها بالمعونة الفنية والعلمية فى كل جزء من أجزاء هذا الكتاب ؟

معهد التربية فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ — عبد العزيز القوصى

مقدمة الطبعة الثانية

أتقدم بالشكر الجزيل لجميع من أبدوا ملاحظاتهم على الطبعة الأولى وأخص بالذكر منهم الأستاذ عطية رزق الأمين بمكتبة معهد التربية . فقد كانت له ملاحظات عديدة قيمة تطوع بتدوينها ، وقد أدخلت أغلبها على الكتاب فى هذه الطبعة .

معهد التربية فى مايو سنة ١٩٤٦ — عبد العزيز القوصى

مقدمة الطبعة الثالثة

أشعر بالعجز عن إيفاء حق الشكر لحضرة محمد عثمان أفندى الذى لولا معاونته القيمة وتضحيته البالغة بوقته وجهده لما ظهرت هذه الطبعة إلا بعد زمن طويل . وقد أمكننى بمعاونته أن أدخل تعديلات كثيرة فى ثناياها .

معهد التربية فى مايو ١٩٤٨ — عبد العزيز القوصى

الفهرست

الباب الأول

المبادىء العامة لعلم الصحة النفسية

الفصل الأول : معنى الصحة النفسية . (٣ — ١٢)

تعريف (٣) ، الشذوذ والصحة النفسية (٩) نسبية الصحة النفسية (١٠) ، ميدان الصحة النفسية (١١) ، المراجع (١٢) .

الفصل الثانى : الوراثة والبيئة . (١٣ — ٢٨)

مقدمة (١٣) ، الآراء المختلفة فى الوراثة والبيئة (١٤) ، المقصود بالوراثة والبيئة (١٥) ، بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة (١٧) ، دراسة العظماء والموهوبين (١٧) ، دراسة المجرمين وضعاف العقول (١٨) ، دراسة التوائم (١٩) ، الوراثة والصفات العقلية والخلقية (٢١) ، الذكاء والوراثة (٢١) ، الخلق والوراثة (٢٣) ، صعوبات البحث فى الوراثة والبيئة (٢٤) ، الوراثة والتربية (٢٦) ، النتيجة (٢٧) ، المراجع (٢٨) .

الفصل الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما فى الآخر. (٢٩ — ٥٩)

مقدمة (٢٩) ، التطور فى الجسم والعقل (٣٠) ، الجسم والعقل فى عمليات الإدراك الحسى (٣١) ، الانفعالات (٣١) ، أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها (٣٤) .

أثر الجسم فى العقل : التأخر العام فى النمو الجسمى (٣٥) ، العاهات وأثرها (٣٦) ،

الأثر المباشر للجسم على العقل (٤٠)، أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات (٤١)، أثر الغدد (٤٤)، البنكرياس (٤٥)، الغدة الدرقية وجاراتها (٤٥)، الغدة النخامية (٤٦)، الغدة التناسلية (٤٩)، الغدة الفوق الكلوية (٥٠)، غدتا الطفولة (٥١)، الاتزان الغددى (٥٢).

أثر العقل فى الجسم (٥٣): الحالات الانفعالية (٥٣)، أمثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية (٥٤)، أثر الإيحاء (٥٧)، خاتمة (٥٨)، المراجع (٥٩).

الفصل الرابع: الغرائز والحاجات. (٦٠—٨٤)

مقدمة (٦٠)، الغرائز (٦٢)، النزعات الفطرية العامة (٦٦)، الحاجات النفسية (٧١)، الدوافع والقدرات العقلية (٧٥)، طرق تعدل الغرائز (٧٧)، الطريقة الأولى (٧٧)، الطريقة الثانية (٧٨)، الطريقة الثالثة (٧٩)، الإعلاء والقلب (٨٠)، الإبدال (٨١)، خاتمة (٨٢)، المراجع (٨٣).

الفصل الخامس: تكامل الشخصية «العواطف والخلق» (٨٥—١٠٠)

معنى العاطفة (٨٥)، أنواع العواطف (٨٦)، العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية (٨٧)، العاطفة السائدة (٨٨)، تكامل الشخصية (٨٩)، الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات (٩٠)، نشوء عاطفة اعتبار الذات (٩٢)، العوامل الاجتماعية فى تكوين الخلق (٩٤)، رأى فى السعادة (٩٧)، المراجع (١٠١ — ١٢٥).

الفصل السادس: انحلال الشخصية «اللاشعور».

خلاصة ومقدمة (١٠١)، الـ «أنا» (١٠٣)، الذات العليا (١٠٤)، الـ «هى» (١٠٦)، الـ «أنا» والقوى المؤثرة عليها (١٠٧)، الصراع والكبت وتكوين العقد (١٠٩)، العواطف والعقد (١١٤)، مظاهر اللاشعور (١١٧)، الأحلام (١١٩)، المراجع (١٢٥).

الفصل السابع : العمليات العقلية اللاشعورية . (١٢٧—١٤١)

مقدمة (١٢٧)، الكبت والنسيان (١٢٨)، النكوص (١٢٩)، الإسقاط (١٣٠)، التحويل (١٣٢) ، التقمص (١٣٣) ، التبرير (٢٣٤) ، التعويض (١٣٦) ، الأعراض المرضية والدفاعية والهروبية (١٣٩) ، خاتمة (١٣٩) ، المراجع (١٤١) .

الفصل الثامن : مراحل النمو . (١٤٣—١٥٩)

مقدمة (١٤٣) ، التقسيم إلى مراحل (١٤٤) ، السنتان الأوليان (١٤٦) ، المرحلة من سن ٢ إلى سن ٥ (١٤٧) ، المرحلة من ٥ إلى ١٢ (١٤٩) ، المراهقة والبلوغ (١٥١) ، التغيرات الجسمية (١٥٢) ، التغيرات الوجدانية (١٥٤) . التغيرات الاجتماعية والخلقية (١٥٥) ، تحرر المراهق من السلطة ونمو فرديته (١٥٦) ، النمو العقلى (١٥٧) ، الكبار وموقفهم نحو المراهق (١٥٨) ، المراجع (١٥٩) .

الباب الثانى

الطفل فى بيئته الاجتماعية

الفصل التاسع : الطفل ووالداه . (١٦٣—١٨٠)

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه (١٦٣) . مدى تدخل الآباء فى حياة الأبناء (١٦٨)، التدخل اللاإرادى للآباء فى حياة الأبناء (١٧٠)، جزاءات الآباء (١٧٣) السياسة الثابتة والطاعة (١٧٧) ، الروابط بين الوالدين (١٧٨) ، المراجع (١٨٠) .

الفصل العاشر : الطفل وإخوته . (١٨١—٢٠٤)

مركز الطفل بين إخوته (١٨١) ، الطفل الأول والثانى (١٨١) ، الطفل

الأخير (١٨٤) ، الطفل الوحيد (١٨٤) ، دراسة حالات (١٨٥) ، خاتمة (٢٠٣) ، المراجع (٢٠٤) .

الفصل الحادى عشر : المدرسة ومشكلات النشء (٢٠٥—٢٢٣)

مقدمة (٢٠٥) ، المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع (٢٠٥) ، الغاية من المدرسة وأثر الامتحانات (٢٠٨) ، قيمة العمل المدرسى (٢١٠) ، طرق التعليم المتبعة (٢١٣) ، الشعور بالنجاح (٢١٤) ، الحياة الاجتماعية (٢١٩) ، نوع المعاملة السائدة فى المدرسة (٢٢٠) ، المدرسة ومشكلات النشء (٢٢١) ، المراجع (٢٢٣) .

الفصل الثانى عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ (٢٢٥—٢٣٤)

مقدمة (٢٢٥) ، درجة شعور الطفل بالحاجة للمدرس (٢٢٦) ، درجة اغتباط المعلم بعمله (٢٢٦) ، قسوة المعلمين (٢٢٨) ، مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم (٢٢٩) ، المعلم كقائد أو مرشد للطفل (٢٣١) ، المراجع (٢٣٤) .

الباب الثالث

مشكلات تربية النشء

الفصل الثالث عشر : المشكلات المتعلقة بالتغذية (٢٣٧—٢٥٧)

مقدمة عامة (٢٣٧) ، حالات (٢٣٩) ، أنواع المشكلات وطرق تحديدها (٢٤٣) ، كيف تدرس مشكلات التغذية (٢٤٤) ، البطء فى تناول الطعام (٢٤٧) ، موقف الآباء وما يترتب عليه (٢٤٧) ، الشره (٢٥١) ، القىء (٢٥٣) ، خاتمة (٢٥٤) ، المراجع (٢٥٧) .

الفصل الرابع عشر : المشكلات المتعلقة بالنوم (٢٥٩—٢٧١)

مقدمة (٢٥٩) ، الحاجة إلى النوم عند الأطفال (٢٦٠) ، نظام النوم (٢٦٢) ،

بعض المشاكل العادية (٢٦٥) ، التقلب والمشى والكلام أثناء النوم (٢٦٨) ، المراجع (٢٧١) .

الفصل الخامس عشر : التبول اللاإرادى (٢٧٣ — ٢٩٠)

مقدمة (٢٧٣) ، الأسباب الجسمانية وعلاجها (٢٧٤)، الأسباب النفسية (٢٧٦) ، مصاحبات التبول (٢٨١) ، العلاج والوقاية (٢٨٢) ، التبول أثناء اليقظة (٢٨٦) ، خاتمة (٢٨٩) ، المراجع (٢٩٠) .

الفصل السادس عشر : الحركات العصبية مص الأصابع وقرض الأظافر (٢٩١ — ٣٠٥)

مقدمة (٢٩١) ، العصبية العامة وانعدام الاستقرار (٢٩٢) ، مص الأصابع (٢٩٧) قرض الأظافر (٣٠٠) ، اللزمات العصبية (٣٠٠) ، خاتمة (٣٠٣) المراجع (٣٠٥) .

الفصل السابع عشر : صعوبات النطق ٣٠٧ — ٣٢٦

مقدمه (٣٠٧) ، بعض الحالات (٣٠٩) ، التشخيص والعلاج (٣١٦) ، عوامل ظهور صعوبات النطق (٣١٨) ، مصاحبات التهتهة (٣١٩) ، المدرسة والتهتهة (٣٢٠)، علاج التهتهة (٣٢٢) ، خاتمة (٣٢٤) ، المراجع (٣٢٦) .

الفصل الثامن عشر : الخوف وضعف الثقة بالنفس ٣٢٧ — ٣٥٣

الخوف العادى والشاذ (٣٢٧) ، أنواع المخاوف (٣٢٩) ، مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها (٣٣٠) ، الخوف من الموت (٣٣٦) الخوف من الظلام (٣٣٨) ، القلق والخوف العام (٣٣٩) ، واجب الآباء إزاء مواقف الخوف (٣٣٩) ، ضعف الثقة بالنفس (٣٤١) ، الثقة عند الطفل الصغير (٣٤٢) ، بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص (٣٤٣)، القصور الجسمانى والعقلى (٣٤٣)، أثر الموازنات (٣٤٥) ، اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره (٣٤٧)، السلطة الوالدية (٣٤٨)، العلاقات بين الوالدين (٣٤٩)،

التربيـة والروح الاستقلالية (٣٥٠) ، مظاهر ضعف الثقـة بالنفس (٣٥١) ، المراجع (٣٥٣) .

الفصل التاسع عشر الكذب : (٣٥٥—٣٧٢)

مقدمة(٣٥٥)،الاستعداد للكذب(٣٥٦) ، الكذب الخيالى(٣٥٧) ، الكذب الالتباسى (٣٥٨) ، الكذب الادعائى (٣٥٩) ، الكذب الغرضى (٣٦٠) ، الكذب الانتقامى (٣٦١) ، الكذب الدفاعى (٣٦٢) ، كذب التقاليـد (٣٦٤) ، الكذب العنادى (٣٦٤) ، الكذب المرضى (٣٦٥) ، بعض القواعد العامة (٣٦٧) ، العوامل المدرسية التى تشجع على الكذب (٣٧٠) ،خلاصة (٣٧١) ، المراجع (٣٧٢) .

الفصل العشرون : السرقة (٣٧٣—٣٨٧)

حالة فى السرقة (٣٧٣) ، حالة أخرى فى السرقة (٣٧٥) ، السرقة والاستعداد لها (٣٧٦) ، الشعور بالملكية و إنماؤه (٣٧٧)، الدوافع للسرقة (٣٨٠) دراسة حالات السرقة (٣٨٤) ، بعض القواعد العامة (٣٨٥) ، المراجع (٣٨٧) .

الفصل الحادى والعشرون : الميل للاعتداء والتشـاجر ونوبات الغضب (٣٨٩ — ٤٠٨)

مقدمة (٣٨٩) ، دراسة حالات (١٩٢) ، حالة فى نوبات غضب لطفل فى سن الخامسة (٣٩٥) ، حالة غضب ومعاندة لتلميذ فى السادسـة عشرة (٣٩٦) ، أسباب الغضب فى الحالات الشاذة (٣٩٧) ، مشاجرات الأخوة (٤٠١)، بحث حالات الغضب والتشاجر (٤٠٤) ، بعض القواعد العامة (٤٠٥) ، خاتمة (٤٠٧) ، المراجع (٤٠٨) .

الفصل الثانى والعشرون : التخريب (٤٠٩—٤٢٢)

ميـل الأطفال إلى الفحص والتخريب والحركة (٤٠٩) ، بعض الظروف التى تعارض ميل الطفل إلى اللعب (٤١٣) ، عوامل التخريب (٤١٤) ، التدمير وعقاب الذات (٤٦٨) ، خاتمة (٤١٩) ، المراجع (٤٢٢) .

الفصل الثالث والعشرون : الغيرة (٤٢٣—٤٣٦)

معنى الغيرة (٤٢٣) ، الغيرة والثقة (٤٢٥) ، كيف تنشأ الغيرة (٤٢٦) ، بعض الحالات (٤٢٨) ، الغيرة عند الطفل الوحيد (٤٣٠) ، الغيرة من المولود (٤٣١) ، الغيرة بسبب الموازنة (٤٣٢) ، خاتمة (٤٣٤) ، المراجع (٤٣٦) .

الفصل الرابع والعشرون : التأخر الدراسى (٤٣٧—٤٥٣)

مقدمة (٤٣٧) ، تحديد معنى التأخر الدراسى (٤٣٨) ، بعض الحالات فى التأخر الدراسى (٤٤١) ، العلاقة بين التأخر الدراسى والتأخر العقلى (٤٤٨) ، طريقة بحث حالات التأخر الدراسى (٤٤٩) ، مصاحبات التأخر الدراسى (٤٥١) ، المراجع (٤٥٣) .

الفصل الخامس والعشرون : المشكلات الجنسية (٤٥٥—٤٦٩)

أنواع المشكلات الجنسية (٤٥٥) ، الناحية الجنسية فى مراحل النمو المختلفة (٤٥٦) ، بعض الحالات (٤٥٨) ، الاستمناء (٤٦٣) ، تلخيص المشاكل الجنسية وأسبابها (٤٦٧) ، المراجع (٤٦٩) .

الفصل السادس والعشرون : التربية الجنسية (٤٧١—٤٩٥)

مقدمة (٤٧١) ، موقف الطفل من المشاكل الجنسية (٤٧٢) ، موقف الآباء من الأطفال فى المسائل الجنسية (٤٧٤) ، التربية الجنسية للآباء (٤٧٦) ، قواعد عامة للتربية الجنسية (٤٧٨) ، بعض المحاولات فى التربية الجنسية (٤٨١) ، التربية المختلطة (٤٨٥) ، تجارب فى التعليم الجنسى بالمدارس (٤٩٠) ، المراجع (٤٩٥) .

ثبت بالمصطلحات : ٤٩٧ — ٥٠٨

مطبوعات أخرى للمؤلف : ٥٠٩

الباب الأول

القواعد العامة لعلم الصحة النفسية

الفصل الأول : معنى الصحة النفسية .

« الثانى : الوراثة والبيئة .

« الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما فى الآخر .

« الرابع : الغرائز والحاجات .

« الخامس : تكامل الشخصية « العواطف والخلق » .

« السادس : انحلال الشخصية « اللاشعور » .

« السابع : العمليات العقلية اللاشعورية .

« الثامن : مراحل نمو الفرد .

الفصل الأول

معنى الصحة النفسية

تعريف الصحة النفسية :

تخطر ببالنا فكرة الصحة النفسية ، عندما يقف الواحد منا أمام مشكلة بارزة من مشكلات السلوك . فإذا لاحظنا أن شخصاً ما ، لا يصدر عنه السلوك الملائم فى أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات ، فإننا نلاحظ أن هذا السلوك غير الملائم يكون غالباً مصدراً لمشاكل وصعوبات . "وسلوك الفرد فى أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات لا يخرج عن كونه نوعاً مما يسميه علماء الحياة « تكيف الكائن الحى للبيئة المحيطة به » . ومعروف أن الكائنات الحية بمختلف صنوفها تتفاعل مع البيئة ، وتتكيف لظروفها تكيفاً غايته ضمان الحياة واستمرار النمو وبقاء النوع "[1] كذلك الإنسان عندما يتعامل مع بيئته المادية والاجتماعية ، فإننا نجده يفصح عن سلوك لا يخرج عن كونه نوعاً من أنواع التكيف للبيئة . وهذا النوع من التكيف يمكن تسميته « التكيف النفسى » . فإن كان هناك شخص لا يكيف نفسه التكيف النفسى المناسب لبيئته المادية والاجتماعية ، قلنا عادة إننا نشك فى صحة حالته النفسية . ومن أمثلة التكيف النفسى المناسب خوف الإنسان من موقف يضر حياته ، كوقوعه أمام حيوان مفترس . والتكيف النفسى فى هذه الحالة هو أن يسلك الإنسان طريقة تمنع الخطر عنه ، فيهرب مثلا من الحيوان ولكن إذا ظهر خوف الإنسان البالغ من حيوان عادى نألفه كقط أو أرنب — أو ما شابه ذلك — اعتبرنا مظاهر الخوف أنها تكييف نفسى غير مناسب .

ونعتبر عادة — كما قلنا — أن حالات التكيف المناسب دالة بوجه عام على الصحة النفسية ، وأما حالات التكيف غير المناسب ، فإنها تفصح عن انحراف فى الصحة النفسية .

ومن المفيد أن نقيم بعض الموازنة بين الصحة النفسية والصحة الجسمية — من حيث مناهج كل منهما — حتى نفهم الأولى على ضوء الثانية . "فالصحة الجسمية نصل إليها بمناهج ثلاثة : أولها المنهج العلاجى (Remedial) ، وهو ما يتبعه الفرد العادى للتخلص من مرض أو انحراف . وثانيها المنهج الوقائى (Préventive) ، وهو ما يتبعه الفرد عادة لكى يتجنب الإصابة بمرض ما . وثالثها المنهج الإنشائى أو الإيجابى (Positive or Constructive) ، وهو ما يتبعه الفرد العادى حتى تقوى صحته ، ويزيد نشاطه ، ويتمتع بالشعور بالقوة والحيوية . وهذه المناهج الثلاثة ليست منفصلة تماماً عن بعضها البعض ، ولكنها متداخلة تداخلا كبيراً . "

" كذلك الصحة النفسية لها ثلاثة مناهج كالسابقة تماماً . فهناك المنهج العلاجى ، وهو ما يتبع لعلاج الفرد من الانحراف فى الصحة العقلية حتى يعود إلى حالة الاعتدال ولدينا المنهج الوقائى ، وهو الطريق الذى يسلكه الفرد مع نفسه ومع غيره حتى يقى نفسه وغيره الوقوع فى حالة اضطراب نفسى . وهناك المنهج الإنشائى ، وهو ما يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة ، وليزيد كفاءته إلى أقصى حد مستطاع" . ومن أمثلته ما يقوم به بعض الناس من محاولات لتقوية الذاكرة ، أو الخيال ، أو الإرادة ، أو الشخصية . وهـذه المحاولات سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة من حيث الأساس العلمى الذى تستند عليه إلا أنها موجودة للغرض الإنشائى . ويقابلها فى الناحية الجسمية ما أشرنا إليه من محاولات زيادة الحيوية والقوة عن طريق التغذية والرياضة والتمرينات الموضوعة خصيصاً لذلك .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن فهم معنى الصحة النفسية فهماً تقريبياً . ولزيادة الإيضاح نعود مرة أخرى إلى الصحة الجسمية فنعرفها بالتعريف الآتى :

" الصحة الجسمية هى التوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة ، مع القدرة على مواجهة الصعوبات العادية المحيطة بالإنسان ، ومع الإحساس الإيجابى بالنشاط والقوة والحيوية ."

ونقصد بالتوافق أن تكون الوظائف الجسمية متعاونة تعاوناً تاماً لصالح الجسم كله ، فلا يجوز فى الحالة الصحية ، أن يقوم عضو من الجسم بنشاط أكبر أو أقل مما يتطلبه الجسم كله ، وإلا نشأت حالة مرضية ، تختلف فى شدتها ، ومدة بقائها باختلاف نوعها وظروفها ، فإذا زاد أو قل نشاط غدة من الغدد عما يتطلبه الجسم كله كوحدة أدى ذلك إلى حالة مرضية ، فزيادة نشاط الغدة الدرقية مثلا عما يستدعيه الاتزان الكلى لمجموع نشاط الغدد يترتب عليها عادة الحالة المعروفة باسم (Exophthalmic Goitre) وانخفاض نشاط الغدة الدرقية عن الحد الذى يتطلبه اتزان مجموع نشاط الغدد ينتج عنه حالة (Myoxedema) . كذلك قد تستقل فى النمو مجموعة من خلايا الجسم — لسبب ما — عن بقية الأنسجة المحيطة بها ، فتتحول إلى خلايا خبيثة ، لا تقوم بوظيفة ما فى الجسم سوى الدمار للخلايا الطبيعية ، وتسحب عندئذ كثيراً من نشاط الجسم وغذائه لحسابها الخاص ، وهذه هى الحالة المعروفة بالسرطان[1] . من هذا كله يتضح المقصود بالتوافق ، وهو أن تعمل أجزاء الجسم متعاونة لصالح الجسم كله .

وإذا عدنا إلى التعريف الذى نحن بصدده ، نجد أنه ينص على قدرة الجسم على مواجهة الصعوبات العادية التى تحيط بالإنسان ، فيجب أن يكون الجسم بحيث يقاوم التغيرات المألوفة فى درجة حرارة الجو مثلا ، وأن يكيف نفسه لتغيرات فى التغذية ، ومواعيدها وألوانها ، بحيث تقع هذه التغيرات فى حدود معينة . وأساليب التكيف الجسمى لهذه التغيرات كثيرة ومعروفة ، منها : ارتفاع درجة الحرارة ،

---

(١) راجع هذه النقطة ووافق على ما جاء بها الدكتور ابراهيم أبو سنه أخصائى علم العلاج بالأشعة بالقصر العينى .

وإسراع القلب فى أداء عمله . وهجوم الكرات البيضاء أحياناً على نقطة الإصابة ، وغير ذلك . وهناك حالات تكون فيها التغيرات الطارئة أقوى مما يمكن أن يقاومه الجسم ، مهما تضافرت قواه فى هذا الاتجاه . وهنا يصل إلى حالة اعتلال أو وفاة .

وواقع الأمر أن الجزأين السابقين من التعريف ، وهما : التوافق والقدرة على مواجهة الصعوبات ، ليسا منفصلين ، وإنما هما جزء واحد . فالتوافق بين وظائف الجسم المختلفة هو التعاون بين أعضائه ، لتساعد هـذه الأعضاء الجسم على الحياة فى البيئة الطبيعية ، وعلى مواجهة الصعوبات الناشئة من التغيرات الواقعة فى حدود معينة .

أما الجزء الأخير من التعريف وهو الإحساس الإيجابى بالنشاط والقوة والحيوية فهو واضح لا يحتاج إلى شرح . وله وظيفة ترتبط بالجزأين السابقين ، فوجود هذا الإحساس يدل الفرد على تمتعه بالتوافق ، وغياب هـذا الإحساس يدله على حاجته إلى القيام بإعادة هذا التوافق .

وإن صح القياس بين الحياتين الجسمية والنفسية ، أمكن ـ قياساً على ما تقدم ـ أن نعرف الصحة النفسية بالتعريف نفسه الذى قدمناه للصحة الجسمية مع إبدال كلمة « النفسية » بكلمة « الجسمية » . وعلى هذا تكون الصحة النفسية هى التوافق التام أو التكامل[1] بين الوظائف النفسية المختلفة ، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التى تطرأ عادة على الإنسان ، ومع الإحساس الإيجابى بالسعادة والكفاية .

ومعنى التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة هو خلو المرء من النزاع الداخلى كوقوعه بين اتجاهين مختلفين ، كأن يتردد بين تحقيق كرامته فى نظر نفسه ، وإشباع جوعه عن طريق السرقة . أو كما يحدث فى موقف يتنازع إرادة الشخص فيه أمران : تضحية بنفسـه وأولاده لإنقاذ الوطن ، أو تضحية بالوطن لإنقـاذ

---

(١) تستعمل أحياناً كلمة تكامل Integration ويلاحظ أن هذه الكلمة مشتقة من Integer ومعناها العدد الصحيح أو الكمية الكاملة ، ولهذا نعتبر أن كلمة تكامل كلمة مناسبة . كذلك كلمة صحة وهى مصدر الصفة المشتقة من صحيح أى غير مقسم . فالصحة فيها معنى الوحدة وعدم الانقسام سواء أكان ذلك فى صحة الأجسام أم فى غيرها .

نفسه وأولاده . هـذه حالات واضحة يبدو فيها النزاع الداخلى النفسى . والواجب أن يكون المرء بحيث لا يقع فى نزاع نفسى ، أى أن يكون قادراً على الحسم فى مشاكله بناء على فكرة أو فلسفة معينة . فخلو المرء من النزاع وما يترتب عليه من توتر نفسى وتردد ، وقدرته على حسم النزاع حال وقوعه هو الشرط الأول للصحة النفسية . ويمكن الوصول إليه عن طريق فلسفة دينية أو اجتماعية أو خلقية أو غير ذلك من الاتجاهات المحدودة .

ووظيفة الحياة النفسية بمختلف عناصرها هى تكيف المرء لظروف بيئته الاجتماعية والمادية . وغايتها تحقيق حاجات الإنسان ، وهى تتحقق عادة بالتعامل مع البيئة . وهذه البيئة متغيرة ، وهذا التغير يثير مشاكل يقابلها الإنسان بحالات التفكير والانفعال ومختلف أنواع السلوك . ولكن التغيرات التى تحدث قد تكون شديدة لدرجة خارجة عن الحد الذى يقوى عقل الفرد على مقابلته والتكيف له . وهنا تنشأ الحالات المرضية .

لهذا كان لا بد من تعاون الوظائف النفسية المختلفة . ولا بد من تقويتها لمقاومة التغيرات العادية . وضرورى فوق ذلك أن يكون هناك شعور إيجابى بالسعادة والكفاية . وهذا الشعور هو فى العادة دليل الفرد على كونه فى حالة جيدة من حيث الصحة النفسية .

وهناك تعريف آخر لا يختلف فى جوهره عن التعريف السابق ، مؤداه أن الصحة النفسية هى الشرط أو مجموع الشروط اللازم توافرها حتى يتم التكيف بين المرء وبين نفسه وكذلك بينه وبين العالم الخارجى ، تكيفاً يؤدى إلى أقصى ما يمكن من الكفاية والسعادة لكل من الفرد والمجتمع الذى ينتمى إليه هذا الفرد .

وهذا التعريف لا يختلف — كما قلنا — فى جوهره عن التعريف السابق ، غير أنه يؤكد فكرة العلاقة بين الفرد وبيئته توكيداً أشد مما فى التعريف السابق . وهو فوق ذلك يتضمن ضرورة إيقاظ القدرات العقلية الطبيعية عند الإنسان ، واستغلالها

إلى أقصى حد مستطاع يؤدى إلى سعادة الفرد وسعادة غيره . وبهذا نصل إلى تطابق تام بين الغايات النهائية للتربية وغايات الصحة العقلية .

يتبين من كل ما تقدم أن الصحة النفسية ليست هى مجرد الخلو من المرض ، لأننا نلاحظ أن مجرد الخلو من المرض لا يحتم قدرة المرء على مواجهة الأزمات العادية . ولا يتبعه الشعور الإيجابى بالسعادة . ولا يمكننا كذلك أن نعتبر أن الصحة النفسية هى ما تترتب عليه الكفاية والسعادة الفردية . فالنتائج الفردية — إذا كانت هى الغاية الوحيدة — لا بد أن تصطدم مع رغبات الآخرين اصطداماً قد ينقصها أو يقضى عليها ، إلا إذا اعتبرنا أن شرط الكفاية والسعادة الاجتماعية داخل ضمناً لتحقيق النتائج الفردية . ومعنى هذا أن مراعاة التعامل الاجتماعى واجبة بحيث تؤدى مع تحقيقها الأهداف الاجتماعية إلى ضمان تحقيق الأهداف الفردية فى الوقت نفسه . كذلك لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هى مجرد العمل لسعادة المجتمع ، لأن هذا بدوره لا يحتم سعادة الفرد وكفايته . إلا إذا اعتبرنا أن النقص فى سعادة الأفراد وكفايتهم يترتب عليه حتما نقص فى السعادة والكفاية الاجتماعيتين .

ويعترض على فكرة السعادة والكفاية الاجتماعيتين ، والتكيف بين المرء وبين المجتمع بأن المجتمع نفسه ليس ـ دائماً ـ مجتمعاً صالحاً . فالتكيف الصحيح للمجتمع كثيراً ما يتطلب فى الوقت نفسه إعلاء للمجتمع ذاته أى أنه يتطلب ألا يقوم الأفراد بمجرد التلبية للمجتمع كما هو ، وإنما يحاولون أن يقوموا بأنصبتهم فى إحداث تغيير فى المجتمع ، ينقله إلى حالة أحسن مما هو فيها . وبهذا يمكن الوثوق من أن كلا من الأفراد والمجتمع يعمل على رقى نفسه ورقى الآخر رقياً مستمراً مطرداً .

لهذا كله لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هى الحالة التى تمكن الفرد من تقدير سلوكه وسلوك غيره على نفس المستوى الذى يقدره عليه بقية المجتمع . لأن معنى هذا كما قلنا أن موقفنا إزاء المجتمع سيصبح موقفاً سلبياً جامداً محافظاً لا موقفاً إيجابياً مجدداً مطرد التقدم . [١]

الشذوذ والصحة النفسية :

يعتقد بعض الناس أن الشذوذ واختلال الصحة النفسية أمر واحد ، ولكن إذا علمنا أن الشاذ هو ما خرج عن المألوف ، كان هناك تفريق بين الشخص العادى أو المتوسط ، والشخص الصحيح العقل . لنأخذ مثالا من الناحية الجسمية . فالشخص قد يكون عادياً فى طول قامته ، وقد يكون شاذاً من حيث قصره أو طوله . وكذلك يكون عادياً فى لون بشرته أو شاذاً بسبب شدة بياضه أو شدة سواده . ولكن هذه الأنواع من الشذوذ ليس معناها المرض . كذلك فى الناحية النفسية قد يكون الشخص عادياً فى ذكائه ، وقد يكون شاذاً عن العادى فى فرط ذكائه أو فرط غبائه . وهذه الأنواع من الشذوذ العقلى ليس معناها المرض أيضاً .

لهذا لا نعتبر أن الشذوذ مرادف لاختلال الصحة النفسية أو الجسمية . ولكن يلاحظ أن الشذوذ فى التكوين الجسمى أو التكوين العقلى يعرض صاحبه لصعوبة إحداث التكيف بينه وبين المجتمع . فالشخص العبقرى والشخص الضعيف العقل (القليل الذكاء) لكل منهما صعوباته فى التكيف . ولهذا يخلط الناس عادة بين العبقرية وما يصاحبها من نتائج ثانويه ، وبين ضعف العقل وما يتسبب عنه بطريق غير مباشر .

ولكن إذا أخذنا الوظائف النفسية المختلفة يمكن أن نتخذ الشذوذ فيها دليلا مبدئياً لفرض احتمال اعتلال الصحة النفسية ، على شرط ألا نقبل هذا الفرض إلا بناء على ما نجريه بعد ذلك من ملاحظات ودراسات . فإذا أخذنا الغضب مثلا ، فإننا نعلم أن كل شخص لا بد أن يغضب فى بعض الظروف . وأما الذى لا يغضب إطلاقاً أو الذى يغضب لأتفه الأسباب ، فإنه لا شك شاذ . ومن الجائز أن يكون عنه بعض الانحراف — القليل أو الكثير — فى الصحة النفسية . كذلك إذا أخذنا الشك ، فمعروف أن كل شخص عادى تثور شكوكه فى مناسبات معينة ، ولكن الذى

لا يستثار عنده الشك بحال من الأحوال ، أو الذى يقضى حياته معذباً بالشك دائماً ، فإنه أيضاً شاذ ، ويغلب كذلك أن يكون به بعض الاضطراب من ناحية الصحة النفسية . وهكذا ، إذا أخذنا مظاهر الحياة العقلية كلها ، من خوف ، وتدين ، ووحدة ، وكلام ، وميل جنسى ، وضحك ، ونوم ، وأكل ، وميل للظهور ، واتجاه للتملك ، وميل للمرح ، وشغف بالراحة ، وغير ذلك ، وجدنا أن لكل منها مظهراً عادياً ، ولها فى الوقت نفسه مظاهر شاذة ، يمكن أن تتخذ دليلا مبدئياً يرجح لدرجة ما وجود اختلال فى الصحة النفسية .

ولكن المقياس العلمى للصحة النفسية هو ـ كما قلنا ـ التوافق الداخلى المصحوب بحسن التكيف مع البيئة ، بحيث يؤدى إلى أقصى درجة ممكنة من الكفاية والسعادة . ولا بد لنا أن نستدرك أنه ولو أن الشذوذ ليس مرادفاً لاختلال الصحة النفسية بدرجاته المختلفة ، إلا أن العكس ليس صحيحاً . فالانحراف فى الصحة النفسية شذوذ . وعلى ذلك فالفرد قد يشذ عن العادى ـ أو ينحرف ـ بالنسبة لنفسه ، أى بالنسبة لما ينتظر منه ، وأحياناً ينحرف أيضاً عن العادى بالنسبة لغيره من الناس .

نسبية الصحة النفسية :

و إذا أخذنا الصحة النفسية واختلالها وجدنا أن الأمر فيها نسبى كما هو فى الشذوذ فكما أنه لا يوجد حد فاصل بين الشاذ والعادى ، كذلك لا يوجد حد فاصل بين الصحة النفسية والمرض النفسى . والصحة النفسية شبيهة فى ذلك بالصحة الجسمية ، فالتوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة يكاد لا يكون له وجود . ولكن درجة اختلال هذا التوافق هى التى تبرز حالة المرض عن حالة الصحة . كذلك التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة ـ عند فرد ما ـ أمر يكاد لا يكون له وجود . ودرجة اختلال التوافق هى التى تميز حالة الصحة عن غيرها .

ومن أركان الصحة النفسية التى أثبتناها ـ إلى جانب انعدام النزاع الداخلى ـ

نجاح التكيف مع البيئة ، ونجاح التكيف هـذا أمر نسبى كذلك . فليس هناك حد فاصل ندرك عنده الفرق بين حالتى تحقق التكيف مع البيئة ، وانعدام تحققه .

ونلاحظ أن التكيف مع البيئة نسبى من ناحية أخرى ، وهى الناحية المتوقفة على النمو . فالطفل الصغير يعتبر فى حالة صحية عادية ، إذا رضع ثدى أمه حتى سن الثانية من ولادته ، ولـكنه لا يعتبر كذلك إذا استمر يرضع إلى سن السادسة . كذلك الأنانية تعتبر حالة عادية من حيث الصحة النفسية فى الخمس السنوات الأولى ، ولـكنها لا تعتبر كذلك فى دور المراهقة . كذلك الميل الجنسى الناضج يعتبر عادياً بعد المراهقة ، وغير عادى إذا ظهر فى الطفولة وهكذا . . .

ميـدان الصحة النفسية

سبق أن أشرنا إلى أن علم الصحة النفسـية يبحث فى تكوين الأفراد ، وفى علاجهم وفى وقايتهم من العيوب السلوكية أو النفسية فى مراحل نموهم المختلفة . لهذا يتحتم علينا لدراسة هذا العلم أن ندرس الفرد فى أسرته ، وأثناء تعلمه بالمدرسة ، وأثناء اضطلاعه بعمله فى الحياة ، وكذلك ندرسه من حيث علاقاته بالمجتمع . وعلينا أن ندرس فى كل هذا مجموعة القوى التى تؤثر فيه ونتبين الحال التى يجب أن تكون عليها هذه القوى بحيث ينمو على أحسن نمط ممكن .

ولـكن من الأمور الثابتة ، أن هذا النوع من الدراسة ، يكون أقرب منالا إذا قمنا به عن طريق فحص مشكلات السلوك فى مراحل النمو المختلفة ، لأن درس هذه المشكلات يجعلنا نصل إلى كيفية ظهورها ، وأساليب معالجتها ، وطرق تجنب وقوعها وهذا بدوره يهدينا إلى درس العوامل المختلفة التى تؤثر عادة فى سلوك الفرد ، ومعرفة الطرق التى يعمل بها ، واستنباط أمثل الوسائل لضبط هـذه العوامل وتوجيهها لصالحه وخيره .

المراجع

Bannister: Psychology and Health.

Burnham: The Wholesome Personality.

Burnham: The Normal Mind. Ch. II.

Groves & Blanchard: Introduction to Mental Hygiene.

B. Hart: Psychology of Insanity.

Home and School Council of Great Britain:
Advances in Understanding the Child. Ch. I.

Howard: Mental Health.

Kirkpatrick: Mental Hygiene and Effective Living. Chapters I & II.

Ragsdale: Modern Psychology and Education. Ch XVI.

Rees: The Health of the Mind. Ch. I.

Shaffer: Psychology of Adjustment. Ch. XV.

Wallin: Personality Maladjustment.

White House Conference: The Handicapped Child. P. 271.

الفصل الثانى

الوراثة والبيئة

مقدمة :

عندما تعرض لنا مشكلة من مشكلات السلوك نجد أن كثيراً من الأفراد عندهم استعداد لتفسير المشكلة على أساس بسيط . فإذا ظهر على طفل سرعة الغضب ، أو ظهر عنده ميل إلى الكذب ، أو السرقة ، أو التخريب ، أو غير ذلك ، واتصلنا فى الوقت نفسه بشخص له بالطفل صلة وثيقة ، كوالده ، أو معلمه مثلا ، نجد أن هناك اتجاهاً لتقديم تفسير بسيط لسبب الحالة . ففى بعض الحالات يُقدم سبب جسمانى ، كالجوع أو البرد العادى ، أو اختلال فى إفراز بعض الغدد . وفى البعض الآخر يُقدم تفسير مبنى على الفكرة العامية عن الوراثة ، فيقال إن الولد قد أخذ الغضب أو السرقة بالوراثة عن أبيه ، أو أمه ، أو جده ، أو غير ذلك . ونلاحظ عادة أن الذى يقدم رأيه فى الحالة — إن كان ينسب ما بها من شذوذ إلى أصل وراثى — فإنه ينسبه عادة إلى الأصل البعيد عنه . ففى إحدى الحالات تقول الأم إن نوبات الغضب عند الابن راجعة إلى أن الأب عصبى . وأما الأب فإنه يقول إن ابنه عاق ، ويميل إلى معاشرة الأشرار ، لأن أخوال الولد كذلك . وإنه يخشى اليوم الذى يرى فيه ابنه قد تطور ووصل إلى ما عليه أخواله الآن من سكر وسرقة ومقامرة وغير ذلك .

ولمثل هذه التفسيرات البسيطة خطرها فى موقفنا إزاء الحالة ، فقيام الشخص المسئول — معلماً كان أو والداً أو غير ذلك — بنسبة الشذوذ أو السلوك المشكل إلى أصل وراثى دون الاستناد فى ذلك إلى الدراسة العلمية الكافية معناه أن يقوم الشخص

المسئول عن رعاية الحالة بإبعاد التبعة عن نفسه . وقد يتضمن كذلك أنه يعتبر الشذوذ أمراً حتمياً يجب الاستسلام له ، ولا تجدى محاولة علاجه بحال من الأحوال .

الآراء المختلفة فى الوراثة والبيئة

نرى مما تقدم أنه لا بد لنا من أن نتمكن من تقدير الأثر النسبى للوراثة والبيئة ، حتى يمكننا أن نضع خطة لمعالجة الحالات ، وتربية الأطفال على أساس دقيق . ولكن يلاحظ أن معلوماتنا عن الجزء المتعلق بتوارث الصفات الجسمية والخصائص الفسيولوجية قد تقدمت بدرجة محسوسة ، لأن الباحثين قد قطعوا أشواطاً بعيدة فى جمع الحقائق المتعلقة بها . ولأنهم لم يختلفوا كثيراً فى جوهر تفسيراتهم لها . أما الناحية التى تهمنا — أكثر من هذه — وهى المرتبطة بالحياة العقلية ، بما فيها من عادات ، وخلق ، وصفات شخصية ومستوى ثقافى ، ومهارة عقلية ، وكفاية اجتماعية ، وغير ذلك ، فما زال فيها بعض الخلاف . ولعل هذا يرجع إلى شدة مرونة الصفات العقلية ، وقابليتها للتأثر بالعوامل المحيطة ، وإلى تعدد العوامل التى تؤثر فيها ، وصعوبة تحديد هذه العوامل ، وصعوبة بيان الوزن الذى يمكن أن ينسب لكل عامل على حدة .

فعلماء الوراثة أمثال جولتون (Galton) وبيرسون (K. Pearson) يؤكدون أهمية الوراثة . وأما المصلحون الاجتماعيون فإنهم يؤكدون عادة أهمية البيئة . وكل من الفريقين ، ولو أنه على شىء من الصواب ، إلا أنه أيضاً على جانب من الخطأ لا يجوز إغفاله . فلم يكن بيرسون مصيباً تماماً عندما قال : « إن الناس يرثون عن آبائهم القدرة ، والخجل ، والمشاعر ، والحالات النفسية بالطريقة نفسها التى يرثون بها الشكل ، واللون ، وطول القامة ، وغير ذلك »[1] . كذلك « هنرى جورج » لم يصب كبد الحقيقة عندما ذكر أن العوامل الوراثية التى يبالغ الناس الآن فى أهميتها

(1) Quoted by D. Thom ; Everyday Problems of the Everyday Child p. 3& 4.

لا قيمة لأثرها إذا قورن بأثر العوامل التى تؤثر فى الإنسان ، من هذا العالم[١] .

ونجد أيضاً فى الدراسات المرتبطة بأصل الخلق مثلا خلافاً كبيراً بشأن أثر كل من الوراثة والبيئة فيه . فالذين يؤكدون الأصل الوراثى للخلق فيما يسمونه بالحاسة الخلقية (Moral Sense) هم بعض فلاسفة الأخلاق ، الذين يتكلمون عن هذه الحاسة كأنها ملكة توجد فى الشخص ، فتساعده على التمييز بالفطرة بين الخير والشر . ومن ممثلى هذا الرأى جون لوك (J. Locke) ولورد شافتسبرى (Shaftesbury) . ولكن أثبت المحدثون من علماء النفس الذين بحثوا فكرة الملكات بصورتها القديمة خطأ هذا الرأى . ورغم هذا فما زال قليل من الفلاسفة يؤكدون فكرة « الضمير الخلقى » الموجود بالفطرة ، وجعلوا هذه الفكرة محوراً لنظرياتهم فى علم الأخلاق .

وقد أثرت فكرة « الحاسة الخلقية » و « الضمير الخلقى » فى بعض علماء الطب العقلى فى انجلترا ، أمثال مودسلى ومرسير (Maudsley & Mercier) ، فكثير منهم يؤكد وجود نزعات إجرامية وراثية فى بعض الأفراد ، وقد تكلموا أحياناً عن بعض هذه النزعات الإجرامية باسم النقص الخلقى (Moral Defect) . وظل هذا الاصطلاح يكتسب قوة إلى أن احتل مكانا بارزاً فى صلب القانون الانجليزى[٢] . وهذا رغم قيام علماء النفس ببيان ما فيه من خطأ .

يتبين من هذا كله مدى الخلاف الموجود فى قيمة كل من العوامل الوراثية والعوامل البيئية من حيث أثرها فى السلوك .

المقصود بالوراثه والبيئة

* المقصود بالبيئة : جميع العوامل الخارجية التى تؤثر فى الشخص من بدء نموه ، والمقصود بالوراثة : جميع العوامل الموجودة فى الكائن الحى من اللحظة التى تتم فيها

(1) Quoted by D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child p. 3 & 4
(2) C. Burt: The Young Delinquent, Chapter II.

عملية تلقيح الخلية الأنثية بالخلية الذكرية". وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطاً فى شكل العصى اسمها الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosomes) ، وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها إلى مناطق متعددة ، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات (Genes) . وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هى حوامل الاستعدادات الوراثية . فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم ، وجينات بعضها من ناحية الأب . ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين . ولأجل أن تتكاثر الخلية وتنمو ، وتبدو فيها مظاهر الحياة ، لا بد لها من بيئة . والبيئة فى حالة الطفل الآدمى هى الموجودة فى داخل الرحم ، بما فيها من حرارة ، ورطوبة ، ووقاية ، وتغذية وغير ذلك . ولولا هذه البيئة واستيفاء شروط معينة متعددة فيها لما تمت عملية النمو". فكأن عوامل البيئة من الخارج وعوامل الوراثة من داخل الكائن الحى تعمل كلها معاً منذ اللحظة الأولى فى الحياة . ويستمر الكائن الحى ينمو ويتأثر بالظروف المحيطة به ، ثم يخرج من الرحم إلى العالم الذى يعيش فيه . وهنا أيضاً ينمو فى نواحيه المختلفة نمواً يتأثر بآلاف الظروف التى تحيط به". ويمكن أن يقال إن الفروق بين الأفراد ترجع إلى مجموعتين من العوامل : المجموعة الأولى وهى الاستعدادات الوراثية الكامنة فى الجينات ، والمجموعة الثانية هى مجموعة الظروف المحيطة بالفرد من تغذية ، وحرارة ، ومعاملة ، ووقاية وتعليم . . . وغير ذلك . ومن المستحيل الفصل — إلا نظرياً — بين هذه العوامل ، بحيث يظهر أثر كل مجموعة منها قائماً بذاته . فبالنسبة للحياة النباتية والحيوانية بمراتبهما المختلفة وصورها المتعددة نرى مظاهر هذه الحياة كمحصلة نهائية لهذه العوامل مجتمعة . فمن "هـذا نرى أن الوراثة والبيئة يعملان جنباً إلى جنب فى كل مظهر من مظاهر الحياة".

لهذا كان ضرورياً للوصول إلى القواعد العامة لأثر العوامل الوراثية والبيئية أن نلجأ إلى منهج خاص من مناهج البحث العلمى ، فنعمد إلى مساواة ظروف البيئة

ما أمكن ، فتكون الفروق الناتجة بين الأفراد فى مظاهر الحياة راجعة إلى فروق فى الوراثة . أو نعمل على التسوية بين العوامل الوراثية ، وبذا تكون الفروق البادية فى مظاهر الحياة راجعة إلى فروق بين آثار مختلف البيئات . وهذا المنهج على قدر ما يبدو فيه من بساطة إلا أنه عند محاولة تطبيقه تظهر أمامه صعوبات تستنفذ جهوداً كبيرة من أئمة الباحثين .

وقد كان لنتائج البحوث التى أجريت على أعداد كبيرة أثرها فى إنارة الطريق لنا فى أثناء دراسة الحالات الفردية .

بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة

(١) دراسة العظماء والموهوبين

للاستدلال على أثر الوراثة قام جولتون (Galton) بدراسة أقارب العظماء فى إنجلترا ، من القضاة إلى رجال السياسة ، إلى رؤساء الوزارات ، إلى البارزين من قادة الأدب ، والعلم ، والتصوير ، والموسيقى ، . . . إلى غير ذلك . وخلص من بحثه الطويل إلى أن للعظماء فى العادة أقارب عظماء من بين الآباء ، أو الأجداد ، أو الأبناء أو الأحفاد ، أو الأعمام ، أو ما شابه ذلك . ولكن يعاب على بحث جولتون أن عوامل البيئة وعوامل الوراثة فى حالاته التى درسها تكاد تعمل بدرجة واحدة . فالعظماء وأقاربهم متشابهون فى أصل السلالة ، أو يكادون يتحدون من حيث العوامل الوراثية . وهم متشابهون أيضاً فى أن البيئات التى يعيشون فيها — هم وأقاربهم — تكاد تكون عادة فوق المتوسط من حيث المؤثرات الثقافية وغيرها . وبذا لا يسهل الوصول إلى نتيجة حاسمة فى جانب الوراثة أو فى جانب البيئة .

وقد قام ترمان (Terman) حديثاً بدراسة أدق من هذه لأقارب ما يزيد على الألف من الأطفال الموهوبين ، ووازن نتائجه بمثلها على الأطفال غير الموهوبين ، ووصل إلى نتائج تدعم نتائج جولتون .

(٢) دراسة المجرمين وضعاف العقول

ومن الدراسات الكلاسيكية فى هذه الناحية دراسة أسرة الجوك (The Jukes)، وأسرتى الكاليكاك (The Kallikaks) أما أفراد أسرة الجوك فقد نشأ أجدادهم فى بقعة مرتفعة مغطاة بالغابات تبعد عن نيويورك بمائتى ميل تقريباً . وقد لفت أفراد هذه الأسرة — ومن يمت إليهم بصلة القرابة — نظر الباحثين بسبب كثرة الجرائم الصادرة منهم . فقام أحد الباحثين بتتبع أفراد هذه الأسرة ، ودرس منها تسع طبقات من الأجيال تحوى ما يقرب من ثلاثة آلاف فرد . ووجد أن نسبة الإجرام فيها ٣٤٪ ورغم كبر هذه النسبة استنتج الباحثون — ومنهم جولتون — أن الجريمة ليست متأصلة فى نفوس أفراد هذه الأسرة . ولكن ما حدث — فى رأيهم — هو أن طبيعة هؤلاء الناس لم تلائمها مدنية أمريكا ، لا سيما أنهم احتفظوا بطريقة الغجر فى معيشتهم (Gypsy Life) بالقرب من مدنية أخرى مخالفة لأسلوب نشأتهم ، ولكن بتفريق هؤلاء الناس ، وإدماجهم فى المدنية الأمريكية ، وبحسن توجيههم ، زالت اتجاهاتهم الإجرامية ، مما يدعم الفكرة التى تنفى أن أصل الجرائم وراثى .

وأما أسرتا كاليكاك ، فقصتهما أن جندياً يدعى مارتن كاليكاك كان قد أنجب طفلا غير شرعى من فتاة ضعيفة العقل ، وأمكن تتبع ٤٨٠ فرداً من ذرارى هذه البنت فى أجيال متعاقبة ، ووجد أن من بينهم ٦٤ شخصاً فقط يمكن اعتبارهم عاديين ، وأما الباقون فبينهم حالات الصرع ، والإجرام ، والبغاء ، والإدمان على الخمر . وضعف العقل ، . . . وغير ذلك . وبعد مدة من الزمن كان مارتن كاليكاك قد تزوج بفتاة عادية من أسرة طيبة . وأمكن تتبع ٤٩٦ فرداً من ذرارى هذه السيدة فى طبقات الأجيال المتعاقبة . فكأن لدينا مجموعتين من الأفراد تختلفان اختلافاً واضحاً فى الأصل الوراثى من ناحية الأم ، وعلى ذلك يمكن موازنتهما بعضهما ببعض . وقد وجد بين أفراد المجموعة الثانية أن عدد العاديين ٤٩١ فرداً ، نجح كثير منهم فى الحياة نجاحاً

ظاهراً . أما الخمسة الباقون فمنهم حالة ضعف عقلى واحدة ، وحالة استهتار جنسى ، وحالتا إدمان على الخمر ، وحالة جنون التدين [١] .

يتبين من دراسة الأسرة الأولى والأسرتين الثانيتين أن كلا من الوراثة والبيئة له وزنه الظاهر فى إحداث حالات الإجرام والضعف العقلى ، ولو أن علاقة الوراثة بكل من الإجرام والضعف العقلى تحتاج إلى دراسة مستفيضة .

(٣) دراسة التوائم

وقد قام الباحثون بدراسات متعددة على التوائم بحكم أنهم متحدون — عادة — فى الوراثة ، ولكن النتائج التى أدى إليها البحث ، وهى شدة اتفاق التوائم فى الصفات العقلية المختلفة يعترض على الأخذ بها والتصديق بكمال صحتها ، لأن التوائم متفقون أيضاً فى البيئة منذ النشأة الأولى — داخل الرحم . فأى تشابه يعزوه أحد الباحثين إلى الوراثة ، يمكن أن يعزوه آخر للبيئة .

وقد فرق الباحثون فى دراستهم بين نوعين من التوائم : وهما التوائم المتحدة أى الناشئة من تلقيح بويضة أنثية واحدة ثم انقسامها إلى أكثر من جنين واحد والتوائم المختلفة ، وهى الناشئة من تلقيح أكثر من بويضة أنثية واحدة . وظاهر أن التوائم المتحدة تكون متفقة تماماً من حيث جيناتها (Genes) أى حملة الاستعدادات الوراثية فيها .

وقام هولزنجر (Holzinger) [٢] بإيجاد درجة التشابه (بحساب معامل الارتباط) [٣] للصفات الجسمية (الطول والوزن . . . الخ) ، والصفات العقلية (الذكاء

---

(1) Goddard ; The Kallikak Family.

(2) K. Holzinger ; The Relative Effect of Nature and Nurture Influences on Twin Differences ; Journal of Educational Psychology, Vol. 20.

(٣) راجع مبادىء الإحصاء الجزء الأول للدكتور عبد المنعم ناصر الشافعى ، وقياس الذكاء للأستاذ إسماعيل القبانى بك — ص ١٨٠ .

والتحصيل الدراسى . . . الخ) ، والصفات الخلقية (قوة الضبط والاندفاع فى تنفيذ الرغبة . . . الخ) فى مجموعة التوائم المتحدة فوصل إلى النتائج الآتية :

الصفات	متوسط معامل الارتباط للتوائم المتحدة(١)	متوسط معامل الارتباط للتوائم المختلفة	الفرق
جسمية	٠ر٩٤	٠ر٥٨	٠ر٣٦
عقلية	٠ر٨٨	٠ر٦٤	٠ر٢٤
خلقية	٠ر٤٧	٠ر٤٥	٠ر٠٢

وتدل هذه الأرقام على أن الفرق بين مجموعتى التوائم يرجع بعضه إلى الوراثة ، وتدل كذلك على أن الصفات العقلية أكثر خضوعا لآثار البيئة من الصفات الجسمية ، وأن الصفات الخلقية أكثر من كل من الجسمية والعقلية قابلية للتأثر بالبيئة .

وقد قام بعض الباحثين بالفصل بين التوائم بعد الولادة ، ووضعهم فى بيئات مختلفة من حيث المعاملة ، والتعليم ، والمستوى الاقتصادى ، وغير ذلك . وجاءت النتائج كلها معززة للنتيجة السابقة : وهى ثبات التشابه الجسمى والعقلى بدرجة كبيرة وتغير نسبى فى الناحية الخلقية . ويمكن أن يقال إن التشابه العقلى يبدو فيه الثبات بدرجة كبيرة ولكن غير تامة ، لأن كثيراً من البحوث(٢) التى أجريت فى أمريكا أثبتت أن التوأم الذى يعيش فى بيئة حسنة يتفوق قليلا فى الذكاء على زميله الذى يعيش فى بيئة رديئة . هذا قد يكون صحيحاً ، وقد يرد عليه بأن تفوق الذكاء فى البيئة الطيبة قد لا يكون هو الذكاء الطبيعى ، وإنما الذكاء كما تقيسه اختبارات الذكاء . وهناك فرق بين الإثنين لا مجال للتوسع فيه هنا .

---

(١) لحساب معامل الارتباط نفرض أن التوائم هم (س ١ ، ص ١) ، (س ٢ ، ص ٢) ، . . . ونفرض أن نتائج قياسهم فى صفة معينة كالطول هى (ا س ١ ، ا ص ١) ، (ا س ٢ ، ا ص ٢) ، . . . فى هذه الحالة نحسب معامل الارتباط بين ا س ١ ، ا س ٢ ، ا س ٣ ، . . وبين ا ص ١ ، ا ص ٢ ، ا ص ٣ ، . .

(2) F. S. Freeman. Individual Differences.

الوراثة والصفات العقلية والخلقية

ويهمنا أن نعرف ما يولد به الإنسان موروثاً ، وما يكتسبه من البيئة من الصفات العقلية والخلقية ، والذى نعرفه إلى الآن أن الإنسان يرث الذكاء عن والديه ، ويرث كذلك ما يمكن أن نسميه المزاج أو الطبع . ويعتقد علماء النفس أن هاتين الناحيتين تخضعان لقوانين الوراثة المعروفة .

الذكاء والوراثة

عملت عدة دراسات لمحاولة معرفة المدى الذى يورث به الذكاء ، وأولى هذه المحاولات كانت محاولات جولتون التى أشرنا إليها فى دراسة النوابغ ، وجودارد لدراسة أسرتى كاليكاك . ولكن من أدق ما عمل فى هذه الناحية ، هو ما عنى بدراسة التوائم . وقد قام جولتون نفسه بدراسة التوائم بطريقة الاستفتاءات . ثم جاء ثورنديك[1] وأخذ خمسين زوجاً من التوائم ، وطبق عليهم عدة مقاييس ، بعضها لصفات جسمية ، وبعضها لصفات عقلية ، وقد وضع ثورنديك مشكلته بالصورة الآتية : —

إذا كان الشبه بين التوائم يرجع للوراثة أكثر مما يرجع للبيئة فإن درجة التشابه (وتتبين من معامل الارتباط) فى سن مبكرة تكون أكبر منها فى سن متأخرة . ودرجة التشابه بين التوائم تكون أكبر منها بين الأخوة .

وإذا كان العامل المهم هو عامل البيئة فلا بد أن درجة التشابه بين التوائم فى سن متأخرة تكون أكبر منها فى سن مبكرة لطول مدة اتحادهم فى بيئة واحدة . وكذلك درجة التشابه بين الأخوة تكون مساوية لها بين التوائم .

وباستعمال الاختبارات العقلية وحساب معامل الارتباط وصل إلى النتائج الآتية : —

(1) Thorndike : Educational Psychology Vol. III, 1914, pp. 247—251.

متوسط معامل الارتباط للتوائم = ٠ر٧٨

متوسط معامل الارتباط للأخوة = ٠ر٣٠

متوسط معامل الارتباط للتوائم الصغار = ٠ر٨٣

متوسط معامل الارتباط للتوائم الكبار = ٠ر٧٠

وقد أجريت عدة تجارب شبيهة بالسابقة نلخص منها نتائج التجارب التى قام بها وجفيلد[١] وزملاؤه ، وقصدوا إيجاد درجة الاختلاف فى الذكاء باختلاف القرابة . ووصلوا إلى النتائج الآتية : —

معامل الارتباط فى الذكاء بين التوائم المتحدة الأصل والجنس (Sex) = ٠ر٩٠

معامل الارتباط بين التوائم المختلفة لكنها متحدة الجنس = ٠ر٨٢

معامل الارتباط بين التوائم المختلفة ومختلفة الجنس = ٠ر٥٩

معامل الارتباط بين الأخوة = ٠ر٥٠

معامل الارتباط بين أبناء العم = ٠ر٢٧

معامل الارتباط بين من لا قرابة بينهم = ٠٠٠

تدل كل هذه البحوث على أن الذكاء يورث ، وأن أثر البيئة فى تغييره قليل ، بدليل أن الأخوة يعيشون معاً فى بيت واحد ، ولكن درجة التشابه بينهم أقل كثيراً منها بين التوائم . وزيادة على ما تقدم فقد ثبت أن التوائم المتحدين يتساوون إلى درجة كبيرة فى ذكائهم فى مراحل العمر المختلفة حتى ولو غيرت بيئاتهم تغييراً واضحاً[٢] .

ولبحث وراثة الذكاء درس الكثيرون العلاقة بين ذكاء الآباء وذكاء الأبناء بأساليب مختلفة ، أهمها إيجاد العلاقة بين ذكاء الأطفال ومهن الآباء . وقد وجد الباحثون من هذا الاتجاه الأخير أن أبناء المشتغلين بأعمال فنية أو إدارية أذكى فى

---

(1) Wingfield quoted by R. Knight : Intelligence and Intelligence Testing p 71.

(2) Hirsch : Identical Twins Reared Apart : Readings in Psychology : edited by Skinner p. 205.

مجموعهم من أبناء المشتغلين بأعمال بسيطة أو يدوية أو آلية[١]،[٢] فلو رجحنا أن الآباء المشتغلين بالأعمال الفنية والإدارية يكونون فى العادة أذكى من الآباء المشتغلين بأعمال آلية أمكننا أن نستنتج أن أبناء الأذكياء يكونون غالباً أذكياء .

ووقوفنا على وراثة الذكاء أمر مهم ، لأن الذكاء عامل أساسى فى التكيف بين الشخص و بين المحيط المادى والاجتماعى . وسنجد أن كثيراً من المشكلات ترتبط ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بمقدار الذكاء . فمقدرتنا على قياس الذكاء تجعلنا قادرين على توجيه الفرد توجيهاً له قيمة كبيرة فى جميع المشكلات التى يكون فيها مقدار الذكاء عاملا أساسياً .

الخلق والوراثة

وهناك عامل آخر يؤثر فى سلوك الإنسان وفى مقدرته على تكييف نفسه للبيئة وهو الخلق . ويلاحظ أن الخلق نفسه نتيجة لتفاعل الفرد مع بيئته ، وهو بدوره يحدد إلى درجة ما — الصورة التى يحدث بها تكيف المرء لبيئته بعد ذلك . ويمكن أن يقال إن الخلق هو سلوك الإنسان فى مجموعه ، وتدخل فى تحديده عوامل وراثية من أنواع مختلفة . وللخلق أساسان وراثيان مهمان غير الذكاء ، وهما الغرائز والمزاج .

فالغرائز يعتبرها البعض أمثال مكدوجل[٣] وبرت[٤] أنها وحدات وراثية . فالإنسان يرث غرائزه بدرجات متفاوتة فى الشدة . لهذا نجد فى بعض الأحيان تشابهاً بين جرائم الآباء والأبناء خصوصاً فى جرائم السرقة وترتبط بغريزة التملك ، والجرائم الاعتدائية وترتبط بغريزة المقاتلة ، والهرب وترتبط بغريزة التجول . . . إلى غير ذلك .

---

(١) C. Burt : Mental & Scholastic Tests pp. 190—192.

(٢) قياس الذكاء فى المدارس الابتدائية بالقاهرة للأستاذ إسماعيل محمود القبانى بك من ص ٨٨ ــ ٩٥

(3) Mc Dougall : An Outline of Psychology p. 104.

(4) C. Burt: The young Delinquent p. 58.

ولكن إذا كان الإنسان يرث غرائزه بقوة معينة فإن توجيه الغرائز نحو الخير أو الشر مرتبط بالتعليم والبيئة . "فكأن أساس الخلق وراثى ، ولكن اتجاه الخلق فى الطريق المقبول أو غير المقبول متوقف على البيئة ."

"وأما المزاج فهو مجموع الخصائص الفسيولوجية المؤثرة فى الخلق . وهذه الخصائص ناتجة من مجموع إفرازات الغدد ، ومما بالدورة الدموية من خصائص ومركبات ، ومن المميزات الطبيعية للمجموع العصبى نفسه . وهذه الصفات المزاجية التى تلوّن خلق الإنسان لها أساس جسمانى تتحكم فيه الوراثة إلى حد بعيد"(١) .

ويلاحظ أن الغرائز أو الصفات المزاجية تساعد فى حالة التطرف على عدم حدوث التكيف السوى بسهولة بين المرء وبين بيئته المادية والاجتماعية . ولكن ليس معنى هذا أن التطرف فى شدة الغرائز أو الصفات المزاجية يحتم حسن السلوك ، أو سوء السلوك . فهذا بالذات متوقف على التوجيه والتعليم كما أوضحنا .

صعوبات البحث فى الوراثة والبيئة

٤ رغم ما تقدم فإنه ليس من السهل — عادة — فى دراسة الحالات أن ننسب السلوك إلى الوراثة أو إلى البيئة ، فإذا أخذنا مثلا سرعة الغضب ، أو الجبن ، أو عدم الاستقرار ، أو غير ذلك ، فإنه ربما كانت الصفة الخلقية راجعة فى أساسها إلى صفة وراثية مزاجية . وربما كانت قد انتقلت إلى الطفل من الكبار المحيطين به . فمن طريق المحاكاة غير المقصودة بأنواعها المختلفة من تأثر بالإيحاء ، والمشاركة الوجدانية ، والتقليد ، تنتقل الآراء ، والانفعالات ، وأنواع السلوك ، من فرد إلى فرد ، ومن الآباء بنوع خاص إلى الأطفال .٦

كذلك معاملة الآباء للأبناء تختلف من طفل إلى طفل اختلافاً كبيراً ، وتبعاً

(١) Hadfield : Psychology and Morals ch. II.

لاختلاف المعاملة تتأثر شخصيات الأطفال الأخوة ، بينما يكون المعتقد أنهم جميعاً عاشوا فى بيئة واحدة والواقع أنهم فى بيئات مختلفة من حيث المعاملة .

وحتى إذا اتحدت المعاملة — ظاهرياً — من جانب الأب والأم ، فإن موضع الطفل فى أسرته له فى الطفل أثر واضح ، فكون الطفل هو الأول ، أو الثانى ، أو الأخير ، أو كونه الطفل الوحيد ، أو الذكر الوحيد ، أو الأنثى الوحيدة ، أو مجيئه بعد عدة وفيات ، أو مجىء عدة وفيات بعده ، أو سرعة تتابع الأطفال فى الولادة ، أو بعد المسافة الزمنية بين طفل وآخر ، كل هذا يجعل من المستحيل اعتبار طفلين فى أسرة واحدة خاضعين لظروف بيئية متفقة تمام الاتفاق .

كذلك التغير فى المستوى الاقتصادى للأسرة ، والتغير فى سن الوالدين بالنسبة للأطفال المختلفين ، كل هذه توجد عوامل بيئية مختلفة بالنسبة لأطفال الأسرة الواحدة .

لهذا كان من الصعب الفصل بين أثر الوراثة وأثر البيئة للأسباب المتقدمة ونلخصها فيما يأتى : —

(١) تعمل البيئة منذ اللحظة الأولى التى تعمل فيها الوراثة ، ولا يمكن أن يظهر أثر الوراثة إلا فى البيئة . فمظاهر الحياة فى أى لحظة هى محصلة مجموعتى عوامل الوراثة وعوامل البيئة .

(٢) عوامل المحاكاة والمعاملة تغطى آثار الوراثة ، بحيث يصبح من الصعب الفصل بين أثر الوراثة ، وأثر المعاملة والمحاكاة ، وهذان من عوامل البيئة .

(٣) البيئة بأوسع معانيها لا تتحد بالنسبة لشخصين بحال من الأحوال . فمجرد اختلاف المعاملة ، واختلاف ترتيب الولادة . . وغير ذلك يجعل اتحاد البيئة بالنسبة لشخصين أمراً مستحيلا .

الوراثة والتربيـة

علمنا أن الـكائن الحى عنده — عن طريق الوراثة — استعدادات تظهرها وتنميها البيئة ، وعلمنا أن أى مظهر من مظـاهر الحياة ما هو إلا نتيجة مجموعتين من العوامل ، وهما الوراثة والبيئة . ومن الجائز أن تكون البيئة بحيث لا يظهر فيها أثر العوامل الوراثية فى أبعد مدى ممكن لها . فإذا زرعنا نوعاً جيداً من النبات فى بيئة غير ملائمة ، فإن الناتج لا يكون بالجودة المنتظرة من هذا النوع . ولـكن إذا تحسنت الظروف المحيطة به فإن النتيجة تكون أحسن ، وإذا هيأنا أحسن ظروف ممكنة فإننا نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها فى حدود نوع النبات ، أى فى حدود استعداده الوراثى . ولا يمكن مهما ارتقينا بظروف البيئة بعد ذلك أن نتعدى الحدود التى وضعتها الوراثة .

ففى حالة ولدين نسبة ذكاء[1] أحدهما ٨٠ ونسبة ذكاء الآخر ١٢٠ نستطيع أن نضع الثانى فى بيئة تسمح له بأحسن نمو ممكن فى حدود ذكائه ، ولا يمكن أن نتعدى هذه الحدود . ويمكن بالطبع إهمال تعليمه وإساءة معاملته ، ووضعه فى ظروف لا تسمح باستغلال كل ما عنده من ذكاء . كذلك الولد الأول يمكن توجيهه ، وإنماؤه فى حدود نسبة ذكائه المنخفضـة وهى ٨٠ ، ولـكن لا يمكن مهما أدخلنا من التحسينات على ظروف بيئته وعلى تعليمه أن نتعدى النتيجة التى يؤهلها لها ذكاؤه المنخفض .

من هـذا نخلص إلى أن البيئة المثالية للفرد هى البيئة التى تهيىء للوصول

---

(١) نسبة الذكاء هى النسبـة بين العمر العقلى والعمر الزمنى مضروبة فى ١٠٠ فالشخص الذى عمره الزمنى ١٠ سنوات وعمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى عمره ٨ سنوات يكون عمره العقلى ٨ سنوات . وبذلك تكون نسبة ذكائه ٨٠ وأما الشخص المتوسط الذكاء أى الذى عمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى من سنه ، فإن نسبة ذكائه تكون ١٠٠ لأن عمره العقلى يكون مساوياً لعمره الزمنى .

إلى أحسن نمو ممكن فى الحدود التى وضعتها العوامل الوراثية . فالتغذية والرياضة البدنية وما إليهما لا تخلق من الأقزام مثلا عمالقة . والعناية التعليمية ، والدروس الخصوصية ، وحبك النظم ، لا يخلق من ضعاف العقول مثلا عباقرة ولا عاديين . و إنما يمكن أن نهيىء البيئة بعواملها المختلفة بحيث نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها حسب الاستعداد الوراثى .[١٥]

النتيجـة

"علينا إذن فى دراستنا للأفراد أن نضع نصب أعيننا الفروق الوراثية من ذكاء ، ومزاج وتكوين جسمى ، وما شابه ذلك . وعلينا كذلك أن ندرس الظروف المختلفة المتعددة التى عاشوا فيها ، وهـذه الدراسـة تفيدنا فى التشخيص كما تفيدنا فى التوجيه والعلاج ."[١٦]

المراجع

C. Burt : The Young Delinquent. Ch. II.
Freeman : Individual Differences. Ch. III & IV.
Goddard : The Kallikak Family.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
O. Macguinnes : Environment and Heredity.
Murchison : Handbook of Social Psychology.
Murphy : Experimental Social Psychology.
Sandiford : Educational Psychology. Ch. I.
E. Schuster : Eugenics.
Spearman : Abilities of Man. Ch. XXII.
Starch : Educational Psychology. Ch. VI.
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child Ch. I.
Thomson : Instinct, Intelligence and Character. Ch. II.
Thorndike : Educational Psychology. Vol. III.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الثالث

الجسم والعقل
وأثر كل منهما فى الآخر

مقدمة :

ذكرنا فى بداية الفصل السابق أن الناس فى غالب الأحيان عندهم ميل لأن ينسبوا حالة الشذوذ فى السلوك إلى سبب بسيط واحد كالوراثة ، أو الرفاق ، أو المرض الجسمانى أو غير ذلك . والمرض الجسمانى أو الحالة الجسمية على وجه العموم تحتل مكاناً بارزاً عند الناس فى هذه الناحية . فحالات الخمول أو القلق أو انعدام القدرة على التركيز أو ضعف الهمة كثيراً ما تنسب — بشىء من التسرع — إما إلى سوء التغذية ، أو تعاطى المكيفات ، أو إلى إمساك ، أو إلى خراج ، أو إلى غير ذلك . وهذا النوع من التفسير قد يكون له نصيب من الصحة فى بعض الحالات . ولكن فى البعض الآخر قد تزال جميع العوامل الجسمية المحتملة دون حدوث أى تحسن .

لهذا كان ضرورياً أن ندرس ما بين الحياة الجسمانية والحياة العقلية من رابطة . وليس معنى هذا أننا ننوى أن نبحث كنه العلاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية فهذا بحث تحطمت أمامه جهود أئمة الباحثين[1] ، لا سيما ديكارت ومن أتى بعده ، ولم يصلوا فيه إلى الآن إلى نتيجة مرضية . ولكن الذى نقصد إليه هو أن نبين أن هناك علاقة ، وأن نتبين على قدر الإمكان مدى هذه العلاقة ، حتى يمكننا أن نستفيد من هذا فى تشخيص بعض الحالات وفى محاولة معالجتها .

---

(١) يمكن الاطلاع على بحث واف يلخص هذه الجهود فى أحد الكتب الآتية : —

Mc Dougall : Body and Mind.
C. Fox : The Mind and Its Body.
Aveling : Personality and Will.
Joad : The Workings of the Mind
Bode : How we learn.

التطور فى الجسم والعقـل

"ولعل أقوى ما يلفت النظر فى ميدان العلاقة بين الجسم والعقل ما نجـده بين التطور الجسمى والتطور العقلى من موازاة ، فنجد أن التطور الجسمى يسير جنباً إلى جنب مع التطور العقلى . ففى التطور العضوى والجسمانى نلاحظ أن الـكائنات الحية تترقى من الدنيئة ذات الخلية الواحدة إلى المتعددة الخلايا ، ثم نجد — كلما ارتقينا فى سلم التطور — تنوعاً وتعدداً فى أعضاء الـكائن الحى". وهذا التنوع والتعدد يتبعه تخصص فى الوظائف . فإذا انتقلنا من ذوات الخلية الواحدة تدريجياً إلى الأسماك ، ثم إلى الزواحف ، ثم إلى الطيور ، ثم إلى الثدييات بدرجاتها المختلفة التى تنتهى بالقردة ثم الإنسان ، نجد أن هناك تطوراً جسمياً يصاحبه عادة تطور عقلى يبدأ بالبسيط وينتهى بالمركب أو الراقى . معنى هذا أن الـكائنات الحية البسيطة نجد لها حياة عقلية بسيطة ، وبالتدرج إلى الـكائنات الحية الراقية نجد أن لهذه حيـاة عقلية راقية .

" ويلاحظ أن مظهراً هاماً من مظاهر التطور الجسمى ما ثبت وجوده فى المجموع العصبى من ترق تدريجى من البسيط إلى المركب فى مراحل التطور المختلفة . وقد استنتج البعض بسبب هذا التوازى والتناظر أن الحياة العقلية وظيفة للمجموع العصبى فإذا كان المجموع العصبى بسيطاً كانت الحياة العقلية بسيطة ، وإن كان المجموع العصبى مركباً كانت الحياة العقلية مركبة . أى أن الحياة العقلية فى نظر هؤلاء نتيجة مباشرة للمجموع العصبى ، أى أنها نتيجة مباشرة للجسم " ولـكن ليس هناك من المبررات العلمية ما يكفى لقبول هذه العلاقة البسيطة ، مع تسليمنا بأن هناك نوعا من العلاقة على أى حال .

الجسم والعقل فى عمليات الإدراك الحسى

" ويبدو وجود العلاقة واضحاً بين الحياة الجسمية والحياة العقلية أيضاً فى الإدراك الحسى الذى هو الخطوة الأولى اللازمة لبقية العمليات العقلية الإدراكية الأخرى. ففى الإدراك الحسى تتأثر الأطراف العصبية والحاسة بمؤثر معين ، سواء أكان هذا المؤثر تموجات حرارية ، أم ضوئية ، أم ضغطاً ، أم غير ذلك ، ثم ينتقل هذا التأثير بواسطة الألياف العصبية إلى مركز من مراكز المخ ، وهنا تنتهى مجموعة عمليات ميكانيكية وفسيولوجية سابقة وضرورية لعملية الإدراك الحسى . ثم تبدأ عملية عقلية صرفة هى عملية الإدراك الحسى نفسها." فلأجل أن تتم عملية الإدراك الحسى — وهى كما ذكر عملية عقلية صرفة — لا بد من تعاون ظواهر بعضها جسمية و بعضها عقلية ." أما كنه العلاقات بين الحوادث العقلية والجسمية فى عملية الإدراك الحسى فإنه أمر نجهله الآن جهلا تاما ."

الانفعالات

" ووجود العلاقات بين الجسم والعقل يبدو جلياً كذلك فى الحالات الانفعالية . فكل حالة من هذه كالخوف ، أو الغضب ، أو التقزز ، يمكن تحليلها إلى عناصر ثلاثة ، ففى حالة الخوف مثلا نجد ما يأتى :

(ا) إحساسات و إدراكات صادرة من الموقف أو الموضوع المسبب للخوف .

(ب) الشعور النفسى الخاص المعروف بالخوف .

(حـ) حالة نزوعية ترمى للتخلص من الموضوع أو الموقف المسبب للخوف .

و إلى جانب هذا توجد تغييرات فسيولوجية مصاحبة للانفعال ، و يوجد إدراك لبعض هذه التغييرات . "

فلدينا إذن فى الحالة الانفعالية التى نحن بصددها نواح إدراكية تسبقها وتصحبها. وكذلك توجد تغيرات جسمية نشعر ببعضها ، كجفاف اللعاب وسرعة دقات القلب وسرعة التنفس ، وكثير من مثل هذه التغيرات يمر دون أن نشعر به إطلاقاً .

ولدينا كذلك الحالة النزوعية التى تتلخص فى الرغبة فى الخلاص من الموقف أو الموضوع بطريقة ما . وهى فى العادة طريقة الهرب .

ومن التجارب التى أجراها كانون[1] (Cannon) لملاحظة ما يصحب الانفعال من تغيرات ، أنه فحص بأشعة « إكس » قطة بعد أن تناولت غذاءها ، فرأى أن المعدة تقوم بحركتها المنتظمة فى عملية الهضم . ثم أظهر أمام القطة كلباً كبير الحجم ، فلاحظ كانون أنه بعد إدراك القطة للكلب ، ظهرت عليها علامات الخوف المعروفة ، ولاحظ فى الوقت نفسه أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة . ووصل بملاحظاته الإكلينيكية إلى أن الأوعية الدموية انقبضت فى المعدة ، واتسعت فى أطراف الجسم ، وأن ضغط الدم قد زاد زيادة كبيرة فى هذه الأطراف ، وأن تغيرات عدة طرأت على إفرازات الغدد مما أدى إلى أن يزيد العرق ويقل اللعاب ، ويزيد الأدرنالين الذى يساعد على رفع نشاط الجسم كله إلى درجة كبيرة . فمن وظائف الأدرنالين مثلا مساعدة الكبد على إخراج السكر المخزون إلى الدم ، وهذا السكر يحترق أثناء نشاط الكائن الحى ، فيمد بالطاقة والقدرة على الاستمرار فى نشاطه .

" وقد أثارت التغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال نقاشاً وبحوثاً كثيرة ، منها النظرية المشهورة لجيمس ولانج[2] التى أشارت بأن الحالة الانفعالية هى الإحساس بالتغيرات الفسيولوجية . ولكن الأدلة التى قدمها كانون وأمثاله ترجح أن الانفعال حالة تنشأ فى شعور الكائن الحى بعد إدراكه نفسه فى مجال معين . وترجح كذلك أن التغيرات الفسيولوجية تتبع ذلك مباشرة ، ووظيفتها على حسب رأى مكدوجل[3] أنها

(1) Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.
(2) James : Principles of Psychology vol II.
(3) Mc Dougall : An outline of Psychology Ch. XI.

تساعد الفعل الغريزى ليتم على أكمل وجه ممكن. فإذا ما أثيرت غريزة الهرب، فإن غرض الغريزة يتحقق بسرعة الهرب. ولأجل أن يتم ذلك على أكمل وجه ممكن، فإن الأعضاء الداخلية تتكيف لتساعد هذه العملية وهى عملية الهرب، فيسرع القلب فى عمله ليوزع الدم على أجزاء الجسم، وتسرع الرئتان فى عملهما لأخذ الهواء النقى وطرد الفاسد، حتى تتم عملية الاحتراق بسرعة. ويتوزع الدم بحيث يترك المعدة والأمعاء إذ يمكن لهاتين أن تكفا عن عملهما بعضه أو كله فى هذه اللحظة، وذلك لأن الجسم فى حاجة إلى كل مابه من نشاط[١] ويتوزع الدم أيضاً بحيث ينتشر فى المخ وفى العضلات الكبيرة التى تساعد الفرد على الهرب. كذلك تقوم الغدد فوق الكلوية (الكظرية) بزيادة إفراز الادرنالين الذى ينشط العضلات كلها بما فيها عضلات القلب. وعن طريق غير مباشر ينشط العضلات الكبيرة للأيدى والأرجل وبذلك تتمكن هذه العضلات من مواصلة النشاط الذى يساعد على إتمام الفعل الغريزى. كذلك يأخذ الدم من الكبد كمية من السكر المختزن به بعد تحويله بحيث يصبح سهل الاحتراق. وبذلك تكسب العضلات نشاطاً كبيراً يساعدها فى أداء عملها.

وهذا الرأى الذى قال به مكدوجل عن وظيفة التغيرات الفسيولوچية المصاحبة للانفعال يتفق كثيراً مع رأى كانون (Cannon)[٢] ورأى داروين (Darwin)[٣] الذى يسمى هذه التغيرات بالأفعال المساعدة المصاحبة (Serviceable Associated Actions).

"يدلنا ماذكرناه هنا عن الانفعال على أن الحالات الانفعالية وهى حالات نفسية صرفة يصحبها ويتبعها مباشرة تغيرات فسيولوچية ضرورية للحالة النفسية. أى أن هناك علاقة قوية بين الحالات النفسية والجسمية عند حدوث الشعور الانفعالى، ولو أننا لانعلم على وجه التحقيق كنه هذه العلاقة."

(١) عمليات الاستثارة والكف المصاحبة للانفعال يقوم بها المجموع السمبتاوى The Sympathetic Nervous System والباراسمبتاوى The Parasympathetic واستثارة أحد المجموعين إلى درجة كبيرة يتطلب كف الآخر.

(٢) Cannon : Bodily Changes in Pain., Hunger, Fear and Rage.

(٣) Darwin : The Expression of Emotions in Man and Animals.

أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها

وهناك سلسلة طويلة من المحاولات بذلت لفهم اتجاه العلاقة بين الجسم والعقل، بحيث يمكن فهم الحياة العقلية من معرفة حالة الحياة الجسمية. فمنذ ألفى عام تقريباً قام حكيم من حكماء الإغريق وهو جالينوس بوضع نظرية الأمزجة. وكان قد سبقه أبقراط فى ذكر أمزجة الجسم الأربعة (الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء)، ولكن جالينوس هو أول من ربط بين الفروق فى الشخصية والفروق فى الأمزجة.

وقد ظلت نظرية الأمزجة المعروفة حافظة لكيانها مع تغيرات بسيطة جداً إلى أن جاء العهد الحديث، حيث ظهرت نظريات متعددة لأنواع الشخصية. بعض أصحاب هذه النظريات يرى أن يقسم الشخصيات إلى أنواعها بحسب السلوك الظاهر. وبعضهم يرى أن يربطها بسرعة تأثر المجموع العصبى أو بطئه. وبعضهم يرى أن يربطها إلى حد ما بإفرازات الغدد؛ وممن غالوا فى التحمس لهذا الرأى الأخير برمان [١]، [٢] (Berman) الذى قال: إن كيمياء الخلية هى بعينها كيمياء النفس. ويتلخص رأيه فى أن نواة الشخصية تكونها حالة المجموع العصبى وحالة الغدد الهرمونية (ذات الإفراز الداخلى).

ونحن نميل إلى الأخذ بالرأى الذى يعتبر الحالة الجسمية كعامل من العوامل المتعددة التى تتدخل فى تلوين الشخصية باللون العام الذى يسمى عادة مزاجاً (Temperament).

ومن الآراء التى كان لها دوى كبير رأى كرتشمر الذى يربط بين صفات الشخصية وبين الصفات الجسمية الظاهرة كأبعاد الجسم والنسب بينها، وشكل العضلات والجلد، والعظم، والشعر، وغير ذلك. وقد قسم الناس إلى ثلاثة أنواع رئيسية وهى: الهزيل (The Asthenic)، والرياضى (The Athletic)، والسمين (The Pyknic)

(١) Berman : The Glands Regulating Personality.
Or » : The Personal Equation.
(٢) Miller : Types of Mind and Body.

والنوع الأول — وهو يشبه الثانى بدرجة أقل — يميل إلى أن يكون هادئاً ، محافظاً جاداً ، قليل الاجتماع بغيره ، قليـل التقلب بين حالة انفعالية وأخرى . وأما النوع الأخير فهو نوع صريح ، يميل إلى المصادقة ، مرح ، سريع التقلب بين حالة انفعالية وأخرى . ونوع الشخصية الأولى يسميه كرتشمر[١] بالمنطوى (Schizoid) ، أما النوع الثانى فيسميه بالمنبسط أو المتقلب (Cycloid) .

أثر الجسم فى العقل

التأخر العام فى النمو الجسمى

عرفنا مما تقدم أن هناك محاولات للربط بين حالة الجسم والحالة العقلية ، بحيث يمكن اتخاذ الجسم — لسهولة ملاحظته — دليلا على الحالة العقلية . وهذه الدراسات أفادت كثيراً ، ولو أنها لم توصلنا إلى ما كنا نأمله منها . ونزداد يقيناً مع مضى الزمن بأن خير الطرق لدراسة الحياة العقلية لا يكون بدراسة الصفات الفسيولوجية أو الجسمية ، وإنما يكون بدراسة الحياة العقلية نفسها ، وبحث مظاهرها فى سلوك الإنسان وفى تصرفاته ! وليس معنى هذا أننا ننادى بإهمال درس النمو الجسمى ، فهذا يمكن اتخاذه — لا سيما فى الأدوار الأولى من الحياة — دليلا ، ولو أنه غير قاطع فى صحته ، على النمو العقلى . فنحن نلاحظ أن ضعاف العقول (Mentally Defectives) والمتأخرين أقل على وجه العموم فى نموهم ، من حيث الوزن والطول من زملائهم العاديين والمتفوقين فى الذكاء . وهم متأخرون عن زملائهم الأذكياء كذلك فى سن المشى ، وسن الكلام ، ووقت التسنين ، وغير ذلك . هذه ليست قاعدة مطردة ، ولكنها فى غالب الأحيان صحيحة . وقد وجد الأستاذ برت[٢] (C. Burt) أن معامل

---

(١) Kretschmer : Physique and Character.

(٢) C. Burt : The Backward Child p. 138.

الاتفاق بين العمر العقلى والطول ٥ر٠ ومعامل الاتفاق بين العمر العقلى والوزن ٤ر٠ إذا جعلنا العمر الزمنى ثابتاً فى الحالتين[١] . وهذان المعاملان إيجابيان كبيران يدلان على أن النمو فى الوزن والطول يتمشى عادة مع النمو العقلى .

"ولحالة النمو أثرها بطريق غير مباشر فى حياة الفرد المتعلقة بشخصيته" فإذا كان مستوى الشخص فى النمو أقل أو أكثر مما هو متوقع له بشكل واضح ربما يؤثر هذا فى معاملة الناس له ونظرتهم نحوه . وهذا بدوره قد يؤثر فى نظرته نحو نفسه ، وموقفه من الناس . "وكثيراً من أنواع الشذوذ كالتعاظم ، أو الشعور بالضعة ، أو الشعور بالحقد ضد المجتمع ، سببها الأصلى الشذوذ فى النمو الجسمى العام"

العاهات وأثرها

يلاحظ كذلك أن العاهات التى تنتاب الشخص كفقد البصر ، أو السمع ، أو النطق أو فقد ذراع ، أو رجل ، أو إصابة عضو بإصابة شديدة تقلل من كفايته فى أداء وظيفته قد يكون لها آثارها المباشرة فى النمو العقلى ، والتحصيل الثقافى ، والكفاية المهنية . ولهذه العاهات فوق ذلك آثارها غير المباشرة . فصاحب العاهة يقابل عادة من غيره بأنواع متباينة من المعاملة ، فبعض الناس يهزأون به ، وهذا قد يثير نقمته عليهم ، ثم قد يحدث انتشار أو تحويل لهذه الحالة النفسية ، فتصبح نقمته عليهم نقمة على المجتمع عامة . وبعض الناس يعطفون على صاحب العاهة الذى قد تثور نفسه على هذا العطف ، إذ أنه يشعره بالضعف ويذكره بعاهته باستمرار . وكثيراً ما تكون نتيجة هذا العطف الحصول على امتيازات يرفض صاحب هذه العاهة أن يتنازل عنها فيما بعد . وينشأ عن هذا الرفض مشاكل عدة "وفى أحوال غير قليلة يستغل صاحب العاهة — دون قصد — ضعف الناس نحو ضعفه ، وقد يؤدى هذا إلى نمو جبروته وقوته إلى درجات كبيرة" وليس من الضرورى أن تتجه

(١) ويكون ذلك بتطبيق معادلة يول لمعامل الارتباط الجزئى (U. Yule's Partial Correlation Formula)

هـذه القوة فى الاتجاه الهدمى ، فقـد تتجه أحياناً فى الاتجاه الذى يعـده المجتمع اتجاهاً منتجاً .

ولتوضيح أثر العاهة نذكر حالة ولد فى الثالثة عشرة من عمره ضبط يبيع جلباباً مسروقاً فى سوق المؤيد بالقاهرة . واعترف الولد اعترافاً جريئاً صريحاً خالياً من كل خجل . وكان الولد أصم أبكم ، ولـكنه كان واضحاً فى تعبيره بالإشارة وضوحاً كبيراً . وقد بينت الدراسة أن الولد ابن أحد التجار الذين كانوا قد نزحوا إلى القاهرة ، ثم اشتغل الوالد بعمل حكومى يتقاضى منه ما يقرب من ثمانية جنيهات . وقد تزوج الرجل عدة مرات مما جعل عنايتـه بأسره موزعة على عدد غير قليل من الأفراد . والولد هو الذكر الأول بعد بنت ، و بعد مولود مات فى السنة الأولى ، و بذا كان له عند والديه مركز ممتاز للغاية ، وولد بعده ولد ، ثم مولود مات صغيراً ، ثم بنتان . هذه هى ذرية والد الحدث وللوالد ذريات أخرى من زوجاته الأخريات . أصيب هـذا الولد فى سن الخامسة بحمى قيل إنها النخاعية الشوكية ، وشفى منها غير أنه فقد على أثرها سمعه ونطقه . وقد فشلت المحاولات الـكبيرة الـكثيرة التى بذلت لمعالجة سمعه ونطقه ، و بدأ يتكلم بالإشارة ، ويفهم عن طريقها ، أو بالنظر إلى حركات شفاه الناس حين يتكلمون . لهذا بدأ بعض أناس من طبقة العمال فى الحى الذى تعيش فيه الأسرة يتخذونه تسلية لهم . ثم أغروه على سرقة بعض أدوات من المنزل ، كالأطباق ، والملاعق ، والسكاكين ، يعطيها لهم نظير دريهمات قليلة . أو يعطيها لحلوانى متجول نظير بعض الحلوى . واستمر الصبى هكذا حتى وقع فريسـة لأحد كبار الأشرار فى الحى ، فقطع فى السرقة من منزل والده ومن منازل الناس أشواطاً بعيدة ، واكتسب فيها خبرة كبيرة ، فوصل به الأمر إلى أنه يسرق ملابسه الخاصة به من المنزل لبيعها ، ويضطر والده لشراء غيرها ، وسرق حلى والدته وباعها بثمن بخس . وكثيراً ما كان يسطو على منازل الجيران ، واستفحل أمره ، ومع ذلك كان والده يحميه فيدفع عنه كل ما يحدث منه حتى لا يقع الولد فى أيدى « البوليس » فيرسل إلى الإصلاحية .

وكان والده أحياناً يضربه ضرباً مبرحاً ، فكانت الأم تحميه ، أو تبكى بكاء مراً . ولهذا كانت تتستر عليه فيما يبدر منه .

ولما اشتد الوالد على ولده ، ورفض شراء ملابس له لأنه يبيع عادة ما يشترى له ، هرب الولد من الحى الذى يعيش فيه واشتغل فى مصنع ، وسرق من المصنع كثيراً من الأدوات وباعها . وأثناء هذا تشرد ، وجمع الأعقاب ، وأغرم بالذهاب إلى السينما ، وأولع بركوب العجل ، وتقلب فى أعمال كثيرة . ولكن أثناء هذا كله كان يسرق باستمرار تقريباً . ومن أبرز ما فعل أنه كان يسطو على الموتى الحديثين فى مدافنهم فيأخذ ما بأيديهم من حلى ، ويقال أنه إذا أعجزه خاتم من الذهب مثلا ، فلا مانع عنده من كسر الأصبع بطريقة ما للحصول على الخاتم . وكان يفهم من إشاراته أنه يريد أن يقول إن الحى أولى من الميت بهذه النفائس .

ويلاحظ أن حالة الولد تطورت بهذه الصورة بفعل عوامل متعددة ، ولكن يبدو أن العامل الرئيسى الأول هو فقدان السمع والنطق . وأما العوامل الأخرى من ظروف المنزل ومعاملة الوالدين ، وغير ذلك فهى عوامل مساعدة ربما كانت قليلة الأثر لولا هذا العامل الرئيسى .

ومثال آخر حالة ولد فى سن الحادية عشرة ، وسيم الوجه ، جميل الطلعة ، حاد العينين ، عليه كل علامات اليقظة ، والنشاط ، وخفة الحركة . هذا الولد فقد ذراعه اليمنى بسبب قفزة فى الجانب الأيسر من الترام . وكان فى ذلك الوقت يعمل مع صانع أحذية بأجر طيب بالنسبة لسنه . ولكنه من وقت فقد ذراعه ترك العمل وبدأ يتسول . وللولد أقارب من ناحية أمه كجدته وأخواله وخالاته ، وهؤلاء كانوا يدللونه قبل هذه الحادثة ، ولكنهم بعد الحادثة أخذوا يسرفون فيما يعطونه من نقود . وكان الولد طول حياته مدللا من والديه . إذ كان هو الذكر الأول والوحيد بين أربع أخوات . ولما ساء سلوك الولد بعد الحادثة أراد الوالد أن يشتد عليه فلم يتمكن لمرضه وإصابته بالسل واضطراره فى الوقت نفسه للعمل كحارس فى حى رطب حتى

يكسب قوته وقوت أولاده البالغ ١٦٠ قرشاً فى الشهر . جمح الولد فى سلوكه ، وكان يخرج للتسول مبرزاً ما بقى من ذراعه متلصقاً بكتفه ، وتمكن من تعلم بضع جمل إنجليزية ، استعملها فى استدرار عطف الجند الإنجليز عليه . و بلغ ما يصل إلى يده عن طريق التسول عشرين قرشاً تقريباً فى اليوم . وجد الولد متعة من خفة عقول الناس وسهولة إعطائهم إياه ما يطلب من نقود ، وكان يعتبر أن كسبه من التسول أحسن بكثير من كسبه من العمل . ومن العجيب أن الولد يصرف مما معه من النقود على مأكله ، ثم يذهب آخر النهار للسينما ، وكثيراً ما يدعو أصدقاءه من المتشردين للذهاب معه على حسابه الخاص ، ثم يقضى ليلته بعد ذلك تحت مقعد فى الشارع العام ليستأنف عمله فى اليوم التالى على الأسلوب الذى فصلناه .

وكانت فى هذه الحالة حادثة فقد الذراع الفاصل الظاهرى بين حياتين إحداهما مستقيمة والأخرى معوجة ، وكانت — كما بينا — عاملا هاماً فى تغيير سلوك الطفل .

ومثال ثالث حالة ولد أصيبت رجله اليمنى إصابة شديدة جعلتها فى نهاية الأمر أقصر من أختها اليسرى بدرجة واضحة . وهذا الولد فيه كثير من صفات الولد صاحب الحالة السابقة فهو جذاب ، حسن الحديث ، مملوء بالحيوية . نمت فى هذا الولد ناحية عدم الاستقرار فى العمل ، والميل إلى الخطف ، فهو يخطف الفاكهة من عربات الباعة ويجرى . والباعة فى العادة يرثون لحاله فيتركونه وشأنه ، وأصبح الولد فى سن الحادية عشرة كثير السرقة ، والخطف ، قليل الاستقرار ، يميل إلى لعب القمار . وللولد ظروف أخرى منها أنه الذكر الأول فى الأسرة ، ولو أنه ليس الذكر الوحيد . ومنها أن العلاقة بين والده ووالدته كانت على أسوأ ما يكون خشونة وقسوة وأنانية من جانب الوالد . ومنها كذلك أن الوالد كان يتفنن فى تعذيب ولده إلى حد كبير ، ومع كل ذلك كانت حالة الولد الجسمية عاملا رئيسياً فى توجيه سلوكه الوجهة التى بيناها .

والحالات التى فحصناها من هذا النوع تربو على العشرين ، ولكن من بينها

حالة واحدة لولد كان على أسوأ ما يكون من السلوك من تشرد وسرقة وعدم استقرار فى العمل . وأصيب فى رجله يوماً ما إصابة بالغة تركت عنده عاهة مستديمة . ومن ذلك الوقت استقام ونظر إلى هذه الإصابة كأنها عقاب سماوى أنزله الله به و بدأ حياة جديدة مستقيمة أدت إلى جمع شتات والدته وأخوته .

" تدلنا هذه الدراسة على أن التأخر الجسمى أو الإصابة بعاهة لها فى العادة آثارها أو مصاحباتها فى سلوك الفرد . ولكن هذه الآثار لا تأتى بطريق مباشر ، فقد تكون مثلا رداً على شعور بالنقص ناشىء من موقف غيره إزاء العاهة ، وقد تكون ثورة على عطف غير مطلوب ، وقد تكون استغلالا لضعف الناس إزاء العاهات . . إلى غير ذلك . ولكن الجسم له أيضاً أثره المباشر على الحياة العقلية . "

الأثر المباشر للجسم على العقل

" يؤثر الجسم فى الحياة العقلية عن طريق الفعل المباشر للدم " ، فالتغيرات الطارئة على حالة ما يصل إلى المخ من الدم ، أو ما يحمله الدم من مركبات تصل إليه عن طريق الأدوية كالاستركنين ، أو المكيفات كالقهوة ، والشاى ، أو المركبات التى تفرز فى الدم مباشرة بواسطة الغدد ، أو تأتيه من مصادر التوكسينات مثلا ، كلها تؤثر فى الحالة العقلية للفرد تأثيراً واضحاً معروفاً . وأما التغيرات الطارئة على ما يصل إلى المخ من دم ، فيمكن ملاحظة تأثيرها فى الحياة اليومية بعد أكلة ثقيلة ، إذ يشعر الإنسان بعدها بخمول ، وميل إلى النوم . ويمكن ملاحظتها كذلك من نوع الجلسة التى يجلسها الإنسان ، وأثر ذلك على نشاطه العقلى ، ففرق بين درجة النشاط العقلى التى تصاحب جلسة متراخية على كرسى لين مريح منخفض ، و بين تلك التى تصاحب جلسة منتصبة على كرسى خشبى مرتفع . والفرق بين الجلستين يؤدى إلى الفرق بين ما يصل من الدم إلى المراكز العصبية العليا فى كلتا الحالتين .

" وهناك فرق كذلك بين الحالات العقلية المختلفة المصاحبة لأنواع ضغط الدم

المختلفة ، ففى حالة الضغط العالى نلاحظ ميلا إلى قلة النوم ، وكثرة العمل العقلى وسرعته ، وسرعة الإنفعال . هذا بخلاف حالة الضغط المنخفض ؛ فنلاحظ معها ميلا إلى الخمول ، وعدم القدرة على التركيز فى أثناء العمل العقلى ، وبطء العمليات العقلية ، وبطء التأثر الانفعالى[1] .

أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات

أشرنا فيما تقدم إلى أثر المخدرات والمكيفات ، إشارة بسيطة ، ومعروف أن الخمر لها آثار تختلف من درجة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر ، فالخمر بكميات قليلة جداً له أثر منشط ، ولكنه بكميات كبيرة يكون مهبطاً ، فتتعطل العمليات العقلية العليا ، ويفسد تفكير الشخص ، وتختل الأحكام التى يصدرها ، وتضطرب إدراكاته . والخمر يدفع بعض الناس للبكاء ، وبعضهم للانقباض ، وبعضاً ثالثاً للمرح ، ويدفع فريقاً من الناس للغضب والهياج ، وفريقاً آخر للمبالغة فى التأدب نحو غيرهم . وللادمان على الخمر فى بعض الحالات نتائج عقلية دائمة كضعف الذاكرة ، وتأخر فى القدرة على التفكير المنطقى المنظم ، وتسلط الأوهام والوساوس .

وللمكيفات الأخرى من شاى ، وقهوة ، وكوكايين ، وأفيون ، ومورفين ، وهروبين ، وحشيش ، وغير ذلك ، آثارها المعروفة فى الحياة العقلية ، فالمنبهات تؤخذ لتنشيط الحياة العقلية ، وأما المخدرات فإنها تؤدى إلى حالة تراخ وكسل ، وتمر على الشخص أثناء التأثر بها خيالات يقال إنها لطيفة ، وبزوال الحالة السارة الطارئة يصبح الشخص قلقاً ، غير مستقر ، سريع القابلية للتهيج . ولذا يحدث تعاطى هذه المخدرات ميلا إلى الإدمان فى أخذها . والإدمان عليها يؤدى كما ذكرنا فى حالة الخمر إلى نتائج عقلية دائمة .

ومن الحالات التى يظهر فيها أثر التوكسينات حالات التعب الناشىء من العمل

---

(١) Rees : Health of the Mind pp. 61—63

العقلى والجسمى ، فنتائج الاحتراق كحامض اللبنيك (Lactic Acid) وثانى أكسيد الكربون قد تتراكم فى الأنسجة فتعطل الاستمرار فى العمل . ولذا كان التخلص من هذه التوكسينات شرطاً ضرورياً لتجديد النشاط . "وهذه التوكسينات الناتجة من الإجهاد تعطل العمليات العقلية من انتباه وتفكير وغير ذلك . ونتائج التعب لا تعزى كلها لتراكم التوكسينات ، وإنما يعزى بعضها لفقد الطاقة من الأنسجة والألياف العصبية والعضلية بسبب العمل نفسه . "

والتوكسينات فى حالة خراجات الأسنان ، أو اللوزتين ، أو التهاب الجيوب الموجودة خلف الأنف ، أو الخراجات المعدية أو المعوية ، أو غير ذلك كلها لها أثرها فى الحالة العقلية من حيث تخفيض الشعور بلذة الحياة ، وتقليل القدرة على العمل العقلى ، والتخفيض من سرعته ، وزيادة الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار ، والقابلية لسرعة التهيج ، وما شابه ذلك .

وبخلاف ما تقدم من التوكسينات بأنواعها توجد الميكروبات أو البكتريا فى حالة الأمراض المعدية . ففى الزهرى سواء أكان مكتسباً بعد الولادة أم قبلها [1] نجد أن من بين أعراضه الخطأ فى الحكم والميل إلى المغالاة والتأخر العقلى . ويرى جوردون [2] وهيلى [3] أن نوعاً من جنوح الأحداث من أعراضه الهرب والسرقة والعناد يرجع إلى الزهرى الولادى ، وتدل الحالات القليلة التى درسناها من هذا النوع لجرائم الأحداث فى حالة الزهرى الولادى أنها نتيجة ثانوية وليست نتيجة أولية للزهرى نفسه .

"وقد وجد ستراتون [4] (Stratton) من فحصه ٩٠٠ طالباً أن الذين كانوا قد أصيبوا بأمراض معدية فى حياتهم الأولى أكثر قابلية للتهيج الانفعالى من غيرهم . "

(١) الزهرى الولادى Congenital Syphlis هو المكتسب قبل الولادة وتسميته بالزهرى الولادى أصح من تسميته بالزهرى الوراثى . وهذا يتفق مع رأى الاخصائيين فى علم الوراثة

(٢) Gordon : Juvenile Delinquency ch. VIII.

(٣) Healy : The Individual Delinquent.

(٤) Quoted by Shaffer : Psychology of Adjustment.

وأن لبعض الأمراض أثراً أثبت فى الشخصية من غيرها ، فالحمى القرمزية بحسب رأيه لها أثر فيما يظهر فى حياة الشخص من ميل للغضب .

ولكن ليس معنى هذا أنه يمكننا أن نصل إلى نتيجة مقطوع بصحتها فى هذه الناحية فالنتائج كلها رغم ماذكرنا من الأدلة تعتبر تخمينية إلى درجة غير قليلة . ويرجح أن الأمراض المعدية التى من شأنها أن ترفع درجة حرارة الجسم رفعاً غير عادى قد تؤثر فى المجموع العصبى ، وبالتالى تؤثر فى الصفات العقلية والخلقية لاسيما إذا حدثت الإصابة فى سن مبكرة .(٢٠)

مثال ذلك حالة لطالب فى مدرسة ثانوية ، يتصف بالكسل ، والقذارة ، والجشع والعنف ، والتأخر الدراسى ، والميل لمخالطة من هم أقل منه فى المستوى الاجتماعى والثقافى بكثير . يمارس العادة السرية ويتصل بالخدم اتصالا جنسياً . ووالداه يعاملانه معاملة معقولة ، وسبل الحياة الطيبة ميسرة له ، ولم نجد عنصراً بارزاً فى حياته أكثر من الأمراض التى انتابته . ففى سن الخامسة أصابه التيفويد وكان شديد الوطأة ، وأعقبته الحصبة بعد قليل ، ثم أعقبها السعال الديكى مباشرة بعد ذلك .

ونعتقد أن هذه الأمراض ربما كانت عوامل مساعدة وليست عوامل أصيلة . فيحتمل أنها سببت تراخياً وتدليلا من جانب الوالدين ، فخلقت حول الطفل ظروفاً ساعدته على إنماء هذه الصفات الدالة على تواكله وتدلله وعجزه عن مقاومة شهواته الغذائية والجنسية .

وهكذا نجد مع الكثير من الحالات مرضاً أو عدة أمراض بعضها معد كالحصبة والتيفويد ، والجديرى ، والدفتريا ، والحمى النكفية ، والسعال الديكى . وبعضها غير معد لكن يصحبه رفع شديد لدرجة الحرارة ، كالنزلات المعوية ، والمعدية ، والخراجات .

والنتائج السيكولوجية التى أشرنا إليها قد تنشأ من هذه الأمراض ، ولو أن كثيراً من الأطباء يشكون فى صحة هذا ، وقد تنشأ هذه النتائج من تأثر الطفل بموقف أهله إزاءه أثناء مرضه فالقلق الذى يصيب الوالدين ، وما يصحبه من مظاهر الذعر التى

يحسها الطفل عادة ، تهز ثقته فى نفسه وفى والديه . والعناية الشديدة التى تعطى للطفل فى أثناء المرض تصحبها عادة امتيازات أخرى من التدليل والمعاملة الخاصة يتمسك بها الطفل غالباً تمسكا شديداً بعد شفائه ، ويصعب على الوالدين تحويله عنها ، إلا إذا وضعوا لأنفسهم سياسة ثابتة فى هذا الاتجاه .

لهذا كان من الواجب ألا يعطى الطفل من العناية فى أثناء المرض أكثر مما يستلزم التمريض ، ويجب أن يشغل قدر الإمكان بعمل ملائم يسليه حتى ينصرف عن التفكير فى نفسه ، وحتى يسهل تحريره من التعلق بمن يرعاه فى مرضه عند شفائه منه . وبالجملة يجب العمل على عدم إعطاء الطفل فى أثناء مرضه امتيازات يعز عليه أن يتحرر من التمتع بها بعد شفائه .

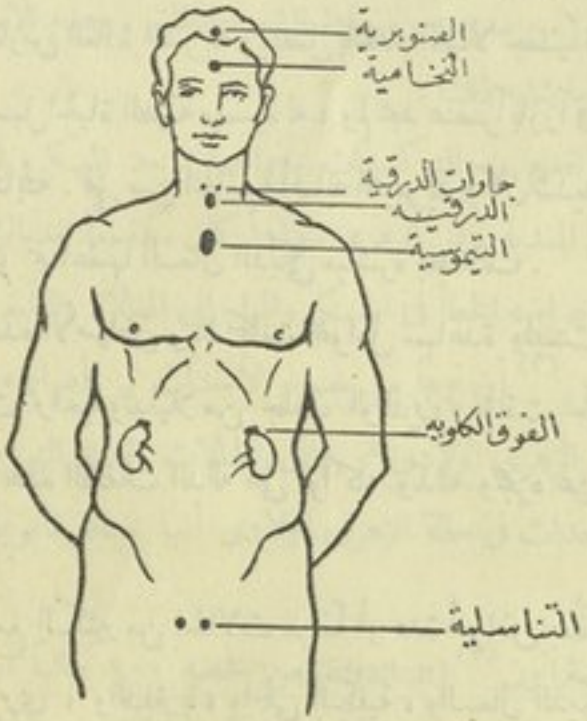

صورة تبين مواضع الغدد الأساسية

أثر الغدد

" وهناك مصدر مهم للطريقة التى يؤثر بها الجسم مباشرة فى الحياة العقلية عن طريق الدم . وهذا المصدر هو الغدد التى تفرز هرمونات (Hormones) تصب

مباشرة فى الدم". وسبق أن ذكرنا أنه أمكن بدراسة الغدد العثور على مايحقق بعض ما فى النظرية القديمة السائدة عن أنواع الخلق ، وهى التى تقسم الناس إلى أنواع هى : الدموى ، والصفراوى ، والليمفاوى ، والسوداوى . وذلك بحسب مايسرى فى الدم من مركبات كيماوية أو أمزجة كيماوية ."

ورغم كثرة ما اكتشف عن الغدد فإن ما نحس أننا نجهله عنها ما زال كثيراً جداً . والغدد على العموم ثلاثة أنواع : نوع يقذف بإفرازاته إلى الخارج ، كالغدد اللعابية ، والدمعية ، وغدد العرق ، وغير ذلك . ونوع يقذف بإفرازاته مباشرة فى الدم ، كالغدة النخامية ، والدرقية . ونوع له إفرازان ، كالبنكرياس ، والغدد التناسلية . وسنذكر الآن نبذة قصيرة عن بعض الغدد التى لها أهمية فى التأثير على سلوك الفرد :—

١ — **البنكرياس** : له إفرازان أحدهما خارجى يصب فى الاثنى عشر ، ويساعد عملية الهضم . والآخر داخلى ويسمى بالأنسولين ووظيفته تنظيم اختزان السكر فى الكبد والعضلات بعد تحويله إلى نشا حيوانى .

وتنظيم هذه العملية يتوقف عليه ما يستعمل من السكر لعملية الاحتراق اللازمة لنشاط الحيوان أو الإنسان والأنسولين إن كان مقداره أكبر من اللازم نتج الشعور بالجوع ، والرعشة ، والقلق ، وكثرة التعب . وإن كان أقل مما يلزم نتج الخمول ، ومعه شعور بالهبوط العام". وأحياناً تزداد نسبة السكر فى الدم ، وأحياناً أخرى يظهر السكر فى البول . ويصاحب هذا ما يصاحبه من خمول ، وشعور بالهبوط ، وقابلية للتعب وما شابه ذلك .

٢ — **الغدة الدرقية وإفرازها** :

وهى فى أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية ، ووظيفتها إفراز مركب يعرف بالثيروكسين (Thyroxin) . يقوم هذا المركب بتنظيم نشاط الأنسجة من هدم وبناء (Metabolism) ، ولهذا نجد أنه فى حالة عجز الدرقية عن قيامها بوظيفتها تبدو على الشخص السمنة الزائدة ، وقلة النشاط ويبدو الشخص بطيئاً ، خمولا ، كثير النسيان

قليل القدرة على تركيز الانتباه أو على سرعة التفكير . وعلى وجه العموم يبدو الشخص قليل النشاط ، ضعيف الحيوية . وأما إذا زاد إفراز الدرقية عن الحد الضرورى فإن الشخص يبدو قليل الاستقرار ، كثير الاستفزاز ، قلقاً مضطرباً فى نومه وتكثر فى العادة أفكاره وأوهامه التى تتوارد على ذهنه بسرعة كبيرة . وتزداد ضربات القلب ، ويرتفع ضغط الدم ، ويخف الوزن .

وفى حالات كثيرة لا تكون إصابة الدرقية أثناء الحياة ، بل يولد الشخص بدرقية ضعيفة ، كما فى حالة نوع من الناس يكونون صغار الأجسام (cretins) ناقصى النمو من كل ناحية ، سواء فى ذلك الناحية الجسمية ، أم الناحية العقلية . فالضعف الولادى فى الدرقية يصحبه عادة نقص عقلى . ولكن العكس ليس صحيحاً ، فليس كل نقص عقلى ولادى أو وراثى يصحبه ضعف فى الدرقية[1] .

ويوجد قريباً جداً من الغدة الدرقية أربع غدد صغيرة الحجم تعرف بجارات الدرقية (Parathyroids) ، ووظيفتها تمثيل الكلسيوم والفوسفور ، وهى تعادل بعملها نشاط الغدة الدرقية . فإذا أزيل جزء من جارات الدرقية كان الشخص سريع التهيج شديد العصبية ، وكان عرضة للرعشة إذا ما ارتفعت حرارته .

٣ — الغدة النخامية (The Pituitary)

وموضعها فى الشق الأسفل بين نصفى الكرتين المخيتين ، وهى صغيرة الحجم ، ووزنها فى العادة نصف جرام تقريباً . وهى تعتبر من أعقد الغدد وأهمها ، إذ يسميها البعض سيدة الغدد (The Master Gland) والسبب فى ذلك أن لها تأثيراً على أغلب

---

(١) وقد قمنا فى العيادة السيكلوجية بدراسة حالات ضعف عقلى تمثل النوعين : نوع يتميز بخموله الشديد ، والنوع الثانى يتميز بكثرة نشاطه وعدم استقراره .

ويمكن قياس درجة نشاط الغدة الدرقية بصعوبة كبيرة باستعمال أجهزة أخرى خاصة تعين نسبة ما يأخذه الفرد فى الشهيق من هواء نقى إلى مايخرجه من مواد محترقة فى الزفير ويسمى الاختبار (Basal Metabolism Test) . وصعوبة قياس نشاط الدرقية يجعلنا غير متأكدين من نتائج هذا القياس خصوصاً فى حالات الضعف العقلى .

الغدد الأخرى ، فهى تؤثر فى الدرقية ، والتناسلية ، والفوق الكلوية والبنكرياس ، وربما كانت تؤثر فى بقية الغدد أيضاً . ومن بين هرمونات الفص الأمامى للغدة ما ينظم عملية النمو ، ولذا كان الاختلال فيه مسبباً للقزامة أحياناً وأحياناً أخرى يسبب طول العظام[1] .

ويظهر أن هرمونات النخامية بعضها يوازن البعض الآخر ، فالهرمونات الجنسية الناتجة من النخامية تضاد فى عملها هرمونات النمو ، بدليل أن عملية إزالة الخصيتين ينتج عنها إبطال الوظيفة التناسلية ، و إيقاف الهرمونات الجنسية النخامية تبعاً لذلك ، إذ أن هذه الهرمونات تصبح غير مطلوبة ، ويتبع ذلك النمو زيادة فى النمو كما نلاحظ فى من بقى من الأشخاص الذين خضعوا لهذه العملية والمعروفين فى الشرق الآن باسم الخصيان (الأغاوات) .

وليس من السهل أن نحدد تحديداً تاماً العلاقة بين بعض مظاهر السلوك و بين الاختلال فى إفرازات النخامية : ولكن من الأمراض المعروفة (Frohlich's Disease) وينسب فى العادة إلى اختلال فى بعض هرمونات النخامية . هذا المرض يظهر فى الصبيان ، ويكونون عادة متأخرين فى نمو العظام ، وعلى درجة كبيرة من السمنة ، ويكسو الدهن بنوع خاص المنطقة الحوضية ، وما فوق الصدر . ويكون هؤلاء

---

(١) وللنخامية فصان رئيسيان : الفص الأمامى ، والفص الخلفى . وقد ثبت أن كلا من الفصين والوصلة التى تربطهما يفرز هرمونات خاصة . وقد ثبت كذلك أن الفص الأمامى يفرز ١٢ هرموناً على الأقل ، والفص الخلفى يفرز كذلك أكثر من هرمونين . وأحد هرمونات الفص الأمامى ينظم عملية النمو فالنقص فيه يسبب القزامة ، ولكنها قزامة منتظمة تختلف عن القزامة الناشئة من النقص الوراثى أو الولادى فى الغدة الدرقية . فالقزامة فى حالة النقص فى هرمون النخامية لا يصحبه ضعف عقلى . والزيادة فى هذا الهرمون نفسه تسبب زيادة فى النمو . فإذا وجدت هذه الزيادة منذ الطفولة سببت ضخامة عامة وأما إذا وجدت بعد اكتمال النمو ، سببت نمواً فى عظام الأطراف كالأيدى والأرجل والأنف .

ويكون مصاحباً للزيادة فى نشاط الغدة النخامية عادة ورم يمكن أحياناً مشاهدة نتائجه بمشاهدة الزيادة الناشئة فى الغلاف المحيط بها والمعروف باسم (Sella Tursica) ويتم هذا بالكشف بأشعة رونتجن .

ولا يجوز أن ننسى أن ننوه بشدة التعقيد فى وظيفة النخامية ، وشدة علاقتها بالكثير جداً من الوظائف الجسمية الأخرى ، مما أثار فى السنوات الأخيرة مئات البحوث فى إفرازاتها .

الصبيان على درجة كبيرة من الضعف الجسمى ، والتأخر الجنسى ، مما يغرى أحياناً رفقاءهم الأقوياء باستغلالهم جنسياً .

ومن أمثلة اختلال الغدة النخامية حالة ولد أحيل للعيادة بحجة أنه مشاكس ، وغير قابل للتعليم . ولكن بمجرد النظر إليه لوحظت أعراض المرض (Frohlich's Disease) السابقة الذكر . والولد فوق هذا قليل الشعور بالمسئولية ، يميل إلى التجول ، والتسكع فى الشوارع ، وعدم التركيز فى عمل واحد ، ويحب الأعمال المتغيرة البسيطة . نسبة ذكائه حسب الاختبار ٥٠ ، أى أنه حين كان عمره ١٢ سنة كان المستوى العام لعقله لا يزيد عن المستوى العام لعقل طفل عادى عمره ٦ سنوات . وكان يهرب من كل مدرسة يلحق بها لعدم قدرته على متابعة العمل الذى يتوقعه منه أهله ومدرسوه وأصحابه بحسب سنه . متأخر فى نموه الجنسى بدليل صغر خصيتيه ، وعدم سقوط واحدة منهما فى الكيس الخاص لذلك . ولوحظ كذلك أن نمو الشعر على العانة ، وتحت الإبطين متأخر جداً بالنسبة لسنه .

وبعد فحصه جسمياً وعقلياً ، أمكن توجيه أهله لمحاولة علاجه طبياً عند أحد الأطباء الإخصائيين فى الغدد ، ولعدم إرهاقه بالتعليم التقليدى المعروف فى مصر ، والاكتفاء بتعويده عادات بسيطة فى حدود عقليته ، والكف عن معاقبته جسمياً ، وعن حبسه كما كانوا يفعلون . وأمكن بهذا التوجيه حل كثير من مشكلاته ومشكلات أسرته .

ومن الحالات التى ظهرت فيها الزيادة فى النمو ، وتختلف عن السابقة اختلافاً بيناً حالة ولد أرسل إلى العيادة وعمره ١٤ سنة ، ولكن وجد أن نسبة ذكائه ٦٨ ، أى أن مستوى ذكائه لا يزيد عن مستوى ذكاء طفل عادى عمره تسع سنوات ونصف وكان طول الولد ١٧٨ سم ووزنه ٧٠ ك ج ، أى أنه فى طول شخص بالغ النمو . والولد متلاف ، عنيف ، غير متزن فى حركاته ، خامل ، مشاكس ، عنيد ، ميال للظهور ، ولم يتمكن من الاستفادة من التعليم . عنده شىء كثير من عدم المبالاة

بما يقول أو يفعل . وقد ظهر فى غلاف الغدة النخامية زيادة واضحة جداً عن الحجم العادى .

وقد نصحنا الوالد بأن يقلع عن فكرة تعليمه التعليم النظرى المعروف ، بل يعطيه عملا آلياً فى الهواء الطلق ، يستدعى منه حركة جسمه كله ، كالعمل فى حديقة صغيرة . وبالفعل وضعه والده فى عمل من هذا النوع واستراح من الكثير من متاعبه . واستراح الولد كذلك من الكثير من مضايقات والديه .

وهناك حالة أخرى لطالب بالسنة الرابعة الابتدائية عمره خمس عشرة سنة طوله ١٧٥ سم ووزنه ١١٠ ك . ج . وكما يبدو من وزنه وطوله فهو ضخم جداً رغم صغر سنه ، وهو لا يميل مطلقاً للعمل العقلى ، وقد تكرر رسوبه فى الشهادة الابتدائية رغم المجهودات الجبارة التى بذلت معه .

٤ — الغدد التناسلية (Gonads)

"والغدد التناسلية هى الخصيتان فى الرجل وتفرزان الحيوانات المنوية ، والمبيضان فى المرأة وتفرزان البويضات . وهاتان المجموعتان من الغدد تفرزان هرمونات أهم وظائفها الخواص الجنسية الثانوية ، ومن هذه الخواص فى الرجل خشونة الصوت ، ونمو الشعر على العارضين والشفة العليا . وكذلك من الصفات السيكولوجية الميل الاستقلالى ، والميل للاعتداء ، وحب الزعامة ، والميل للمخاطرة والإنتاج ، والميل نحو الجنس الآخر . ومن الصفات الجنسية الثانوية فى المرأة نمو الشعر على العانة ، وتحت الإبطين ، وكبر الثديين ، ونشاط الغدد اللبنية ، والميل نحو الجنس الآخر وهذه الهرمونات بنوعيها موجودة فى كل من الرجل والمرأة غير أنه تتغلب الهرمونات الذكرية عند الرجل ، والأنثية عند الأنثى ." ويعزى لهذا فى نظر بعض المفكرين وجود الصفات الأنثية عند بعض الرجال ، و بعض صفات الرجولة عند بعض النساء .

وقد كان للغدد الجنسية حظ وافر من التجارب العلمية ، فأجريت على الحيوان

تجارب تتعلق بالنشاط الجنسى ودوريته ، وسلوك الكائن الحى أثناء هذا النشاط . وقد أجرى (Vornoff) تجارب على إعادة الشباب بواسطة مستخرجات الخصية من القردة ، ولاحظ مع عودة الشباب رجوع الخصائص السيكلوجية المصاحبة عادة لذلك . وقد أجرى (Steinach) تجارب عدة على الحيوان منها أنه نقل الغدد الذكرية إلى أنثى الخنزير الهندى من الخنزير الذكر ، والغدد الأنثية إلى ذكر الخنزير الهندى من الخنزير الأنثى ، ولاحظ تغيير صفات الخنزير تغييراً واضحاً تبعاً للغدد التى نقلت إليه .

" ويلاحظ أن الخصيان « الأغاوات » يفقدون بإزالة خصاهم صفات كثيرة من صفات الرجولة، فتجدهم فى مجموعهم على شىء من نعومة الصـــوت ، والخمول ، والانصراف عن النزعات الجريئة ، وعن العمل لتحقيق أغراض جدية .

وقد لوحظ فى الحالات المعروفة بالجنـون المبكر (Dementia Praecox) التى تتصف بالخور التام ، والاستسلام ، والشعور بالنقص ، أن تشريحها بعد الوفاة يدل على ضمور فى الخصيتين . ولا يمكننا أن نستنتج من هذه الحقائق فقط إذا كان ضمور الخصيتين سبباً أو نتيجة للحالة العقلية المذكورة [١] .

٥ — الغدة الفوق الكلوية (الكظرية) (Supra - Renal Glands)

وهناك غدتان كل منهما فوق إحدى الكليتين ، وتتكون كل غدة من جزأين: خارجى ويسمى بالقشرة (Cortex) ، وداخلى ويسمى باللب (Mebulla) . وكل من هـذين الجزأين يختلف عن الآخر فى تركيبه ووظيفته . فهرمون القشرة يساعد على مواصلة بذل الجهد العضلى ، وعلى مقاومة العدوى . وزوال هذه القشرة يتسبب عنه الوفاة ، وضعفها يترتب عليه الضعف ، والكسـل ، وعدم الاهتمام بالجنس الآخر ، وهبوط عام فى الحيوية وفساد الحكم ، وعدم الميل للتعاون وقلة الصبر [٢] . أما الزيادة

(١) Sir Fredrick Mott as Qoted by Rees : The Health of The Mind p 68.

(٢) Woodworth ; Psychology (4th edition) ; Henry Holt p. 175.

فى نشاط القشرة فيترتب عليه زيادة مظاهر الرجولة سواء فى المرأة أو الرجل . وهذه المظاهر تتناول الناحيتين العقلية و بعض النواحى الجسمية أيضاً .

أما هرمون اللب واسمه الأدرنالين فيسبب فى حالة زيادته عن حد الاتزان ازدياد ضربات القلب ، وازدياد عمل الرئتين ، وازدياد إفراز السكر من الكبد ، وازدياد إفراز العرق ، واتساع حدقة العين ، واندفاع الدم للمخ والعضلات ، بحيث ينشط العضلات الخارجية ، ويحدث تأثيراً مضاداً على بعض الأعضاء الداخلية كالمعدة . فكأن وظيفة الأدرنالين هى تنشيط الكائن الحى تنشيطاً عاماً ، وغايتها أنها فى حالة وقوع الكائن الحى فى مأزق يريد التخلص منه إما بالهرب أو المقاتلة تساعده على سرعة الخلاص ، أو سرعة المقاتلة فالأدرنالين يزيد من كفاءة الكائن الحى لتحقيق هذه الغاية .

وقد أشار برمان (Berman) [1] إلى ما سماه (The Adrenal Centred Type) وهذا النوع يكون سريع الاستفزاز ، نشطا ، سريع الغضب ، يبدو دائماً متوتر الأعصاب ويكون عنده ضغط الدم مرتفعاً ، ويصاحب هذا الارتفاع ما يصاحبه عادة من اضطراب النوم ، وسرعة توارد الأفكار ، وكثرة الهواجس وغير ذلك .

٦ — غدتا الطفولة

وهناك غدتان تعرفان بغدتى الطفولة ، وهما الغدة التيموسية أو الصعترية (Thymus) وتقع فوق القلب ، والغدة الصنوبرية (The Pineal Gland) وتقع فى الدماغ خلف النخامية . وتسميان غدتى الطفولة لأنهما تضمران عادة قبل البلوغ . وإذا لم يحدث هذا الضمور فالفرد يبقى رغم نموه كالطفل فى سلوكه وموقفه ، ويعيش ضعيف الإرادة بطىء التفكير نحيف الجسم طويلة دقيق التقاطيع رفيع الصوت .

ويقال إن عمل هاتين الغدتين مضاد لعمل الغدد التناسلية ، فنشاطهما يكف من

---

(١) Berman: The Personal Equation p. 278.

نشاط التناسلية ويساعد على النمو فى الطول والوزن . وأما ضمورهما فإنه يعطى الفرصة للغدد التناسلية لتظهر أثرها من حيث الخواص الجنسية بجميع أنواعها .

الاتزان الغددى

" لاحظنا أن كثيراً من الغدد لها مقابلها فى الوظيفة ، فلغدة ما وظيفة ، ولغدة أخرى وظيفة مضادة ." ومن أمثلة ذلك الدرقية وجاراتها ، وكذلك التناسلية وغدد الطفولة ، وكذلك بعض هرمونات الفص الأمامى للنخامية تضاد بعض هرمونات الفص الخلفى . لاحظنا كذلك أن بعض الهرمونات من غدة معينة تثير هرمونات غدد أخرى ، كما هو حادث بين النخامية والدرقية ، أو بين النخامية والتناسلية . لهذا نجد أن الهرمونات المتعددة مثلها مثل عدد كبير من القوى المعروفة فى علم « الميكانيكا » والتى تؤثر على جسم ما ، والنتيجة النهائية فى حالات الاتزان العادية هى سكون الجسم تحت تأثير القوى المختلفة . ولذا فإنه ليس من السهل إذا لاحظنا سلوك شخص ما أن تنسب حالته للزيادة أو النقص فى إفراز غدة معينة . فيكفى أن يختل الاتزان الغددى بأى طريقة كانت فنحصل على أعراض قد نخطىء ونسبها إلى زيادة فى نشاط الغدة الدرقية أو النخامية أو غير ذلك .

وليس معنى ما ذكرنا عن الغدد هو محاولة استيفاء الموضوع ، أو الإشعار بأن من وظيفة المعلم أو الوالد أو الإخصائى النفسانى أو الاجتماعى أن يتدخل فيها تدخلا إيجابياً . وإنما معناه أن يكون يقظاً لاحتمال تأثيراتها ، فيوجه الحالات فى الاتجاه الصحيح إلى إخصائى الغدد ليقوم بدراستها ومعالجتها إذا لزم الأمر . وإلى جانب العلاج الطبى تحتاج الحالة فى بعض الأحيان إلى علاج نفسانى .

وقد ذكر شيفر [1] حالة (لويز) وهى بنت كان أبوها يتوقع لها تقدما فى التعليم ، فخابت ظنونه ، ووقف منها موقف الناقد المقرع ، مما زاد حالتها سوداً . ولما عرضت

(١) Shaffer : Psychology of Adjustment p. 335

حالتها على الأخصائى النفسانى ، ورأى إلى جانب الأعراض الأخرى بطئاً شديداً فى التفكير رغم سلامته ، أقترح عرض الفتاة على أخصائى الغدد . وبالفعل وجد الأخصائى الأخير أن الغدة الدرقية فى حاجة إلى تنشيط ، وعولجت من هذه الناحية، ولكن إلى جانب العلاج الطبى كانت الفتاة فى حاجة إلى تصحيح موقفها نحو نفسها، وكانت الحالة تستدعى أيضاً تصحيح موقف الوالدين نحو الفتاة ، وهذا الجزء من العلاج قام به الأخصائى النفسانى بنجاح كبير .

أثر العقل فى الجسم

لعل التصديق بأن الجسم يؤثر فى العقل أسهل بكثير من التصديق بأن العقل يؤثر فى الجسم ، فمن السهل على الناس أن يصدقوا كيف أن شرب الخمر يسبب « الهلوسة » المؤقتة ، وكيف أن أكلة ثقيلة تؤدى إلى الشعور بالخمول ، وكيف أن حالة الزكام أو الإمساك ، يترتب عليها شعور بالضيق والانقباض ، ولكن المشاهدات العديدة تدلنا كذلك على أن الحياة العقلية لها أثر قوى على الحياة الجسمية ، ولا ننوى الدخول فيما نسمعه عن مقدرة بعض الهنود مثلا على إخضاع جسومهم لإرادتهم إلى الحد الذى يمكنهم من وضع أذرعهم مثلا فى النار دون أن تحترق ، أو السير على أسنة مدببة دون أن تدمى أقدامهم العارية ، ولكن نكتفى بما يلاحظ فى الحياة اليومية والميادين العلمية المألوفة .

الحالات الانفعالية

سبق أن تكلمنا عن الانفعال على أنه حالة عقلية صرفة يترتب عليها تغيرات جسمية واضحة . ولعل كثيراً من الناس يلاحظون أن شعورهم بالقلق النفسى ينتج عنه حالة إمساك ، وحالة الإمساك بدورها تزيد من حدة الشعور بالقلق ، وهذه الزيادة تزيد من حالة الإمساك ، فكأنه تنشأ أحياناً فى مثل هذه الحالات حلقة مفرغة

لا بد من قطعها فى نقطة ما حتى يمكن التخلص من حالتى الإمساك والقلق فى وقت واحد .

« ونعرف كذلك ما لحالات الغضب والخوف من آثار . فإذا كان الغضب متكرراً نتجت حالة مزمنة من سوء الهضم ، وارتفاع ضغط الدم ، ثم تنشأ الدائرة المفرغة التى تزيد تبعاً لها كل من الحالتين الجسمية والنفسية . »

ومن الحالات التى يشير إليها كانون[1] . حالة سيدة سافرت من الريف إلى المدينة ليجرى عليها اختبار الغذاء ، حتى يساعد هـذا الاختبار على تشخيص حالة معدتها . وطريقة ذلك هى إعطاء وجبة غذائية أول الأمر فى الصباح ، ثم استخراج جزء منها بعد مدة معينة بواسطة أنبوبة طويلة تولج فى المعدة من الفم . وكانت السيدة قد حضرت إلى المدينة فى اليوم السابق ، وقضت الليلة فى فندق ، ثم ذهبت فى الصباح إلى الطبيب المختص ليجرى عليهـا الاختبار . ولـكنه وجد باستخراج « العينة » من المعدة أن معها كثيراً من طعام عشـاء الليلة السابقة لم يهضم بعد وبالاستقصاء اتضح أنه بعد أن تناولت هى وزوجها طعام العشاء . خرج الزوج القادم من الريف ليمتع نفسه بشرب الخمر فى المدينة ، فقلقت الزوجة عليه ، وتألمت من عمله . وكانت نتيجة الحالة الانفعالية أن بطل عمل المعدة فى هضم طعام بقى ما يزيد على اثنتى عشرة ساعة ، وكان فى الظروف العادية لا يبقى منه شىء فى ظرف ساعتين أو أكثر من ذلك بقليل .

أمثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية

هناك حالات عادية تمر علينا كل يوم يمكن تفسيرها بعد تأملها . ومن هذا مثلا حالة شخص كان ينتابه صداع شديد فى أيام الجمعة عن الاستيقاظ من النوم . واستمر يظهر هذا الصداع عنده مدة طويلة . واتضح بعد ذلك أن ظروفه كانت تفرض عليه

(١) Cannon: Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.

واجباً عائلياً لا بد أن يؤديه يوم الجمعة . وهذا الواجب ليس فى الحقيقة محبباً إلى نفسه ، ولكن التقاليد والمجاملات تحتم عليه إبداء سروره من قيامه بهذا الواجب . فانتابته لهذا حالة صداع يستيقظ به يوم الجمعة . ويساعده بالطبع على الاعتذار عن أداء هذا الواجب دون أن يشعر بتأنيب الضمير لفراره من واجب بغير سبب وجيه . وهناك اعتقاد بأن أوجاع الرأس والأمراض التى تنتاب التلاميذ فى الفترة السابقة للامتحان لا ترجع كلها للإنهاك ، أو لسبب جسمانى ، وإنما يرجع قسط كبير منها عادة للخوف اللاشعورى من مجابهة الاختبار الذى لا مفر من مجابهته .

وهناك حالة أخرى لسيدة تزوجت بشخص ينتمى لأسرة متدينة محافظة . فلما حل شهر رمضان عقد الزوج وزوجته نيتهما على أداء فريضة الصوم ، فلما جاء ميعاد الوجبة التى تؤخذ قبل الفجر (السحور) شعرت السيدة فجأة بآلام شديدة حادة فى أورا كها ، وانهمرت دموعها من شدة التألم . وانقضى الوقت دون أن تتناول طعامها ، وأصبح لديها بذلك عذر مقبول يبرر عدم الصوم . ولما جاء الوقت الذى يكف فيه كل صائم عن الأكل وهو قبيل الفجر فاقت السيدة إذ ذاك من حالتها ، وأصبحت كأن لم يكن بها ألم بالمرة . فالألم الجسمى فى هذه الحالة — وكان حقيقياً لاادعاء فيه — أدى وظيفة هامة ، وهى حماية هذه السيدة من الصوم دون المساس بتقاليد الأسرة الجديدة .

وحالة ثالثة وهى لطالب أرسله والده إلى العيادة السيكولوجية وسنه تسع عشرة سنة بشكوى أن الولد تنتابه نوبات عصبية شديدة مصحوبة بغيبوبة . والولد على درجة كبيرة جداً من الذكاء والحساسية وصحته العامة فى مجموعها حسنة ، ماعدا بعض الضعف الناشىء من وقت بدء النوبات مما يرجح فكرة أن النوبات لاترجع لسبب جسمى ، وإنما ترجع لسبب عقلى ، وقد أمكن الوصول إلى هذه النتيجة بعد فحص الشاب فحصاً طبياً دقيقاً للغاية شمل مع النواحى العادية المعروفة نواحى تحليل الدم والبول والبراز . ثم اتجه البحث بعد ذلك لدراسة حالته النفسية ، فوجد أن والده كان قد اختلف مع

والدته فطلقها وتزوج بغيرها . وفى أحد الأيام كان الطالب جالساً مع زوجة أبيه فأخذت تحدثه عن علاقتها بأبيه وكيف اتفقا على الزواج . . . إلى غير ذلك . وشعر الولد فى ذلك الوقت أنه ممزق بين أمرين : أحدهما وجوب حسن الاستماع تأدباً منه ، والآخر نفوره من الاستماع لقصة مبغضة إلى نفسه ، لعلاقتها بما ينغص معيشته ومعيشة أمه . وبعد هنيهة نادى خادمته واحتد عليها بلا سبب كاف ، ثم بكى وضاق صدره وأغمى عليه ، وتكررت بعد ذلك نوبة الإغماء فى ظروف يطول شرحها فى هذا المقام . وقد أمكن معالجة الولد من النوبات إلى أن انقطعت تماماً وذلك بتركه يتحدث ويربط حاضره بماضيه . ويجعله يواجه ظروفه وصعوباته مواجهة أقوى مما سبق له أن يفعل .

وحالة أخرى وهى حالة بنت عمرها إحدى عشرة سنة أصاب إبصارها فجأة ضعف شديد واتضح أنه لم يكن هناك أى سبب عضوى يفسر هذا الضعف . ولكن البنت كانت تعيش فى وسط يهتم بأخيها وبأختها أكثر منها بكثير . وقد نجح هذا الضعف فى أداء وظيفة هامة للبنت ، وهو أنه حول اهتمام الأسرة كلها إليها بدرجة شديدة . أما العلة فى أن الحالة النفسية للبنت تعبر عن نفسها بهذه الصورة فشرحها يحتاج إلى إفاضة ليس هذا مكانها .

وهناك حالات كثيرة من هذا النوع يقوم فيها عضو أو أكثر من أعضاء الجسم بخدمة الفرد عن طريق المرض المؤقت أو الدائم . ومن أمثلة ذلك حالات الشلل فى الجند لحمايتهم من الحرب دون أن يفقدوا شرف الجندية ، وحالات الشلل بين العمال بصورة تريحهم من العمل ومن تحمل المسئولية ، وتذهب بهم حيث يجدون العطف والرعاية ، وحالات الحمل الكاذب عند السيدات اللواتى طالت بهن مدة الزواج دون أن يحملن وهن يتمنينه أحياناً إرضاء لرغباتهن أو رغبات أزواجهن . وهناك حالات فى الصم والعمى وغير ذلك يمكن تفسيرها بنفس الطريقة .

أثر الإيحاء

وأثر الايحاء فى الحالات الجسمية أمر معلوم ، ففكرة الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان يمكن أن تؤدى إلى الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان ؟ وقد أجرى أحد الأطباء النفسيين واسمه ساتو (Satow) [1] تجربة قال إنه ندم بعض الندم بعد إجرائها . كان ساتو يعالج مرضاه إلى حد كبير بالايحاء الجمعى ، وفى يوم من الأيام وزع على مرضاه كؤوساً من النبيذ ، و بعد أن شربوا بقليل عاد إليهم ، واعتذر وأبدى أسفه الشديد ، وقال (بغير حق) إنه كشف أن الذى أعطاه إياهم لم يكن نبيذاً ، و إنما كان دواء مقيئاً ، وقد أخطأ لتشابه الزجاجات عليه ، و بعد قليل جداً قام أحد المرضى ليتقيأ ، ثم تبعه ثان ، ثم ثالث إلى أن تقيأوا جميعاً .

«والعلاجات الطبية يرجع قسط كبير من نجاحها إلى مايصاحبها من إيحاء بالشفاء» و إذ توافرت العقيدة أمكن الوصول أحياناً إلى الشفاء دون أخذ الدواء وطريقة كوى (Coué) قائمة على هذا الأساس . وعلى سبيل المثال أذكر حادثاً وقع لكاتب هذه السطور ، فقد كان عنده يوماً ما صداع شديد ، ولم يرد أن ينقطع عن العمل ، فأخذ معه فى جيبه قرصاً من الأسبرين ، ولكنه نسى أن يبتلعه ، واعتقد أنه أخذه ، وشعر فعلا بالدفء والانتشاء الذى يصاحب أخذ الأسبرين ، واكتشف بعد ذلك أن الأسبرين مازال كما هو بجيبه .

وحادث آخر لشخص كان مصاباً بالسعال (Asthma) ، وكان يسكن بأحد الفنادق فاستيقظ بالليل ضيق الصدر ، شاعراً بالحاجة إلى هواء نقى ، فقام يتلمس مفتاح النور فلم يعثر عليه ، فأخذ يتلمس مكان النافذة ، وأخيراً أحس بملمس الزجاج ، فحاول فتحه فلم يتمكن ، فدفعه بيده بعد أن وقاها بملابسه وكسره وأخذ نفساً عميقاً ، واستراح مما كان عنده من ضيق ، ونام هادئاً مسروراً . واستيقظ فى الصباح فوجد أن زجاج

(١) Satow : Suggestion & Hypnotism.

النافذه مازال مغلقاً وأن الذى كسره هو زجاج ساعة كبيرة معلقة فى الحائط . وأنه لم يستنشق فى واقع الأمر ماظن أنه استنشقه من هواء نقى[1] .

خاتمـــــة

" بحثنا فى هـذا الفصل أهم النواحى التى توضح وجود علاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية للفرد ، ووجدنا أن من اللازم عند دراستنا لمشكلات الصحة العقلية أن ندرس الناحية الجسمية دراسة مستفيضة . فكثير من الأعراض الجسمية يمكن أن نعثر له على عوامل عقلية . وكذلك الأعراض العقلية يمكن فى كثير من الحالات أن نعثر لها على عوامل جسمية .

(١) Rees : The Health of the Mind p. 78.

المراجع

Aveling : Personality and Will.
Bannister : Psychology and Health. Ch. XIII & XIV.
Berman : The Glands Regulating Personality.
Berman : The Personal Equation.
C. Bloor : Temperament.
Bode : How We Learn.
C. Burt : The Young Delinquent. Ch. V & VI.
C. Burt : The Backward Child. Ch. VI & VII.
Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.
Firth : Human Types.
Fox : The Mind and Its Body.
Gordon : Juvenile Delinquency. Ch. VIII.
Joad : The Workings of the Mind.
Kretschmer : Physique and Character.
McDougall : Body and Mind.
McDougall : An Outline of Psychology.
Miller : Types of Mind and Body.
Rees : The Health of the Mind. Ch. II & III.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Starling : Principles of Human Physiology.
Woodworth : Psychology : The Study of Menal Life.

الفصل الرابع

الغرائز والحاجات

مقدمة :

لكى نفهم مشكلات الصحة العقلية — أو مشكلات السلوك بوجه عام — يلزمنا أن نفهم أولا السلوك العادى ، ونتقصى دوافعه والعوامل التى تفسره ، ونقف على تطوراته ، وكيفية تأثره . وتطلق كلمة سلوك على الأفعال التى يأتيها الفرد ويكون لها بالحياة النفسية أو العقلية عنده علاقة ، ولذا تطلق كلمة سلوك عند أغلب علماء النفس الحديثين على السلوك العقلى (Behaviour) ، ولهذا نخرج من حسابنا الأفعال العشوائية والأفعال المنعكسة . والأفعال العشوائية (Random Movements) هى تلك الأفعال الآلية التى نلاحظها فى صغار الأطفال من تحريك اليدين والرجلين حركات مختلفة مستمرة لا يبدو لنا فيها نظام أو توافق . وربما كان لهذا حكمة فى تمرين عضلات الطفل ، وفى إيصاله بالعالم الخارجى عن طريق الاصطدام الذى لا بد أن يحصل بين هذه الأعضاء وبين أجزاء العالم الخارجى . وأما الأفعال المنعكسة (Reflex Actions) فهى مجموعة ردود أفعال تصدر عن الإنسان بطريقة آلية ثابتة ، ومن أمثلتها انقباض حدقة العين ، وضيق فتحتها بازدياد الضوء الواقع عليها ، واتساعها بقلته ، وكالسعال ، والعطس ، وسيلان اللعاب ، وغير ذلك من الأفعال الآلية . وكل من الأفعال المنعكسة والأفعال العشوائية يمكن أن تتم دون تدخل من الشعور أو الحياة العقلية ، ولكل منها حكمة لا يقصدها الكائن الحى أثناء صدورها منه .

أما ماعدا ذلك من الأفعال فيطلق عليها اسم السلوك العقلى ، وهو يتميز بصفة

هامة ، وهى أن الكائن الحى عند قيامه بها يرمى إلى تحقيق غرض معين . وهذا الغرض (الموجود فى عقل الكائن الحى) ، والذى يرمى إلى تحقيقه يعطيه صفة هامة وهى صفة التلقائية (Spontaneity) ؛ فالإنسان أو الكلب أو القط يتحرك من تلقاء نفسه لغرض يرمى إلى تحقيقه ، كالنزهة ، أو اللعب ، أو تناول الطعام ، أو غير ذلك . والكائن الحى يتأثر عادة فى سلوكه بالمؤثرات الخارجية ، ولكن ليس كل ما يقوم به الكائن الحى من سلوك عبارة عن رد آلى للمؤثرات الخارجية . وإنما يدل السلوك على أن هناك مجموعة من القوى أو الدوافع أو المحركات التى تدفع الكائن الحى للقيام بسلوك يرمى إلى تحقيق غرض معين .

وبالموازنة بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان ، وكذلك بالموازنة بين أنواع سلوك الإنسان فى مراحل النمو المختلفة وصل علماء النفس إلى أن الدوافع الأولية للسلوك واحدة فى الإنسان والحيوان الراقى . وهذه الدوافع فطرية وراثية . والذى سهل كشف هذا هو ما بين سلوك الإنسان والحيوان من تشابه لا يصعب إدراكه فى كثير من الأحيان . فالمرء إذا جلس فى حضرة شخص عظيم استشعر الخضوع ، وبدا على عضلاته بعض الترهل ، ولم يجرؤ على رفع صوته أو الاحتداد ، أو تقطيب الوجه ، كذلك الكلب الصغير مثلا فى حضرة الكلب الكبير ، تبدو عليه علامات الذلة والخشوع كترهل العضلات ، وانخفاض الذيل واختفائه بين الأرجل الخلفية وما إلى ذلك . وأما الكلب الكبير فيبدو عليه فى مثل هذا الموقف التيه والتعاظم ، كما يختال الإنسان ويتيه فى حضرة من هم دونه . وكما أن الأم تهيىء لطفلها المكان والملابس وكل اللوازم قبل الوضع وتعنى به بعد الولادة ، وتحميه من كل خطر تتوقعه ، فكذلك الحمامة ، تعد عشها ، وتهيئه بالقش وتثبته عادة فى مكان آمن بعيد ، ثم ترقد على بيضها ، وتبدى عنايتها الشديدة به ، وتحنو على صغارها وتدفع عنهم الأذى . وهكذا نجد تشابهاً كبيراً بين الحيوان والإنسان فى الحالات المعروفة بالخوف والغضب والجوع والاجتماع الجنسى والاستطلاع والاستنجاد وغير ذلك .

وهذا النوع من الدراسة التتبعية (Genetic Method) الذى نتتبع به السلوك فى الحيوان بمراتبه المختلفة إلى أن نصل إلى الإنسان ، ونتتبع به سلوك الإنسان فى أدوار نموه المختلفة ، أدى إلى سهولة كشف الدوافع الفطرية للسلوك .

وتنقسم هذه الدوافع الفطرية بحسب رأى مكدوجل[1] إلى نوعين :

(ا) النزعات الفطرية الخاصة أو الغرائز .

(ب) النزعات الفطرية العامة .

الغـــرائز

الغرائز عند الإنسان هى ما لديه من استعدادات فطرية تدفعه للقيام بسلوك خاص إذا ما أدرك نفسه فى موقف أو مجال معين ، ومن الغرائز التى أثبت وجودها مكدوجل ما يأتى :

١ — غريزة الخلاص : وهى استعداد يستثار فى الإنسان إذا ما أدرك نفسه فى موقف خطر ، ويشعر إزاءه بانفعال الخوف ، ويرمى إذ ذاك إلى تخليص نفسه بالهرب ، وهذه الغريزة موجودة بالطبع عند الإنسان والحيوان ، ولا يتعلمها الكائن الحى ، وتظهر فيه منذ الطفولة .

٢ — غريزة المقاتلة : وهى استعداد يستثار فى الإنسان إذا ما أدرك نفسه إزاء عائق يقف فى سبيل تحقيق رغباته ، ويشعر إزاء هذا العائق بشعور الغضب ، وينزع إلى تهشيم العائق والتخلص منه عن طريق هجومه عليه ومقاتلته إياه . وغريزة المقاتلة موجودة عند الإنسان والحيوان ، وتظهر فى الطفل دون أن يعلمه إياها أحد .

٣ — غريزة الوالدية : وانفعالها المصاحب هو الحنو ، وهى تستثار عند إدراك

---

(١) رأى مكدوجل هو أكثر الآراء شيوعاً وأقواها إلى الآن ، ولم نرد أن نتوسع فى التعرض لآراء الآخرين أمثال تورندیك والسلوكيين وأئمة مدارس التحليل النفسى ومدارس الجشتالت وأمثال شنيدر وترتر وتانسلى وغيرهم لعدم ملاءمة المجال لعرض نقط جدلية ولمناقشة نظرية صرفة .

الضعف فى الآخرين وحاجتهم إلى المساعدة . وهى تظهر متأخرة عند الإنسان ، أى أنها لا تظهر على الأقل فى السنوات الأولى : وتتجه بصورتها الفطرية نحو حماية الذرية ، ولكنها بصورتها المعدلة تتجه إلى موضوعات أخرى كالفقراء أو العجزة أو الحيوان أو المجتمع .

٤ — غريزة الاستطلاع : وتستثار إذا وجد الإنسان نفسه أمام موقف يبهمه ، مألوف منه جزء بالنسبة إليه ، فينزع إلى استطلاع بقيته . وهذه الغريزة هى التى تدفع الأطفال إلى العبث بكثير مما يقع تحت ناظرهم .

٥ — غريزة البحث عن الطعام : وهى ظاهرة معروفة عند الكبار والصغار سواء فى ذلك الحيوان أو الإنسان ، وتظهر بعد الولادة مباشرة .

٦ — غريزة الاستغاثة : وتظهر عند شعور الإنسان بالضعف ، والعجز ، والحاجة إلى المعونة ، ومظهرها البدائى الصراخ عند الحيوان والإنسان . وتظهر فى الأطفال كذلك دون سابق تعليم .

٧ — غريزة النفور : وتستثار فى الأصل من دخول بعض المواد الغريبة فى الفم ، ولكن يستثيرها فى الكبر منظر مقزز ، أو سلوك شائن .

٨ — الغريزة الجنسية : وغايتها الأصلية هى الاتصال الجنسى المؤدى إلى التكاثر وتظهر فى الإنسان مكتملة النمو فى دور المراهقة .

٩ — غريزة السيطرة : وتظهر إذا وجد الإنسان نفسه فى موقف يشعره بالقوة ، ونشاهدها فى الأطفال ، وفى الحيوان ، كالخيل والطاووس ، وغير ذلك .

١٠ — غريزة الخنوع : وتظهر إذا وجد الإنسان نفسه فى موقف يشعره بالعجز ، ويترتب على هذه الغريزة وسابقتها تقسيم الجماعات إلى زعماء وتابعين . كما يترتب عليهما — إلى حد ما — الشكل الذى تتخذه فكرة المرء عن نفسه .

١١ — غريزة التملك : وغايتها حيازة الأشياء ، وتظهر فى الطفل منذ مد يده للقبض على ما يراه . ولكنها تظهر بصورة قوية فى الأطفال بعد سن الخامسة ،

عندما تجد جيوبهم محشوة بمختلف الأشياء . وهى موجودة عند الحيوان بوضوح فى السنجاب والنمل . ولو أنها فى الحيوان تخدم — بصورة واضحة — غرائز أخرى كالبحث عن الطعام .

١٢ — غريزة الحل والتركيب ، أو الهدم والبناء : وهى تبدو فى عبث الإنسان بيديه بالأشياء لمجرد العبث ، وهى ظاهرة فى الأطفال ، وفى الكبار بدرجة أقل . وقد يقوم نشاط هذه الغريزة بخدمة أغراض غريزة الاستطلاع .

١٣ — الغريزة الاجتماعية : ومظهرها ميل الإنسان إلى الاجتماع بينى جنسه وهى بارزة فى الحيوانات الضعيفة كالغنم ، والجاموس ، والطيور غير الجارحة . وهى ضعيفة فى الحيوانات القوية ذات العضلات القوية والمخالب والأنياب الحادة . إلا أن انتقال الحيوانات القوية إلى حالة الضعف يثير عندها هذه الغريزة .

١٤ — غريزة الضحك : وقد اختلف العلماء فى تفسير الضحك تفسيراً واضحاً إلا أنهم اتفقوا على أنه سلوك غريزى فى الإنسان .

وتوجد بضعة غرائز أخرى يرتبط أغلبها بالحاجات الجسمية العادية كالنوم والتبول وغير ذلك .

وإذا حللنا سلوك الإنسان فإنا نصل فى النهاية إلى غريزة أو مجموعة غرائز؛ فالتدخين مثلا قبل أن يصبح عادة يمكننا أن نقول إن مصادره هى غرائز السيطرة ، والاجتماعية ، والاستطلاع . فالسيطرة تفسر تدخين الولد عند ما يفعل ذلك خصوصاً فى سن المراهقة ويشعر بذلك أنه كبير ، أو يريد أن يعتبر نفسه كبيراً ، وأن التدخين أسلوب يصل به إلى مصاف الكبار ، والاجتماعية تفسر كيف أن التدخين أسلوب بسيط للسلوك ، إذا قام به أكثر من فرد واحد فى مكان واحد ، فإنه يربطهم بعضهم ببعض . والاستطلاع يفسر كيف أن أول (سيجارة) يدخنها الفرد ، إنما يدخنها للاستطلاع ، والتجريب ، ولمعرفة طعم الدخان ، وكيف توقد (السيجارة) ، وكيف تنتهى .. إلخ . ويلاحظ أن السيطرة والاجتماعية والاستطلاع كلها هنا دوافع ، أو قوى ، تدفع

الإنسان للقيام بالتدخين . ولم نقصد فى هـذا المقام أن نستكمل تفسير التدخين بعد التعود ، وإنما قصدنا إلى ذكر أهم الدوافع الأصلية التى تجعل التدخين محبباً إلى المرء أول الأمر .

والدوافع للسلوك تكون فى أحيان كثيرة دوافع غير مباشرة ، فحب العلم والانكباب على طلبه قد يكون حقيقة بدافع الاستطلاع ، وقد يكون من بين الدوافع عليه دافع المقاتلة ، وذلك إذا واجهت المرء مشكلة تتحداه وأراد التغلب عليها . ولكنه قد يكون كذلك بدافع كسب الرزق للبحث عن الطعام ، وبدافع تحسين الذات ، حتى يروق المرء فى نظر شخص آخر يميل إليه ، وفى هذه الحالة قد يكون الدافع الجنسى سبباً غير مباشر فى الانكباب على طلب العلم . ونعلم أن العالم الرياضى — نيوتن — كان متأخراً جداً فى سنى دراسته الأولى ، وفى يوم تشاجر مع تلميذ آخر ، وهزم هزيمة منكرة ، فصمم على التغلب على خصمه فى الدراسة . وبالفعل شد عزيمته ، وركز اهتمامه فى الدراسة ، وكان له ما أراد . ومن ثم تدرج من نجاح إلى آخر ، حتى وصل إلى مانعرفه عنه من وضع أسس العلوم الرياضية والفلكية الحديثة . فكأن الدافع الأول لنيوتن على العمل والبحث كان مزيجاً من دافعى السيطرة والمقاتلة . ليس معنى هذا أن الدافع وحده يفسر تفوق نيوتن ، فلا بد مع وجود الدافع من توافر المقدرة على تحقيق غايات هذا الدافع .

لنأخذ مثالا آخر : المدرس الذى يضرب تلميذاً ضرباً عنيفاً ، لأنه لم يؤد واجبه المنزلى . يحس إحساساً غامضاً بأن عدم أداء الواجب المنزلى مظهر من مظاهر العصيان . وهذا يصطدم مع غريزة السيطرة عند المدرس . وربما يكون عند المدرس إحساس غامض آخر بأن عدم أداء الواجب المنزلى قد يؤدى إلى تأخر التلميذ ، وهذا بدوره قد يؤدى إلى سوء نتيجة الامتحان فى الفصل ، أو سوء تقارير المفتشين عن المدرس ، مما قد يؤثر — ولو إلى حد — فى كسب المدرس لعيشة ، فيصطدم الموقف بذلك — ولو اصطداماً جزئياً — بغريزة البحث عن الطعام . أو قد يؤثر فى شعور المدرس

بكرامته ، فيصطدم الموقف بذلك مع غريزة السيطرة . هذا مع العلم بأن المدرس لو لجأ إلى التفكير المنطقى لسلك سبيلا أخرى .

تدلنا كل هذه الأمثلة على إمكان إرجاع سلوك الإنسان إلى الدوافع الأولية الفطرية المسماة بالغرائز . وهذه الغرائز هى القوى أو المحركات الأساسية للسلوك . وقد أدى كشفها إلى تغيير موقف المربى إزاء عمله ، فبعد أن كان الطفل عندما يولد ينظر إلى عقله كأنه صفحة بيضاء ، ينقش عليها المربى كل مايريد ، أصبح من المعروف أنه يولد وعنده قوة تدفعه للقيام بأنواع من السلوك يخدم كل منها غاية حيوية معينة ! وبذلك أصبح لدى المربى نقط أساسية يمكنه أن يبدأ منها عند محاولته توجيه الطفل أو تربيته ، أو محاولة فهم سلوكه . وقد أصبح للتربية معنى جديد ، فبعد أن كان المفروض أن يقوم المربى بكل العمل لتكوين الطفل بالصورة التى يريدها ، أصبحت مهمته هى تهيئة الظروف لإنماء القوى الموجودة فعلا فى الطفل على أحسن وجه ممكن ! وهذه القوى هى الخامات أو المواد الأولية التى تستعمل فى تكوين الفرد فى نواحيه العقلية والخلقية المختلفة .

النزعات الفطرية العامة

و إلى جانب الغرائز يقرر علماء النفس وعلى رأسهم مكدوجل أن هناك مجموعة نزعات يسميها بالنزعات الفطرية العامة وهى [1] : —

١ — القابلية للاستهواء Suggestion

٢ — المشاركة الوجدانية Sympathy

٣ — التقليد Imitation

٤ — اللعب Play

(١) لايتسع المقام هنا لتفصيل أسباب تسميتها بالنزعات الفطرية العامة ، وسنفصل هذا إن شاء الله فى مناسبة أخرى .

والمشاركة الوجدانية هى أن الكائن الحى يشعر بالحالات الانفعالية التى تجرى فى كائن حى آخر من نفس النوع عند إدراكه المظاهر الخارجية لهذه الحالات الانفعالية. فإذا سمع الإنسان شخصاً يضحك ، فإنه يشعر بشعور الطرب ، ويضحك أو يبتسم أى أن شعور الفرح أو الطرب ينتقل من شخص إلى آخر، بعد إدراك الأخير لمظاهر التسلية فى الأول ، بسماعه ضحكه أو رؤيته ابتسامه .[1] والمشاركة الوجدانية تزيد بازدياد الرابطة الاجتماعية . وهى نفسها عامل أساسى فى تقوية الروابط الاجتماعيـة . وتنتقل الانفعالات فى الجماعات الكبيرة أسهل مما تنتقل فى الجماعات الصغيرة[2] فالنكتة التى تنتقل فى وقت ما من شخص إلى شخص واحد فقط لاتثير فى العادة كميـة الضحك التى تثيرها إذا سمعهـا جمهور من خطيب . وكمية الضحك فى هذا الجمهور إذا كانت تربط أفراده علاقة تكون أكثر وأقوى غالباً مما إذا لم توجد بينهم علاقة ما . والجو المنزلى ، أو المدرسى ، الذى تسوده حالة انفعالية ما كالكآبة أو تقدير الجمال ، أو الكراهية ، أو الحنو ، أو الإعجاب بالعظماء ، أو غير ذلك ، تجد أن من يعيشون به من الصغار يتأثرون به تأثراً سريعاً عميقاً ، لاسيما إذا كان المصدر الأول لهذه الحالات الانفعالية هو الكبار المهيمنون على هذا الجو .[3] وفى الإنسـان ما يساعده على التعبير الانفعالى ، كالصراخ ، والضحك ، وتقطيب الوجه ، والجرى والرقص ، وتحريك اليدين وغير ذلك[4]. وفى زميله الإنسان مايساعده على إدراك هذه التغييرات ، والشعور تواً بما وراءها من انفعالات ، مما يؤدى إلى تكوين وحدة فى الشعور الانفعالى بين جماعات الناس ، ومما يساعد على فهم الشخص المتأثر للحالة النفسية الداخلية عند الشخص المؤثر .

[5]والتقليد هو انتقال السلوك من كائن حى إلى كائن حى آخر يكون غالباً من نفس النوع. فالولد يقلد أبويه فى الكلام ، والمشية ، وأسلوب المعيشة ، وغير ذلك. والمواطنون يقلد بعضهم بعضاً فى الملبس، وطرق التحية ، وأساليب التعامل بوجه عام. وأنواع السلوك التى يقوم بها أفراد أمة نوعان : تقاليد ثابتة كالأديان وأخرى متغيرة كأشكال الملابس .

والتقليد يكون مصحوباً بمشاركة وجدانية فى أحيان كثيرة ، أو مصحوباً بإعجاب الذى يقلد لمن يقلده . ويدفع للتقليد شعور الفرد بالإعجاب للشخص ، ولهذا نقلد العظماء ، والكبراء والآباء ، والمدرسين ، أو شعور بالاهتمام بالعمل نفسه ، فإذا رأيت شخصاً يقوم بحركة معقدة ، فقد أنزع إلى تقليدها لكى أفهمها أو لكى أتقن أداءها ، أو رغبة فى تحقيق الغاية التى يرمى إليها هذا العمل . والصغير شديد التقليد لمن هم أكبر منه لشعوره بأن التقليد يجعله فى مصاف الكبار ، والطفل ميال للسيطرة والنمو .

والقابلية للاستهواء هى استعداد الشخص لتقبل فكرة من آخر مع عدم استيفاء الأسباب المنطقية الكافية لذلك . فيكفى أن نسمع خبراً من حجة فنصدق هذا الخبر ، ويكفى أن نقرأ رأياً فى كتاب ، أو خبراً فى جريدة يومية ، فنصدقه أو على الأقل نميل إلى تصديقه . ويتقبل الأطفال كثيراً من آراء الكبار المحيطين بهم ، ويأخذونها أحياناً عقائد راسخة . فتقبل الطفل لعقيدة والديه ، أو لكثير من مبادئهما ، يأتى عن هذا الطريق . ويسهل امتصاص الأفكار من الزعماء ، والقادة ، والآباء ، والمعلمين المحبوبين لوجاهة مراكزهم وصيتهم .

وهذه النزعات الثلاث تسمى بالنزعات الاجتماعية ، لأنها تكون أظهر ما يمكن فى المجتمعات ؛ وهى التى تعمل فوق ذلك على تقوية الروابط الاجتماعية ، وزيادة الانسجام العقلى فى الجماعات . ومن الضرورى الاهتمام بها فى تكوين الوعى الاجتماعى . ومن المهم جداً كذلك مراعاتها فى دراسة الأطفال ، وطرق تربيتهم .

والنزعة الرابعة هى نزعة اللعب ، والفرق الأساسى بين الجد واللعب أن العمل الجدى لا يقصد عادة لذاته ، وإنما يقصد لغاية خارجة عنه . وأما اللعب فإنه يقصد لذاته . ولعب الأطفال فى مراحل نموهم المختلفة له وظائف هامة فى حياتهم . ففى اللعب فرصة طيبة للتعبير عن غرائزهم التى لا يعبرون عنها التعبير الكافى فى حياتهم الجدية الواقعية . ففى اللعب الإيهامى يقوم الطفل بدور المدرس أو الوالد أو الطبيب ، ويسيطر على زملائه كأنهم جميعاً أصغر منه . وبذلك يعبر عن السيطرة التى لا تتاح له الفرصة

فى الحياة الواقعية لأن يعبر عنها تعبيراً كافياً ."وفى اللعب فرصة طيبة يستغلها الفرد ليمرن عضلاته ويمرن عقله ويمرن نفسه على فهم غيره ، وعلى حسن الاتصال به . وقصارى القول يمكن أن يمرن الفرد — عن طريق اللعب — قواه واستعداداته كلها للحياة المستقبلة . "

"وهذه النزعات الأربع كلها نزعات فطرية ، الثلاث الأولى منها كما قلنا اجتماعية . أما اللعب فإنه يمكن أن يكون فردياً ، ويمكن أن يكون اجتماعياً . ويضاف إلى ذلك أن التقليد ، والمشاركة ، واللعب كلها موجودة لدى الحيوان بشكل واضح . وأما القابلية للاستهواء فإنها يغلب أن تكون لدى الإنسان فقط ."

"ويضيف بعض علماء النفس نزعة فطرية خامسة وهى الميل للتكرار ، وبنوع خاص التكرار الإيقاعى (Rhythm) "والذين يلاحظون الأطفال يجدون أنهم يكررون قذف كرة مثلا مئات من المرات ، أو النطق بكلمة ما أو بصوت ما مرات عديدة كذلك . ويعلل هذا الميل للتكرار بأنه يؤدى إلى سهولة الأداء ، وبذا تصحبه لذة السيطرة والشعور بالقدرة ." فقيام الطفل بحركة ما ، ورغبته فى إتقانها ، تدفعه إلى تكرارها". والنجاح فى الإتقان يدفعه إلى تكرار الحركة . ولامانع من اعتبار الميل للتكرار نزعة عامة خامسة أو اعتبارها داخلة فى النزعة للعب . ويمكن أن نفسر بالميل للتكرار المنتظم ميل الأطفال إلى الرقص والموسيقى والرسم الزخرفى البسيط وما إلى ذلك .

"وقد اختلف علماء النفس فى تقسيمهم للنزعات الفطرية اختلافات كبيرة . فقد أكد فرويد (Freud) مثلا أن الغريزة الجنسية هى مصدر الطاقة البشرية . ولكن فرويد توسع فى معنى الغريزة الجنسية توسعاً أخرجها عن معناها المعروف . ففى رأيه أن كل لذة أو سرور إنما مصدره الغريزة الجنسية ، التى تبدأ تعمل بصورة ما منذ الولادة . ففى رأى فرويد أن التلذذ من الامتصاص ، ومن التبرز ، والتبول ، والاحتضان ، — وكلها تحدث فى السنة الأولى — إنما هو تلذذ جنسى". ويوجه على

هذا الرأى" اعتراضات وجيهة ، لعل أهمها الرأى القائل بأن هـذه العمليات لها قيمة بيولوجية هامة . وعلى ذلك فإنهـا يجب أن تكون لذيذة حتى تتم على وجه مفيـد ، فتناول الطعام ومضغه لذيذ ما دام الإنسان جائعاً لقيامه بسـد حاجة بيولوجية . فإذا ما شبع الإنسان قد تصبح أشهى أنواع الأطعمة مقززة ممجوجة . هـذا الرأى قال به سبنسر (Spencer) . وأخذه عنه من علماء النفس الحاليين كثيرون أمثال هادفيلد[1] (Hadfield) . واعتراض آخر أن تفسير فرويد[2] وأتبـاعه لأنواع السلوك بالغريزة الجنسية يستلزم كثيراً من اللف والدوران ، فليس من السهل أن نفسر ميل شخص للعلوم الرياضية وعدم ميله للعلوم اللغوية مثلا على أساس الغريزة الجنسية بتفسيرات قريبة المنال".

"ومن الآراء التى ظهرت فى هذا الميدان وأصبح لها شأن كبير رأى آدلر (Adler) الذى يعتقد أن الدافع الوحيد لدى الإنسان فى كل أنواع سلوكه هو دافع السيطرة ." وهذا الرأى شبيه بسابقه فى أنه يصدق فى حالات كثيرة ، "ولكن تفسيره لكل أنواع السلوك بدافع واحد وهو السيطرة يبدو فى كثير من الأحيان صناعياً متكلفاً ."

ومن الاتجاهات المتطرفة اتجـاه « ثورنديك » وأتباعه الذين يؤمنون بالسلوك الغريزى (Instinctive Behaviour) ويهملون فكرة الغرائز . وبذلك يضعون قوائم مطولة تصل أحياناً إلى ما يقرب من المـائة . وكذلك اتجاه « ديوى » ، « وينج » وأمثالهما وهم لا يتعرضون لأى تقسيم بل يتكلمون عن الطاقة الحيوية العامة . وبذلك يبدون أشد احتياطاً من غيرهم .

وقيمة الرأى الذى أثبتناه وهو رأى مكدوجل تنحصر فى أنه عملى من الناحية التطبيقية . فقد ثبت فى ميادين التربية أن من المفيد الاعتراف بغرائز مكدوجل

---

(١) محاضرات الدكتور هادفيلد فى الصحة العقلية لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣

(٢) لا يقلل هذا النقد من قيمة فرويد فهو كما سماه مكدوجل — وهو من أكبر ناقديه — أكبر عالم نفسى ظهر بعد أرسطو .

ومحاولة توجيهها ، ومن المفيد استغلالها فى تفسير السلوك سواء فى ذلك سلوك العاديين أو سلوك الشواذ[١] .

الحاجات النفسية

وقد وجد بعض المشتغلين بدراسة الأطفال فى العيادات السيكولوجية أن الغرائز وإن كانت تفسر سلوك الأطفال ، إلا أنها لا يسهل دائماً لمس غاياتها وإدراكها . ووصلوا إلى تفسيرات أخرى أكثر وضوحاً وأكثر لمساً من الغرائز ، وسموها بالحاجات النفسية (Psychological Needs)". فالطفل يعبث مثلا بما يحيط به من الأشياء ، ويرى مكدوجل أن الذى يدفعه إلى ذلك هو الميل للاستطلاع ، والميل للحل والتركيب والميل للعب . ولكن أصحاب فكرة الحاجات يقولون إن الطفل يرغب فى الشعور بالأمن فى بيئته التى يتعامل معها . ومما يزيد شعوره بالأمن الوقوف على أسرار هذه البيئة . ولذا تجده دائم البحث فى محتوياتها .' والذين رأوا تفسير سلوك الأطفال بالحاجات اختلفوا فى عدد هذه الحاجات وأسمائها .

وفى نظر بعض الباحثين توجد ثلاث حاجات أساسية[٢] وهى :

١ — الحاجة للنمو Growing up

٢ — الحاجة إلى أن يكون للفرد ميول Loving

٣ — الحاجة إلى أن يكون الفرد نفسه موضوع ميل Being Loved أو حب من الآخرين .

والمقصود بالحاجة للنمو هو النمو من جميع النواحى ، فهناك النمو الجسمى ، ونمو المعرفة ، وغير ذلك . ويمكن أن تفسر الحاجة للنمو بغرائز عدة : كالبحث عن الطعام ، وغريزة حب الاستطلاع ، وغريزة الحل والتركيب ، وغير ذلك .

---

(١) Is the Instinct Theory Dead; A Symposium, Brit. Journ. of Ed. Psych. 1940-1943

(٢) Miller : Advances in Understanding the Child ch. I.

"وأما حاجة المرء لأن يكون له ميول ، فإنها تبدو فى رغبة الطفل فى تكوين الأصدقاء ، وفى تكوين الهوايات ، وغير ذلك . وأما الحاجة إلى أن يكون هو موضوع ميل ، فمعناها أن يكون محبوباً من والديه وزملائه ، ورؤسائه ، ومرؤوسيه ، ومواطنيه ، وغيرهم ممن يتعامل معهم ." ولا شك أنها أيضاً حاجة أساسية يمكن تفسيرها بالغريزة الاجتماعية والسيطرة وما إلى ذلك". والذين يدرسون الحالات الفردية ذات المشكلات السلوكية يمكنهم استغلال هـــذه الحاجات الثلاث فى فهم سلوك الأطفال ومحاولة توجيههم إلى السلوك السوى .

" ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية اثنتان : وهما الحاجة للأمن ، والحاجة للمخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان فى المجتمع . فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة ، أو صون التقاليد ، وأخرى للتجديد ، والابتداع ، والمخاطرة . وهاتان القوتان تتنازعان المجتمعات والأفراد بشكل واضح . ويمكن تفسيرهما وتفسير ظواهرهما على أساس الغرائز التى وضع قائمتها مكدوجل . ويسهل علينا أن نتبين فى سلوك الأطفال تعبيراً عن هاتين الحاجتين . فبحث الطفل عن الطعام ؛ والتصاقه بوالديه ، وهربه من الخطر ، واجتماعه بزملائه ، إنما هو اتجاه نحو الأمن . وأما اتجاه الطفل إلى المقاتلة ، وحل الأشياء وتركيبها ، والتجول ، فإنه اتجاه نحو المخاطرة ". ويرى بعض الباحثين أنه يمكن الاستغناء عن التفسير المبنى على الحاجة للمخاطرة ، واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن .

" فالميل للمخاطرة يزداد ويبرز إذا ازداد توافر الشعور بالأمن . فالطفل الذى يهاجم غيره إنما يفعل ذلك لوثوقه من قوته . والفرد الذى يكسب عيشه من عمل معين ، لا يقدم بجرأة على الاستقالة منه عادة إلا إذا وثق من عمل آخر أو من احتمال وجود مورد آخر للرزق". أى أن الحاجة للأمن هى الحاجة الأساسية فى نظر هؤلاء الباحثين . ومن المفيد تذكر هذه الحقيقة فى تربية الأطفال ، فالصغير لا يشعر بالاطمئنان الذى يساعده على معالجة المشكلات الصعبة مما يساعده على التقدم المدرسى إلا إذا كان متقناً للمبادىء الأساسية واثقاً من نفسه فيها . ولا يجرؤ على الاتصال الاجتماعى الناجح

إلا إذا كان مطمئناً إلى مقدرته على ذلك اطمئناناً مشتقاً من فكرته عن نفسه فى المواقف الاجتماعية السابقة ". ويلاحظ أن الشعور بالأمن يترتب عليه النزوع للمخاطرة ونجاح هذه يكسب الشخص ثقة فى نفسه ، مما يزيد من ميله للمخاطرة ، وهكذا مما يبين كيف أن المخاطرة والأمن يمكن النظر إليهما كحلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل منها فى الآخر ".

ومع وجود هذه العلاقات يعتبر بعض الباحثين أن اختزال الحاجات كلها إلى الحاجة بالأمن فقط يجعلها غير مفيدة من الناحية العملية الشاملة لنواحى فهم السلوك ومحاولة توجيهه فى الفرد (١).

"ولهذا أيضاً نشأ تقسيم آخر أكثر تفصيلا وأكبر فائدة من الناحية العملية سواء فى ذلك التفسير أو العلاج وتبعاً لهذا التقسيم تكون الحاجات الأساسية ستاً وهى :

١ — الحاجة للأمن Security
٢ — الحاجة للمحبة Affection
٣ — الحاجة للتقدير Recognition
٤ — الحاجة للحرية Freedom
٥ — الحاجة إلى النجاح Success
٦ — الحاجة إلى سلطة ضابطة أو موجهة Control

والحاجة للأمن تبدو فى النواحى الجسمية والعقلية . فالطفل يريد أن يأوى إلى والدته ويريد أن يتغذى ، ويريد أن يأمن من البرد والحر وغير ذلك . والحاجة إلى الأمن العقلى تبدو فى خوف الطفل من كل غريب ورغبته فى خصه ، ومعرفته إذا أمكن ، حتى يتيسر له — بناء على معرفته به — أن يطمئن إليه ، أو يبتعد عنه

---

(١) ولكن من المفيد أيضاً فى بعض الأحيان اختزال جميع الاتجاهات النفسية إلى اتجاه واحد فأساس الإصلاح الاجتماعى الأمن الاجتماعى . فإذا اطمأن الفرد فى المجتمع إلى قضاء حاجاته الأولية أمكن اعتبار أساس التقدم الاجتماعى ثابتاً . وفكرة الأمن هى أساس اتجاه الأوضاع الاجتماعية الحديثة القومية منها والفردية . ويمكن أن تقوم الدراسة المقارنة بين النظم الرأسمالية المتطرفة وغيرها أو بين النظم الديمقراطية وغيرها حول فكرة واحدة وهى فكرة « الامن » وما مشروع بفردج الذى ظهر فى انجلترا أخيراً إلا قائماً حول فكرة واحدة وهى مقدار «الامن» الذى تقدمه الدولة للفرد .

نهائياً . فالرغبة فى الأمن رغبة أكيدة ، ولا يتقدم الطفل بسهولة — فى ميدان ما — إلا إذا اطمأن إليه ؛ وشعر بالأمن نتيجة لفهمه دقائق الموقف . وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار . وقد يترتب عليه تكوين الكراهية لمصدر الفقدان وتوجيه النزعات الاعتدائية إليه .

" وأما الحاجة للمحبة فتبدو فى أن الطفل يريد أن يشبع من حب أمه وحب من حوله له ، ويريد كذلك أن يعبر لهم عن حبه نحوهم ، ويخطىء بعض الآباء إذ يربون أولادهم تربية يظنون أنها مبنية على العقل والمنطق . وقد تكون فى الواقع مؤسسة على مجموعة من القواعد الجافة الخالية من كل لون ؛ بينما يريد الطفل أن يشعر شعوراً كاملا بحبه لوالديه ، وبحب والديه له . وهذا هو أحد أسباب أفضلية التغذية الطبيعية مثلا من ثدى الأم على التغذية الصناعية . فى الأولى تحضن الأم طفلها ، ويتمتع الطفل بأمرين : وهما الغذاء والحنان . وأما التغذية الصناعية فإنها تخلو غالباً من شعور الطفل بحنان أمه ، ولذا يحسن فى حالة الأطفال الذين تضطرهم ظروفهم إلى تغذية صناعية أن تحملهم أمهاتهم عند تغذيتهم إلى صدورهن ، وأن يضعنهم فى الوضع الخاص الذى ينصح به أطباء الأطفال (١) .

" وسنجد أن كثيراً من الحالات كحالات السرقة أو الهروب من المنزل سببها جفاف الآباء وخلو الجو المنزلى من العطف .

" وأما الحاجة إلى التقدير فإنها تبدو فى شغف الأطفال لأن يعترف بهم ، ويعاملوا كأفراد لهم قيمتهم . فإذا كلمنا الطفل فيحسن أن نلتفت إليه ، ولا نقدم عليه غيره فى كل مرة أو نهمله . ويستحسن أن نثق به ، ونكل إليه أعمالا تشعره بقيمته عندنا وتشعره بقيمته فى نظر نفسه . وحاجة الكبير لتقدير المجتمع الذى ينتمى إليه تلعب دوراً هاما فى تصرفاته .

" وميل الطفل إلى الحرية يبدو فى أبسط صورة من غضبه إذا قيدنا حركاته

(١) راجع مؤلفات الدكتور خليل عبد الخالق والدكتور مصطفى الديوانى .

ومن شغفه باللعب ، والتسلق ، والتزحلق ، والجرى ، وميله للحرية فى الحركة . ويتبعه ميله لحرية التعبير ، وحرية الكلام ، وحرية التفكير . والحرية من العوامل الهامة التى تساعد على النمو ، غير أننا نلفت النظر إلى أن الطفل يتضايق من الحرية التامة . فهو يود أن يعلم من آن إلى آخر حدوده وما يراد منه عمله . ويريد أن يكون متأكداً من سلوكه إن كان يوافقه عليه الغير أم لا . ومن هذا ينشأ الميل إلى عامل موجه أو سلطة ضابطة ، ترشد الطفل وتوجهه ، ولكنها لا تقيده بقيود جامدة ، تحد من حرية نموه . وتلعب هاتان الحاجتان دوراً هاما فى علاقة الأفراد الكبار بما ينتمون إليه من مجتمعات .

" كذلك يميل الطفل للنجاح ، ويتطلع له . والنجاح هو الذى يجعله يثق بنفسه ويشعر بالأمن " ، ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه . فالنجاح فى أول خطوة يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى هو الذى يدفعه إلى محاولات أخرى . ويتضاعف معنى هذا النجاح عنده إذا شجعه من حوله وأظهروا سرورهم به . ولذا لا يجوز وضع الطفل فى مجال يتكرر شعوره بفشل محاولاته فيه . ولا يجوز أن نحفز الطفل للوصول إلى مستوى بعيد عنه بحيث يتكرر فشله فى محاولة الوصول إلى هذا المستوى .

" وهذه الحاجات التى ذكرناها ليست مقصورة على الأطفال وإنما هى تفسر بسهولة سلوك الكبار والأطفال على السواء . وكل ما تمتاز به الحاجات عن الغرائز هى سهولة استغلالها فى تفسير السلوك وتوجيه العلاج ، ولكن لنتذكر أن الحاجات ليست مصادر أولية للسلوك ، وإنما يمكن تفسيرها بالغرائز التى تعتبر المنابع الأولى للطاقة البشرية .

الدوافع والقدرات العقلية

وعلينا أن نميز بين أمرين : وهما الدوافع للسلوك ، والقدرة على أدائه . إذ كثيراً ما يتوافر الدافع ولكن لا تتوافر القدرة لتحقيق هذا الدافع . ففرق بين الدافع للمقاتلة والقدرة على المقاتلة . والدافع للتفوق الدراسى والقدرة على التفوق الدراسى يختلفان كذلك بعضهما عن بعض .

ويمكن أن تشمل القدرات النواحى الجسمية كسرعة العدو والقوة العضلية أو القدرات الإحساسية كدقة السمع أو قوة البصر ، أو القدرات العقلية كالقدرة على التفكير أو التذكر أو غير ذلك .

ومن أهم ما يدخل تحت القدرات العقلية الذكاء ، ويعرف بأنه القدرة على تكيف الكائن الحى تكيفاً شعورياً للمواقف الجديدة[١] . وقد أجريت تجارب وملاحظات عديدة على حيوانات راقية كالكلاب والقردة ، وعلى حيوانات أقل منها فى مرتبة الرقى ، وثبت منها أن هناك قسطاً من الذكاء يزيد كلما ارتقينا مع الكائنات الحية فى سلم التطور .

ومن التجارب المشهورة تلك التى أجراها كهلر (Köhler)[٢] ، ففى تجربة منها تمكن « الشمبانزى » سلطان (Sultan) من أن يصل عصاتين من الغاب بوضع طرف إحديهما فى ثقب طرف الأخرى حتى يجعل منهما عصاً كبيرة ، ويتمكن من إحضار موزة بعيدة عنه لم يمكنه إحضارها بكل عصا على حدة . فسلوك « الشمبانزى » فى هذه التجربة يدل على الذكاء ، ولكن الذكاء يعمل فى خدمة الغرائز ، فالشمبانزى لجأ إلى ذكائه ليحصل على الطعام الذى يندفع إلى الحصول عليه بغريزة البحث عن الطعام .

ومن الملاحظات العديدة التى أجريت على الإنسان وعلى أنواع الحيوان ، يمكن أن يقال إن الغرائز هى القوى الدافعة ، وأما الذكاء فهو القدرة المرشدة ، أى التى ترشد الكائن الحى حتى يحقق الغاية التى يندفع لتحقيقها .

ولا يتسع المجال هنا لتحديد كنه الذكاء ، وحقيقة علاقته بالغرائز . ولكن من المسلم به أن غرائز الإنسان — نظراً لوفرة ذكائه واقتداره على الإفادة من سابق

---

(١) « شعورياً » هنا يقصد بها استبعاد التكيف الفسيولوجى الذى يحدث فى المواقف الجديدة كشدة البرودة أو الحرارة أو الجوع أو غير ذلك .

(٢) Köhler ; Mentality of Apes.

خبرته — تتعدل كثيراً فى ضوء تجاربه . وتعدلها فى الإنسان هو الذى يجعلنا نحكم على أعماله بأنها خير أو شر . بخلاف أعمال الحيوان فإننا فى العادة لا نصدر عليها هذا النوع من الحكم وذلك لقلة احتمال خضوعها للتعدل .

طرق تعدل الغرائز

وقد حصر مكدوجل طرق تعدل الغرائز فى أربع[1] وهى : —

١ — تعدل من ناحية المثير ، فبعد أن كانت الغريزة تستثار بمثيرات فطرية تصبح استثارتها ممكنة بموضوعات أخرى غير المثيرات الفطرية . وكذلك قد تفقد بعض المثيرات الفطرية قدرتها على إثارة الغرائز .

٢ — تعدل من الناحية النزوعية ، وبعبارة أدق من ناحية أسلوب السلوك الذى يحقق الغرض الغريزى .

٣ — تعدل بسبب استثارة غرائز مختلفة فى وقت واحد .

٤ — تعدل ناشىء من تنظيم الغرائز وانفعالاتها حول موضوعات معينة لتكوين ما يسمى بالعواطف .

وسنشرح الآن الطرق الثلاث الأولى ، أما الطريقة الرابعة فسنعالجها فى الفصل القادم .

الطريقة الأولى

نلاحظ فى كثير من الأحيان أن بعض ما كان يستثير الغريزة قد تضعف قدرته على استثارتها . فالصوت العالى مثير طبيعى لغريزة الخلاص وانفعال الخوف . ويستثار الخوف بالأصوات العالية سواء أكان مقترناً بخطر يؤذى الفرد أو لا يؤذيه . ولكن قد يتعلم الفرد بالتجربة أن الصوت العالى غير مقترن بخطر فيسمعه دون خوف كما

(١) Mc Dougall ; Social Psychology p. 27.

يحدث فى المحاجر والمناجم . كذلك الدواب التى تعيش فى القرى يبدو عليها الخوف عند أول حضورها إلى المدينة وتعرضها لحركة السيارات السريعة وأصواتها العالية . ولكن بتعود الدواب السير فى المدينة تفقد سرعة حركة السيارات وما تصدره من الأصوات العالية مقدرتها على إثارة الخوف .

كذلك يحدث أن الموضوعات التى لم تكن تثير غريزة ما تصبح قادرة على إثارتها . فالمعلم بطبيعة كونه إنساناً لا يثير الخوف فى الطفل ، ولكن إن كان المعلم يضرب الطفل يصبح مثيراً للخوف . ذلك لأن الضرب يثير الخوف ، والمعلم يقترن فى ذهن التلميذ بالضرب فيصبح المعلم مثيراً للخوف .

فاستثارة الغريزة تتعدل عن طريق الترابط بنوعيه : وهما الترابط بالاقتران والترابط بالتشابه . ومن أمثلة الترابط بالاقتران ما ذكرناه من اقتران المعلم بالضرب فى ذهن الطفل . ومن أمثلة الترابط بالتشابه خوف الطفل من كل شخص يرتدى كسوة رسمية سواء أكان من رجال المطافىء أو البريد أو غير ذلك لأنه سبق له أن خاف من شرطى . وهناك مثال آخر لطفل خاف عند رؤيته رجلا أسود لأنه كان يخاف الظلام ، وصرح فعلا بأنه يخاف الرجل الأسود لأنه خرج له من الظلام .

ويلاحظ أن إدراك علاقة التشابه عملية عقلية خاصة بالحيوان الراقى . والإنسان بحكم رقيه قادر على إدراك علاقات تشابه دقيقة ومتعددة . وهذا مما يجعل احتمال تعدل غرائز الإنسان كبيراً جداً ، فقدرته على الربط عن طريق التشابه تفتح أمامه ميادين واسعة لتعديل غرائزه .

الطريقة الثانية

وأما النوع الثانى من التعدل وهو الخاص بالناحية النزوعية وبالطريقة التنفيذية لهذه الناحية النزوعية فإنه واضح فى حياة الإنسان . لنأخذ لذلك مثالا غريزة المقاتلة . يثير هذه الغريزة كل ما يقف فى سبيل تحقيق الغرائز الأخرى . فإذا دفع الجوع

بحيوان إلى البحث عن طعام ثم وجده ، وقبل أن يتناوله اختطفه منه حيوان آخر ، فإن الحيوان الأول يغضب و يثور وينقض على الحيوان الثانى لضربه وعضه ومقاتلته إذا تمكن منه . كذلك الطفل الصغير قد يثور ويضرب و يعض من يمنعه عن لعبته . ولكن بحكم الخبرة الشخصية وبالتوجيه يتعلم أساليب أخرى لتحقيق أغراضه . ومن أساليب المقاتلة المكتسبة غير الفطرية السب ، والهجاء ، وتدبير المؤامرات ، والإيقاع وترويج الإشاعات ، وحرب الأعصاب ، وغير ذلك .

ويمكن أن يخضع الأسلوب الذى يتبعه الفرد لتحقيق غاياته الغريزية لتعديلات متعددة ، فإشباع غريزة البحث عن الطعام يمكن أن يتم بأساليب متعددة ، بعضها فطرى و بعضها مكتسب ، كذلك موقف المرء إزاء حق انتزع منه يمكن أن يتخذ اتجاه المقاتلة ، و يمكن أن يتخذ اتجاه الاستعانة بالسلطة الحاكمة وغير ذلك .

وأساس هذا النوع من التعديل أن أسلوب السلوك الذى ينجح فى تحقيق الغاية الغريزية يثبت ، وأما ما عداه فإنه ينمحى . لهذا كان السلوك الفطرى فى بعض الأحيان غير ناجح لأنه يتعرض فى البيئة المحيطة به لعوامل تجعله فاشلا . لهذا يمحى ويحل محله أسلوب آخر أكثر منه نجاحا .

الطريقة الثالثة

أما الطريقة الثالثة فهى تعدل الغريزة بسبب استثارة غرائز أخرى فى نفس الوقت . فإذا رأى شخص جائع طعاماً مغرياً ليس له فيه حق ولكنه فى متناول يده فإن غريزة البحث عن الطعام تدفعه لتناوله ، ولكن الخوف يمنعه — أى أن غريزة الهرب قد تدفعه إلى الكف عن ذلك خوفاً مما يقع عليه من عقاب . ولهذا يتردد فى تلبية دافع البحث عن الطعام بسبب استثارة الدافع الغريزى الآخر . كذلك إذا اقترف طفل صغير جرماً ما . فإن هذا قد يستثير فى الوالد انفعال الغضب وغريزة المقاتلة ، ولكن قد يمنعه من إيقاع العقوبة استثارة الحنو وغريزة الوالدية . فبدلا من

أن يضرب الوالد ابنه يكتفى بتوبيخه والتوبيخ أخف من الضرب والذى خفف من حدة المقاتلة ظهور الوالدية فى نفس اللحظة .

الإعلاء والقلب

سبق أن أشرنا إلى إمكان تعدل الغرائز عند الإنسان هو الذى يجعلنا نحكم على سلوكه بأنه خير أو شر . وتوجيه الطاقة الغريزية فى اتجاه راق صالح يقره المجتمع يسمى إعلاء أو تصعيداً للغريزة . فبدلا من سير الغريزة فى المسالك الطبيعية غير المهذبة تسير فى مسالك راقية .

والذين يعملون مع الناشئين يحاولون فى كثير من الأحيان تشخيص الشذوذ على أنه ناشىء عن انحراف فى بعض النواحى الغريزية . فغريزة حب السيطرة قد يظهر شذوذها فى محاولة احتقار النظم القائمة وعدم تنفيذ الأوامر المدرسية ، ومعاكسة الزملاء ، والحط من قيمتهم وغير ذلك . وقد تسهل معالجة هؤلاء الأطفال إذا أسند إليهم جانب من حفظ النظام ، وإذا أصبحوا مسئولين عن بعض إخوانهم الضعفاء ، وإذا اقتنعوا بأن السيطرة عن طريق الآداب العالية ، ودماثة الخلق ، والتفوق الدراسى هى السيطرة ذات القيمة الحقيقية . بهذا نكون قد حولنا المجرى الغريزى إلى مجرى راق صالح لكل من الفرد والمجتمع ، ويسمى هذا التحويل إعلاء .

وكل غريزة من الغرائز يمكن توجيهها فى مسلك اجتماعى صالح . فالغريزة الاجتماعية يمكن أن تكون أساساً للتنظيم الاجتماعى . وغريزة المقاتلة يمكن أن تتجه لمقاتلة المفاسد ومحاربة الأمراض وغير ذلك .

وقد أخذت كلمة الإعلاء عند فرويد وأنصاره معنى خاصاً لا مجال لإثباته فى هذا المقام .

وأما إذا كان المجرى الذى يسير فيه السلوك الغريزى مضاداً لصالح المجتمع ولصالح الفرد فإن هذا النوع من التحويل يسمى قلباً (Perversion) . ومن أمثلة القلب تخريب ممتلكات الغير فى حالة المقاتلة أو الحل والتركيب ، وكالسرقة فى حالة

حب التملك ، والاستهزاء بالناس واحتقارهم لإشباع حب السيطرة ، ومزاولة العادة السرية وما شابهها لإشباع الغريزة الجنسية .

ويطلق القلب عادة على الحالات الشاذة . ومن الأمثلة البارزة لها شخص يغسل يديه على فترات متقاربة جداً ، ويطلب أن يغسل كل ما يقدم إليه ، ولا يقرأ كتباً تناولها الغير بأيديهم إلا إذا مسح غلافها بمادة مطهرة ، وهو لا يقرأ الجريدة ، ولا يصافح الناس ، وإن اضطر لمصافحتهم غسل يديه مراراً وتكراراً بعد ذلك . وهو لا يتسلم نقوداً من شخص آخر إلا بعد غسلها بالماء والصابون قبل أن تمس جيوبه ويخلق له هذا الاتجاه مشكلات متعددة فى حالة النقود غير المعدنية وعنده لكل موقف حلول خاصة . هذا السلوك قلب فى غريزة التقزز وفى غريزة الخوف كذلك . ويرجعه أصحاب مدارس التحليل النفسى إلى قلب فى الغريزة الجنسية ومتعلقاتها .

الإبدال

وهناك اتجاه آخر يؤخذ إزاء الغرائز ، ولو أنه لا يتناولها مباشرة ، ويسمى الإبدال . ومعناه أن تشغل وقت الفرد بعمل نافع حتى ينصرف عن نشاط غريزى معين ، فالطفل الذى يحاول الحصول على لعبة طفل آخر قد تلهيه عنها بأمر آخر . كذلك الرياضة البدنية وتكوين الميل للمطالعة والموسيقى وغير ذلك يمكن أن تكون كلها إبدالا للغريزة الجنسية فى دور المراهقة .

ويحسن على وجه العموم فى حالة صعوبة إعلاء الغريزة أن نعمل على الإقلال من مثيراتها الخارجية ، وأن نثير ميولا أخرى يشغل نشاطها وقت الفرد ، فالغريزة الجنسية مثلا ليس من السهل إعلاؤها ، لأن الإعلاء معناه الإرضاء بالطرق التى يوافق عليها المجتمع . وهذا تقابله صعوبات تنشأ من كبر المسافة الزمنية الواقعة بين سنى النضوج الجنسى والنضوج الاقتصادى . لهذا وجب أن تكون فى النشء قبل المراهقة ميول مختلفة يمكن استغلالها لشغل وقت الفراغ عند الناشىء . وهناك حلول أخرى سنعرض لها عند البحث فى التربية الجنسية .

خاتمة

يتبين مما تقدم أنه من المستحسن توجيه الغرائز والحاجات مع مراعاة مسايرتها ، إذ لا يجوز الوقوف فى وجهها . فمهمتنا يجب أن تنصب على إعلاء الغرائز وتوجيهها الوجهة المقبولة . ولا يجوز أن تصبح مهمة المربى محاولة بتر الغرائز والحاجات أو اقتلاعها . فإن كان لدينا طفل وبرز عنده الميل للظهور أو لإثبات الذات فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة مقبولة مفيدة للطفل وللمجتمع . من أمثلة ذلك أن بعض الأطفال يؤلفون قصصاً عن أعمال ومخاطرات لم يقوموا بها ، وإنما ينسجونها من خيالهم ويقصونها على غيرهم ، ويسرهم ما تحدثه فى نفوس سامعيهم من أثر . فبدلا من أن ننهر هؤلاء الأطفال ، نتذكر أنهم إنما فعلوا ذلك بدافع قوى ، وهو الميل إلى إثبات الذات ، أو الحاجة إلى التقدير . وواجبنا إذ ذاك أن نوجههم بطريقة عملية إلى القيام بعمل حقيق يمكنهم أن يفخروا به . فبدلا من أن يشبعوا سيطرتهم عن طريق التخيل والكذب يشبعونها عن طريق الحقيقة المطابقة للواقع وهذا الطريق يوافق عليه المجتمع ويقره ويعتبره راقياً كالتمثيل والأدب القصصى .

ويجب أن نتذكر أن الإعلاء كحل لمشاكل النشاط الغريزى يمكن أن يكون حلا دائماً . وأما الإبدال فيحسن اعتباره حلا مؤقتاً ، ولكن ليس معنى هذا أن نهمله . ولكل غريزة أو حاجة أوجه خاصة بها من الإعلاء والقلب والإبدال .

المراجع

أولا — الاستعدادات الفطرية

Aveling : Personality and Will ch. VI.
Banks : Conduct and Ability ch. III.
Burt and Others : Is the Instinct Theory Dead, Brit. J. Ed. Psy. 1941 — 1942
Drever : An Introduction to the Psychology of Education.
Flugel : A Hundred Years of Psychology Part IV ch. VII.
Garnett : The Mind in Action.
Heath : How we Behave.
McDougall : Energies of Men. chs III, IV, V, VI VII.
McDougall : Social Psychology. chs II, III, IV.
McDougall : An Outline of Psychology. ch. V.
Murphy : Modern History of Psychology. ch. XX.
Ross : Groundwork of Educational Psychology ch IV.
Stout : Groundwork of Psychology: 2nd Ed. chs XV & XVIII.
Thouless : Social and General Psychology.
Valentine ; Psychology of Early Childhood.

ثانيا — الحاجات النفسية

Healy : New Light on Delinquency.
Gates and Others : Educational Psychology.pp.628 — 631.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Trow : Educational Psychology.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الخامس

تكامل الشخصية — « العواطف والخلق »

معنى العاطفة

لا تبقى الدوافع للسلوك عادة بصورها الفطرية ، وإنما تنتظم وتتعدل وينتج عنها أحياناً ما يسمى بالعواطف . فالذى يدفع المرء لسلوك خاص مع والده هو عاطفة تكونت مركزها الوالد . والذى يدفع المرء لمحاربة الرذيلة هو عاطفة كراهية الرذيلة .

وتتكون العواطف نتيجة الخبرة المتكررة بموضوعات هذه العواطف . فالطفل بعد ما يولد تظهر عنده انفعالات مختلفة سريعة التغير من لحظة إلى أخرى ، ويصحب هذه الانفعالات سلوك الصراخ الدال على الغضب أو الخوف ، وسلوك الابتسام الدال على الرضا أو السرور . ونظراً لأن الأم فى السنة الأولى تقوم بقضاء حاجات الطفل الأولية ، فإنه يمر فى خبرات متعددة تتكرر فى كل منها الأم . فهى موجودة لديه عند إشباعه ، وموجودة عند إزالة ألم عنه ، وموجودة عند تغطيته ، وموجودة عند تسليته . فكأن ظهور الأم يصحبه عادة عند الطفل ارتياح وإشباع لحاجاته وغرائزه المختلفة . وبذلك ترتبط الأم — فى العهد الأول — فى ذهن الطفل بخبرات فى جملتها سارة .

نلاحظ بعدئذ أن الأم إذا بعدت غضب الطفل ، أو خاف وصرخ . وإذا ظهرت هلل وفرح ، وعندما يكبر يتألم إذا مرضت ، ويغضب إذا أهينت ، ويحنو عليها إذا ضعفت ، ويسر إذا فرحت . ويتبع هذه الانفعالات — وهى الغضب والخوف والتألم والحنو والسرور — السلوك الملائم الذى يتطلبه الموقف من دفاع

ومساعدة وتمريض ومرح . وفى هذا نقول إن الطفل تكونت لديه عاطفة حب الأم ، أى تكونت لديه عاطفة مركزها الأم . وأصبح لديه استعداد مكتسب يستثار فى مواقف مختلفة تكون الأم عنصراً هاماً فيها . ويستتبع هذه الاستثارة الشعور بانفعال يختلف باختلاف الموقف ، والقيام بسلوك معين يختلف كذلك باختلاف الموقف .

أنواع العواطف

والعواطف الرئيسية هى عواطف الحب والكراهية . فالموضوع الذى بتكراره يرتبط بخبرات فى مجموعها سارة تتكون حوله عاطفة حب ، والموضوع الذى بتكراره يرتبط بخبرات فى مجموعها مؤلمة تتكون حوله عاطفة كراهية . ومن العواطف المألوفة فى حياتنا عواطف الاحترام ، وعواطف الإعجاب ، وعواطف الصداقة ، وعواطف الاحتقار ، وغير ذلك . وكل عاطفة يتمركز فيها موضوع معين . فالطفل سرعان ما تتكون عنده عاطفة نحو أمه ، وأخرى نحو أبيه ، وعاطفة نحو كل من إخوته ، وعاطفة نحو لعبته ، وعاطفة نحو كلبه ، أو قطه . . . وهكذا .

والعواطف على وجه العموم مادية ومعنوية فالمادية تتمركز فيها المحسوسات كالأشخاص والأشياء . وأما المعنوية فتتمركز فيها المعنويات . ومن هذه عاطفة حب الجمال ، والصدق ، والشرف ، وكراهية الرذيلة والاستبداد . . . وتتطور العواطف مع نمو الشخص ، ونمو خبرته ، واتساع دائرتها . فباتساع دائرة خبرات الشخص تتسع دائرة عواطفه أو ميوله . ففى الأشهر الأولى من حياة الطفل قد تقتصر عاطفة الطفل على أمه ، ثم تتسع فتشمل الأب ، ثم بقية أفراد الأسرة ، ثم الأقارب ، ثم زملاء اللعب . وبعد ذلك قد تتسع فتشمل المدرسة ، فالبلدة ، فالوطن كله . ويصح أن تتسع فتشمل العالم بأسره . والعاطفة نحو العالم بأسره هى أوسع دائرة للعواطف وأرقاها ، وهى عاطفة نحو الإنسانية وخيرها عامة .

والعواطف المادية نفسها نوعان : مادية فردية ، ومادية جمعية . فالمادية الفردية

تكون نحو فرد . وأما المادية الجمعية ، فإنها تكون نحو مجموعة أفراد من نفس النوع عادة . فالمادية الفردية كعاطفة المرء نحو كتاب معين ، أو حيوان معين . والمادية الجمعية كعاطفة المرء نحو الكتب عامة ، أو الحيوانات عامة . والعواطف المادية بنوعيها الفردية والجمعية خطوة ضرورية لتكوين العواطف المعنوية السابقة الذكر تكويناً ثابت الأساس . ولهذا التطور فى عواطف الفرد — كما نرى — قيمة كبيرة فى إنماء شخصيته وتوسيع مجالاتها .

العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية

العواطف كما رأينا عبارة عن نوع هام من الدوافع المكتسبة للسلوك ، ويترتب على تكوينها تعديل السلوك . وتنظيم الدوافع الفطرية وتوجيهها وجهات معينة مقيدة بقيم تتحدد بعناصر البيئة المحيطة . ويعتبر تكوينها من أهم أنواع ملاءمة عقل الفرد للبيئة التى تحيط به .

والعواطف تكسب الفرد قسطاً كبيراً من الثبات والاستقرار ، وتجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوكه ، لأن الفرد بعد أن كان قابلا للاتجاه أية وجهة مرتبطة بما يستثير غرائزه ، أصبحت لا تستثار غرائزه إلا مرتبطة بموضوعات معينة تهمه ، كالأولاد والعلم والوطنية وأشخاص معينين وأماكن معينة . . وهكذا . . ولنوضح هذا بمثال : نفرض أن تلميذاً ما عوقب من أحد مدرسيه ، فإن طريقة مقابلته لهذا العقاب يتحدد اتجاهها بنوع عاطفته نحو المدرس ، فإن كان يحب مدرسه تقبل العقاب ، وربما استفاد منه . وأما إن كان يكره المدرس ، تذمر من العقاب ، وثار فى وجهه ، ولم يستفد منه شيئاً مهما حسن قصد المدرس . ويمكننا أن نتنبأ بموقف التلميذ إذ ذاك متى عرفنا عواطفه . والقدرة على التنبؤ بسلوك الشخص — فى موقف ما — دليل على ثبوته واستقراره ووحدة اتجاهه .

العاطفة السائدة Master Sentiment

وتوجد عادة لدى الفرد عاطفة سائدة ، فعاطفة نحو المال ، أو نحو العلم ، أو نحو الوطن أو نحو أولاده ، أو نحو ذاته . و إذا وجدت عاطفة سائدة فإنها توحّد وجهة العواطف والنزعات الغريزية المختلفة . فإذا تصورنا شخصاً يحب المال حباً شديداً ، ولا يفضل على ذلك أمراً آخر . فإن هذا الشخص يصادق من يساعدونه على ذلك ، ويكره من عداهم ، ويحب أولاده إذا شاركوه اتجاهه ، وساعدوه على تحقيق غاياته ، ويكرههم إذا هم عملوا ضد ما يسيطر على عقله ، ويغضب غضباً شديداً إذا تأخر عليه مدينوه فى دفع ما عليهم . وقد لا يغضب لكرامته فى المواقف التى يغضب الناس فيها عادة لكرامتهم . أى إن نشاطه العقلى يسير كله نحو غاية واحدة وهى إشباع عاطفته السائدة .

وفى شخص آخر قد تكون العاطفة السائدة هى عاطفة حب الذات ، فتجد جهوده كلها موجهة نحو ذاته لتعظيمها و إرضائها . فهو يحب من يتحدثون عنه بالمدح ، ويعطف عليهم ، ويكرمهم ويكثر من التشدق بالحديث عن نفسه ، وتشتاق نفسه لأن يكون هو مركز الانتباه والإعجاب . وقد يكون مغرماً بالتأنق ، و إطالة النظر فى المرآة ، أو فى صورة نفسه التى يملأ بها أركان منزله . وقد يكون مغرماً برؤية إمضائه أو اسمه على الورق أو صورته فى جريدة أو كتاب . و بعبارة أخرى تجد نشاطه موجهاً نحو ذاته ، وهذا ما يجعله سعيداً . وهذه الظروف نفسها تسبب الضجر والسآمة لفرد آخر عاطفته السائدة تتمركز فى نشر العلم أو نصرة الإنسانية ، أو خدمة المجتمع ، أو ما شابه ذلك . فإذا عرفنا العاطفة السائدة عند شخص ما نتمكن من التنبؤ بسلوكه فى مواقف عدة ، لأننا نعرف الاتجاه الموحد الذى تتخذه نزعاته وغرائزه وعواطفه .

والوحدة التى يتصف بها اتجاه النزعات الفطرية والمكتسبة عند الفرد دون الخضوع أو احتمال الخضوع للتغير والتناقض سنسميها مبدئياً تكامل الشخصية .

تكامل الشخصية

١ العناصر الأولية التى تتكون منها الشخصية هى ما يأتى : —

١ — الاستعدادات الفطرية المختلفة وما يتكون منها من عواطف وعقد وعادات وغير ذلك .

٢ — الصفات الجسمية والمزاجية المختلفة .

٣ — القدرات العقلية المختلفة بما فيها من ذكاء وقدرات خاصة فطرية ومكتسبة \

وكل عنصر من هذه العناصر يوجد عند الفرد بقدر معين ، فغريزة المقاتلة مثلا تختلف فى قوتها من شخص إلى آخر . وإفرازات الغدد وما يترتب عليها تختلف كذلك من شخص إلى آخر . وكذلك يختلف الذكاء .

وإذا أخذنا أى فرد فيمكننا أن نشبه ما لديه من الاستعدادات الغريزية والمزاجية والعقلية والجسمية — الفطرية منها والمكتسبة عن طريق التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية — بعدد كبير من الأشخاص الذين لا يصح أن تطلق عليهم اسم جماعة ، إلا إذا ربطتهم بعضهم ببعض رابطة متينة . فالذى يقف عند ملتقى شارعين كبيرين مثلا من شوارع القاهرة ، فإنه يلاحظ عادة أنه ليست هناك علاقة خاصة تربط المارة بعضهم ببعض . ولهذا يصعب عليه التنبؤ بما يمكن أن يحدث من هؤلاء الأفراد من سلوك . والسبب فى هذا أن كل فرد يتجه لتحقيق غرض خاص . وتعدد الأغراض لا تتأتى معه وحدة المجموعة . ولكن إذا اتحد غرض هؤلاء الأفراد ، أمكن النظر إليهم كجماعة ، وتعتبر الجماعة قوية أو ضعيفة بقدر ما بين أفرادها من روابط ، وبقدر اتحاد الغرض الذى يرمون إلى تحقيقه مجتمعين [1] . كذلك تعتبر الشخصية قوية ، إذا ارتبطت عناصرها واتجهت لغرض واحد فى الحياة . فإن هذا الترابط والتوحيد

(١) راجع الفصل الأول فى معنى الصحة العقلية .

فى عناصر الشخصية وأغراضها ، يسمى كما قلنا تكامل الشخصية [١] .

وقد يحدث تعارض بين بعض النزعات و بعضها الآخر عند الشخص الواحد ، كما يحدث أحياناً فى الحرب عند بعض الجنود ، الذين يتنازعهم الميل إلى المحافظة على حياتهم ، والرغبة فى الظهور بمظهر الوطنيين المخلصين ، الذى لا بد له أن يخاطر بنفسه فى ظروف الحرب . فالميل إلى المخاطرة يتنازع هنا مع الميل إلى المحافظة على الحياة . و يسمى التنازع بين ميلين بالصراع النفسى (Mental Conflict) .

الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات

وعند حدوث صراع نفسى بين عدد من النزعات — لنفرض أنها على سبيل التبسيط نزعتان مثلا — فإن المرء يتردد بينهما تردداً يطول أمده أو يقصر على حسب موقفه من النزعتين . ولا يصل المرء إلى حالة سكون أو استقرار ، إلا بعد اختفاء إحدى النزعتين أو كليهما اختفاء لا إرادياً (أى غير مقصود) .

ولمجرد التوضيح نأخذ مثالا بسيطاً : لنفرض أن شخصاً ما لديه حاجة ملحة شديدة إلى النقود ، ولنفرض أن صديقاً له أعطاه نقوداً ليسلمها لشخص ثالث ، فإنه قد يتخذ واحداً من المسالك الثلاثة الآتية [٢] : —

١ — يسلم النقود لصاحبها بغير تردد .

٢ — يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ، ولا يسلمها ، أو يؤجل تسليمها لما بعد قضاء حاجته .

٣ — يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة فى قضاء حاجته ، والرغبة فى أن يكون أميناً ، وينتج عن هذا الصراع تغلب إحدى الرغبتين على الأخرى .

---

(١) التكامل هو هنا شبيه بالتكامل الرياضى لأن التكامل فى العلوم الرياضية هو التوحيد بين عدد كبير من العناصر الصغيرة لتكون وحدة كبيرة .

(٢) هذه لا تستنفذ كل الاحتمالات وإنما تقتصر على الأكثر شيوعاً منها .

فإن سلم النقود لصاحبها فهـذا لأن فـكرته عن نفسه من حيث الأمانة فـكرة سامية لايزعزعها وصول النقود إلى يده ، وفكرته عن نفسه فى هذه الحالة توجه سلوكه وجهة معينة .

أما إذا أخذ النقود لنفسه ، فهذا لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة ضعيفة أو معدومة .

وأما حدوث الصراع فمعناه وجود قوتين متقاربتين ، يسمح لهما المرء بالوقوف وجهاً لوجه ، ويكون الحسم فى الموقف عادة بالرجوع إلى فكرة المرء عن نفسه ، بأن يقول الشخص لنفسه : هذا لايليق ، أو هذا لايتناسب مع الكرامة ، أو غير ذلك .

نجد فى هذا المثال الفرضى أن لدينا نزعتين : إحداهما خلقية ، والثانية غريزية ، والفصل بينهما يرجع إلى الفكرة عن النفس . وهذه الفكرة عن النفس تعمل صريحة فى حالة التردد والنزاع ولكنها تعمل بطريقة ضمنية فى غير هذه الحالة .

والعاطفة التى مركزها فكرة المرء عن نفسه ، اسمها « عاطفة اعتبار الذات » . وهى التى تستثار فيشعر الإنسان بالغضب من نفسه إن فعل أمراً لايرتضيه لنفسه ، ويشعر بالسرور إذا حقق لنفسه ما يريده لها .... إلى غير ذلك .

وينظر مكدوجل إلى « عاطفة اعتبار الذات » ، على أنها المنظم الأساسى للسلوك ، أو القائد الأعلى لبقية النزعات . وهى التى تتوقف عليها قوة الشخصية ، ووحدة أفعالها ، وتكامل نزعاتها .

وفى دراستنا للحالات نحس عادة ماعند الفرد من عواطف سائدة ، ونحاول أن نختبر قوة عاطفة اعتبار الذات . ففى بعض الحالات كنا نجد أن العاطفة السائدة هى حب الولد « للسينما » ، أو « لركوب العجل » ، أو لفتاة ، أو لوالدته ، أو لنفسه . وكنا نلجأ لهذه العاطفة السائدة ، ونوجهها توجيهاً حسناً ، أو نستغلها لحسن التوجيه . ففى حالة ولد كان يسرق ليذهب « للسينما » أمكن أن نجد له عملا مربحاً فى دار من دور السينما . وفى حالات أخرى كثيرة أمكننا أن نكشف إلى أى حد يمكن استغلال

عاطفة اعتبار الذات فى توجيه صاحبها إلى السلوك الصحيح . فإذا قام بعمل طيب نذكره له ، ونشجعه على مثله . وإذا قام بعمل سيىء ، فقد نقول له إننا لم نكن ننتظر عملا كهذا من شخص مثله . وبهذا نقوى فكرته عن نفسه فى الوقت الذى ندفعه ليحجم عن سلوك غير مرغوب فيه . ونستغل نفس العاطفة لدفع صاحبها للقيام بعمل آخر يرتضيه المجتمع ويقدره من أجله .

نشوء عاطفة اعتبار الذات

يتوقف نشوء هذه العاطفة على التفاعلات المستمرة القائمة بين الفرد وبين المحيطين به . فعاطفة اعتبار الذات تنشأ من أثر الثواب والعقاب ، والمدح والذم ، وعلامات الرضا والاستياء ، ومن التفكير الشخصى أيضاً ، أى إنها نتيجة تفاعل الشخص مع البيئة الاجتماعية . ويمكن أن نفصل نشوءها فى المراحل الأربعة الآتية : —

١ — المستوى الغريزى الذى نجد فيه مواقف بسيطة ، تتعدل باللذة أو الألم الذى يصحب الفعل الغريزى . وهذا المستوى نجده فى صغار الأطفال ، فالطفل الذى يمسك كل ما تقع عليه يده ، ويضعه فى فمه ، يقلع عن ذلك فى حالة الأشياء التى يجد أن طعمها مر مؤلم ويصر على أكل ما يجده لذيذاً حلواً ، فنجد هنا أن الفعل الغريزى يثبت فى الناحية التى تجلب اللذة ويضعف فى الناحية التى تسبب الألم ، وهناك من الأمثلة ما لا حصر له .

٢ — المستوى الغريزى الذى يتعدل فيه السلوك بالثواب والعقاب . وهذان يناظران اللذة والألم اللذين ذكرناهما فى المستوى السابق . فبعد أن يكبر الطفل قليلا عن سنتين نثيبه عادة بقطعة من الحلوى أو بلعبة أو بفسحة إن كان منتظما فى أكله مثلا . لا يطلبه فى غير الميعاد ، ولا يطلب منه أكثر مما يعطى له . ونعاقبه إن فعل غير ذلك ، أو إذا ضرب ولداً آخر بغير حق .. إلى غير ذلك . فهنا تتعدل أعمال الطفل عن طريق اللذة والألم ، الصادرين عن الثواب والعقاب اللذين يوقعهما المجتمع المحيط به .

فيتكيف سلوك الطفل تبعاً للتفاعلات التى تقع خاصة بينه وبين المجتمع . وأنواع السلوك التى توجه عادة بالثواب تكون غير محببة بطبيعتها للطفل . وأما أنواع السلوك التى تمنع عادة بالعقاب فإنها تكون عادة محببة بطبيعتها [١] .

٣ — والمرحلتان السابقتان ضروريتان للوصول الى المرحلة الثالثة ، وفيها نجد مستوى الأعمال معدلا بالمدح والذم ، أو بعلامات الرضا والغضب أو السخط ، فإثابة الطفل على بعض الأعمال تكون عادة مصحوبة بعبارات المدح وعلامات الرضا . وكذلك العقاب يكون معه بعض عبارات الذم وعلامات التألم والغضب . ويكفى لبعض الأطفال أن نظهر لهم عدم ارتياحنا ليقلعوا عن بعض الأعمال ، ونبين لهم علامات الاغتباط ، فيستمرون فى أداء بعضها الآخر . وكثير من الأطفال عند شروعهم فى عمل ما ينظرون إلى وجوه أهليهم علهم يرون علامات خاصة يسترشدون بها للاستمرار فى العمل ، أو الانقطاع عنه . وبعد ذلك يهتم الطفل بالسلوك بناء على موافقة الجماعة التى ينتمى إليها ، ونتيجة لكل ما تقدم يحدد الطفل بعض الأعمال بأنها تتفق معه ، والبعض الآخر بأنها لاتتناسب معه . والأولى هى التى كانت تجلب رضاء المجتمع (بمعناه الواسع) ، والثانية هى التى كانت تجلب له سخطه ، ثم يكون الشخص فكرة عن نفسه مشتقة من تفاعلاته مع المجتمع فيرضى لعمل من الأعمال لأنه يتفق مع فكرته عن نفسه . ولايرضى عن الآخر لأنه لاينسجم مع هذه الفكرة [٢] .

وهذه المرحلة التى يكون فيها المرء فكرة عن نفسه مشتقة من رضاء المجتمع أو سخطه يقف عندها كثير من الناس فلا ينمون بعدها ولايعملون إلا على إرضاء المجتمع . وهذا يفسر محافظة بعض الناس على بعض العادات والتقاليد رغم اقتناعهم

---

(١) من هنا نرى بدء فكرة الفصل والكبت مما سنشرحه فى الفصلين التاليين .

(٢) كثيرون من الأطفال ، يقول الواحد منهم عن نفسه إنه يفعل هذا لأنه «عفريت» ولأن كل الناس يقولون عنه إنه «عفريت» وفى مثل هذه الحالات يرى الطفل فى نفسه نوعاً من البطولة أو المهارة أو المقدرة على مضايقة الناس دون تمكنهم من إيقافه عند حد .

— أثناء مناقشتهم مثلا — بفسادها . فخوفاً من سخط الغالبية المحيطة بهم يستبقونها وفكرة هؤلاء فى رضائهم عن أنفسهم مشتقة مباشرة من فكرة رضاء المجتمع عنهم .

٤ — وهناك مستوى أرقى من المستويات الثلاثة السابقة ، وفيه يقوم الإنسان بعمله بناء على فكرة خاصة أو تحقيقاً لغرض أو مبدأ خاص ، بصرف النظر عما قد يقع عليه من ثواب أو عقاب أو يتجه إليه من مدح أو ذم و بصرف النظر عن رضاء المجتمع عنه أو غضبه عليه . وهذا ما يتصف به ناشرو المبادىء الدينية ، أو الخلقية ، أو الوطنية . وهم عادة يصممون على السير فى عملهم رغم المقاومة الشديدة التى يلقونها فى بعض الأحيان . ومن بين الأنبياء والفلاسفة وقادة الإصلاح الاجتماعى أمثلة متعددة يسهل إيراد بعضها لمن يريد .

العوامل الاجتماعية فى تكوين الخلق

وننتقل الآن إلى بيان السبب الذى يجعل للعوامل الاجتماعية أثراً فى تكوّن فكرة المرء عن نفسه . هذه العوامل أولها عامل السلطة . يؤثر هذا العامل عن طريق الثواب والعقاب فى إدماج الشخص مع المجتمع . ومن المبادىء الأولية فى نفسية الجماعات ، أن أفراد الجماعة ميالون إلى الانسجام والاندماج مع الغالبية . فيميل المجتمع دائماً لأن تكون عناصره متشابهة . ولهذا فهو يميل إلى نبذ العناصر التى تشذ عنه . وذلك يفسر كراهية المجتمع للعباقرة ، ونبذه للمعتوهين والمجانين ، كما يدعم المثل القائل « إن الطيور على أشكالها تقع » . فالثواب والعقاب هما أداتان تستعملهما السلطة لمن يشذ عن المجتمع الذى ينتمى إليه حتى تدمجه فيه ، وتجعله ينسجم مع الباقين فى سلوكه وخلقه .

وأما العامل الثانى فهو عامل المشاركة الوجدانية ، وهذه هى النزعة العامة التى تثير فى الناس حالة وجدانية واحدة ، وهى التى تفسر لنا اجتماع الناس لفرح ، واجتماعهم للبكاء فى المآتم ، واجتماعهم للاحتجاج و إظهار التألم والاستياء . فالمشاركة

الوجدانية إذن عامل آخر يرمى إلى انسجام المجتمع ، وهى من أهم العوامل التى تربط أعضاءه بعضهم ببعض .

فهذان العاملان : عامل السلطة ، والمشاركة الوجدانية هما اللذان يدفعان المرء للاهتمام برأى المجتمع عنه . فالمرء يجب أن يتأكد عادة إن كان مرضياً عنه أم لا ، أى إن كان لديه المؤهلات الانسجامية أم لا . فإن لم يكن حائزاً للرضا الذى هو أهم المؤهلات الانسجامية ، كان مهدداً بالعقاب أو الفصل أو النبذ .

ولهذا كان سلوك كثير من الناس محدداً بهذين العاملين ، وهما اللذان سبق الكلام عنهما فى تكوين فكرة المرء عن نفسه . وفكرة المرء عن نفسه هى التى تعمل على توجيه نزعاته ورغباته ، وهى التى تقوم بتوحيدها — أى بتكاملها .

ولكن عاملى السلطة والمشاركة لا يؤديان إلى أعلى مراحل التكامل . فهناك الفلاسفة والعظماء والأنبياء الذين يلاقون من تعذيب السلطة وإهانتها لهم الشىء الكثير وبالإضافة إلى ذلك ، فكثيراً ما لا يجدون مشاركة فى الشعور ، ولا عطفاً من غالبية المجتمع . ومع ذلك فإننا نعتبر أنهم وصلوا إلى أعلى المراحل الخلقية . وهم عادة يشعرون بالسعادة أو بما يسمى راحة الضمير رغم التعذيب ، والإهانة والنقد ، وعدم العطف . ويشعرون بهذه السعادة لاعتقادهم فى صحة آرائهم ، دون الاكتراث بآراء الغير . ويشعرون بالسعادة كذلك متى أدوا رسالتهم أو جاهدوا فى أداء هذه الرسالة التى يشعرون بها ، ويعتقدون فى صحتها .

من ذلك نرى أنه لاستكمال الخلق يجب أن يعمل الفرد على تحقيق مُثل أعلى أحياناً فى مستواها من المُثل التى تحددها المجتمعات ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — اهتمام المرء برأى المجتمع فحسب يمكن أن يعتبر دافعاً أنانياً غير راق .

٢ — تقاليد المجتمع ومستوياته الخلقية قد تختلف من وسط إلى وسط ، وفى الوسط الواحد قد تختلف من وقت إلى آخر .

٣ — يسهل على المرء أحياناً أن يخدع المجتمع فيوهمه بأنه شخص طيب الخلق ،

جدير برضائه عنه ، وذلك بأن يظهر الشخص غير ما يبطن ، ويبدو أمامه بغير خلقه الحقيقى .

ولهذا السبب الثالث ندرك أثر الاعتقاد فى وجود قوة إلهية كبرى ترصد جميع الأعمال وتعلم ما يظهر منها وما يخفى ، وتحاسبنا على نياتنا وضمائرنا ، لا على أعمالنا الخارجية — أى تؤاخذنا بالدوافع الداخلية لا بسلوكنا الخارجى .

وهذه الأسباب الثلاثة فى مجموعها هى التى تحتم وجوب محاولة المرء الانتقال إلى مرحلة أعلى من مرحلة رضاء المجتمع عنه . وهذه المرحلة العليا ، ولو أنها تبدو مستقلة عن رأى المجتمع ورضائه ، إلا أن الوصول إليها متوقف على العوامل الاجتماعية السابقة الذكر .

ولو أمكن للانسان أن يتجرد من جميع الدوافع الشخصية ، سواء اهتمامه بالثواب والعقاب ، أو ذم المجتمع ومدحه ، فإنه يكون لنفسه مستوى خاصاً به يؤمن به إيماناً راسخاً ويحاول تحقيقه . وهذا المستوى الخاص يختلف عند الناس بعضهم عن بعض . فالمستوى الذى يأخذ به زعيم يرمى إلى تحرير وطنه من انقسام ، أو من استعباد أو غير ذلك ، تجده عادة يوجه جميع نزعاته ورغباته لخدمة هذا الغرض . ولذا نجده يتساهل مع نفسه فى الماديات البسيطة ، كتوافر النقود ، أو التأنق فى الملبس . ونجده لا يهتم بما يقع عليه من عقوبات النفى والسجن . وتجرد زعيم كغاندى من هذه الماديات مثلا ، واهتمامه بتحسين حال مواطنيه . أدى إلى تقدير الهنود له تقديراً يقرب فى شكله من العبادة . ومثل غاندى سعيد فى أى زمان ومكان ، ما دام يعمل ناجحاً على تحقيق غايته .

والذين يعملون على إفادة أكبر جزء ممكن من المجتمع الإنسانى يعتبرون أرقى الشخصيات جميعاً ، وهم فى الغالب أقربها إلى أعلى درجات التكامل .

ويمكننا أن نقول على وجه التقريب إن درجة تكامل الشخصية تتناسب تناسباً طردياً مع اتساع دائرة المجتمع الذى يرمى الفرد إلى إسعاده . فأقلها تكاملا من يسعى

صاحبها فقط لإسعاد ذاته . إذ لا بد أن تتعارض نزعاته الذاتية مع نزعاته الاجتماعية فى تحقيق غاياته الذاتية . ويليها من يسعى صاحبها فقط لإسعاد أسرته وأولاده . ثم يليها من يعمل صاحبها على إسعاد أقاربه . ويليها من يعمل صاحبها على إسعاد هؤلاء وأصدقائه . ويليها من يعمل صاحبها على إسعاد أهل بلده أجمعين . وهكذا إلى أن نصل إلى من همه الأول والأخير إسعاد المجتمع بأوسع معانيه . وهنا قد نصل إلى مرحلة ربما تبدو مجردة كالبحث عن الحقيقة ومناصرة العدل وخدمة الإنسانية . وهذا يتفق مع رأى مارشال سمطس[1] فى أن تكامل الشخصية له درجات متفاوتة بعضها عن بعض . ولكن الغاية التى نرمى إليها هى أعلى درجات التكامل التى يمكن أن يصل إليها الإنسان ، والتى يترتب عليها ما سماه سمطس التوافق والأمن الداخلى (Harmony and Internal Peace) ، ولا بد أن نشير هنا إلى أن غرض الإسعاد ليس من الضرورى أن يكون واضحاً صريحاً فى كل حالة .

رأى فى السعادة

يرى مكدوجل أنه لفهم معنى السعادة علينا أن نفرق أولا بين معانى كل من اللذة (Pleasure) ، والسرور أو الطرب (Joy) ، والسعادة (Happiness) . فهذه المظاهر تمثل فى رأى مكدوجل مراحل تصاعدية لأمر واحد . فاللذة قصيرة المدى وزائلة . وكثيراً ما ترتبط بالناحية المادية الجسمية ، كاللذة الصادرة من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك . وأما السرور فإنه أطول مدى ، ويتصف بأنه نفسى متصل ببعض العواطف ؛ فالإنسان يسر من مقابلة صديق ، أو من شفاء قريب . وأما السعادة فإنها أطول عادة فى عمرها من كل من اللذة والسرور ، وقد تستمر مع الشخص مدى حياته . والإنسان يسعد عادة لقيامه بواجب يؤمن به . ومتى ظهرت فكرة

(١) Quoted by Burnham : The Wholesome Personality p. 7. from Smutts : Holism and Evolution.

الواجب الذى يؤمن به الشخص ظهرت فكرة عاطفة اعتبار الذات ، أى فكرة أن أداء هذا الواجب يحقق فكرة المرء عن نفسه ، و يشعره بالسعادة تبعاً لذلك . فالسعادة نتيجة لتحقيق الذات (Self Realisation) ، و بعبارة أخرى هى نتيجة لوضع النزعات التى تعتز بها الذات موضع التنفيذ العملى .

من هذا نرى ارتباط فكرة السعادة — بهذا المعنى — بعاطفة اعتبار الذات ، التى هى المنظم الأعلى للشخصية . وعلى ذلك فالسعادة ترتبط بتكامل الشخصية . وهى تنشأ من الوحدة أو التوافق التام الموجود بين نزعات الشخص وعواطفه . ووجود هذه الوحدة يضمن توجيه الطاقة البشرية النابعة بالطبع من الاستعدادات الغريزية لتحقيق غرض واحد أمام الشخص . فالسعادة إذن — حسب رأى مكدوجل — فى تكامل الشخصية[1] .

و يمكننا الآن أن نتتبع مستويات السعادة من أدناها إلى أعلاها . فالطفل مثلا سعادته وقتية ، فهو سعيد إذا كانت حاجته الجسمية ونزعاته الغريزية مشبعة — أى بأن يتحقق له الشبع والراحة واللعب وما شابه ذلك . وهذا المستوى من السعادة يصح أن نسميه مستوى اللذة ، وهى وقتية قصيرة العمر . كذلك سعادة الحيوان (إن صح هذا التعبير) نجدها من هذا النوع . وهناك الأشخاص الذين يجدون سعادتهم فى إرضاء لذاتهم الوقتية ، أو عمل ما تعودوه ، فهم مدفوعون بنزعاتهم الفطرية أو الاعتيادية ، لا بمبادىء أو أفكار سامية . وأرقى من ذلك قليلا من لا يجد السعادة إلا فى إسعاد أولاده ، فإن لم يكن قادراً على ذلك ، أو إن ماتوا جميعاً ، أصبح شقياً لا يجد السعادة فى أمر آخر . فكأن هذا النوع من السعادة محدود العمر ، ولا يرتبط بأعلى مراحل التكامل الخلقى . ولكن السعيد حقاً هو ذو الشخصية القوية الذى يعمل دائماً على

(١) قال مكدوجل فى ص ١٣٤ من كتابه علم النفس الاجتماعى .

Happiness arises from the harmonious operation of all the sentiments of a well-organised and unified personality, in which the principal sentiments support one another in a succession of actions all of which tend towards the same or closely allied and harmoni.

تحقيق غرض سام خاص ، والذى لا تتعارض نزعاته مع صالح الإنسانية . وربما كان أقرب الأمثال لذلك الأنبياء الذين لم يسعدهم المأكل والملبس ، أو يشقهم الجوع والطرد والإهانة ، ولم يسعدهم كثرة الأولاد ، ولم يشقهم فقدهم . وإنما كان يسعدهم أمر واحد ، وهو الجهاد والسعى لتحقيق الفكرة السامية . وكذلك رجل مثالى كأبراهام لنكولن الأمريكى الذى قضى قسطاً كبيراً من حياته لا يفكر ولا يعمل إلا لأمر واحد وهو محو الرق . وقد ضحى بالكثير من رغباته وملذاته الأخرى فى سبيل السهر على تحقيق فكرته . وقد أفادت أمريكا خاصة والعالم عامة من مثاليته فى نواح عدة. ويظهر أمثال لنكولن فى مختلف نواحى الحياة وبمختلف الدرجات فمنهم محمد فريد ومصطفى كامل وغيرهما .

ولا شك فى أن وجود فكرة واضحة شاغلة لذهن الفرد يوجه جهوده لتحقيقها ، يترتب عليه أرقى أنواع التكامل الخلقى ، وفيه أيضاً السعادة الحقيقية . فإذا كان هذا الرأى فى السعادة صحيحاً ، فإننا نستنتج أنه لازدياد سعادة شخص ما لايجوز أن نزيد فقط مجموع لذاته ، وإنما نعمل أيضاً على تحسين شخصيته ، وتقويتها ، وانسجام عناصرها ، وربطها ، وتوحيد وجهاتها .

وهنا يمكننا أن نوفق بين آراء علماء التربية ، فبعضهم يرى أن الغرض من التربية الخلقية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة ،وبعضهم الآخر يرى أن الغرض منها هو الزيادة فى سعادة الإنسان عامة . ومما تقدم نرى أن أحد الغرضين نتيجة طبيعية للآخر . ويدل ما تقدم على ما يوجد من اتفاق تام بين غايات التربية وبين غايات الصحة العقلية ، ما دام كل منهما قائماً على أسس معقولة .

المراجع

Allsop : Educational Psychology. Chs. II - VIII.
Aveling : Personality and Will. Chs. VII & VIII.
Banks : Conduct and Ability. Ch. V.
Burnham : The Normal Mind. Ch. II.
Burnham : The Wholesome Personality Ch. VI.
Fox : The Body and its Mind. Ch. VI.
Garnett : The Mind in Action.
Hadfield : Psychology and Morals. Ch. III.
Jung : Integration of Personality.
McDougall : Energies of Men. Ch. XXIV.
McDougall : Social Psychology. Chs. V, VI, VII, VIII, IX.
McDougall : An Outline of Psychology. Ch. XVII.
Mc Dougall : Abnormal Psychology. Chs. XXXIII & XXXIV.
Morrison : Basic Principles in Education. Ch. VII.
Ross : Groundwork of Educational Psychology Ch. VII.
Shaffer : Psychology of Adjustment. Ch. XIII.
Stout : Groundork of Psychology. 2nd Ed. Chs. XVII & XIX.
Taylor : Readings in Abnormal Psychology.
Thouless : Social and General Psychology. Ch. VI.

الفصل السادس

انحلال الشخصية

« اللاشعور »

خلاصة ومقدمة

تكلمنا إلى الآن عن تكامل الشخصية ، وأشرنا إلى العوامل المتعددة من دوافع فطرية ، إلى قدرات عقلية مختلفة ، إلى عوامل جسمانية ومزاجية . وكل عنصر من هذه العناصر يظهر بقدر يختلف من شخص إلى آخر . ومركبات العاطفة الواحدة فى الشخص الواحد تختلف فى قدرها من موضوع إلى آخر . فمقدار الحنو الداخل فى تركيب عاطفة حب شخص معين نحو أمه غيره نحو أبيه ، أو نحو ولده ، أو نحو صديقه . وبذلك تكون العواطف التى يمكن تكوينها متعددة جداً . ولكن مع ذلك فهذه كلها تترابط أو تتكامل عند الشخص الواحد تحت تأثير عاطفة اعتبار الذات . والتكامل سنة مظاهر الحياة الجسمية والعقلية فى الكائن الحى الواحد (١)

ولكن سبق أن ذكرنا أن التكامل التام كثيراً مالا يوجد . ومثل العناصر التى يتكون منها الكائن الحى مثل الأفراد الذين تتكون منهم جماعة من الناس ، إذا حصل بينهم شىء من النزاع والانشقاق ، فإن العناصر المنشقة تعمل دائبة متخفية ضد بقية الجماعة ، وتنتظر هذه العناصر المنشقة حالات الغفلة عند بقية الجماعة ، ليزيد نشاطها الظاهر ضدها . فكأن الجماعة لا تشعر عادة بفعل العناصر المنشقة عنها .

---

(١) بل هو سنة نظام العالم أجمع بكل مظاهره كما أوضح المارشال سمطس فى الخطاب الافتتاحى للمجمع البريطانى لتقدم العلوم سنة ١٩٣١ .

The Scientific World Picture of Today : British Association for the Advancement of Science 1931 p. 5.

كذلك فى الحياة العقلية كثيراً ما يحدث صراع أو نزاع يترتب عليه انفصال بعض العناصر النزوعية ، ولا تشعر الشخصية عادة بوجود هذه النزعات المنفصلة ، ولكن مع ذلك لا تنعدم هذه النزعات ، بل تظل تحاول التأثير فى سلوك الفرد بأشكال مختلفة ، وبقية الشخصية تعمل عادة على إبعادها عنها . فكأنه قد أصبح لدينا شخصية شعورية ، وقوة أخرى أو مجموعة قوى لا شعورية . أما الشخصية الشعورية فهى تمثل العناصر المنسجمة بعضها مع بعض . وأما القوى اللاشعورية فإنها النزعات التى لا تنسجم مع الشخصية الشعورية . ووجود مجموعتين من القوى المتعارضة فى الشخصية الواحدة أدى إلى افتراض وجود الفصل (Dissociation) ، وأدى إلى افتراض « قوة » تمنع القوى اللاشعورية من التأثير فى الشخصية الشعورية . هذه القوة المانعة أو الضاغطة سماها « فرويد » بالرقيب (Resistance or Censor) ، ووظيفة الرقيب فى الحياة العقلية لا تختلف عن وظيفة الرقيب المعروف فى المجتمع . فالرقيب وقت الحرب مثلا ينتقى الأخبار التى يسمح بنشرها . وأما مجموعة الأخبار التى تعارض سياسة المجتمع وتعرقله ، فإنها تحبس ، وتمنع ، ويضغط عليها حتى لا تظهر . ولكن مع ذلك فإن كثيراً من الأخبار يتسرب خفية أو فى أشكال مقنعة إلى أذهان الشعب . ومن هذه الأشكال التنكرية الصور الرمزية والكاريكاتورية ، وما شابه ذلك . ومثل الرقيب فى الحياة العقلية كذلك مثل الأب الصارم فى الحياة المنزلية ، فإذا وجد الأب وكان يقظاً ، كان الأولاد عادة على أحسن مايكون من الأدب أو النظام وأما إذا غاب الأب أو نام أو غفل قليلا فإن الأولاد يهيجون ، ويلعبون ، ويمرحون ، ويخربون ، ويفسدون النظام . وهكذا يكون موقف الرقيب والنزعات العقلية كل منهما تجاه الآخر .

لهذا وصل فرويد من دراسته للمظاهر العادية والشاذة للحياة العقلية إلى أن عناصر الشخصية الهامة ثلاثة ، وهى :

١ — الـ « أنا » ، أو الذات ، أو الشخصية الشعورية (The Ego) .

٢ — الـ « هى » ، أو القوى اللاشعورية (The Id) .

٣ — الذات العليا (The Super-Ego) ، وتسمى أحياناً بالرقيب .

الـ « أنا »

أما الـ « أنا » فهى تلك الشخصية التى نعرفها فى أنفسنا ، ونشعر بها . « فأنا » أحب والدى ، و « أنا » أحب أخوتى ، و « أنا » أحب الصدق ، و « أنا » أحترم من يتمسكون بمبادئهم ، و « أنا » أكره الكذب ، و « أنا » أكره الاعتداء ، و « أنا » أعرف فى نفسى كل ذلك . فهذه الـ « أنا » هى صاحبة العواطف والميول ، وهى منطقية معقولة ، متصلة بعالم الواقع اتصالا مباشراً ، وهى حلقة الاتصال بين النزعات الغريزية ، وبين مثيرات العالم الخارجى وهى خلقية ترعى التقاليد . وهى تغفل فى ساعات النوم . وأما فى ساعات اليقظة فإنها تشعر بما لديها من خبرة .

وطريقة تكوّن الـ « أنا » أن الطفل الصغير يكون مدفوعاً بما يسميه البعض عوامل الحصول على اللذة والابتعاد عن الألم وما يسميه البعض الآخر « غرائز » . ولكن اتفق الجميع على أن المنبع الأساسى لهذه الدوافع أو العوامل هو الطاقة الغريزية . ويمكننا أن نقول إن الطفل الصغير من الناحية النفسية ما هو إلا مجموعة دوافع فطرية ، ويريد الطفل أن يحقق هذه الدوافع . وهى لا تتحقق عادة إلا باتصاله بالعالم الخارجى وعن طريق تفاعلاته مع هذا العالم ، ومع ما فيه من قوى ومقاومات وأشياء ساكنة ، وأخرى متحركة ، وكائنات حية ، وأخرى ميتة ، وسلطات فردية ، وأخرى اجتماعية ، تارة تعاقب ، وتارة أخرى تثيب . وهى توقع عقابها وثوابها بأساليب مختلفة . يؤدى التفاعل مع كل هذا ومع غيره إلى تكوين النفس الشعورية أو الـ « أنا » ، وأقوى عوامل التفاعل الأولى هى الأم ثم الأب .

فكأن الـ « أنا » انفصلت من الطاقة الغريزية بعد اتصال هذه بالعالم الخارجى . وطريقة تكوّن الـ « أنا » شبيهة إلى حد ما بطريقة تكون عاطفة اعتبار الذات فى

نظر مكدوجل . ووصف فرويد لـ « أنا » شبيه بوصف مكدوجل لعاطفة اعتبار الذات[1] .

الذات العليا أو الضمير اللاشعورى (Super-Ego)

علمنا أن الـ « أنا » تتكون بتميزها من الدوافع الغريزية بعد اتصال هذه بالعالم الخارجى . وهناك جزء آخر يتكون بانفصاله من الـ « أنا » وهى فى مراحل تكوينها الأولى . واسم هذا الجزء الذات العليا . وطريقة تكونه أن الطفل أثناء اتصاله بالعالم الخارجى وتكوّن الـ « أنا » عنده يتصل شعورياً بمصادر السلطة الثابتة ، وأهمها سلطة الأب أو من يمثل الأب . وسلطة الأب هذه توجه السلوك ، فهى تمنع أنواعاً من السلوك وتسمح بأخرى . والطفل يعجب بهذه السلطة لقوتها ، ويحبها لحمايتها له ، ولقيامها على إشباع رغباته . لهذا نجد الطفل يتمثل بخصائص السلطة ، ويقلدها بأن يجرب أساليبها . فالطفل إن قيل له إن من العيب أن يكشف عورته ، ففى أول فرصة يجد أخاه الأصغر منه يفعل ذلك ينهره كما نهره والده من قبل ، أو قد ينهر دميته فى موقف تمثيلى شبيه بالمواقف التى ينهره فيها الأب .

ويلخص علماء النفس هذه العملية بأنها عملية امتصاص وإسقاط (Introjection & Projection) ، أى امتصاص الطفل لخصائص السلطة وإسقاطها على الخارج . وعمليتا الامتصاص والإسقاط مهمتان لتكوين هذه الذات العليا . ثم يقوم الطفل بعد ذلك — دون أن يشعر — بتحكيم هذه السلطة فى سلوكه الخاص به . فإذا فرضنا أن فرداً اشتاقت نفسه لإشباع غريزة من الغرائز بطريقة لا يقرها العرف ، فقد تقوم الذات العليا بعملية المنع أو بعملية السماح لـ « أنا » بالتمتع بإشباع هذه الغريزة بطريقة

(١) Wm Brown says «The Ego bears some relation to the more idealistic conception of the self-regarding sentiment of Mc Dougall.» : Psychology & Psychopathology, p. 70.

أخرى يقرها العرف ! فكأن الذات العليا تقوم بتنظيم الصلة بين الغرائز من ناحية وبين الـ « أنا » من ناحية أخرى .!

والفرد عندما تتكون عنده الذات العليا يكون كأنما قد نصب على نفسه رقيباً أو حاكماً أو والداً يتصرف فى نزعاته ، ويوجهها وينظم علاقتها بالـ « أنا » أو النفس الشعورية .

وتتصف الذات العليا بأنها تتصل اتصالا كبيراً بالطاقة الغريزية ، وفى نفس الوقت تسيطر على الـ « أنا » ، ولو أنها تتكون أصلا بانفصالها منها ، وهى الناقد الخلقى الأعلى لـ « أنا » . وهى التى تشعرها بالذنب شعوراً شديداً إن صدر منها ما لا يروقها ! وقد لخص فرويد وظيفتها بأن سماها « الضمير اللاشعورى » (The Unconscious Conscience) وقد لخص براون نفس الوظيفة بقوله إنها الناقد اللاشعورى الأعلى لعقل الإنسان!.

(The Unconscious higher critic of the mind) (١،٢،٣)

! وأما السبب الأساسى فى أن الذات العليا تتصف بأنها لا شعورية فإنه أمر يحتاج إلى شرح مطول نكتفى بتلخيصه فى أن الذات العليا تمثل سلطة الأب . وسلطة الأب نفسها مكروهة لوقوفها فى سبيل التعبير عن الغرائز بصورها الفطرية ، ولكنها فى نفس الوقت مقبولة لأنها سلطة الأب الذى يعطى ، ويحمى ، ويشبع الكثير من الحاجات الأولية . فالذات العليا تمثل السلطة التى تعطى وتمنع ، وتثيب وتعاقب ، وتحمى وتؤذى ، إلى غير ذلك من الأفعال التى يجاب بعضها المحبة ، ويجاب بعضها الآخر الكراهية . ونتيجة هذا التناقض الوجدانى (Ambivalency) إبعادها من الشعور . ولكنها مع ذلك تظل فى غاية القوة . وهناك سبب هام آخر يجعلها لاشعورية ، وهى أنها سلطة غير منطقية على عكس الخصائص التى تتطلبها النفس

(١) Freud : The Ego and The Id ch. III

(٢) » : New Introductory Lectures to Psycho-Analysis

(٣) Wm. Brown : Psychology and Poychopathology.

الشعورية ، فهى تنزع لأن تبدو للعالم الخارجى بأن لها كياناً منطقياً . وهذا سبب آخر من أسباب فصلها و إبعادها عن الشعور .

والتسليم بوجود الذات العليا يوقفنا على أسباب التمسك الجامد بما يسمى التقاليد والذوق والقيم الخلقية و بعض الأمور الدينية ، مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لذلك . وكثير من الناس يؤمنون مثلا بأفضلية السفور على الحجاب ، ومع ذلك لا يطيقون السماح لذويهم بالسفور . وكثير لا يرى مانعاً علمياً أو منطقياً فى جمع البنين مع البنات فى المراحل الأولى من التعليم الابتدائى ، ولكنهم مع ذلك لا يستسيغون تنفيذه ، ولا يعلمون سبباً صريحاً لاتخاذهم هذا الاتجاه .

الـ « هى » (The Id) أو الطاقة الغريزية

ذكرنا فيما تقدم جزأين من النفس : وهما الـ « أنا » والـ « أنا العليا » أو الذات العليا . وهناك جزء ثالث لا يمكن الوصول إليه فى العادة . ووصلنا إلى معرفة ما به من دراسة الأحلام ، ودراسة مسالك الأطفال والبدائيين ، ومن التحليل النفسى للحالات المرضية والعادية . وهذا الجزء من النفس يسمى بالـ « هى » . وهى تحتوى مجموعة نزعات مختلطة بعضها مع بعض . وهى مضطربة قوية هائجة تندفع نحو إشباع النزعات الغريزية على أساس تحقيق اللذة و إبعاد الألم . وقد تكون متناقضة العناصر دون اتجاه للتوفيق أو التقريب . وهى بعيدة عن المنطق ، ولا يدخل فى حسابها الطيب أو السيء . وليس عندها للقيم الأخلاقية أو المعايير المعروفة لنا أى اعتبار .

فالـ « هى » تحوى مجموعة القوى أو النزعات بصور غير خلقية ، وغير منطقية ، وغير منظمة ، وغير شعورية ، وهى تندفع بقوة لتحقيق اللذة .

ولكن يلاحظ أن الـ « أنا » وهى خلقية منطقية تساير التقاليد تكونت بانفصالها من الـ « هى » . فكأن الـ « هى » تشمل النزعات التى هى أساس السلوك الخلق ، وتشمل النزعات بصورها غير الخلقية ، ولكن صور النزعات التى لا تتفق مع الـ « أنا »

تكبت وتستبعد . وكذلك تكبت النزعات التى يترتب على تحقيقها إيلام للشخص ويكون مقرها الـ « هى » . فالـ « هى » تحوى النزعات المكبوتة بمختلف أنواعها .

ويرى فرويد أن عناصر الـ « هى » الأساسية هى النزعات الجنسية . ولكن تدل جميع الدلائل على أن الـ « هى » تشمل النزعات الغريزية الأخرى التى تكلم عنها آدلر ومكدوجل وغيرهما .

الـ « أنا » والقوى المؤثرة عليها

من كل ذلك نرى أن الشخصية الشعورية الظاهرية المألوفة لنا التى نحس بها ، والتى هى الـ « أنا » فى كل شخص تقع تحت تأثير ثلاث قوى فى غاية الشدة وهى :

١ — الـ « هى » بقواها النزاعة للتعبير عن نفسها ، وأهم القوى النزعات الجنسية فى صور غير صورها المشروعة التى وضعها المجتمع ، والنزعات الاعتدائية . وإلى جانب الناحيتين الجنسية والاعتدائية نجد النزعة للسيطرة ، والتملك ، وما إلى ذلك . كل هذا بصور فطرية غير مقيدة بقيود المجتمع وتقاليده .

٢ — الذات العليا بتحكمها فى الشخصية الشعورية والسماح لها بقبول بعض نزعات الـ « هى » بصور خاصة ، وعدم قبول بعضها إطلاقاً — والذات العليا تتحكم فى الشخصية الشعورية تحكما جائراً لامنطق فيه .

٣ — العالم الخارجى أو عالم الواقع (The Reality) بمغرياته ومثيراته وتقاليده ، فالعالم الخارجى فيه الأشخاص الذين يمنحون ويمنعون ، والأشياء التى تغرى ، والتقاليد الموضوعة المقيدة التى تضايق الناس . وفيه النقد ، وفيه المنطق ، وفيه الأسس الأخلاقية ، وفيه التقدير ، وفيه الرضا والسخط ، والثواب والعقاب ، والعدل والظلم ، والقسوة والرحمة . فالشخصية الشعورية المتكونة قبل أن تسمح لنفسها بالتمتع بالتعبير عن نزعة معينة لا بد لها أن تزن ما يترتب على هذا الافصاح من أثر متبادل بينها وبين عالم الواقع .

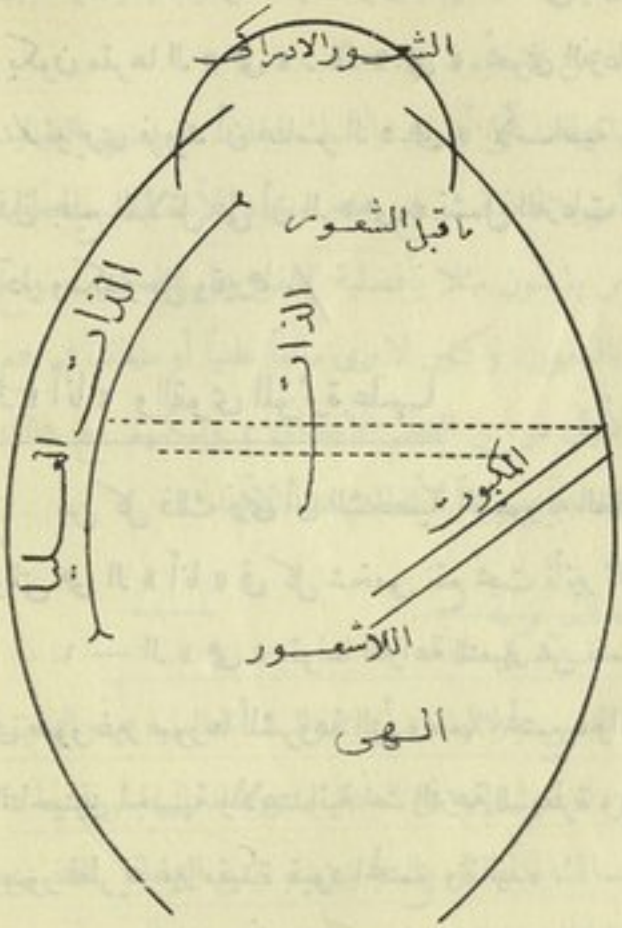

شكل يبين مكونات الشخصية كما يراها فرويد مأخوذ من :
Freud. New Introductory Lectures ot Psycho-Analysis p. 501

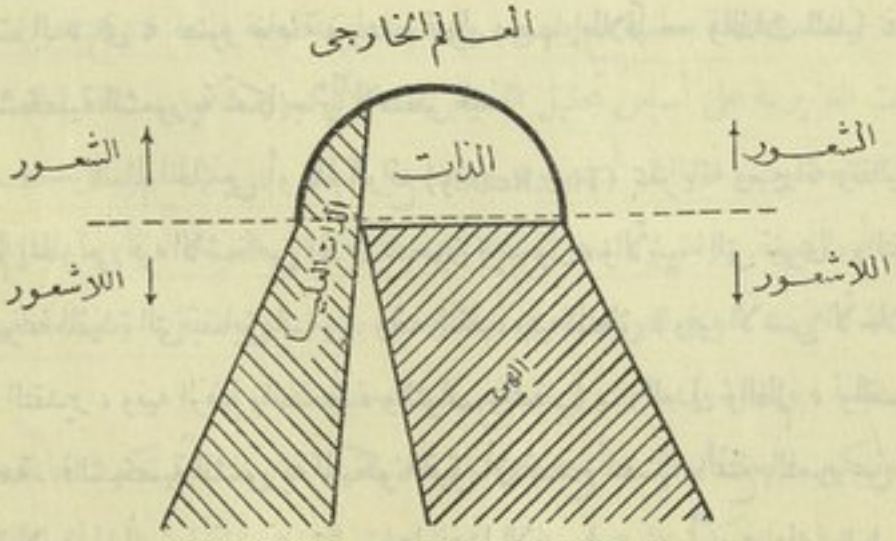

شكل آخر يبين مقومات الشخصية الشعورية واللاشعورية مأخوذ من :
Cattell : Crooked Personalities in Childhood and After; p. 29.

فال « أنا » تتنازعها قوى ثلاث . وهى الذات العليا ، والواقع ، وال « هى » . ولأجل أن تكون الشخصية الشعورية — أو ال « أنا » — فى حالة اتزان ، لابد أن تحقق من النزعات ما يسمح به العالم الواقعى بعد موافقة الذات العليا عليه . وللحصول على هذه الموافقة يلزم أحياناً تبرير هذه النزعات ، أو تقنيعها ، أو التحايل عليها بشتى الوسائل التى سنشير إليها فى الفصل التالى .

ويمكن على حسب رأى فرويد[1] تشبيه العقل بحجرتين : إحداهما صغيرة ظاهرة واسمها الشعور أو ال « أنا » ، والأخرى كبيرة جداً غير ظاهرة واسمها اللاشعور أو ال « هى » . أما الحجرة الأولى فإنها مرتبة مقبولة تستعمل عادة لاستقبال الضيوف من العالم الخارجى ، ويؤخذ أحسن ما فى المنزل ليرتب فيها لهذا الغرض . وأما الثانية فإنها غير مرتبة ، مليئة بألوان وأشكال من الحشرات الدائمة الحركة القذرة غير المقبولة . وبين الحجرتين ممر يقف به ما يسمى بالرقيب (Censor) . ومحتويات الحجرة الكبيرة تحاول النفاذ إلى الحجرة الصغيرة الظاهرة . ولكن الرقيب لا يسمح بالمرور إلا لأشياء معينة ، ولا بد أن تستوفى شروطاً شديدة . ولكن تفلت أحياناً من الرقيب بعض الأشياء ، وتخرج للحجرة الصغيرة من الحجرة الكبيرة . وهذا الإفلات يحدث باستغفال الرقيب ، كما يحدث فى الأحلام ، وفى فلتات اللسان ، وفلتات القلم ، والنكات غير المقصودة وبعض الحركات غير الإرادية ، وغير ذلك من أنواع السلوك العادى والشاذ .

الصراع والكبت وتكوين العقد

لننتقل بعد هذا لشرح بعض الأمثلة التى تبين كيف أن العقل يفصل النزعات إلى شعورية ولا شعورية . لنأخذ حالة مألوفة ، وهى أنك وأنت سائر مع أصدقائك فى الطريق مثلا نبح عليك كلب كبير . فالطريق الطبيعى الذى تتبعه هو أن تتخلص

(١) لمزيد كر فرويد كل ماورد تحت هذا التشبيه بالنص .

من خطره ، ولكنك تحاول أن تظهر أمام أصدقائك إذ ذاك بمظهر الشجاعة ، والشجاعة والخوف لا يتفقان ، فتحاول أن تخفى الخوف ؛ وقد تجد نفسك تبالغ بغير قصد فى إظهار الشجاعة . ومحاولة الإخفاء هنا قد تكون شعورية . ويلاحظ أنك تخفى وراءها من النزعات ما لا يقبله المجتمع . وتستبقى ما يؤيده فالصراع بين الشجاعة والخوف ينتهى هنا باستبقاء الشجاعة وإخفاء الخوف .

ومن الحالات الكلاسيكية[1] فى هذا الصدد حالة ذلك الطبيب العسكرى الذى كان يقاسى منذ طفولته قلقاً — يصل أحياناً إلى خوف ظاهر — إذا ما وجد نفسه فى مكان ضيق . وكان يعتبر هذا شيئاً طبيعياً ، وكانت تظهر عليه فى بعض الأحيان أعراض اضطراب عصبى وتلعثم فى الكلام .

وعمل أثناء الحرب فى الميدان ، وكان يتحتم عليه بحكم عمله قضاء معظم وقته فى حجرات الخندق dug outs ، ولكنه لم يطق ذلك فكان يترك حجرته ويستمر طوال الليل يتجول فى الخندق ، وهنا تحقق للمرة الأولى أن خوفه لم يكن طبيعياً . وكان أن أرسل إلى المستشفى بتقرير ذُكر فيه إنه يعانى الأرق والتلعثم والأحلام المزعجة والاكتئاب والصداع وما إليها .

وطلب إليه محلله أن يسجل أحلامه وأن يحاول استرجاع ذكرياته القريبة التى تتصل بهذه الأحلام . وبعد بذل جهد قليل فى هذا السبيل تذكر خبرة مرت به فى سن الرابعة ، لم يتح له تذكرها فى محاولاته السابقة لتعليل حالته .

وكانت الحادثة التى تذكرها زيارة لمُتَّجر فى الأشياء القديمة اعتاد أن يعطى من يذهب إليه من الأطفال ومعه سلعة مما يتجر فيه مبلغاً ضئيلا من المال . كان هذا التاجر يسكن قريباً من منزل الطفل ، وصادف أن وجد شيئاً فذهب به إليه ، وكان منزل التاجر يقع فى منتصف ممر مظلم ضيق ، دخله الطفل وباع الرجل ما كان معه وخرج . وصادف أن كان فى نهاية الممر من الجهة الأخرى كلب كبير ، وعندما

(١) Rivers : Instinct and The Unconscious p. 170.

ذهب الطفل إلى مدخل الممر وجده مغلقاً فأسقط فى يده ، وحينئذ بدأ الكلب ينبح نباحاً عالياً فانتاب الطفل ذعر شديد . وكان من أثر ذلك أنه كان يخاف — دون وعى منه — أن يمر بدار هذا الرجل بعد هذا الحادث .

ونسيانه للحادثة قد تم بالطريقة الآتية : وهى أن الولد يتعلم عادة أن يكون شجاعاً وألا يخشى الحيوانات العادية كالكلاب والقطط وما شابه ذلك ولما حدث له هذا الحادث ، تولاه صراع بين الخوف الطبيعى والشجاعة التى غرسها فيه المجتمع . فاستبقيت الشجاعة وكبت الخوف من الكلاب ونسى نسياً تاماً . ولكن الولد استبقى نوعاً من الخوف لا يقوم المجتمع بتعييره من أجله كثيراً ، وهو أنه لا يحب المرور فى الممرات الضيقة ، أو المكوث فى الأماكن المقفلة ، ويلاحظ أنه يدعى أنه لا يحبها ، ولا يقول أنه يخافها .

فالخوف من الكلب ، وما أحاط به من ذكريات ترتبط بظروف الحادث ، كبت فى اللاشعور . ولكن ظل الخوف يعمل فى صورة أخرى ، وهى الخوف من الأماكن المغلقة . فكان الضابط كلما دخل نفقاً أو خندقاً شعر بخوف شديد . ولكن يحدث هنا كبت من نوع آخر ، وهو أن الخوف فى الخندق يتنافى مع واجب الجندية ، أو واجب الدفاع عن الوطن ، أو فكرة الشجاعة ، أو غير ذلك . ولكن لا يلبث أن يتكرر الموقف ، ويتكرر نجاح انفعال الخوف فى الظهور ، وينجح هو فى كبته . ولكن يأتى وقت يطغى فيه الانفعال المكبوت على الشخص ، ويصبح الإنسان فى حالة مرض عقلى ، أو انهيار عصبى ، أو ما شابه ذلك .

وأغلب الظن أن الكبت هنا لا شعورى ، فليس من المعقول أن يكون الطفل قد كبت الخوف كبتاً شعورياً . والكبت فى هذه الحالة هو المقاومة التى أدت إلى فصل انفعال الخوف مع الذكريات المرتبطة به من الشعور إلى اللاشعور . والخوف المكبوت وما يحيط به من ذكريات يسمى عقدة (Complex) .

وتعريف العقدة أنها مجموعة الأفكار والذكريات ، المصطبغة بصبغة انفعالية

مؤلمة ، والمكبوتة فى اللاشعور . ويتلخص العلاج على طريقة فرويد ، فى إبراز العقدة بمكوناتها للشعور و إدماجها فيه . فاللاشعور إذاً يحتوى على الذكريات المؤلمة ، وعلى النزعات التى لا تنسجم مع تقاليد الحياة وآدابها المعترف بها .

لنأخذ حالة أخرى وهى من أولى الحالات التى عالجها فرويد[1] مع زميله بروير (Breuer) ، وهى حالة فتاة كانت مصابة بالهستيريا ، ومما كان لديها من أعراض ، شلل فى بعض أطراف الجسم ، وفقدان الإحساس فى النصف الأيمن من جسمها . وأصيبت أيضاً بخوف من الماء وصل بها إلى عدم المقدرة على الشرب . وفى يوم أرادت أداء الصلاة ، وكانت فى حالة رعب شديد ، فلم تتذكر إلا قطعة كانت قد حفظتها بالإنجليزية ، ومنذ ذلك الوقت نسيت لغتها الأصلية ، وهى اللغة الألمانية ، ولم تتكلم سوى الإنجليزية .

و بطبيعة الحال فحصت الفتاة أولا من الناحية الجسمية فحصاً دقيقاً ، أدى إلى التأكد من عدم وجود أية إصابة جسمانية كافية لظهور هذه الأعراض . فلجأ فرويد وزميله بعد ذلك إلى أساليب نفسية كالمحادثة والإيحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسى . وفى يوم من الأيام — والفتاة فى جلسة من جلسات العلاج — تذكرت أنها كانت ذات مرة تعبة منهكة تشعر بعطش شديد . وكانت إذ ذاك تستريح فى حديقة منزلها . فأعطتها مربيتها كوب ماء لتشرب منه ، فأصاب البنت جزع وتقزز شديد ، لأنه سبق لها أن رأت كلباً يلعق فى هذا الكوب . ولكن الذى قدم لها الكوب هى مربيتها الإنجليزية ، وكانت تخافها وتكرهها فى قرارة نفسها ، ولكن لا تجرؤ على مخالفة أمرها ، فشربت الماء متأففة متألمة ، وضغطت على شعور التقزز ، ثم نسيت الحادثة كلها نسياناً تاماً . ولكنها بعد ذلك — ورغم نسيانها للحادث الأصلى — ظلت تتقزز من رؤية الماء ، ولا تقوى على ابتلاعه .

الانفعال المؤلم هو التقزز ، وما تجمع حوله من أفكار هو ، المربية ، والكلب ،

(١) Freud : An Autobiography, chapter II.

والكوب ، والظروف المحيطة كلها ، والحادث نفسه . هذا كله كعقدة واحدة كبت فى اللاشعور . ولكن ظلت القوة الكامنة فى الانفعال تعمل فى صورة تقزز من الماء .

بعد أن ذكرت الفتاة كل هذا و بعد أن مرت بالخبرة الانفعالية السابقة من كره وتقزز وخوف وما إليه ، طلبت كوب ماء ، وشربت منه بشره شديد . وتمكنت فى ذلك الوقت من التمتع بشرب الماء ، ومن التكلم بلغتها الأصلية وهى الألمانية . أى أن العلاج قد تم بسحب العوامل اللاشعورية ، و إبرازها فى الشعور وإدماجها فيه . وللحالة ظروف وملابسات أخرى عديدة ، كل منها يحتاج إلى تحليل طويل جداً . فنكتفى بما ذكرناه .

ولأجل أن نفهم الطريقة التى تمت بها عملية النسيان أو الفصل من الشعور — أو كما يطلق عليها اصطلاحياً الكبت — نعود إلى الحادث الأصلى ، فنجد أن التقزز كان مرتبطاً فى ذهن الفتاة بكوب الماء لأن الكلب كان قد لعق فيه . والمربية هى التى قدمت إليها الكوب . فوقعت الفتاة إذ ذاك بين أمرين : فهى إما أن تقبل الكوب منها ، متأثرة بدافع الطاعة ، أو التأدب ، أو الخوف ، أو ترفضه مجيبة بذلك نداء طبيعياً ، وهو رفض ما تتقزز منه نفسها . وحدث إذ ذاك فى نفس الفتاة صراع مؤلم عنيف بين أمرين ، كلاهما يشق عليها التغلب عليه ، أحدهما الطاعة وقبول الماء الذى تعافه نفسها ، والآخر رفض الماء ، والظهور بمظهر عدم التأدب والعصيان . وانتهت المعركة النفسية بقبول الماء وشربه ، وكبتت الفتاة رغبتها الطبيعية فى رفض ما تجزع منه نفسها . وانتهاء المعركة النفسية فى هذه الحالة لم يكن إلا انتهاء مؤقتاً ، فالتقزز الطبيعى مما تعافه النفس لم يمت ، و إنما انحدر إلى « اللاشعور » ، وظل هناك قوياً فعالا . وظهرت فاعليته فى أن أصيبت الفتاة بمرض عصبى من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء .

ويصح أن نورد هنا بياناً مختصراً جداً لبعض العقد ، فمن العقد الشائعة المعروفة عقدة النقص (Inferiority Complex) ومنشؤها الأصلى تكرار النقد والإذلال ،

وكل الأجواء والمعاملات التى تؤدى إلى شعور بالنقص يكبت ويترتب عليه الظهور بمظهر الذلة والخضوع أو الظهور بمظهر العظمة . وعقدة الأب (Father Complex) ومنشؤها قسوة السلطة ، وصرامتها ، وشدة الجو المنزلى . ويترتب على قسوة السلطة ، وامتصاص الطفل لها أن يعكسها على نفسه ، ويعكسها على الناس . وعندما يعكسها على نفسه يكون قاسياً عليها شديد النقد لها ، كثير التبرم منها ، غير راض عنها ، شاعراً بخطئه على الدوام ، يخشى لوم الناس ونقدهم ، ويحسب لهم ألف حساب . وعندما يعكسها على الناس يكون أيضاً شديد النقد لهم ، قاسياً عليهم ، يتمتع بإبراز خطاياهم . وأما عقدة الأم (Mother Complex) فمنشؤها عادة التدليل الشديد ، الذى يترتب عليه أن يصبح الشخص اتكالياً أنانياً ، يعامل نفسه كما تعامل الأم الضعيفة ابنها . وقد يظهر الشخص بنوع من القوة لتغطية الضعف الذى أشرنا إليه حتى لا يكون مكشوفاً للمجتمع ، وليس من الضرورى أن يكون منشأ عقدة الأم هو الأم نفسها ، ولا أن يكون منشأ عقدة الأب هو الأب نفسه .

وهناك عقدة أديبوس (Oedipus) وهى تتميز بعنصرين : حب الولد لأمه ، وكراهيته لأبيه . أما عقدة الكترا (Electra) فإنها تتميز بحب البنت لأبيها وكراهيتها لأمها . وهاتان العقدتان إحداهما أو كلتاهما ضروريتان — كما يرى فرويد[1] لتكوين ما يسميه بالذات العليا .

العواطف والعقد

بينا باختصار كيف تتكون العقد ، وسبق أن بينا قبل ذلك كيف تتكون العواطف . ونظراً لما بينهما من تشابه عظيم يرى بعض علماء النفس الإنجليز أن يطلق عليهما اسماً واحداً وهو (Complex) بالنظر إلى تركيبها . ونرى لهذا أن نقيم بينهما موازنة قصيرة توضح معنى كل منهما .

(١) Freud : The Ego and The Id; ch. III

الأساس الأول فى تكوين العقد هو الكبت نتيجة للصراع ، وأما الأساس فى تكوين العواطف فهو الاندماج والانسجام مع الـ « أنا » ، التى تقبل هذه العواطف. ينتج عن هذا أن تكون العقد لا شعورية ، وأما العواطف فإنها شعورية . ولهذا السبب الأخير تخضع العواطف للتجارب الجديدة ، فتتعدل بها . وأما العقد فإنها لا تتعدل بالتجارب العادية . فإذا كانت لدى عاطفة حب أو احترام لشخص ما ، فإن عاطفة الحب هذه يمكن إنماؤها ، وتغذيتها ، أو يمكن أن تتعدل من نفسها على ضوء المعرفة الجديدة . وأما العقدة فإنها فى الغالب ثابتة ، فالضابط الذى كان يخاف الأماكن المقفلة ، لم يتعدل سلوكه رغم معرفته بعدم وجود أساس لمخاوفه .

وتؤثر العاطفة عادة فى سلوكنا كل الوقت تقريباً ، وهى ضرورية لسلوكنا . وأما العقد فإنها تظل عادة كامنة ، إلى أن يأتى الظرف المناسب لإظهارها . وهى ليست ضرورية لتوافق الحياة العقلية . ولها فوق ذلك قوة خاصة بها ، بخلاف العواطف فهى فى قوتها تابعة لبقية الشخصية الشعورية . فبينما تتعاون العاطفة مع بقية عناصر الشخصية فى حكم الفرد ، نجد أن العقدة ثائرة من نفسها على بقية عناصر الشخصية . ومن أمثلة ذلك أن يعيش المرء فى حياته عيشة هادئة معقولة ، وفجأة يجد نفسه فى موقف يثير فيه الخوف الشديد . ونجد أن هذا الخوف الشديد لا يتفق مع معلومات الفرد ، ولا تفكيره السليم ، ونجد أيضاً أن له قوة عظيمة خاصة به ، يطغى بها على بقية الشخصية. فالعقدة هنا قوة ديناميكية عظيمة مستقلة تؤثر فى الفرد . وهناك من حالات الأمراض العقلية من الأمثلة ما لا حصر له ، مما يدل على صحة ماتقول ، فمن هذا مثال القسيس الإيرلندى الذى خرج من منزله فى لندن صبيحة يوم من الأيام ، وبدلا من أن يذهب إلى الكنيسة ركب القطار وسافر إلى إدنبره ، ووجد نفسه فجأة فى شوارع بلدة غريبة. وحاول أن يتذكر اسم نفسه والجهة التى جاء منها ، فلم يتمكن . ثم سلم نفسه للبوليس ، وأخذا هذا فى البحث و إذاعة النشرات ، حتى عرف كل شىء عن هذا القسيس . هذه حالة اقتبستها من محاضرات الأستاذ هادفيلد (Hadfield) فى جامعة لندن ، وكان

قد أتى بها ليدلل على ما يسمى عادة حالات فقد الذاكرة المصحوبة بالابتعاد عن المكان الذى يعيش فيه الإنسان (Fugue states) . وتدل هذه الحالة على أن الحياة الدينية التابعة لـ « أنا » (The Ego Life) ، لا تتفق مع نزعاته الفطرية التابعة لـ « هى » (The Id) . وزيادة على ذلك فإن الرقيب أو الضمير اللاشعورى أو الذات العليا (Super Ego) لم يكن بحيث يوفق بين الـ « أنا » والـ « هى » ومطالب العالم الخارجى . بذلك طغت الـ « هى » على الـ « أنا » .

وهناك مثال آخر اقتبسته أيضاً من محاضرات الأستاذ هادفيلد ، وهو مثال لتاجر مشهور فى سيلان من تجار الشاى ، وكان قد اختفى عن أنظار أهله وأصدقائه فى يوم من الأيام . وبعد البحث وجدوه هائماً على وجهه ، ينام على ضفاف القنوات المائية فى الهواء الطلق ، ويأكل أى شىء يقابله من حشائش وغيرها . وكان إذا اقترب منه أو شاكسه أحد قابله بالعويل والصراخ . وبالجملة فإنه وجد يعيش عيشة تمزج بين عيشتى الفطرة والطفولة . ولكنه لما أعيد إلى مزارعه أمكنه أن يتذكرها وعادت إليه حالته الأولى . فهذا التاجر ولو أنه كان ناجحاً فى الظاهر إلا أن تحمل المسئولية — الذى هو وظيفة النفس الشعورية — لم يكن فى لحظة ما قادراً على مقاومة المحتويات اللاشعورية . فكان من السهل على اللاشعور أن يسيطر على حياة هذا التاجر سيطرة تعفيه من المسئولية (١) .

وهذه القوة الديناميكية المستقلة المخالفة فى اتجاهها لبقية الشخصية ، تفسر تناقض الأشخاص فى سلوكهم ، وتفسر اندفاعهم بما لا يقصدون من حركات وألفاظ . ويشكو الآباء كثيراً من هذا التناقض ، فيقول الواحد منهم مثلا إن ابنه يكون أحياناً هادئاً لطيفاً ، يتكلم بتعقل . وأحياناً أخرى يكون هائجاً ، معاكساً ، معانداً لغير سبب ظاهر . وكثير من حالات إجرام الأحداث التى بحثناها كان السلوك الإجرامى يصدر

---

(١) يشبه هاتين الحالتين تماماً حالة القسيس Ansel Bourne المشروحة فى كتاب :
B. Hart : Psychology of Insanity; p. 49

فيها بقوة لا حيلة للحدث فى مقاومتها . فالحدث أحياناً يسرق ، أو يكذب ، أو يهرب ، أو يعتدى مندفعاً بقوة غريبة عنه . ويعبر عنها مخلصاً بأن الشيطان هو الذى دفعه إلى ذلك . وقال لى أحد الصغار الذين درستهم لحكمة أحداث القاهرة ما معناه : إنه كان يسمع الشيطان وهو يوسوس له فى أذنه اليسرى ويدفعه للسرقة .

مظاهر اللاشعور

من أهم خواص اللاشعور اندفاعه لتحقيق رغباته ، ويتبع فى ذلك أساليب متعدده . فأحياناً يحققها عن طريق فقد الذاكرة ، مما يساعد على إبعاد الشخص عن تحمل مسئولية لا يريد أن يتحملها . وشبيه بفقدان الذاكرة حالة الإغماء ، ففيها يفقد الإنسان شعوره ، فلا يحس بالموقف الذى لا يمكنه تحمله . وكذلك شبيه بهذين كثرة النوم ، فالنوم يبعد الإنسان عن مواجهة الواقع . ومن أمثلة ذلك نوم بعض السيدات أثناء وجودهن فى منازلهن . ويصاحب هذا النوم إنهاك وهمى ، ويساعد على إعفائهن من رؤية أزواجهن أو أولادهن أو القيام بمسئولياتهن المنزلية . ويحقق اللاشعور دوافعه كذلك عن طريق النسيان ، فالمرء ينسى ما يحدث الألم أو عدم الارتياح ، فينسى ما عليه من دين ، ولو أنه لا ينسى عادة ما له ، حتى ولو لم يدونه فى مذكراته . وينسى بعض المواعيد التى لا يرغب فى قرارة نفسه الذهاب إليها ، وهو ينساها رغم تذكير نفسه بها مراراً وتكراراً . وينسى شيئاً ما فى منزل صديق لأنه يود عدم الابتعاد عنه فيعود ليأخذ ما نسى . وينسى فى الصباح ، وهو خارج إلى عمله ، شيئاً ما يضطره للعودة إلى المنزل لأنه لا يبغى ترك المنزل ، أو لا يبغى الذهاب إلى العمل . وتنسى السيدات مواضع المفاتيح فيعفين أنفسهن من بعض العمل بالمنزل . وينسى المرء أسماء بعض الناس لارتباط هذه الأسماء بانفعال مؤلم إما بأصحابها ، أو بمشابهاتها . وقد لاحظت مرة أننى حفظت أسماء تلاميذى فى سنة من السنين حفظاً جيداً ، ما عدا اسماً واحداً ، رغم محاولاتى المتعددة فى أن أعلقه بذهنى . ولما

فكرت فى المسألة وجدت أن اسم هذا الطالب يستدعى إلى ذهنى اسماً مشابهاً آخر لقريب لى كنت — على ما يظهر — أكرهه كراهية شديدة رغم اضطرارى للتعامل معه . ومن ذلك الوقت لم أنس اسم هذا الطالب رغم مرور السنوات العديدة على ذلك .

وتتحقق رغبات اللاشعور فى الحياة اليومية فى النكات غير المقصودة ، وفى فلتات اللسان . ومن أمثلة فلتات اللسان أن شخصاً معيناً أراد أن يقول إن الكتاب أخذته (زاهية) . فقال إن الكتاب أخذته (داهية) . وكان متغيظاً بحق من أخذ هذه السيدة للكتاب ، ومن حجزها إياه مدة طويلة ، ويحقق اللاشعور رغباته فى أخطاء المطالعة وأخطاء الإدراك ، وغير ذلك من أنواع الخطأ التى بينت الدراسة الحديثة أنه لا يرجع لمحض الصدفة ، وإنما هو فى الغالب نتيجة حتمية لقوى يمكن معرفتها .

كذلك يحقق اللاشعور غاياته فى المظاهر المرضية الجسمية كالصداع والتهتهة ، وبعض حالات الصمم ، والعمى ، والشلل ، وفقد الإحساس ، والإنهاك العصبى ، والحمل الكاذب ، والتهاب القولون ، وغير ذلك من الظاهرات المرضية ، التى كثيراً ما تؤدى وظيفة هامة لرغبات الإنسان بطريقة لاشعورية .

ومن وظائف هذه المظاهر أنها تحمى الإنسان من موقف مؤلم ، فالمرض قد يدفع المرء للاعتذار عن ميعاد أو أداء امتحان أو تحمل مسئولية أو ما شابه ذلك [1] .

ومن الظواهر الشبيهة بالظواهر السابقة الأحلام بنوعيها : أحلام النوم ، وأحلام اليقظة ووظيفتها الأساسية تحقيق رغبات الإنسان .

---

(١) قام المحدثون بافراد قسم من علم الطب يدرس هذه النواحى وسموه Psycho-Somatic Medicine

الأحلام

ومن الظروف الملائمة لظهور نشاط اللاشعور الظرف الذى تتخدر فيه الحالة الشعورية باستعمال المخدرات أو المسكرات[١] أو الحالة التى ينام فيها الإنسان . وإذا أخذنا بفرض فرويد يمكن أن نقول إن الرقيب أثناء النوم يكون أقل تحكما منه فى حالة اليقظة ، وبذلك تتاح الفرصة للرغبات المكبوتة فى اللاشعور فتعبر عن نفسها تعبيراً صادقاً إلى حد كبير .

ويستثير الحلم عادة مثير خارجى ، كخبر أو فكرة أو مشاهدة أثناء حياة اليقظة ، أو مثير حسى أثناء النوم . فقد تقوم مناقشة حادة بين عدة أشخاص عن يوم القيامة والحساب والعقاب وما شابه ذلك ، فيحلم الشخص أثناء نومه حلماً محوره يوم القيامة كما سنرى . وقد يكون هناك مثير حسى أثناء النوم ، فيحدث الحلم مباشرة . فوخز إبرة قد تثير حلماً بأن الشخص يعذب بدق المسامير فى جسمه . والشعور بالتبلل فى القدمين قد يثير حلماً بأن الشخص يخوض فى الطين . وسقوط قطرات المطر بانتظام وتتابع على زجاج النافذة قد يثير حلماً فيه استماع أصوات المدافع الرشاشة . وضغط الغطاء على الفم قد يثير حلماً بأن الشخص يختنق ، وهكذا . ومن الخطأ أن ينتهى تفسير الحلم عند هذا . ولكن هذا الجزء من الحلم يدخل عادة تحت ما يسمى بالمحتويات الظاهرة (Manifest Content) ، وهى الوصف الظاهر للحلم ، وله بالخبرات أو المثيرات الخارجية القريبة أو الحسية المباشرة علاقة ظاهرة . ولكن الحلم فى العادة له معنى أعمق من هذا ، فالمحتويات الظاهرة ما هى إلى صور مقنعة (أو تنكرية أو رمزية) لأمور أخرى . مثال ذلك ما يحدث عادة من أن والداً يشتد على ولده مثلا بأن يضربه ، فالرد الطبيعى على هذا هو أن يغضب الولد ، وأن يرد على هذا بالأساليب الفطرية

---

(١) W. Brown in his Psychology and Psychotherapy says : "With a very depressed person one may find that the super-ego is ruling with excessive severity which alcohol can relieve."

غير المهذبة . ولكن الآداب العامة وتقاليد المجتمع تحتم عليه أن يقبل هذا بالرضا ، وتحتم عليه أن يعتبر أنه إنما عمل لصالحه ، وأنه يجب عليه أن يحب والده . هذا كله يفرضه المجتمع على الـ « أنا » فيضطر الـ « أنا » إزاء هـذه النظم والتقاليد أن يكبت — بمساعدة الذات العليا — كراهية الأب . والنزعة إلى الانتقام منه . وفى ليلة ما قد يحلم أنه قتل أسداً ، أو ثعباناً ، أو صار ملكا ، أو قتل ملكا . وصور الأسد أو الثعبان أو الملك كلها صور رمزية أو مقنعة يمكن أن تمثل الوالد . فالحلم يعبر عن نزعات الفرد المكبوتة ، لا تعبيراً صريحاً ، وإنما تعبيراً رمزياً أو مقنعاً .

ومن أمثلة ذلك : ولد فى سن السابعة ، كان والده قد توفى فجأة وتركه فى الثالثة . وكان الوالد وابنه متعلقين كل منها بالآخر تعلقاً شديداً ، وبعد ٤ سنوات من الوفاة ابتدأت الأم تفكر فى الزواج . فتغير الولد لهذا ، وكرهته أمه واعتبرته (على ما يظهر) عائقاً فى سبيل زواجها . وكانت له أخت أصغر منه دللتها الأم ، وكانت تشجعها على إهانة الولد . وكان كثير من أحلام الولد يدور حول الثعابين ، واعتدائها عليه . ونعتقد أن الثعابين تمثل زوج الأم المعتدى . وكان الولد يتبول أثناء نومه ، وكان إذ ذاك يُسمع وهو يتكلم فى الحلم غاضباً ، مهدداً ، شاتماً . وكل هذا موجه نحو سيدة لعلها أمه ، أو من يمثلها .

ومثال آخر : لشاب فى سن التاسعة عشرة من عمره ، وكان على درجة كبيرة من العناد والتمسك برأيه . وكانت علاقته بوالده قد ساءت إلى حد أن أصبح الوالد يجاهر بأنه يعتبر أن لا ولد له . وكان الولد شديد التململ من جفاء والده نحوه . فإذا غاب الولد عن المدرسة وأرسلت المدرسة لوالده خطاباً تسأله عن سبب الغياب ، أرسل الوالد هذا الخطاب مع الخادم لولده يسأله عن سبب الغياب . والأمثلة المتعددة من هذا النوع من المعاملة الجافة كانت تحز فى نفس الولد بشدة . وكان الولد فوق هذا معجباً بوالده ، يجمع صوره ، وكتاباته ، ويتتبع أخباره . وللولد ظروف عديدة لا مجال للدخول فيها هنا . ولكنه رأى فى الحلم — ذات ليلة — أن يوم القيامة قد حل ميعاده . ورأى

الله سبحانه وتعالى جالساً على عرش كبير عال . ورأى أهل الكتاب من مسلمين وغيرهم يمرون عليه . ورأى الله يرمى على المسلمين سائلا أبيض كاللبن ، ويرمى على غير المسلمين سائلا أحمر ساخناً ، ويكتفى بهذا كعقاب ، ثم يصفح عنهم جميعاً .

وبعد أن قص الشاب حلمه صمت قليلا ، ثم تنهد تنهداً عميقاً ، وقال من تلقاء نفسه بشيء من التأثر : « ولا أدرى لم لا يكون الوالد هكذا ؟ لماذا يستمر الوالد فى تجهمه وجفائه استمراراً لا يقطعه شيء ما ؟ . . . . الخ » . نرى من هذا أن « الله » فى هذا الحلم رمز للوالد . وأن الولد يحقق لنفسه فى الحلم ما كان يود أن يحققه لنفسه فى الواقع بشأن والده .

يبين هذان المثالان معنى المحتويات الظاهرة والباطنة ، ومعنى الرمزية أو التقنع (Symbolism) . والرمزية فى نظر فرويد قائمة على النواحى الجنسية بأعضائها وعملياتها وظروفها المختلفة ، مما يتفق مع نظريته عن الطاقة الغريزية . ولكن ليس هناك ما يحتم ترجمة الرموز بهذه الصورة . ففى الحالة الأخيرة السابقة كان الشاب يرى عيوناً تحدق فيه ، وكان يخاف منها . واتضح أن هذه العيون تمثل الذات العليا نفسها ، وهى ترقبه ، وتنقده ، وتزعجه ، وتشتد عليه .

ومن حيل الأحلام حيلة التكثيف[١] (Condensation) وتتحقق بها رغبتان أو أكثر فى وقت واحد . ومن الأمثلة البسيطة لهذا حلم الطالب[٢] الذى كان يدرس الطب ، وقام من نومه فى ساعة مبكرة ، ولكنه أحس برغبة شديدة فى النوم ، وهذا لا يتفق مع وجوب الذهاب إلى المستشفى ، وأحس فى نفس الوقت برغبة فى الذهاب إلى المستشفى ، وهذا يتعارض مع الرغبة فى النوم . فنام قليلا ، وحلم أنه مريض ونائم

---

(١) ويظهر أثر التكثيف كحيلة لا شعورية فى الحياة العادية ، فتجد واحداً يكثر الكلام بدافعين متناقضين : أحدهما الرغبة فى إثبات الذات ، وثانيهما الدفاع عن الذات حتى لا يقوم المستمع بتوجيه أسئلة أو اعتراضات .

(٢) Valentine : The New Psychology of the Unconscious p. 99. quoted from Freud.

على سرير المستشفى . هـذا مثال للتكثيف الذى حقق به الطالب رغبتين فى نفس الوقت ، وهما النوم والذهاب إلى المستشفى . ومعظم الأحلام — إن لم تكن كلها — تكثيفية .

ويلاحظ أنه كثيراً ماتكون الأحلام صوراً مضطربة خالية خلواً تاماً من اتباع المنطق ،ومراعاة التقاليد . ونظراً لأنها هى نفسها ناشئة من اللاشعور ، فإنه سرعان ما يتولاها الكبت والنسيان . فالأحلام تنسى بغاية السرعة . ولذا وجب لمن أراد دراسة أحلامه ، أن يكتبها مباشرة بمجرد استيقاظه ، وأن يتحاشى عوامل النسيان ، وعوامل التعديل ، التى يدخلها الـ « أنا » ، حتى يبـدو الحلم على شىء من الاتفاق مع المنطق والأخلاق ، وحتى لا يبدو بالسخف الذى يحدث به الحلم . هذه العوامل كلها تبعد الحلم عن حقيقته . ولذا كان الإنسان فى حاجة إلى التمرن ، حتى يمكنه أن يدون حلماً أو يقصه كما حدث بالفعل . والدارسون لعلم النفس ، المقدرون لهذه النقطة صعوبتها ، يشكون فى صحة كثير من الأحلام التى تقص عليهم . وكثير من النـاس يقولون إنهم لا يحلمون مطلقاً ، وأنهم ينسون جميع أحلامهم . ولـكن ببعض التمرين يمكنهم أن يلاحظوا أنهم يحلمون بكثرة ، وأنهم يمكنهم تدوين هذه الأحلام بشىء من الدقة . ويختلف تذكرنا للأحلام باختلاف بُعد وقوع الحلم من فترة الاستيقاظ ، وباختلاف عمق النوم . ويلاحظ أن النوم إن كان عميقاً ، وقع الحلم بصورة جدية . ولـكن فى حالات النوم الخفيف يقع الحلم ، وكثيراً ما يعرف الشخص أنه يحلم .

وشبيه بأحلام النوم أحلام اليقظة ، وهى الأفكار والخيالات التى يسترسل فيها الشخص عندما يقال إنه شارد الذهن . فالطفل قد يضع أصبعه فى فمه ، ويسترسل فى خيالاته . وبعض الأطفال يضـع فى فمه لقمة ولا يمضغها ، ثم يسبح فى خيالاته . وكذلك البالغ يسترسل فى كثير من أحلامه أثنـاء اليقظة . ويتم فى أحلام اليقظة إشباع كثير من الرغبات ، كالرغبة فى التخلص من الأب ، أو الأم ، أو المدرسـة ، أو حالة العزوبة ، أو تحمل المسئولية ، أو الحصول على الغنى ، أو الشبع ، أو الزواج ،

أو الشهرة ، أو غير ذلك مما تشتاق إليه النفس ، ولا يسهل أحياناً تحقيقه فى الواقع .

والطفل فى لعبه كثيراً ما يحقق رغباته بطريقة شبيهة إلى حد ما بما يتبع فى أحلام النوم أو أحلام اليقظة . فالأطفال لا يلعبون عبثاً ، أو لهواً ، أو لمجرد قتل الوقت . وإنما يلعبون ليصيبوا أهدافاً معينة . وهم يقومون فى ذلك بأدوار تمثيلية ، يعبرون فيها عن رغباتهم ومخاوفهم . والذين يفهمون هذه اللغة الخيالية للأطفال يكشفون فى العادة الأشخاص والحوادث التى يرمز لها فى هذه الأدوار . ومن أمثلة ذلك الطفل الذى يمثل وضع « القطرة » فى عينى دميته إنما ينفس عن رغبة كامنة فى نفسه ، لأن أمه أمسكته ، وضغطت عليه ووضعت القطرة فى عينيه . وهذا فى مجموعه عملية غير سارة لا يرضاها ، وإنما يقبل الإذعان لها تحت الضغط فهو يود لو ينتقم ممن حوله . ولكن أنى له هؤلاء حتى ينتقم منهم ؟ فيقوم بتمثيل هذا الدور ، وفيه الفرجة الكافية عن نفسه ، والإشباع لرغبته فى الانتقام . كذلك الطفل الذى يجلس دميته أمامه ، ويطلب منها أن تسمع الكلام ، وألا تتحرك ، وأن تجلس هادئة ، إنما يبين بصورة أخرى ثورته على مثل هذه الأوامر التى تلقى عليه من وقت لآخر ، ويريد أن يشعر بالسرور والنشوة اللتين يشعر بهما الكبار عند إخضاعه لأوامرهم . والطفل الذى يجمع لعبه ويسمى كل واحدة منها إسماً ويلاعبها جميعاً ألعاباً مختلفة ، هو فى الغالب طفل وحيد تتوق نفسه إلى الزملاء من سنه ليؤنس وحشته بهم ، ولكنه لا يجدهم فى الواقع فيخترعهم من « مخيلته » . وهذه كلها أنواع من الأحلام ، نلمس من ذكرها أهميتها فى دراسة عقل الفرد للتعرف على طريقة تكونه من ظروفه وماضيه .

أما علاقة الأحلام بالمستقبل فيمكن أن نفسرها بما نسميه التوقع اللاشعورى ، ومعناه أن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل . فإن كان لى قريب مريض جداً فهذا دلالته يمكن أن نتوقع معها ما يصح أن يحدث من وفاته . وتخفى هذه الدلالة عادة فى اللاشعور لأسباب عدة منها محبة هذا المريض أو الانشغال بالحياة اليومية ، أو ما إلى ذلك . وربما يحلم النائم بوفاة قريبه فيتحقق

الحلم فى الواقع بعد ذلك . فيظن أن الحلم يساعد على التنبؤ مما سيحدث . وقد أورد الأستاذ محمد فتحى بك[١] بضعة حالات تؤيد هذا الرأى . وأما ماعدا ذلك مما يقال عن علاقة الأحلام بالمستقبل دون رجوع إلى التوقع اللاشعورى الذى أشرنا إليه فليس بحثاً من مباحث علم النفس كما نفهمه ، وإن كان حولها مباحث متعددة فى ما يسمى بالعلوم الروحية ، ولا نعلم عن قيمتها التحقيقية شيئاً[٢] .

---

(١) محمد فتحى بك : علم النفس الجنائى صفحة ٢٤٨

(٢) H. G. Wells, G. P. Wells, J. Huxly : The Science of Life Book 8 ch IX.

المراجع

Bannister : Psychology and Health.
Brown : Science and Personality.
Brown : Psychology and Psychotherapy Chs II, III, IV, V.
Brown : Suggestion and Mental Analysis.
Burnham : The Normal Mind. Ch. XII, XIV.
Burnham : The Wholesome Personality Ch. VI.
Cattell R.: Crooked Personalities in Childhood and After.
Coster : Psycho-Analysis for Normal People.
Anna Freud : An Introduction to Psycho-Analysis for Teachers.
S. Freud : New Introductory Lectures in Psycho-Analysis.
Freud : The Ego and the Id.
Freud : Psychopathology of Everyday Life.
Freud : Beyond the Pleasure Principle.
Freud : An Autobiographical Study.
M. Nicol : Psychopathology.
Valentine : The New Psychology of the Unconscious.
محمد فتحى بك : علم النفس الجنائى .

الفصل السابع

العمليات العقلية اللاشعورية

(الحيل اللاشعورية)

مقدمة

ذكرنا أن الـ « أنا » أو الشخصية الشعورية تقع تحت تأثير ثلاث قوى : وهى الـ « هى » (اللاشعور) « والذات العليا » (الضمير اللاشعورى) والواقع (العالم الخارجى) . وتحت تأثير هذه القوى الثلاث لا بد أن تصل الـ « أنا » إلى حالة اتزان أو استقرار ترتاح لها ارتياحاً ولو مؤقتاً . وقد أشرنا فى مظاهر اللاشعور إلى بعض الحيل التى توصل الـ « أنا » إلى حالة الارتياح ، فأشرنا إلى النسيان ، وفقد الذاكرة ، والإغماء ، والأحلام ، والحالات المرضية ، وغير ذلك .

ويمكن تلخيص هذه الحيل فى أنها حيل دفاعية (Defence Mechanism) كالتعاظم لتغطية النقص ، أو حيل هروبية (Escape Mechanism) كالانكماش والابتعاد فى حالة النقص ، أو حيل كبتية (Repression Mechanism) كإبعاد الخبرة المؤلمة نفسها من الشعور . وفى هذا التقسيم كثير من التداخل ، ولكن يصح أن نفصل بعض هذه الحيل فيما يأتى :

١ — الكبت والنسيان (Repression)

إذا وجد فى الحياة العقلية عنصران متعارضان ، فقد يترتب على هذا التعارض كبت أحد هذين العنصرين . فإذا كان لدى ميعاد فلا بد أن أحافظ عليه . ولكن إذا كان هذا الميعاد مع شخص أتضايق من مقابلته ، فكثيراً ما يحدث أن ينسى هذا

الميعاد . وعملية فصل هذه الفكرة من الشعور إلى اللاشعور تتم عادة بطريقة لاشعورية ، وبدون قصد . ولذلك يكون الشخص فى الغالب مخلصاً عند اعتذاره بالنسيان ، ولكن الطرف الآخر وإن قبل الاعتذار ظاهرياً ، إلا أنه لا يقبله بينه وبين نفسه قبولا كاملا على الأقل . ولا بد لنا أن نفرق بين نوعين من النسيان : أحدهما النسيان بالترك وهذا يحدث بالتدريج ، كما يحدث فى نسيان كثير من المعلومات. وأما الثانى فهو النسيان بالكبت وهذا يحدث بسرعة كبيرة ، وبطريقة شبه فجائية .

ويلاحظ أن الدروس والنصائح والأوامر التى ترتبط بنوع من الإيلام ، كالعقاب البدنى أو التوبيخ أو غير ذلك ، تكون مكروهة . وينزع العقل عادة إلى كبتها ونسيانها هى وما يتعلق بها .

ومن أمثلة الكبت ما يحدث للأحلام من أن حوادثها وتفاصيلها سرعان ما تكبت وتنسى ، إلا إذا بذل مجهود خاص فى الاحتفاظ بها وتدوينها بمجرد الاستيقاظ .

والكبت ظاهرة يتكرر وقوعها فى معظم الحالات ، ولنورد مثالا من هذه وهو مثال الطالب الذى أشرنا إليه سابقاً (صفحة ١٢٠) ، والذى رأى فى حلمه أن القيامة قد قامت ، ورأى ربه وشاهده كيف يعامل الناس على اختلاف أديانهم . ذكر هذا الطالب فى إحدى جلساته . أنه تذكر فجأة حادثة مؤلمة حدثت له وهو صغير ، وذكر أنها مع ذلك تافهة ، ولا يمكن أن يكون لها قيمة . ذكر أنه يوماً ما قبل أن يرسل إلى الروضة — أى عندما كان فى الرابعة — كان يلعب مع أخيه الأكبر منه بثلاث سنوات فى فناء المنزل ، ودخل الولد ومعه دمية (عروسة سوداء اللون) وزهرية . واعتقد الولد أن الدمية له ، ولكنه كان هادئاً ، وكان أخوه — على حسب تقريره هو — أكثر منه حيوية ونشاطاً . فتقدم الأخ من أبيه ، فسلمه الدمية . فقال الأصغر وماذا أحضرت لى ؟ فقال الوالد إنه أحضر له الزهرية . وسلمه إياها لحظة . ثم سحبها منه بسرعة حتى لا يكسرها . ويقول الأخ الأصغر — أثناء

هذه الجلسة — إنه تألم جداً من هذا الحادث ، ونسيه ولم يتذكره إلا أثناء الجلسة . وقال تعليقاً عليه ، إن والده لم يكن يوماً ما يعتبر له وجوداً . هذا حادث كبت ونسى ، ولو أنه ظل يؤثر فى سلوك الولد وموقفه نحو أبيه .

ومثال آخر لطالب يتعثر فى حديثه ، وبدأ هذا فى سن الخامسة بعد أن دخل دورة المياه وأغلق بابها عليه ، ولم يتمكن هو من فتحه ، ولم يتمكن أهل المنزل أيضاً من فتحه ، وذعر الولد ذعراً شديداً . وبعد فتح الباب وخروجه منه بدأ يتعثر فى حديثه . أما الحادث نفسه فقد نسى نسياناً تاماً .

٢ — النكوص Regression

هو رجوع المرء إلى الأساليب التى كان يتبعها فى مراحل نموه الأولى للتعبير عن دوافعه الغريزية[1] . وهذا يحدث عادة إذا فشل الإنسان فى تحقيق بعض رغباته . ونلاحظ أنه إذا فشل رجل فى حبه ، فإنه فى بعض الأحيان يضرب عن الاتصال بالمرأة والزواج ، ويقنع نفسه بأنه يجب أن يعيش فى كنف أمه ، أو إحدى قريباته ، أو سيدة عجوز تعطف عليه . فكأن هذا الفشل فى الحب الذى هو وظيفة طبيعية للإنسان البالغ نتيجته رجوع إلى حالة الطفولة ، التى يكون الإنسان فيها فى حماية أمه ، أو من يقوم مقامها . ومن أوضح أمثلة التراجع ، ما نشاهده فى الفتى الذى يتطلع عند زواجه إلى زوجة لا تقوم منه إلا مقام الأم الحنون ، والفتاة التى تتطلع عند زواجها إلى رجل لا يقوم منها إلا مقام الأب المرشد الشفيق . وكذلك البنت التى تخشى كبر السن قبل أن يتحقق لها الزواج فتظهر بمظهر الفتيات الصغيرات فى ملبسها وحركاتها وحديثها ونغمة صوتها إلى غير ذلك .

---

(١) Regression is a tendency on the part of the libido to revert to some channel of expression which belongs to an earlier phase of Libido Development (cf. Warren : Dictionary of Psychology).

وكان يونج (Jung) أول من تكلم عن النكوص على أنه العملية الوحيدة التى يقابل بها الفرد المواقف التى تصل صعوباتها إلى حد لا يمكن التغلب عليه . ولذا نرى يونج يتوسع كثيراً فى معنى النكوص ، فيجعله شاملا لجميع أساليب مقابلة المواقف التى يفشل أمامها الإنسان . ويلاحظ أن الكبار أنفسهم إذا واجهتهم صعوبات كبيرة فقد يقابلونها بالبكاء ، أو بأحلام النوم أو أحلام اليقظة . وإذا شعر الطفل بغيرة شديدة من أخ أصغر منه ، فإنه أحياناً يعود إلى الحبو ، وعدم القدرة على ضبط نفسه فى التبول ، والتبرز ، وكثرة الصراخ ، ومص الأصابع وما شابه ذلك . ويحدث هذا النوع من النكوص عادة فى أبناء الأمهات اللاتى يعملن لكسب عيشهن . ويؤدى هذا السلوك وظيفة هامة وهى الرجوع لمرحلة سابقة تستلزم رعاية الأم وعدم ابتعادها .

٣ — الاسقاط Projection

وعملية الاسقاط شبيهة بإسقاط الصورة من داخل الفانوس السحرى على (ستارة) أو حاجز موجود فى الخارج . فالصورة لا تنتمى فى الأصل إلى الحاجز الذى أسقطت عليه ، وإنما تنتمى إلى الفانوس من داخله . والاسقاط الذى نحن بصدده هو تفسير أعمال الغير بحسب ما يجرى فى نفوسنا . فصفتان كالبخل أو الغرور نجد فيهما أن البخيل أو المغرور أكثر الناس اتهاماً لغيره بهما . كل صفة من هذه يخجل المرء من نسبتها إلى نفسه فقط ، فيريح نفسه بأن ينسب لجميع الناس الصفة الموجودة فى نفسه ، أو ينسبها لغيره ، ويبرىء نفسه منها . وفى كثير من الحالات نجد رجلا سىء الخلق إلى أقصى حد يستطاع تصوره ، ومع ذلك يتهم زوجته البريئة مراراً وتكراراً بسوء الخلق . وفى كثير من الحالات التى نجد فيها الشخص متديناً إلى حد بعيد ، ويتهم الناس باستمرار بالكذب ، أو عدم الأمانة ، أو التوجه الجنسى ، أو ما شابه ذلك ، ويشتد على أولاده وزوجته فى هذه الناحية ، نجد أنه فى قرارة نفسه ميال إلى كل

ذلك . أما التدين فهو صفة النفس الشعورية . ويساعد على كبت الرغبات الأخرى فى اللاشعور .

وقد ذكر برنارد هارت[1] مثالا مما سماه جنون العوانس ، حالة لسيدة طيبة محترمة ، كانت تشكو من أحد معارفها أنه يحاول جذب انتباهها ، ومداعبتها . وأكدت أن الرجل مشتاق للتزوج منها ، وهو يتبعها فى كل مكان ، وبلغ بها الأمر أنها كتبت للرجل فى يوم ما خطاباً شديداً تؤنبه فيه على سوء سلوكه . وأتبعت ذلك بإبلاغ الأمر « للبوليس » . وقد أخذ التحقيق مجراه ، وتبين منه أن الرجل برىء من كل ما نسب إليه ، ولم يظهر ما يدل على أن الرجل كان عنده أقل ميل نحو هذه السيدة ، إذ لم يكن يشعر بوجودها كثيراً . وأدت كل هذه الحوادث إلى إثبات أن المرأة مصابة بنوع من الجنون ، وإلى وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية . ولتحليل هذه الحالة نقول إن النزعات الجنسية لم تجد لنفسها منفذاً طبيعياً عند هذه السيدة . وبعد طول المدة أدى هذا إلى الكبت ، ولكن أمكن للغريزة الجنسية أن تعبر عن نفسها بأسلوب غير مباشر عن طريق الإسقاط . فالسيدة كانت تحب هذا الرجل ، وتعجب به ، وتتمنى أن يتزوجها . ولكن الرغبة الجنسية مكبوتة لأسباب متعددة ، فمن طريق الاسقاط اتهمت الرجل بأنه يضايقها رغبة منه فى مداعبتها والتزوج منها ، فأسقطت بذلك الرغبة اللاشعورية القوية الموجودة عندها فى هذا الرجل . وبذلك تشبع رغباتها دون أن تمس كرامة الـ « أنا » .

ونلاحظ فى بعض الحالات أن ولداً ينسب السرقة التى ارتكبها إلى إغراء شخص آخر له ، رغم تعدد سرقاته هو . وفى إحدى الحالات كان يشعر صاحبها بضيق الصدر والتبرم وعدم القدرة على تركيز نفسه فى عمله . ويرجع هذا إلى ضيق ذات يده ، وشدة رغبته الجنسية المكبوتة ، كما دلت على ذلك أحلامه وقراءته . ولكنه كان يرجع حالته كلها إلى أمه . ونلاحظ كل يوم فى أنفسنا وفى غيرنا أننا

(١) B. Hart: Psychology of Insanity p. 122 (Old Maids' Insanity)

ننسب مثلا سوء الخط إلى القلم الذى نكتب به أو إلى نوع الحبر ، وينسب قلة المهارة فى اللعب إلى المضرب الذى نستعمله ، وننسب التأخر عن العمل إلى سوء المواصلات. ومن أمثلة الإسقاط أن نحاسب الناس بشدة على تأخرهم فى عملهم ، أو عدم ضبطهم لمواعيدهم ، ونحن أكثر الناس اتصافاً بهذه الصفات ، وألا نطيق عدم وضوح التفكير فى الغير ، ونحن أكثر الناس اضطراباً فى التفكير[1] وأن نكثر من نقد السيدات على خلاعتهن وتبهرجهن ، ونحن أكثر الناس شوقاً إلى الاستمتاع بكل ذلك . وهكذا مما لا نهاية له من الأمثلة التى نلاحظها كل يوم فى الحالات العادية ، أو غير العادية .

٤ — التحويل Transference

ومعناه أن الحالة الانفعالية إذا وجدت عائقاً فى موضوعها ، فإنها قد تتحول إلى موضوع آخر يغلب أن يكون به بعض الشبه أو الصلة بالموضوع الأول . فكراهية تلميذ لمعلمه قد تكون ناشئة من كراهيته لوالده التى لا يمكنه أن يعبر عنها تعبيراً صريحاً . وكراهية التلميذ للسلطة الأولى وهى سلطة الوالد ، قد تتحول إلى كراهية سلطة المدرسة فيهرب منها ، وإلى كراهية سلطة المجتمع والقانون ، وبذلك قد تبدأ النزعات الإجرامية من سرقة واعتداء وغير ذلك . وكثير من التلاميذ يكرهون مادة دراسية معينة ، ويكرهون معلميها ، لأن أول من علمهم إياها كان مكروهاً لهم . فتتحول هذه الكراهية لديهم منه إلى المادة وأحياناً إلى بقية معلمى نفس المادة . وكثيراً ما نجد فتاة تكره الرجال أجمعين ، ولا تثق بهم ، وإذا حللت ما عندها تجد أن المبرر الوحيد لذلك ، هو أنها تكره أباها ولا تثق به ، أو لأن أخاها الوحيد عومل معاملة ممتازة ، لأنه ذكر ، ونال امتيازه هذا على حسابها . ولو أنها لا تجرؤ

(١) Bernard Hart Says : "The one thing that a muddle-headed man cannot tolerate is a lack of clear thinking in other people", p. 114 ibid.

على أن تعبر عن كراهيتها الأصلية ، ولكن يمكنها أن تعبرعن كراهيتها الناتجة منهاعن طريق التحويل . ويفسر جزء كبير من الحب والكره على أساس التحويل المبنى على بعض التشابه . وليس من الضرورى أن يكون الشبه واضحاً لكل إنسان ، فقد يكون الشبه موجوداً فقط بصورة لا شعورية فى ذهن من يحب ويكره ، وقد يكون شبهاً تافهاً جداً . وكثير من الشبان قد يحبون لتشابه مع أمهم ، أو يكرهون لتشابه مع أمهم ، وكذلك الحال فى الفتيات[1] بالنسبة للرجال .

ويحدث عند التحليل النفسانى أن يكره المريض من يعالجه ، أو يحبه حباً شديداً . والمريض فى موقفه هذا يرى عادة شيئاً من الشبه بين من يعالجه و بين والديه أو أحدهما ، ويسمى المحللون التحويل المصحوب بالكراهية تحويلا سلبياً ، وأما التحويل المصحوب بمحبة فإنهم يسمونه تحويلا إيجابياً .

ولا يشمل التحويل حالتى المحبة والكراهية فقط ، وإنما يتعداهما إلى جميع الحالات الانفعالية . فقد يغضب الرجل من زوجته فيحول غضبه هذا على من يعمل معهم ، أو يتقابل معهم خارج المنزل . وقد يحترم المرء شخصاً ما ثم يقابل شخصاً آخر يشبهه أو يمت له بصلة القرابة فيحترمه . و بعض الناس لا يسهل عليهم تلقى العلم من سيدة لأنهم يشعرون بقوتهم بالنسبة إليها ، أو بضعفها الشبيه (فى نظرهم) بضعف أمهاتهم أو أخواتهم .

٥ — التقمص (Identification)

وهو أن يمتص المرء مجموعة من صفات شخص يعجب به . و إمتصاص هذه الصفات يتضمن الحسن منها والسيء . فالمرء يقلد دون أن يشعر حركات أستاذ يعجب به . ويقلد أسلوبه فى الخطابة ، والإلقاء ، والمعاملة ، وأسلوب المناقشة وغير ذلك .

---

(١) N. Haire : Encyclopaedia of Sexual Knowledge; Love is no longer a Mystery Ch. XI and The Alchemy of Love Ch. XXVIII.

ولاحظنا أن كثيراً من الخطباء فى مصر كبارهم وصغارهم كانوا يقلدون سعد باشا زغلول حتى فى قلب القاف كافا أثناء النطق بها . وأعرف طالباً كان له فى دور المراهقة أستاذ يده اليمنى أقصر من يده اليسرى ، فكان يقلده — وهو فى ذلك الدور — دون أن يشعر ، فى حركات يده القصيرة . أما كون عملية التقمص حيلة لا شعورية فهذا سببه أن التقمص فيه تسليم ضمنى بالنقص ، وفيه تكميل للنقص عن طريق التقمص . فالنقص والاعتراف به أمران لا يقبلهما الـ « أنا » فيبقيان لاشعوريين .

والتقمص فى السنوات الأولى ضرورى لنمو الطفل . فعليه يتوقف كسب الطفل للغة ، ولهجتها ، ونغمة الصوت ، ونوع المشية ، وأسلوب المعاملة ، والاتجاهات نحو الدين والتقاليد ، وغير ذلك . وتقمص السلطة المحيطة بالطفل عامل مهم فى تكوين الذات العليا . وقد سبق أن بينا ذلك (ص ١٠٤) .

٦ — التبرير Rationalisation

هو بمعناه الواسع تعليل السلوك بأسباب منطقية يقبلها العقل ، مع أن أسبابه الحقيقية انفعالية . ولتوضيح ذلك نفرض أن شخصاً ما أهانك فقد ترد هذه الإهانة رداً مضاعفاً ، وبسرعة . وتقول إنك إنما فعلت ذلك حتى لا يفعل مثله مع غيرك . والواقع أنك فعلت هذا من غيظ لا غير . كذلك قد أكره شخصاً ما إلى حد بعيد ، وأحاول دائماً ذكر أسباب منطقية معقولة لهذه الكراهية ، فأقول إنى أكرهه لأنه مغرور ، أو غير مؤدب ، وربما يكون السبب الحقيقى أنى أكرهه لأنى أشعر أنه أقوى منى فى ناحية ما . فإعطاء أسباب منطقية لما هو مبنى فى الواقع على أسباب انفعالية يسمى تبريراً .

وأعرف سيدة تصف شخصاً معيناً بسعة العقل ، وكثرة الخبرة ، وحدة التفكير ، والواقع أنها ترى فيه ذلك لأنه يعيرها اهتمامه . وهذه السيدة نفسها تصف شخصاً آخر بضيق العقل والغباوة . والسبب الحقيقى الذى ألمسه تماماً ، هو أن هذا الفرد

قوى الشخصية لا يسمح لشخصيتها بالظهور على شخصيته . كذلك اعتناقنا لدين من الأديان قد نبنيه فى الظاهر على أسباب منطقية ، والواقع أن تمسكنا به قد لا يخرج سببه الأول عن كونه تحيزاً ناتجاً من العادات والتقاليد والتأثر باتجاه الأسرة التى نشأنا فيها . ويحدث أحياناً أن رجلا يؤدى الفرائض الدينية على أحسن وجه ، ولكنه يبتز الأموال فى أعماله التجارية بطريقة غير شريفة . هذا كما يظهر لنا نحن ، وليس كما يظهر له هو . فإذا ناقشته أجابك أن هذه أصول التجارة . ورجل آخر يركب الترام مثلا ولا يجد مانعاً من عدم الدفع إذا أمكنه ذلك ، ويقول إن هذا عمل مبرر لأن شركة الترام شركة أجنبية ، أو لأن هذا المبلغ البسيط لا يضر الشركة عدم دفعه إلى غير ذلك من الأسباب التى تظهر — عادة — بعد نجاحه فى الإفلات من الدفع.

والتبرير يسهل على الـ « أنا » (النفس الشعورية) قبول السلوك ما دام يستند إلى أسباب منطقية . فكأن وظيفة التبرير إيصال الـ « أنا » إلى حالة ارتياح عن طريق خداعها ، والتمويه عليها . ويمكن معرفة التبرير فى مناقشة ما ، إذا لاحظنا أن الانفعال الظاهر فى المناقشة أكثر مما تتطلبه المناقشة المنطقية الهادئة . فالمناقشة التى تجرى بين شخصين يعتنقان دينين مختلفين حول موضوع دينى يظهر معها انفعال شديد . ونفس هذا يحدث فيما يجرى من مناقشة بين شخصين ينتميان لحزبين مختلفين حول موضوع حزبى . وهذا بعينه ينطبق على جميع حالات التحيز التى لا تستند فى منشئها على أساس منطق ، وإنما تستند على أساس « شخصى » .

ونظراً لكثرة التجاء العقل لهذه الحيلة يعتبر المشتغلون بعلم النفس أن الأسئلة المباشرة التى توجه لشخص ما ، لمعرفة أسباب قيامه بعمل معين ، لا تؤدى عادة إلى نتائج صحيحة ، وإنما تؤدى إلى تبريرات فقط ، رغم إخلاص الشخص ومحاولته إعطاء الأسباب الصحيحة . ولذا يلجأون عادة إلى طريقة الحديث الحر المرسل الذى يتصف بالانطلاق وعدم التقيد بأى قيد منطق أو خلق ، والذى لا يترتب عليه الاحتياط فى الإجابة من جانب الطرف الآخر .

٧ — التعويض Compensation

التعويض هو الظهور بصفة ما بقصد تغطية صفة أخرى . والصفة الظاهرة فى العادة صفة طيبة مقبولة عند الشخص . وأما الصفة المستترة فإنها صفة غير مقبولة . ويكون هناك فى الغالب شىء من المبالغة (over-compensation) فى الصفة الظاهرة. ووظيفة المبالغة هى الوصول بعملية التغطية إلى درجة النجاح . فإذا كان لدينا مثلا طفل يضربه أبوه ضرباً شديداً ، فالنتيجة الطبيعية أن يكره الطفل أباه . ولكن حيث أن الطفل فى حاجة إلى أبيه ، وقد جرت العادة أن يحب كل طفل أباه ، وحيث أن الطفل لا يمكنه أن يكره أباه ويحبه فى نفس الوقت ، فلا بد إذن من كبت الكراهية لأنها لا تتفق مع منطق الـ « أنا » المشتق من منطق المجتمع وتقاليده وآدابه . ولأجل أن ينجح كبت الكراهية وإخفاؤها ، فلا بد من المبالغة فى إظهار الحب . كل هذه العمليات تتم بطريقة لاشعورية . فالطفل يكون مقتنعاً بينه وبين نفسه اقتناعاً تاماً بشدة حبه لوالده . فظهور الحب الذى يؤدى إلى تغطية الصفة الأخرى يعتبر تعويضاً لها. ويشك بعض الناس أحياناً فيما يظهر ممن يتصلون بهم بمظهر الأدب الجم ، أو الكرم الحاتمى ، أو التقوى الشديدة . ويعتقدون أن هذه الصفات قد تغطى صفات أخرى مخالفة لها . وبنفس الطريقة يمكن تفسير ما يظهر من شدة المبالغة فى الحزن العلنى على وفاة بعض الأقارب كالوالد الذى يتصف بالشدة والصرامة والذى يعامل أولاده مهما كبروا فى السن معاملة صغار الأطفال .

ويرى آدلر أن الأصل فى التعويض هو تغطية شعور بالنقص — أى للوصول إلى الشعور بالتفوق[1] . وهذا صحيح إلى حد ما . فمن الحالات التى يكون فيها صحيحاً حالات الذين لا ينجحون فى أعمالهم الدراسية ، ويحاولون الظهور فى الألعاب الرياضية مثلا ، أو فى الحياة الاجتماعية بصورة ما من صورها المختلفة . فالشعور بالنجاح فى

(١) ويرى أن الشعور بالنقص فى أول الحياة هو شعور بالنقص العضوى Organic Inferiority

الألعاب يغطى الشعور الناشىء من الفشل فى الدراسة . وكثيراً ما يؤدى الفشل فى الحياة الدراسية إلى الجنوح إلى السرقة ، والاعتداء ، وما شابه ذلك . والمتصفون بالغرور هم فى العادة الذين يتصفون فى قرارة نفوسهم بالشعور بالضعف . فإحساس القدرة الظاهر فى الغرور يغطى إحساس الضعف . وكثيرون من الناس يدعون علناً حيازة المال ، أو القوة ، أو العلم . وهذا النوع من الكذب المسمى بالادعائى ، إنما يستعمل كثيراً من غير قصد لتغطية نقص . ويرى البعض اعتبار مظاهر الغرور عقدة من نوع خاص يطلقون عليها عقدة التفوق (Superiority Complex) ، ولكن هذه المظاهر لا تعدو أن تكون أعراضاً لنقص مكبوت .

ومن المصادر الأساسية فى كثير من إجرام الأحداث النقص الجسمانى . فحالات فقد الذراع ، أو فقد الرجل ، أو فقد السمع ، أو فقد النطق ، كثيراً ما يصحبها نزوع إلى تعويض النقص الناشىء عنها . وقد أشرنا إلى بعضها عند بيان الأثر المتبادل بين الجسم والعقل (ص ٣٦ — ٤٠) .

ومن الحالات التى يظهر فيها التعويض بوضوح حالة سيدة[١] أصيبت بالسرطان، واكتأبت من التفكير فيما قد يؤول إليه أمر زوجها وأولادها بسبب هذا المرض . وبعد مدة زال اكتئابها ، وانقلب رقصاً ، وغناء وضحكا ومرحاً ، وسروراً يكاد لا ينقطع . وهكذا يفسر المرح الشديد الذى يظهر به بعض المصابين بأمراض فتاكة لا أمل فى الشفاء منها .

ومن أمثلة التعويض الواضحة حالة شخص كان يعمل بواباً فى أحد مبانى القاهرة. وعضوه التناسلى به شىء غير قليل من النقص ، ورغم أن الرجل عمره اثنتان وأربعون سنة ، إلا أن جهازه التناسلى كجهاز طفل حديث الولادة ، وله خصية واحدة فى حجم الحمصة . ويعتقد فى نفسه أنه من أولياء الله الصالحين ، وأن الله خلقه هكذا ليخلصه من فتنة النساء . لذلك يتظاهر بالفخر بما عنده من نقص جسمانى . ولا يتسع المقام

(١) Bernard Hart: Psychology of Insanity; p. 105.

هنا لذكر تفاصيل حياته ، ومتناقضاتها . ولكن مما حدث له أن أخاه عيره يوماً ما بنقصه ، فخاصمه منذ عشر سنوات ولم يصالحه إلى الآن . واستقال من عمله مرة ، لأن أحد السكان — فى سياق حديث — قال له إنه ليس برجل . وهو الآن لا يسير إلا وفى يده عصاً غليظة ثقيلة . وأصبح يشبه « الفتوات » فى ملبسهم ، وسهرهم ، وأغانيهم . وتقتصر هذه الأغانى عنده على أغانى عنتر بن شداد ، والزناتى خليفة ، وأمثالهم من شجعان الرجال . وقضى وقتاً طويلا يصاحب المقامرين ، ورواد الحانات . ثم عاد واعتكف ليكفر عن سيئاته ، ووقف نفسه على غسل دورات المياه لثلاث مساجد مشهورة . واعتكف كذلك مدة من الزمن عارى الجسد فى مقبرة من مقابر الإمام الشافعى علّه يعاقب نفسه ويكفر بذلك عن سيئاته .

هذه الحالة يظهر فيها التناقض الشديد ، وتظهر فيها مواجهة النقص الجسمى بتعويض يصل به أحياناً إلى اعتبار نفسه من أولياء الله ، وأحياناً أخرى يصل به للسكر والمقامرة والتشبه بأقوياء الرجال مما قد يوصله بحسب تفكيره إلى مراتب الأبطال من الرجال .

وحالة أخرى لتلميذ قبض عليه بمدينة القاهرة متلبساً بسرقة لمبات الترام مع آخرين . وبدراسة حالته اتضح أن عمر الولد يقع بين الحادية عشرة والثانية عشرة ، ومع ذلك فهو فى السنة الأولى الابتدائية ، وليس متقدما فيها . أى أن مستواه التعليمى هو مستوى ولد متوسطٍ عمره بين الثامنة والتاسعة تقريباً . أما مستوى ذكائه فبقياسه اتضح أنه يقع أيضا بين الثامنة والتاسعة . أى أن مستوى تحصيله ومستوى ذكائه متفقان .

ولعل تأخره العقلى عن زملائه هو أحد العوامل التى تدفعه للهرب من المدرسة ، والاختلاط بأمثاله ، وارتكاب ذنوب أخرى غير السرقة خارج المدرسة. وهناك عامل آخر يشعره بالنقص الشديد ، وهو أن أخاه الأصغر منه موجود فى نفس المدرسة ، ومتقدم عنه فى الفرقة الدراسية .

كل هـذه عوامل إذا أضيفت إليها عوامل أخرى ، كمعاملة المنزل ، وتعيير والديه له ، أمكننا أن نفهم أن سلوك الولد يعوض عن فشله فى نظر نفسه .

الأعراض المرضية والدفاعية والهروبية

وفى كثير من الحالات يحقق اللاشعور رغباته بطريقة ظهور أعراض جسمانية . وهـذه الأعراض تكون دائماً مؤقتة ، وتؤدى وظيفة هامة للحياة العقلية . والأعراض ، ولو أنها تتناول وظيفة العضو ، إلا أنه لا يكون لها أصل جسمانى كاف لتفسيرها . ولذلك فهى تسمى أعراضاً وظيفية (Functional symptoms) . ومن أمثلة هـذه ما ذكرناه من حالات الصداع التى تنتاب الطلبة قبل الامتحان ، والحالات التى ذكرناها فى الصفحات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ وحالات الصم والعمى والإغماء وغير ذلك .

ونذكر حالة [1] بنت فى سن الثامنة عشرة لم تكن محبوبة فى المنزل ولا فى مقر عملها . ويوماً ما بعد مقابلة غير سارة مع رئيسها فى العمل زلقت رجلها وهى تنزل السلم فانثنى المفصل الكعبى قليلا . ولكن بدل أن تشفى بعد بضعة أيام كما هو منتظر ، أصابها شلل فى رجلها كلها . وبذلك نجحت فى ألا تذهب إلى عملها ، وأن تلقى عناية خاصة من كل من فى المنزل .

خاتمة

ليس معنى ما تقدم أن العمليات العقلية السابقة تظهر كل منها منفردة ، وإنما نجد أنه يتجمع منها اثنان أو أكثر عادة فى وقت واحد . فإذا أخذنا حالة الولد الأصم الأبكم (ص ٣٧) الذى عود نفسه السرقة من المنزل ومن محل عمله ،

(١) لقد وقع فى خبرتنا أكثر من حالة من هـذا النوع . ولأسباب فنية نحجم عن ذكرها ونقتبس حالة مشابهة تماماً من كتاب Rees: Health of the mind; p. 100

ووصل به الحد إلى السرقة من قبور الموتى ، نجد أنه يجيب الناس بأنه يسرق خواتم الموتى لانعدام فائدتها لهم ، ولأن أحداً لن يستفيد منها بعد ذلك . هذا تبرير يفسر به عملا اعتدائياً يقوم به ليشعر بمهارته فيعوض بذلك عن فكرته عن نقصه لصممه وبكمه .

المراجع

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.
Gillespie : Psychology and Life.
Hadfield : Psychology and Morals.
Haire, N. : Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Hart, B. : The Psychology of Insanity.
Jung : Analytical Psychology.
Meninger : The Human Mind.
Pear : Remembering and Forgetting.
Rees : The Health of the Mind.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Wallace : Personality Maladjustments and Mental Hygiene.
Warren : Dictionary of Psychology.

الفصل الثامن

مراحل النمو

مقدمة

يسير الطفل فى نموه فى مراحل مختلفة ، كل مرحلة منها لها خصائص تتميز بها. ووجود هذه الخصائص يحتم على القائمين بتربية الطفل من آباء ومدرسين ، أن يجعلوا معاملتهم للطفل ملائمة لها . فلا يصح مثلا أن نحاول التعجيل بالنمو إذ أن هذا غير ممكن ، ولا أن نفرض خصائص مرحلة ما على مرحلة أخرى . فإذا كان الطفل فى مرحلة رياض الأطفال مثلا ، وجب أن نلاحظ الخواص التى تلائم هذه المرحلة من التربية والتعليم . فلا يجوز أن نقوم بتعليم الطفل فى الروضة وهدفنا الأساسى الوحيد هو إعداده لمرحلة التعليم الابتدائى ، إذ أن الطفل إذا نما نمواً كاملا فى مرحلة الرياض ، أعده هذا إعداداً طبيعياً للمرحلة التالية . ولا يجوز إذا بدأ الطفل يبلغ أشده مثلا أن نستمر نعامله كطفل ، بل يجب أن نلائم معاملتنا له مع خصائصه الجديدة ، ونحرر أنفسنا مما تعودناه معه فى سنى الطفولة الطويلة . وهكذا يجب أن نلائم بين أساليب المعاملة والتربية والتعليم وأجواء هذه كلها ، و بين خصائص الفرد وحاجاته واستعداداته فى المرحلة التى تتناوله فيها .

ويلاحظ أن مرحلة الطفولة هى مرحلة نمو مستمر للفرد فى جميع نواحيه . وتبعاً لذلك نجد أنها مرحلة مرونة وقابلية للتربية والتعليم . وهى الوقت الذى يكسب فيه الطفل العادات والمهارات ، والاتجاهات العقلية ، والاجتماعية والجسمية . ومدة هذه الطفولة فى النوع الإنسانى أطول منها فى أى نوع آخر . وهى تختلف عند أنواع الحيوان قصراً وطولا باختلاف مكانته فى نظام التطور . فكلما ارتقى الحيوان فى سلم التطور طالت فى العادة مدة طفولته .

يلاحظ كذلك أن غريزة الوالدية التى تكون عند الوالدين إزاء أولادهما ، والتى ترمى إلى حماية الصغار حتى يكبروا ، أرقى عند الإنسان منها عند الحيوان . فرعاية الوالدين لطفلهما تبلغ أقصاها عند الإنسان ، وتنخفض فى الحيوان ، وتختلف عند الحيوان باختلاف نوعه . فكلما ارتقى الحيوان زادت مرونته ، وزاد ضعفه عند ميلاده ، وطالت مدة طفولته ، وارتفعت غريزة الوالدية عنده . وهذه الغريزة توجد بالقدر اللازم لخروج الكائن الحى من طفولته إلى اكتمال نموه .

وتوجد ظاهرة أخرى تتمشى مع كل هذه الظواهر ، وهى أن ارتقاء النوع الحيوانى يصحبه عادة قلة فى التوالد . فكثرة التوالد فى الأنواع الدنيئة يصحبها قلة الوالدية ، وتعرض لعوادى الطبيعة . على حين أن الحيوانات الراقية نجد التوالد فيها قليلا ، والوالدية أوسع مدى وأعمق أثراً . وهذه كلها ظواهر تتمشى جنباً إلى جنب ، وتدل على ما يمكن أن نسميه اتزان الطبيعة .

التقسيم إلى مراحل

يلاحظ على وجه العموم أن الطفل ينمو من الناحية الجسمية الظاهرة بعد ولادته نمواً سريعاً ، ثم يبطؤ نموه عند السابعة أو الثامنة ، ويستمر نموه بطيئاً إلى الثانية عشرة تقريباً ، ثم يسرع نموه مرة أخرى إلى الثامنة عشرة تقريباً ، ثم يبطؤ نموه إلى أن يستقر فى سن الخامسة والعشرين على وجه التقريب ، فكأن نمو الفرد يحدث على فترتين ، يتبع كل منهما دور شبه استقرار . ويمكننا إذن أن نقول إن مراحل النمو هى الطفولة الأولى (من الولادة — ٧ سنوات) تقريباً ، فالمتأخرة (٧ سنوات — ١٢ سنة) تقريباً ، ثم المراهقة (١٢ سنة — ١٤ سنة) تقريباً ، ثم البلوغ (١٤ سنة ـ ٢٠ سنة) تقريباً ثم اكتمال النمو (٢٠ سنة تقريباً — ...) .

وتقسيم الطفل إلى مراحل أخذ صوراً أكثر تفصيلا ، وأكثر دقة من هذا كما سنرى .

وهناك تقسيمات عديدة يختلف كل منها باختلاف وجهة النظر إلى الفرد فى

التقسيم ، وباختلاف الخبرة الشخصية والعلمية لصاحب التقسيم . فقسم جرين[١] عند دراسته لأحلام اليقظة مراحل النمو إلى أربعة أقسام أساسية بحسب الاهتمام الرئيسى الذى يشغل الفرد وهى :

الأولى — مرحلة التغذية ، وهى تمتد من الولادة إلى السنة الثالثة .

والثانية — مرحلة نمو الفردية ، أو نمو الذات ، وتمتد من الثالثة إلى العاشرة .

والثالثة — مرحلة نمو الاهتمام بالجماعة من رفاق وما شابه ، وتمتد من العاشرة إلى الثالثة عشرة .

والرابعة — مرحلة نمو الاهتمام بالنواحى الجنسية ، وتمتد من الرابعة عشرة إلى ما بعد ذلك .

ويقسم كل مرحلة من هـذه إلى ثلاث مراحل ، وهى مرحلة عدم الاهتمام (diffidence) ثم مرحلة الصعوبة (difficulty)، ثم مرحلة الثقة والاستقرار (confidence)

ويقسم فرويد وأتباعه[٢] نمو الفرد إلى مراحل بحسب الاهتمام الجنسى الغالب . فهناك قبل المراهقة مرحلة اللذة الذاتية (Auto-erotic stage) وفيها يشتق الطفل لذة من مختلف أجزاء جسمه ولا سيما الأجزاء ذات الفتحات المغطاة بالأغشية المخاطية . ومرحلة عشق الذات (Narcissistic stage) ، ثم مرحلة حب الفرد للوالد من الجنس المخالف ، ثم تأتى مرحلة تسمى بالدور الكامن (Latency stage) ، وعند انتهائها فى سن المراهقة تتكرر المراحل السابقة كلها بصورة أخرى أكثر تركيزاً حول العضو التناسلى . هـذا إذا أدمجنا نواحى النمو الجنسى المختلفـة تبعاً لمناطقها فى الجسم وتبعاً لموضوعاتها بحسب رأى أتباع فرويد . هذا لأن فرويد نفسه لم يضع مراحل مفصلة ، إلا أن أتباعه أمثال جونس وكريتون ملر وغيرهما لهم محاولات فى هذا الاتجاه لاتفيد الإطالة فيها فى هذا المقام .

---

(١) G. H. Green: The "Day Dream"

(٢) Flugel: Psycho-Analysis

وظهرت كذلك تقسيمات عدة منها تقسيم كير كباتريك [١] ، وهوايت [٢] ، وكلاباريد [٣] ، وستانلى هول [٤] ، وجونس [٥] ، وكريتون ملر [٦] ، وبياجيه [٧] ، وغيرهم.

وسنأخذ التقسيم الذى يبدى بعض الخصائص الظاهرة فى كل مرحلة ، وهو الذى يقسمها إلى المراحل الآتية :

١ — سن المهد ، وهو ينتهى فى العادة بالتقريب بعد نهاية السنة الأولى وقبل نهاية السنة الثانية .

٢ — الطفولة الأولى ، وهى تنتهى تقريباً فى سن الخامسة .

٣ — الطفولة المتأخرة ، وهى تنتهى فى سن الثانية عشرة على وجه التقريب .

٤ — المراهقة أو المراحل الأولى من البلوغ وما قبله مباشرة .

٥ — البلوغ .

السنتان الأوليان

فى خلال السنتين الأوليين تحدث — إلى جانب الولادة — عدة حوادث هامة فى حياة الطفل ، وهى الفطام ، والتسنين ، والمشى ، والكلام . والفطام حادث له أثره عند الطفل ، لأنه انتقال من طعام له خواص معينة ثابتة من حيث درجة الحلاوة والسيولة والحرارة ، وهو لبن الأم ، الذى يرضعه أيضاً فى ظروف معينة ، تشبع فيها روحه المتعطشة إلى الحنو . والانتقال من هذا إلى أطعمة صلبة أو نصف سائلة ، تختلف كثيراً فى نوعها ، وطريقة تعاطيها ، عن لبن الأم ، يصحبه غالباً انفعالات ، وأزمات

---

(١) Kirkpatrick : The Science of Man in the Making

(٢) White: Mental Hygiene of Childhood

(٣) Claparede: Experimental Pedagogy

(٤) Hall: Adolescence

(٥) Jones: Some Problems of Adolescence, B. J. p. 1923, XIII 31

(٦) C. Miller: The New Psychology and the Teacher

(٧) Piaget: The Child's Conception of the World

نفسية شديدة . لهذا كان واجب الأمهات دقيقاً جداً ، من حيث مراعاتهن التدرج ، الذى لايؤدى إلى ظهور الأزمات الانفعالية . وتتضح أهمية ذلك إذا تذكرنا أن تناول الطعام هو أهم ما يشغل الطفل فى هذه المرحلة .

ولنشاط الفم فى هذه السن أهمية خاصة . فهو الأداة التى يفحص بها كل شىء . وهو أداة إشباع الرغبات ، وأداة الانتقام ، وأداة الاتصال بالعالم الخارجى ، وأداة الوصول إلى الإدراك والمعرفة . وهو أول جزء يشتق منه الطفل خبرة متكررة ذات قيمة فى نموه . ومما يجعل للفم قيمة خاصة ظاهرة التسنين ، وعند حدوثه ينتقل الطفل إلى حالة القوة بعد الضعف . فيمكنه أن يأكل الأشياء الصلبة . ويمكنه أن يعض وينتقم . وتتسع بذلك دائرة خبرته ، إذ يتسع مدى الأشياء التى يمكن أن يتعامل معها عن طريق الفم . ويتسع أيضاً مدى المقدرة التى يمكن أن يبديها عن طريق الفم.

أما الكلام والمشى ، فإنهما فوق أنهما دلالتان للنمو ، عاملان مهمان لما يتلو ذلك من النمو . فالطفل يستطيع عن طريق الكلام أن يتصل بغيره ، ويتفاهم معهم لتحقيق رغائبه . ولا شك أن عقله ينمو وتزداد خبرته بالتخاطب ، والمشى يجعله قادراً على الانفصال عن أمه ، والاستقلال عنها بعض الشىء . وبه يكتشف العالم المحدود المحيط به ، فيدرك المساحات ، والمسافات ، والارتفاعات ، والعلاقات المكانية ، وبعض العلاقات الزمنية المختلفة . هذه خبرات لا يكتسبها الطفل صحيحة ، إلا عن طريق الجرى والمشى ، والحركة ، وبواسطة هذه الانتقالات يتصل بغير أمه فتتسع دائرة خبرته بالناس .

المرحلة من سن ٢ إلى سن ٥

والمرحلة التالية ، تتميز بالميل إلى الحركة ، واللعب ، وإجراء التجارب فى الأشياء المحيطة . وذلك لأن العالم جديد بالنسبة للطفل ، فهو يميل إلى فهمه بالتجربة الشخصية ، مما يسميه الكبار أحياناً تخريباً أو تجريباً أو هدماً أو بناء أو لعباً ، أو غير ذلك .

وعن طريق هـذا اللعب يكتسب خبرة ، ويكتسب مهارة ، ويصبح أكثر ثقة فى نفسه وأكثر اطمئناناً إلى بيئته .

ولا يقتصر نشـاط الطفل على اختلاف ضروبه على تعامله مع البيئة المـادية ، بل يتعداها إلى الأشخاص من سلطة وزملاء . وبذلك يفهم غيره ويفهم نفسـه ، ويبدأ الطفل تكوين فكرة عن ذاته ، وفكرة الـ « أنا » ، أو فكرة « الفردية » . وهى كما رأينا لا تنمو إلا بالتعامل مع البيئة . والطفل عن طريق التقليد ، وتقصـمه للسلطة المحيطة ، وتجريبه هذه السلطة على الخارج ، يتضح رأيه فى نفسه ، وفى غيره (راجع ص ٩٢ ، ص ١٠٣) .

وتجد الطفل فى هذه المرحلة شديد التقليد ، كثير اللعب التمثيلى ، أو الإيهامى ، الذى قد يساعده على أن يعوض ما ينقصه فى الواقع . وهو عنيف فى انفعالاته ، كثير المخاوف ، شديد الغيرة . وفى أخريات المرحلة تكثر أسئلته الدالة أحياناً على تعطشه للمعرفة والكشف ، وأحياناً على ما وراءها من قلق وخوف . فهو يسـأل عن أسماء الأشياء ، وأسباب الظواهر المتعددة ، ويسأل من أين ولد وكيف يكبر وأين يذهب ما يأكله . . . إلخ .

هذا النشـاط المتعدد النواحى يزيد من مهارة الطفل وخبرته المتعددة الأوجه . وإذا أمكن توجيه الطفل وتهيئة البيئة بما يتفق مع المبادىء العامة للتربية ساعد هذا على تكوين الطفل تكويناً هادئاً متزناً . فمعاملتنا للطفل فى هذه السن بنوع خاص يجب أن تكون ثابتة ، لا تذبذب فيها . إذ أن التذبذب يوقع الطفل فى حيرة وارتباك ، فلا يجوز أن نشجع الطفل إذا اعتدى على غريب بالضرب أو الشتم ، ثم نعاقبه إذا اعتدى على أخيه أو والدته . بل يجب أن نقابل اعتداء الطفل على غيره بأسـلوب ثابت . كذلك لا يجوز أن تنهره إذا عبث بما يخصك ، ثم تشجعه إذا عبث بما يخص غيرك . فالمعاملة الثابتة توقف الطفل على ما يجب عليه عمله وما يجب عليه الكف عنه .

ويلاحظ أن الطفل نفسه لا يحب الحرية المطلقة [١] ، لأنه يميل إلى الاسترشاد وإلى معرفة ما يصح أن يفعله وما لا يصح أن يفعله . وبهذا النوع من التوجيه المبنى على أسس ثابتة يصل الطفل إلى تقدير قيم السلوك بالنسبة للمستويات الثابتة التى وضعها له أهلوه أمثلة له ، ومصادر لتوجيهه . وثبوت المعاملة من العوامل التى تؤدى إلى تكوين الفردية بنجاح وسرعة ، على أن تكون هـذه المعاملة الثابتة فى جو ملىء بالعطف والحنان بعيد عن الجفاف غايته صالح الطفل .

ويبدأ الطفل فى الأجزاء الأخيرة من هذه المرحلة ، يبحث عن رفاق من سنه تقريباً . ويجب أن نوفر له هذا ، حتى يتعامل معهم على أساس الأخذ والعطاء . فهذا أسلم لتكوينه من تعامله دائماً مع من هم أكبر منه أو أصغر منه . وتعتبر هذه كلها من أسس التربية الاجتماعية الصالحة .

المرحلة من سن ٥ إلى سن ١٢

هذه مرحلة إتقان للخبرات والمهارات اللغوية والحركية والعقلية السابق اكتسابها . وبهذا ننتقل هنا تدريجياً من مرحلة الكسب إلى مرحلة الإتقان . والطفل فى هذه المرحلة ثابت ، قليل المشكلات الانفعالية ، كثير النشاط . ويميل فى منتصف هذه المرحلة إلى الانتقال من مرحلة الخيال والإيهام والتمثيل إلى مرحلة الواقعية ، أو الموضوعية [٢] . فالطفل من سن ٨ إلى سن ١٢ مخلوق عملى ، واقعى ، على وفرة من النشاط . ويميل إلى جمع الأشياء وادخارها ، وتنظيمها . ويميل ميلا شديداً إلى الملكية التى تبدأ تنمو قبل ذلك بكثير . ويتجه قرب نهاية هذه المرحلة إلى الانتماء إلى الجماعات المنظمة ، بعد أن كان يميل ميلا شديداً قبل ذلك لمجرد الاجتماع

---

(١) راجع حاجات الطفولة ص ٧١

(٢) أو بحسب رأى بياجيه ينتقل الطفل من التمركز الذاتى Ego centrism إلى الغيرية أو الموضوعية (Realism or objectivity or Allo-centrism) حوالى سن الثامنة .

بمن هم فى سنه . ويحب التنافس والتفاخر فى النواحى الجسمية والحركية بنوع خاص .

ولما كانت هذه المرحلة مرحلة إتقان لما سبق كسبه من حركة ولغة وتفكير ، فيمكن الإكثار فى المدارس من دروس الأشغال ، والموسيقى ، والغناء ، والأناشيد ، والألعاب الجمعية ، والرقص والتمثيل وغير ذلك . فهذه كلها تشبع فى نفس الطفل الحاجة إلى الإتقان والتنافس والشعور الواقعى بالنجاح .

ويقسم بعض الباحثين هذه المرحلة إلى اثنتين : إحداها تنتهى فى سن الثامنة ، والأخرى تنتهى فى سن الثانية عشرة تقريباً . والمرحلة الأولى استمرار للمرحلة السابقة. فهى كما قلنا مواصلة للنمو الحركى ، وزيادة فهم العالم المحيط بعناصره المادية والاجتماعية ، وهى مرحلة يبدأ فيها ظهور بعض مبادىء الاستقرار الانفعالى . وأما المرحلة الثانية التى تبدأ فى سن الثامنة وتنتهى فى العاشرة ، فهى مرحلة استقرار فى النمو الجسمى ، واستقرار فى الحياة الانفعالية ، وهى مرحلة إتقان للمهارات الحركية ، والعقلية . وتكون فيها القدرة على الاستفادة من التمرن والتكرار كبيرة جداً . وهى كما قلنا مرحلة الواقعية ، والإصرار على التمسك بالحقيقة ، فيضعف عندها التلذذ من اللعب الإيهامى ، ويبدأ الاهتمام باللعب والتمثيل القريبين من الواقعية . والطفل فى هذه المرحلة يحب اللعب الجمعى ، ولو أنه لا يهتم باللعب الجمعى المنظم فى شكل فرق (Teams) اهتماماً كبيراً إلا فى أخريات المرحلة. وميل الأطفال إلى التجمع غير المنظم فى هذه المرحلة جعل بعض العلماء[1] يسمونها (The Red Indian Age) أو (The Gang Age) . وتبدأ الاتجاهات الاجتماعية تظهر فى هذه المرحلة كالزعامة أو التبعية أو الميل للمساعدة أو الميل للحنو أو الميل الاستبدادى أو حب التهكم أو غير ذلك .

وهى مرحلة قليلة المشكلات فى العادة إذا قورنت بالمرحلة التى قبلها والتى بعدها. ولكن المشاكل لا تلبث أن تظهر إذا أهملنا خصائص الطفل فى هذه المرحلة من

(١) Hollingworth: Mental Growth and Decline

ميل إلى الكشف والمعرفة والتجول والمخاطرة والمصادقة والاهتمام بالعالم الخارجي من مواد وأشخاص اهتماماً لم يسبق له عِنده مثيل[١] .

وبطء النمو الجسماني في هذه المرحلة يجعل الطفل حسن الصحة ، قليل القابلية للتعب ، شديد الميل للحركة والنشاط ، قادراً على التحمل ومواصلة العمل ساعات طويلة .

أما من الناحية العقلية فكل القوى العقلية من تذكر وتفكير وانتباه وغير ذلك تبدأ تنضج في هذه المرحلة خصوصاً بعد سن التاسعة . ولذلك يرى علماء النفس أن الفكرة القديمة القائمة على أن يحفظ الطفل حفظاً آلياً كثيراً من مواد الدراسة في هذه المرحلة خصوصاً قبل العاشرة فكرة خاطئة ، ويجب الاعتماد على البحث والتفكير ، وعلى الذاكرة المنطقية ، وعلى تحفيز الطفل للعمل والتكرار عن طريق ميوله ومصادر الشوق لديه .

المراهقة والبلوغ

تنتهي الطفولة عادة عند سن الحادية عشر ، أو الثانية عشرة تقريباً . ويبدأ الفرد يدخل بعد ذلك في دور جديد تظهر فيه تغيرات كثيرة ، بعضها ظاهر ، وبعضها خفي . ومن التغيرات الظاهرة مثلا ، استطالة القامة ، وبدء نمو الشعر على العارضين ، وعلى الشفة العليا عند الولد . وينمو الشعر كذلك على العانة وحول الأعضاء التناسلية ، وتحت الإبطين عند كل من الولد والبنت . وينمو بعض أجزاء الجسم بنسب تختلف عن النسب التي كانت تنمو بها قبل ذلك ، والثديان عند البنت مثال من هذا النوع من النمو . ومن الظواهر الهامة بدء تضخم الصوت عند البنين ، ومرحلة الانتقال

---

(١) "If at this stage contact with reality is firmly established, then the risks of morbid day-dreaming and of over-stimulated imagination, to which the adolescent is often prone, would be largely reduced"; The Primary School: Board of Education Report p. 41.

يتكسر فيها الصوت عادة بين الرفيع وغير الرفيع . أما التغيرات الخفية فأهمها ما يطرأ على بعض الغدد من ضمور كما يحدث فى الغدة التيموسية والصنوبرية ، وما يطرأ على بعض الغدد الأخرى من نمو ونشاط كما يحدث فى الغدة النخامية والغدد التناسلية . وإفرازات الغدد ترجع إليها التغيرات الجسمية الظاهرة التى أشرنا إليها ، كما يرجع إليها كثير من الظواهر النفسية التى تظهر فى هذا الدور .

وهذه المرحلة على وجه العموم مرحلة نمو سريع فى الوزن ، والطول ، ويصحبها مؤقتاً شىء من رعونة الحركة ، وفقدان بعض الدقة والتوازن فى الحركات . وينتج عن هذه المظاهر وما يشبهها حساسية شديدة فى النشء ، وحالات انفعالية تحتاج لرعاية. فبعض البنات والأولاد يخافون على أنفسهم خوفاً شديداً ، إذ يظنون أن هذا النمو قد يستمر استمراراً مطرداً ، وبعضهم يمشون على أطراف أصابعهم حتى لا يرجوا المكان ويزعجوا من فيه . وبعضهم لا يجرؤون على التكلم أمام الناس ، لعدم ثقتهم فى أصواتهم إن كانت ستخرج مألوفة أو غير مألوفة . وبالجملة فإن الطفل فى هذه المرحلة ينتقل من الطفولة إلى اكتمال النمو ، وعلى هذا الممر الواقع بين المرحلتين يمر الطفل فى دور المراهقة والبلوغ ، وهى مرحلة مليئة بالصعاب بالنسبة للناشىء ، ويكون فيها الفرد فى أشد الحاجة إلى المعونة ممن حوله .

التغيرات الجنسية

أهم ما فى هذه المرحلة نشاط الغريزة الجنسية واستيقاظ الحاسة الجنسية عند الناشىء . ويصاحب الغريزة الجنسية — كما قلنا — تغيرات شديدة فى إفرازات الغدد ، يصاحبها مشاعر وانفعالات جديدة . وسبب كثير من صعوبات المراهقين أنه لا توجد مطابقة بين سن النضج الجنسى ، والسن التى تسمح فيها تقاليد البيئة بالإشباع الجنسى ، إذ أن البيئة لا تسمح بهذا عادة إلا عند اكتمال سن الاستقلال الاقتصادى . وحكمة التشريع الأولى فى هذا التقليد أن الاتصال الجنسى يؤدى إلى التوالد ، ولا بد

من حماية الأولاد ورعايتهم فى جو الأسرة . ويحتاج جو الأسرة ورعاية الأولاد إلى كيان اقتصادى معين لابد من الوصول إليه .

لذلك نجد أنه كلما زادت المدنية تعقداً بصورتها المألوفة لنا ، وكلما قلت الفرص أمام الناشئين فى الحياة ، طالت المدة الواقعة بين النضج الجنسى وبين إمكان الإشباع المشروع للغريزة الجنسية ، وزاد بذلك احتمال زيادة صعوبات المراهقين والبالغين .

وتحاط الغريزة الجنسية وما حولها من أعضاء تناسلية ، ووظائف جنسية ، وغيرها ، بكثير من التكتم ، والغموض ، والخوف ، والإشعار بالقذارة أو الخطيئة والإجرام ، أو إحاطتها بالتقديس الذى يجعلها فوق كل مناقشة . كل هذا يؤدى إلى صعوبة فهمها أو استحالة هذا الفهم على الشخص أحياناً إلا إذا كان على أبواب حياة زوجية . والاتجاهات العقلية التى يتخذها الكبار نحو المسائل الجنسية تظهر عادة إزاء الناشئين صغارهم وكبارهم ، مما يغرس الكثير من بذور المشكلات الجنسية فى الأطفال منذ السنوات الأولى . ومن أمثلة ذلك أن والداً كان يناقشنى حالة أولاده ، ونصحته بأن يأخذهم فى نزهة خارج المنزل ، حتى يتسع أفقهم . وضربت له أمثلة بالمتحف الزراعى ، أو الأهرام ، أو حديقة الحيوان . . . فذعر الرجل للاقتراح الأخير ، ورفضه من أساسه . وكانت حجته أنه يخشى أن يرى أولاده القردة فى اجتماعاتهم الجنسية . فقلت له : أولا يرون ذلك من الكلاب فى الشوارع ، أو من الدجاج ، أو غير ذلك ؟ . فقال : ولكنهم يرون ذلك رغم أنفى . . . ومثال آخر يبين مدى خوف الآباء من المسائل الجنسية ، ما كان يفعله والد وصل به الأمر إلى أنه يعلق فى غرفة بناته لوحة عليها رسوم بيانية لبناته الثلاث ويوضح فى هذه الرسوم مواعيد العادة الشهرية عندهن ، حتى يطمئن بذلك على صحة سلوكهن . وكان شديد الرقابة على كل صغيرة وكبيرة تصدر من بناته . وكان ينام معهن لذلك فى غرفة واحدة .

وموقف الكبار نحو المسائل الجنسية وموقف المجتمع عامة نحوها ، يؤدى إلى الوقوف حائلا ضد قوة هائلة من قوى الطبيعة تنزع للتعبير عن نفسها . ولهذا تظهر فى أدوار المراهقة والبلوغ مشكلات عديدة مختلفة فى مظاهرها ، قد ترجع إلى الكبت الواقع على الغريزة الجنسية .

التغيرات الوجدانية

يمر المراهقون لهذه الأسباب ولغيرها فى حالات اضطراب انفعالى شديد . فقد تراه يثور على غير عادته على من حوله من والدين و إخوة أو زملاء . وقد تراه يتذبذب بين الثوران والهدوء وقد تراه متناقضاً على وجه العموم ، فهو أحياناً برم بالحياة يمقتها ويتمنى الموت ، أو ينتقد نفسه أشد انتقاد . وفى وقت آخر قد تراه راضياً عن الحياة ، سعيداً بنفسه ، ومعجباً بها كل الإعجاب . وأحياناً يكون منقبضاً وأخرى منشرحاً . وأحياناً يجنح للعزلة ، وأحياناً أخرى يميل إلى الاجتماع بغيره . وتراه فى هذه المرحلة قد يبحث فى الدين ، و يمارس بعض ما يأمر به ، علّه يجد فيه ملجأ لحل مشكلاته . وأحياناً لا يجد فيه ما يحل مشكلاته ، فيتذبذب بين التدين وعدم التدين ، أو بين الإيمان والكفر . ويصحب هذه التغيرات أزمات نفسية حادة تؤدى إلى ظهور الأحلام بنوعيها . وتكون وظيفة أحلام اليقظة بنوع خاص الهرب من الواقع ، وتتمركز محتوياتها عادة حول تخيل الإشباع الجنسى ، وتخيل النجاح فى المستقبل المهنى ، والزواج ، والانتقام من السلطة ، أو القضاء على الذات . لهذا نجد أن فترة المراهقة والمراحل الأولى للبلوغ فترة ثورة وصراع نفسى شديد ، يزيد من ظهوره تعقد المدنية ، و بعد المسافة الزمنية بين سن البلوغ والسن التى يسمح له فيها بالإشباع الجنسى ، وسوء معاملة السلطة المحيطة بالمراهق له ، وانعدام الاطمئنان للمستقبل والمجتمع عامة .

التغيرات الاجتماعية والخلقية

يتميز هـذا الدور بالميل إلى التحرر من المنزل والانتماء إلى مجموعة من الزملاء . وعند انفصال المراهق عن الانتماء النفسى للمنزل يميل إلى البحث عن بطل يعجب به. ولعل سبب هذا هو تفتح ذهنه لآفاق جديدة ، واكتفاؤه بما عرفه عن والديه من خبرة ، وكراهية الخضوع لسلطتهما عليه ، خصوصاً وأن هذه السلطة تذكره بطفولته ، إذ يعامل الآباء المراهق عادة — ولو لفترة من الزمن — بنفس المعاملة التى تعودوها معه فى أدوار الطفولة الطويلة السابقة . يبدأ المراهق ينتقد والديه علناً ، أو سراً بينه وبين أصدقائه ، أو بينه و بين نفسه . وقد يعتبر والده رجلا رجعياً ، ضيق الذهن ، قليل الجرأة والميل إلى التجديد ، قليل الحيلة .

يبدأ المراهق على وجه العموم يستقل عن المنزل ، ويتصل بالمجتمع . ويبحث عن شخص يتجسم فيـه المثل الأعلى الذى يرتضى لنفسه أن يحتذيه . ويصل إعجابه بالبطل الجـديد أحياناً إلى درجة تشـــبه العبادة . وتسمى عادة عبادة البطل (Heroworship) وتصل عبادة البطولة إلى درجة يصعب على الكبار تصورها . فتاة فى مدرســة من مدارس البنات بالقاهرة كانت تكتب لبطلتها — وهى معلمة بالمدرسة — الخطابات المطولة ، وترسل إليهـا بالهدايا التى تضحى فى سبيل الحصول عليها بالشىء الكثير . وفتاة أخرى فى مدرسة ثانوية لم تكن لديها وسائل الإفصاح لبطلتهـا بالهدايا والمكاتبات ، فعكفت على حفر اسم بطلتهـا (المعلمة) على رسغها مستعملة سلاحاً مدبباً حاداً ، مما أدى إلى جرح رسغها ، وتقيح الجرح ، وكان الاسم فى غاية الوضوح حتى بعد تقيح الجرح . وتصل عبادة البطل عادة إلى تقمص المراهق لشخصيته وامتصاص خصائصه .

ولهذا نجد المراهقة والبلوغ يكونان مرحلة مناسبة لتكوين المثل العليا . ولـكن يجب أن يتطور المثل الأعلى إلى أن يصبح « فـكرة » بدلا من أن يبقى متجسما فى

شخص . وهذا يكون عن طريق دراسة حياة الأبطال ، والزعماء ، وقادة الفكر ، سواء فى ذلك الشخصيات المعاصرة أو التاريخية . ويجب ألا يبهر المعلم فى هذه الأحوال إعجاب المراهق به ، وعليه أن يساعده على كسب الخبرة الواضحة ببطولات أخرى وكشف بعض نواحى قصوره .

ويظهر فى هذه المرحلة — كما قلنا — ميل الفرد إلى الانتماء إلى البيئة الاجتماعية المحيطة . ويظهر هذا فى حساسية الفرد للجماعة التى ينتمى إليها ، وميله إلى تقليد أفرادها . ويجب استغلال ولاء الفرد للجماعة وميله إلى الجماعات المنظمة لإنماء روح التعاون الاجتماعى ، وتقوية الشعور الاجتماعى عند الفرد . كذلك يجب أن نستغل ميل المراهق لإرضاء المجتمع فى تكوين الخلق ، على أن تعتبر هذه خطوة للمرحلة التالية فى التكوين الخلقى ، وهى مرحلة العمل على إرضاء ضمير خلقى[١] .

ويلاحظ أن الاعتماد على رضاء المجتمع وسخطه ، وعلى بدء إرضاء مثل أعلى ذاتى من أهم الوسائل المؤدية إلى تكوين الخلق . ولكن علينا أن نلاحظ أن المراهق قد يشتط فيشعر فوق كل ما تقدم بالحاجة إلى إصلاح المجتمع ، وينقد المسئولين عن المجتمع نقداً مراً ، ويضع أحياناً مشروعات كاملة لمجتمع كامل ، أو لمدينة فاضلة[٢] ، أو لأى اتجاه يخطر على باله للإصلاح الاجتماعى .

تحرر المراهق من السلطة ونمو فرديته

وينزع المراهق فى هذه المرحلة إلى إكمال رجولته ، والاعتزاز بكيانه . ويعمل على الاستقلال فى فكره وعمله . ويجرب أساليب متعددة ، ليحقق لنفسه شعوره بخروجه من دور الطفولة ، واكتمال نموه واستقلاله . وفى أثناء تجريبه الأساليب المتعددة قد يقع

---

(١) راجع الفصل الخامس صفحة (٨٥) .

(٢) حدث هذا بالفعل من عدد غير قليل من المراهقين الذين درستهم جيداً .

فى نزاع مع السلطة المشرفة ، وقد يترتب على هذا نزاع نفسى أو سلوك غير مرغوب فيه . فتجد الميل إلى الخروج على سلطة الوالدين والمعلمين وعصيانها ، واحتقار آراء الكبار ، والميل أحياناً إلى الكذب بأنواعه من ادعائى للايهام بالعظمة والقوة والجاه ، أو وقائى لدفع أذى السلطة لا إلى وقائى لوقاية الزملاء من أذى السلطة ، وكذلك الميل إلى السرقة ، والتدخين ، والكلام بصوت مرتفع ، واستعمال العنف ، والقسوة ، والشدة مع الأخوة والزملاء ، واستعمال العنف فى الانتقام من السلطة ، والميل إلى الهروب من المدرسة ، سعياً وراء تحقيق لذة خاصة يفهمها جماعة الزملاء على أنها من أعمال الكبار ، ويتهمون من لا يتبعونهم بالجبن .

هذا كله إلى جانب النزوع إلى متابعة اللذة الجنسية من استمناء أو استغلال جنسى للزملاء أو مغازلة الجنس الآخر ، فهذه كلها فى نظر المراهق أدلة على استكمال النمو والخروج من الطفولة .

و إلى جانب هذا السلوك قد يحدث لدى المراهق إغراق شديد فى أحلام اليقظة ، وتدور هذه — كما سبق أن بينا — حول مستقبله وعظمته وزواجه وتحرره من السلطة وغير ذلك مما يدور حول نمو فرديته .

النمو العقلى

يتم فى هذا الدور نمو الذكاء . ودلت البحوث المختلفة على أن نمو الذكاء يقف حوالى سن الخامسة عشرة . وليس معنى هذا أن النمو العقلى يقف . ولكن النمو العقلى — بمعنى نمو الخبرة — يستمر ما دامت عملية كسب الخبرة فعالة .

ويشتد الخيال فى هذه المرحلة ويأخذ اتجاهات واضحة فى الرسم ، أو النحت أو الكتابة الأدبية ، أو الموسيقى ، أو الشعر . ويجد الخيال مجاله فى أحلام اليقظة التى سبق أن أشرنا إليها ، حيث يحلم الفتى بمستقبل ناجح ، أو زوجة جميلة ، أو انتحار ، أو وفاة أحد أصحاب السلطة عليه إلى غير ذلك . ويصل

إغراقه فى هذه الأحوال إلى حد أنه يبكى فعلا أو يصفق لنفسه فعلا . . .

وبالجملة فعقل المراهق أو الفتى الحديث البلوغ عقل خصب الخيال كثير الإنتاج . ويفكر الفتى الناشىء تفكيراً فلسفياً ، فهو يفكر فى أسباب الظواهر الطبيعية وعللها ، وينتقل تدريجياً من التفكير فى المحسوسات الواقعيات ، إلى المعنويات والأفكار المجردة . ولذا نجد ميلا إلى الدقة والنقد . ويتسع أفق الفتى أو الفتاة فيفكر فيما وراء خبرته المادية المحسوسة . فيفكر فى الدين وفى مبدع الكون وفى أصل الكون ومصيره . ويزداد ميله إلى البحث والاطلاع والسفر ومعرفة الشعوب ، وتزيد نفسه شغفاً بالخبرات الجديدة زيادة واضحة .

وفى هذه المرحلة يبدأ ظهور الفروق فى الميول والاتجاهات العقلية أوضح مما كانت قبل ذلك ، ففى الأعمال الدراسية تظهر الميول اللغوية والرياضية والعلمية والعملية ، وتظهر الاتجاهات إلى أنواع الفنون من تصوير وموسيقى وغير ذلك بصورة أوضح من ذى قبل .

الكبار وموقفهم نحو المراهق

وموقف الكبار نحو المراهقين لا يرعى فى العادة لسوء الحظ ما يحدث لهم من تغيرات ، ولعل سبب هذا يرجع إلى تعود الكبار معاملة المراهق على أنه طفل لمدة اثنتى عشرة سنة تقريباً قبل حدوث التغير . وقد يرجع إلى تلذذ الكبار من استعمال السلطة وخوفهم من عدم التمتع بها إذا تحرر المراهق منهم . كذلك يرجع هذا الموقف إلى أن الكبار نسوا كل ما حدث لهم فى دور المراهقة ، لطول المدة من ناحية ، ولخضوعها للكبت من ناحية أخرى ، إذ أن كثيراً من هذه الخبرات يكون مؤلماً لعنفه أو فشله أو ارتباطه بالشعور بالخطيئة .

من هذا نرى أن موقف الكبار يجب أن يكون موقف فهم لتطورات عقلية المراهقين ، وعطف على أزماتهم ، وتوجيه صحيح لنزعاتهم .

المراجع

Averill: Adolescence.
Board of Education Reports on:
Infant and Nursery Schools Ch. III.
The Primary School Ch. III.
Secondary Education Ch. III.
Bridges: The Social and Emotional Development of the Preschool Child.
Brooks: The Psychology of Adolescence.
Brooks: Child Psychology.
C. Buhler: Testing Child Development.
C. Buhler: The First Year of Life.
C. Buhler: From Birth to Maturity.
M. Curti : Child Psychology.
J.A. Green: An Introduction to Psychology.
Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.
G. Hall: Youth.
Hazlitt : The Psychology of Infancy.
Hollingworth: Mental Growth and Decline.
Hollingworth: The Psychology of the Adolescent.
S. Isaacs: Nursery Years.
» » : The Children We Teach.
» » : Intellectual Growth in Young Children.
» » : Social Development in Young Children.
Murchison: A Handbook of Child Psychology.
Pringle: Adolescence and High School Problems.
Slaughter: The Adolescent.
Valentine: Psychology of Early Childhood.
O. Wheeler: Youth.
» » : Creative Education.

الباب الثانى

الطفل فى بيئته الاجتماعية

الفصل التاسع : الطفل ووالداه .

« العاشر : الطفل واخوته .

« الحادى عشر : المدرسة ومشكلات النشء .

« الثانى عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ .

الفصل التاسع

الطفل ووالداه

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه

يتجه ذهننا عادة عند درس حالة ما إلى بحث أنواع العلاقات التى ينشأ فيها الفرد وبخاصة فى السنوات الأولى . وأهم هذه العلاقات علاقاته مع والديه ، وأهمها جميعاً علاقته مع أمه . وهذه العلاقات تتغير فى مجموعها تغيراً طبيعياً بحكم نمو الطفل ، وقلة حاجته بالتدريج للاعتماد على والديه . وتتغير كذلك بحكم ما يحدث فى بيئته من تغيرات ، ترجع إلى ميلاد إخوة له ، أو إلى تغير العلاقات بين والديه أنفسهم ، أو إلى تغير والديه نحوه بسبب تغير المستوى الاقتصادى للأسرة ، أو غير ذلك .

واعتماد الطفل على والديه كبير جداً فى السنوات الأولى . فالطفل له غرائزه وحاجاته التى يرمى إلى إشباعها ، فهو يرمى إلى المحافظة على نفسه ، ويرمى إلى الراحة والدفء عند الشعور بالبرد ، وغير ذلك . والطفل يفوز عادة بجميع رغباته ، معتمداً غالباً على أمه ، فهى التى تطعمه ، وتدفئه ، وتقضى حاجاته ، وتوفر راحته ، وتجرى لإسعافه عند بكائه وغير ذلك . وعلاوة على كل هذا ، فهى لا تعاقبه إن أزعجها طول الليل بصياحه وعويله ، ولا تضربه إذا كسر أو أتلف شيئاً ما . فحياة الطفل فى هذه السن حياة سعيدة محفوفة بالأمن والطمأنينة . والشعور بالأمن فى هذه السن هو بدء الثقة بالنفس . والانتقال من هذا الدور إلى ما بعده يجب أن يكون انتقالا تدريجياً .

ومن عوامل استمرار ثقة الطفل بنفسه أن يتصل بعد أمه بأفراد الأسرة ، ثم يتصل برفاقه وأصحابه . ويمكننا أن ننظر إلى نمو الطفل على أنه سلسلة من مراتب

استقلالية ، تتحقق كل حلقة منها باتساع الدائرة التى يعيش فيها . فالطفل يستقل عن أمه ليصبح عضواً فى مجتمع الأسرة ، ويستقل عن مجتمع الأسرة ليندمج فى مجتمع الرفاق ، ثم يتسع هذا إلى مجتمع المدرسة ، ثم إلى المجتمع الأكبر . وهذه الخطوات متصلة ، ويجب أن نتذكر أن تحقيق أى مرحلة تحقيقاً مرضياً لا يمكن أن يتم إلا بتحقيق المرحلة السابقة . ويجب أن نتذكر مع مراعاة خصائص الطفل وهو فى مرحلة ما ، وجوب إعداده للمرحلة التالية . وفوق أن هذه الخطوات متصلة فهى متداخلة ، ولا يمكن أن نضع حدوداً فاصلة ، فنقول هنا تنتهى مرحلة الاعتماد على الأم ، وتبدأ مرحلة الاندماج فى مجتمع الأسرة . والسبب فى هذا التداخل هو أن لدى الطفل حاجتين تعملان دائماً فى وقت واحد : وهما الحاجة للأمن ، والحاجة للمخاطرة . وهما موجودتان فى كل لحظة . وسبق أن قلنا إن التعبير عن الحاجة للمخاطرة لا يتم فى أكمل صورة إلا إذا أشبعت الحاجة للأمن . ومما يلاحظ فى لعب الأطفال مثلا أن الواحد منهم فى سن الخامسة تقريباً يميل إلى الخروج للعب مع رفاقه ، ولكنه لا يبتعد كثيراً عن المنزل . فخروجه إلى رفاقه يحقق النزعة للمخاطرة ، ولكن فى احتفاظه بالقرب من المنزل تحقيقاً للنزعة إلى الأمن .

فواجب الآباء إذن أن يساعدوا أطفالهم على إشباع حاجاتهم ، ولكن يجب عليهم ألا يبالغوا فى مساعدتهم إلى الحد الذى يجعل الأطفال يفقدون القدرة على الاستقلال عنهم . فيجب أن يسارع الآباء مثلا بجعل أبنائهم يعتمدون على أنفسهم فى تناول الطعام وفى لبس ملابسهم بأنفسهم ، وفى المحافظة على لعبهم ، وأدواتهم ، وترتيبها بأنفسهم ، وفى قيامهم بأنفسهم بواجباتهم التى يكلفونها من المدرسة .

وبعض الآباء والأمهات يبدو عليهم انحراف خاص أحياناً فى شخصياتهم بسبب ظروفهم الأولى كالتنشئة على الأساليب الاتكالية ، أو ظروفهم الراهنة كتكرر فقد الأطفال أو عدم توافر الهناءة الزوجية أو غير ذلك . لذلك قد يشتقون لذة كبرى من أن أولادهم لا يعتمدون إلا عليهم . وأحياناً يفاخرون بهذا ، ويصل الأمر ببعض

الأمهات إلى أنهم يضعفون فى أولادهم كل ميل للاعتماد على النفس ، و يقتلون فيهم القدرة على الاتصال بالغير اتصالا منتجاً . ففى بعض الحالات التى قمنا بدراستها كانت الأم تصاب بالإغماء أو الإنهاك الشديد أو غير ذلك من الأعراض المرضية ، إذا حاول الإبن فى سنه المتقدمة أن ينفصل عن أمه ، و يستقل عن سلطانها بأى صورة كانت . و بعض الأمهات يهيئن للابن أساليب المرح ، وأحياناً أساليب الاتصال الجنسى غير المشروع ، حتى لا يلجأ إلى الزواج ، أو إلى البحث عن متعتة بعيداً عن أمه . وهذا النوع من الأمهات يجد أولادهن عند اكتمال نموهم صعوبة شديدة فى التزوج . وحتى بعد التزوج قد يتوقعون من زوجاتهم أن يكن على شاكلة أمهاتهم . وتحدث كثير من المشكلات بسبب انعدام هذا التطابق . ويجد أبناء هذا النوع من الأمهات مشقة فى المخاطرة بوجه عام كالسفر البعيد أو غير ذلك .

وتسهيل اتصال الأولاد بآخرين يجعل كلا من الأخذ والعطاء فى حياة الأطفال أكثر حدوثاً مما لو كان الطفل محيط مقتصراً على والديه ، الأمر الذى يترتب عليه أن الطفل يأخذ عادة من والديه ولا يعطى . وأما اتصاله بأخوة أو زملاء فإنه يوجد مجالا لأن يأخذ الطفل فيه و يعطى كما يأخذ . فإذا اعتدى على غيره يعتدى عليه . و إذا أخذ لعبة من زميل لابد أن يتنازل له عن لعبته فى مناسبة أخرى . ولذا كان اختلاط الأولاد بمن فى سنهم تقريباً من أخوة وزملاء أسلوب طيب لتعليم الأخذ والعطاء ، والسرور والألم ، وغير ذلك من الخبرات الضرورية لتعويد الطفل التحمل وصلابة العود وعدم الأنانية . ولكسب الخبرة فى الأخذ والعطاء أهمية خاصة ، فهو الفرصة الأولى لتعلم فكرة الحق وفكرة الواجب . و إذا لم تهيأ هذه الفرصة تهيئاً كافياً فقد يتعذر على الطفل عندما يكبر أن يكسب هذين الجانبين . وقد ينشأ شغوفا بما له من حقوق ناسيا ماعليه من واجبات . وهذا عيب خطير فى كثير من المجتمعات .

ولفصل الطفل فصلا جزئياً عن أمه واختلاطه بغيره ميزة أخرى ، وهى أن الطفل يكون عن نفسه فكرة صحيحة . ففكرة المرء عن نفسه تزيد درجة دقتها وقربها من

الحقيقة بكثرة تعامل الفرد مع غيره . لنضرب مثلا تخيلياً لتوضيح هذا : لنفرض أن شخصاً ما يعيش مع أناس أقل منه باستمرار ، فإنه قد يكون عن نفسه فكرة أنه شخص عظيم جداً . ولكنه إذا احتك بأناس أحسن منه بدرجات متفاوتة ، وأقل منه بدرجات متفاوتة ، فإن الاحتمال أكبر فى أنه يكون عن نفسه فكرة أقرب إلى الاعتدال من الفكرة الأولى . ولذا كان اتساع دائرة اتصالات الشخص وتنوع عناصرها عاملا مهماً فى تكوين المرء فكرة صادقة عن نفسه بعيدة عن تعظيمه أو تحقيره لها .

لهذا كله كان توسيع دائرة الطفل توسيعاً تدريجياً عاملا مهماً جداً فى تكوين شخصية الطفل تكويناً متماسكا مركزه فكرته عن نفسه .

وهناك طفل كان الذكر الأول بين أخوته ، وكان أبوه ذا صناعة لها مركز اجتماعى غير محترم . ويظهر أن الأم أرادت أن يتحقق لها فى إبنها مالم يتحقق لها فى زوجها ، فعنيت بتعظيمه واحترامه ، وجعلته محور الأسرة كلها ، وأهملت والده . وكانت تدلل ابنها تدليلا شديداً جداً وتجيب له أغلب رغباته ، وتتلذذ من هذا تلذذاً شديداً . وكان إذا احتك بأطفال آخرين أفهمته أنهم أطفال حقراء ، وأنه ليس مثلهم ، وأنه عظيم جداً ، وأنهم يشعرون بالغيرة منه ، إلى غير ذلك . ثم كبر الولد وذهب إلى المدرسة ، فإذا رسب — وكان كثير الرسوب — كانت تقول إن المدرسين يفعلون ذلك عن قصد . ثم خرج وشغل وظيفة من الوظائف الصغيرة ، وكان فى غاية الشدة على أمه ، يجبرها على تعظيمه واحترامه ، وإجابة طلباته إلى أن ضجرت نفسها . وكان يعتقد باستمرار أن زملاءه يعملون دائما ضده وأنهم يكيدون له ويدبرون عليه المؤامرات لغيرتهم من ذكائه وقوة شخصيته . وكان يشكو باستمرار من خسة هؤلاء الزملاء ، وسوء أخلاقهم ، وكان يعمل دائما للاتصال — على قدم المساواة — بأناس يرتفعون عنه كثيراً فى المستوى العقلى والاجتماعى ، وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه عبقرية مدفونة ، غير مقدرة من هذا المجتمع الحانق الظالم .

وهناك حالة أخرى لتلميذ فى مدرسة ثانوية تقدمت الشكوى عنه بأنه يميل إلى العناد ، والعصيان ، وعدم الميل إلى المذاكرة ، ويميل إلى الشره فى الأكل ، ويخالط من هم أقل منه فى المرتبة العقلية والاجتماعية ، ويجتمع بخادمات المنزل اجتماعاً جنسياً وللحالة أعراض أخرى ، ليس هذا مقامها . وبدرس التاريخ الأول للحالة اتضح أن الولد هو الذكر الأول ، وأن الوالدين أغدقا عليه فى طفولته الأولى عطفاً وتدليلا كبيرين جداً ، ثم إنه ما كاد ينمو ويصل إلى سن الثالثة حتى انتابه المرض تلو الآخر ، فانتقل من تيفويد إلى حصبة إلى التهاب رئوى ، مما زاد فى قلق والديه ، وزاد فى عنايتهما به ، وزاد فيما يغدقان عليه من امتيازات . ولكنهما لم يرتبا بعد شفائه أسلوب اتصاله بالآخرين ، فظل معتمداً على والديه فى جلب السرور لنفسه ، بل وصار ملحاً فى هذا الاتجاه ، مما جعلهما يخضعان لإلحاحه ، ومما أفقد الولد قدرته على الاعتماد على نفسه . فإذا خلع ملابسه ترك كل قطعة منها فى مكان . وإذا كتب ، ترك قلما فى جهة وورقة فى جهة أخرى وكتاباً فى جهة ثالثة . وإذا أعطى واجباً منزلياً فإنه لا يعمله إلا إذا ساعده فيه والده أو مدرس خصوصى . ومما زاد الطين بلة أن الولد أرسل فى سن الخامسة إلى روضة الأطفال ورتبت له الدروس الخصوصية اليومية من أول سنة التحق فيها بالروضة

أما اتصاله الجنسى بالخدم ، فقد يكون من عوامل ظهوره أن الولد لم يعرف كيف يقاوم رغبة له ، فإذا ما تحركت عنده النزعة الجنسية ، وهى إحدى رغباته ، فهو لا يقاومها وإنما يشبعها بأسهل الطرق وأقربها له . وهذا التفسير بعينه قد يبين سبب شرهه .

وحالة أخرى لطفل تقدمت الشكوى عنه بسبب التبول اللاإرادى . ومن ضمن أعراضه حسب شكوى أمه منه ، أنه لا يعتمد على نفسه قط ، وأنه يرهقها بمطالبه وظهر السبب فى هذا بمجرد سؤاله عن إسمه ، فقد تبرعت بالإجابة بدلا عنه . ثم بسؤاله عن عمره ، أجابت كذلك نيابة عنه . وهكذا فى السؤال عن إخوته ومسكنه . . . الخ فقد كانت إما أن تجيب عنه أو تتعجله الإجابة بتوبيخه ثم تجيب هى بالنيابة عنه بعد ذلك .

وهناك حالات كثيرة جداً ، أساس مشكلات السلوك فيها هو المبالغة فى اعتماد الطفل على والديه ، أو على واحد منهما. وفى عدد غير قليل من هذه الحالات نجد أن الوالد المعتمد عليه لا يطيق فقدان هذه الصله .

مدى تدخل الآباء فى حياة الأبناء

من المسلم به أن الآباء قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من خبرة بعد تجارب طويلة فى زمن غير الزمن الذى يعيش فيه أبناؤهم . ووصلوا إلى خبرتهم هذه بالمحاولة وارتكاب الأخطاء ، وتصحيح هذه الأخطاء . وكثير منهم يريد مع ذلك أن يفرض نتائج خبرته على أولاده ، وينسى أنها ربما لا تلائمهم مطلقاً . و بعض الآباء يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة أبنائه ، فيرتبون لهم مواعيد عملهم ، ومواعيد راحتهم ، وطريقة إنفاق نقودهم ، ولون الملابس التى يختارونها ، والأصحاب الذين يخرجون معهم ، ونوع التعليم الذى يختارونه إلى غير ذلك .

والأولاد الذين ينشأون فى هذا الجو يكبرون متصفين بالتردد وضعف الشخصية وعدم القدرة على القطع برأى فى موقف ما . وذلك لأنهم لم يتدربوا التدريب الكافى على القطع برأى لأنفسهم ، إذ أن هناك من يفكر لهم باستمرار . ويخشى الآباء إذا تركوا أبناءهم يفكرون لأنفسهم أن يخطئوا ، ولكنهم ينسون أن المرء يتعلم من خطئه ، ويكفى أن يكون موقفهم إزاءهم موقف إرشاد .

وهنا نتساءل إلى أى حد يمكن للآباء أن يتدخلوا فى أعمال الأبناء ؟ بعض المربين ينادى بوجوب ترك الأبناء يتعلمون كل شىء بأنفسهم ، وذلك عن طريق إحساسهم بنتيجة عملهم . فإذا كانت النتيجة مؤلمة ، كان طبيعياً للطفل أن يتجنب العمل الذى أدى إلى الألم . و إن كانت النتيجة سارة ، كان من الطبيعى أن يزاوله حتى يصبح عنده عادة . وهؤلاء هم الذين يؤمنون بما يسمى مبدأ (التربية الطبيعية أو التربية السلبية) إيماناً خالياً من المرونة . وليس فى إمكاننا ترك الطفل يكتسب كل تجاربه بنفسه . ولكن يمكننا أن نتركه يكتسب كثيراً منها عن طريق خبرته

الشخصية المباشرة . ويصح أن نذكر بعض المواقف التى يجب أن يتدخل فيها الآباء .

فمن أهم هذه المواقف تلك التى يكون فيها خطر على حياة الطفل أو صحته . فلا يجوز مثلا أن نتركه أمام النار لتحرقه ، أو الماء العميق ليغرقه ، أو السم ليقتله ، أو الطعام غير الصالح ليلحق به ضرراً ، بحجة أننا نترك الطفل يتعلم بنفسه فقط ولنفسه فقط . فلا بد لنا أن ننبه الطفل فى هـذه المواقف وأمثالها إلى ما يجب عليه عمله . وعلينا أن نعوده أن يطيعنا فى مثل هذه المواقف طاعة تامة .

ومن المواقف التى نتدخل فيها الأعمال الممنوعة لغير سبب ظاهر للأطفال أنفسهم ، وهذه تشمل عادة ما يسمى بالآداب العامة ، كوضع المرفقين على مائدة الطعام ، وكالشرب بصوت مسموع ، وكأن يضع المرء رجلا على أخرى بحيث يواجه أسفل حذائه وجه أحد الحاضرين ، أو تسليك الأسنان ، أو مص الأصابع ، أو تنظيف الأنف ، أو عصر حب الوجه ، أو قص الأظافر ، أو استعمال السكين لإيصال الطعام إلى الفم ، أو غير ذلك من الأعمال التى يأتيها بعض الأفراد أحياناً عفواً أمام الناس . هذه كلها أفعال ننبه الطفل إلى تركها إذا أداها . وكل السبب الذى يمكن أن نبديه إذ ذاك أنها خلو من الآداب ، أو سلامة الذوق أو غير ذلك . وبعض هذه الأفعال ليس له سبب ظاهر للطفل كما قلنا ، وبعضها له سبب حقيقى ، ولـكن يعجز الطفل عن إدراكه إذا نحن نبهناه إليه .

وهنـاك أعمال يأتيها الأطفال للعبهم وتسليتهم ، ولـكن يصح أن يترتب عليها أحياناً تعكير صفو غيرهم ، و إقلاق راحتهم ، كالصياح وكثرة الحركة ، والتخريب ، وما شابه ذلك . وهذه الأنواع من السلوك لا يجوز لنا أن نعمل على منع الطفل عنها بالطرق التقليدية . فإذا نحن نجحنـا فى منع الطفل بهذه الطرق نشأ الطفل متصفاً بالخجل والجبن ، أو زاد ميله إلى التخريب والإقلاق . ولـكن يصح أن ننبهه إليها ، وأن نخصص له مكاناً منعزلا يمرح فيه كيفما يشاء ، وأن نيسر له اللعب والصياح والمرح معنا فى بعض الأحيان .

والقاعدة العامة هى أن يعطى الأطفال فرصة كافية للوصول بأنفسهم إلى أحكامهم ، وإلى البت لأنفسهم بأنفسهم فيما يريدون ، إلا فى بعض الحالات الشبيهة بما سبقت . ويجب أن نتخذ موقف الموجه الناصح لا موقف المتحكم المستبد .

التدخل اللا إرادى للآباء فى حياة الأبناء

وعلى الرغم من اقتناع بعض الآباء بوجوب ترك الأبناء يتعلمون بأنفسهم ولأنفسهم إلا فى بعض المواقف ، فإننا نجد الآباء مدفوعين إلى التدخل فى حياة أبنائهم بعوامل خفية لا شعورية خارجة عن إرادتهم .

ومن هذه أن الآباء أحياناً يكونون مدفوعين ليحققوا فى أبنائهم ما لم يتحقق لهم — حسب رأيهم — فى أنفسهم . فنلاحظ مثلا أن بعض الآباء يتجهون بشدة ليعلموا أبناءهم سواء أكان لديهم الدافع أم لم يكن ، وسواء أكان للتعليم قيمة حقيقية فى الحياة أم لا ، وسواء أكان لدى الآباء المقدرة المادية أم لا . فرجل يعتقد أنه لم تتح له فرصة التعليم الكافية ، فيدفع ابنه فى التعليم دفعاً يحتاج لقوى ليست أحياناً فى متناول الأب أو الابن .

ومن أمثلة هذا حالة تلميذ فى سن الرابعة عشرة يتقاضى والده ثلاثة جنيهات شهرياً ، وللوالد أسرة كبيرة يتكفل بها وتعيش معه فى جهة تعتبر ضاحية من ضواحى الجيزة . وقد أكمل ابنه التعليم الابتدائى بصعوبة كبيرة . فصمم والده على إلحاقه بالمدارس الثانوية ، وحصل له على محل مجانى بعد جهاد عنيف . ولكن الولد لم يتمكن من السير فى التعليم وأخفق فيه ، واستمر الوالد مع ذلك مصمماً على أن ابنه لا بد أن يتعلم ، وأرهقه بالضرب والحبس والإشراف والدروس الخصوصية . وانتهى الأمر بأن سرق الولد أدوات زملائه بالمدرسة وباعها ، وأخيراً هرب من والده . ولم يعرف مكانه إلا حديثاً ، بعد أن اشتغل الولد بأحد معسكرات الجيش البريطانى براتب قليل . وبعد هذا كله ظل الوالد عاقداً نيته على أن الولد لا بد أن يتم تعليمه .

وكان الرجل فى حديثه يشير إلى أن ابنه جزء منه، وهو يمثله من بعده، فلابد أن يمثله تمثيلا حسناً . ومن بين أسباب الفشل الدراسى فى هذه الحالة سوء الجو المنزلى من ناحية المعاملة ومن ناحية المستوى المادى . أما مستوى ذكاء الولد فإنه يؤهله للنجاح فى التعليم الثانوى.

ومن قبيل تحقيق الآباء لرغباتهم المكبوتة عندهم فى أشخاص أولادهم أن يعطى الآباء أبناءهم حرية تامة ، لأنهم هم عوملوا فى صغرهم تحت ضغط شديد . ومن الحالات التى تمثل تحقيق رغبة مكبوتة للأب فى شخص الإبن ، حالة ولد كان فى مدرسة ابتدائية ، وفى معرض من المعارض المدرسية أحضر من منزله أشغالا للعرض ، فيها كثير من مساعدة الكبار . وقد تقرر هذا رغم تكرار تنبيه الولد إلى وجوب الكف عن ذلك . ولوحظ كذلك أن الولد لا يعبأ بالنظام إطلاقا ؛ فلا يتعاون كما يجب فى ملعب المدرسة ، وهو مصدر فوضى إذ أنه لا يلزم مكانه المرسوم له فى الملعب ، ويريد أن يكون فى موقف ممتاز . وقد اتضح بمقابلة الوالد وزيارة المنزل أن الوالد رجل ضعيف جداً ، وأن مركزه فى المنزل مركز ثانوى . ومن مظاهر ذلك أن فى غرفة الاستقبال مثلا لم توضع له صورة واحدة على حين وضعت صور عدة لزوجته . وتدل أوضاع صور الزوجة على قوتها وطغيان شخصيتها على جو المنزل . وعلمنا أن الرجل يدفع بإبنه إلى الظهور ، ويترك له الحبل على الغارب ، ويعتبر أن هذا يكون شخصيته . فبين آونة وأخرى كنا نرى صورة الولد لمناسبة تافهة منشورة فى المجلات الأسبوعية ، ويجوز أن تدل هذه الحالة على أن الوالد ربما اتجه فى الطريق غير السليم ليحقق فى إبنه ما لم يتحقق فيه من قوة الشخصية .

ويحدث أحياناً أن يعامل الآباء أبناءهم ، كما عوملوا هم من قبل ، فرجل يشتد فى معاملة إبنه أو يضربه لأقل سبب ، لأن هذه هى الطريقة التى ربى عليها هو . ولو أنه لا يذكر هذا السبب إلا عرضاً وعن طريق الصدفة .

فهناك إذن احتمال بأن يحقق الآباء فى أبنائهم مامنع عنهم ، وهناك أيضاً احتمال آخر بأن يمنعوا عنهم مامنعوا هم عنه .

ويتجه الآباء أحياناً للتدخل فى شئون أبنائهم على الرغم من إرادتهم لمخاوف عندهم . فبعض الآباء تجدهم قلقين على مستقبل أبنائهم فى التعليم ، ويتجهون إلى دفع أبنائهم للتعلم فى سن مبكرة قبل أن ينضجوا النضج الكافى . وقد ذكر لى أحد الآباء أن ابنه بليد وكسلان ، فلفت نظره إلى أن عمر إبنه إحدى عشرة سنة فقط ، وهو مع ذلك فى نهاية السنة الأولى الثانوية ، فقال ما معناه إن الزمن يتقدم بغاية السرعة ، وإن المستقبل سيكون غاصاً بالمتنافسين ، وإن زملاءه هو كانوا يأخذون الشهادة الابتدائية فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وأصبح متوسط السن ينقص تدريجياً إلى أن أصبح الأولاد ينالون الشهادة الابتدائية فى عمر ينقص أحياناً عن العشر سنوات . وقال إن هذا كله دليل على الاتجاه السريع نحو المنافسة . . إلى غير ذلك . هذا الحديث يمثل الأسلوب العام للوالد ، ويمثل قلقه وخوفه من المستقبل ، ويفسر انكباب الوالد بشىء من العنف على الإشراف على إبنه وتربيته . وقد أصبح الولد على درجة كبيرة من الاضطراب العصبى ، وهو يتعثر فى نطقه بشكل مؤلم . وقد تكون هذه الأعراض نتيجة لما شرحناه من موقف الوالد نحو ولده .

وقد تتمركز المخاوف حول صحة الأولاد . ومن أمثلة هذا ، حالة طبيب مات أحد أولاده وكان من أعراضه قبل الوفاة فقدان الشهية . ومن وقت وفاة هذا الولد انحنى الأب على الولد التالى يريد أن يشرف على تغذيته ، ويريد أن يعطيه المقويات بأنواعها ، ويريد أن يمنعه من اللعب خوف الإجهاد إلى غير ذلك . كل هذا يقوم به الوالد ، وعليه علامات القلق الشديد . وكانت نتيجة هذا أن الولد على الرغم من أنه كان عادياً جداً فى المدرسة ، كان شديد الحساسية شديد التأثر مضطرباً أمام والده فى أية جهة كان . هذه كانت حالة الولد من عامين ثم اعترتها تغيرات أخرى كان لحلول دور المراهقة بعض الأثر فى ظهورها .

وحالة أخرى لغلام يتعثر كثيراً فى نطقه ، وينام مع أمه فى سرير واحد (مع أنه لامبرر إطلاقا لهذا) إلى سن الثالثة عشرة ، والأم تخاف عليه خوفا شديداً من

خفة الملابس ، وتغير الجو ، وعبور الشارع ، وكثرة المشى ، على الرغم من أنه فى السنة الثانية الثانوية . ولعل سبب هـذا ، أن الوالد كان قد مات بسبب تدرن فى العظام ، وكان قد ترك هـذا الولد ضعيفاً ونحيفاً جداً ، فربطت الأم بين ضعف الولد وسبب وفاة الوالد فركزت همها وقلقها فيه . والولد على الرغم من أنه من المتقدمين جداً فى دراسته ، إلا أنه يتعلثم بشدة ويخاف الظلام ، وهو على درجة كبيرة من الجبن عامة . ونعتقد أن حالة القلق عند الأم انتقلت إلى الإبن عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية ، وأصبح الولد قلقاً على نفسه فاقد الثقة بها .

وبعض الآباء تكاد تنعدم ميولهم ، وأوجه اهتمامهم ، فيصبون طاقتهم كلها على أولادهم يوجهونهم ، ويهتمون بأمورهم ، فيقتلون فيهم النزعات الطبيعية للنمو الحر ، ويتعذر على الأولاد بسبب ذلك أن يتكونوا تكويناً استقلالياً .

جزاءات الآباء

ولكن الآباء يتدخلون على أى حال فى سلوك الأبناء عن طريق الجزاء ، وهو يشمل الثواب والعقاب . فالأطفال يثابون عادة على أعمالهم ، تشجيعاً لهم ، وحثاً لغيرهم . وأنواع الثواب هى الجوائز العادية ، كالنقود ، والحلوى ، واللعب ، والهدايا ؛ والجوائز المعنوية عن طريق إظهار علامات الرضا والاستحسان بالعبارات الطيبة ، أو بسط أسارير الوجه ، أو غير ذلك . ومن أنواع الثواب العفو عن ذنب سابق ، فإذا قام الطفل بعمل طيب ، وكانت له سابقة سيئة ، يصح أن يعفى من العقاب عن هـذه السابقة إثابة له على العمل الطيب .

والقاعدة العامة فى الثواب أنه لا يجوز إثابة الطفل على عمل يجب عليه أداؤه . فهذا النوع من الإثابة يخلق من الطفل شخصاً ماديا ، يتوقع فائدة شخصية مباشرة لكل عمل يقوم به . وإنما يثاب الطفل إذا قام بعمل نافع ليس من الواجب المحتم عليه أن يقوم به . فلا داعى لإثابة الطفل لأنه يتناول الطعام فى المواعيد المقررة ،

ولكن تجوز إثابته إذا أعطى لعبته لطفل آخر عن طيب خاطر ليلعب بها ويردها له وعلى العموم يحسن أن تحل الجوائز المعنوية تدريجياً محل الجوائز المادية . والإثابة المعنوية إذا أجيد تطبيقها تؤدى تدريجياً إلى تكوين الضمير الحى ، وإلى إنماء الشخصية القوية المطمئنة إلى ما تأتيه من الأعمال [١] . ومعنى هذا أن الثواب سواء أكان مادياً أم معنوياً يجب ألا يكون غرضا فى ذاته ، وإنما يعتبر وسيلة ليتعلم الفرد بها قيم السلوك .

وأما العقاب فإنه يتضمن إيلاما . والألم الناتج من العقاب يجب أن يكون أكبر من السرور الحادث من ارتكاب الذنب . ولتوضيح هذا نأخذ مثالا حسابياً غير واقعى ، وهو أنه إذا سرق أحد الناس عشرة قروش ، وعوقب بغرامة قدرها ثمانية قروش ، فلا شك أن من مصلحته المادية على الأقل أن يثابر على السرقة ، لأنها تضمن له ربحاً . وكثير من أطفال المدارس لا يقلعون عن ذنوبهم رغم عقابهم عليها ، إما لأن النشوة التى يحسونها عند ارتكاب الذنب أكثر بكثير من الألم الذى يحسونه من العقاب ، وإما لأن العقاب مرغوب فيه ، لأنه الطريق الوحيد إلى تحقيق البطولة وجذب الانتباه ، وهو الطريق الوحيد لتكوين صلة وثيقة بينه وبين شخص هو يحبه [٢] .

فعلينا أن نتأكد — إن لم يكن من العقاب بد — أن الألم الناتج منه أكبر من السرور المشتق من ارتكاب الذنب . وزيادة على ذلك ، يجب أن يأتى العقاب مباشرة بعد وقوع الذنب . ويرى بعض الآباء وجوب تأجيل العقاب حتى يعطى الطفل فرصة للتحسن . وهذا معقول إلا فى الحالات التى يكون فيها عند الطفل معرفة سابقة بوجه التحريم فى الذنب .

ومن أكبر أخطاء الآباء ، شدة انفعالهم فى أثناء العقاب ، وإيقاعه بصورة انتقامية ، لا بصورة إصلاحية ، وهذا يتسبب عنه كراهية الطفل للوالد الذى يقوم

---

(١) راجع فصل تكامل الشخصية .

(٢) هذا فى رأى فريق من علماء التحليل النفسى هو إحدى طرق نمو الماسوكيه Masochism

عادة بتوقيع العقوبة[١] . ومن الخطأ كذلك تهديد الطفل بعقوبة إذا اقترف ذنباً ما ، ثم عدم تنفيذ العقوبة بعد وقوع الذنب . فهذا يضعف من سلطة الوالد وقد يقلل من قيمة تهديداته وأقواله عامة بعد ذلك فى نظر الطفل . وله تأثير فى شخصية الطفل نفسها فى اتجاه الضعف ، أو فى اتجاه العنف ، لأن مثال القوة الذى يحتذيه الطفل قد ضعف فى نظره .

ويعتمد بعض الآباء والمدرسين على العقوبات البدنيـة ، وهى سهلة التطبيق ، ونتيجتها الظاهرية سريعة . فهى تؤدى فى المنزل والمدرسة إلى نظام ظاهرى شكلى سطحى . وهذا منشأ الخداع والإغراء فيها ، فنتائجها الظاهرية السريعة تخدع الوالد أو المدرس بقيمتها وكفايتها ، وتغريه بوجوب الالتجاء إليها . ويمكننا أن نؤكد أنه ليس بالأمر العسير تربية الأطفال من أول الأمر تربيـة حسنة ، دون الالتجاء إطلاقاً إلى العقوبات البدنية من أى نوع . ويحسن بالآباء والمدرسين أن يعملوا قدر جهدهم على تربية الأولاد دون الالتجاء إلى العقوبة البدنية . ويوقع بعض المدرسين عقوبات بدنية بحجة أن الأطفال يضربون فى البيت ، ولا يمكن تنشئتهم فى المدرسة دون اتباع نفس الطريقة ، وهذا مالا نشجع عليه .

ويطلق على العقوبات غير البدنية العقوبات النفسية ، وكثيراً ماتكون هذه أقسى من البدنية ، لذا ننبه إلى الحرص فى استعمالها . فلا يجوز تذكير الطفل بخطئه وتوبيخه عليه يوماً بعد آخر . فتكرار التوبيخ على عمل مرت عليه مدة طويلة ، يجعل الطفل يمر عادة بمراحل ثلاث : أولاها مرحلة التألم من الشعور بالذنب . وبالتكرار تأتى مرحلة التضايق من التوبيخ والكراهية لمصدر التوبيخ . وبزيادة التكرار تأتى عادة مرحلة ثالثة وهى عدم إعارة التوبيخ أو مصدره أى اهتمام . فالواجب أن يعود الآباء والمدرسون أنفسهم نسيان كل مايتعلق بالذنب ، بعد توقيع العقوبة بمدة قصيرة . فلا يجوز أن يسمح للذنب أن يترك فى نفوسهم أثراً باقياً مستديماً .

---

(١) وتكبت هذه الكراهية عادة ، وتعرف غالباً بمظاهرها غير المباشرة .

وبعض الآباء يتطلبون من أبنائهم الندم والاعتذار بعد توقيع العقاب عليهم مباشرة . ولا يجوز إرغام الطفل على شيء كهذا ففيه إذلال له ، وعدم اعتبار لما يجب إنماؤه فى الأطفال من الشعور بالكرامة وعزة النفس . والقاعدة العامة هى أن يترك الطفل بعد وقوع العقاب عليه مباشرة فلا يناقش ، لأنه يكون إذ ذاك غاضباً . وليس من العدل أن نتوقع منه متابعة مناقشة منطقية وهو فى هذه الحالة النفسية الحادة .

وبلغ من عدم اعتبار الآباء للحالة النفسية عند الأبناء أن رأيت مرة والداً يضرب ابنه ضربا مبرحا ، لأنه أقلق راحته وبكى الولد عند ضربه بصوت مرتفع ، فاستمر الوالد فى ضربه ، طالبا منه عدم البكاء ، وصمم الوالد على الاستمرار فى الضرب حتى يسكت الطفل ، ولكن الولد لا يمكنه إلا أن يبكى وأن يبكى بصوت مرتفع للألم الشديد الذى يحسه من شدة الضرب الواقع عليه . ولما هالنى خروج الأب عن صوابه فى تلك اللحظة وقرب اختناق الإبن من شدة البكاء ، تدخلت بين الوالد وابنه ، وفصلتهما ، وأقنعت الوالد بأنه كان يطلب أمراً مستحيلا .

ويلجأ الآباء أحيانا إلى تهديدات وهمية بالنسبة للطفل ، فيهددونه بأن الله سيعاقبه يوم القيامة [١] ، وسيحرقه فى نار جهنم أو يهددونه « بالحرامى ، أو العسكرى أو بالحبس فى غرفة الفيران ، أو ما شابه ذلك » ولمثل هذه التهديدات نتائج سيئة ، فبعض الأطفال يدركون أنها تهديدات وهمية ، وبهذا تقل قيمة التهديدات وقيمة مصادرها ، وتصبح فى نظرهم مجالا للسخرية . وبعض الأطفال يتأثرون بها فعلا ، وينشأون على شيء غير قليل من الجبن أو الخوف [٢] .

---

(١) يلاحظ أننا قلنا إن هذه التهديدات وهمية بالنسبة للطفل لا بالنسبة للبالغ .

(٢) لم نتعرض هنا لما للعقاب من دلالات سيكلوجية فى الوالد أو المعلم أو صاحب السلطة . فقد يدل العقاب على رغبة لا شعورية فى التعبير عن النزعات الاعتدائية ، وعلى رغبة لا شعورية فى التمتع بارتكاب الذنب الذى يقع ممن يوقع عليه العقاب ، أو على ما يسمى أحياناً الإحساس اللاشعورى بالذنب (Unconscious sense of guilt)

السياسة الثابتة والطاعة

ويجب أن يتذكر الآباء ، وكل من له علاقة بتربية الأطفال ، أن خير طريقة لتربية الأطفال ، هى أن تكون لهم سياسة ثابتة ، ليست على شىء من التذبذب بين رأى وآخر . فإذا أظهرت فى وقت ما أنك لا توافق على سلوك معين ، فلا يجوز أن تظهر فى وقت آخر أنك توافق عليه ، اللهم إلا إذا بينت أسباباً قوية كافية ، تدعم وجوب الاختلاف فى الرأى . إفرض أن طفلا ما صدر منه لفظ ناب فى وقت ما ، فلا يجوز أن تضحك منه ، ثم إذا تكرر منه اللفظ تعاقبه عليه ، بل الواجب أن تفهمه خطأه من أول مرة. وتقدير الطفل لقيم السلوك يتم بسرعة وفى الاتجاه الصحيح ، إذا كان موقف الآباء منه موقفاً ثابتاً غير متغير ، فالسياسة الثابتة الحازمة هى التى تساعد الطفل على سرعة الوصول إلى الحكم الأخلاقى الصحيح . ويحدث أحياناً أن يعاقب الوالد ابنه فإذا بكى الابن ، تأثر الوالد ، وتصل الحالة ببعض الآباء أن يهبط الواحد منهم باكياً معتذراً . وهذا النوع من التذبذب والضعف يخلق فى الطفل القلق ، والاضطراب ، وضعف العزيمة ، وعدم القدرة على البت فى بعض المواقف . وهناك كثير من حالات الانهيار العصبى عند الشبان والناشئين ، يرجع سببها الأصلى إلى هذا النوع من الضعف فى الآباء .

ويرى هادفيلد[1] أن الشدة الثابتة خير من اللين مع التذبذب . ولكن خير من هذا وذاك أن يكون هناك حزم وثبات مع عطف معقول . وإذا رجعنا إلى حاجات الطفل نجد أن هذا الرأى يتفق مع ما نعلمه عن حاجة الطفل إلى سلطة ضابطة أو إلى نوع من التوجيه . ولو أن لديه فى الوقت نفسه حاجة إلى الحرية ، وحاجة إلى العطف يجب مراعاتهما .

ونشير هنا إلى أن السياسة الثابتة تسهل على الطفل طاعة السلطة . وعلى الآباء

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور هادفيلد لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣

ألا ينظروا إلى الطاعة كغرض فى ذاتها . فإذا هم فعلوا ذلك ، فإنما يطلبون من الصغار الخضوع لهم لمجرد الخضوع ، ليشبعوا فى أنفسهم ميلا خفياً إلى السيطرة قد يكون ناشئاً من نقص مكبوت . وجرت العادة قديماً أن يسمى الناس الطفل الذى يجلس هادئاً ، منكمشاً ، خاضعاً بأنه حسن الخلق . وأما الطفل النشط ، الكثير الكلام ، الدائم الحركة ، فجرت العادة أن يسموه جامحاً ، وقحاً . ولكننا اليوم قد نسمى الأول جباناً ضعيفاً . وأما الثانى فقد نسميه جريئاً قوياً على أن نتريث فى الحكم فى كلتا الحالتين .

والذين يستعملون قوتهم وسلطانهم ليضمنوا طاعة أولادهم ، وخضوعهم ، يشبعون كما قلنا حب القوة والسلطان فى نفوسهم . ولكنهم يضحون فى سبيل ذلك بالحب وتبادل العطف والثقة التى يجب أن توجد بين الآباء والأبناء ، وقد يضحون تبعاً لذلك بقوة الشخصية فى أبنائهم .

وليس معنى هذا أننا نشجع التمرد بدل الطاعة . فالطاعة مرحلة يجب أن يمر فيها الطفل ، ويجب أن يخرج منها بعد ذلك مستقلا فى رأيه وعمله . فالطاعة هى انقياد الطفل للكبير ليسترشد به فى الفكر والعمل ، حتى يكبر ويصبح قادراً على الاستقلال بنفسه فيهما . إذا فهمنا الطاعة على هذا الأساس أدركنا أنها طريق لغاية أخرى فى صالح الطفل ، وليست غاية فى ذاتها .

الروابط بين الوالدين

وللروابط بين الوالدين أهمية خاصة فى تكوين الأبناء ، فتعاون الوالدين واتفاقهما والاحتفاظ بكيان الأسرة ، يخلق جواً هادئاً ينشأ فيه الطفل نشوءاً متزناً . وهذا الاتزان العائلى يترتب عليه غالباً إعطاء الطفل ثقة فى نفسه وثقة فى العالم الذى يتعامل معه بعد ذلك . ودراستنا لما يزيد عن ثلاثمائة حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين تبين أن ٧٥٪ تقريباً من الحالات يرجع فيها الإجرام والتشرد

رجوعاً مباشراً إلى انهيار صرح الأسرة ، مما يمكن أن يدل على أن تماسك كيان الأسرة له أثره القوى المباشر فى سلوك الأبناء .

ومن دواعى تفكك روابط الأسرة مشاجرات الوالدين ، واختلافهما . وربما كان هذا راجعاً إلى سوء الحالة الاقتصادية ، أو الاختلاف على طرق تربية الأبناء ، أو سوء سلوك أحد الوالدين أو غير ذلك مما يضطر الطفل إلى الانحياز إلى أحد الوالدين ضد الآخر ، ومما يجعل جو المنزل أحياناً جواً ثقيلا لا يطاق ، فيهرب منه الطفل إلى الشارع حيث يحتمل أن يبدأ سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه . وإن لم يتمكن من الهرب إلى الشارع ، ففى أحلام اليقظة متسع لفراره من الواقع . وأحياناً يصب أحد الوالدين جام غضبه مباشرة على الطفل نفسه ، وكل هذا يقلل من ثقة الولد فى قوة الكيان العائلى ، ويحتمل بالتالى أن يقلل ثقته فى نفسه ، وأن يجعل ثقته معدومة فيمن يتصل بهم فى الحياة بعد ذلك .

وقد يحدث التفكك بسبب وفاة الأب ، أو وفاة الأم ، أو وفاتهما معاً . وقد تظهر للولد زوجة أب ، أو زوج أم ، أو إخوة غير أشقاء . وقد يحدث التفكك عن طريق الطلاق أو الانفصالات المؤقتة أوالدائمة ، واضطرار الوالدين للعمل خارج المنزل لكسب العيش أو غير ذلك .

وتختلف درجة متانة الروابط بين الوالدين اختلافات واسعة النطاق جداً . ويمكننا أن نقول إنه كلما قلت هـذه الاختلافات ، زاد فى العادة احتمال صلاحية الجو العائلى لتربية الأطفال تربية صالحة . وتوافق الوالدين أو اختلافهما يتوقف إلى حد كبير على عوامل قد تكون ظاهرة ، وكثيراً ما تخفى على الوالدين نفسيهما ، كما يحدث بسبب عدم التوافق فى العلاقات الجنسية . وهذا مبحث طويل لامجال للدخول فيه هنا .

المراجع

A. Adler: Guiding the Child.

A.S. Neill: The Problem Child.

A.S. Neill: The Problem Parent.

C. Burt: The Young Delinquent.

C.W. Valentine: The Difficult Child and the Problem of Discipline.

D. Thom: Everyday Problem of the Everyday Child.

Foster & Anderson: The Young Child and his Parents.

F. Howard: Mental Health.

Groves & Blanchard: Introduction to Mental Hygiene.

J.C. Flugel: The Psycho-Analytic Study of the Family

Kanner: Child Psychiatry.

R. Cattell: Crooked Personalities.

S. Gruenberg: Parent Education.

S. Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Sayles: The Problem Child at Home.

Shaffer: The Psychology of adjustment.

White: The Mental Hygiene of Childhood

الفصل العاشر

الطفل و إخوته

مركز الطفل بين إخوته

والمجال الذى يعيش فيه الطفل يتدخل فى تكوينه عامل هام وهو الإخوة ، ومركز الطفل منهم ، وما يترتب أحياناً على هذا المركز من اتجاه الوالدين اتجاهات تختلف من طفل إلى آخر . فمجموع العلاقات الموجودة فى مجال حياة الطفل تتأثر بكون الطفل هو الأول ، أو الثانى ، أو الأخير وتتأثر بعدد الأولاد إن كان كثيراً أو قليلا . وتتأثر بكون الطفل هو الذكر الأول مثلا وبعده عدد من الاناث ، أو بأنه الذكر الأول بعد عدة بنات ؛ أى أنها تتأثر بالمركز الناشىء عن جنسه وجنس من قبله ومن بعده . وتتأثر كذلك بما يحدث بين الإخوة من وفيات ؛ فقد يجىء الطفل بعد عدة وفيات أو قد يجىء بعده عدة وفيات . وتتأثر كذلك بالفترات الواقعة بين الإخوة ، وتتأثر بالكثير من أمثال هذه التشكيلات .

والتشكيلة العامة للأسرة ومركز الطفل فيها عامل مهم يتدخل فى توجيه تكوين الطفل ولو أنه بالطبع ليس العامل الوحيد فى ذلك . و يرجع الفضل فى اهتمام علماء النفس بمركز الطفل فى الأسرة كعامل هام فى تشكيل شخصيته إلى ألفرد آدلر (Adler) وأتباعه[1] .

الطفل الأول والثانى

لنأخذ الطفل الأول ، وهو الغالب فى حالات العيادات السيكلوجية . يأتى الطفل الأول وليس فى الأسرة غالباً سوى والديه ، وفى العادة يجيبان كل مطالبه ، ويوجهان

(١) Adler: Understanding Human Nature.

إليه كل حبهما واهتمامهما ، أو قلقهما ، أو غير ذلك من الاتجاهات . بهذا قد ينشأ الطفل كما لو كانت عنده الفكرة أنه فى هذا العالم يأخذ ولا يعطى . وفى كثير من الأحيان تمر فترة طويلة أو قصيرة ، ويأتى بعدها للأسرة طفل آخر ، فيحتل الطفل الثانى ، ولو بصورة جزئية ، مركزاً كان يحتله الأول . وهذا قد يهز فى نفس الطفل الأول كثيراً من ثقته فى نفسه ، وكثيراً من ثقته فيمن حوله . وبهذا تنشأ الغيرة بأعراضها المختلفة المعروفة ، وينمو الطفل فى كثير من الأحيان شديد الأنانية ، شديد العناد ، كثير التحدى لمن حوله صغاراً وكباراً . وإذا حدث أن والدين أنجبا عدداً من الأطفال ، ثم مضت فترة طويلة مدتها سبع سنوات أو ثمان مثلا ، ثم أخذا ينجبان بعد ذلك ، فإن الطفل الجديد فى هذه الحالة قد يكون شبيهاً إلى حد كبير بالطفل الأول كما وصفنا .

ونلاحظ فى أحيان كثيرة أيضاً أن الطفل الثانى من ناحية السلوك أصلب عوداً وأقوى بأساً من الطفل الأول . ولعل سبب ذلك هو أن الطفل الأول عندما يولد وتنشأ له مشكلة ما ، فان الطرف الثانى فى المشكلة يكون عادة أحد الوالدين . وشتان بين مقدرته ومقدرة والديه . وهذا الفرق الكبير قد يحدث عنده اليأس . وكثيراً ما يحدث أن يتبع الطفل الأول طرق اللف والدوران والمداهنة والمكر حتى يحل مشكلته . يأتى الطفل الثانى وكثيراً ما يكون الطفل الأول طرفاً ثانياً فى مشكلاته والفرق بينهما قليل ، فيحاول التغلب عليه ، وكثيراً ما ينجح بالصياح وما شابه ذلك خصوصاً إذا تدخل الوالدان فانهما ينصحان الكبير بالتسامح والاستسلام والتنازل لأنه أكبر ، ويترتب عادة على هذا أن يكون الطفل الأول أقل صلابة فى إرادته وتمسكا برغباته من الطفل الثانى . ولذلك كثيراً ما تجد الطفل الثانى أكثر نجاحا فى الحياة من الطفل الأول .

وعلى سبيل المثال نذكر حالة أخوين من حالات محكمة الاحداث . اتهمهما أبوهما بالمروق ، وطردهما من منزله ، وكانا يبيتان طول الليل تحت المقاعد فى ميدان من ميادين القاهرة . واتضح بالبحث أن الولدين هما الذكر الأول والذكر الثانى فى الأسرة . أما

الذكر الأول فقد اتضح أنه كثير السرقة ، وأن الذى كان يغريه بها هو الطفل الثانى الأصغر منه ، وكان هذا عنيفاً كثير الاعتداء على غيره بالضرب ، كثير الهروب ويخطف من الناس أكثر مما يسرق . وعند محاولتنا توجيه الولدين كنا نجد استسلاماً وقبولا من الطفل الأول ، ونجد مقاومة عنيفة من الطفل الثانى .

وحالتان أخريان من حالات العيادة إحداهما الطفل الأول فى الأسرة ، وثانيهما أخوه الذى يليه فى الترتيب . وكان الأول يتعثر فى النطق ، وهذا من مظاهر ضعف الثقة بالنفس ، وكان يميل إلى النقد والتهكم ، خصوصاً مع من هم أقل منه . وكان الثانى ميالا إلى العناد ، والتخريب ، والمقاومة ، وكان يعذب الحيوان ، و بلغ به الأمر أن إحدى هواياته كانت أنه يمسك (بالسحالى) ويفتح فم (السحلية) ويمسك بفكيها ثم يشدهما إلى أن تتمزق (السحلية) نصفين . وكان مغرماً بتمزيق الحيوان والحشرات الصغيرة وهى حية . وقد قام مرة بإشعال النار فى ورقة كبيرة كانت مفروشة على مائدة المطبخ تحت المواقد (الوابورات) . وقام مرة أخرى بتقطيع بعض الأحبال الرئيسية فى خيام معسكر من المعسكرات التى أخذ إليها . كل هذا ولم يكن قد وصل إلى السابعة من عمره ، وكان أخوه كما يتضح مضاداً له فى خلقه وسلوكه .

ويحدث فى أحيان كثيرة — كما قلنا — أن يعامل الطفل الأول على أنه كبير مكتمل النمو ، وأما الثانى والأخير بنوع خاص فإنه يعامل على أنه فرد صغير . وقد يلاحظ بعض الآباء أن طفلهما الثانى والأخير مثلا فى سن الخامسة يكون أصغر فى أساليبه من طفلهما الأول عندما كان فى هذه السن. ومن دراسات شارلوت بولر[1] ما قامت به من درس حالات عادية ، منها أن بنتاً فى سن العاشرة لها أخت عمرها ست سنوات ، وكانتا تنتميان إلى أسرة متوسطة الحال تعيش فى ڤينا . وكانت الأخت الكبرى قاسية فى معاملتها لأختها إلى حد بعيد ، فإذا انفردتا معا فإن الكبرى تؤنب الصغرى وتؤذيها وتقسو عليها ، على الرغم من طاعة الصغرى للكبرى ومحبتها لها .

(١) من محاضرات الدكتورة شارلوت بولر على طلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣

وبالبحث وجد أن سبب ذلك هو أن حالة الأسرة لم تكن تسمح بوجود خادمة ، وكانت الأم تقوم بطبيعة الحال بكل عمل المنزل ، وكانت لهذا مرهقة جداً . فما كادت بنتها الأولى تكبر حتى أشركتها فى عمل المنزل ، وحرّمت عليها اللعب ، وهى مازالت بعد فى دور طفولتها . أما الصغرى فقد سمحت لها الأم أن تظل طفلة تلعب وتمرح كما تشاء ، وكانت الكبرى على ما يظهر تحسد الصغرى على ما هى فيه من نعمة ، وتتمنى لو استطاعت أن تكون مثلها . وكانت الأم لا تعلم بالطبع ما يدور بخلد بنتها الكبرى ، بل كانت تعتقد أن الكبرى لم تعد طفلة بعد . فكانت الكبرى تنتهز الفرص لتسيطر على أختها كما تسيطر أمها عليها ، وبذلك تثأر لنفسها من أمها فى شخص أختها الصغرى .

الطفل الأخير

تبين هذه الحالات أغلب الاحتمالات فى نوع شخصية الطفل الأول والطفل الثانى . أما الطفل الأخير فإنه يشعر بأنه أقل قوة وأقل نمواً وأقل قدرة على التمتع بالحرية والثقة ممن هم أكبر منه . وزيادة على ذلك فإن الوالدين يعاملانه عادة على أنه طفل ، ولو لمدة أطول من المدة التى عومل فيها من أتى قبله على أنه كذلك . ولذلك فهو ينشأ مدللا شاعراً بنقصه . وقد يترتب على هذا إما تعويض ناجح لهذا الشعور بالنقص أو تعويض غير ناجح . ولهذا فإنا نجد أن عدداً كبيراً من الحالات بينها الطفل الأخير .

الطفل الوحيد

ويشبه الطفل الأخير إلى حد كبير الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد . فالطفل الوحيد يحاط برعاية أكبر بكثير من حاجته . ولا يختلط بمن فى سنه اختلاطاً يؤدى إلى احتكاكه معهم فى المصالح على قدم المساواة احتكاكا كافياً يؤدى إلى صقله وتعويده العطاء كما تعود الأخذ . لذلك ينشأ الطفل الوحيد غالباً مؤمناً حق الايمان بحقوقه ، ولكن لا يشعر كثيراً بواجباته . وينشأ بسبب هذا غير قادر على التعامل الناجح فى الحياة . أما الطفل الشبيه بالوحيد فهو الطفل الذى يعيش مدة طويلة

منفرداً بمركز ممتاز جداً فى الأسرة . وهذا يحدث فى حالة طول الفترات الواقعة بين طفل وآخر ، وقد تكون الفترة طويلة بالطبيعة أو بالقصد أو بسبب الوفيات بين طفل وآخر .

وهذه الفترة تعطى الطفل مجالا للتمتع بما يتمتع به الطفل الوحيد عادة من رعاية زائدة وتدليل . ويشبه الطفل الوحيد كذلك الأنثى الوحيدة مع عدد من الذكور ، أو الذكر الوحيد مع عدد من الإناث ، ولو أن حظ الذكر الوحيد أعلى عادة من حظ الأنثى الوحيدة .

والتفضيل الواضح فى معاملة الذكور على معاملة الإناث يترتب عليه كثيراً نقمة البنت على أخيها نقمة تكبتها فى العادة . وهذا يفسر مبالغة البنت فى حبها لأخيها ، ونقمتها على الطبيعة التى جعلت منها امرأة . ويفسر كثيراً مما يقع من الصعوبات التى تنشأ فى الحياة الزوجية ، ويفسر كثيراً جداً من المظاهر الأخرى التى لا يتسع لها هذا المقام .

لنأخذ مثالا حالة سيدة كانت تميل إلى السيطرة على زوجها حتى كانت لا تسمح له بالبت فى أموره الخاصة . وبلغ بها الأمر أنها كانت تحزن حزناً شديداً إذا خالفها فى أمر ما . وتفاقم معها الحال ولم تر بداً من استشارة إخصائى . وببحث حالتها اتضح أنها كانت محبوبة فى صغرها . ثم ولد لها أخ ، وكانت معاملة الوالدين له أحسن بكثير جداً من معاملتهما لها ، أى أن الولد اغتصب مكانتها . وفى أثناء دراستها ذكرت بعض أحلامها ، وكان منها أنها رأت فى بعضها أنها كانت تكلم زوجها ، فلما اقتربت منه وجدت أنه امرأة . وبذلك حققت فى الحلم رغبة كانت مكبوتة فى نفسها ، وهى الرغبة فى التخلص من جميع الرجال حتى زوجها ، الذى تخلصت منه بأن حولته إلى امرأة .

دراسة حالات

ولتدعيم ما تقدم فى هذا الفصل وفى الفصل السابق له ، رأينا أن نعرض ملخصاً لبعض حالات العيادة السيكولوجية بمعهد التربية ، مشيرين فى كل حالة إلى نوع

الشكوى ، و إلى مركز الحالة فى الأسرة ، و إلى ملخص مختصر عن الوالدين ومعاملتهما وموقفهما ، وحذفنا من حالات العيادة كل حالات الضعف العقلى ، وحالات التأخر الدراسى المسبب من غباء طبيعى ، والحالات المسببة أعراضها من عوامل جسمانية كالزوائد الأنفية أو تضخم اللوز أو الديدان أو ما شابه ذلك . ولم نشر كذلك إلى الحالات التى لم تتم دراستها لعدم تعاون الوالدين ، خصوصاً بعد كشفهما أن الاستفادة من التوجيه يتطلب وقتاً وصبراً ، ويتطلب منهما تغيير ما تعودا أن يعاملا به أطفالهما وهذا ليس عادة بالأمر السهل .

رقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
١	ذكر	١٤	متأخر فى الحساب ولا يميل للألعاب ، قليل الثقة بنفسه .	الأخير	حازمان ومهتمان بصالح أولادهما .
٢	ذكر	٩	إغراق فى أحلام اليقظة ، إهمال ، تأخر دراسى رغم أن ذكاءه فوق المتوسط	الأول بعد خمس وفيات وبعده بنت	الأم ضعيفة ، كثيرة المرض والأب رجل محافظ يهتم بأولاده .
٣	ذكر	١٤	كذب ، تبول ، تأخر دراسى .	الثالث	عاديان إلا أن الوالد كثير التبكيت لأولاده .
٤	ذكر	١٠	تأخر دراسى على الرغم من ذكائه .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات	الأم ضعيفة جداً ، والأب مريض ، والولد مدلل منهما ومن خالته وجدته لأمه .
٥	ذكر	١٦	تمرد وعصيان وتأخر دراسى .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات.	الأم تستعمل مع أولادها الشدة ، وأغلب وقتها تنضيه خارج المنزل . الأب توفى وعمر الولد ست سنوات بعد أن دلله تدليلا شديداً

رقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					وقام فى حياته بوظيفة الأب والأم فى العناية بأولاده .
٦	ذكر	١٢	تغير من نشاط إلى خمول وأصبح أميل إلى الوحدة والاعتكاف .	الذكر الأخير (الخامس)	تدهور تدريجى شديد فى موارد الأسرة نقلها من مستوى فى المعيشة إلى مستوى آخر أحط منه بكثير ، أصبح الوالدان لهذا متوترى الأعصاب . الأب عنيف جداً ، الأم تحمى أولادها منه ، الولد مدلل .
٧	ذكر	١٢	تأخر دراسى رغم علو ذكائه ، صعوبة فى النطق وميل إلى التفاخر .	الذكر الأخير بعد بنتين	الوالد مشغول جداً ، ولكنه هادىء ، الأم قلقة جداً على الولد ، وتحوطه بأنواع الرعاية القلقة .
٨	ذكر	١٣	كذب .	الثانى وقبله بنت ، أى أنه الذكر الأول فى الأسرة .	الوالد عصبى غيور جداً محترم للغاية . قاس جداً يضرب أولاده إلى أن يصلوا إلى حالة قريبة من الإغماء ، يحرم على ابنه مصادقة زملائه . الأم ضعيفة تنفذ فقط أوامر الأب وتتستر أحياناً على الأولاد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٩	ذكر	٧	تبول لا إرادى ، وعناد	الخامس	نفس الوالدين السابقين .
١٠	ذكر	٨	عناد وتبول .	الثانى بعد بنت وبعده ولدان أى أنه الذكر الأول	الأم ضعيفة ، والوالد يعوض هذا بفرض إشرافه على الأولاد على الرغم من كثرة أعماله ، ويبالغ فى دقة هذا الإشراف .
١١	أنثى	١٤	عصيان ، وانقباض ، ومشاكسة .	الأولى	الأب شديد جداً . يضرب بنته ويهددها بالإرسال إلى مستشفى المجاذيب . الأم ضعيفة وعصبية ، تثور وتضرب الأولاد ، تبكى ضعفاً أمامهم .
١٢	ذكر	١١	مشاكسة ، وصعوبة فى النطق .	الأول والوحيد تقريباً إذ أن له أخت غير شقيقة	الأب متوفى . زوج الأم لاسلطة له . الام شديدة جداً فى معاملتها .
١٣	ذكر	٦	عصبية . لعب مستمر تقريبا فى أعضائه التناسلية عنيد قليل التركيز كثير الحركة كثير المشاغبة .	العاشر من اثنى عشر بين بنين وبنات	الوالد متوفى . الأم ضعيفة تخشى سطوة الولد وتجيب له كل طلباته .
١٤	ذكر	١٣	تبول لا إرادى ، وخمول دراسى .	الأخير	ماتت والدته — مات والده وقتل أخوه الأكبر ويعيش مع بعض أقاربه الذين يطمعون فى ثروته الضخمة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
١٥	أنثى	١٠	العناد — الكذب — الغيرة وشدة الحساسية — بذاءة اللسان .	الأخيرة	الأم عصبية جداً وتأتيها نوبات . الوالد يهتم بأولاده ودلل البنت أول الأمر ، والآن يقسو عليها .
١٦	ذكر	١١	تأخر دراسى — يميل إلى الأنوثة أكثر منه للرجولة .	الأخير	كان مدللا جداً من والدته وتوفيت ثم توفى والده الذى كان على درجة كبيرة من التعلق به . وقد أخذ بالشدة بعد وفاتهما .
١٧	ذكر	٢٢	تشتت انتباه — قلق — ضعف عام .	الوحيد	تزوج والده بغير أمه ، ثم تزوجت أمه بغير أبيه ، وأصبح الولد تقريباً بلا ملجأ من زمن غير قصير .
١٨	ذكر	١١	تهتهة . يعض جلد أصابعه وشفتيه .	الثانى بين بنتين أى أنه الذكر الأول والوحيد .	الوالد والوالدة فى شجار وخلاف مستمرين ، مما أدى إلى انفصالهما بالطلاق وكان الأولاد يستعملون للتنكيل بأبيهم .
١٩	ذكر	١٥	صعوبة فى النطق .	الوحيد وله أخت غير شقيقة	الوالدة طلقت وهى حامل به وهى عصبية كثيرة التشكك والغيرة ، مضطربة فى أحوالها ، الأب هادىء وزوجة الأب هادئة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٠	ذكر	٩	تأخر دراسى — عناد — كذب — تمنع عن بعض المأكولات .	الثالث وبعده وفاة ثم بنت ثم ولد أى أنه ظل الذكر الأخير مدة طويلة .	الأم لينة — مرهقة — الأب فى المعاش — مريض بأمراض الشيخوخة كالسكر وضغط الدم . تتردد المعاملة بين الشدة والتدليل والتراخى .
٢١	أنثى	٦٫٥	غيرة — حساسية — تشتت فى الانتباه — أحلام مزعجة عن أخيها بصوت مرتفع .	الأولى والوحيدة لمدة خمس سنوات جاء بعدها ولد اغتصب المركز الممتاز الذى اعتادته مدة طويلة .	الأب هادىء يدلل البنت ، الأم ضعيفة . عصبية تترك أغلب عنايتها بالأولاد للأب .
٢٢	ذكر	٧٫٥	شدة الخجل — بطء فى الإجابة — ميل إلى الوحدة والتلهى بعمل يدوى فردى .	الأول وبعده بنتان .	الأم مرهقة — كثيرة الوساوس على صحة أولادها دللت الولد تدليلا شديداً . الأب كثير المشاغل .
٢٣	ذكر	٢٣	وساوس — إنصراف عن العمل .	الثانى وبعده أخت أى أنه الذكر الأخير	عاديان فى الظاهر .
٢٤	ذكر	١٣	تأخر دراسى — خجل شديد .	الرابع والأخير	الأم لينة — محافظة — الأب محافظ ، شديد — يميل إلى الانزواء .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٥	ذكر	١٢	تأخر دراسى — خجل .	الأول — بعده أختان أى أنه الذكر الأول والوحيد	الوالد ضعيف — والوالدة ضعيفة ويسيطر عليهما وعلى الولد الاخوال وهم كبار السن غير متزوجين . الوالدان مشغولان بالأمراض التى تجعل جو المنزل قاتماً جداً .
٢٦	ذكر	١٠	تهتهة شديدة جداً .	الأول وبعده ثلاث بنات	الأم شديدة الخوف كثيرة الوساوس . الأب يستحث ابنه على الاتصاف بصفات الرجولة من الصغر .
٢٧	ذكر	١٠	تهتهة شديدة جداً . ميل إلى النقد والتهكم .	الأول وبعده بنتان وولدان	الأم تحب البنات أكثر من البنين . الأب يدلل أولاده إلى سن معينة ، ثم يشتد عليهم جداً . ويقوم لهم بوظيفة المدرس الخاص ويضربهم ضرباً موجعاً فى أثناء ذلك . شديد الحث لأولاده . هذا كله على الرغم من شدة انشغاله بأعماله الخاصة .
٢٨	ذكر	٧	عناد . تخريب . تعذيب للحيوان . ميل للشر عامة .		

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٩	ذكر	١١½	تهتهة . مشاكسة .	الأول وبعده بنتان	الوالد قاس جداً مع ابنه (كان أبوه من قبل قاسياً معه) . يعطيه دروساً خصوصية يتخللها الضرب . الأم تضرب أولادها ومع ذلك فهم لا يخشونها .
٣٠	ذكر	٧	تبول لا إرادى — عناد .	الأول وبعده بنت	الوالد توفى بعد أن دلل الولد ٤ سنوات تدليلا شديداً ، الأم تميل للبنت وتضرب الولد ، وشغلت بعد وفاة زوجها بزوج آخر .
٣١	ذكر	١١	سرقة — كذب .	الاخير بعد بنتين وولد	الأب شديد وأنانى وهو الكل فى الكل فى المنزل ، الأم ضعيفة ، ومسالمة ، حريصة للغاية .
٣٢	ذكر	٩,٥	التأخر الدراسى — الخمول — الخجل — الكذب — الغيرة — العناد — الجبن — التأفف من الطعام .	الثانى بعد بنت وبعده بنت	الأم كثيرة النقد والموازنة بين أولادها وأولاد غيرها تعطف علناً على البنات دون الولد . الوالد عادى ولو أن معاملته لأولاده تتذبذب بين الشدة واللين .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٣٣	ذكر	٨	عنيد — عنيف — له حركات عصبية — مخرب — قاس مع أخوته والخدم .	الأول وبعده ولدان	الوالدان قلقان ، وليس لهما ميول سوى الاهتمام بالأولاد ، وهذا القلق أشد فى الوالد منه فى الوالدة معاملتهما غير ثابتة .
٣٤	ذكر	١١½	تأخر دراسى على الرغم من ذكائه . عناد ، وعصيان ، وإهمال ، وزيادة مطردة فى الوزن	الولد الوحيد وجاء بعد ولد مات فى حادث ترام .	يتدخل الوالد فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الولد ، الوالد عصبى يعتريه انقباض ، الأم مريضة تخالف زوجها فى معاملته ابنها . كل منهما يعتقد أن الآخر سبب فساد الولد .
٣٥	ذكر	١٠	كذب ـ عسر ـ سرحان تأخر دراسى — سوء معاملة للمدرسين والخدم	الولد الأول وبعده بنت وولد .	الأب شديد التضييق على ابنه وعلى نفسه ، يقضى يومه كله فى المنزل ليشرف على مذاكرته . فوق ذلك يوجد مدرس خصوصى . الأم قست على الولد ثم تعامله الآن باللين .
٣٦	أنثى	٧	تبول لا إرادى ـ عناد ـ تخريب — متقلبة فى أحوالها تقلباً شديداً عصبية مشاكسة .	الأولى بعد إجهاض وبعدها ثلاثة أولاد	الأب تزوج مرتين . الجد من ناحية الأب تزوج بأخت زوجة الأب الثانية . هذه لم تلد . أخذت البنت

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					عندها وتعلقت بها حتى أنها لا تقوى على مفارقتها . الأم عصبية وضعيفة . الوالد ضعيف . الخالة تتحكم فى الأب والأم والجد والبنت . تفضل البنت الإقامة مع والديها وإخوتها لتلعب معهم .
٣٧	ذكر	١١	تهتهة شديدة ـ حساسية	الأخير بعد ولد واحد	الأب توفى صغير السن بسل العظام. الأم قلقة جداً . وتصب اهتمامها كله عليه دون أخيه .
٣٨	ذكر	٧	تهتهة ـ تبول لا إرادى ـ يخاف الظلام ـ عصبى	الخامس من بين ٧ ذكور وإناث .	الأم تكثر من عقاب الأولاد وشكايتهم للوالد . ضعيفة لينة فى كثير من الأحيان الأخرى ، مرهقة ، الأب عصبى ، يتهته ، يهمه جداً تعليم أولاده على الرغم من ضيق ذات يده .
٣٩	ذكر	٨	التأخر الدراسى . العناد العنف . غير محبوب من زملائه	الأخير بعد ولدين والفترة بين كل ولد	الوالد توفى وكان يدلل هذا الولد كثيراً . الوالدة عصبية وضعيفة . إخوة الولد

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
				والآخر تزيد على خمس سنوات	قسوا عليه بغاية الشدة بعد وفاة الأب الذى كان يدلله .
٤٠	ذكر	٥ر٥	تأخر دراسى . تبول لا إرادى . تشتت انتباه	الأخير بعد بنتين .	الوالد عصبى . قلق على أولاده ، بخلاف الام .
٤١	ذكر	١٠ ١/٢	عناد . عصبية . تأخر دراسى .	الرابع من سبعة بين بنين وبنات ولكنه الذكر الأول .	الوالد كان ليناً مع ابنه إلى أن رسب مرة فانقلب الوالد دفعة واحدة عليه وعامله بالشدة والضرب . الأم ضعيفة أمام الولد . الولد سيد المنزل إذا غاب الوالد عنه .
٤٢	ذكر	١٢	تهتهة .	الثانى بعد بنت أى أنه الذكر الأول وبعده ولدان .	الأب مهمل لأسرته . الأم ترى أن زواجها فاشل . والأب نفسه يتهته قليلا .
٤٣	ذكر	١٠	تأخر دراسى . تبول .	الأخير من سبعة بينهم خمس بنات .	الوالدان عاديان إلا أنهما يعطيان المنزل جواً جاداً لا مجال فيه للعب الأطفال وهرجهم ومرحهم .
٤٤	ذكر	١٠	خمول . تأخر دراسى رغم ارتفاع الذكاء .	الوحيد .	الوالدة عادية لكن الوالد لين وضعيف وقلق . ويميل إلى شدة تدليل الولد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٤٥	ذكر	٩	تأخر دراسى . مع ميل للعزلة والسرحان . تبول خوف من الظلام ومن الكبار عامة .	الأول .	الوالدان يعامل كل منهما الآخر بغير تسامح . قلقان من ناحية الولد . ويكلفانه دائماً فوق طاقته
٤٦	ذكر	١٠½	تهتهة .	الوحيد .	الأم تدلل الولد ، والوالد شديد جداً عليه ، ويضربه ويحرمه من مخالطة الآخرين
٤٧	أنثى	١١	ضعف شديد مفاجىء فى الإبصار وصداع شديد مفاجىء . حساسية وسرعة بكاء .	الأولى بعد إجهاضين وبعدها وفاة ثم ولد وبنت	الوالدان يخافان الأمراض خوفاً غير عادى ويعاملان أولادهما معاملة حسنة إلا أن الأب مشغول جداً والاتجاه العام يرمى إلى التحيز لبقية الأولاد دونها
٤٨	ذكر	١٩	نوبات عصبية . تمرد	الأخير .	الأم مطلقة . ويعيش الولد مع أبيه وزوج أبيه ويشعر أنه ضيف ثقيل عليهما . الجفاء مستحكم بينه وبين الوالد .
٤٩	ذكر	١١	عناد وهروب من المنزل	الأول وبعده بنت واحدة	الأم مسيطرة على جو المنزل وتميل للبنت جداً على حين تكره الولد كرهاً ظاهراً . الوالد كثير النقد للولد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					مشغول جداً وأعصابه مرهقة . الأم أوربية والوالد مصرى .
٥٠	ذكر	١٨	تمرد . عناد . عدم رغبة فى التعليم . اعتداء لاغتصاب مال . تهديد بالقتل حق لوالده .	الوحيد .	الأم متوفاة وهى أوربية الأصل . كانت مريضة طول حياتها تقريباً . الأب رجل ضعيف جداً مع ابنه ، ومعجب إلى درجة كبيرة بذكائه وجماله وخفة روحه .
٥١	ذكر	١٦½	تأخر دراسى ، خمول ميل للأنوثة .	الأول	الأب رجل عادى وأما الأم فإنها متشككة وتفرض إرادتها على المنزل بما فيه الأب إلى حد ما ، وتقضى لأولادها حاجاتهم صغيرها وكبيرها ، لا تزور ولا تزار .
٥٢	ذكر	٩½	تأخر دراسى .	الثالث بعد ولدين بعده بنت وولد .	الأب والأم عاديان إلا أن الأب يضرب أولاده أحياناً وهو عصبى نوعاما .
٥٣	ذكر	١٧½	تهتهة .	الثانى بعد ولد وبعده بنتان	الأم ضعيفة جداً والأب شديد جداً ، كان سيء السلوك واستقام أخيراً عندما أدركته الشيخوخة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٥٤	ذكر	٥½	عصبي . قليل الصبر . يميل للعناد والعصيان .	الأخير بعد ولدين وبنتين توفيت إحداهما وهي التي قبله مباشرة	الأم متعلقة بالطفل تعلقاً شديداً جداً ، ودللته كثيراً بعد وفاة البنت ، الأب رجل متساهل جداً كثير المشاغل .
٥٥	ذكر	٢١½	صعوبة نطق اعترته بعد سن العشرين .	الأول .	جو المنزل قاتم حزين .
٥٦	ذكر	١٤½	تأخر دراسي . كسل . عدم قدرة على التركيز . عنف شره . إهمال . استمناء اجتماع جنسي بالخدم .	الأول وبعده بنتان	دلل الولد تدليلا شديداً من والديه اللذين أشرفا على عمله ودراسته إشرافاً تاماً .
٥٧	ذكر	٢٠½	إهمال للعمل . تضايق . عدم قدرة على ضبط النفس	الأول	هذا هو الأخ الأول لحالة رقم ٥٣
٥٨	ذكر	٩	أحلام يقظة . فقد شهوة الطعام .	الأول بعد وفاة وبعده بنتان .	الأم مرحة ومتساهلة ولكن الأب قلق شديد العناية والاهتمام بابنه بنوع خاص .
٥٩	ذكر	٥½	عناد . عنف . تبول لا إرادي أحياناً . كثرة اللعب في العضو الجنسي لدرجة الإدماء أحياناً .	الوحيد .	الأم انفصلت عن الوالد وهي حامل . الرجل مزواج مستهتر والأم من النوع المحافظ جداً . والولد

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					يسكن مع أمه فى منزل به جده وجدته وأخواله ، والأم مسلوبة السلطة مع ابنها فى هذا الجو .
٦٠	ذكر	١٤	تهتهة من سن الخامسة	الرابع ومجموع الأولاد ثمانية	الرجل رقيق الحال ويشغله كسب العيش عن كل شىء ، يعطف على أولاده . الأم ضعيفة ومرهقة .
٦١	ذكر	١٨	تهتهة .	الأخير .	عاديان ظاهريا .
٦٢	ذكر	١٨	اكتئاب شديد . ضيق صدر . إفراط فى عملية الاستمناء لدرجة ينسى معها عدد مرات ممارستها فى اليوم أحياناً	الثانى بعد ولد وبعده خمس أولاد وبنات	الوالدة توفيت وتزوج الوالد من بعدها . والوالد رجل هادىء مستقيم ويحب أولاده حباً شديداً .
٦٣	ذكر	٢٠	ضيق صدر ، عدم القدرة على المذاكرة . كراهية المنزل .	الخامس بعد ولدين وبنتين وبعده بنت تصغره بست سنوات .	الوالد توفى وكان ميالا للهو المستور ، وبعد وفاته فقط بدأ إخوة الولد يضربونه ، وكان الولد يحب والده . حدث بعد الوفاة تدهور اقتصادى شديد جداً نقل الأسرة من الغنى إلى حالة أقل من المتوسط . الأم سيدة حازمة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٦٤	ذكر	٢٠	إدمان على الاستمناء .	الأخير .	الأب متدين جداً والأم عادية فى الظاهر .
٦٥	ذكر	١٩½	سرعة الغضب . كثرة الصياح .	الثانى وبعده بنتان ثم ولد	الوالد عصبى كثير الغضب والوالدة عادية .
٦٦	ذكر	١٤	سرقة من زملائه بالمدرسة وهرب من المنزل وتأخر دراسى رغم توسط ذكائه .	الأول وبعده بنت .	الوالد شديد التدين غليظ القلب . يخافه كل من فى المنزل بما فى ذلك الأم — الوالد والوالدة يغاران بشدة على الأولاد ويتابعان بعنف مصالحهما المدرسية هذا على الرغم من رتة حالهما إلى درجة كبيرة
٦٧	ذكر	١٤	إهمال النظافة لدرجة تلفت النظر . السرحان التأخر الدراسى .	الأول وبعده ولد .	الأم توفيت . الأب يعنى بالأولاد من ناحية الإنفاق عليهما فقط وليس له بهما صلة أخرى .
٦٨	ذكر	١٢½	سرحان . تأخر دراسى شديد . ضعف جسمى	الأول وبعده خمس بنين وبنات .	الزوج يكبر الزوجة بـ ٢٥ عاما ، تزوج قبل زوجته الحالية وطلقها لأنها لا تنجب أطفالا ، ثم جاء هذا الولد بعد وفاتين ، والوالد يدلله ويقلق لكل صغيرة وكبيرة

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					خاصة به . الرجل شاذ فى تصرفاته ، والأم مشغولة بأولادها .
٦٩	ذكر	١٧	حركات عصبية بالفم .	الثالث بعد بنتين وبعده ولد يصغره بسبع سنوات	الجو المنزلى عادى ، ويشتغل الوالد بالتجارة ، وتربية الأولاد متروكة كلها للأم .
٧٠	ذكر	١٦	اضطراب عصبي .	الأول .	الأم عصبية والوالد عصبي كلاهما شديد التدخل فى حياة الإبن .
٧١	أنثى	١٧	نوبات عصبية . انقباض	الأخيرة .	الأب توفى وكان رجلا متديناً جداً ، والمنزل تشرف عليه الأم والأخوات الكبار وقد مات أخوهم أيضاً .
٧٢	أنثى	١٩	ضيق شديد . بكاء بدون سبب ظاهر . قلق . شعور بالعجز عن مواجهة الحياة	الأولى .	الأم عصبية شديدة ، وتعتقد أن زوجها أقل منها بكثير . الرجل يحاول إرضاءها فى حدود كرامته .
٧٣	ذكر	١٥	تأخر دراسي مع استهتار شديد	الأخير .	من الأثرياء المشغولين .
٧٤	ذكر	١٧½	ضيق صدر . اكتئاب وساوس مع طموح وخيال وذكاء .	الأول بعد وفاة الأول .	الوالد توفى ، وكان عاجزاً من الناحية الجنسية ، بعد حياة مليئة بالمغامرات ، الوالدة سيدة متمسكة .

ولأجل أن يكون لهذا البيان قيمة علمية واضحة ، كان من الواجب أن نقوم بدراسة إحصائية ، إلى جانب دراستنا لهذه الحالات ، لعدد آخر من الحالات العادية المشابهة لها فى الظروف ، حتى تكون هناك مجموعة للحالات ذات المشكلات ، وبجانبها مجموعة مساوية لها من الحالات التى لا مشكلات لها . ولكن لا مانع من أن نعرض نتائجنا إذ أن لها بعض الدلالة . فالطفل الأول ظهر فى مجموع الحالات بنسبة ٣٨ ٪ ، والطفل الأخير ظهر بنسبة ٢٦ ٪ ، والطفل الوحيد ظهر بنسبة ١١ ٪ ، والذكر الوحيد مع عدة أناث ظهر بنسبة ١٨ ٪ ، وأما الأنثى الوحيدة مع ذكور فقد ظهرت بنسبة ٣ ٪ .

يبدو من هذا كله أن مركز الطفل إن كان يعطيه امتيازاً خاصاً فى مجال الأسرة ، فإن هذا الامتياز يحتمل أن يكون أحد العوامل الهامة فى خلق صعوبة تكيف الطفل مع بيئته التكيف المناسب .

وهذه النتائج تتفق مع نتائج دراسات آدلر ، وبعض الأرقام قريبة من أرقام الأستاذ بيرت[1] . فقد وجد بيرت فى دراسته للمجرمين الأحداث أن الطفل الوحيد يظهر فى حالاته بنسبة ١٢ر٢ ٪ ، على حين يظهر فى حالاتنا بنسبة ١١ ٪ ، والنسبتان قريبتان جداً إحداهما من الأخرى . ويظهر الطفل الوحيد فى المجاميع العادية بحسب بحث بيرت بنسبة ١ر٧ ٪ ، ومن ذلك يتضح أن النسبة بين المشكلين والعاديين فى الطفل الوحيد هى ٦ : ١ .

خاتمة

من كل هذا نرى أهمية دراسة مركز الطفل فى مجموعة الأسرة ، حتى نفهم سلوكه ونواحى شذوذه . ويستفيد الآباء من هذه الدراسة فى تحديد سياستهم نحو

(١) C. Burt : The Young Delinquent, p. 64.

أطفالهم ، فيجب أن يعاملوا أطفالهم بحسب مراكزهم ، وبحيث لا يتعرض الطفل لما يتعرض له عادة نتيجة هذا المركز . ويستفيدون كذلك من حيث سياستهم فى إنجاب الأطفال . فهل يكتفى الوالدان بطفل واحد أو بطفلين ، وماذا يكون طول الفترة التى تفصل طفلا عن آخر ؟ هذه كلها أسئلة يسهل الإجابة عنها على ضوء ما تقدم .

المراجع

A. Adler: Guiding the Child.

Adler: Understanding Human Nature.

Adler: Education of Children. Ch. VIII.

C. Burt. The Young Delinquent.

R. Cattell: Crooked Personalities.

J.C. Flugel: The Psycho-Analytic Study of the Family.

Foster & Anderson: The Young Child and His Parents.

Groves & Blanchard: Introduction to Mental Hygiene.

S. Gruenberg: Parent Education.

S. Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

F. Howard: Mental Health.

Kanner: Child Psychiatry.

Murchison: Handbook of Child Psychology.

A.S. Neill: The Problem Child.

A.S. Neill: The Problem Parent.

Sayles: The Problem Child at Home.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

C.W. Valentine: The Difficult Child and the Problem of Discipline.

Wexberg: Individual Psychology.

White: The Mental Hygiene of Childhood.

الفصل الحادى عشر

المدرسة ومشكلات النشء

مقدمة

انتهينا من التكلم عن الطفل فى بيئته المنزلية بمختلف مؤثراتها من والدين وإخوة ، وغيرهم . ولا يكاد الطفل يصل إلى السادسة من عمره حتى يكون قد أرسل إلى المدرسة ، حيث يقوم بقضاء جزء كبير من الوقت للتعلم ، وكسب المهارات بمختلف صنوفها ، ولتكوين الاتجاهات الاجتماعية الضرورية لحسن تكيفه مع البيئة الاجتماعية الكبرى . معنى هذا أنه يضاف إلى المؤثرات المنزلية مؤثرات مدرسية أو تعليمية ، تستمر تؤثر فى الناشىء إلى أن يخرج إلى الحياة . لهذا كانت المدرسة كبيرة الأهمية لخطورة الأغراض التى تعمل لها ولطول مدة تأثيرها . ولهذا كانت تستحق بعض التفصيل فى بحث مؤثراتها فى تكوين النشء .

المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع

من المسائل المعروفة ، أن المدرسة هى تلك البيئة الصناعية ، التى خلقها التطور الاجتماعى ، لكى يمر فيها الطفل ، بحيث يصبح بعد ذلك معداً إعداداً صالحاً للحياة الاجتماعية ، أى أن المدرسة حلقة متوسطة ، يمر فيها الطفل فى دور يقع عادة بين مرحلة الطفولة الأولى التى يقضيها الطفل فى منزله ، ومرحلة اكتمال نموه ، التى يضطلع فيها بمسئولياته فى المجتمع . لهذا وجب أن يكون هناك اتصال وثيق جداً بين الحلقات الثلاث ، وهى المنزل والمدرسة والمجتمع . وواضح أنه لأجل أن ينمو

الطفل نمواً تدريجياً ، متعـدد النواحى ، بحيث يحتفظ باطمئنانه ، بل بحيث يتسع شعوره بالأمن وينمو ، يجب أن يكون هناك تدرج بين هذه البيئات الثلاث ، بحيث يسهل على الطفل الانتقال من واحدة إلى التى تليها . وبطبيعة الحال يجب أن يتحقق التدرج فى النمو العقلى والاجتماعى ، فى داخل البيئة الواحدة . فيراعى على الأقل أن الانتقال يتدرج من البيت إلى المدرسة ، ومن هذه إلى المجتمع ، بحيث يستوفى الطفل حاجاته فى المرحلة التى هو فيها ، مع تذكر البيئة التى سينتقل إليها بعد ذلك . مثال ذلك ، أنه لا يجوز المبالغة فى تدليل الطفل فى المنزل ، وإلا أحس بفقد امتياز التدليل عند انتقاله للمدرسة أو المجتمع . ولا يجوز للمدرسة أن تغفل مثلا إنماء المسئولية الاجتماعية ، أو الولاء الاجتماعى عن طريق الممارسة الشخصية ، لأن عدم الاتصاف بهاتين الصفتين يعرض صاحبهما لصعوبات فى علاقاته مع غيره فى المجتمع . ولا يجوز أن نكيف أساليب تربية الطفل ومعاملته بما يتطلبه الفرد عند اكتمال نموه فحسب ، فنهمل حاجاته وميوله واستعداداته فى المرحلة التى نتناوله فيها بالتربية .

ومعنى ما تقدم أنه يجب أن يتحقق للطفل فى جو المدرسة كثير مما يتحقق له فى جو المنزل الصالح ، من حاجة الطفل لعطف الكبار والأخوة ، وتقديرهم له وشعوره بالانتماء إليهم بصورة تحقق حاجته للشعور بالاطمئنان . ويجب كذلك أن يتحقق له فى المدرسة قسط وافر من الحرية التى يضبطها ويوجهها الإرشاد وإنماء الإحساس بالمسئولية الاجتماعية . وأن يكون النشاط فى المدرسة متعـدد النواحى ، وفى حدود مقدرة الطفل ، بحيث يعطيه فرصة إشباع الحاجة للشعور بالنجاح ولتقدير نفسه تقديراً مرضياً فى نظر نفسه . وبالجملة ، يجب أن يكون جو المدرسة ، بحيث يحقق النمو المتعدد النواحى ، مع شعور الطفل بالاطمئنان شعوراً كاملا بقدر الإمكان .

أما من حيث علاقة المدرسة بالمجتمع ، فيجب أن يكون هناك تدرج فى الصلة بينهما ، فلا يجوز أن تكون هناك فجوة سحيقة ، أو أن يستدعى الانتقال من المدرسة للمجتمع من الناشىء قفزة يتعذر عليه أداؤها . ولأجـل أن يتحقق هذا ، يلزم أن

تكون المدرسة قطعة من المجتمع أو صورة منه ، فيجب أن تكون المادة المستعملة لاستثارة نشاط التلاميذ مستمدة من البيئة المحيطة . وتختار هذه المادة بحيث تؤثر فى التلميذ تأثيراً يجعله قادراً على التكيف للمجتمع . ومع ذلك يجب أن يكون المجتمع المدرسى أكثر صلاحية من المجتمع الخارجى ، وبذلك تصبح المدرسة مركزاً لتخريج الأفراد القادرين ، لا على التكيف للمجتمع فحسب ، بل على النهوض به ورفع مستواه أيضاً . ومن ثم يجب أن نعتبر المدرسة بيئة ، تتغذى بنشاطها من البيئة المحيطة بما فيها من مجتمع ، وتغذى المجتمع بأفراد صالحين للنجاح فيه ، والنهوض به .

نرى مما تقدم أنه يجب أن يراعى فى جو المدرسة استمرار لروح جو البيت الصالح ؛ وعن طريق اتصال الآباء بالمدرسة ، واتصال المعلمين بالمنزل ، يمكن إحداث التعديلات اللازمة لحل الصعوبات البسيطة ، التى تطرأ من آن لآخر . كما يجب أن يراعى فى أن يكون جو المدرسة أنموذجاً صالحاً لجو المجتمع ، أى لا يمثل المجتمع بصورته فحسب ، وإنما يمثله أيضاً بحيث يفضله ، حتى يهيىء من يمرون فيه إلى النهوض بجو المجتمع . وإن لم نراع هذا التدرج فى حياة الطفل بين المنزل والمدرسة والمجتمع ، ولا سيما فى إشباع الحاجات النفسية الأساسية كلها من أمن ، وعطف ، وتقدير ، وحرية مضبوطة موجهة ، ونجاح ؛ فإن الطفل يشعر بصعوبة فى ملاءمة نفسه ملاءمة مقبولة ، وقد ينشأ حينئذ كثير من المشكلات النفسية ومشكلات السلوك المعروفة .

ففى إحدى الحالات نال تلميذ شهادة الدراسة التوجيهية فى سن مبكرة ، ثم دخل إحدى كليات الجامعة ، فهاله التغير الفجائى بين الدراستين . فبعد أن كان تلميذاً فى فرقة عددها خمسة وعشرون ، أصبح يحضر محاضراته فى مدرج ، به أكثر من ثلاثمائة طالب . وبعد أن كان يفهم الدروس درساً درساً وبتؤدة . وتقدم له المادة مهضومة ، وما عليه ألا أن يستوعبها ، أصبح يعطى المحاضرات غير الواضحة ، ويعطى على كل محاضرة عشرات من المراجع ، فيطلب منه أن يعتمد على نفسه فى البحث والإطلاع ، ولم يسبق له أن اعتمد على نفسه قط . وبعد إن كانت الكتب قليلة

العدد ، وكل منها قليل الصفحات ، أصبح يكلف بمطالعة المجلدات الضخمة . وكان فى المدرسة الثانوية يشعر بعلاقة وثيقة بينه وبين مدرسيه ، وفى الكلية لا يوجد شىء من هذه العلاقة ، بل لا أمل له فى تكوينها .

بدأ هذا الطالب يستذكر دروسه ، ولا يفهم أو يحفظ منها شيئاً ، لأنه انتقل من حال كان يطمئن فيها إلى نتيجة جهده ، إلى حال يشعر معها أن جهده لن يوصله إلى نتيجة . فبدأت تظهر عليه أعراض الانصراف عن المذاكرة ، والإكثار من النوم ، ثم ازدادت الأعراض بأن نقص ما يأكله وازداد اعتكافه ، وازداد عدد الساعات التى يصرفها فى مضجعه لا هو بالنائم ، ولا هو باليقظ . وبدأ يشكو الضعف العام . وللولد من تاريخ نموه وظروف حياته ما هيأه لهذه الأعراض . ولكن لعل هذه الأعراض ما كانت لتظهر لولا الانتقال الفجائى من جو مدرسى إلى جو مدرسى آخر يختلف عنه تمام الاختلاف .

وهناك حالات كثيرة جداً من هذا النوع ، تظهر فى مراحل التعليم العالى فى مصر . ويمكن معالجتها أو منع ظهورها بطريقتين : أولاهما — الاستئناس بمطالب المجتمع الخلقية والثقافية والمهنية ، ومحاولة تحقيقها فى دور التعليم . وثانيتها — إرشاد التلميذ إلى مسالك الحياة ، وفرصها ، وظروفها ، وإرشاده حسب استعداده الوراثى والمكتسب لما يصلح له منها . وقد قطعت دور التعليم فى الخارج أشواطاً بعيدة فى هذا الاتجاه .

الغاية من المدرسة وأثر الامتحانات

ومن أهم العوامل التى تلعب دوراً بارزاً فى تكييف جو المدرسة ، الغاية منها فى نظر المشرفين على التعليم . هذه الغاية قد تكون صريحة أو ضمنية ، وقد تتعدد الغايات ، ويكون بعضها صريحاً وبعضها ضمنياً ، وقد يكون بين هذه الغايات تنافر يؤدى إلى الفوضى فى التعليم . ومن الغايات المتفق عليها الإعداد للحياة عن طريق

التعلم أو كسب المعرفة . ويُقصد بهذا كسب نوع من المهارة العقلية يجعل الفرد أقدر على التكيف العقلى مع الحياة ، ويلاحظ أنه لا بد مع عملية كسب المهارة العقلية من وجود نوع من الاختبار لمعرفة مدى استفادة المتعلمين ، ومدى صلاحية أساليب التعليم ، ومناهجه . ومن هنا نشأت الاختبارات ، وكانت النتيجة النهائية لهذه الاختبارات أنها تؤهل المرء لمركز ينظر إليه المجتمع نظرة تقدير واحترام . وبذلك اكتسبت الامتحانات أهمية كبرى ، فصارت هى هدف التلميذ ، والوالد ، وجميع أفراد الهيئة المشرفة على التعليم . وأخذت هذه الحالة صورة بارزة فى مصر ، ولو أن الأذهان قد تنبهت لها أخيراً وأخذت تعمل الآن على معالجتها . وما زالت الامتحانات فى مصر تستعمل سلاحاً يتحكم فى مستقبل المتعلمين ، وكان الواجب أن تكون وسيلة لإرشادهم وتوجيههم .

ومن ثم فقد أصبح هدف المتعلمين هو تحصيل المعرفة بصورة يسهل استعمالها يوم الامتحان . والمدرسون كذلك أصبح هذا هدفهم الذى يهيمن على اتجاه تفكيرهم . فكأن الغرض الضمنى للمدرسة هو تحصيل قدر من المعلومات بصورة يسهل امتحانها بالطرق التى ألفها المعلمون والمتعلمون . لهذا حاول كثير من الآباء دفع أبنائهم دفعاً إلى التعليم على الرغم من صغر سنهم ، أو قلة استعدادهم ، اعتماداً على أن المعلومات يمكن دائماً تبسيطها ، والمثابرة على حفظها ، أو مجرد تعليقها فى الذهن حتى يوم الامتحان .

وقد ترتب على هذا أشياء كثيرة جداً : منها أنه يكفى أن يذهب التلميذ إلى المدرسة ، ويجلس أمام معلمه ، ليستقبل ما يعطى له من معلومات ، وبجانبه تلاميذ آخرون لا تربطه بهم أية علاقة . وليست لديه الحاجة لأن تربطه بهم أية علاقة . والمدرس كذلك أصبح ولا ضرورة لأن تربطه بتلاميذه أية علاقة أكثر من علاقة التلقين . ومن ثم يمكن للتلميذ أن يذهب للمدرسة ، ويجلس هادئاً لا حراك به ، ويفتح حواسه لاستقبال مختلف ضروب المعرفة ، ثم يعود إلى منزله آخر النهار . فكأن المدرسة يمكنها بهذه الصورة ، أن تستغنى عن جو اجتماعى فعال يشترك فيه

التلميذ ، ويتفاعل معه ، ويندمج فيه ، وينتمى إليه . ويمكن للتلميذ عندئذ أن يظل منتمياً إلى جو المنزل ، ويظل هكذا إلى أن يتم تعليمه ، دون أن يتقدم خطوة واحدة فى الكفاية الاجتماعية ، بل يبقى أيضاً كما كان رضيع المنزل لم يفطم منه ، وعلاقته بالمدرسة علاقة سطحية مؤقتة ، قائمة على امتصاص بعض المعلومات . وهـذا الجو التعليمى الذى تخلقه الامتحانات بصورتها المألوفة يقتل الحياة الاجتماعية ، بل قد يخلق معه أجواء اجتماعية غير صالحة ، ولا سيما أن التعليم بهذه الطريقة لا يثير فاعلية التلاميذ ونشاطهم . ولهذا نراهم يفصحون عما عندهم من نشاط وفير بطريقة غير موجهة فى التدخين ، والتخريب ، والإضراب ، وتكوين العصابات ، وأحـلام اليقظة وغير ذلك .

وبسبب هذه النظرة للتعليم ، لم يكن هناك مانع من حشو الفصول الدراسـية بأكبر عدد ممكن من التلاميذ ، مما زاد عدد التلاميذ فى المدارس زيادة لا يتأتى معها أى تعليم أو إرشاد مثمر . واستحال على النظار والمعلمين معرفة تلاميذهم معرفة حقيقية. ونعلم أن شعور التلميذ بأن مدرسيه يعرفونه ، يشعره بتقديرهم له ، مما يشبع فيه الحاجة الطبيعية للتقدير ، ويجعله يشعر بأنه ينتمى إلى مجموعة قوية سواء أكانت منظمة أم غير منظمة ، مما يحقق عنده الحاجة للاطمئنان ، ومما يسهل ضبط سلوكه وتوجيهه إلى حد بعيد . إذ أن التلميذ يهمه إذ ذاك أن يكون عند حسن ظن معلمه به .

يتبين من هذا كله أهمية نظرة المتعلمين والمعلمين وولاة الأمور إلى هدف التعليم، وما يترتب على هذه من تعديل جو المدرسة ونظامها العام . وما يترتب على هذا كله من نتائج بالنسبة للتلاميذ أنفسهم . وترتبط أهداف التعليم أيضاً بقيم المواد الدراسـية وطرق تدريسها وغير ذلك .

قيمة العمـــل المدرسى

وهناك عامل آخر يرتبط بأهداف التعليم ، ويؤثر فى الحياة المدرسية ، هو قيمة

العمل المدرسى فى حياة التلميذ الحالية ، وفى حياته المستقبلة . فيجب أن نسأل أنفسنا دائماً ، إن كان العمل المدرسى يشبع فى نفس الطفل حاجة حقيقية من الحاجات التى سبق أن أشرنا إليها . والعمل المدرسى يمكنه أن يشبع الحاجة للأمن ، بأن يعطى التلميذ فرصة فهم أسرار العالم المادى ، والعالم الاجتماعى اللذين يحتك بهما . ويمكنه أن يهيىء للتلميذ فرصة التعبير الحر عن نزعاته المختلفة ، تعبيراً يساعد على زيادة نموه وكسبه للمهارات العقلية واللغوية والاجتماعية ، وغير ذلك من المهارات العديدة التى يشعر معها الطفل باحترام نفسه ، لازدياد قدرته على العمل والإنتاج . ومعنى ذلك أن التلميذ يجب أن يشعر فى المدرسة بكسب حقيقى بالنسبة لعقليته وشخصيته ، يفيده فى صلاته بالبيئة التى لا بد له من التعامل معها .

يضاف إلى ما تقدم أن نوع المهارة الذى تكسبه المدرسة للتلميذ يجب أن يكون بحيث يشعره بالاطمئنان إلى المستقبل . فيشعره على الأقل بأنه سوف يمكنه من كسب عيشه ويمكنه فى الوقت نفسه ، أو فوق ذلك ، من أداء خدمة للمجتمع الذى ينتمى إليه ، ويحافظ على نفسه فيه .

ويحدث أحياناً ألا يخرج عمل المدرسة عن أن يكون مجموعة معلومات أو مهارات لا تمت لحياة التلميذ بصلة ، وعلى ذلك فهو لا يشتق منها لذة ، ويترتب على اضطراره إلى الانكباب عليها الانصراف عن النشاط الصادر من منابع الطاقة الحيوية . ولذلك يجب ألا ندهش لذبول حيوية الطفل كلما انغمس فى هذا النوع من العمل .

ويحدث كذلك أن ينظر التلميذ إلى المجتمع الذى سيخرج إليه فى المستقبل ، فيجد أحياناً أن المدرسة لا تعده بحيث يجد لنفسه فى مستقبل حياته فرصة العمل الناجح ، وبذلك يشعر بانعدام قيمة العمل المدرسى إذا نظر إلى الحياة المستقبلة . فإما أن يرغم نفسه على مواصلة عمله المدرسى ويفقد ثقته فى المستقبل ، وبذلك يقع أمام نفسه فى صراع بين أن يرغم نفسه على عمل ما ، وبين أنه لا يود فى قرارة نفسه أن يقوم

بهذا العمل ، لأنه ليست له فى نظره قيمة فى المستقبل . وإما أن يتخلى عن عمله الدراسى تخلياً تاماً .

بهذين العاملين ؛ وهما عدم إشباع العمل المدرسى حاجات التلميذ النفسية ، وعدم تحقيقه للأمن الاجتماعى فى المستقبل ، قد يتحدد الاتجاه العقلى عند التلميذ . وبذلك يسهل تفسير بعض الظواهر ، كتشتت انتباه التلاميذ ، وانصرافهم عن الدروس ، وتلبية أول داع خارج العمل الذى يعمله فى المدرسة . ويسهل تفسير هروب التلاميذ من المدارس ، وأحلام اليقظة ، والكسل ، والخمول ، وسهولة انزلاقهم إلى مثل التدخين ، أو العادة السرية ، أو الشره أو غير ذلك من ضروب الملذات الجسمية ، وسهولة قابليتهم للاضراب عن العمل لأتفه الأسباب التى ربما لا تعنيهم إطلاقا ، وازدياد الحاجة إلى المجهود العنيف اللازم حتى يواصل التلميذ عمله ، مقاوماً بذلك أثر لمغريات الأخرى ، وغير ذلك من الظواهر العديدة .

وفى إحدى الحالات التى يظهر مثلها كثير جداً ، تكرر رسوب التلميذ على الرغم من صغر سنه وارتفاع ذكائه . وتكرر فى نفس الوقت استهتاره ، وميله للتدخين ، ومتابعة المسائل الجنسية ، والهرب من المدرسة ، وما شابه ذلك ، وبمناقشته تبين أنه يعتقد اعتقاداً راسخاً فى أن المدرسة لا تخرج عظيما ، وضرب أمثلة ببعض عظماء الرجال ، وأنهم تكوّنوا خارج المدرسة ، وكان مثله الأعلى فى ذلك هتلر .

وحالة أخرى لطالب تكرر رسوبه بالسنة الثانية بإحدى المدارس الثانوية بالقاهرة ، وكانت حجته أنه لا يحب المذاكرة ، لأنه يعتقد أن النجاح فى الحياة المصرية بأنواعها المتعددة ، يتوقف على عوامل أخرى غير عوامل الكفاية الحقيقية ، وهو يعد نفسه لاكتساب هذه الأساليب .

وحالة ثالثة ، سبق أن أشرنا إليها ، وهى لتلميذ فقير كان فى السنة الثانية بمدرسة ثانوية ، وتكرر رسوبه مرتين ، وارتكب حوادث سرقة متعددة من المدرسة ، وكان غير راغب فى العودة إلى المدرسة ، وبالفعل التحق بخدمة الجيش البريطانى ،

ليكسب بعض النقود ، ويجمع رأس مال ليبدأ به عملا حراً ، لاعتقاده الراسخ أن هذا السبيل هو أحسن وسيلة وأسرع أسلوب يمكن أن يعده لحياة ناجحة. ولكن والده أرغمه بعد كل هذا على العودة للمدرسة .

هذه الحالات الثلاث تمثل اتجاهاً غالباً على أذهان كثير من التلاميذ ، ولكنهم لا يفصحون بصراحة عما بأذهانهم ، وعن تشككهم فى قيم ما يدرسونه . وهنا يصح أن نسأل : وهل يتحتم أن يشعر كل تلميذ بقيمة كل علم يدرسه ؟ والجواب على ذلك ، أنه من المهم جداً أن يشعر التلميذ بالقيمة العملية المباشرة أو البعيدة لما يدرسه. وإن لم يكن هذا ممكناً ، فيتحتم توافر شرط آخر ، وهو ارتباط ما يدرسه التلميذ بعاطفة ، أو أى مصدر مباشر أو غير مباشر ، من مصادر الغرائز أو الحاجات النفسية ، وإذا توافر الشرطان فى وقت واحد تحققت أمنية المعلم من عمله .

طرق التعليم المتبعة

ومن أهم العوامل المؤثرة فى تكوين التلاميذ ، واستقرارهم إزاء عملهم وتقبلهم له ، وإقبالهم بشغف عليه الطرق التى تتبع فى التعليم . فإذا كانت من الطرق التى تستثير نشاط التلميذ ، وتوجهه توجيهاً ينتج إلى أبعد حدود الإنتاج ، فإن التلميذ يشعر إذ ذاك بالغبطة لنجاحه ، ويكسب ثقة فى نفسه ، واحتراماً لذاته ، ويكتسب شغفاً بمواصلة البحث والعمل ، والاهتمام الإيجابى بالعالمين المادى والإجتماعى . وهذا الأسلوب المبنى على النشاط الذاتى للمتعلم ، لا تظهر معه المشكلات التى تظهر عادة مع الأساليب المألوفة ، التى قد تكون مملة ، أو محلاة بحليات صناعية سطحية لا تلبث أن تزول . ونجد عادة فى التعليم المرتكز على نشاط المتعلم حياة ونشاطاً ، وروابط قوية بين التلاميذ بعضهم وبعض ، وبينهم وبين مدرسيهم ، بخلاف نوع التعليم المرتكز على نشاط المعلم فحسب ، فنجد الجو مملا ، ذا روابط اجتماعية ضعيفة ، ونظام شكلى ظاهرى ، مبنى على الأرهاب . وتجد التلاميذ خارج الفصول هائجين هياجاً

لا نظام فيه ، و يبحثون عن أنواع من اللذة غير الموجهة . والتلميذ فى ذلك يتوقف ضلاله أو هداه على عنصر الصدفة لا غير .

وسواء فى ذلك قيم المواد المعطاة ، أو الطرق المتبعة أو نوع مواد الدراسة ، فإنها جميعاً قد تحل لنا مشكلة الفراغ ، ولو حلا جزئياً . إذ يحدث أحياناً أن ترتبط المهارة التى يكسبها التلميذ فى المدرسة إما لنوعها ، أو لطريقة تكوينها عنده ، أو لقيمتها ، برباط وجدانى سار يدفعه إلى متابعتها ، و إنمائها فى وقت فراغه .

لهذا وجب مراعاة عنصر الشوق الذاتى (Intrinsic Interest)[1] فى مناهج التعليم وأساليبه ، ووجب إعطاء عناية خاصة لوقت الفراغ .

وهناك حالة لتلميذ كان يشكو من نوبات عصبية ، وقد تبين من دراسة مشكلته أنه إلى جانب شكواه ، كان يدخن وكان يمارس العادة السرية بإفراط شديد ، وكان (يغازل) الفتيات . وفى أثناء مناقشة مشكلاته هـذه قال إنه ليس أمام التلميذ فى المرحلة الثانوية فى الصيف إلا التدخين ، والمغازلة ، والعادة السرية . وليست هذه النواحى إلا أساليب شغل بها التلميذ نفسه ، وما كانت لتظهر لو أنه وجد أساليب خيراً منها يملأ بها أوقات فراغه .

الشعور بالنجاح

ويؤثر فى حياة التلميذ داخل المدرسة عامل مهم ، ينشأ عن نظرته إلى مركز نفسه بالنسبة لبقية الأشخاص فى هذا الجو ، أو بالنسبة لما ينتظر منه حسب ما هو معروف عن مقدرته . وهذا العامل هو مقدار شعور التلميذ بنجاحه . ونقصد هنا النجاح الاجتماعى ، والنجاح الشخصى — و إن كان النجاح الشخصى فى أصله نجاحاً اجتماعياً . ويمكن أن تنظم المدارس بحيث لا يشعر التلميذ بإخفاقه ، فتكون هناك مثلا وحدات تعليمية متجانسة الاستعداد . و بذلك تمحى الفروق العقلية الكبيرة

(١) J. Dewey : Interest and Effort in Education.

قدر الإمكان ، لأن هذه الفروق تشعر المتأخر بنقصه ، وعجزه عن مداركة هذا النقص أو علاجه . كما أنها قد تزيد المتفوق غروراً بنفسه . وكلا الشعورين بالنقص والشعور بالغرور ، قد يؤدى إلى ظهور مشكلات عدة كالمعاكسة ، وكثرة النقد ، والكسل ، وأحلام اليقظة وغير ذلك .

وليس المقصود بمحو الفروق هو منع المنافسة . ولكن الواجب منعها بالصورة التى يمتلىء بها الجو المدرسى أحياناً . ويجب كذلك ألا يتعرض لها بعض الناس تعرضاً فوق ما تحتمل طاقتهم ، أو تحت ما تحتمل بدرجة كبيرة . إذ لا مانع مطلقاً من أن تتنافس القوى المتقاربة . ولكن لا يجوز أن يوضع فى الفصل الواحد تلاميذ ذوو قوى متباعدة ، بحيث يغتر القوى ويكسل ، لشعوره بتفاهة العمل بالنسبة إليه . ولهذا السبب ينحدر كثير من الأذكياء فى مستوى تحصيلهم ، وذلك لأن العمل المدرسى ليس من القوة والكفاية ، بحيث يتحدى قواهم العقلية تحدياً كافياً . أما الضعيف فسرعان ما يستولى عليه اليأس ، وينصرف عن العمل المدرسى إلى عمل آخر .

علينا كذلك أن نتذكر أن نواحى النشاط الاجتماعى من تمثيل ، وألعاب ، وموسيقى ، وهوايات وغيرها ، يجب أن تكون بحيث يبرز كل تلميذ فى ناحية منها أو أكثر بحسب استعداده وميله . وبذلك يمكن لكل تلميذ أن يسدى للمجتمع المدرسى ما يشعره بأنه فرد ذو قيمة اجتماعية ناجحة ، كما يشعره بأنه يعطى لهذا المجتمع كما يأخذ منه .

وكثير من التلاميذ لا يتقبلون الإخفاق العقلى ، أو الاجتماعى ، أو كليهما . فينزعون للتعويض عن أحدهما أو كليهما بطرق مختلفة كالكذب ، أو السرقة ، أو الانزواء ، أو الاعتداء ، أو غير ذلك . ولا شك أن جل الأجواء المدرسية بحالتها الراهنة ، لا بد أن ينقسم فيها التلاميذ إلى طبقات عقلية أو اجتماعية . ولذلك نراهم يتجمعون فى وقت فراغهم فى مجموعات منفصلة بعضها عن بعض ، ونجد أن أفراد كل

مجموعة متجانسون من الناحية العلمية أو الاجتماعية .

غير أن بعض التلاميذ ، كما يحدث فى مدارسنا المصرية ، يجدون صعوبة فى الانسجام مع المجموعة التى تلائمهم . وفى سبيل محاولتهم التغلب على هذه الصعوبة ربما انحرفوا عن السلوك السوى .

من أمثلة ذلك : حالة تلميذ فى إحدى المدارس الثانوية ، تكرر رسوبه فى السنة الثانية ، وارتكب عدداً من السرقات ، وكان اتجاهه أن يسرق كتب زملائه ، وأدواتهم ليبيعها ؛ وهذا التلميذ ابن لرجل لا يزيد دخله على ثلاثة جنيهات ونصف ، ويعيش فى جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث يضطر الولد إلى المشى الطويل ، وإلى ركوب الترام . والولد هو الإبن الأكبر ، ولم يرزق أبوه من بعده غير بنت واحدة . ولم يقطع هذا الرجل من التعليم إلا مرحلة التعليم الابتدائى . وكانت نفسه تشتاق إلى أن يتم تعليمه . وزاد شغفه بالتعليم ، حتى رأيناه يقوم بتعليم زوجته الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم إشرافاً دقيقاً ، يتخلله الضرب الشديد والإيذاء .

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنه هذا فى مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة ، وكان الولد مدللا ، تجاب له كل طلباته ، فنشأ الولد غير قادر على مقاومة رغباته الخاصة . فخرج الولد بعد انخفاض دخل الأسرة ، وزيادة مسئوليات والده العائلية إلى المدرسة محروماً من تلبية رغباته ، غير متمرن على مقاومة نفسه . يضاف إلى هذا أن انخفاض دخل الوالد ربما كان السبب فى حنقه وقسوته على أولاده عند ملاحظته إياهم .

قطع الولد مرحلة الدراسة الابتدائية فى مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقل إلى مرحلة التعليم الثانوى ، وفيها هبط مستواه بالنسبة لغيره من التلاميذ ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفه المنزلية لأداء واجباته ، أو حالته الانفعالية السيئة الناشئة من فظاظة معاملة والده له . كان هذا الولد متوسط الذكاء وكانت معاملة والده

له تختلف تمام الاختلاف عما يجب نحو شاب فى سن المراهقة . وبالإضافة إلى ذلك فجو المدرسة خال من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين التلاميذ بعضهم و بعض . أو بين هؤلاء و بين مدرسيهم ، فلا عطف ولا فهم ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح .

ويجب ألا ننسى أن الجو المدرسى كثيراً ما يسمح بظهور فوارق بين الطبقات يتميز فيها الفقر الشديد إلى جانب السعة الواضحة . وتتضح عادة هذه الفروق وتبرز أهميتها حين يكون العمل المدرسى قليل التشويق ، عديم القيمة ، فتكتسب الفوارق بين الطبقات قيمة كبيرة فى نظر التلاميذ .

نرى مما تقدم أن هذا التلميذ لا يشعر بقيمته فى المنزل أو فى المدرسة من الناحية العلمية ، أو الاجتماعية ، فاندفع ليسرق . وربما التجأ إلى السرقة كى يحقق مجموعة رغبات فى وقت واحد . فهو يسرق كتب زملائه انتقاما للناحية التى كان يود أن يتفوق فيها وهى الناحية العلمية ، و يبيع هذه الكتب ليشترى بثمنها لفافات (سجائر) وليذهب إلى الخيالة ، مثل زملائه الأغنياء .

وتعليقاً على هذه الحالة ، قد يقال إن جو المدرسة ليس مسئولا عن السرقة ، وإنما المسئول عنها هو معاملة الطفل فى منزله . غير أن المدرسة لو أعطت هذا التلميذ فرصة النجاح فى أى عمل ذى قيمة ، لشعر بالرضا عن نفسه ، ولم يتجه إلى السرقة . ويجب أن نتذكر أن بكل تلميذ نواحى طيبة ، يمكن كشفها و إبرازها ، بحيث ينجح فيها و يشعر إذ ذاك بقيمة نفسه أمام إخوانه . فلا يجوز إذن إدخال التلميذ مدرسة ما ، إلا إذا تمكننا من معرفة استعداداته وصلاحيته للنمو والترعرع فى جو هذه المدرسة .

ويلاحظ أيضاً أن الشعور بالتمايز الاجتماعى ليس واضحاً فى أنظار التلاميذ فى الصغر ، وأقل وضوحاً فى المدارس الحديثة التجديدية منه فى المدارس المألوفة . ومن أسباب الظاهرة الأولى — على ما أعتقد — أن صغار الأطفال مشغولون عادة بلعب لذيذ ، صادر من غرائزهم الفطرية . أى أنهم مشغولون عن أنفسهم بنشاط مشوق

فى ذاته . ثم إن الشعور بالتمايز الاجتماعى شعور مكتسب ، توحى به البيئة المحيطة بطبقاتها المختلفة ، ويوحى به سلوك كل طبقة منها نحو غيرها من الطبقات . ولذلك فقد يكتسبه الطفل متأخراً فى حياته . أما الظاهرة الثانيـة ، ظاهرة انعدام التمايز الاجتماعى فى المدرسة الحديثة التجديدية ، فسببها — كما ذكرت — أن العمل المدرسى إن كان مشوقا فى ذاته ، وكان ذا قيمة حقيقية ، فإنه يستغرق نشاط التلميذ وانتباهه وجهده ، ويكون هو الأساس الوحيد للتمايز . وينعدم بذلك التمايز القائم على أسس أخرى سطحية ، عرضية ، زائلة . ولذلك كان نظام المدرسة وجوها عاملين مهمين فى تثبيت القيم الغير المادية أساساً للتمايز ، ومحو القيم المادية التى لا يجوز أن يقوم عليها .

وقد يُعترض بأن مجتمعاً كهذا الذى نعيش فيه ، والذى يبرز فيه التمايز الاجتماعى المبنى من أساسه على التمايز الاقتصادى ، لا يسهل فيه حل مشكلة الطبقات فى التعليم . ولـكننا إذا غضضنا النظر عما يُقترح أحياناً من إنشاء مدارس خاصة ، أو تغيير شامل فى سياسة التعليم العـامة كلها ، فإن أية مدرسة يجتمع فيها تلاميذ من أوساط اجتماعية مختلفة ، يمـكن أن تُخفّض قيمة التمايز الاجتماعى عند التلاميذ فيها إلى أقل درجة ممـكنه . هذا إذا خلقنا جواً مدرسياً — عن طريق الأمثلة العملية وترسيخ التقاليد الدائمة — يحترم النواحى ذات القيم الحقيقية المبنية على المثل العليا الخلقية كالدقة فى العمل ، والأمانة ، والصراحة ، والإخلاص الاجتماعى ، وغير ذلك ، وإذا ما أهمل القائمون بالأمر الفروق الناشئة عن التمايز الاجتماعى الاقتصادى تمام الإهمال . ويمكن كذلك أن نخفض قيم هذه الفروق عن طريق التفاعل الاجتماعى المستمر بين التلاميذ ، تفاعلا تسوده مصلحة الجماعة التى ينتمى إليها التلميذ ، ويقوم على العدل الاجتماعى بين أفرادها . ويلاحظ أن جميع القيم الاجتماعية التى نحتاجها فى المجتمع الأكبر يمكن غرسها بصورة راسخة فى مجتمع المـدرسة وكذلك فى مجتمع المنزل .

الحياة الاجتماعية

يترتب على كل ما تقدم وجوب وجود جو مدرسى عام ، له وحدة متماسكة تماسكا تاماً ، ويسهل على الطفل أن يجد مكانه فيه ، كما يسهل عليه أن يتفاعل مع عناصره تفاعلا يترتب عليه فهمه لنفسه وفهمه لغيره على أساس صحيح . ويترتب عليه أيضاً نشوء عاطفة حب وانتماء للمجتمع المدرسى ، يُسهل عليه الانتقال من الاتكال على المنزل ، ويحرره منه تدريجياً حتى يندمج فى مجتمع المدرسة اندماجاً لا يفقده احترامه لذاته ، ويحتفظ فيه بكيان فرديته . ويجب أن يكون هذا النوع من التفاعل ، بحيث يؤهل للاندماج فى البيئة الاجتماعية الكبرى خارج المدرسة ، كما يجب أن يكون بحيث يشعر التلاميذ بحبهم بعضهم لبعض ، وتقدير الواحد منهم للآخر . ويكون هذا النوع من المجتمع فى العادة مجتمعاً سعيداً منتجاً لا يثور عليه التلميذ (ولا يُضرِب عن العمل فيه لأتفه الأسباب) ، ولا يحاول أن ينتقم من أفراده ، أو يبتعد عنه ، بل بالعكس يحاول أن يندمج فيه ، ويعمل لصالحه . والمجتمع الذى ينتمى إليه الطفل فى المدرسة سواء أسميناه أسرة ، أو أى اسم آخر ، يجب أن يتصف بالحرية مع مراعاة صالح الغير ، وأن يتصف كذلك بالمساواة فى مبدأ المعاملة ، والعدالة الاجتماعية ، والمعقولية ، والنشاط ، والحماس ، والإنتاج ، والتقدم ، والترقى ، مع ثبوت المبادىء والتقاليد والدساتير التى يسير عليها المجتمع المدرسى .

ولا يمكن بالطبع أن نغفل كيف يتأثر الجو المدرسى بالجو الاجتماعى العام تأثراً فى الاتجاه السىء أو الصالح . ومع ذلك فيجب أن ننظر إلى الجو المدرسى على أنه وسيلة لإصلاح المجتمع . ويتوقف مبلغ نجاح المدرسة فى هذا الاتجاه على المدرسة نفسها وقدرة من تخرجهم فى الإصلاح الاجتماعى ، كما يتوقف أيضاً على حالة المجتمع الأكبر ، وعلى مبلغ استعداده لقبول هذا الإصلاح .

نوع المعاملة السائدة فى المدرسة

ومن أهم العوامل التى تؤثر فى الجو العام للمدرسة المعاملة السائدة من قبل النظار والمدرسين والمشرفين . ومن المعلوم أنه يجب أن تكون هناك سياسة ثابتة . وهذه لا تنبنى على أساس السلطة الضاغطة ، التى لا بد أن يترتب عليها نظام شكلى مؤقت. وقد يبدو هذا النظام كاملا ولكنه يزول عادة بزوال ما يعمل فيه من ضواغط . وإنما يجب أن تقوم سياسة المدرسة على التوجيه والإرشاد المبنى على العطف على التلاميذ ، ومراعاة صالحهم ، وفهم نزعاتهم ، ودوافعهم الداخلية . وهذا العطف يجب أن يصحبه الحزم ، وألا يشوبه التراخى والتذبذب بين الشدة واللين . وهذا النوع من الدستور لا يمكن النظر إليه منفصلا عن الجو المدرسى العام وعوامله الأخرى من حياة اجتماعية ، وطرق تعليمية ، وتنظيم مدرسى ، وغير ذلك .

ولا يقصد بالسياسة الثابتة أن تكون هناك حلول معينة جامدة لكل مسألة ، وإنما يقصد بها أن يكون هناك أسلوب واحد للروح التى تعالج بها المواقف المتشابهة ، فلا يجوز أن تعامل المواقف المتشابهة معاملات متناقضة . ويترتب على ثبوت السياسة شعور بالعدل الاجتماعى داخل المدرسة .

وبوجود العدل الاجتماعى ينمحى أهم عامل يترتب عليه استهتار بعض التلاميذ ، وكراهية بعضهم الآخر لزملائهم ومدرسيهم ، وشعورهم بانعدام الاطمئنان للمدرسة وما فيها ، مما يترتب عليه كثير من أنواع السلوك الشاذ ، كالاعتداء واستعمال العنف . والسرقة والغش ، والحقد ، وإثارة الإضرابات وما شابه ذلك .

وللسياسة الثابتة أهمية أخرى ، ذلك أنها تسهل على التلميذ سرعة الوصول إلى تقدير قيم السلوك . ولكن السياسة المتغيرة يضطرب الطفل غالباً أمامها ، فلا يعرف الفرق بين ما يجب أن يعمل وما لا يجوز أن يأتيه من أعمال .

أضف إلى هذا أن الجو الثابت ، المشبع بالعطف مع الحزم ، يطمئن إليه الطفل ،

ويكيف سلوكه وموقفه عادة نحو هذا الجو ، مهما كان تكوينه الأول فى المنزل . فالطفل الذى دلله والداه فى منزله قد يجد صعوبة فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتعود نظامه . والطفل الذى سبق له أن عاش فى جو جاف قاس ، لا بد أن يرحب بما فى الجو الجديد من عطف .

وإذا توافر ما ذكرناه من حزم ، وعطف ، وفهم ، وتقدير ، قلت الحاجة إلى أساليب النظام الشكلى ، وإلى اهتمام السلطة بوجوب الطاعة العمياء وغير ذلك ، مما يتضمن عادة خوف السلطة على سلطانها .

المدرسة ومشكلات النشء

يتبين مما تقدم ، ومن بضع الحالات التى أشرنا إليها ، أن للتلميذ حاجات أساسية ينزع إلى إشباعها وهو يشبعها عادة فى أثناء تعامله مع البيئة التى يعيش فيها . ففى حياته الأولى قد يكون متمتعاً ببيئة تشبع له حاجاته ، وقد يكون فى بيئة تعطل هذا الإشباع ، أو تقف دونه . وإزاء هذه العقبات تحدث أساليب عديدة للتكيف. ويغلب أن تكون أساليب السلوك الشاذة — سواء أكان ذلك كسلا ، أو عصبية ، أو سرقة ، أو كذباً ، أو غشاً ، أو تدخيناً ، أو تمارضاً ، أو تمرداً ، أو أعمالا جنسية ، أو غير ذلك — أساليب تعويضية أو دفاعية ، تُشتق فكرتها الأخيرة من البيئة . وقد تكون هذه البيئة التى يجد فيها الطفل الفكرة ، هى البيئة الكابتة أو غيرها مما يشبهها .

مثال ذلك : حالة الطالب الذى كانت تصيبه نوبات عصبية ، ووصفته المدرسة بأنه عنيد جداً فهو لا يؤدى واجباً ، ويكثر من التغيب ، ويكثر من إحراج المدرسين فى الأسئلة التى يوجهها إليهم . وإذا وقع الناظر أو أحد المدرسين عليه عقاباً يرفض تنفيذه ويحاول تبرير اتجاهه هذا بأن العقاب الذى توقعه عليه المدرسة ينبو عن المعقول . ولذلك تعقدت العلاقة بينه وبين معلميه وناظره تعقيداً أدى إلى ضرورة

التخلص منه ، فذهب إلى مدرسة أخرى ، ثم إلى ثالثة ، وهكذا .

ولعل سبب ثورة الولد على السلطة فى المدرسة هو تشابهها مع سلطة والده . وكان لأمر ما ثائراً عليها . فحدث تحويل من ثورته على والده ، التى لا يمكنه أن يعبر عنها إطلاقاً ، إلى ثورته على السلطة على وجه العموم ، بما فى ذلك سلطة المدرسة .

وكان الولد فى أثناء مناقشته يعيب على المدرسين والنظار ، أنهم لا يحاولون فهم تلاميذهم ، وأنهم يعاملونهم « كقطع من الخشب » فلا يحترمونهم ولا يقدرونهم ولا يدركون أن بينهم فروقاً من أى نوع .

والمشكلة هنا نابعة أصلا من المحيط العائلى . ولكن جو المدرسة ، وقد كان فى إمكانه أن يخفف من أثرها ، زادها صعوبة وتعقيداً . والمدرسة لم تخلق فى هذه الحالة جديدة . ولكن المشكلة التى وضعت بذورها فى المنزل ، ساعدت المدرسة على إبرازها ، بدلا من أن تساعد على حلها . فالجو المدرسى إذا توافر فيه العطف ، واحترام شخصيات التلاميذ ، وعدم وضعهم فى مآزق تسبب الإخفاق ؛ وإذا كانت الطرق المتبعة معهم شائقة ، والعلاقات الاجتماعية علاقات متينة سعيدة يشعر التلميذ فيها بالانتماء للمجتمع المدرسى ، أمكن أن تقوم المدرسة بتخفيف أثر المنزل أو علاجه فى مثل هذه الحالات .

وتكون المدرسة أحياناً عاملا أصيلا فى ظهور الكذب ، أو الغش ، أو أحلام اليقظة ، والبحث عن اللذة غير الموجهة ، لما قد يكون فيها من انعدام العدالة ، وسوء استعمال السلطة ، أو سوء أساليب التدريس ، أو عدم صلاحية المدرسين للتلاميذ أو غير ذلك مما سبق أن فصلناه .

والمدرسة إذا فهمت رسالتها فهماً واضحاً ، وإذا أدرك من فيها حقيقة الصلة بين المدرسة وبين المنزل من ناحية ، وبينها وبين المجتمع الأكبر من ناحية أخرى ، فإنها يمكن أن تهيىء جوها بحيث ينال التلميذ مراناً كافياً على الصفات الخلقية التى يحتاجها المجتمع والتى نشكو عادة أنها تنقصه . والدخول فى تفاصيل الكيفية التى ينفذ بها هذا يتطلب مباحث مطولة ليس هذا مكانها .

المراجع

Adler: The Education of Children.

Craig: School Life and Mental Instability.

C. Miller: The New Psychology and the Teacher.

G.H. Green: Psycho-analysis in the Classroom.

Gruenberg: The Guidance of Childhood and Youth.

Hildreth: Psychological Service for School Problems.

Neill: The Problem Child.

Neill: The Problem Teacher.

Neill: The Dreadful School.

Sayles: The Problem Child in School.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Symonds: Mental Hygiene of the School Child.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

Valentine: The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الفصل الثانى عشر

المعلم وعلاقته بالتلميذ

مقدمة

سبق أن تكلمنا عن المدرسة وأثرها فى تكوين النشء . وحيث أن المعلم هو أهم عامل فى الجو المدرسى ، فمن الواجب أن نفرد له مبحثاً خاصاً . والمعلم هو العامل المفروض أنه يأخذ بيد الطفل ، ويعده أو يساعده على التهيؤ للحياة المستقبلة . ويُعَدّ المعلم لهذا العمل أحياناً بمحض رغبته ، وأحياناً تدفعه الظروف القاهرة دفعاً لهذا الإعداد . وكذلك الطفل ، مخلوق يرسله البيت أول الأمر إلى المدرسة على غير إرادته فى كثير من الأحيان . وهذان الطرفان عندما يتقابلان يكون كل منهما وحدة معقدة ، وراءها تاريخ طويل جداً . فالمدرس محمل بآثار طفولته ومشكلاته فيها ، وما يطرأ فى أدوار نموه من مشكلات مختلفة . وهو متأثر كذلك باختياره لمهنته أو إجباره عليها ، ودرجة حبه أو كراهيته لها . ويحمل فى نفسه نوع نظرته لمهنته ، من حيث أنها مجرد أداة لكسب العيش ، أو من حيث شعوره بتوافر الكرامة لنفسه عن طريقها . ويحمل كذلك درجة شعوره بمسئولياته ورسالته . وللمدرس فوق كل ذلك مشكلات حياته الخاصة ، وغير ذلك . ويأتى الطفل كذلك إلى المدرسة يحمل آثار حبه لوالديه أو كراهيته لها ، وغيرته من إخوته أو حبه لهم ، ويحمل آثار النمو الطليق أو النمو المقيد ، وغير ذلك من آثار نموه وصعوباته فى البيئة غير المدرسية . يتقابل هذان الطرفان المعقدان ، فيطلب منهما أن يكيف كل منهما نفسه للآخر ، تكيفاً يكون فى العادة محدوداً ومرسوماً من قبل . وتحدث المحاولة للتكيف فى ظروف قد تكون أحياناً ملائمة ، وأحياناً غير ملائمة لنجاح التكيف المطلوب .

درجة شعور الطفل بالحاجة إلى المدرس

ولكن ما مبلغ حاجة الطفل النفسية للمعلم ؟ يهتم الطفل فى مراحله الأولى ، كما نعلم ، بالحاجات الأولية من مأكله ، وملبسه ، وحماية حياته . وإلى جانب ذلك يشعر بالحاجة للاتصال بالعالمين المادى والاجتماعى ، ليقف على أسرارهما ، حتى يكون أقدر على التكيف المطمئن لهما . أما الحاجات الأولية ، فإنه يعتمد فيها غالباً على والديه . وأما حاجته للوقوف على أسرار العالم المحيط به ، فإنه يشبع كثيراً منها قبل مجيئه إلى المدرسة عن طريق اللعب . ولذلك لا يشعر الطفل أول الأمر بحاجة قوية للمعلم ، ولكنه على الرغم من ذلك يوضع فى كنفه ، فيفرض المعلم سلطته عليه . وهنا توجد حاجة المعلم إلى السلطة ، لأن ما يعطيه الطفل كثيراً ما لا يمت لنفسه بصلة كبيرة . ولكن المعلم الماهر ، المحب لعمله ولتلاميذه ، يمكنه أن يخلق الجو الذى ينمو فيه الطفل نمواً يتفق وطبيعته من ناحية ، ومع حاجات المجتمع من ناحية أخرى . وكلما كان الجو متفقاً وطبيعة الطفل ، قلت الحاجة إلى ما نألفه من السلطة المعروفة الضرورية لحفظ النظام .

درجة اغتباط المعلم بعمله

ومما يؤثر فى علاقة المعلم بتلميذه درجة تحمس المعلم لعمله واغتباطه به ، ولكى نوضح هذا يجب أن نوازن بين عمل المدرس وعمل بعض أصحاب المهن الأخرى . فالمدرس يأتيه عدد من الأطفال مرغمين عادة ، فيجلسون فى غرفة واحدة ، يدرسون عليه أو يتعاملون معه . وعليهم فى العادة أن يتقبلوا ما يلقنهم ، وإلا ساءت نهايتهم . ولكن هب أن هؤلاء الأطفال يأتون بمحض إرادتهم ، فهل لو تركوا وحريتهم التامة ، يستمرون معه ؟ أغلب الظن أن الجواب يكون بالنفى . والمدرس يحس إحساساً خفياً بهذا . ولهذا السبب يختلف موقفه عن موقف الممثل من عمله ، إذ أن

الممثل يأتيه الناس من تلقاء أنفسهم ليستمتعوا به . ولذلك فلا حاجة به إن كان ناجحاً فى عمله إلى محاولة حفظ نظام من أى نوع . ولهذا نجد أن كلا من الممثل والخطيب الحر يشعر باغتباط شديد من عمله . ولكن المدرس العادى الحالى لا شك أنه لا يشعر بنفس الدرجة من الاغتباط . وإذا أراد أن يشعر بها حتى يتحمل عمله عن طيب خاطر ، بل ليقبل عليه متحمساً جاداً أيضاً ، وجب عليه أن يغير فى أساليبه ومناهجه ونظمه ... الخ ، بحيث تكون التلبية من تلاميذه جالبة للغبطة والحماسة . وهذا ممكن إلى حد بعيد .

وهناك أمر آخر يتميز به عمل المدرس دون كثير من الأعمال ، وهو أن أغلبها ذو نهاية محسوسة . فالمهندس مثلا يمكنه بعد فترة معينة أن يرى طريقه ، أو جسره ، أو منزله ، أو تصميمه ، أو غير ذلك . والطبيب كذلك يمكنه أن يرى نهاية علاجه بطريقة محسوسة . وعلى العموم نجد أن كثيراً من المهن يشعر صاحبها بأن قطعة محسوسة من عمله قد انتهت . ففكرة النهاية — وخصوصاً النهاية الملموسة بالحواس — غير موجودة لدى المعلم ، ولذا كان احتمال اشتقاقه لذة من عمله فى الصورة التى نألفها اليوم أقل من احتمال اشتقاق المهندس أو الطبيب للذة من عمله . ولكن إذا علم المدرس هذا فى ضوء ما سبق ، يمكنه أن يمارس عمله بحيث يستشعر نتيجته استشعاراً يجلب له الغبطة . وتساعد الطرق الإحصائية والتجريبية الحديثة على تحقيق هذا ، إذ يمكن تطبيقها مع اشتقاق لذة كبرى فى فهم المعلم لمشكلات التعليم عامة ، والمشكلات الخاصة التى تقابله فى كل يوم ، وفى شعوره بالنجاح عند كشفها وتحديدها ، وجمع الحقائق لفهمها ثم تفسيرها والتغلب عليها .

وهناك عامل آخر قد يقلل من درجة غبطة المعلم بعمله ، وهو التكرار ، وندرة التجديد . فالمعلم قد يقوم بتدريس منهج معين سنة بعد أخرى ، أو قد يعلم الدرس الواحد مرتين أو أكثر فى أسبوع واحد . وأحياناً يعلم الدرس أكثر من مرة فى اليوم الواحد .

هذه العوامل الثلاثة وغيرها ، تشترك فى تحديد ما يشعر به المعلم العادى من الغبطة فى عمله ، وتؤثر فى حالته النفسية . ولها كذلك أثرها فى علاقته بتلاميذه سواء فى ذلك العلاقة التعليمية أو العلاقات الأخرى .

ويلاحظ أن معرفة المعلم لهذه العوامل تجعله أقدر على التحكم فيها بدلا من الخضوع لها .

قسوة المعلمين

أنتقل الآن إلى نقطة شائعة ثابتة فى أذهان الناس ، وهى اقتران المعلم بما يظهر منه أحياناً من قسوة وشدة ، وخوف المتعلم منه تبعاً لذلك . ويمكننا أن نشير هنا إلى ما سبق أن ذكرناه عن معاملة الآباء للأبناء ، ودرجة تدخلهم فى أعمالهم ، وموقفهم من الثواب والعقاب ، وما يجب أن يفهموه من معنى الطاعة ومعنى السياسة الثابتة المقرونة بالعطف المعقول . ونشير كذلك إلى ما سبق أن ذكرناه عن نوع المعاملة التى يجب أن تسود جو المدرسة . ولكننا نقصد أن نخص بالذكر هنا ما يعرف عن قسوة المعلمين . يغضب المعلم عادة إذا حدث ما يمنع تحقيق رغائبه الخاصة . فهو يغضب إذا أهينت كرامته عن طريق مباشر أو غير مباشر ، أو إذا كان مصدر رزقه[1] أو مايشبهه فى خطر جزئى أو كلى ، أو غير ذلك . وهو إذا ما غضب قد يثور ، وحينذاك يكره التلاميذ تصرفه ، ولا يستفيدون من غضبه هذا أية فائدة تعليمية . ويغضب المدرس أيضاً متى كان هناك شعور خفى بعجزه عن تناول الموقف بأية طريقة أخرى . والغضب وما يتلوه من اعتداء يترتب عليه خلق روح العداء بين المعلم والمتعلم ، ويتبع ظهور هذه الروح أن يقل أو ينعدم ما يستفيده التلميذ من المعلم . والغضب بدرجاته المختلفة قد يكون منطوياً على حب القسوة . وللقسوة تفسيرات كثيرة فى علم النفس ، منها أن الإنسان بما قد يكون عنده من نزعات شريرة مكبوتة ، قد يتولد

(١) راجع الغاية من المدرسة فى فصل المدرسة ومشكلات النشء (ص ٢٠٨ — ٢١٠).

عنده ما يسمى « إحساس الذنب » تتبعه رغبة لا شعورية فى عقاب الذات وعقاب غيرها . أو قد تكون القسوة نابعة من ميل مكبوت للانتقام يتكون فى حياة الطفولة . وليس لدينا من حالات المدرسين ما يمكننا تحليله لنصل إلى هذه النتائج . ولو أن القسوة عند الآباء كما درسناها ، منشؤها الإحساس بالذنب أو حب الانتقام . وكل من هذين يتكون عادة فى الأيام الأولى من حياة المدرس أو حياة الوالد .

ولا يقتصر ظهور القسوة على صورة العقاب البدنى الشديد لأقل سبب ، وإنما تظهر أيضاً فى صورة نقد ، أو تهكم ، أو توبيخ ، أو إبراز للأخطاء ، أو إرهاق بالعمل ، أو شدة فى وضع النظم وتطبيقها أو غير ذلك . ومهما كانت الصورة التى تظهر عليها القسوة ، فإنه يترتب عليها غالباً كراهية لا تظهر عادة رداً مباشر للسبب الأصلى . وقد تظهر فى صورة مستترة أو ظاهرة نحو المدرس وأمثاله أو ما يمثله من قوانين ونظم . فربما يظهر أثر القسوة فى الثورة العاجلة أو الآجلة نحو المعلم أو ما يشبهه ، أو يكون لها أثر الانكماش الذى يسمى الطاعة أحياناً . والقسوة من جانب المعلم ، وما يترتب عليها من الخوف أو الكراهية من جانب المتعلم ، تؤدى كلها إلى عكس المقصود من غاية التعليم .

مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم

ويرجع جزء كبير من علاقة المعلم بالمتعلم إلى عوامل خارجة عن إرادة كل منهما خروجاً تاماً ، وذلك لأن المعلم والمتعلم كما سبق أن بيّنا طرفان يتقابلان ، وكل منهما محمل بأثر الماضى والحاضر وبنوع نظرته للمستقبل .

فالتلميذ قد يأتى إلى المدرسة كارهاً لأبيه مثلا بسبب قسوته عليه ، فيجد فى المدرسة متنفساً لا يستطيع أن يجده فى المنزل . وقد تنتقل الكراهية الناشئة عن قسوة الأب إلى المعلم بحكم ما بين المعلم والولد من أوجه شبه فى عقل الطفل . وربما قام التلميذ بالثورة على المعلم ومعاكسته ، والإخلال بالنظام مدة طويلة ، ولغير مبرر

كاف . فيلزم ألا يقابل المعلم سلوك التلميذ بما يزيد فى هذه الكراهية نحوه ، وإنما ينبغى أن يقابله بما يخففها بالتدريج . ويحدث أحياناً أن يكون لدى الطفل مشكلات حديثة العهد ، كشجار عائلى بين أمه وأبيه ، أو مرض أحد والديه ، أو تدهور اقتصادى ، أو سوء علاقة بينه وبين أبيه ، أو تأخر فى الصحة ، أو غير ذلك . فإذا ظهرت أعراض هذه الأحداث أمام المعلم ، وجب عليه أن يقابلها بالصبر والأناة والدرس والتفهم وحسن التوجيه .

أما المدرس فله أيضاً مشكلات عدة تلقى بأثرها على المتعلم وعلى عملية التعليم . ومن هذه المشكلات نتائج التربية الأولى . فربما ينشأ المعلم وقد تكونت لديه من صغره دوافع خفية نحو الانتقام . فيجد فى صغار التلاميذ أمامه مجالا سهلا لهذا الانتقام يظهر — كما قلنا — فى الضرب والنقد وتقييد الحركة والإرهاق والتشديد فى الامتحانات وغير ذلك .

وقد يكون عند المدرس من حياته عقدة نقص يحاول التعويض عنها فى مهنة التدريس ، وفى التدريس مجال لهذا التعويض قل أن يوجد فى مهنة أخرى .

وقد يكون المدرس كارهاً لمهنة التدريس على الرغم من ممارسته لها بسبب إخفاقه فيها ، أو بسبب خطورة مسئولياتها وكثرة صعوباتها ، وعدم تقديره درجة قصوره فيها عند بدئه ممارستها . وقد تظهر كراهيته للمهنة ضد الأطفال أنفسهم ، أو تظهر فى شكل حساسية شديدة فى العمل . وقد يفقد اتزانه تماماً فى أثناء قيامه بعمله ، بحيلة من الحيل اللاشعورية .

هذه كلها مشكلات أسبابها قديمة فى تكوينها ، بعضها يرتبط بالمهنة ، وبعضها لا يرتبط بها ، ومع ذلك يكون لها أثر فى علاقات المعلم بالمتعلم وبالعكس .

وهناك فوق ذلك ظروف حاضرة تؤثر فى علاقة المعلم بتلاميذه عن طريق ما يسمى بالتحويل أو الإسقاط أو غيره (ص ١٢٧) . وقد يكون من هذا قلة المرتب والغبن وضغط الامتحانات والمفتشين والنظار . . الخ . وقد يكون من هذا أيضاً

ما يحدث فى نفسه من صراع بين أصول التربية الحديثة التى تعلمها فى أثناء إعداده ، والتربية المألوفة الشائعة التى يضطر لاتباعها دون الموافقة على شىء منها . وقد يكون من هذا أيضاً درجة تقدير الدولة له ، وموازنة نفسه من حيث المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية بأصحاب المهن الأخرى .

وقد يكون من هذا مشكلاته فى الأسرة أو فى العلاقات الزوجية والمشكلات الاقتصادية وغير ذلك .

ومن ثم يأتى المدرس محملا بهذه المشكلات ، بعضها أو كلها ، فيقف أمام نفر من الأطفال ، كل له مشكلته ، وتاريخه ، ويكلف حينذاك أن يظهر بأحسن خلق ممكن ، وأن يكون لتلميذه — مهما صدر منه — فى مقام المرشد والأخ الأكبر .

ليس معنى ما تقدم أن نرسم صورة قاتمة عن الموقف ، ولكن الغرض هو أن نبين كيف أن علم النفس يساعدنا على أن نكشف مشكلاتنا بصورة صحيحة فنصبح أكثر مقدرة على التحكم فيها .

المعلم قائد أو مرشد للطفل

والمدرس فى ميدان التعليم قائد لأطفاله ، فبحكم خبرته ، ورجاحة تفكيره ، وبحكم وجوده معهم فى مجتمع واحد ، يصبح هو المتبوع ويصبحون التابعين . وفى هذه الحالة ننتظر أن تكون علاقة المعلم بتلاميذه إما علاقة من يأمر فيطاع ، وإما كعلاقة الأخ الأكبر بإخوته الصغار . أما العلاقة الأولى ، وهى علاقة من يأمر فيطاع ، فهى إن دامت ، فلفترة قصيرة . ويصح أن نسأل فى هذه الحالة إن كان الطفل يطيع معلمه لأن المعلم يريد منه أن يطيع ، أم أنه يطيعه لأن الطفل نفسه يريد ذلك . ويصح أن نسأل كذلك عما يقصد بمعنى الطاعة ، وهل يفهم منها مجرد الاستسلام والخضوع ، أم يفهم منها الاسترشاد وتقبل التوجيه المعقول ؟

وأما الحالة الثانية ، وهى التى تكون فيها علاقة المعلم بتلاميذه كعلاقة الأخ

الأكبر بإخوته الصغار ، يهيىء لهم الجو ، ويعيش معهم فيه ، ويشترك معهم فى كل نواحى نشاطهم ، فإننا ننتظر فيها أن يكون المعلم أقل صرامة منه فى الحالة الأولى ، كما يكون أقدر على مشاركة الأطفال حياتهم . ولكن إلى أى سن يمكن المعلم العادى أن يعيش مع الأطفال بروح الطفولة أو بروح الأخ الأكبر ؟ تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على عوامل عدة منها عمر الأطفال أنفسهم ، ومنها بعض العوامل النفسية الخاصة بالمعلم ، والتى قد تكون خارجة عن حياته المهنية ، وعوامل نفسية أخرى مشتقة من حياته المهنية نفسها . ويلاحظ أن المعلم أحياناً تقل قابليته ومقدرته على الاشتراك الفعلى مع الأطفال فى حياتهم كلما تقدم فى العمر بعد سن معينة ، وتقل تبعاً لذلك مقدرته على قيادته لتلاميذه قيادة الأخ الأكبر لإخوته الصغار . وهناك حالات كثيرة لمعلمين يحتفظون بروح الطفولة ، وبالقدرة على حسن التعامل مع تلاميذهم إلى أعمار متقدمة جداً وذلك بالنظر لقوة شخصياتهم وطول مرانهم وهؤلاء هم المثل الذى يجب احتذاؤه .

وإذا كان المدرس قائداً يقتدى به الأطفال ، فهل يظهر لهم على طبيعته ؟ أم يظهرلهم كنموذج مثالى عال يصعب عليهم التمثل به ؟ وأعتقد أن المعلم يجب أن يظهر على طبيعته ، لأن الظهور بغير ذلك نفاق ورياء يحسه الأطفال فى العاده . ومتى أحس الأطفال بروح الرياء فى شخص ما . فإنهم لا يطمئنون إليه ، ثم إنهم قد يكسبون منه صفة الرياء ، وقد تتولد فيهم الكراهية له ، خصوصاً إذا كانت هذه الصفة تتعارض تعارضاً كبيراً مع وظيفته . وفوق ذلك فتكلف الظهور بمظهر نموذجى عال جداً قد يعطى الطفل صورة يستحيل معها تحقيقها فى نفسه ، وبذلك قد ييأس من إصلاح نفسه ، ويترتب على هذا اليأس ما يترتب عادة من شعور بالنقص واحتقار للذات وما شابه ذلك من نتائج . ولذا وجب أن يظهر المعلم للأطفال على طبيعته فى حدود ما تتطلبه حياة الجو المدرسى القائم . وإذا لم يمكن المعلم أن يفعل ذلك نظراً لتأصل بعض الصفات السيئة فى نفسه التى يصعب التغلب عليها ، والتى يتحتم ظهورها

فى الجو المدرسى ، فليس خليقاً به أن يمتهن التدريس إطلاقاً .

تنقلنا هذه النقطة إلى نقطة أخرى قريبة جداً منها ، وهى التكلف فى المظهر . فأغلب المدرسين يرون (أو كانو يرون إلى عهد قريب) أن مظهر الوقار ضرورى لهم ، وإلا فقد سلطانهم ، وساء النظام الضرورى لسير العمل . ولكن سيكلوجية الظهور بمظهر الوقار والتكلف بسيطة واضحة ، فالمرء يلجأ للوقار عادة بطريقة لاشعورية حتى يدفع عن نفسه مظنة معينة ، كالجهل أو التفاهة أو القصور فى أية ناحية من النواحى . فالوقار هو ما يغطى الإنسان به نفسه حتى لا يكشفه غيره . وإذا كان المدرس وقوراً جداً ، فإنه لا يمكنه النزول عادة إلى مستوى الأطفال ، ولا أن يندمج معهم ، لأن الوقار المصطنع والطفولة لا يندمجان بسهولة .

وبسبب تمسك بعض الناس بالظهور بمظهر الوقار نرى المجتمع الذى ينتمون إليه مقسما إلى طبقات نميز فيها بين الضخمة والتظاهر بالعظمة[1] ، ولذا كان التمسك بالتكلف منافياً لروح الديمقراطية فى التعليم .

والتخلص من غلاف الوقار يظهر المعلم طبيعياً صريحاً مخلصاً ، ولكن التكلف فيه ينفر التلميذ منه ، ويوحى إليه بأنه يتصف بطابع التمويه والرياء ، فإذا نجح المعلم فى التخلص من هذا الغلاف أوحى إلى تلميذه بأنه يتخلق بالصراحة والإخلاص ، وجعله يشعر بالاطمئنان إليه . وعندما يكتشف التلاميذ نواحى القصور فى معلمهم يصح له أن يفسرها ، ويفسر ضررها ، وينصحهم بعدم التخلق بها ، ويبين لهم فى صراحة وجه صعوبة تخلصه هو منها ، ووجه تضايقه منها . ومثل هذا الاتجاه يمكن أن يؤخذ مثلا فى حالة التدخين على أن يكون المعلم مخلصاً فى ذلك .

فكأن الصورة التى يجب أن يكون عليها المعلم هى أنه أخ أكبر مكشوف على طبيعته يسترشد به الأطفال ، ويطيعونه ، ويحبونه ، ويحيا معهم حياتهم ، ويبادلهم حباً بحب واحتراماً باحترام ، ويشعرون أنه يعمل لصالحهم بحماس واهتمام .

---

(١) لذلك يسهل فهم حكمة تقاليد الحج فى خلع الملابس العادية والاكتفاء بالازار ، لأنها تزيل غلاف الوقار الصناعى الظاهرى ، وبذلك يتحقق نوع من المساواة يحس به الحجاج ، ويطربون له أشد طرب .

المراجع

Adler: The Education of Children. Ch. X.

Craig: School Life and Mental Instability.

Gates and others: Educational Psychology.

G.H. Green: Psycho-analysis in the Classroom.

Gruenberg: The Gnidance of Chidhood and Youth.

Hildreth: Psychological Service for School Problems.

C. Miller: The New Psychology and the Teacher.

Neill: The Problem Child.

Neill: That Dreadful School.

Neill: The Problem Teacher.

Sayles: The Problem Child in School.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Symonds: Mental Hygiene of the School Child.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

Valentine: The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الباب الثالث

مشكلات تربية النشء

الفصل الثالث عشر : المشكلات المتعلقة بالتغذية .

« الرابع عشر : « « بالنوم .

« الخامس عشر : التبول اللا إرادى .

« السادس عشر : الحركات العصبية . مص الأصابع وقرض الأظافر

« السابع عشر : صعوبات النطق .

« الثامن عشر : الخوف وضعف الثقة بالنفس .

« التاسع عشر : الكذب .

« العشرون : السرقة .

« الحادى والعشرون : الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب .

« الثانى والعشرون : التخريب .

« الثالث والعشرون : الغيرة .

« الرابع والعشرون : التأخر الدراسى .

« الخامس والعشرون : المشكلات الجنسية .

« السادس والعشرون: التربية الجنسية .

الفصل الثالث عشر

المشكلات المتعلقة بالتغذية

مقدمة عامة

شرحنا فى البابين السابقين أهم الأسس التى يمكن أن نستند عليها ، لتنير لنا السبيل لإقامة دعائم الصحة النفسية . وتفيدنا معرفة هذه الأسس فى حالات السويين والمرضى . ووضحنا ما أثبتناه من مبادىء مستعينين بالحالات التى درسناها ، وبعدد قليل من الحالات اقتبسناه من دراسات الآخرين . ونرمى فى هذا الباب إلى دراسة بعض المشكلات التى تقابلنا فى تربية النشء . وحيث أن أهم المشكلات تنبع أصلا من تلك التى تظهر فى مرحلتى الطفولة والمراهقة ، فقد اقتصرنا على هذه ، إذ أن دراستها تمكننا من وقاية النشء ، مما قد يظهر عند اكتمال نموه من مشكلات أكثر رسوخاً وأشد خطورة . وسنبدأ بمشكلات الطفولة الأولى ، وغايتنا أن يستنير الآباء ومن لهم صلة وثيقة بالأطفال فى هذه المرحلة فى طرق معاملتهم ، حتى يتمكنوا من مواجهة المواقف البسيطة بأسلوب حكيم يحل المشكلة ، وإلى جانب حلها ، يمنع ظهور ما هو أخطر منها فى المستقبل . وتبدأ مشكلات الطفولة الأولى من وقت الولادة مرتبطة بتغذيتهم ، ونومهم ، وعاداتهم ، وحالتهم الصحية الجسمية ، وما إلى ذلك . والتغذية من أولى هذه المسائل وأهمها .

وقد يسأل سائل : وما الصلة بين التغذية و بين الصحة النفسية ؟ ولكن سبق أن بينا بعض ما يجيب عن هذا السؤال ، عندما تكلمنا عن الأثر المتبادل بين الحياة الجسمية والحياة النفسية . وكذلك عند تعرضنا لموضوع الحاجات أثبتنا الوجه النفسى

لأفضلية الرضاعة الطبيعية على غيرها . كذلك نعلم أن هناك فرقاً بين الأثر الناتج من إجابة الطفل إلى كل ما يطلبه من طعام و بأسرع طريقة ممكنة ، و بين إجابته إلى بعض ما يطلب ، و بشيء من عدم الهلع فى الإجابة . يترتب على مثل هذه المواقف منذ اللحظة الأولى أساليب للسلوك يواجهها الطفل بها . من هذه ؛ أسلوب العنف والإلحاح ، وأسلوب التحايل ، وأسلوب الخضوع والتسليم . وأمثال هذه التشكيلات السلوكية أو الأساليب السلوكية قد تظهر مرتبطة بمواقف ، ربما تبدو لنا بسيطة ضئيلة الأثر ، كمواقف التغذية على اختلاف أنواعها . ولكنها فى الواقع تترك أثراً راسخاً قد ينتشر إلى أنواع السلوك الأخرى عند التقدم فى العمر . وعملية التغذية عملية حيوية هامة بالنسبة للطفل ، إذ تكاد تكون الشيء الوحيد الذى يشغله فى الأشهر الأولى ، و يرجع أثرها إلى تكرارها مرات عديدة كل يوم ، و إلى ارتباطها فى ذهن الطفل بالأم . وهى أول شخص تتكون حوله عواطف الطفل . وتتكون هذه العواطف مرتبطة بعملية التغذية والانفعالات المصاحبة أثناء مواجهة مشكلاتها .

وهناك كثير من مشكلات السلوك تشتق أسبابها من مناسبات تناول الطعام . وأساس هذه المشكلات ما سبق ذكره من أن تناول الطعام له مواقف وله معاملات معينة ، تكاد تكون ثابتة ، من جانب الوالدين . ويرد الطفل على هذه المعاملات والمواقف بأسلوب أو أساليب معينة تكون فى الغالب لاشعورية . ونظراً لأن مناسبة تناول الطعام تتكرر منذ ولادة الطفل مرات عديدة فى كل يوم كما قلنا ، وترتبط فى ذهن الطفل بهذه المناسبات انفعالات الارتياح والتألم والتضايق وعواطف الحب وعواطف الكراهية ، فإن الاحتمال قوى فى أن يكون لمواقف تناول الطعام أثر ثابت فى تكوين شخصية الطفل .

فإذا أخذنا عملية مص الثدى فى الأشهر الأولى ، نجد أنها أهم الخبرات الحيوية عند الطفل . ونجد أنه يقابل فى مواقف الرضاعة مشكلات ، قد نستهين بها ، وقد لا نشعر بها على الإطلاق ، كتدفق اللبن أو قلته ، أو عدم القدرة على المص لعدم

ملاءمة الحلمة ، وما إلى ذلك . وقد يتوقف على طرق مواجهة الطفل مشكلات مواقف الرضاعة تكوين جانب كبير من طابع « الشخصية » الذى يلاحظه بعض الآباء ، مما يسميه آدلر بأسلوب الحياة أو طابع السلوك (Style of Life) .

كذلك مواقف الفطام لها مشكلاتها ، ولها أزماتها عند الطفل . ويجب مقابلة هذه الأزمات بصورة تحل المشكلة ، وتمنع ظهور مشكلات أخرى فى حياة الطفل . ولأجل أن تمر فترة الفطام بسلام ، يجب أن يمهد لها من الأشهر الأولى ، بتمرين الطفل على تناول السوائل من ملعقة أو كوب ، وأخذ بعض الأغذية التكميلية التى لا بد أن تستوفى شروطاً معينة .

وخلاصة ما تقدم أن تناول الطعام مناسبة لها أهميتها الكبرى عند المشتغلين بالدراسات السيكلوجية للأطفال فى مراحل نموهم المختلفة مبتدئين فى ذلك بالشهر الأول .

حالات

من النادر أن تعرض على العيادات السيكلوجية حالات أساس الشكوى منها صعوبات تتعلق بالتغذية فقط . ولكن تظهر صعوبات التغذية عادة — كغيرها من الصعوبات — ضمن مشكلات أخرى تكون فى الغالب أكثر لفتاً لنظر القائمين برعاية الطفل من مشكلات التغذية نفسها. وتظهر مشكلات التغذية ضمن مشكلات نوبات الغضب ، والغيرة ، والتأخر الدراسى ، وفقدان القدرة على التركيز ، وضعف الثقة بالنفس ، والقلق النفسى ، والإغراق فى أحلام اليقظة ، وما إلى ذلك .

لنأخذ حالة ولد كان فى سن العاشرة من عمره ، وكانت شكوى والديه منه أنه خمول ، خجول ، عنيد ، شديد الغيرة من إخوته ، لا يميل إلى العمل الدراسى ، ميال إلى الكذب ، وهو فوق ذلك كله يتأفف من الكثير من أنواع الطعام ، وقد استرعى نظر والدته تأففه بنوع خاص من بعض الخضروات الممتزجة أجزاؤها

بعضها ببعض كالقرع والسبانخ وما شابه ذلك ، و بعض أنواع الفواكه كالموز . فكان لا يكاد يعض الموز بأسنانه حتى تظهر عليه علامات الاشمئزاز والتأفف ، و يصرخ ثم يقذفه من فيه . وكان يقبل على الأطعمة الواضحة الأجزاء كالبطاطس ، و بعض النشويات ، و بعض أنواع الحلوى ، والبيض ، واللبن .

هذا النوع من الصعوبة موجود عند أغلب الأطفال ، ولكنه يختفى عادة مع التقدم فى السن . ولكن هذا الطفل كان اشمئزازه يزداد مع تقدمه فى السن . ولعل من أسباب ذلك أن الأم كانت تلجأ إلى طرق الإغراء المختلفة ، وكانت أحياناً تلجأ إلى العقاب ، حتى ترغمه على تناول ما لا يحب .

وقد يكون بعض صعوبات هذا الطفل — لا كلها — راجعاً إلى مكانة الطفل فى المنزل . فالأم تعلن أنها تحب البنات أكثر من البنين ، وتفضل — بناء على ذلك — أخته عليه تفضيلا واضحاً ، لا مراعاة لشعوره فيه .

وحالة أخرى كانت الشكوى الأساسية منها شدة الخجل ، والحساسية للنقد ، وفقدان الشهوة للطعام ، وطول المدة التى يقضيها الطفل على مائدة الطعام مع تناوله قسطاً صغيراً جداً منه . وقد اتضح أن الوالد قلق على أولاده وعلى ما يأكلونه و كميته إلى أبعد حدود القلق . ويحتمل أن يكون هذا القلق هو العامل الأساسى . وليس هذا مجال تفسير قلق الوالد وشرح نوعه وطريقة تأثيره فى الابن .

وحالة ثالثة أرسلت للعيادة لتأخر فى النطق . وقد تبين فى أثناء دراستها أن الولد يرفض كثيراً من أنواع الأطعمة . وهو فوق ذلك ميال إلى الكذب والمعاندة ومخالفة الأوامر . ولعل السبب فى ذلك أن الولد يجاب له كل طلب إشفاقاً عليه . والبيئة غنية جداً بحيث يمكنها أن تلبى كثيراً من مطالبه . والولد لتأخر نطقه وسمعه وتأخره العقلى العام يجد فى إصراره على مطالب خاصة مجالا طيباً لإثبات ذاته . والمربية تعنى بأمره ، وهى شديدة قاسية ، مما قد يفسر ميله للمعاندة والكذب والمكر . ولعل الحادثة الآتية توضح موقف المربية نحوه بوجه عام . هذه

الحادثة هى أن الطبيب قد نصح الأسرة بأن تغـذى الطفل « مُخاً » من آن لآخر ، ولـكن الطفل رفض أن يأكله . فوضعت المربية المخ بين شطرين من الخبز ، وقدمته له على أنه فراخ ، ثم اكتشف الولد أثناء تناوله الطعام أنه « مخ » فرفض أن يأكله ، ولـكن المربية أجبرته على تناوله ، وأطعمته إياه رغم الاحتجاج والرفض.

ومن بين الحالات النادرة التى اتجهت الشكوى الأساسية فيها إلى قلة الإقبال على الطعام ، حالة طفل فى الرابعة من عمره ، على جانب كبير من الذكاء كما دل على ذلك اختبار ذكائه ، جم النشاط والجرأة والظرف ، إذ تجده باش الوجه ، اجتماعياً ، حسن الحديث ، قليل الخجل . مليئاً بالحيوية .

إذا جلس هذا الطفل إلى مائدة الطعام فإنه يكاد لا يأكل ، وكثيراً ما يضع اللقمة فى فمه ويتركها مدة طويلة يشرد فى أثنائها بذهنه . فإذا نُبِّه إلى ذلك فإنه يشرب كمية كبيرة من المـاء لتساعده فى عملية الابتلاع .

ويقول والده أن ما يتناوله الولد من الطعام ضئيل جداً على الرغم من كل ما يبذله معه من محاولات الإغراء ، ومحاولات التهديد ، والإهمال أحياناً . ولعله من الواضح أن هذه المحاولات الإيجابية هى التى تصرف الولد غالباً عن تناول الطعام .

وبدراسة ظروف الولد وحياته ، اتضح أنه يكاد يكون عادياً فى كل شىء ، لولا أن الأم تخاف الأمراض خوفاً خارجاً عن الحدود المعقولة . فإذا سلم الولد على شخص غريب فلا بد أن ترى بنفسها أنه غسل يديه جيداً بعد ذلك ، خوف احتمال انتقال عـدوى مرضية . وإذا جلس الولد ليأكل فإن عملية الأكل تحاط بأشد الاحتياطات ، خوف الذباب والأتربة والتلوث وما إلى ذلك . وفى أثناء تناول الطعام ينصرف الـكل إليه يرجونه أن يأكل هذا ، وأن يأكل ذاك .

ويضاف إلى ما تقدم أن كل من بالمنزل يتحدثون عن أن الولد لا يأكل ، وأنه فاقد الشهوة . ويشترك فى ذلك أحياناً الجـيران والأصدقاء والخدم . ويحدث كثير من هذا على مسمع من الولد ، ويكون مصحوباً بعلامات التأثر من جانب

الوالدين . هذا كله مع العلم بأن الولد فى صحة جيدة ، بحسب مظهره ، وبحسب الفحص الطبى الدقيق .

ويلاحظ كذلك أن الولد يعتمد على أمه فى أتفه المسائل من لعب ، ولبس ، ونوم ، وما إلى ذلك .

معنى ما تقدم أن الولد مركز العنـاية فى المنزل ، وأنه نجح فى تحويل كل من بالمنزل إلى التـكلم عنه ، ومراقبته ، والمناقشة فى أمره . وبذلك أصبح بطل المنزل . واستغل — بطريقة لاشعورية — عملية الإضراب الجزئى عن الطعام للوصول إلى هذه البطولة . على أنه يجب أن نعلم أن كل ما يجذب الانتباه أثناء تناول الطعام كفيل بأن يصرف الطفل عن تناول هذا الطعام .

وهنـاك ظروف أخرى ، لعلها ساعدت على جعل هذا الطفل مركز الأسرة ، وهى أنه وحيد والديه . ويعيش فى نفس المنزل أولاد آخرون من زوجة أخرى . هذا الظرف يجعل للولد مركزاً ممتازاً ، لا لسبب إلا لأن له والدين بالمنزل ، وأما بقية الأولاد فليس لهم فيه إلا الوالد . وبحكم صغر سن هذا الولد تجده يتمتع بأغلب عطف أبيه . فهناك نوع من التميز الشديد يشعر به الولد ، رغم كل ما يعمله الوالدان لإزالة الفروق بينه وبين إخوته غير الأشقاء .

ولعل سائلا يسأل وكيف يصمد الولد لـكل هذا الجوع ؟ ولـكن الواقع أن الولد يتناول كمية غير قليلة من الحلوى والأكلات الصغيرة المتـكررة — شأنه فى ذلك شأن أغلب الأولاد المتميزين بمركز خاص .

وقد نصحنا الوالدين بوجوب إهمال كل ما يجعل الولد مركز اهتمام الجميع فيما يختص بتناول الطعام . ونصحنا الأم بمنع كل مراقبة فى أثناء الأكل ، وبوجوب انشغالها عنه قـدر الإمكان . نبهنا الوالدين كذلك إلى وجوب تنظيم النزهة اليومية — وكانت معدومة تقريباً خوفاً على الولد من الحوادث والأمراض . ونصحنا كذلك بوجوب تنويع الطعام ، وبوجوب تعويد الطفل تناول غذائه بين آن وآخر مع أطفال

آخرين ، إذ يلاحظ أن أى طفل يأكل عادة مع زملائه وأصدقائه بشغف أكثر مما يفعل مع والديه .

ووجهنا الوالدين كذلك إلى أن الاحتياطات الشاذة المصحوبة بخوف مستمر ، تضر بصحة الطفل النفسية والجسمية ، وتهزم الأغراض المقصودة منها . فالقلق الذى تظهره الأم بصورة واضحة مرتبطاً بالطفل ، خصوصاً فيما يتعلق بطعامه ، يجعل عملية تناول الطعام عند الطفل مرتبطة ببعض المخاوف . ونتيجة ذلك إما أن يكره الطفل عملية تناول الطعام وينفر منها ، وإما أن يستغل مناسبة تناول الطعام للتحكم فى والديه ، ويحدث هذا كله غالباً بطريقة لاشعورية . لا يتحكم فيها الطفل تحكما إرادياً صريحاً .

أنواع المشكلات وطرق تحديدها

يتبين من الحالات السابقة ، ومن غيرها ، أن من أبرز مشكلات التغذية فقدان الشهوة (Anorexia) . وعند بحث هذا النوع من المشكلات ، يجب أن نعرف إن كان فقدان الشهوة دائماً أم مؤقتاً . فإن كان دائماً يُعزى إلى عوامل مزمنة ، وإن كان مؤقتاً فإنه يرجع إلى عوامل طارئة . ويجب أن نعرف كذلك إن كان ظهوره فجائياً أم تدريجياً . ويكون الفقدان الفجائى فى غالب الأحيان مصحوباً بأعراض أخرى ظاهرة ، كارتفاع درجة الحرارة أو التقزز أو الحالات النفسية الحادة كالغضب واليأس والحزن وما شابه ذلك . كذلك علينا أن نعرف إن كان فقدان الشهوة عاماً يتناول جميع المأكولات ، أم خاصاً يتناول بعضها دون بعضها الآخر . ويجب أن نتقصى إن كان يظهر فى جميع المناسبات أم فى مناسبة معينة كالأكل المنفرد ، أو الأكل على مائدة غير منسقة أو غير منوعة الأصناف أو غير ذلك .

ويظهر فقدان الشهوة بصور مختلفة منها انعدام الرغبة فى تناول الطعام ، ومنها البطء الشديد فى ذلك . ومنها التأفف وما إلى ذلك .

وإلى جانب فقدان الشهوة بمختلف صوره نجد الشره ، فبعض الأطفال يزدردون

الأكل ازدراداً ، وبعضهم يأكل كميات كثيرة جداً . وماذكر هنا عن فقدان الشهوة يمكن أن يذكر عن الشره ، فيجب بحثه إن كان عاماً أو خاصاً ، فجائياً أم مؤقتاً . . . إلى غير ذلك .

ومن المشكلات الحادة النادرة ما يرتبط بتناول الطعام ارتباطاً شديداً كالتقيؤ أو الشعور بالغثيان وترجيع الطعام وغير ذلك .

ويجب أن نذكر عند بحث هذه المشكلات ، الصلة الشديدة بين النشاط الغددى العام وبين تمثيل الطعام والقابلية لأخذه . وعلينا كذلك أن نذكر ما بين الأجهزة الهضمية والتغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال من صلة شديدة .

ومعروف أنه أثناء الانفعالات الشديدة لا يقوم الجهاز الهضمى بأداء عمله أو يؤديه ناقصاً [1] . فالعصارة الهضمية يقل إفرازها أو يقف . وتتعطل كذلك جميع العمليات اللازمة للهضم [2] (راجع حالة ص ٥٤) . ونلاحظ عادة أننا أثناء الحزن أو الغضب أو اليأس نفقد شهوتنا إزاء تناول الطعام . فيجب أن نؤجل للطفل وجبة طعامه إن كان فى حالة انفعالية شديدة حتى يهدأ منها . ويستثنى من الحالات الانفعالية حالات الضحك الخالى من التهيج الشديد . فهذا النوع من الضحك يكون مصحوباً بحالة تراخى . والوصول إلى حالات تراخى قبل بدء تناول الطعام من العادات الطيبة .

كيف ندرس مشكلات التغذية

بعد أن حددنا المشكلة تحديداً واضحاً نتجه إلى دراسة العوامل التى تؤدى إلى ظهورها ولو أن دراسة العوامل وتحديد المشكلة يتداخلان أحياناً تداخلا كبيراً .

---

(١) وعلى العكس من ذلك الجهاز التنفسى والجهاز الدورى فإنهما يؤديان عملهما بغاية الكفاية أثناء التهيج الانفعالى : D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child .

(٢) ويلاحظ أن بعض الأمراض المعدية والمعوية قد اكتشف حديثاً أنها قد تكون سيكلوجية الأصل — أى ناشئة من حياة انفعالية غير سوية . مثال ذلك القرحة المعدية ، والتهاب القولون .

فى فقدان الشهوة نتجه أولا لدراسة العوامل الجسمية ، فيقوم الطبيب المختص بفحص ما قد يكون هناك من إمساك ، أو سوء هضم ، وما هناك من أعراض ظاهرة كالتقيؤ ، واتساخ اللسان ، وسقوط المعدة ، وما إلى ذلك . كذلك عليه أن يدرس إن كان هناك اشتباه فى مبادىء سل ، أو إن كان هناك مصادر للتوكسينات تقلل من الحيوية العامة . كذلك تدرس حالة الغدد . وهناك فوق هذا بعض الخائص الجسمية العامة التى تصاحب عادة فقد الشهوة . فصاحب الجسم الطويل الرفيع يكون قليل الشهوة ، بخلاف صاحب الجسم العريض الواسع . وقد وجد أحد الباحثين أن ٨٢ ٪ من الأطفال الفاقدى الشهوة للطعام من النوع الرفيع الطويل .

والأغراض الجسمية تكون فى حالة فقدان الشهوة أحياناً سبباً لها وأحياناً نتيجة لها . وعلى أى حال يجب فحصها فحصاً جيداً ، والعمل على تحديد الدور الذى تلعبه .

تتجه الدراسة أيضاً فى مثل هذه الحالات إلى نوع التغذية ، فيجب درس غذاء الطفل درساً جيداً ، لمعرفة درجة اتفاق ما يأخذه مع ما يحتاجه الجسم من فيتامينات ، وأملاح معدنية ، ودهنيات ، وما إلى ذلك . ويلاحظ أن كثيراً من الأطفال لا يجوعون فى الميعاد المحدد بسبب كثرة أكلهم للمواد الدسمة ، التى تحتاج فى هضمها إلى مدة طويلة ، أو لتناولهم مواد شديدة الحلاوة قبيل الأكل ، أو لعدم انتظام المواعيد ، أو للنقص فى فيتامينات معينة ، أو غير ذلك .

بعد دراسة الناحيتين السابقتين نتجه لمعرفة ما إذا كانت هناك عوامل مسببة للانهاك العصبى كقلة النوم وسوء التهوية وقلة الرياضة ، وكالعمل المستمر القليل التنويع . ويلاحظ أن تلاميذ المدارس يأكلون فى الأجازات الصيفية أكثر مما يأكلون شتاء فى أثناء العمل . هذا على الرغم من أن حاجتهم للغذاء شتاء أكثر منها فى الصيف . وسبب ذلك ، العمل المستمر القليل التنويع الخالى من فترات الراحة . ومما يؤدى إلى الإنهاك العصبى وجود الطفل فى بيئة تستثير فيه حالات حادة كالغيظ ، أو الضحك ، أو كثرة الكلام ، أو الضجيج ، وما إلى ذلك

بسبب ما يفعله الكبار أحياناً مع الصغار عادة لتسلية أنفسهم .

علينا فوق ما تقدم ، أن ندرس الحياة الانفعالية للطفل من غضب ، أو حزن ، أو يأس ، أو غيرة ، أو فقدان للشعور بالأمن ، أو تضايق من تقييد الحرية ، أو ماشابه ذلك من حالات الانفعال ، التى لا بد لدراستها من ملاحظة الطفل ، و إعطائه فرصة التعبير الحر عما عنده من اتجاهات نفسية ، ومن دراسة ظروف الطفل نفسها ، من حيث علاقته بوالديه و إخوته ورفقائه ، وسلوكه أثناء لعبه وعمله بالمدرسة ، وما إلى ذلك .

ومن أهم ما يتجه إليه الذهن عند درس هذه المشكلة هو الوالدان . فبعض الأمهات يضربن أسوأ المثل لأطفالهن ، بأن ينقطعن إلى حد كبير عن تناول الطعام لتخفيف أوزانهن . و بعض الآباء لا يتناول وجبة الإفطار . إما بسبب قصر المدة الواقعة بين الاستيقاظ و بين ترك المنزل للعمل ، أو بسبب التدخين ، أو بسبب الإنهاك الناشىء من السهر فى الليلة السابقة ، أو غير ذلك . و بعض الآباء يكثرون من التنبيهات أثناء تناول الطعام ، فينتهزون فرصة تناول الطعام لتلقين الطفل آداب الأكل ، وتقاليده ، مما يصرف الأطفال عن الطعام نفسه . ويجب أن يذكر الآباء أن الطفل يتعلم آداب المائدة بمرور الزمن عن طريق المثال والممارسة المتدرجة ، لا عن طريق التلقين والشرح . كذلك يخطىء بعض الآباء إذ يقومون بإغراء الأطفال ، أو إجبارهم ، أو إقناعهم بمختلف الأساليب لتناول الطعام عامة ، أو لتناول نوع معين منه ، وهذا النوع من الآباء يكون عادة قلقاً ، إما على الطفل ، و إما على نفسه . وفى الحالة الأخيرة يسقط قلقه الذاتى على الطفل . ويكون فقدان الشهوة لدى الطفل . أحياناً حيلة شعورية أو لا شعورية لعقاب الوالدين ، أو لعقاب الذات ، وهذا يحدث إذا أذنب الطفل ، فقد يعاقب نفسه بالإقلاع عن الطعام . كذلك إذا عوقب الطفل من والديه ، فقد يقلع عن الطعام عقاباً لوالديه ولنفسه فى الوقت عينه .

وتلخيصاً لما تقدم نقول ، إنه بعد درس جميع العوامل الجسمية المحتملة ، ندرس

الظروف والمواقف التى تظهر فيها المشكلة ، وبنوع خاص الموقف الذى ظهرت فيه أول مرة ، وعلينا كذلك أن ندرس الوظيفة التى تؤديها المشكلة لصالح الفرد . أما المواقف ، فأهمها معاملة الوالدين للطفل عامة ، ومعاملتهما له أثناء تناول الطعام خاصة . كذلك من المواقف ما يربط الطعام فى ذهن الطفل برباط منفر أو غير سار ، كأن يغرى الطفل على شرب شاى مثلا على أنه شاى خالص ، ثم يكتشف أثناء شربه له أنه مخلوط بزيت الخروع مثلا . أما الوظيفة التى يؤديها فقدان الشهوة ، فأهمها جذب الانتباه ؛ فمن الجائز أن تمنّع الطفل — دون أن يقصد دائماً — يثير حوله اهتماماً من والديه لا يحصل عليه عادة بغير هذا التمنع . ومن الجائز ، كما قلنا ، أن إضراب الطفل عن الطعام يشعر الوالدين بذنبهما لإيقاعهما عليه عقاباً معيناً .

البطء فى تناول الطعام

ويتصف بعض الأطفال ببطء شديد فى تناول الطعام . ولعل أهم سبب لذلك ، هو أن تناول الطعام يُنظر إليه فى بعض الأحيان كنوع من اللعب يصرف الطفل فيه من الوقت ما شاء كيفما شاء . ولكن هناك إلى جانب هذا ، صعوبات المضغ الناشئة من أسباب محلية فى الأسنان أو الفكين أو غير ذلك ، أو أسباب عامة كالتعب والإنهاك . كذلك قد يرجع السبب إلى عدم الرغبة فى تناول الأطعمة المعروضة ، أو وجوب تناول الطعام رغم الشبع ، أو انشغال الذهن ، أو الإغراق فى أحلام اليقظة وكثير من الأطفال يشغلون أثناء تناول الطعام بمشكلاتهم الخاصة ، أو بملاحظة ما يجرى حولهم من الكبار أثناء تناول الطعام . وجميع النواحى التى اتجهنا إلى دراستها فى فقدان الشهوة يمكن أن نتجه إليها عند دراسة حالات البطء فى تناول الطعام .

موقف الآباء وما يترتب عليه

وينظر الآباء للأكل ومواقفه نظرة خاصة ، ولهم إزاء ذلك اتجاهات معينة

تكاد تكون محدودة فى كل والد . وسبب ذلك أن درجة إقبال الطفل على الطعام تعتبر عادة دليلا على الحالة الصحية . ويختلف الآباء بعضهم عن بعض فى درجة اهتمامهم بصحة الأطفال ، ذلك الاهتمام الذى يصل فى أقل درجاته إلى الإهمال ، وفى أكبر درجاته إلى القلق . ويختلف تبعاً لذلك الاهتمام عناية الآباء بغذاء الطفل . ونظراً لأهمية الأكل فى نظر الأطفال أنفسهم ، فإننا نجد أن الأطفال فى حالة إهمالهم قد يحلون مشكلاتهم بأنفسهم . وأما فى حالة القلق على الطفل ، فإننا نجده يفقد ثقته فى والديه ، إذا أدرك ضعفهما ، وبذلك ينهدم المثال الأول للقوة الذى كان ماثلا أمامه . ويحتمل أن ينتقل قلق الآباء نحو الأبناء إلى الأبناء أنفسهم ، فيصبح الابن قلقاً على نفسه ضعيف الثقة فيها . وينظر الآباء عادة إلى قلقهم هذا على أنه نوع من العطف يجب على أبنائهم أن يحمدوهم عليه . ويجب أن يعلم الآباء أن حالات القلق عندهم تؤثر فى أطفالهم من أعمار مبكرة جداً ، لا عن طريق الإدراك والتحليل والمعرفة الصريحة ، وإنما عن طريق المشاركة الوجدانية البدائية[١] .

ويصاحب القلق عادة ما يمكن أن يسمى بالتقنين[٢] (Standardisation) ويقصد به تحديد كميات الأكل اللازمة لكل فرد . ويلاحظ أن بعض الآباء يعتقد أن الطفل فى سن معينة لا بد أن يأكل كميات معينة . ويشغل الآباء أنفسهم بكمية الوجبة ، ونوعها ، وعدد الوجبات . ويشغلون أنفسهم بحيث إذا سقطت وجبة منها قلقوا ، وخافوا من عواقب هذا على صحة الطفل . ويجب على الآباء أن يتذكروا أن الأطفال يختلفون فى أوزانهم وفى سرعة نموهم ، وفى نوع نشاطهم ، وما يتطلبه نشاطهم من طاقة . والكمية التى يحتاجها الطفل تختلف عادة من طفل إلى آخر . وتختلف كذلك فى الطفل الواحد من وقت إلى آخر اختلافات كبيرة فى بعض الأحيان . وتتوقف هذه الاختلافات على الحالة الوجدانية ، وعلى نوع النشاط الذى يبذله وكميته ، وعلى الظروف التى

---

(١) راجع صفحة ٦٦ .

(٢) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

يتناول فيها طعامه ، وعلى نوع الحياة التى يمر بها . . إلى غير ذلك .

على أن نوعاً من التقنين الخاص بنوع الأكل ، وكميته ، ومواقيته ، يجب أن يراعى ليحقق الغاية الأساسية ، وهى أن يأخذ الفرد طعامه ، بحيث يهضمه ، ويتمثله جسمه ويتحول إلى قوة يستفيد منها فى نشاطه ، ويشترط ألا يكون تقنيناً جامداً لا مرونة فيه . ولكن إذا لوحظ أن أكل الطفل قد نقص فى كميته وبعض عناصره وعدد مراته نقصاً واضحاً فإنه حينئذ يجب البحث فى حالته .

والتشبث بالتقنين يكون ، كما قلنا ، مصحوباً بقلق من جانب الآباء . ويكون مصحوباً عادة بشىء من الإغراء ثم الإرغام ، مما يربط الموقف كله — بما فيه من أكل ووالدين وأسلوب معاملة برباط انفعالى غير سار ، وقد يترتب على هذا نشوب كراهية الطفل لوالديه ، وللطعام ولأسلوب الإغراء ، والارغام . وفى الغالب تكبت الكراهية للوالدين ، مما قد يؤدى إلى أعراض مرضية . ويلاحظ أن مراقبة الآباء للأبناء تصرف الطفل عن الطعام ، وتعطيه سلاحاً قد يستغله بنجاح ضد والديه . وتنشأ هذه المراقبة عادة من قلق الآباء الناشىء بدوره من الخوف من المرض أو من الوفاة ، فكثيراً ما يحدث أن يموت للطفل قريب بمرض كالسل ، فيكون هذا الحادث بداية لحملة شديدة على الطفل فى التغذية . كذلك قد يحدث أن يموت قريب بمرض التيفويد فتحاط عملية الأكل باحتياطات شديدة جداً لمنع الذباب ، فتصرف هذه الاحتياطات ، ومصاحبات الخوف الطفل عن تناول الطعام . فضلا عن أنها قد تغرس فيه خوفاً شاذاً مرتبطاً بالطعام ، وتؤدى إلى ما قد تؤدى إليه من المشكلات العديدة الأخرى .

ويلاحظ أن شدة قلق الآباء تعطى الأطفال فرصة الشعور الزائد بأهميتهم ، واعتراف السلطة بهم . وهذه نتيجة تسرهم ، فتدفعهم أحياناً إلى التمسك بما يثير هذا القلق . والطفل عنده بطبيعته نزعة قوية للسيطرة ؛ وذلك لضعفه ، وقوة من حوله . فهو يتلمس الفرص ليصل إلى التعبير عن هذه النزعة للسيطرة . فإذا أضرب مرة عن

تناول الطعام ، أثار هذا الإضراب قلق والديه ، أو غضبهم ، أو حفزهم على ضربه ، فإنه يصل بسلاحه هذا إلى إحداث حدث عظيم محسوس . لذا كان خير الطرق إزاء هذا التصرف من الأطفال الإهمال والهدوء التام من جانب الآباء .

وكثيراً ما يحدث أن تقوم الأم بإغراء الطفل ، ورجائه ، والتوسل إليه . وأحياناً يجرى الطفل فى أرجاء المنزل ، والأم تجرى وراءه بغذائه علّه يتناوله . وهذا منظر يشعر الطفل بسيطرته وتملكه الموقف . وكثيراً ما تأمر الأم طفلها بتناول الطعام ، فإن رفض تلجأ إلى تهديده . فإذا صمم فقد تعود إلى إغرائه ، وتتنازل عن تهديدها . وهكذا قد تتأرجح الأم بين الأمر ، والإغراء ، والتهديد ، والإقناع ، والوعد بثواب ، أو الوعيد بعقاب ، وما إلى ذلك من الأساليب المضطربة التى يترتب عليها أحياناً اضطراب الطفل نفسه ، وأحياناً يترتب عليها زيادة تمسكه بموقفه ، لأنه يشعر فيه بقوته . وأحياناً تشكو الأم حال طفلها إلى جيرانها أو زوارها ، وتشفع شكواها بأن تقول إنها غلبت على أمرها معه ، ولا تدرى ماذا تفعل . وتحدث هذه الشكوى أحياناً على مسمع من الطفل ، الذى يشتق لذة كبرى من أنه وصل إلى ما تشتاق إليه نفسه من القوة ، مما جعل شخصاً كبيراً كأمه يفشل أمامه ، ويعترف بذلك . ويلاحظ أن رفض الطعام يكثر عادة فى الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد أو المدلل — أى الطفل الذى يحتمل أن تضعف الأم أمامه .

ويدفع القلق بالآباء أحياناً إلى كثرة التكلم عن المرض والتسمم والأغذية الثقيلة والأغذية المفيدة وما إلى ذلك . ويصحب التكلم عن هذه النواحى — خصوصاً الخوف من المرض والتسمم — حالة انفعالية . ويسمع الأطفال هذه الأحاديث إما عرضاً ، وإما لأنها موجهة إليهم ، ولا يفهمون منها شيئاً ، ولكنهم يتأثرون بما بها من اتجاه انفعالى ، يترتب عليه خوف وصدوف عن تناول الطعام فى غالب الأحيان .

ويؤثر الآباء فى أبنائهم دون أن يشعروا . عن طريق الإيحاء[1] . فكثيراً

(١) راجع ص ٥٧ .

ما يحدث أن طفلا يرفض اللبن ، لأن الأم قالت إنها لا تحب اللبن . أو يرفضه لأنه رفضه مرة ، فقالت الأم إن ابنها لا يحب اللبن . بذلك تثبت لديه الفكرة عن طريق الاتجاه الذى وجهته فيه الأم . وثبوت الفكرة يؤدى وظيفة هامة ، وهى أن الطفل تصبح له خاصية مميزة يتكلم عنها الناس . ويلاحظ أن كراهية الأطفال والبالغين لكثير من أنواع الطعام ، وحبهم لكثير من الأنواع الأخرى يأتى غالباً عن طريق الإيحاء ، بمعنى أن اتجاهات الكبار نحو الطعام من حب وكراهية قد تخلق فى الطفل اتجاهات مماثلة . ويجب أن نشير إلى أن إيحاء السلوك أقوى دائماً من إيحاء الكلام ، فرؤية علامات الاشمئزاز التى تبدو على الوجه أقوى أثراً من سماع الألفاظ الدالة عليه .

خلاصة هذا أن الأطفال يتأثرون كثيراً من موقف آبائهم إزاءهم عند تناول الطعام وكذلك من موقف الآباء أنفسهم إزاء الطعام .

الشره

ومن المشكلات التى يندر أن يشكو منها إنسان مشكلة الشره ، وهى تبدو بصور مختلفه منها أن يأكل الإنسان أكثر مما يحتمل ، أو أن يزدرد الأكل ازدراداً دون أن يحسن مضغه . وما قلناه عن فقدان الشهوة يمكن أن يقال عن الشره من أنه قد يكون عاماً ، وقد يكون خاصاً ، وقد يظهر فى مناسبات معينة دون أخرى . . إلى غير ذلك .

وعلينا أن نذكر بهذه المناسبة أن الناس يقال إنهم يأكلون غالباً أكثر مما تحتاج إليه جسومهم . فتناول الطعام لا يحدث عادة لسد حاجة جسمية فحسب ، وإنما يحدث لأنه عادة معينة يريد أن يمارسها الفرد فى أوقات معينة . وهذه العادة ينظر إليها بعض الناس على أنها نوع من النشاط الملذذ المقصود لذاته . ولذا يصبح بعض الناس شغوفاً بالأكل ، ينظر إليه كنوع من الهواية التى يصرف فيها ماله وتفكيره ونشاطه .

وإذا اتجهنا لدرس حالة شره ، فأول ما يجب أن يتجه إليه الذهن هو درس الحالة الجسمية كالديدان واضطراب الغدد أو غير ذلك . ثم ندرس حياة الفرد الانفعالية . فكما يكون الشره ظاهرة للحرمان ، كذلك يمكن أن يكون ظاهرة للتدليل . فالشخص المدلل لا يمكنه عادة أن يضبط نفسه أمام رغبة من رغباته ، بل يهيء لنفسه فرص التلذذ الذاتى ، وكأنه فى ذلك يدلل نفسه . ويلاحظ أن أصحاب النزعات « البوهيمية » على وجه العموم أما أنهم كانوا أصلا محرومين أو مدللين .

ويكون الشره أحياناً مظهراً من مظاهر النزعات الاعتدائية ، ففيه مجال العض والانقضاض والفتك . وكثير من الناس فى حالات الغضب المكتوم ، يعبرون عن غضبهم هذا بالانكباب على التدخين أو السكر أو تناول الطعام أو ما شابه ذلك .

كذلك يمكن أن يكون الشره دالا على فقدان الشعور بالأمن[1] ، فهو يظهر أحياناً فى حالات اليأس ، وفقدان حب الغير ، والشعور بالاكتئاب المصحوب بالحاجة الحادة إلى التفريج عن النفس عن طريق الأكل والشرب. وكثير من الناس يزداد وزنه بسبب الإفراط فى السكر والأكل والشرب والنوم بعد فقدان زوجاتهم أو أزواجهن ، وقد يكون الأكل فى هذه الحالات وفى غيرها نوعاً من النشاط اللذيذ يتلهى به الفرد عن مشاكله الأخرى .

كذلك يمكن أن يرجع الشره إلى ضيق الميول ، وسعة وقت الفراغ ، والملل .

أما أصحاب مدرسة التحليل النفسى فقد ينظرون إلى الشره على أنه تثبيت لمرحلة اللذة الذاتية المرتبطة بالفم (Oral Auto-erotic Fixation) ، غالباً ما يرجع فى أصله إلى مشكلات مرتبطة بعملية الرضاعة .

---

(١) فى بعض الأحيان يزدرد بعض الأطفال ما أمامهم من طعام حتى يسرع دورهم إلى طعام آخر يحبونه ويخشون من أن يجهز عليه .

كذلك يبطىء أحياناً بعض الأطفال فى أكل ما أمامهم لكى يطيلوا مدة تلذذهم به لا سيما إن كانوا يحبونه حباً شديداً .

القيء

من المشكلات التى ترتبط عادة بتناول الطعام مشكلة القيء ولبحث حالة القيء يعرف أولا إن كان متكرر الحدوث أو عارضاً ، ويعرف إن كان مرتبطاً بمناسبة معينة أم عاماً ، وبعد أن تحدد المشكلة تفحص الناحية الجسمية أولا ، ثم تدرس الحياة الانفعالية وتدرس المناسبات التى يظهر فيها القيء . وكثيراً ما يحدث أن يكون القيء ناشئاً من إرغام الطفل على تناول طعام لا رغبة له فيه[1] ، وهذا الإرغام يؤدى إلى ثورة نفسية مكبوتة غالباً ، ويعقبها عادة قيء . وقد يحدث القيء — كما يحدث أى عرض جسمانى — على أساس الهستريا التحولية . أى يقوم التقيؤ بجلب انتباه الغير ، أو بتخويف الكبار، أو تعبيراً عن عقدة نفسية أساس انفعالها التقزز أو الخوف وما إلى ذلك .

كذلك يمكن أن يحدث التقيؤ بالإيحاء أو المشاركة الوجدانية . فبعض الأطعمة قد توحى للطفل بمواد أخرى تشمئز منها نفسه ، وقد يتقيأ الطفل لأنه رأى غيره يتقيأون . وقد يكون الإيحاء فى حالة التقيؤ ذاتياً أو فردياً أو اجتماعياً ، وقد يكون إيحاء صيت أو إجماع، ويمكن إيراد أمثلة كثيرة لبيان مختلف هذه الحالات(ص٥٧).

ويشبه التقيؤ ترجيع الطعام ، وهو قاصر غالباً على صغار الأطفال . ويرجع لوضع اليد فى الفم أو ابتلاع بعض الهواء أثناء الرضاعة ، ويمنع بأن يترك الطفل نائماً على ظهره بعد الرضاعة بضع دقائق . هذا إلا إذا بدأ فعلا فى الترجيع فيحسن رفعه حتى يتخلص من الطعام الذى يرجع . ولترجيع الطعام غير هذه الأسباب البسيطة أسباب طبية لا يمكننا التعرض لبحثها هنا .

---

(١) مارى فتاة أمريكية عمرها سنتان ونصف ، جلست مع أمها إلى مائدة الطعام . وكان المنزل على ربوة مرتفعة ، وأثناء جلوسهما قامت زوبعة شديدة جداً شعرا بها شعوراً واضحاً . وفى أثناء تناول الطعام قدم للطفلة قرع ، فرفضت أن تأكله ، فنهرتها أمها وأرغمتها ونجحت . وكانت النتيجة أن البنت بدأت تتقيأ ، واستمرت أسبوعين تخاف العواصف خوفاً شديداً ،

The Mother's Encyclopaedia, p. 273.

خاتمة

يتبين من كل ما تقدم فى هذا الفصل وجوب الاهتمام بتغذية الأبناء مع وجوب التخلص من القلق . ويجب أن نذكر أن مناسبة تناول الطعام فرصة ملائمة لما يسمى بالتعلم العرضى (Concomitant Learning) . ففيها يتعلم الطفل اعتماده على نفسه، ويتعلم التعاون، وما إلى ذلك . وإذا أخذنا القلق مثلا، فإلى جانب ما ينشأ عنه من مشكلات عدة ترتبط بالأكل ذاته ماينشأ عنه من مشكلات أخرى كضعف الثقة بالذات، وكراهية السلطة ، وما إلى ذلك . وإذا امتنع القلق أصبح سقوط أكلة من بين الأكلات ينظر إليه على أنه أمر عادى، وقلت الفرص التى يتخذها الطفل لإثبات ذاته بطرق غير مقبولة. ولا يصح بحال أن تصبح التغذية مسرحاً ينصب للطفل ويعرض عليه لمن حوله . فيجب أن يقل من يراقبون الطفل فى أثناء تغذيته . وإذا كبر فيحسن أن تنشغل عنه أمه أثناء تناوله الطعام ، ولو أنها تكون قريبة منه إذا احتاج إليها الأمر .

ويجب أن يراعى أن الطفل عند تناوله غذاءه يكون منشرحاً هادئاً، لا مهتاجاً، ولا مشغول الذهن . فلا يصح نزعه فجأة من لعب نشط لذيذ فى نظره هو ليتناول طعامه ، ولا يصح إرغامه على تناول طعام وهو فى حالة غضب أو تضايق ، بل لا يصح إرغامه على تناول الطعام أو تناول طعام معين ، ما دام يفهم أن قاعدة المواعيد المنتظمة قاعدة محترمة لا يجوز اختراقها .

كذلك إذا أضرب الطفل عن تناول طعامه لأمر ما ، فبغاية الهدوء يقابل إضرابه . ويؤجل تناوله الطعام إلى الوجبة القادمة[1] . هذه هى القاعدة العامة ولكنها تطبق بشىء من التصرف والحكمة .

---

(١) حدث أن كان طفل انجليزى يلعب مع زملائه على شاطىء البحر ، فعهد إليه إخوانه بحراسة القلعة التى بنوها من الرمال وانصرفوا ، ولما جاء وقت طعام الغذاء نادته أمه فقال لها إنه مكلف بحراسة القلعة . فقالت له : ولكن الوجبة القادمة لك هى وجبة الشاى إذا أنت لم تحضر الآن لتناول طعام الغذاء ، فقال : « ليكن » . فتركته وشأنه ، ولم يتناول طعامه إلا فى وقت تناوله الشاى — أى فى الساعة الخامسة بعد الظهر . فى هذا المثال ضحى الولد تضحية كبيرة فى سبيل وفائه لزملائه وشعوره بواجبه نحو مسئوليته . وكان فى هذا المثال فرصة طيبة لتعويده النظام واحترامه لنفسه وحسن تقديره لها ، ولا سيما وأن والديه أظهرا احترامهما لولائه لزملائه . وبمناسبة هذا المثال نلفت النظر إلى وجوب التفريق بين الحزم والثبات ، وبين الشدة والإرغام على الطاعة .

ويسهل احترام قاعدة المواعيد المنتظمة إذا منعت الأكلات الصغيرة التى تتكون من الحلوى وما شابه ذلك . ويحسن التدقيق الشديد فى هذه النقطة ، إذ أن كثيراً من الأمهات يراعين هذا ولكن قد يفسد عليهن القاعدة الجدات أو الخالات أو أمثالهن من الأعمام أو الأخوال أو الضيوف أو المضيفين .

ويجب كذلك أن يراعى تقديم الطعام بطريقة شيقة جذابة . وأن يكون فيه مجال للتنويع من يوم إلى آخر ؛ وأن يقدم بقدر الإمكان فى أوان خاصة بالطفل ، إذ أن فى هذا فرصة طيبة لتفهيمه معنى الملكية ، واحترام الناس لملكيته ، و تعويده احترام ملكية الغير . كما أن فى هذا مجالا صالحاً لتعويده الاعتماد على نفسه فى تنظيم أدواته ورفعها ووضعها وغير ذلك . ويجب أن يشجع الطفل على تناول طعامه بغير مساعدة فى أول فرصة ممكنة . وترجع قيمة هذا من ناحية التربية إلى أن تناول الطعام عملية يكررها الطفل مرات فى كل يوم . ولذا كان تناول الطعام مجالا صالحاً للتربية ، واعتماد الطفل على نفسه فى إطعام نفسه يؤدى إلى إعطائه ثقة فى نفسه . مما يجعله لا يتأخر فى استقلاله عن أمه واعتماده على نفسه فى بقية أموره . وقد يعترض على هذا بأن الطفل لا يمكنه أن يستعمل أدوات الأكل . ولكن يرد على هذا أيضاً بأنه لا يتعلم إلا عن طريق الممارسة والمحاولة الشخصية وارتكاب الأخطاء وتصحيحها بنفسه ، و بشىء من إرشاد من حوله له . ويشتق الطفل سروراً عظيما إذا قل إرشاد من حوله له ، وتمكن من كشف أخطائه وتصحيحها بمجهوده الشخصى . ويحسن — إذا احتاج الأمر — مراعاة قدرة الطفل بإعطائه أدوات الأكل المناسبة من حيث حجمها ووزنها وسهولة استعمالها ، ويراعى نفس هذا فى المقاعد والموائد بحيث لا تكون الحركات اللازمة شاقة على الطفل ، لأن صعوبة هذه الحركات مما يصرف الطفل عن الطعام . ويراعى فى تناول الصغار طعامهم مع الكبار ملاءمة طعام الكبار لهم وحاجتهم إلى الاجتماع ، وشعورهم بالسرور من مصاحبة الكبار والتمثل بهم .

ويجب أن يعطى الطفل فرصة تناول طعامه مع صغار من سنه بين آن وآخر ،

لأن هذا مما يثير شهوته[١] . ويلاحظ كذلك أن ميل الطفل لنوع معين من الطعام ليس من الضرورى أن يتكون بصورة مباشرة ؛ فلا فائدة من شرح فوائد الخضراوات واللحوم للطفل. ولكن من أساليب تكوين الميل أن يساعد الطفل مثلا فى شراء الطعام أو فى زراعته[٢] أو فى تجهيزه ، ويجب ملاحظة شدة قابلية الطفل للتأثر والإيحاء مع العلم بأن إيحاء السلوك ، كما قلنا ، أقوى كثيراً من إيحاء الألفاظ .

كذلك يلاحظ أن قابلية الأطفال لتناول الطعام وسهولة هضمه واستمرائه تتوقف على نشاطهم ومرحهم ، وسرورهم وانتظام غذائهم ، وانتظام نزهتهم ، وخروجهم للفسحة فى الهواء الطلق ، وتتوقف كذلك على جو المنزل ، وشعورهم بمركزهم منه ، وتتوقف كذلك على جو المدرسة وشعورهم بالنجاح فيها .

---

(١) ونشير هنا إلى التجارب الطريفة التى أجراها كاتز (Katz) على الدجاج ، فبرهن على أن الدجاجة تأكل مع غيرها أكثر مما تأكل بمفردها ، وأنها تأكل ، إذا قدم لها الأكل بكميات صغيرة تتلو كل منها الأخرى أكثر مما لو قدم الأكل دفعة واحدة بكمية كبيرة : From D. Katz Animals and Men.

(٢) عالجت إحدى الأمهات عدم ميل ابنتها الصغيرة للخضراوات بأن شجعتها على مساعدتها فى زراعة بعض الخضراوات فى حديقة المنزل . فقامت بوضع البذور وريها وتعهدها وملاحظتها يوما بعد يوم . وما نضجت هذه الخضروات حتى قطفتها ثم تناولتها طعاما بشىء من الشغف .

From The Mother's Encyclopaedia, pp. 244-246.

المراجع

Adler: Guiding the Child.

Blanton: Child Guidance.

Beatz & Bott: The Management of Young Children.

Boenheim: Practical Child Psychotherapy.

Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

Patri & Angelo: Child Training.

Shaffer: Psychology of Adjustment.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الرابع عشر

المشكلات المتعلقة بالنوم

مقدمة

عند دراستنا لمشكلات الأطفال والناشئين والبالغين يهمنا عادة معرفة كمية النوم ونظامه ، إذ أن كثيراً من المشكلات قد ينتج مباشرة من الإجهاد الجسمى والعصبى الذى لا سبيل إلى التغلب عليه إلا عن طريق النوم . وكثير من حالات الانقباض ، ونوبات الغضب ، والكسل ، وضعف القدرة على التركيز ، وانعدام الاستقرار ، وكثرة الوقوع فى الخطأ ، وفقدان التوازن الحركى ، وما إلى ذلك ، قد يرجع عند الصغار والكبار إلى قلة النوم أو سوء نظامه أو إليهما معاً . ويلاحظ أن حالات الأطفال العصبية من تهتهة ، ومص أصابع ، وقرض أظافر ، وما إلى ذلك تزداد سوءاً فى الأيام التى لا ينامون فيها نوماً جيداً كافياً .

ويدّعى بعض الناس أحياناً أنهم لا ينامون إطلاقاً ، ولكن هذا غير ممكن . فهؤلاء الناس ينامون نوماً خفيفاً متقطعاً لا يكادون يشعرون به . وقد دلت التجارب على أن الإنسان لا يمكن أن يواصل حياة عادية إذا ترك النوم مدة تزيد على ثلاثة أيام أو أربعة ، حيث تبدأ حالات انقباض وهلوسة ، وفقد للتوازن ، وفقد شديد للقدرة على التذكر وما إلى ذلك . وأجريت تجارب على الحيوان فثبت أن الكلاب تموت إذا لم تنم بضعة أيام .

ونظراً لأهمية النوم الحيوية ، ولشد غرابته كظاهرة ، فقد اتجه لبحثه كثير من العلماء ، وأجروا حوله التجارب ووضعوا النظريات . ولا يمكننا فى هذا المجال أن نتعرض لهذه البحوث الفسيولوجية والكيميائية والهستولوجية والسيكلوجية ،

وإنما نكتفى بالإشارة إلى نظرية كلاباريد[1]، الذى يرى أن النوم ليس نتيجة لحلول التعب، وإنما هو وظيفة حيوية يقوم بها الكائن الحى ليقى نفسه من حلول التعب. فالنوم فى رأى كلاباريد هو صمام الأمن. هذه هى النظرية البيولوجية المقبولة، وهى تفترض كذلك أن النوم من خصائص الكائنات الحية الراقية، ذات المجموع العصبى المركزى.

تدل هذه المقدمة على القيمة الحيوية للنوم، وعلى أن النوم يهمنا دراسته من النواحى الوقائية والعلاجية، ويهمنا بنوع خاص أن يكوّن الناشىء فيه عادات صالحة.

الحاجة إلى النوم عند الأطفال

يلاحظ أن الطفل الصغير ينام كثيراً جداً، إذ لا يستيقظ بعض صغار الأطفال إلا للتغذية، ولكن مدة النوم عند الأطفال تقل تدريجياً إلى أن تصل إلى حدها الأدنى وهو ثمان ساعات تقريباً عند البالغين. ولا يتجاوز عادة هذا الحد الأدنى إلا فى مرحلة الكهولة. وحاجة الطفل إلى النوم الكثير حاجة طبيعية، فعملية النمو السريع التى تبطؤ تدريجياً بتقدم الطفل فى عمره، تستنفد منه مجهوداً كبيراً يستغل فى عملية الهدم والبناء اللازمين لأنسجة الجسم. ولا بد له من تعويض هذا المجهود أثناء النوم، بإراحة نفسه راحة تكاد تكون تامة. ويخطىء من يعتقد أن الطفل لا يبذل مجهوداً أثناء ساعات يقظته، فملاحظة الطفل تدلنا على أنه دائب الحركة، لا ينقطع نشاطه، فهو يجرى، ويمشى، ويقذف، ويتأمل، ويفكر، ويمرن عضلات يديه ورجليه وأعضاء نطقه، وهذا كله مما يساعده على فهم العالم المحيط به، ويؤدى إلى كسب مهارة عقلية وحركية تمكنه من حسن التعامل معه والملاءمة له، وبذلك يصبح أكثر شعوراً بالأمن فيه، وأجرأ على تناوله، وتكييفه لرغباته وحاجاته. هذا كله يستنفد منه مجهوداً كبيراً، لا يشعر به فى أثناء بذله له، إذ أنه يصرف

(١) Quoted by Coriat: Abnormal Psychology; pp. 88-96.

أغلب هذا الجهد فى صورة لعب لذيذ . وهذا المجهود الذى يبذله لا بد ، كما قلنا ، من تعويضه عن طريق الغذاء والراحة . وحيث أن النمو يقل تدريجياً بتقدم العمر ، وكذلك النشاط التلقائى الذى أشرنا إليه يقل أيضاً مع تقدم السن ، فيحل محله عمل جدى محدود ، فإن الحاجة إلى النوم نفسها تقل كلما كبر الطفل ، ولكنها لا يمكن أن تنعدم . ففى الشهر الأول ينام الطفل عشرين ساعة تقريباً (١) ، ثم ينخفض ما يحتاجه من ساعات النوم ، إلى أن يصل إلى اثنتى عشرة ساعة فى سن الرابعة ، و إلى مايقرب من التسع الساعات أو العشر فى دور المراهقة ، ثم إلى ما يقرب من الثمانى الساعات عند اكتمال النمو (٢) .

وهناك بين الأطفال كما بين الكبار فروق فردية ، فلا يجوز تقنين ساعات النوم أو مواقيتها أو ظروفها تقنيناً محدوداً جامداً ، كما لا يجوز ترك الأمور بغير تنظيم . فنوع من النظام يقتصد مجهوداً كبيراً بالنسبة للأمهات ، وله أثره الحسن فى صحة الأولاد . و بعض الفروق الفردية التى أشرنا إليها لا يمكن تعليله ، إذ أن بعض الأشخاص بطبيعتهم يحتاجون لساعات نوم أقل أو أكثر مما يحتاج إليه الشخص المتوسط الذى من نفس العمر ، ولو أن عدد ساعات النوم يتوقف أيضاً على حالة الشخص الجسمية من حيث الصحة العامة والتغذية ، وعلى الحالة النفسية من حيث الهدوء أو الاضطراب . و يتوقف كذلك على الظروف التى ينام فيها الشخص من تهوية ، ورطوبة ، وحرارة وسكون ، وما إلى ذلك .

(١) D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

(٢) وإليك بيان تقريبى لعدد ساعات النوم اللازمة فى كل عمر من الأعمار :

العمر بالسنوات	٢ — ٣	٣ — ٤	٤ — ٥	٥ — ٦	٦ — ٧	٧ — ١٢	١٢ — ١٦	البالغون
ساعات النوم فى أثناء الليل	١٢ — ١٤	١١ ½ — ١٣	١١ — ١٢ ½	١٠ ½ — ١٢	١٠ — ١١ ½	٩ ½ — ١١	٩ — ١٠ ½	٨ — ١٠
ساعات الراحة فى أثناء النهار	٢	١ ½	½	½	½	½	½	½

نظام النوم

يتناول نظام النوم مسائل عديدة بعضها خاص بمواعيده ، و بعضها خاص بأمكنته ، و بعضها خاص بحالة الشخص الجسمية والعقلية . ويمكن أن نقول إن الشخص إذا كان فى حالة شبع دون امتلاء ، و إذا كان خالياً من الأوجاع والهموم ، وكان فى حالة عقلية هادئة غير متوترة ، وكذلك إذا كانت الظروف المحيطة عادية من حيث الهدوء والتهوية والراحة . وما إلى ذلك فإنه يمكنه أن يحصل على نوم مفيد إذا كانت مدته كافية (١) .

ويحتاج كل شخص كما قلنا ، إلى عدد معين من ساعات النوم فى كل أربع وعشرين ساعة . ويجب أن يكون قسط غير قليل من هذه المدة فى أول الليل . كذلك يجب أن يحصل كل فرد على فترة راحة كاملة فى أثناء النهار . وهذه الفترة يحسن أن تكون قبل تناول طعام الغذاء . ويرى البعض أن تكون هناك مرة أخرى قبل تناول طعام العشاء .

وهناك عدد من المبادىء يتعلق بعضها بالظروف التى ينام فيها الطفل . فهل يحسن أن تهيأ ظروف الراحة التامة والهدوء التام للنوم ، أم يخشى أن يتعود عليها الطفل ، بحيث إذا جدت عليه ظروف أخرى فقد قدرته على النوم ؟ للاجابة على هذا نذكر أن الإنسان فى حالة الضوضاء أو ارتفاع درجة الحرارة أو عدم ملاءمة الظروف بأى صورة أخرى فإنه قد ينام ، وأثناء نومه يحدث ما يسمى تكيفاً سلبياً Negative Adaptation و به يبذل الإنسان مجهوداً إضافياً لمنع أثر هذه المؤثرات الخارجية ، ولذا نجد أن من ينام بحالة جسمية وعقلية طيبة فى ظروف طيبة يحتاج لساعات نوم أقل ممن ينام فى ظروف غير مريحة . ولكنا نذكر هنا أيضاً أن القدرة على بذل هذا

---

(١) أما دراسة الأحداث المجرمين والمشردين فإنها تكشف عن بيوت لا يمكن بحال من الأحوال أن ينام فيها الطفل نوماً مفيداً .

المجهود الإضافى يجب أن تكون موجودة إلى حد ما عند كل شخص ، حتى يستعملها إن جدت ظروف لا تكون فى الحسبان .

ولا يمكننا التعرض هنا لكل قواعد نظام النوم[1]، ولكن يهمنا معرفة اتجاهات الآباء نحوه . وأول هذه الاتجاهات أن نظام النوم لا يجوز أن يفرض على الطفل بروح الإرغام ، لأن إرغام الطفل وتحديه فيما يتعلق بالنوم ، يترتب عليه عادة انتصار الطفل وقد يترتب عليه تعويده المعاندة وربما ينتج عنه كراهية الوالدين . ثم إن الإرغام نفسه يخلق فى الطفل مقاومة ، ولو غير ظاهرة ، وبذلك ينعدم التراخى اللازم قبل النوم . بالإضافة إلى ذلك لايجوز أن يستعمل النوم أداة من أدوات التهديد ، لأن أقل ما فى هذا ، أنه يوحى للطفل بفكرة أن النوم أمر يجب تفاديه وتجنبه . ويجب أن يكون موقف الآباء نحو النوم موقفاً طبيعياً هادئاً ، ولا يجوز أن يكون النوم موضوعاً يكثر ما يدور حوله من النقاش ، خصوصاً على مسمع من الأطفال .

ويحسن بالطفل أن ينام فى سرير مستقل من أول الأمر . ويجب على العموم ألا ينام فى غرفة والديه بعد سن السنة والنصف ، لا سيما وأن كثيراً من حالات الاضطراب النفسى تنشأ من مشاهدة الاتصال الجنسى بين الوالدين فى سن مبكرة ، والأطفال فى هذه الحالة كثيراً ما يدّعون النوم . وإذا كان الأطفال مختلفى الأعمار فيحسن أن يذهب للنوم صغارهم أولا ، ولا يرسلون جميعاً فى وقت واحد حتى لا يحدث احتكاك بينهم .

ويحسن أن تراعى حالة الطفل قبل نومه ، فيكون هادئاً مسروراً ، وليس من الحكمة مفاجأة الطفل بمنعه من اللعب ثم إرساله للنوم . بل يحسن إنذار الطفل ، وإعطاؤه مهلة كافية ، كأن يقال له إنه بعد عشر دقائق مثلا سينام ، فليدبر أمر نفسه لإيقاف لعبه فترة ، ويبدأ بالاستعداد لنومه .

---

(١) لاستيفاء هذا الموضوع يحسن قراءة كل ما يتعلق بالنوم فى الكتابين الآتيين : —
D. A. Kennedy : «The Management of Babies,» The Family Book.
Len Chaloner : The Mothers' Encyclopaedia.

ويلاحظ أن كثيراً من الأطفال يخافون الانتقال من حالة اليقظة إلى حالة النوم ، لأن النوم والظلام كثيراً ما يرتبطان فى ذهن الطفل بأمور مخيفة ، ولأن كثيراً من الآباء يتركون المنزل بعد نوم الأطفال دون علم الأطفال أنفسهم بذلك ، ولأن الانتقال من حالة اليقظة المعروفة الواضحة إلى حالة النوم الغامضة غير المفهومة يخيف ، بحسب ما لاحظنا على بعض الأطفال فى سن تقع تقريباً بين الثانية والرابعة[1]. لهذا كله يحسن قدر الإمكان تفادى كل ما يجعل النوم مخيفاً أو مكروهاً حتى يتمتع به الطفل كما يجب .

ويحسن أن ينام الطفل بمجرد ذهابه إلى فراشه أو بعد ذهابه إليه بمدة قصيرة ، فإن لم يحدث هذا فليؤجل ميعاد نومه نصف ساعة مثلا ، على أن يعوض له ذلك النقص فى وقت آخر . وتعديل بسيط مثل هذا ، إذا احتاج الأمر إليه ، تكون له فى العادة نتائج طيبة . كذلك يحسن أن يقوم الطفل مباشرة بعد استيقاظه لأن بقاءه مدة طويلة فى فراشه بعد استيقاظه يعطيه فرصة للجلبة أو لأحلام اليقظة ، وفى مثل هذه الأوقات التى تقضى فى الفراش فى حالة اليقظة تبدأ عادة ممارسة العادة السرية .

ومن حالات العيادة حالة ولد فى الخامسة والنصف له مشاكل عدة منها التبول ، والعناد ، وحك عضو التناسل إلى درجة الإدماء ، وغير ذلك من المشاكل . ولكن من مشاكله أيضاً أنه يصحو مبكراً جداً ويصيح ، ويغنى ، ويخرب إلى أن يزعج كل من فى المنزل . ولكن أمكن توجيه أهله إلى إرساله مبكراً إلى فراشه ، وكان ذلك من أسباب سهولة التغلب على هذه العادة . وأمكن كذلك توجيه أهله إلى ما يجب أن يتبع معه من تنظيم النشاط ، وتحسين المعاملة ، وتوضيح بعض ما كان غامضاً بالنسبة للطفل من حيث العلاقات المختلفة الموجودة بين أفراد المنزل . وذلك لأن انفصال أم الولد عن أبيه قبل أن يولد ، وكتمان ذلك عنه ، وتعويده مناداة جده

---

(١) شغلت مشكلة الدخول فى حالة النوم والخروج منها إلى حالة اليقظة أذهان الفلاسفة والعلماء قديماً وحديثاً ولم يصلوا فيها إلى أجوبة شافية .

على أنه أبوه ، ومناداة أمه لجده فى نفس الوقت على أنه أبوها ، أوقع الولد فى ارتباك شديد . ويغلب أن يكون هذا ، بالإضافة إلى الأثر الناشىء من حالة أمه ، بعض ما يفسر جزءاً من مشاكله .

بعض المشاكل العادية

ومن المشاكل الهامة نقص مقدرة الطفل على الانتقال من حالة اليقظة إلى حالة النوم إلا بمساعدة خارجيـة ، كأن تحمله أمه على كتفها ، أو فى حجرها ، أو تهزه ، أو أن تنام إلى جانبه ، أو أن يضع أصابعه فى فمـه . وأعرف أن طفلا كان إلى سن الخامسـة لا ينام إلا إذا جلس فى حجر أمه ووضع أصبعه فى فمها . وخير طريقة إزاء هـذه المشاكل هى منع ظهورها بتاتاً من أول الأمر ، لأن تثبيتها يجعل من العسير التغلب عليها أو على مشتقاتها المتنوعة العديدة بتقدم السن . وصعوبة التغلب عليهـا ناشـئة من ارتباطها بالنوم ، فنظراً لأهميتها للانتقال من حالة اليقظة إلى حالة النوم ، فإنه يصعب جداً ضبطها والتحكم فيها .

ومن أخطاء الأمهات حمل الطفل وهزه لأقل صوت يخرج من فيه . مع أن صراخ الطفل ليس كله صراخ ألم ، فبعضه مجرد تمرين لعضلات الصوت ، وبعضـه صراخ احتجاج ، وبعضه صراخ ألم . فمواجهة الصراخ تكون بإزالة أسبابه لا بمحاولة إيقافه إيقافاً ظاهرياً مؤقتاً . وبعض الأمهات تحملن الطفل لا لسبب إلا بقصد التسلى به . ولا يجوز أن تنظر الأم للطفل كدمية جىء بها لتسليتها الخاصة ، وإنما يجب أن تنظر إليه كفرد له كيانه الخاص به . والأمهات اللواتى تكثرن من حمل أبنائهن والالتصاق الجسمانى بهم هن فى العادة الأمهات اللواتى لم تكوّنّ ميولا أو هوايات أو لا تشـعرن بحب أزواجهن أو من حولهن ، فلا تجدن اللذة لأنفسهن إلا فى أبنائهن . وهؤلاء يصعب عليهن جـداً تربية أبناء يعتمدون على أنفسهم . وفى كثير من الأحوال ينال الطفل ما يناله من حمل وهز وإكثار من الضم .... إلى غير ذلك ، وعندما تصل

سنه إلى الرابعة أو الخامسة ، وتجد الأم أن الطفل قد كبر ، ولم يعد كالدمية كما كان من قبل ، أو تجد الأم أنها أنجبت طفلا آخر به مجال أصلح ممن قبله للتعبير عن انفعالاتها المكبوتة ، تحدث صعوبات كثيرة من الطفل الكبير ، ويقال عنه علناً عندئذ إنه أصبح ثقيلا غير مقبول بعد أن كان خفيف الروح . وقد يبدأ عندئذ يخرب ، أو يثور ، أو يقلق فى نومه ، أو يظهر بغير ذلك من المشاكل العديدة الناشئة من أنه لا يرغب فى التنازل عن امتياز معين بعد أن ناله وتمتع به زمناً ، وأصبح بطريقة ضمنية حقاً مكتسباً فى نظره .

وقاعدة عامة حكيمة هى أن يسأل الآباء أنفسهم إن كانوا يريدون لأسلوب المعاملة الذى ينتهجونه مع طفلهم أن يستمر إلى أن يصل الطفل إلى مرحلة اكتمال النمو أم لا . فإذا لم يريدوا استمرارها إلى اكتمال النمو ، فلا يجوز الالتجاء إليها فى أى عمر مهما كان صغيراً ، بدعوى أنه يمكن الاستغناء عنها مع تقدم السن . ولا يجوز تجريبها ، إلا إذا كانت ضرورية لهذه المرحلة ، ويسهل تحرير الطفل منها بالتدريج مع النمو .

ويلاحظ أن فى تعويد الأطفال ألا يناموا إلا إذا كان الكبار قريبين منهم مجالا طيباً لإثبات ذاتية الأطفال بصورة لا مبرر لها ، ولإخضاع الكبار لإرادتهم ، مما يؤدى حتما — إن عاجلا أو آجلا — إلى احتكاك إرادة الطفل مع إرادة الكبار . ويمكن بسهولة أن نستنتج ما قد يؤدى إليه هذا الاحتكاك عند نفاذ صبر الآباء .

ومن أخطاء الوالدين إقلاق راحة الطفل أثناء نومه لأسباب تافهة . فلا يجوز فى حالة حضور الضيوف متأخرين أثناء الليل أن يزعج الطفل من نومه ، ليراه الضيوف . وقد يكون الدافع أنانياً من جانب الأم ، أو جانب الضيوف ، أو كليهما ، كحب سماع كلمة ثناء ، أو حب المفاخرة ، أو غير ذلك . ومثل هذا يحدث من بعض الآباء إذا لم يروا أبناءهم طول النهار لانشغالهم ، فيوقظونهم ليتسلوا بهم ، وقد يحضرون لهم معهم بعض أدوات الإغراء كاللعب والحلوى وغير ذلك . وهذا يستثير الأطفال ويهيجهم ،

ويجعل النوم عسيراً عليهم بعد ذلك . والواجب أنه متى نام الطفل ليلا فلا يجوز إقلاقه ، اللهم إلا إذا كان قد استوفى مدته من النوم .

وفى حالات كثيرة نجد أن الطفل تكثر طلباته عند النوم ، فهو يريد أن يتبول ، أو يشرب ، أو يقول لأمه كلاماً أو غيرذلك ، وهذا فى العادة معناه أن الطفل يعتمد اعتماداً كبيراً على شخص معين ، ويساوره شعور بالقلق خوفاً من أن يتخلى عنه هذا الشخص مما يترتب عليه فقد امتياز معين . وعلى وجه العموم يكون معناه أن الطفل غير شاعر بالأمن الكافى ، فيتلمس الطرق التى قد تشعره به . وفى هذه الحالة علينا أن ندرس ظروفه ، لنرى ما يكون قد أدى إلى هذه الحالة . فربما كان السبب أن خادمة تركت المنزل ، بعد أن تعلق بها الطفل تعلقاً شديداً لا يقدره الكبار فى الغالب ، ويجب قدر الإمكان ألا تهيأ الظروف بحيث يلتصق الطفل بأناس يحتمل جداً أن يختفوا من بيئته . وربما كان السبب أن فى ذهن الطفل احتمالا غامضاً بأن والديه سيتركان المنزل بعد نومه دون أن يصارحاه بذلك ، أو يروضاه على ألا يخاف النوم بمفرده أحياناً ، وربما كان السبب أن والدته عودته أن ينام فى حضنها ثم تركته بعد إغفائه فيقوم ولا يجدها إلى جانبه ... إلى غير ذلك من مئات الأساليب التى تقلل من شعور الطفل بالأمن أو بالثقة فيمن حوله ، والتى يرتبط كثير منها فى ذهن الطفل بالنوم .

ويشبه كثرة طلبات الطفل عند النوم تأرقه ، من حيث الأسباب التى تؤدى إليه ، ولهذين النوعين من المظاهر أسباب أخرى ، كالتخويف بالقصص المزعجة وبأساليب التخويف والتهديد المختلفة ، وما إلى ذلك .

ولعل أهم أسباب التأرق فى أجزاء الليل المختلفة هى الرغبات المكبوتة ، ومعروف أن الذات العليا أو الضمير اللاشعورى عنصر كابت يقع عادة فى نزاع مع الـ « هِىَ » ، ولذا ينسب التأرق أحياناً إلى يقظة الضمير (خوفاً من طغيان النزعات) ، أو إلى الإحساس بالذنب ، أو الخوف من الوقوع فى الخطأ ؛ ومن أسباب التأرق الهموم ولرغبات المعلقة غير المشبعة ؛ ومن حالات هذا النوع حالة طالب فى سن الثامنة عشرة

يشكو من أنه يتبلد ذهنه آخر النهار ، ويصبح غير قادر على الفهم أو المناقشة ، ويشعر بحاجته إلى النوم ، فإذا ما ذهب إلى سريره تبدأ أفكار كثيرة فى الظهور ، ويصبح غير قادر على النوم ساعات طويلة ، بل يستمر غالباً طول الليل ، لا هو بالنائم ولا هو باليقظ ، إلى أن تدوخ رأسه من كثرة الأفكار ، وتتلخص حالته فى أن لديه شعوراً بالنقص ظهر بوضوح بعد وفاة أخيه الأكبر الذى مات بعد وفاة والده ، وسبب شعوره بالنقص أنه يشعر بعدم قدرته على سد الفراغ الذى حدث بوفاة أخيه ، وهناك أسباب أخرى لشعوره بالنقص منها شدة صغر جسمه ، وعدم نجاحه فى مغامرات صغار الشبان ، سواء فى تكوين الأصدقاء ، أو فى شهرته بينهم بما يناسب مقدرته ، أو فى قدرته على محادثة البنات دون وقوع فى الاضطراب ، ومن مصادر مشاكله أيضاً مبالغة أمه فى العطف عليه مبالغة أفقدته ثقته فى نفسه ، فهى تقضى له كل طلباته ولا ترغب فى بعده عنها ، وإذا خالفها أصابها المرض ، وأشعرته أنه السبب فى مرضها . فأمه تسيطر عليه سيطرة شديدة بنوع من الضعف الذى تظهره ، حتى أصبح الولد ضعيفاً جداً أمام ضعفها . ولكنه ممزق بين خضوعه لضعفها ، ورغبته فى التخلص من هذا الخضوع . ووصلت به الحال إلى أنه يتمنى الموت بسبب ماهو فيه ، يشفق على أمه أن يؤدى بها ذلك إلى الحزن والمرض . والذى يقض مضجع الولد هو الأفكار ، وأحلام اليقظة ، وخيالات ترتبط بما عنده من رغبات مكبوتة ، وصراعات نفسية عنيفة معقدة . وترجع كل هذه المظاهر فى هذه الحالة إلى أسباب أخرى أعمق من هذه بكثير يرجع تاريخها إلى سنى الطفولة الأولى ، ولا يمكن الإفاضة فى بسطها فى هذا المقام .

التقلب والمشى والكلام أثناء النوم

ويشبه الأرق النوم المصحوب بالتقلب ، وكثرة الحركة ، والمشى ، والكلام والصياح وبعض هذه المظاهر قد تحدث فى صغار الأطفال وكثيراً ، ما تكون عرضية لايجوز أن يعلق عليها كبير أهمية . فكل شخص يغير وضعه أثناء النوم . والشخص

العادى يغير وضعه حوالى ٣٥ مرة فى الليلة الواحدة ، وذلك ليعطى كل جزء من أجزاء جسمه فرصة كافية للاسترخاء والراحة . ولكن يجب توجيه الاهتمام إذا تكرر التقلب والمشى والكلام وما إلى ذلك بدرجة غير عادية . ويجب إذ ذاك أن ندرس الحالة أولا من ناحية الأسباب الجسمانية كسوء الهضم ، أو الإمساك أو الإفراط فى الأكل قبل النوم ، أو بعض اضطرابات الغدد كالغدة الدرقية ، أو وجود الديدان ، وأن ندرس كذلك نوع الغطاء ونوع الفراش ونوع التهوية وما شابه ذلك . وإذا تأكدنا أن هذه الأسباب لاترجع إليها مظاهر النوم المضطرب فلنبحث عن احتمال فقدان الطفل شعوره بالأمن ، أو اختفاء شخص معين عزيز على الطفل عن طريق الوفاة أو السفر أو الطلاق أو ما شابه ذلك . وطبيعى أن اضطرابات الأطفال كاضطرابات الكبار تكون ممنوعة من الظهور أثناء النهار ، وذلك لانشغال الفرد بمجرى الحياة العادية من عمل ولعب ، وهذا نوع من الكبت . وتجد النزعات المكبوتة فرصة طيبة للظهور فى أثناء الليل فى الأحلام ، وتكون هذه المظاهر وهى التقلب ، والمشى ، والكلام ، وغيرها أجزاء من الأحلام . والحالة النفسية الأساسية التى ترتبط عادة بهذا النشاط أثناء الليل هى الخوف ، ولو أن هناك أنواع نشاط أخرى يكون قد عاش فى جوها الفرد أثناء النهار ، ولكنه لم يعش فيها بحيث يشبع رغبته كاملة منها فيعيش فيها أثناء الليل . فإذا شاهد أحد الأولاد مباراة فى كرة القدم ، وكانت له رغبة فى اللعب يمنع من تحقيقها ، فإنه قد يحلم بالليل أنه يلعب . وقد يأتى ببعض الحركات المصاحبة لذلك كالرفس مثلا . وكان أحد الطلبة فى مصر فى أثناء ثورة ١٩١٩ يقوم بالليل فى سريره ويخطب ويهتف . وكان هذا الطالب يتمنى العظمة والشهرة والقدرة على الخطابة ، ولكن والده كان يقيد حريته ويعد عليه حركاته وسكناته ، وكان يمنعه من الاشتراك فى نشاط الحركة الوطنية وما فيها من خطب وهتافات ومظاهرات وغير ذلك . ومن بين الحالات التى درسناها حالة شاب يجلس فى سريره مفتوح العينين كأنما يراقب شيئاً والمرجح من دراسة تاريخ حياته ، أن عاملا مهماً فى ذلك ، هو أنه كان أحياناً يرى حدوث

العملية الجنسية بين والديه مما جعله يفزع ويهم لمراقبتهما . واستمر معه هـذا إلى أن كبر وتزوج .

ومن الحالات النادرة ، حالة غلام كان يقوم بالليل ، ويلبس ملابسه ويخرج من غرفة نومه ويفتح الأبواب ويمشى ، وكان يقطع ما يقرب من الميلين ، إلى أن يصل إلى المقابر حيث دفن والده ؛ وهناك يركع ويتلو عليه أدعيته وصلواته ، ثم يعود إلى منزله وينام فى سريره[١] . وحالة أخرى لبنت كانت تقوم من سريرها وتذهب للمطبخ وتوقد « شمعداناً » وتمسك به وتمشى إلى الباب الرئيسى للمنزل وتقف « بالشمعدان » فى يدها وظهرها ملصق بالباب. وكان محور حالة هذه البنت أنها كانت تخاف اللصوص ، فكانت بعملها هذا كأنها تحرس المنزل منهم[٢] .

ومعظم حالات النوم المضطرب بأنواعه تكون فى الأطفال عرضية ولكن إذا تكررت بحيث احتاج الأمر لدراستها بطريقة مستفيضة ، فليتجه البحث بعد استيفاء الناحية الجسمية إلى الحياة الانفعالية للفرد ، والبحث عما هو مكبوت عنده من نزعات يراد تحقيقها بطريقة مشبعة .

ومن أنواع الاضطراب الشائعة فى النـوم التبول ، لاسيما بعد انتهاء المرحلة التى يجب أن يكون قد وصل الشخص فيها إلى المقدرة على ضبط الجهـاز البولى . ونظراً لشيوع هذه المشكلة سنفرد لها بحثاً خاصاً .

---

(١) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child; p. 81.

(٢) من حالات إحـدى العيادات السيكولوجية بلندن عن لسان الدكتور هاملتون بيرسون (Pearson) الأخصائى النفسانى بمعهد علم النفس الطبى بلندن .

المراجع

Blanton: Child Guidance.

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Boenheim: Practical Child Psychotherapy.

Chaloner: The Mothers' Encyclopaedia.

Hutchinson: Motives of Conduct in Children.

Kanner: Child Psychiatry.

Kennedy: The Management of Babies: The Family Book.

Patri, Angelo: Child Training.

D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الخامس عشر

التبول اللاإرادى

مقدمة

كثيراً ما نجد بعض الأطفال يتبولون أثناء نومهم بالليل فى سن كان ينتظر منهم فيها أن يكونوا قد تعودوا ضبط جهازهم البولى والاستيقاظ لتفريغ ما تجمع فى مثانتهم من بول . وسن ضبط الجهاز البولى تختلف من طفل إلى آخر اختلافات كبيرة يرجع بعضها إلى حساسية الجهاز البولى ، وإلى حجم المثانة وسعتها . وسن ضبط هذا الجهاز تقع بالتقريب فى الثالثة من العمر ، ولو أن بعض الأطفال يضبطون قبل سن الثانية بكثير[1] . وإذا استمر الطفل يتبول وهو نائم إلى مابعد الرابعة ، فعلى الآباء أن يفكروا جدياً فى الأمر . وفى بعض الحالات ينجح الطفل فى ضبط نفسه فى سن مبكرة . ولكن لسبب عارض ، قد يحدث أن يتبول الطفل وهو نائم فى سن متقدمة ، بعد أن يكون قد مر فى سنوات عديدة دون أن يحدث منه ذلك . ومن هذه الأسباب العارضة الإصابة بالبرد العادى أو كثرة أخذ السوائل قبل النوم كمص القصب ، أو ما شابه ذلك . وقد يكون السبب العارض انفعالياً . مثال ذلك أن طفلا كان قد نجح فى تكوين عادة ضبط الجهاز البولى من سن الثانية ، وأريد إزالة لوزاته وزوائده الأنفية لتضخمهما تضخما شديداً فى سن السابعة ، وفى مساء اليوم الذى تقرر فيه إجراء العملية تبول أثناء نومه . وواضح أن التبول اللاإرادى فى هذه الحالة مرتبط بحالة الخوف الطارئة على ذهن الولد .

---

(١) وهناك حالة لبنت تمكنت من ضبط نفسها فى الشهر الرابع من عمرها، وقد ذكرتها الدكتورة أليس هتشنسون فى كتابها Alice Hutchinson: Motives of Conduct in Children p. 155.

وعلى هـذا فعلى الآباء ألا يعيروا حادثة واحدة من حوادث التبول من الاهتمام ما قد يثبتها فى ذهن الطفل ، ويشعره بالذنب ، وبالنقص ، وبالذلة ، بسبب هذا الحادث المفرد .

ولكن الذى يجب أن يسترعى الاهتمام التبول المتكرر أثناء النوم بعد سن الرابعة أو الخامسة . وقد يستمر بعض الناس هكذا إلى سن العشرين . وقد يستمر البعض إلى ما بعد ذلك .

الأسباب الجسمانية وعلاجها

الواجب الأول فى دراسة حالات التبول هو الفحص الجسمى الدقيق الشامل ، فقد يكون هناك أسباب جسمية عامة كفقر الدم ، أو الاضطرابات العصبية العامة ، أو انتشار التوكسينات فى الجسم لوجود بؤرة للتوكسين (Septic focus) يجب البحث عنها ومهاجمتها ، وقد يكون هناك أسباب جسمية محلية كائنة فى الجهاز البولى كالكليتين ، أو الحالبين ، أو المثانة ، أو مجرى البول . وقد تكون الأسباب الجسمية المحلية مما يؤثر فى الجهاز البولى كالتهاب المستقيم مثلا . ويمكن تقسيم الحالات الجسمانية التى يجب فحصها فى التبول إلى ما يأتى :

١ — حالة البول ووجوب معرفة ما إذا كانت درجة حموضة البول عالية ، أو إذا كان هناك التهاب فى حوض الكلية (Pyelitis) أو التهاب فى المثانة (Cystitis) أو التهاب فى الحالب أو وجود حصوات فى أى جهة من الجهات (الكلية أو الحالب أو المثانة) .

٢ — التهاب مجرى البول المعروفة فى الذكور باسم (Urethral Inflammation) وفى الإناث باسم (Vulvo Vaginitis) .

٣ — كثرة التبول (Polyuria) وقد يكون هذا متسبباً من مرض السكر (Diabetes) بنوعيه . وأحدهما ينشأ من اختلال إفراز بعض أجزاء الغدة النخامية ،

و إسمه (Diabetes Insipidus) ، والثانى ينشأ من عدم كفاية الأنسولين الذى تفرزه الغدد الموجودة فى البنكرياس و إسمه (Diabetes Mellitus) .

٤ — التهابات المستقيم (Proctitis) .

٥ — الديدان المعوية والبلهارسيا والأنكلستوما .

٦ — عدم التحام العامود الفقرى فى أجزائه السفلى واسمه (Spina Bifida Occulta) .

٧ — الإمساك وسوء الهضم .

٨ — تضخم اللوز والزوائد الأنفية .

٩ — الحالة العامة كالإنهاك العصبى وفقر الدم ونقص الفيتامينات وما إلى ذلك.

ويجب علاج الحالة الجسمانية التى يحتمل أن تكون أحد العوامل الأصلية أو المساعدة التى تؤدى إلى التبول علاجاً حاسماً عند بدء ظهورها . ومن الجائز أن يستمر التبول حتى بعد علاج العامل الجسمانى بحكم العادة . فيجب بعد ذلك العمل على تكوين العادات اللازمة للتغلب على التبول فى أثناء النوم .

ومن الحالات التى أرسلت إلى العيادة السيكولوجية ، ولد عمره ثلاث عشرة سنة كان يتبول وهو نائم، وكان ضعيفاً شاحب اللون، واتضح أنه مريض بالبلهارسيا، والتهاب فى قناة مجرى البول ، وكان يسعل صباحاً ومساء ، وعنده بعض التواء فى العامود الفقرى . وكان الولد بالقسم الداخلى فى إحدى المدارس ، وأمكن علاجه من الكثير مما كان به من الأمراض مما حسن فى صحته العامة ، ومكنه من بذل جهد مثمر . وأمكن عمل الترتيب اللازم لإعطائه الطعام المغذى المناسب ، وأرشد إلى عدم الإكثار من المواد الحريفة أو الشديدة الملوحة ، أو الحلاوة ، حتى لا يضطر إلى كثرة شرب الماء . وأمكن عمل الترتيب اللازم لزيادة الأغطية المقررة له ، وتشجيعه على الاستيقاظ حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب إلى دورة المياه ، وزيادة تشجيعه بعد نجاحه فى محاولاته ، وجعل الجو المحيط به جواً طبيعياً إزاء مشكلته ، إلى أن تحسنت حالته الجسمية والنفسية تحسناً واضحاً .

وهناك حالة أخرى لولد أرسل فى سن السابعة والنصف إلى العيادة لما عنده من تهتهة ، وتبول ، و بعض حركات عصبية . واتضح بفحصه أنه شره وضعيف البنية . إذ أن وزنه أقل من العادى بالنسبة لطوله وسنه بمقدار خمسة كيلو جرامات تقريباً، واتضح كذلك أن عنده احتقاناً فى اللوزتين ، وأن لديه زوائد أنفية متضخمة. و بتحليل البراز وجدت به بويضات وديدان الأكسيروس (Oxyuris) وكان واضحاً بدراسة ظروف الحالة من الناحية الاجتماعية أن أول وأهم مايحتاجه هو العلاج الجسمانى . وقد تعاونت الأسرة مع العيادة تعاوناً كاملا ، فأزيلت اللوز والزوائد ، وعولج من الأكسيروس ، ونصحنا الأسرة أن ينام الطفل بمفرده — إذ كان ينام مع أخت له كانت تتبول أحياناً ، وألا يذهب للمدرسة حتى يتقوى جسمه وذلك بأن يلعب اللعب الكافى ويتغذى . وبالفعل تحسنت حالته كلها ، فقلت حركاته العصبية وقلت تهتهته . وللحالة ظروف وأعراض أخرى غير ماذكرنا .

الأسباب النفسية

وفى بعض الأحيان يرجع التبول إلى عوامل نفسية أهم عنصر فيها هو عنصر الخوف ، سواء أكان قائماً بذاته أو داخلا فى تكوين انفعالات مركبة . وقد يكون الخوف قائماً بذاته ، كما فى الخوف من الظلام ، أو من الحيوان ، أو من التهديد ، أو بعد سماع قصة مزعجة ، أو غير ذلك . وقد يدخل الخوف فى تركيب انفعال آخر كالغيرة ؛ فمن الانفعالات الداخلة فى تركيب الغيرة خوف الشخص من فقد امتياز معين فقداناً نهائياً . ففى حالة مجىء مولود جديد فى الأسرة ، قد يهتم به الوالدان ويهملان من قبله ، فتبدو على هـذا مظاهر الغيرة بصورة أو أكثر من صورها المتعددة ، ويصحبها فى ذهن الطفل خوف من أنه فقد اهتمام والديه به إلى الأبد . ويصحب هـذا أيضاً شعور بالنقص . وكثيراً مايصحب الغيرة من مولود تبول أثناء النوم .

وليس من السهل إرجاع حالة التبول إلى عامل عائلى واحد ، كظهور مولود فى الأسرة ، أو تفضيل أحد فى الأسرة على صاحب الحالة ، أو وفاة عزيز ، أو غير ذلك بل نجد عادة أنه يترتب على تغير الجو الذى يسود البيئة التى يعيش فيها الطفل فقده ثقته بنفسه ، وخوفه على مركزه فى الحال أو الاستقبال ، مما يسبب له أحلاما مزعجة أثناء الليل ، يصحبها أحياناً فقدان القدرة على التحكم فى ضبط عضلات الجهاز البولى .

لنأخذ حالة توضح ما نقول ، وهى لولد فى سن الثامنة كان يتبول فى أثناء نومه مرات عديدة فى كل ليلة ، بدأ ذلك عقب وفاة والد الطفل وهو فى سن الرابعة ، أى بعد أن كان قد قطع مرحلة طويلة فى ضبط نفسه من التبول . وبدراسة الحالة وجدنا أن الحالة الصحية طيبة وخالية من جميع الأسباب الجسمانية التى يحتمل رجوع الحالة إليها . وأن الأسرة كانت حالتها المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شابا ناجحاً جداً فى عمله ، وكان كل من الوالد والولد متعلقاً بالآخر تعلقاً شديداً . فكان الوالد يأخذ ابنه معه فى نزهاته ، وفى الحفلات الكثيرة التى يدعى إليها . وكان الولد لحيويته وجمال شكله وذكائه ولباقته موضع فخر والده ، وموضع التفات أصدقائه . فكان الوالد بذلك مرتبطاً فى ذهن الولد برباط جميل سار . مات الوالد فجأة ، وشاهد الولد بعض ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية . وبذلك حدث انقلاب فجائى فى مجال حياة الطفل ، ويلاحظ أن الأم كانت أقل تعلقاً بالابن من الوالد ، وكانت أكثر تعلقاً بابنتها الصغرى منها بالولد ، وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد فى مستوى موارد الأسرة مما اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغييراً كبيراً جداً . فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها فى مسكنها الذى لم يكن يتسع أصلا إلا لها ولابنتها الأخرى وابنها . ومع ذلك رتب المنزل لإخلاء غرفة للولد وأمه وأخته . وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأولاد ومن ميلهم إلى الحركة واللعب والصياح ، الأمر الذى لم تعتده فى سنواتها الأخيرة . فكانت تعلن سخطها وتضايقها على مسمع من الأولاد ، ونظراً لأن الولد أكثر نشاطاً وإقلاقا من البنت ، كان يخصه من سخط جدته النصيب الأكبر ، وما وصل الطفل إلى سن

السادسة حتى بدأ يحدث فى مجال حياته تغيير جوهرى آخر وهو أن أمه بدأت تفكر فى الزواج ، وكان الولد غير راض بهذا الزواج . وعدم رضائه قد يكون بعضه بوحى ممن حوله من جدة وخال وخالات وأقارب و بعضه قد يكون لأنه كان يحس إحساساً غامضاً أنه يمكنه أن يحل محل الوالد بعد وفاته ، فكان يريد أن يحتفظ بهذه المكانة . و بعضه قد يكون راجعاً لأن نفسه تأبى أن يحل شخص غريب محل أبيه . و بعضه قد يكون راجعاً لما يسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادة غير سائغ لأولاد من زوج آخر . خلاصة الأمر أن الولد كان كارهاً لهذا المشروع وكارها لأمه[1] وبالتالى أصبحت أمه تكرهه[2] وكانت تؤلب أخته الصغيرة عليه لدرجة أنها كانت تطلب منها أن تبصق فى وجهه إذا هو أغاظها ، ولهذا أصبح مركز الطفل فى مجال حياته ينتقل بسرعة من سيء إلى أسوأ ، فبعد أن فقد الولد أباه ، لم يجد فى أمه ولا جدته عوضاً ، بل بالعكس ، وجد فيهما خصما على حد تقديره . وأخذت هذه الخصومة تزداد ، و بذلك ازدادت مخاوفه وازداد ضعف ثقته ببيئته زيادة كبيرة .

لوحظ الولد أثناء نومه ، وكان يتقلب وينام نوماً مضطرباً ، وكان عند تبوله فى أثناء نومه يصيح و يشتم موجهاً شتائمه لنساء ، وكان تبوله مصحوباً بشبه كابوس شديد ، وكان من أحلامه أن يحلم بمصارعة الثعابين ، التى كانت تعضه وتغلبه على أمره . ولعل الثعبان كان فى أحلامه رمزاً لخطيب الأم .

حاولت العيادة الحصول على تعاون الأم فى المساواة فى المعاملة بين الولد والبنت وفى بذل جهد فى معاونة ابنها على تكوين عادة الاستيقاظ ، وفى تحسين مركز الولد بتحسين مجال حياته . والوصول به إلى شعوره بحب والدته وتقديرها له . ولكن الأم لم تتعاون مع العيادة بالمرة ، وكانت تريد أن تعالج ما عند ابنها دون أن تبذل هى من جانبها أى نوع من المجهود أو التضحية . فكانت تريد دواء تعطيه لابنها

---

(١) ، (٢) دلنا على وجود هذه الكراهية أساليب التعامل المتبادلة بين الولد وأمه ، وأغلب الظن أنها كانت غير شعورية .

ليتناوله حتى يشفى مما به . أما أن يطلب منها بذل جهد ما ، فهى تفضل عليه أن يستمر ابنها فيما هو فيه .

ومعظم الحالات الأخرى يرجع فيها السبب إلى أن مجال حياة الطفل يفقده الشعور بالأمن ، فتصبح حياته قلقة ، ويبدو قلقه هذا فى مظاهر متعددة لايخرج التبول فى أثناء النوم عن كونه واحداً منها . فحالات التبول تظهر معها التهتهة أحياناً وأحياناً يكون معها الجبن وضعف الثقة بالنفس ، ويظهرمعها أحياناً الميل الشديد إلى التخريب ونوبات الغضب والميل الشديد إلى المعاندة كما فى الحالة التى فصلناها .

ويلاحظ فى حالات كثيرة أنه ليس من السهل تحديد السبب أو مجموعة الأسباب التى يرجع إليها التبول أثناء الليل . ففى إحدى الحالات التى وردت للعيادة وهى حالة تلميذ بالقسم الداخلى بمدرسة ابتدائية كان فى الثالثة عشرة من عمره . وقد أرسل للعيادة لخموله الدراسى الشديد ، ولتبوله فى أثناء الليل ، وكان الولد ضخم الجسم سمين الصدر والردفين ، مما يشعر باحتمال اضطراب فى إفرازات الغدة النخامية ، ولا سيما أنه متأخر بعض الشىء فى النمو الجنسى ، وقد أدت ضخامة جسمه وغرابة شكله وسلوكه إلى استهزاء التلاميذ به ، وأغرتهم بإثارته ، وهو قليل الاستقرار ، كثير الحركة ، كثير الكلام يميل إلى العمل المدرسى اليدوى كالرسم والأشغال ، ولا يميل إلى العمل العقلى . وهو مرح لا يشعر بالمسئولية ، ولا يعرف ماله وما عليه . وهو يهمل نفسه كثيراً ، ويتهيج إذا أثاره زملاؤه . والداه متوفيان ، وقتل أخوه بعد وفاتهما وأصبح الولد فى هذه السن المبكرة وحيداً ، ولا يوجد على قيد الحياة من أقاربه سوى خاله وابن عم أبيه .

وهو بالإضافة إلى هذا كله مصاب بالبلهارسيا ، وعنده زوائد أنفية ، وهو يميل كثيراً إلى أكل الأشياء الشديدة الحلاوة . هذا الولد لديه مجموعة من العوامل الجسمانية والاجتماعية التى يصح أن يترتب عليها التبول أثناء الليل . ويجب عدم البدء بأى نوع من أنواع العلاج الأخرى إلا بعد التأكد التام من أن جميع

الاحتمالات الجسمانية التى يصح أن يرجع إليها التبول قد أزيلت . فالواجب الأول هو علاج البلهارسيا ، وإزالة الزوائد الأنفية ، وبحث حالة الغدة النخامية ، وعلاج ما قد يكون بها من نقص بإعطاء مستخلص بعض الغدد اللازمة مثلا . بعد هذا كله يمكن أن يمرن على عادة الاستيقاظ فى الأوقات المناسبة للتبول ، ثم تعالج نواحى النقص الاجتماعية الأخرى ما أمكن . ولم تتمكن العيادة من تطبيق الخطوات السابقة الذكر لانتقال الولد من القاهرة إلى الإسكندرية وانقطاع صلته بالعيادة .

ومن أهم أسباب التبول اعتماد الطفل على أمه ، أو حاجته للالتجاء إليها . ففى كثير من حالات التبول نلحظ أن الطفل يعتمد كثيراً على أمه ، فهى تطعمه وتلبسه وتقوم له بكل صغيرة وكبيرة ، والتبول هنا قد يكون حيلة لا شعورية تساعد على تحقيق ما تشتاق إليه نفس الطفل مما تعوده . ويلاحظ أيضاً أن الحالات التى يكون فيها الأب قاسياً على الطفل يكون الطفل فيها فى حاجة إلى الالتجاء إلى الأم ، والتبول قد يأتى بأمه قريبة منه . ونجد فى الحالة التى شرحناها بالتفصيل فى (ص٢٧٧) أن العامل الهام هو أن فقد الأب ربما زاد فى حاجة الطفل إلى أمه ، وقد كانت الأم بالإضافة إلى كل ما تقدم لاتتركه يعتمد على نفسه فى شىء ، حتى أنها كانت هى التى تجيب عن الأسئلة التى توجهها إليه ، ووصل به الأمر أنه — وهو فى سن الثامنة — لم يكن يعرف كيف يلبس حذاءه ولا قميص نومه ، وربما كان هذا الاعتماد على الأم عاملا آخر يتدخل فى حدوث تبوله .

وربما كان اعتماد الطفل على أمه تفسيراً مقبولا لما يلاحظ فى حالات عديدة من تبول الطفل الأخير أو الشبيه بالأخير ، أو الوحيد ، أو الشبيه بالوحيد . وربما أمكن أحياناً أن نفسر بنفس الطريقة تبول الطفل الذى يمرض كثيراً وهو صغير ، فينال من أمه عناية زائدة ثم يشفى بعد ذلك ، ويكبر ، ثم يبدأ يفقد هـذا الامتياز وهو لايقوى على فقده . من هذا كله نتبين قيمة تحرير الطفل من اعتماده على أمه فى جميع أموره بما فى ذلك التبول وغيره .

وفى ضوء ما تقدم نرى أن التبول اللاإرادى يمكن النظر إليه — فى عدد غير قليل من الحالات — كتعبير لاشعورى من النوع الذى سميناه النكوص (ص١٢٩) — أى الرغبة اللاشعورية للرجوع إلى حالة الطفولة التى يتمتع فيها الطفل برعاية الأم . وقد وجد بعض الباحثين أن أكثر من ٥٠٪ من حالات التبول اللا إرادى التى ترسل إلى العيادات السيكولوجية فى أوروبا فقد الطفل فيها عطف أمه ورعايتها وعنده حاجة شديدة إليهما .

مصاحبات التبول

للتبول أثناء النوم مصاحبات بعضها نتائج للتبول نفسه ، و بعضها نتائج للأسباب التى نتج عنها التبول . ولعل أبرز هذه هى النتائج المحسوسة ، اتساخ الفراش وتعرضه للتلف وتلويث هواء غرفة النوم ، التى تكون عادة قليلة التهوية غاصة بالنائمين ، ومن هذه المصاحبات كذلك الأعراض السيكولوجية التى تنتج من الشعور بالنقص ، أو فقدان الشعور بالأمن . وهذه الأعراض إما أن تكون من نوع الشعور بالنقص ، أو فقد الشعور بالأمن ، كالفشل الدراسى ، والشعور بالذلة ، والخجل ، والميل إلى الانزواء ، والتهتهة ، والنوبات العصبية ، والاستمناء ، وغير ذلك ، وإما أن تكون الأعراض تعويضية كالعناد ، والتخريب ، والميل إلى الانتقام ، وكثرة النقد ، وسرعة الغضب ، وغير ذلك . ويصاحب التبول فى كثير من الحالات النوم المضطرب ، والأحلام المزعجة ، وتدهور الحالة العصبية . ويبدو أن هذه الأحلام هى مجرد مصاحبات للتبول وليست سبباً له . وقام أحد الباحثين بدرس أنواع الشخصية فى حالات التبول فوجد بعد استثناء حالات الضعف العقلى وما يشبهها أنه يمكن تقسيم أصحاب الحالات إلى نمطين اثنين . أحدهما النمط العصبى الهائج الزائد النشاط ، وثانيهما النمط الليمفاوى الخامل القليل النشاط . والنوع الثانى يكون عميقاً فى نومه ، ويغلب أنه لا يحس بامتلاء مثانته . أما النوع الأول فيغلب أن يكون العامل

الأساسى عنده هو اضطراب حياته الانفعالية بسبب اضطرابه فى مجال حياته .

ويحدث التبول أحياناً عند المراهقين مصاحباً لبعض الأحلام الجنسية . ويبالغ بعض أتباع فرويد فيعتبرون أن التبول نشاطه شبه جنسى ، فبعضهم يتكلم عن التلذذ الجنسى للمجارى البولية (Urinary Sexuality or Urethral Erotism) ، وهذا الرأى قليل الأنصار .

ومن الملاحظ أن النجاح فى علاج حالة التبول تنقشع معه كثير من مصاحباته ، لأن الذى يعالج عادة ليس هو التبول فقط ، وإنما هو المجال الذى يعيش فيه الطفل والذى يترتب على صفته العامة فقد الشعور بالأمن ، والذى يكون التبول فيه عرضاً واحداً من مجموعة غير صغيرة من الأعراض . وتزول مع حالة التبول فى كثير من الأحيان نتائجه المباشرة كالشعور بالذلة ، والخجل ، والتأخر الدراسى ، والميل للوحدة ، وما شابه ذلك .

العلاج والوقاية

سبق أن ذكرنا أنه يجب التأكد أولا من سلامة الجسم من كل ما يحتمل أن يكون عاملا فعالا أو عاملا مساعداً فى عملية التبول . ولهذا يجب فحص حالة الجسم العامة والمحلية فحصاً دقيقاً ، ويجب تحليل البول والبراز والدم لهذا الغرض . ويبالغ بعض المعالجين أحياناً فى علاج الناحية الجسمية بمحاولة إعطاء أنواع من الحقن أو توسيع مجرى البول أو تنظيف المثانة . . . وغير ذلك . وكان الأطباء إلى ما يقرب من ربع قرن مضى يعتقدون أن المشكلة جسمية صرفة ، ولكنهم بدأوا يرون فى السنوات الأخيرة أنها يمكن فى غالب الأحيان أن تكون ذات أصل سيكولوجى .

ويجب أن يتجه الذهن بعد استكمال الفحص الجسمى إلى تحسين حالة البيئة التى يعيش فيها الطفل . فيجب أن يعيش الطفل مطمئناً ، ولذلك يعالج ما قد يكون بين

الوالدين من خلاف ، وتعالج طريقة معاملة الوالدين للطفل ، ويعالج كذلك ما قد يكون هناك من غيرة أو فشل دراسى ... أو ما إلى ذلك .

ويلاحظ أن الوالدين — عند مواجهتهما للتبول — يقعان عادة فى كثير من الأخطاء . ويؤدى بعض هذه الأخطاء إلى تثبيت المشكلة ، أو الإيحاء بشدة أهميتها وصعوبة التخلص منها ، أو الإيحاء بثبوتها فى طبيعة الطفل لدرجة لا يفيد معها بذل أى مجهود إزاءها . ومن هذه مثلا أن يعلن الآباء أن الطفل يشبه فى تبوله أثناء نومه بعض أقربائه ، مما قد يوحى بأن المشكلة وراثية و بألا أمل فى التخلص منها . كذلك قد ينسب الآباء المشكلة إلى سبب جسمانى ، فيهملون العلاج النفسى ، وقد يغفلون عن السبب الجسمى رغم أهميته فيصعب على الطفل إذ ذاك تكوين العادات اللازمة للتغلب على مشكلته لأن السبب جسمانى صرف كالتهاب المجارى البولية أو غير ذلك . ومن أخطاء الآباء أن يعلنوا أن الطفل سيتغلب على مشكلته هذه بعد نموه نمواً كافياً ، و بذلك يكفون أنفسهم مؤونة بذل الجهد فى مساعدة الطفل للتغلب على مشكلته .

ويجب التنبيه إلى ضرورة عدم إذلال الطفل ، وعدم ضربه وتوبيخه أو معاملته بالغضب ، أو لصق وصمة به ، أو اعتباره بائساً مسكيناً ... إلى غير ذلك . فهذه كلها أساليب من شأنها أن يتعود الطفل توقع الشر و يفقد القدرة على ضبط المثانة بسبب الخوف والإحساس بالنقص ، ولكن يجب أن يعامل بالعطف والإرشاد العاديين ، على ألا يبالغ الآباء فى العطف فيشتطون فى مراعاتهم شعور الطفل إلى حد أنهم يخفون مثلا معالم التبول قبل أن يشعر بها الطفل نفسه بأن يغيروا له ملابسه أو فراشه قبل أن يستيقظ من نومه ، وهذه المبالغة فى مراعاة إحساس الطفل توحى له بخطورة المشكلة وأهميتها ، وصعوبة التغلب عليها .

ويراعى فى معالجة حالة التبول أن يشعر الطفل بضرورة معالجتها ، وأن علاجها أمر بسيط يتوقف نجاحه كله عليه شخصياً ، وأن المشكلة خاصة به وليست مشكلة

أمه أو أبيه، ولو أن العلاج يحتاج فى أول الأمر إلى مساعدة الكبار المحيطين بالطفل، كإيقاظه فى ساعة معينة من الليل تقع غالباً حوالى الحادية عشرة تقريباً. وأكبر صعوبة تقابلها العيادة أنها لاتحصل عادة على المعونة الكافية من الكبار المحيطين بالطفل. فالأمهات لايردن عادة أن يبذلن المجهود الكافى. ولاصبر لهن على التطبيق المنتظم المتكرر لقاعدة معينة جديدة. وكثيراً ما كن يقلن أنهن طبقن كل التعليمات التى أعطيت، ولا فائدة، ولا نتيجة. وبالاستقصاء الدقيق يتضح أن التعليمات لم ينفذ منها شىء قط. فإذا أمكن التأكد من معاونة الأمهات، كانت عملية غرس فكرة فى الطفل عن مقدرته على التغلب على صعوبته عمليـــة سهلة يقوم بها الإخصائى النفسانى.

ويمكن تلخيص عوامل نجاح معالجة حالات التبول فى: المواظبة، والدقة فى تنفيذ النظام الذى تضعه العيادة، وفى وجود الاهتمام الكافى من جانب الطفل والأم وفى الثقة بالنجاح. وهذه الثقة فى النجاح تزداد عادة بالنجاح نفسه والشعور بمقداره، ويأتى هذا كله بعد التأكد من إزالة الأسباب الجسمية أو العوامل الإنفعالية الناشئة عادة بدورها من مجال حياة الطفل.

ويصح أن نضيف هنا بعض القواعد التى يجب أن تراعى بوجه عام مع كل طفل وبنوع خاص مع الطفل الذى تكون لديه حالة تبول أثناء النوم:

(١) اتباع نظام دقيق جداً لمواعيد التبول وتنفيذ هذا النظام من الأشهر الأولى[١]

(٢) تعويد الطفل نهاراً ضبط نفسه مدة كافيـة، وذلك بالمباعدة بين أوقات ذهابه للتبول نهاراً ويمكن الناشىء بعد تمرنه أن يتبول مرة كل أربع ساعات أوخمس.

---

(١) هذا النظام يمكن الاطلاع عليه فى أى كتاب من كتب تربية الأطفال مثل:

ا — دستور الطفل للدكتور مصطفى الديوانى — الفصل الخامس

ب — Alice Hutchinson : Motives of Conduct in Children pp. 154, 170.

جـ — G. Anbyn : The Family Book.

د — L. Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

ومع ذلك يجب تعويد الطفل تلبية الحاجة للتبول فى الوقت المناسب ، لأن حبس البول مدة طويلة جداً يفقد المثانة قدرتها الطبيعية على حجز البول .

ويجب تعويد الطفل الاستيقاظ ليلا وذلك بإيقاظه إيقاظاً تاماً لهذا الغرض بعد أول ذهابه للنوم بساعة ونصف ساعة تقريباً ، ثم يوقظ مرة أخرى بعد ذلك بأربع ساعات أو خمس ، ويمكن كل أم أن تكتشف الوقت المناسب لإيقاظ طفلها . ويجب تعويد الطفل التبول قبل نومه مباشرة .

(٣) استيفاء الشروط الصحية المعروفة للتغذية ، واللعب ، والنوم ، من حيث الكمية والنوع والمواعيد .

(٤) منع أكل الأشياء التى تتطلب شرب كميات كبيرة من الماء ، كالمواد الحريفة أو الشديدة الملوحة أو الحلاوة .

(٥) منع تناول السوائل بكميات كبيرة قبل النوم .

(٦) منع جميع المهيجات المحلية فى الأجهزة البولية وما حولها ومنع الإمساك .

(٧) يساعد الطفل على التغلب على ما يجعل عملية التبول صعبة . وهذه الصعوبات قد تكون فى الملابس ، فيجب أن تكون الملابس بحيث يسهل حلها عندما تظهر الحاجة إلى ذلك . وقد تكون الصعوبة فى المكان المخصص للتبول كبعده أو إظلامه أو إظلام الطريق المؤدى إليه ، أو فى عدم ملاءمته لأمر ما ، مما قد يدفع الطفل إذا هو استيقظ للتبول فى أثناء الليل إلى تأجيل عملية تفريغ البول إلى الصباح وبذلك قد تفرغ مثانته رغم إرادته .

(٨) إذا كان الطفل يخاف الظلام فليكن فى غرفة نومه ضوء بسيط جداً أو (بطارية) أو إناء خاص للتبول ، أو فليصاحبه أحد الكبار المحيطين به إلى دورة المياه .

(٩) زيادة ساعات النوم والراحة للطفل الذى يتبول أثناء النوم ، إذ يكون هذا النوع عادة منهك الأعصاب . ولزيادة ساعات الراحة ، خصوصاً فى القيلولة ، أهمية

أخرى وهى أنها تقلل من عمق النوم بالليل . لأن هذا العمق فى النوم يجعل الاستيقاظ أمراً عسيراً . وأغلب الذين يتبولون فى نومهم ليلا لا يوقظون عادة إلا بصعوبة كبرى .

(١٠) توفير ما يؤدى إلى إشباع الطفل حاجاته الأولية من أمن وتقدير وعطف وحرية ... وما إلى ذلك .

التبول أثنـاء اليقظة

وتوجد بعض حالات للتبول أثناء اليقظة ، ولو أن هذه فى العادة عرضية ، وقليلة الوقوع ، وتحدث غالباً فى المواقف التى ينشغل فيهـا ذهن الطفل انشغالا كبيراً باللعب أو المشاجرة أو المناقشة أو غير ذلك . ويظل الطفل يؤجل عملية إفراغ مثانته إلى أن تأتى اللحظة التى لا يقوى فيها على ضبط نفسـه ، ويكون الوقت إذ ذاك غير كاف للذهاب إلى المكان المناسب لعملية التفريغ . وبعض الأطفال ينسون أنفسهم ، وينصرفون للعبهم ، فتتفرغ مثانتهم ، ولا يتنبهون إلا فى لحظة وقوع الحادث . وواجبنا فى هذه الحالات أن نتحدث إلى الطفل ، ونفهمه ما يجب عمله بمجرد الشعور بالحاجة إلى التفريغ ، ونفهمه أنه إن تكرر منه هـذا فإنه ربما لا نسمح له باللعب مع أصدقائه ، ذلك اللعب الذى ينسيه أداء هذه العملية ، ويكون هذا فى العادة كافياً لمعالجته .

ويحدث هذا نفسه أيضاً فى تلاميذ المدارس الأولية والرياض عند أول ذهابهم إليها وعدم تقديرهم لبعد دورات المياه عن حجرات الدراسة ، ولتحرجهم أحياناً من طلب الخروج من الفصل ، وغير ذلك من الأسباب العادية البسيطه التى يسهل معرفتها ، ويسهل التغلب عليها إذا قدرت وحسب لها حسابها .

وقد يرجع التبول أثناء اليقظة للغيرة ، أو الخوف ، أو عدم الشعور بالأمن . وقد حدث مرة أن كانت أم ومعها طفلها الوحيد ، وعمره ثلاث سنوات ، وكان قد تعود أن تحمله أمه على كتفها ، وأن تجلسه فى حجرها ... إلى غير ذلك . وبينما هم

فى منزلهم ، إذ جاءتهم سيدة زائرة ومعها إبنتها فى سن السنة ونصف السنة . وكما هى العادة أخذت الأم إبنة السيدة الزائرة ، وحملتها على كتفها ، ولاعبتها وداعبتها . وكان ابن سيدة البيت واقفاً ، فبدت عليه علائم الغيرة ، وأخذ يشد أطراف ملابس والدته وأظهر علامات الضجر . فأنزلت الأم إبنة السيدة الزائرة ، ثم حملت ابنها . وفى الحال تبول وهو على كتف أمه ، وهذا موقف قد يكون فيه غيرة ، وخوف ، ونكوص ، وانتقام من الأم ... إلى غير ذلك .

ومن حالات التبول أثناء اليقظة وأثناء النوم على حد سواء ، حالة لبنت فى السابعة من عمرها حولت إلى العيادة السيكولوجية ، لعنادها و بذاءة ألفاظها ووقاحتها ومخالفتها كل أمر وتدللها على كل من حولها . واتضح أن هناك أمراً آخر لم يذكر فى الشكوى وهو تبول البنت (على نفسها) فى حالتى النوم واليقظة ، و بدراسة الحالة اتضح أن البنت تعيش مع جدها لأبيها فى ضاحية من ضواحى القاهرة ، وجدها هذا متزوج بخالتها التى لم تكن تنجب أطفالا إلا ويموتون فى الأسابيع الأولى من عمرهم ، فقد وضعت ما يزيد على العشر مرات (خمسة أولاد . وثلاث بنات ، و بضعة سقطات) . أما والد البنت وأمها و بقية أولادها فإنهم يعيشون فى بلدة بعيدة عن القاهرة . وهؤلاء الأولاد عددهم جميعاً أربعة بينهم ثلاثة ذكور تتراوح أعمارهم بين الخمس السنوات والسنة الواحدة ، وكانت البنت التى نحن بصددها هى أولى أخواتها وأشاهم الوحيدة .

وظهر أن زوجة الجد أو خالة البنت تسيطر على الجميع ، فكلمتها هى المسموعة من الوالد. وهى بالرغم من قوتها ضعيفة للغاية مع البنت ، فهى تدللها ، وتجيب كل مايمكن تصوره من طلباتها ، وتستجدى رضاءها حتى تبقى معها ولا تطلب العودة إلى أمها وأبيها . ويظهر أن البنت وقعت فى صراع عنيف بين أن تمكث مع خالتها حيث يمكنها أن تتمتع بكل ما تريد متى شاءت ، وأين شاءت ، وكيف شاءت ، و بين أن تذهب إلى مكانها الطبيعى مع أمها ، وأبيها ، وإخوتها ، وحيث يمكنها أن تلعب ،

وتتسلى، وحيث يوجد بعض النظام والضبط . يظهر أن البنت وقعت فى هذا الصراع، وكان من نتائجه أنها أصبحت مزعجة من كل ناحية فهى تغنى ، وترقص ، وتنظر فى المرآة الساعات الطوال ، وتأكل ما تشاء دون مراعاة للكيف أو الكم ، أو الوقت المناسب ، وتذهب للمدرسة متى تشاء . وهى تعاند ، وتخرب وتصرخ ، وتشتم الجميع من الجد إلى أصغر خادم فى المنزل بأقذر الألفاظ . وتقطع الزرع ، وتفتح صنابير المياه لتغرق الحديقة كلها ، وتكسر الأشياء عمداً . وتصر على طلبات فى أوقات يستحيل تنفيذها فيها . . . إلى غير ذلك . وقد اشتكت منها الروضة مراراً وتكراراً . وهى بالإضافة إلى كل هذا تتبول نهاراً وليلا . أرسلت البنت إلى أطباء أخصائيين ، ولم يجدوا بها ما يبرر عصبيتها وتبولها إلا بعض الإمساك . وقد نصحنا الجد بوجوب إرسالها إلى أبويها ، فتنهد الرجل وقال إن زوجته ستموت كمداً إذا هى أرغمت على مفارقتها ، ولم يكن هناك سبيل إلى إرغامها فى نظره . ونصحناه أيضاً بوجوب تنظيم حياة البنت فى منزل أبيها . وإلى أن يتم نقلها هناك نصحناه بوجوب منع الأكلات الصغيرة بين الأكلات الرئيسية لأن هذه هى التى تقلل ظاهرياً من شهيتها وتدفعها لكثرة شرب الماء . ولكن فى الزيارة الثانية للعيادة لاحظنا أن جيوب البنت محشوة بأنواع الحلوى ، فلما وجهنا نظر الجد أقسم بأن هذا قليل جداً ، ولم يدفع فيه أكثر من قرشين اثنين ، إذ تعلقت البنت ببائع الحلوى فى الترام فاضطر أن لا يقهر رغبتها . وبعد زيارات طويلة متتالية وافق الجد على إرسال البنت إلى أمها وسافرت فعلا . ثم انقطعت أخبارهم عنا رغم تكرر كتابتنا لهم .

ويتلخص علاج حالات التبول أثناء اليقظة فى أساسه فى إعادة تنظيم مجال حياة الطفل حتى تزول أسباب قلقه ، وحتى يتعود عدم التسويف إذا ما شعر بالحاجة إلى التبول .

خاتمة

يتبين من كل ما تقدم أن التبول اللاإرادى يكون فى الغالب نتيجة لمجموعة عوامل جسمية ونفسية ، غير أن أهم عامل يجب أن نتجه إليه بعد استيفاء درس جميع النواحى الجسمية هو توفير الأمن للطفل . وقد لوحظ أن علاج التبول يؤثر فى حالة الشخص النفسية والجسمية أثراً واضحاً ، كما أنه يتأثر بهما إلى حد بعيد ولم يتسع المجال للإفاضة فى مختلف البحوث والآراء التى ظهرت عن صلة العوامل الجسمية بالتبول ، ولا عن كيفية التحكم الإرادى فى عضلات المثانة ، ولا عن أثر الخوف فى هذه العضلات ، كذلك لم نستوقف رأى بعض أتباع فرويد عن أن التبول نوع من النشاط الجنسى ، فقد رأينا أن كثيراً من أتباع فرويد الآخرين لا يأخذون بهذا الرأى . وهناك بحوث حديثة غير مستوفاة عن صلة التبول بطابع شخصية الطفل وصلته بطابع شخصية الوالدين ، وصلته بطابع البيئة ، وصلته بدرجة عمق النوم ، وصلته بطابع الأحلام ، وصلته بالنشاط الغددى . ولكن هذه البحوث تعتبر ضئيلة القيمة ، فى هذه المرحلة التى وصلت إليها من الناحية العملية .

ولهذا نكتفى بأن نقول إن على الأمهات تعويد أطفالهن العادات الملائمة للتبول من سن مبكرة جدا . فإذا تم لهن هذا فإن الحياة الصحية من الناحيتين النفسية والجسمية كفيلة باحتمال عدم حدوث التبول اللاإرادى ، ويلاحظ أن حدوثه مرة أو مرات قليلة متباعدة لا يجوز أن نعلق عليه أى أهمية . ولكن إذا كان حدوثه مصاحباً فى هذه الحالات لنوبة نفسية معينة مثلا ، فيجب علاج هذه النوبة والاكتفاء بذلك .

ويشبه التبول اللاإرادى التبرز اللاإرادى ، ولكن حالاته نادرة جداً إذا قيست إلى حالات التبول ، فهى تكاد لا تتجاوز ٤ ٪ منها . ولعل هذه الندرة ترجع فقط إلى أن ضبط البراز أسهل من ضبط التبول . ولكن الظاهرتين تتفقان فيما عدا ذلك اتفاقا يكاد يكون تاماً من حيث النتائج والأعراض والأسباب وأساليب العلاج والوقاية .

المراجع

Aubyn: The Family Book.

Blanton: Child Guidance.

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Boenheim: Practical Child Psychotherapy.

Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.

Hutchinson: Motives of Conduct in Children.

Kanner: Child Psychiatry.

Patri: Child Training.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السادس عشر

الحركات العصبية : مص الأصابع وقرض الأظافر

مقدمة

من طبائع الأطفال كثرة الحركة ، والميل إلى اللعب ، وندرة تركيز الانتباه فى أمر واحد لمدة طويلة . ويلاحظ أن الطفل لايستقر نشاطه إلا فى حالة واحدة ، وهى انشغاله بأمر سار لذيذ يركز فيه كل اهتمامه وانتباهه . هذه كلها ملاحظات عادية يستفيد منها الإنسان بأنه إذا لاحظ أن طفلا ما قليل الاستقرار ، فليتدبر مايصح أن يركز فيه الطفل انتباهه ؛ وبذلك يصير الطفل سعيداً مستقلا ، ويصبح الكبير قادراً فى بعض الأحيان على الانصراف عنه والتفرغ لعمله . وإذا كان هذا الذى يشغل الطفل عملا إيجابياً له نتيجة يشعر الطفل بقيمتها بالنسبة له كان فيه خير وقاية للطفل من تعود الاستغراق فى أحلام اليقظة ، وكان فيه خير تدريب على وضع بذور الميل نحو النشاط المنتج وبذل الجهد .

ولكن يلاحظ أن عدم استقرار طفل معين قد يكون بصورة عامة بارزة يختلف فيها عن أغلب الأطفال وقد يأخذ عدم الاستقرار صورة خاصة فى حركة معينة كرمش العين ، أو هز الكتف ، أو فرقعة الأصابع ، أو إتيان حركة بالأنف أو بالفم أو مص الأصابع ، أو الشفاة ، أو اللسان ، أو قرض الأظافر ، أو عض الأقلام ، أو تنظيف الأنف بالأصابع أو عصر حبوب الوجه ، أو اللعب بخصلة من الشعر ، أو حك الرأس أو اللعب بالأعضاء التناسلية .. أو غير ذلك من مئات الحركات المخصصة التى تكون بؤرة يتمركز فيها النشاط العصبى غير الموجه .

العصبية العامة وانعدام الاستقرار

إذا لوحظ انعدام الاستقرار أو العصبية العامة فى طفل ما فيجب دراسته أولا من نواحيه الجسمية والوراثية ، فيصح أن ندرس ما إذا كان لدى الطفل حالة جسمية يصح أن يتسبب عنها عدم الاستقرار ، أو العصبية العامة ، ومن هـذه الحالات الديدان ، وما يقلل من كفاية التنفس كتضخم اللوز أو الزوائد الأنفية وسوء الهضم والاضطرابات الغددية ؛ وبالجملة كل ما يؤثر فى الصحة العامة أثراً سيئاً . وأما من حيث الناحية الوراثية فكثيراً ما نلحظ عدم الاستقرار . أو العصبية العامة فى عدد من أقارب الطفل نفسه ، وفى هذه الحالة يحتمل أن يكون الطفل قد ورث خصائص عصبية ساعدته على تكوين صفة العصبية أو عدم الاستقرار . ومن أمثلة ذلك حالة لبنت فى سن السابعة أرسلت للعيـادة بسبب التبول اللاإرادى نهاراً وليلا ، ووصفتها الأسرة بأنها عصبية ، فهى تغضب ، وتبكى لأتفه الأسباب ، وإذا غضبت فإنها تثور وتضرب نفسها ، وتخبط برأسها الحائط ، وترفس برجلها ، وبالجملة يكون كل جسمها فى حالة اضطراب عنـد غضبها — وهى تغضب فى أغلب المناسبات . والبنت لا تعتمد على نفسها ، وهى قليلة الثقة بها ، وأمها هى التى تطعمها وتلبسها ، وتقضى لها كل لوازمها .

وتوصف الأم بأنها عصبية المزاج ، وتصـاب أحياناً بتشنجات . والوالد كذلك عصبى وهو يصاب بنوبات انقباض شديدة ويشعر بضيق الحياة وباليأس . ويصـل به الأمر فى النوبات التى تصيبه إلى أن يبكى بكاء شديداً لغير سبب ، إلا أنه يبكى سوء حظه — على حد قوله .

وللوالدة أخت مصابة بالشلل ، ولها أربع أخوات ، لـكل منهن طفل أوطفلان أحدهما أو كلاهما مصـاب بضعف فى النطق أو تهتهة أو ضعف عام . أما جدة البنت فإنها شديدة القلق والخوف قليله الاستقرار .

وقد حضرت البنت إلى العيادة السيكلوجية مع أمها وجدتهـا ، فكانت الأم

ترتدى ملابس ذات ألوان عديدة متضاربة . ففى الرداء الواحد اجتمعت ألوان الأحمر القانى إلى جانب الأصفر الفاقع ، وإلى جانبهـا البنفسجى الباهت ، ويقرب هؤلاء جميعاً لون أسود لامع . وحتى اللفافة (السيجارة) التى دخنتها الأم كان ما بها من تبغ ملفوفاً فى ورق أحمر قان غير مألوف . أما الجدة فكانت تنتقل بسرعة من سؤال إلى آخر . فسألت عن الطب الروحانى ، والتنويم المغناطيسى ، وعن الحياة الخاصة الداخلية لكل عضو من أعضاء العيادة . ولا يمكن الجزم فى هذه الحالة بأن هناك استعداداً عصبياً موروثاً على الرغم من كل ما ذكرنا ، ولكن هناك احتمال الوراثة . ويلاحظ أن مصادر الوراثة وهما الوالدان والجدة والحالات تتكون منهم جميعاً فى نفس الوقت بيئة الطفل . فالوراثة والبيئة قد تكونان فى هذه الحالة حلقة متصلة الأجزاء يقوى كل منهما عمل الآخر . وهـذا ما يجعل نسبة الحالة لأحدهما دون الآخر أمراً غير سهل [1] .

ومن مصاحبات العصبية العامة وعدم الاستقرار فى عدد غير قليل من الحالات ضعف العقل أو الغباء . ويظهر أن المتأخرين فى ذكائهم أقل من غيرهم استعداداً لتوجيه نشاطهم وتوحيده وضبط حركاتهم وتنسيقها . لذا نجـدهم متأخرين فى النمو الحركى . وقد يستمر تأخرهم هـذا إلى أن يكبروا . ونظراً لعدم قدرتهم على مسايرة زملائهم ممن فى سنهم فى لعبهم وحركتهم ونشاطهم ، تجدهم يتضايقون ويتصفون بالعصبية وتزداد عادة حالتهم سوءاً على سوء .

ومع استثناءات قليلة جداً نجد كل حالات الضعف العقلى التى ترسل للعيادات السيكلوجية تتصف بضعف القدرة على التركيز ، أو بالعصبية العامة ، وعدم القـدرة على الاستقرار . ويتصف كثير منها فوق ذلك بالرعونة فى الحركة . ولو أن هـذه الرعونة لا يخلو منها بعض العاديين والأذكياء . وتكون فى هذه الحالات الأخيرة مصحوبة بالانطواء النفسى (Introversion)

(١) راجع الفصل الثانى .

ومن أهم الأسباب السيكولوجية فى عصبية الأطفال ، وعدم استقرارهم شعور الطفل بالبؤس الناشىء من الشعور بعدم تحصيل المستوى الذى تشتاق نفسه إليه (Lack of achievement) أو الناشىء من الشعور بعدم توافر القدرة أو توافر الفرصة لتحصيل مثل هذا المستوى ، وقد يشعر الطفل بهذا إن كان متأخراً ، كما قلنا ، فى قدرة عقلية أو حسية أو جسمية كحالة التأخر العقلى ، أو العمى . أوالصم ، أو البكم ، أو ضعف البصر أو السمع ، أو صعوبة النطق ، أو العرج ، أو العسر ، أو ما شابه ذلك من مثات الحالات . ولو أنه يندر لصاحب الحالة أو لمن يعيشون معه أن يقرنوا عصبية الشخص وعدم استقراره بعاهته أو ضعفه من الناحية العقلية أو الحسية أو الجسمية ، وينتج مثل هذا أيضاً إن كان الطفل أقل فى الجمال أو خفة الروح من غيره ممن يوازنون به باستمرار كالإخوة أو الأقارب ، أو الزملاء . وكثيراً ما يحدث هـذا بين الإخوة بنوع خاص ، فيوجه الآباء والأقارب والمعارف انتباههم لطفل دون آخر ، فتنتج حالة عصبية أو عدم استقرار عند الطفل الذى لا ينال التقدير ، وبذلك يحرم الطفل إشباع حاجة نفسية أساسية . وربما ينشأ هذا دون شعور من صاحب الحالة .

وبالجملة فكل مجال يشعر فيه الطفل بالشقاء — خصوصاً إن كان المجال مستمراً ، بمعنى أن الطفل يقضى فيه جزءاً كبيراً من وقته كل يوم كمجال المنزل أو المدرسة مثلا — يحتمل جداً أن ينتج عنه عصبية وعدم استقرار . والمجال الذى يشعر فيه الطفل بالشقاء هو الذى تقف فيـه العراقيل دون تحقيق حاجاته الأساسية التى سبق أن ذكرناها ، وهى الحاجة إلى الحرية واللعب والحركة ، والحاجة إلى السلطة الضابطة غير المتذبذبة الحازمة الخالية من الضعف ، والحاجة إلى العطف والشعور بحنو من حوله نحوه وعطفهم عليه وحبهم له ، والحاجة إلى النجاح عند إنماء مهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة .

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة تلميذ فى سن التاسعة والنصف ، وهو الابن الوحيد لوالديه ، وقد أحيل إلى العيادة لتأخره الدراسى ، وضعف بنيته .و بإجراء اختبارات

الذكاء عليه اتضح أن ذكاءه فى مستوى ذكاء ولد متوسط عمره إحدى عشرة سنة . ومعنى ذلك أن لديه من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تأخره ، بل بالعكس ، كان ينتظر منه تفوق باهر . وتصفه والدته بأنه مهمل جداً فى ملابسه ، وغير منظم فى قضاء حاجاته المختلفة إذ قلما يضع شيئاً فى موضعه . لا يميل إلى استذكار دروسه بمفرده . يميل إلى الرسم وقص الورق ويصرف فراغه كله فى هذا . وأمه تقرر وتعلن دائما أنه لم يرسم مع كل هذا رسماً مقبولا قط . يصرف كثيراً من وقته بمنزل جدته لأمه . وجدته تعطيه النقود والحلوى والأكلات الصغيرة التى تفسد عليه بالطبع انتظام مواعيد الأكلات الرئيسية ، وينام على سرير منفرد فى نفس الحجرة مع والديه[1] . وينام عادة نوماً هادئاً ، إلا إذا نام بجانب والدته ، فإنه يكون إذ ذاك على جانب كبير من القلق .

والمعاملة المنزلية فى مجموعها متغيرة جداً ، فالوالدة شديدة قاسية كثيرة النقد للولد . والوالد ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنه ، ويخاف أن يجرح إحساسه ، ويصل خوفه هذا إلى أنه يتردد ويتلعثم فى أثناء حديثه مع ابنه ، على حين نجد أن ابنه أحياناً يتحداه . ولا يضرب[2] الوالد ابنه أبداً ، وإنما الذى يقوم عادة بهذه المهمة هى الوالدة . وقد ضربته ضرباً مبرحاً عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عمله فى المدرسة . مع هذا كله يتدخل أبوه فى نشاطه ، فالولد مغرم بتأليف القصص الصغيرة ، ووالده يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدارس المصرية ، وفيه مضيعة للوقت ، فيمنعه بكل وسيلة من هذا . يضاف إلى كل ما تقدم قلق الجميع على صحة الولد إذ أنه ضعيف من صغره ، ولعل من أسباب القلق على الولد أن أخاه الذى يكبره بأربع سنوات مات وهو فى سن السادسة .

وقد أجمع كل مدرسيه على أنه مشتت الانتباه شارد الذهن ، وينشغل بما كسة

---

(١) راجع فصل المشكلات المتعلقة بالنوم .

(٢) ليس معنى هذا أننا نشجع الضرب .

جيرانه ، وقد وصفه أحد المدرسين بأنه فى الفصل لا يستقر على حال من القلق ، فهو يزحف مرة عن يمينه ، وأخري عن يساره ، يتطلع إلى هذا و إلى ذاك من زملائه ، ويعبث فى أثناء ذلك فيما أمامه من الأدوات . فإذا لم يجد أمامه ما يعبث به أخذ شيئاً من درجه أو من جاره لهذا الغرض ، ويتمادى فى ذلك إذا لم يُنَبَّه . وهو قليل الصبر على مواصلة عمله ، ولا يميل إلى إتقانه ، وحركاته دائماً عصبية .

وقد ضربه والده مرة واحدة وهو فى حالة غضب عصبية عند ما كثرت الشكوى منه ، و بعد أن ضربه تولاه الندم الظاهر . ووصلت الحال بالوالد أخيراً أنه لا يمكنه ضرب الولد إطلاقاً ، ولكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائماً بوجوب ضربه بشدة ، وواضح ما فى هذا من تناقض عجيب .

فهذه حالة طفل فقد السلطة الضابطة الحازمة فى المنزل ، وفقد كثيراً من الشعور بالأمن لشدة ما يحيط به من القلق ، ويعوزه كثير من التمتع بالحرية ، وربما كانت هذه كلها عوامل قوية فى إحداث ما عنده من عدم الاستقرار .

وهناك ظاهرة أخرى فى معاملة هذا الولد نفرد لها حادثة معينة لنبين دلالتها ، وخلاصتها أنه كان قد ادخر من نقوده مبلغاً من المال فاقترضه منه والده ليستعين به فى سفره إلى جهة ما على أن يرده له بعد عودته . ولكنه لم يرده إليه وقد مضى عليه أربع سنوات ، وقد يظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفل أن يعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو له . ولكن المهم عند الطفل فى الواقع شعوره بالملكية و إشباع هذا الشعور إشباعاً حسياً ، ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى فى إشباع الحاجة إلى الأمن .

و يتلخص علاج هذه الحالة بعد العناية الصحية بها فى تحويل الجو المحيط بالطفل فى منزله إلى جو ثابت المعاملة يتوافر فيه العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه ، ويجب أن يتوفر فيه النشاط مع الهدوء من جانب الوالدين ومن جانب الطفل نفسه .

مص الأصابع

ومن الحركات الخاصة التى تلفت النظر مص الأصابع ، وكثيراً ما يظهر منذ الأسابيع الأولى[١] ، وقرض الأظافر الذى يظهر فى العادة متأخراً قبل السنة السابعة تقريباً . وفى الأشهر الأولى يمكن النظر إلى مص أصابع اليد أو الرجل كأنه عملية عادية يقوم بها كل طفل تقريباً ، ويشتق منها لذة ، وفى إجرائها شىء من المهارة . فمن المهارة بالنسبة للطفل الصغير تحريك يده أو رجله ووضعها فى فمه دفعة واحدة دون أن يخطىء الهدف . وفى التمرن على هذا شىء من التمرن على التوافق العصبى العضلى .

ولكن الخطورة فى استمرارها ، والإصرار عليها عند التقدم فى السن . وبعض الأطفال يظلون يمصون أصابعهم إلى سن الثانية عشرة . ورأيت ذات مرة فتاة فى حديقة عامة جالسة شاردة الذهن تمص أصابعها وهى مستغرقة فى ذلك استغراقاً شديداً ، وكان يبدو أن عمرها لايقل عن السادسة عشرة . وضرر الاستمرار فى هذه العادة يتلخص فى أمر واحد ؛ وهو أنها أسلوب لنشاط لا يؤدى إلى نتيجة إيجابية ملموسة . ومعنى ذلك أنها نوع من العمل غير المنتج يقوم الطفل به ويتعود عليه . ولهذا كان مص الأصابع عاملا مساعداً يسهل معه الإغراق فى أحلام اليقظة ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأعمال التكرارية غير المنتجة .

ويلاحظ أن الطفل الصغير عند ممارسته مص الأصابع يكون سعيداً ، ويمارسها على فترات . وأما الطفل الكبير فيبدو عليه وهو يمارسها أنه غير سعيد . وتجده يكب عليها باستمرار ، مثله فى ذلك مثل المدمنين على تعاطى المكيفات . وتزداد فترات ممارستها لمن اعتادها عند اعتلال صحته ، أو عند عدم تحقيق رغباته ، أو عند محاولته

---

(١) يقال إن كثيراً من الأطفال يمصون أصابعهم وهم فى بطون أمهاتهم كما جاء عن Minkwosi and Levy فى كتاب : Kanner : Child Psychiatry

حل مشكلة صعبة ، أو عند عدم الرغبة فى النوم . ويكون عادة عند ممارستها بعيداً عن الصلة بهذا العالم الواقعى .

ويقوم الطفل بتخبئة عملية مص الأصابع ، خصوصاً إذا حذره أبواه منها . ويستر عمله هذا عادة بأساليب مختلفة : من أكثرها شيوعاً تخبئة اليد التى توضع فى الفم باليد الأخرى ، ويظن الطفل أول الأمر أن الكبار لايرونه . وبعض الأطفال يلجأون لهذه الحيلة قبل نهاية السنة الأولى وتثبت الحيلة عندهم فتصبح عادة .

وهناك عدة اعتقادات فيما يختص بآثار مص الأصابع ، وأغلبها مبالغ فى صحتها ، منها أنه يسبب تفلطح الأصابع ، وتشوه الفم وسقف الحلق ، ولكن هذا فى العادة لايحدث . ويعتقد بعض الآباء كذلك أن مص الأصابع فى الطفولة مقدمة لعادة الاستمناء فى المراهقة ؛ وليس هناك مايبرر الجزم بهذا ، وإن كان هناك بعض الاحتمال فى صحته لاسيما وأن كليهما نوع من التلذذ الجسمانى الذاتى الذى لايعطى نتيجة إيجابية ويصحبه استغراق شديد فى أحلام اليقظة . ويعتقد من يفسرون كتابات فرويد تفسيراً ضيقاً أن مص الأصابع عملية جنسية (Sexual) فى صميمها . هذه كلها اتجاهات قد تزعج بعض الآباء . ولكن ما يزعج الآباء أكثر من كل هذا ، أن مص الأصابع ظاهرة قبيحة المنظر يشمئز منها الناس ، ويصحبها السرحان ، وهو شبيه فى ظاهره بالبله .

ومص الأصابع فى ذاته ليس مهماً ، إلا أنه دليل على حالة عقلية يجب الاهتمام بها ، وهو يبدأ عادة فى السنة الأولى مرتبطاً بالتغذية . فإذا كانت التغذية غير كافية أو بعيدة الفترات ، أو لاتستوفى شرطاً هاماً من الشروط الضرورية ، فإنه يحتمل أن يلجأ الطفل معها إلى مص أصابعه[1] . وهذا نشاط يشغل الطفل ، ولو أنه لايؤدى إلى نتيجة إيجابية . ويترتب على ممارسته أن الطفل يحتمل أن يلجأ إليه كلما قابلته صعوبة ، أى أنه أسلوب قابل للانتشار من موقف إلى مواقف أخرى ؛ ففى مواقف الغيرة

---

(١) حقيقة أن الطفل كثيراً ما يترك غذاءه ليمص أصابعه ، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد ثبوت العادة .

أو الشدة ، أو الحرمان، أو ما شابه ذلك ، يحتمل أن يركن الطفل إلى ملجئه الذى تعوده وهو مص الأصابع . ومعنى ذلك أن يقنع الطفل بنشاط لايؤدى إلى نتيجة . وهذا الأسلوب الذى يواجه به الطفل مشاكله أسلوب سلبى انسحابى يبعد صاحبه عن مواجهة الواقع . ولذا كان مص الأصابع دليلا يصح أن نتنبأ به عن احتمال ظهور الصفات النفسية السلبية فى الكبر ، كالميل إلى العزلة والانكماش ، والخجل ، وقلة الجرأة الاجتماعية فى الحديث أو فى حصول المرء على حقوقه ومحافظته عليها ، وقلة الميل إلى الصراحة ، وشدة الميل للتكتم ، وضعف روح المخاطرة واعتباره كل أمر من أموره سراً خاصاً لايجوز اطلاع أحد عليه ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، وغير ذلك من الصفات التى يدخل كثير منها تحت صفات الشخصية المنطوية على نفسها (Introvert) وهذه الصفات السلبية ليست نتائج لمص الأصابع و إنما هى فى الغالب مصاحبات له .

ولا يجوز أن يقتصر علاج مص الأصابع على الظاهرة نفسها ، و إنما يجب أن يتجه كذلك ، بعد التأكد من علاج الحالة الجسمانية التى قد تساعد على وجود الحالة العصبية إلى معرفة سبب شقاء الطفل فندرس علاقة الطفل بوالديه و إخوته ومدرسيه وزملائه ، ومبلغ تحقق حاجاته الأولية فى ميادين حياته المختلفة من منزل ومدرسة وعمل ومجتمع ، و بعد دراسة كل هذا يعدل مجال حياة الطفل بما يحقق هدوءه ونشاطه وسعادته و يجب أن يعود الطفل شغل يديه فى عمل شائق منتج . ومن الأساليب الطيبة التى تقترح أن يشغل الطفل بلعب فيه مجال لتركيب قطع بعضها مع بعض لتكوين شىء معين ، أو يشغل باستعمال آلة موسيقية يشغل فيها يده أو فمه أو كليهما ، أو شغله فى مساعدة الأم فى عملها (كإدارة آلة الخياطة ؛ أو حل كرات الصوف ، أو لفها ، أو المساعدة فى قص أو تقطيع أو تنسيق . وما إلى ذلك) أو أى عمل يدوى يشغل فيه يديه و يشعره بأنه يؤدى مساعدة حقيقية لغيره مما يشعره عادة بقيمته فى نظر نفسه .

و إذا أمكن ضمان تعديل مجال حياة الطفل الذى يعالج من مص الأصابع ، وأمكن كذلك تعويده إشغال يديه فى عمل منتج ، فمن الجائز — ولو أنه ليس من الضرورى

أن يتفق مع الطفل على طريقة تذكره ، فى حالة النسيان بوجوب الإقلاع عن هـذه العادة ، والطرق كثيرة منها وضع صبغة المر على أصابع اليد ، وما شابه ذلك من الأساليب التى يعرفها أغلب الناس . ولـكنهم يخطئون عادة بالاقتصار عليها مما يجعل الضرر الناشىء منها أكثر من فائدتها ، ويجب أن نؤكد هنا أن هذه الطريقة وأمثالها تستعمل كأساليب للتذكير فقط ولا يجوز أن تستعمل كعقوبات . ويجب قـدر الإمكان أن تصدر فكرتها من الطفل بعد اقتناعه بقبح العادة ووجوب إقلاعه عنها وشعوره بالحاجة إلى ما يذكره بذلك فى حالة النسيان .

قرض الأظافر

كل ما قيل عن مص الأصابع يمكن أن يقال عن قرض الأظافر ، إلا أن الانفعال المصاحب عادة لقرض الأظافر أو عض الأصابع هو انفعال الغضب . والحالة النفسية فى قرض الأظافر حالة توتر وغضب ، أما فى مص الأصابع فهى حالة استسلام وخضوع وانسحاب ، والذى يقرض أظافره يفعل ذلك بشدة وبكثرة إذا واجهته صعوبات ، فنلاحظ مثلا أنها تظهر من صاحبها أكثر عندما يسأل أو يختبر . وما قيل فى علاج مص الأصابع يقال فى قرض الأظافر وهو حسن التغذيه ، وتنظيم النزهة ، وتحسين الصحة ، وإشغال اليدين بطريقة شائقة منتجة . وإشباع حاجات الطفل فى ميادين حياته المختلفة بطريقة تجعله قانعاً مسروراً من نفسه .

اللزمات العصبية (Tics)

وهناك مجموعة من الحركات العصبية تتم بشىء من المفاجأة والسرعة والتكرار وعدم تدخل الإرادة ، وهذه كرمش العين ، أو تحريك الأنف أو جوانب الفم ، أو تحريك الكتف ، وما شابه ذلك ، وتتميز هذه الحركات بأنها تتناول مجموعة كاملة من العضلات ، وأنها تحدث بتكرار منتظم فى غالب الأحيان .

وتبدأ هذه الحركات عادة بسبب تهيج محلى ، وبعد زوال التهيج تستمر الحركة فى الظهور بين آن وآخر ، فبعد الإصابة ببعض التهابات العين مثلا قد تظهر لزمة رمش العين بين آن وآخر . وأحياناً تكون الحركة دالة على اتجاه نفسى كالغضب أو الخوف أو التقزز .

ويحسن مع معالجة الأسباب المحلية إهمال الظاهرة من جانب الوالدين ومن يحيطون بالطفل إهمالا تاماً ، لأن الانتباه إليها والتهيج من حدوثها يثبت ذهن الطفل عليها ، ويؤدى عادة إلى تثبيتها ، ويحسن مع هذا مراعاة روح العلاجات التى سبق أن ذكرناها فى هذا الباب .

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة لتلميذ فى سن السابعة عشرة ، بدأ من سن الخامسة عشرة يقوم — بين آن وآخر — على الرغم من إرادته ، بحركة عصبية فى الرقبة والعينين وجانب الفم . وذكاء هذا الولد فوق المتوسط . وله مركز ممتاز جداً فى لأسرة ، إذ أنه الذكر الأول بعد بنتين . وبقى الذكر الوحيد مدة سبع سنوات . ولهذا تمتع وحده بتدليل شديد من أمه وأختيه ووالده مدة سبع سنوات . ونشأ حساساً رقيقاً لا يتحمل مهاجمة أو أذى . فهو لهذا لا يحب الرياضة البدنية لعنفها ، ولأنها تضطره للاحتكاك بغيره من الأولاد . يفضل أن يشغل وقت فراغه بالذهاب إلى الخيالة ، وهو من النوع الهادىء الجاد المغلق القليل المرح القليل الاختلاط ، وتنطبق عليه كل صفات الانطوائيين . بدأت لديه حركات الرقبة عند ما كان يلبس ياقات من النوع المقوى ، ثم استمرت اللزمة بعد ذلك . وأما حركة الفم فإنها بدأت من وقت أن تعدّى عليه تلميذ فضربه فى جانب فمه بسن الريشة . وتقيح الجرح الذى ظل ظاهراً مدة طويلة . وبدأت الحركات العصبية ، بعد أن كانت مقتصرة على الرقبة ، تنتشر إلى الفم والعينين . ولعل اتجاه والديه نحوه يتضح من المثال الآتى : وهو أن الولد كثيراً ما يشكو من لوزتيه ، ونصحه الأطباء بوجوب استئصالها ، والوالدان يرفضان رفضاً باتاً خوفاً عليه . يشفق الولدان على الولد ويعتبرانه عصبياً مسكيناً ، وعرضاه

بالفعل على أطباء الأعصاب ، فشخصه أحدهم بأن عنده نيوراستينيا . ومثل هذا التشخيص العلنى يساعد على تثبيت الحالة وزيادة شدتها وتركيزها . ومما ساعد على تثبيت الحركات العصبية عند هـذا الطالب معاكسة التلاميذ له وشدة انتباههم لحركاته وإطلاقهم عليه أحياناً بسببها اسم مجنون .

يبدو من هذه الحالة كيف أن التكوين الأول قد يهيىء صاحبه لتكوين الحركات العصبية عند مجىء الظرف المناسب . وهذه الحركات غالباً ما تثبت وتصبح عادة بفعل التكرار وبفعل توجيه الانتباه إليها .

حالة

ومثال آخر : حالة ولد فى سن الثامنة أرسل لبطء شديد فى تفكيره ، ولخموله العام ، ولأنه يحرك أنفه حركة عصبية شديدة ، ويتحرك معها كل وجهه تقريباً . واتضح ببحث الحالة أن الولد فى المدرسة سلبى خامل كثير السرحان . وأما فى المنزل فهو مخرب عنيد ، يطاع ولا يطيع . وهو الولد الأول ، وأبوه رجل عصبى قلق ، يتدخل فى كل شئونه بشىء من الضعف ، والأم عصبية كثيرة النقد ، قليلة التحمل لضوضاء الأطفال وحركاتهم . وسواء فى المسكن أو فى الحى الذى تعيش فيه الأسرة لا يوجد مجال للعب الأطفال أو فسحتهم .

وقد تحسنت حالة الولد كثيراً بتوجيه الأب إلى عـدم الالتفات إلى الحركة العصبية وبذلك تلاشت تقريباً ، ولم تزل تماماً لارتباطها بتهيج محلى بسبب الزوائد الأنفية المتضخمة عند الولد . ومما زاد فى تخفيف الحالة تقليل ضغط والديه عليه ، والتخفيف من تدخلهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئونه ، وإدخاله مدرسة نجحت فى تخليصه من سلبيته ، وانطوائه على نفسه . وأصبح أكثر جرأة وأقدر على الاختلاط .

ومما يدل على قلق الوالد وشدة التفاته لابنه أنه قال بعد تحسن الولد إن حركة الأنف قد زالت تقريباً ، ولكن حركة خفيفة أخرى بدأت تظهر حول العين ، فنبهناه إلى وجوب الانصراف التام عن كل هذا . فقال إنه يخشى أن يكون عند الولد ضعف فى بصره أو فى سمعه لأن شهادته فى المدرسة تدل كذلك على بعض

التأخر . وقال كذلك إن وجوده فى هذه المدرسة الجديدة وتخفيف رقابة والده عليه قد يقلل من احترام الولد لأبيه ، لأن حبه لمدرسيه آخذ فى الازدياد .

كانت عبارات الوالد المتكررة تساعدنا من ناحية على فهم اتجاهه وتساعدنا كذلك على توجيهه أولا بأول ، مما أدى إلى نتائج طبية يرجع الفضل فيها إلى اهتمام الوالد ودقته فى تنفيذ التوجيهات ، ولكن يلاحظ أن أهم ما يتجه إليه الذهن فى مثل هذه الحالة الأخيره هو وجوب انشغال الوالدين عن مراقبة حركات الطفل ، ووجوب انشغال الولد نفسه عن هذه الحركات ، وتوجيه نشاط الطفل العقلى والبدنى توجيها لذيذاً منتجاً ، وتهدئة الجو المحيط بالطفل فى كل من المنزل والمدرسة تهدئة لا تؤدى إلى الخمول ، وإنما تؤدى إلى استثمار نشاط الطفل الزائد لصالح حياة عقلية وبدنية صحيحة .

خاتمة

كان عدد الحالات التى قمنا بدراستها فى الحركات العصبية بأنواعها قليلا لا يسمح برسم صورة صحيحة عن كل ما يقع منها . ولهذا لم نشر إلى النوبات الصرعية واللاصرعية ولا إلى الخوريا (Chorea) ولا إلى الرعونة ولا إلى كثير من أنواع اللزمات العصبية . ولكن يتبين مما أشرنا إليه من حالات أن أهم ما تتطلع إليه فى كل من الوقاية والعلاج هو توطيد الهدوء النفسى للطفل ولوالديه ولعلاقته بهما وللجو المحيط به بوجه عام . وقد لوحظ فى الحالات العصبية أن الجو المحيط فى المنزل يتميز بالتوتر والقلق وبعض العصبية والنشاط الزائد غير المنظم . وهذه الصفات نجدها عادة فى الطفل وفى والديه : أحدهما أو كليهما . وقد ظهرت عدة نظريات لتفسير هذه الظواهر ، بعضها آت من ميدان الطب ، ويرجعها إلى انعدام التوافق العصبي ، وإلى اختلال فى المراكز المخية المحلية . وبعضها آت من ميدان التحليل النفسى ، ويربط بين هذه الظواهر وبين مشكلات الأطفال الجنسية، فتعتبر ميلانى كالاين[1]

(١) Quoted by Boenheim. op. cit. p. 124.

أن جميع هذه الظواهر العصبية يرجع إلى ملاحظة الأطفال (باستراق السمع أو بمحاولة الرؤية) لوالديهم فى أثناء العمليات الجنسية أو ما يرتبط بها ، وأصحاب الخبرة فى فى علاج الأطفال العصبيين يكتفون عادة بالرأى الذى أثبتناه ، ويرون أن الحقائق العلمية لا تبرر تعميم رأى أصحاب التحليل النفسى .

العلاج ومن القواعد الهامة سواء فى العلاج أو فى الوقاية هى كما قلنا ، تهدئة الطفل وما يحيط به من علاقات ولا يجوز أن نفهم التهدئة على أنها وصول إلى مرتبة الخمول بل بالعكس ننصح ، كما أشرنا ، بإنماء الهوايات ، وبالرياضة البدنية ، وبتنظيم العمل ؛ وبتنظيم الراحة ، وما إلى ذلك . أما العلاج فيتلخص اتجاهه فى إزالة عوامل القلق والهياج ، وفى تمرينات خاصة[1] لكل نوع من الاضطراب على أنه يخشى من هذه التمرينات ، ما أشرنا إليه من احتمال تثبيت الانتباه على هذه اللزمات ، فيجب تفادى هذا بالأساليب الشاملة الأخرى التى تبعد الانتباه عنها . ويصاحب هذا العلاج تمرن على الاسترخاء التام فترة من الزمن فى كل يوم .

---

(١) ينصح بوينهيم مثلا فى لزمة رمش العين بتمرينات معينة للتمرن على فتح العين وإقفالها بانتظام وللتمرن على ضبطها مفتوحة أو مقفلة مدة قصيرة . ذلك مع وجوب إقصاء الانتباه عنها فى غير أوقات التمرين بأساليب أخرى Boenheim, op. cit. p. 127.

المراجع

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Blatz and Reginald: A Study of Tics in Preschool Children.

Boenheim: Practical Psychotherapy.

Cameron: The Nervous School Child.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

Patri: Child Training.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السابع عشر

صعوبات النطق

مقدمة

سبق أن تكلمنا عن الحركات العصبية بما فيها من مص الأصابع ، وقرض الأظافر ، ورمش العين . وغير ذلك . وهناك نوع من الحركات العصبية له أهمية خاصة وهو المتعلق بالنطق . وعملية النطق لها مكانة كبيرة في حياة الإنسان ، ويشبهها عند الحيوان إخراج الأصوات . ومعروف أن الأصوات عند الحيوان تؤدى له وظائف حيوية هامة ، فبالأصوات يحدث النداء الذى يترتب عليه تجمع أفراد النوع الواحد بعضهم مع بعض ، بقصد الوقاية من الخطر المحدق . وبواسطة الأصوات تدعو الحيوانات بعضها بعضاً للاجتماع الجنسى وحفظ النوع . وبها تتحقق على وجه العموم أنواع الحياة الجمعية عند الحيوان بغاياتها المختلفة . ولهذا نجد أن نوع الصوت وتنغيمه يختلف عند الحيوان الواحد باختلاف حاجاته ، التى يدعو تحققها إلى وجود طرف آخر . فالذين يهتمون بتربية الحيوانات المنزلية يعرفون فى القط مثلا صوت الاستجداء لطلب الطعام ، وصوت التخويف والتحدى عند الشجار ، وصوت الفزع والاستنجاد عند إحداق الخطر ، والصوت الدال على الاطمئنان والسرور عند الشعور بالدفء والشبع والراحة ، وصوت الانتصار عند الفوز بالفريسة ، وصوت نداء الأنثى عندما يحل موسم الاجتماع الجنسى ، وصوت تلبية الذكور لصوت الأنثى فى هذه الحالة ، وصوت نداء القطة الكبيرة لصغارها ، وصوت سرورها لوصولهم ، إلى غير ذلك من أنواع الأصوات التى يرتبط تنوعها بتنوع الحاجات التى يعبر عنها الصوت .

ونرى من هذا أن وظيفة الصوت الاتصال بآخر اتصالا يصح أن يساعد على تحقيق حاجة نفسية . كذلك النطق عند الإنسان فهو يعبر عن حاجة يراد تحقيقها بالاستعانة بكائن حى آخر يغلب أن يكون إنساناً مثله .

فكأن عملية النطق عبارة عن نشاط اجتماعى يصدر عن الفرد وتتدخل فيه عدة توافقات عصبية دقيقة مركبة ، يشترك فى أدائها مركز الكلام فى المخ الذى يسيطر على الأعصاب ، وهذه تقوم بتحريك العضلات التى تقوم بإخراج الصوت . وكذلك تشترك الرئتان ، والحجاب الحاجز ، فتقوم الرئتان بتعبئة الهواء ، وتنظيم اندفاعه . وبمرور الهواء على الأوتار الصوتية ، وداخل الحنجرة ، والفم ، والتجويف الأنفى ، تحدث تشكيلات مختلفة من الأصوات . وكذلك تساعد تغييرات أوضاع اللسان والشفتين على زيادة التنويع فى الأصوات . ويحتاج النطق السليم إلى مران طويل جداً يبدؤه الطفل عادة منذ ولادته ، فهو يبدأ بالصراخ ، ثم الضحك والمناغاة ، ثم يسمع نفسه ويسمع من حوله ، ويبدأ يجرب تشكيلات مختلفة من الأصوات ، ثم يبدأ يقلد من حوله إلى أن ينجح فى إخراج الألفاظ وفى الكلام . وهذه عملية طويلة شاقة يبذل فيها الطفل جهداً كبيراً ، ويتعاون فيها السمع والبصر وأجهزة النطق — الأصلية منها والمساعدة .

ويتضمن النطق ، كما قلنا ، نشاطاً لفرد يقصد به الاتصال بالغير ، ومن هذا تبدو أهمية الكفاية الحركية للسان واندفاع الهواء وتنسيق الحركات كلها تنسيقاً يؤدى إلى النطق الصحيح . وتبدو أيضاً أهمية الحاجة النفسية المراد التعبير عنها ، وضرورة مطابقة الإخراج التعبيرى لما هو موجود فى النفس ، وكذلك قيمة ثقة المرء فى قدرته على التعبير . ويلاحظ أن جزءاً غير قليل من هذه الثقة يشتق من الاتجاه الذى يأخذه المخاطب عادة نحو المتكلم أثناء سير الحديث .

لهذا كله كان النطق أهم وسائل الاتصال الاجتماعى ، وكانت له قيمته الممتازة فى نواحى نمو الفرد المختلفة سواء فى ذلك نمو تفكيره أو طابع شخصيته بوجه عام .

بعض الحالات

يتلخص وصف أعراض صعوبات النطق فى أنها اختلال فى التوافق الحركى بين أعضاء النطق المختلفة . ونظراً لكثرة أجزاء هذه الأعضاء ، ولتنوع أساليب نشاطها ، ولتعدد التشكيلات المختلفة لها ، فإن صعوبات النطق كثيرة ، وتختلف فى شدتها ونوعها باختلاف درجة الاضطراب ، ونوع العضو البارز فيه . لذلك نجد بعض الصعوبات مثلا مرتبطاً بتشوه الأسنان ، أو بانشقاق الشفة العليا ، أو بوجود الزوائد الأنفية ، أو غير ذلك . وتعددت تبعاً لتعدد أنواع صعوبات النطق أسماء هذه الصعوبات فهناك التمتمة ، والتأتأة ، والعقلة ، والحبسة ، واللثغة ، والخنة ، والرتة وغير ذلك . وأما كلمة تهتهة ، فإنها كلمة دارجة أصبحت تستعمل الآن لكل أنواع صعوبات النطق[1] .

ويلاحظ أن نوعاً من أنواع صعوبات النطق يحدث عادة لكل إنسان . ففى المواقف التى يفاجأ فيها الإنسان ، ويرغم على التكلم فى أمر يعرف عنه ولا يريد لأمر ما أن يتحدث فيه ، فإنه قد يتعثر إذ ذاك عند النطق . ويمكننا أن نقول إن الإنسان يتعثر فى نطقه فى الأحوال العادية لأسباب ثلاثة : أولها الخوف ، ولذا كانت خير طريقة يعبر بها الممثل على المسرح عن الخوف هى طريقة التعثر فى النطق ، وثانيها أن يكون اللفظ قاصراً عن الأداء ، وبذلك يضيع وقت فى البحث عن الألفاظ المناسبة ، وثالثها أن يكون تدفق الأفكار أسرع من تعبير الإنسان عنها لعجز أساليب تعبيره بسبب قلة المحصول اللغوى مثلا . والسببان الأخيران يمكن مشاهدة أثرهما بوضوح وفى أبسط صورة عند محاولة الكبير التكلم بلغة أجنبية لا يتقنها تماما ، فهو يتعثر

---

(١) هذه الظاهرة الخاصة بتعدد مصطلحات صعوبات النطق والميل إلى استعمال واحد منها دون الأخرى ليست قاصرة على اللغة العربية ، وإنما هى موجودة فى اللغات الأجنبية أيضاً .

إذ ذاك ، بينما لا يتعثر عند التكلم بلغته العادية . ويمكن مشاهدته كذلك فى الأطفال فى سن الثالثة والرابعة تقريباً .

ولأجل أن نتبين أسباب العى المختلفة يصح أن نعرض بعض الحالات ، وأولى هذه الحالات لولد فى سن العاشرة أرسله والده للعيادة لصعوبة شديدة فى النطق . وقد فحصت ، أول الأمر ، حالة الولد من النواحى الجسمانية للتأكد مما إذا كان هناك مرض عضوى يمكن أن يكون عاملا أصلياً أو عاملا مساعداً فى وجود العى ، وقد قام بفحصه الإخصائيون فى الأمراض العصبية ، وفى أمراض الأنف والأذن والحنجرة ، وفى الأمراض الباطنية ، ودلت كل هذه الأبحاث على أنه ليس هناك أى مرض جسمانى يصح أن يكون سبباً مباشراً للعي . ولو أنه ظهر أن لديه تقيحاً فى اللوزتين ونصحت الأسرة بإزالتهما وبالفعل أجريت له العملية اللازمة لذلك ، وكان لها أثر ظاهر من حيث التحسن العام .

وقامت العيادة كذلك بدراسة الولد من الناحية النفسية ، فتبين أن ذكاءه فوق المتوسط بكثير ، وأنه يتعثر فى النطق إذا شعر بأنه مراقب وبأن أخطاءه ستوضع موضع النقد . ويصاحب النطق عادة حركات عصبية يقوم بها بيديه وبأجزاء وجهه المختلفة .

والولد هو الذكر الأول والوحيد ، وله ثلاث أخوات كلهن أصغر منه ، وكلهن يجدن الكلام . الوالدان متعلمان تعليما جيداً ، وحالتهما المادية طيبة ، وهما على وفاق تام . والأم تخاف الظلام ، وأما الوالد فإنه هادىء فى الظاهر ، غير أنه فى الواقع قلق على ابنه ومستقبله ، ويهتم بأمره ويلاطفه ويعامله بعطف زائد . غير أن الوالد نفسه سريع الكلام ، ويبدو كأن لديه بقايا عىّ قديم . وللولد جد من أمه ، وهو شديد الخوف من أمور كثيرة ، وللولد كذلك قريب من ناحية أمه متأخر جداً فى ذكائه وتصرفاته عامة . أما الولد نفسه فإنه رقيق هادىء حساس سريع التأثر ، محب للدقة والنظام ، حريص جداً على إرضاء والديه ومدرسيه ، شديد الخجل ، ميال إلى العزلة والعمل الفردى .

وكانت ولادته عسرة واستعملت فى ذلك الآلة الخاصة بالولادة ، مما أدى إلى تمزق بسيط فى أربطة العنق ، ومما جعل رأسه تميل فى ناحية دون الأخرى مدة طويلة من الزمن . وكانت الرضاعة والفطام والمشى وما إلى ذلك كلها طبيعية . وفى سن الثانية غمس الولد فجأة ذات مرة فى الماء البارد فذعر ذعراً شديداً وصرخ صراخاً مؤلماً طويلا ، وأصبح من ذلك الوقت كثير البكاء ، فكان يبكى أحياناً من أول اليوم إلى آخره . ولما كبر أرسل إلى روضة الأطفال ، وفى يوم من الأيام ، وهو فى سن السادسة ، كان عائداً من الروضة فنبح عليه كلب كبير ، وجرى وراءه ، وحدث كذلك أن أصيبت أخته الصغرى فى حادث تصادم وذعر لهذا الحادث ذعراً شديداً وكانت لديهم قبل هاتين الحادثتين خادمة مصابة بالتعثر فى النطق ، وكان قد بدأ يقلدها ، وهذا هو مبدأ تعثره فى الكلام ولكنه استمر فيه بعد ذلك إلى الوقت الحاضر.

وأما معاملة الولد فى المنزل فنظراً إلى أنه الذكر الوحيد والأول . فقد وجد عناية فائقة . كان مدللا فى صغره من الوالدين ومن جميع الأقارب . وكانت تجيب الأم له كل طلباته ويكاد يعتمد عليها فى كل صغيرة وكبيرة ، وهى تخاف عليه خوفا شديداً . أما الأب فإنه يلاحظ ابنه ملاحظة دقيقة حتى إنه يلاحظ مثلا أنه فى يوم كذا مرت عشرون دقيقة أو نصف ساعة دون أن يتعثر الولد فى نطقه . وهذا النوع من الملاحظة يمكن تسميته بالملاحظة القلقة . ويعطف الوالد كما قلنا على ابنه عطفاً مبالغاً فيه ، ويستثير همته ، ويستحثه ، ويشجعه على الاهتمام بعمله ، والتخلق بالرجولة . ويظهر أن الولد قد بالغ فى هذا مبالغة شديدة من سن مبكرة ، ترتب عليها أن الولد لم يتمتع كثيراً بما يتمتع به الأطفال من لعب ومرح وعدم حمل المسئولية . ومما يدل على صحة هذا أنى كنت أحدث الوالد ذات مرة على مسمع من الطفل قائلا إنى أحب أن الولد يلعب قليلا فقال الوالد بصورة جدية « ولكن ولدى لايحب اللعب مطلقا وإنما يحب المذاكرة والعمل الجدى » وبصعوبة كبيرة أمكن إقناع الوالد بوجوب تشجيع الولد على الاشتراك فى نوع من اللعب .

وأما حالة الطفل فى المدرسة فإنها طبيعية جداً ، إلا أن المدرسين والتلاميذ يرتكبون بعض الأخطاء فى تصرفاتهم معه ، فيحدث أحياناً أن يعيره بعض التلاميذ ، ويحدث كذلك أن يناديه أحد المدرسين بلقب ينتمى إلى العمى . ومن أمثلة أخطاء المدرسين أن عقدت العيادة لهم اجتماعاً خاصاً بهذا الولد للمناقشة فيما يجب عليهم اتباعه نحوه ، وفى صباح اليوم التالى دخل أحدهم الفصل ، وناداه وأبلغه بصوت مرتفع يسمعه بقية الأولاد أنه أضاع بالأمس ساعتين من الزمن فى اجتماع خاص بما عنده من عمىً ، وأنه سيعمل جهده لمساعدته . وكان لهذا الحادث أثر مؤلم جداً فى نفس الولد وهدم كل ما كانت قد وصلت إليه العيادة من نتائج ملموسة .

ويمكن تلخيص الحالة بأنها حالة توتر عصبى شديد ناشىء من إحساس الولد بضعفه وعدم ثقته بنفسه لأنه يعامل من والدته التى تجيب كل طلباته ، ووالده الذى يبالغ فى ملاطفته ، معاملة يشعر معها أنه مخلوق ضعيف . ومع إحساس الولد بضعفه هذا ، فإن والده وأهله جميعاً يستثيرونه لبذل مجهود عظيم لايتناسب مع طفولته من ناحية ، ولا مع إحساسه بضعفه من ناحية أخرى ، ويظهر أن هناك عنصراً وراثياً متدخلا فى استعداد الولد للضعف العصبى الذى يساعد على ظهور العمى متى توافرت الظروف الملائمة لذلك . ويتبين احتمال وجود هذا الضعف العصبى الوراثى مما ذكرناه آنفاً عن الأقارب . ومن الأسباب التى ساعدت على نجاح حالة التوتر فى تأثيرها على الولد — بالإضافة إلى ما قد يكون هناك من ضعف عصبي وراثى — احتمال وجود ضعف عصبى ناشىء من الصدمات المتكررة التى أصابته ، وهى عسر الولادة وحادثة غمسه فى الماء البارد ، وحادثة الانزعاج من الكلب ، وحادثة الانزعاج من صدمة أخته ، وتشرب الخوف من الظلام من والدته وجده . . . إلى غير ذلك . أما تقليده للخادمة فليس فى رأينا سبباً أساسياً . وكل مافى الأمر أن الخادمة ظهرت كعامل ملائم ومساعد للحالة النفسية الناتجة من مجموع العوامل الوراثية ، ومجموع الصدمات السابقة ، ومن مجموع الاتجاهات المتخذة نحوه من والديه وأقاربه وزملائه ومدرسيه ، ويمكن تصوير حالة

الولد بأن العىّ ذاته يشعره بالضعف ، والعوامل المتعددة الأخرى تشعره كذلك بالضعف ، وفى نفس الوقت تستثير بعض هذه العوامل همته فيزداد التوتر ويزداد العى ، وتزداد الحالة سوءاً .

ومما يدعم صحة هذا الاستنتاج أن الولد ، وهو فى حالة عدم توتر داخلى ، يتكلم بطلاقة فهو لا يتعثر فى أثناء ، اللعب ولا يتعثر عادة مع زملائه ، ولكنه يتعثر بشدة مع والده ومدرسيه . ويقول والده إن الولد يتكلم فى أثناء أحلامه بطلاقة غريبة وإذا قرأ شيئاً بصوت مرتفع فإنه لا يتعثر ، إلا إذا أحس أحداً قريباً منه . ومما يدعم هذا الرأى أيضاً أن الولد ظل يتحاشى مقابلة والده وجهاً لوجه مدة طويلة ، لأن المدرسة أرسلت للوالد تبلغه أن الولد ضعيف فى اللغة الانجليزية . فكان لهذا يحرص على أن يخرج من المنزل مبكراً فى الصباح قبل أن يستيقظ والده من النوم ، وكان الوالد فخوراً جداً بشدة تألم ابنه من نفسه وخجله منه .

ويلاحظ أن إحساس الولد بضعفه هو الذى أدى فى الغالب إلى جعل الولد سلبياً منكمشاً قليل الاختلاط شديد الحياء ، شديد الخجل والخوف ، قليل الثقة بنفسه قليل الكلام ، خاملا ، حساساً سريع التأثر ، يحرص على شعور الناس وعلى فكرة الناس عنه حرصاً لا يصدر عادة من الصغار مثله . وحساسيته وخوفه من النقد أديا إلى جعله دقيقاً فى عمله وفى ملبسه . ويحتمل جداً أن تكون دقة الولد مع نفسه ، ورقابته لها طول الوقت ، عاملا مهماً فى إحداث التوتر وتثبيت العىّ .

واتجه العلاج أولا للناحية الجسمية باستئصال اللوزتين . ثم اتجه للناحية النفسية بتعويده التكلم وهو فى حالة تراخ ، مما أعطى الولد ثقة كبيرة فى نفسه . وقد أكدنا على الوالدين وجوب تخفيف المراقبة ، ومنع القلق ، وتعويد الولد الاعتماد على نفسه . وقد اشترك فى معسكر صيفى قامت به العيادة ، واشترك فى ناد ليتمكن فيه من اللعب وحسن قضاء الوقت ، وليتمكن من النمو الاجتماعى المتزن . وقد تحسن بالفعل تحسناً كبيراً ، ولو أنه كان ينتكس بعض الشىء بسبب المرض أو الإجهاد أو رجوع الوالدين

إلى ماتعوداه معه من معاملة . وقد تقدم الولد بسبب نموه ، وتحسن صحته ، وكسبه ثقة فى نفسه ، تقدما محسوساً أساسه أنه بذل بنفسه جهداً كبيراً شجعه عليه ما رآه من قدرته على التكلم السلس فى بعض المواقف .

وهناك حالة ثانية تختلف عن سابقتها فى نوع شخصية صاحب الحالة . فعلى حين نجد صاحب الحالة الأولى حساساً منكمشاً هادئاً منقبضاً قليل الجرأة ميالا للعزلة نجد صاحب هذه الحالة محباً للسيطرة ميالا للنقد والسخرية والتهكم كثير الكلام مرحا محباً للاتصال بالغير .. إلى غير ذلك . وهو تلميذ فى سن الحادية عشرة ، ذكاؤه فوق المتوسط ، وهو الأخ الأكبر لخمسة إخوة . وهو كما قلنا يميل إلى بسط سلطانه على إخوته ، شديد الخيال و يظهر هذا فى رسومه وقصصه ونكاته ، و يميل فى رسومه إلى تشويه صور الناس بدرجة بالغة .

كان الولد يعيش فى القاهرة مع عمه وجدته فقط فى بيت ممل بالنسبة له كطفل يريد أن يلعب أحيانا ولا يجد من يلعب معه . والوالد على درجة كبيرة من الكفاية والذكاء والمرح ، إلا أنه قلق جداً على مستقبل أولاده . و يعتقد أن الزمن تغير كثيراً فما دام هناك أولاد ينالون الشهادة الابتدائية فى سن تسع سنوات فستكون المنافسة فى المستقبل شديدة جداً ، ولذا تشعر معه أنه مسوق إلى دفع أولاده لسرعة التحصيل والتعلم . وهو يفعل ذلك بشىء كثير من القلق . الوالد متغير فى معاملة أولاده فهو يدللهم تدليلا شديداً إلى سن معينة ، فإذا جاوزوها و بدأوا سن التعليم انقلب إلى شخص شديد صارم يقوم لأولاده بوظيفة المدرس رغم كثرة مشاغله ، و يتخلل تدريسه لهم ضربه إياهم بشدة وعنف . والوقت الذى يقوم فيه بالتدريس لأولاده هو الوقت الذى يكون قدأنهكه فيه العمل . وقد لوحظ أن الوالد إذا سأل أحد أبنائه سؤالا ولم يجب فى الحال فإنه ينهره بشدة مزعجة و بذلك يتعثر الولد . وأما الأم فإنها سيدة عادية فى كل شىء ، إلا أنها كثيرة النقد لأولادها . وهى تعلن أنها تحب البنات ولا تحب البنين . و ينال صاحب الحالة بالطبع شيئاً غير قليل من تفضيل أخواته عليه .

وكانت ولادة صاحب الحالة طبيعية ورضاعته طبيعية إلى أن جف لبن الأم فى الشهر الرابع من عمره . وكان المشى والكلام والتسنين وعادات المأكل والمشرب والتبول والتبرز طبيعية إلا أن الولد أصيب بالباراتيفويد فى سن الثالثة ، و بعد شفائه منه قل كلامه ، وضعفت قدرته على التعبير عن مطالبه ، وأصبح كثير البكاء لغير سبب ظاهر ، وكانت أمه تضربه لبكائه ضرباً شديداً و بدأت التهتهة فى ذلك الوقت.

أرسل الولد لمدرسة بنات فى سن الرابعة والنصف ، وكان هو الولد الوحيد بها ، وكان متضايقاً من هذا الوضع ، ولكنه أبقى بها رغم أنفه سنة ونصف سنة . و بعد إتمام تعليمه فى المدرسة الابتدائية أرسل إلى القاهرة ليعيش مع جدته وعمه . وقام عمه بتشديد الرقابة عليه لدرجة بالغة حتى لا يكون ملوماً ، وكان الولد يعمل كل شىء تقريباً ضد ما يرغب .

و يمكن تلخيص الحالة فى أن مرض الولد بالباراتيفويد ربما كان قد أضعف صحته العامة ضعفاً جعله حساساً شديد التأثر . ولو كان قد عومل فى ذلك الوقت برفق وصبر ، وحجز فى البيت مدة كافية لاسترد صحته تماماً قبل إرساله للمدرسة . ثم إن ذهابه لمدرسة البنات — وهو لا يحب البنات لأنهن مفضلات عند أمه على البنين — كان له مصدر ألم مستمر . كذلك معاملة والده المتقلبة من اللين إلى الشدة ، وقلق الوالد على تعليم أولاده ، وتعجله إياهم فى الكلام ودفعهم فى التعليم دفعاً بشىء من العنف ، كل ذلك كان له أثره فى الولد ، خصوصاً وأنه الأكبر ، وقد كان نصيبه من كل ذلك أوفر من نصيب أى واحد من إخوته .

ولم نصل مع هذا الولد إلى نتيجة مرضية لعدم كفاية ما حدث بينه و بين العيادة من اتصال ، ولو أن المعاملة التى عومل بها فى معسكر العيادة — الذى سبقت الإشارة إليه — أدت معه إلى نتائج طيبة ، ولكنها لم تدم لانقطاع صلته بالعيادة بعد ذلك .

التشخيص والعلاج

وليس من السهل فى الحالتين السابقتين أن نحدد سبباً واحداً تنسب إليه التهتهة، فهناك مجموعة عوامل ، بعضها جسمى ، وبعضها يرجع إلى المعاملة ، وبعضها يرجع إلى الوراثة ، وبعضها يرجع إلى التقليد ... تتضافر كلها فى إحداث الحالة أو فى المساعدة على بقائها بعد حدوثها .

ويغلب على الظن أن العامل الأساسى هو القلق أو الخوف المكبوت . وهذا القلق أو الخوف ينشأ إما بالتأثير فنجد الوالدين أحدهما أو كليهما على درجة من القلق . وقد ينشأ مما يحدث للطفل من حوادث التخويف أو المعاملة غير الحكيمة . ويترتب على حالة القلق النفسى إما خجل وانزواء وعزلة وقلة جرأة ، وما إلى ذلك من الصفات السلبية التى شاهدناها فى الحالة الأولى . وإما يترتب عليه تعويض نفسى فتنشأ الجرأة والمرح والنقد ، وما إلى ذلك من الصفات الإيجابية التى شاهدناها فى الحالة الثانية .

ويتلخص علاج مثل هذه الحالات فى إعطاء الطفل ثقة فى نفسه إزاء الكلام خاصة وإزاء مجالات حياته بنوع عام . أما أسلوب إعطاء الثقة فى النفس فإنه أسلوب طويل يحتاج إلى زمن وإلى صبر من كل من المعالج وصاحب الحالة .

ويصح أن نورد باختصار حالتين أخريين لنوضح أثر عامل القلق أو الخوف وأثر العوامل الأخرى إلى جانب هذا العامل .

أما الحالة الأولى فهى لولد فى سن الثانية عشرة عنده تعثر فى النطق ، وهو فى السنة الثانية الابتدائية ، ومستواه العقلى يوازى مستوى ذكاء ولد متوسط عمره ٨½ سنة — أى أنه متأخر فى ذكائه عما ينتظر لسنه — والولد خامل شاحب اللون قليل الابتسام ، وعنده كبرياء مصطنع يحاول أن يغطى به ما لديه من نقص . ثم هو مع ذلك يميل أحياناً للانزواء . وهو سريع الغضب ، ولكنه يكظم غضبه ،

فإذا ضربه أحد معلميه (وهذا كثيراً ما يحدث) فإنه لا يبكى مطلقاً . والولد يخاف أباه بدرجة بالغة . أما الأب فإنه رجل عصبى يتعثر فى النطق ويعتقد أن التعثر فى النطق أمر تافه لا يجوز إعارته أى اهتمام ، لأنه هو أيضاً يتعثر فى النطق ومع ذلك أصبح — بحسب رأيه فى نفسه — رجلا عظيما .

ويلاحظ أن كل فرد فى الأسرة عنده نوع معين من أنواع الشـــذوذ : فالأب يتعثر فى النطق ، والأم عصبية جداً ؛ وبنتهما غير متزنة ، والولد الكبير عصبى ويتعثر فى النطق ، وقد تأخر فى ضبط عضلات الجهاز البولى ، والولد الذى يليه شديد الخنافة ، وعيناه ليستا باتساع واحد . والولد ، الذى نحن بصدد حالته ، مع شدة خوفه من أبيه معجب به إعجاباً شديداً[1] . والعلاقة بين الأم والأب سيئة جداً ، ولكن الأب نجح فى إشباع أنانيته باستعمال القوة ، ورغم سعته يضيق على أسرته تضييقاً شديداً ويمتع نفسه خارج المنزل . كل هذا قد يدل على أن احتمال الوراثة من كل من الأب والأم ، وكذلك تقليد الأب ربما اشتركا فى تكوين التهتهة . وأما حالة التوتر فقد تكون نتيجة من حالة التناقض النفسى الظاهرة فى إعجاب الولد بأبيه وخوفه الشديد منه فى نفس الوقت ، ومن سوء العلاقات فى الجو المنزلى .

وبذلك قد تكون التهتهة فى هذه الحالة نوعاً من العصبية الموروثة التى أخذت اتجاهاً معيناً وتبلورت فى شكل معين بفعل البيئة بما فيها من تقليد وتخويف وإقلاق .

وهناك حالة أخرى لطالب عمره ثمانية عشرة عاما قد بدأ يتعثر فى النطق بعد حادثة وقعت له وهو فى سن الخامسة ، وهى أنه دخل دورة المياه وأقفل عليه الباب ولم يتمكن من فتحه وعجز أيضاً من فى الخارج عن ذلك فلم يتمكنوا من فتحه . وذعر الولد ذعراً شديداً . وهو الأصغر فى الأسرة وليس له سوى أخ واحد والعلاقة بين والديه بها شىء غير قليل من الخلاف مما يقلل من الشعور بالأمن فى جول المنزل (حالة ص ١٢٩).

---

(١) Identification and Ambivalency

عوامل ظهور صعوبات النطق

يبدو مما تقدم ومن دراسة مختلف أنواع الحالات أن صعوبات النطق تشترك فيها عوامل جسمية وعوامل نفسية ويمهد لظهورها طريقة نمو الشخص وتكوينه . وهذه يشترك فيها عوامل بعضها وراثية وبعضها بيئية . والعامل النفسى الأساسى فى التهتهة هو التوتر النفسى المصاحب للقلق أو الخوف أو فقدان الشعور بالأمن أو الشعور بالنقص .

وقد وجد بيرت[1] أن ٦٢٪ من الحالات التى درسها وعددها ٩٧ يوجد بها العامل الوراثى لاستعداد عصبى عام ، وأن فى ٢٣٪ منها يوجد عند الأبوين أو الأقارب تهتهة بالذات أو استعداد للتهتهة ، وأن ٢٤٪ من هذه الحالات الأخيرة لم يكن الأطفال قد اتصلوا بآبائهم إطلاقاً ، حتى يقال إن التهتهة انتقلت إليهم عن طريق التقليد .

ووجد بيرت كذلك أن ٣١ من حالاته بها زوائد أنفية و ١٩ منها بها تضخم فى اللوز و ١٣ منها بها أسنان فاسدة ، وبين أن العامل الجسمانى إذا وجد فإنه يكون عاملا مساعداً فقط .

وقد لاحظ كل من بيرت[1] وبوم ورتشارد سن[2] أن الأعمار الملائمة لظهور التهتهة هى سن الخامسة ، والسابعة أو الثامنة ، ثم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويعلل هذا بأن سن الخامسة هى سن بدء الذهاب للمدارس . أما سن السابعة أو الثامنة فهى سن الأنتقال للمرحلة الجدية من التعليم ، وأما سن الثالثة عشرة فهى سن بدء مرحلة أخرى من مراحل التعليم ، وأهم من ذلك أنها سن بدء دخول المراهقة بصعوباتها النفسية المعروفة .

وقد لاحظ بونهيم[3] أن عدداً غير قليل من حالات التهتهة يظهر فى السنة الثانية

(١) C. Burt: The Backward child.

(٢) Boome and Richardson : The Nature and Treatment of Stammering

(٣) Boenheim : Child Psychotherapy

من العمر ، وهذا هو سن بدء تعلم الكلام وبدء إتقان التوافقات الحركية اللازمة له ، ويحتمل معها أن أى اضطراب انفعالى فى ذلك الوقت يؤدى إلى اختلالها .

وقد لوحظ أن التهتهة فى البنين أكثر منها فى البنات ، وهذا الفرق يرجع إلى فروق طبيعية فى كفاية أجهزة النطق وسرعة نضجها ، وقد يرجع إلى أن الضغط التعليمى على البنين أكثر منه على البنات . كذلك لوحظ أن التهتهة أكثر انتشاراً فى المدن منها فى الريف ، وهذا يرجع إلى أن الأعصاب أكثر تعرضاً للاجهاد فى المدن منها فى الريف .

مصاحبات التهتهة

يلاحظ أن الطفل الذى يتعثر فى النطق يكون عنده شعور مكبوت بالنقص بسبب التهتهة ؛ فتجده يميل أحياناً إلى الذلة والانكسار والانزواء ، ويتصف عادة بالصفات التى سبق أن ذكرناها فيمن يمصون أصابعهم . ويحدث أحياناً مع هذا محاولة لتعويض هذا الشعور فيبدو الولد جريئاً يحاول الإكثار من الحديث ويعوض تهتهته بأن يحكى قصصاً مثيرة إذا أمكنه . وقام بعض الباحثين بتقسيم حالات التهتهة إلى أنماط فوجدوا أن هناك نمطين : أحدهما وهو الغالب يتصف بأنه خجول ، جبان معتكف ، منعزل يميل للوحدة ، شديد الحساسية ، شديد الانفعالية . ويكون هذا النوع هزيلا نحيفاً (Asthenic) (ص ٣٤) . وأما النوع الثانى ، وهو قليل ، فتجده جريئاً ، متسرعاً ، مندفعاً فى أفعاله وفى كلامه . ولكن يخرج كلامه وتصدر منه أفعاله كالمقذوفات بشىء من السرعة والانطلاق . ويكون هذا النوع حسن الصحة سميناً لا نحف فيه . ويصاحب التهتهة عادة حركات عصبية عامة أو خاصة تنطلق فيها الطاقة المكبوتة . والتهتهة تؤدى عادة وظيفة دفاعية للشخص ، فالناس لا يوجهون إليه أسئلتهم بحجة أنه يتهته ، ثم إنه قد يظن أنه يقنع من حوله بأن المسألة ليست صعوبة فى الفهم وإنما هى فقط صعوبة فى التعبير ، وهى لهذا تؤثر أثراً

سيئاً فى الناحية التعليمية ، إذ لا يشترك صاحبها فى النشاط التعليمى الجمعى الإشتراك اللازم . وهى قد تؤثر كذلك فى الناحية الصحية ، فالذى يتعثر فى النطق تجده عادة هزيلا شاحباً ؛ ولعل هـذا يرجع للجهد العصبى الضائع فى مجرد التوتر النفسى . أما النوع غير الهزيل فهو نادر كما بينا .

ويتأثر الذى يتعثر فى النطق بالمعاملة التى يلقاها ممن حوله . فإن كان غيره يهزأ منه فإن هذا يزيد شعوره بنقصه ، وإن كان يعطف عليه ، فإن عطفه يذكره بعاهته . ولهذا نجد الاحتمال كبيراً فى أن صعوبات النطق تجعل الشخص شاعراً بنقصه شعوراً مباشراً ، وشعوراً مشتقاً من مسلك الناس نحوه . ويترتب على هذا نوعان من السلوك كثيراً ما يجتمعان فى حالة تهتهة : نوع يدل على الخوف من الغير والإنكماش منهم ، ونوع قد يدل على نقمته على الغير وكراهيته لهم . فأحياناً قد نجد التلميذ الذى يتعثر فى نطقه منكمشاً فى المدرسة ، وإن قام بنشاط فهو نشاط فردى فى الغالب ، وقد نجده فى المنزل ناقداً لأخوته مشاكساً لهم . ومن أمثلة هذين النوعين من السلوك ، ما بدا من حالة طالب أشرنا إليه ضمن حالات التهتهة ، فبينما كان هذا الطالب منكمشاً هادئاً قليل الكلام كتب مرة فى كراسة الإنشاء نقداً مراً للمدرسة التى كان يتعلم فيها إذ ذاك ، وحلل المجتمع والحكومة القائمة فى ذلك الوقت تحليلا يعتبر جريئاً جداً (حالة ص ٣٢٢) .

المدرسة والتهتهة

وتكون المدرسة فى بعض الأحيان مسئولة عن ظهور التهتهة عند بعض الأولاد ، وكثيراً ما تكون المدرسة جواً صالحاً لتثبيت التهتهة وزيادة وضوحها . ولعل سبب ذلك هو أن جو المدرسة يعيش فيه الطفل مدة طويلة . ولحياته فيه أهمية خاصة بالنسبة لحفظ كرامته فى نظر نفسه ، وبالنسبة لمستقبله وشعوره بالأمن عند النظر إليه — فإن كان جو المدرسة يشعره مثلا بالفشل العقلى لعدم ملاءمة العمل له ، أو لسعة الفارق

بينه و بين زملائه فى الكفاية ، أو يشعره بالفشل فى اللغات بنوع خاص ، أو بالفشل الاجتماعى ، فإن هذا يزيد حالة الخوف وحالة التوتر . و إذا ظهر هذا الشعور بالفشل فى المدرسة فإن المنزل عادة يزيده تدعيما مما يزيد الحالة سوءاً على سوء . ومما يساعد على ظهور التوتر فى العلاقات بين المدرس وتلميذه شدة الاهتمام بالامتحانات وما تحدثه من قلق وما يترتب على ذلك من إرهاب وعقاب و إرهاق بالعمل وتوتر عام فى الجو المدرسى كله .

ولكن من الأخطاء المعروفة فى الموضوع الذى نحن بصدده إطلاق الأسئلة على التلاميذ إطلاقا سريعاً والإلحاح فى طلب الإسراع فى الإجابات ، أو إرغام الطفل على سرعة الإجابة وهو فى حالة خوف أو غضب ، أو إرغامه على التزام الصمت فى الحال إذا كان يصرخ من ألم ، أو يبث بشكوى ، أو يدفع عن نفسه ظلماً ، أو ما شابه ذلك .

كذلك من الخطأ تعليم الأطفال لغات متعددة جديدة فى وقت واحد ، أو مايحدث أحياناً من القفز فى تعليم اللغة القومية الصحيحة دون مراعاة للصلة بينها و بين اللغة الدارجة ، ولا لوجوب التدرج من هذه إلى تلك .

والتلميذ الذى يتعثر فى نطقه تثبت عنده هذه الصعوبة إذا هزأ به إخوانه أو مدرسوه أو إذا أظهروا أنهم منتبهون للتهتهة أو متوقعون حدوثها .

وقد لوحظ فى أحيان كثيرة أن طفلا أو طفلين يتهتهان تبدأ بهما فرقة دراسية معينة فى أول العام الدراسى قد تنتشر العدوى منهما إلى عدد من الأطفال . ففى مدرسة مصرية كان فى فصلين خمسة أولاد يتهتهون من مجموع الأولاد وهو ستون ، وفى نهاية العام الدراسى زاد عددهم إلى سبعة عشر ولداً . وربما يبدو أن هذه الزيادة وقدرها ٢٠ ٪ زيادة كبيرة ، لولا أن يبرت أيضاً يذكر أن بين خمسين طفلا فى مدرسة ما ارتفع العدد من طفل واحد إلى تسعة أطفال فى خلال السنة الدراسية — أى أن

الزيادة حدثت بنسبة ١٦ ٪ والعدوى بالتقليد فى التهتهة لا تحدث إلا إذا كان هناك أسباب كافية مهيئة لذلك .

علاج التهتهة

تعالج بعض أمراض التهتهة فى الخارج فى مراكز خاصة لذلك ، لأن علاج التهتهة وصعوبات النطق بوجه عام يحتاج إلى وقت طويل جداً فى كثير من الأحيان ، ولأن جو المدرسة العادى يعرقل تقدم العلاج ، إذ فيه يشعر الطفل بأنه أقل ممن حوله مهما كانت الطريقة التى يعامل بها .

ولكن كثيراً ما ينجح علاج بعض حالات التهتهة فى الجهات التى لا توجد فيها مراكز للعلاج والتى يمكن للمعلم فيها تنفيذ تعليمات الإخصائى المشرف على العلاج . وبعد بحث الحالة من نواحيها المختلفة يجب أن يتجه العلاج أولا إلى الناحية الصحية فتقوية صحة الطفل ، حتى فى النواحى التى ليس لها بصعوبة النطق علاقة مباشرة ، تسهل العلاج إلى درجة كبيرة . أما العلاج من الناحية النفسية فأهم ما فيه إعطاء المعالج ثقة فى نفسه . وقد لاحظنا أن الفرد الذى يتهته يتكلم عادة بسهولة وهو فى حالة تراخى (Relaxation) . فإذا أمكن إحداث حالة التراخى فى المريض ، وجعله يتحدث وهو فى هذه الحالة ، فإن هذا يعطيه ثقة كبيرة فى نفسه . وأثناء تحدث المريض وهو فى حالة تراخى يمكن كشف بعض العوامل التى تسبب التهتهة ، وهذا يؤدى عادة إلى تحسنه .

ومن أساليب إنماء الثقة فى النفس أن يعود الشخص الذى يتكلم أحياناً فى مجتمع مدرسى أو غير مدرسى بأن يحضر حديثه تحضيراً جيداً ، لأن التهتهة فى كثير من الأحيان تكون فى مثل هذه المواقف العامة . ومن يهاب الكلام فى هذه المواقف العامة فليعدّ نفسه جيداً وليكتب ما يريد أن يقوله إذ أن هذا يساعد أولا على تحديده وثانياً على حفظه مما يجعله واثقاً من نفسه قليل العرضة للتعثر .

فكأن العلاج يعتمد فى أساسه على الإيحاء ، وعلى حل مصادر التوتر ومصادر المشاكل الانفعالية ، وعلى توجيه المريض توجيهاً يقلل من هذا التوتر . هذا التوجيه يعدّل قدر الإمكان اتجاه عقل المريض نحو الحياة ، ويعدل مجال حياته فى المنزل والمدرسة من حيث الفرص التى تعطى ، وسياسة التقدير ، وملاءمة العمل لاستعداد الشخص ، وغير ذلك من القواعد التى تضمن تحقيق الشعور بالأمن ، والثقة بالنفس ، وتضمن بعبارة أخرى توافر شروط الصحة النفسية المعروفة .

وبجانب تحسين الصحة العامة وتعديل مجال حياة الطفل وحل مصادر التوتر عنده ، لابد من تناول العمليات الآلية والمهارات اللازمة للنطق ، فيعلم صاحب الحالة طرق التنفس والإخراج والتنغيم وغير ذلك ، مما يتعلق بعلم حركات الكلام و إخراجه .

ومن الخطأ أن يقتصر العلاج ، كما يحدث أحياناً ، على أن يعود الطفل صرف ذهنه عن عملية النطق بالقيام بحركة معينة كالضرب على جانب فخذه أو التوقيع بقدمه على الأرض أو غير ذلك . هذه الحركات لها أساس من الصحة ، وهى أنها تسحب كثيراً من الطاقة العقلية الموجهة لعملية النطق ذاتها ، فتنتج حالة تراخ متعلقة بها يسهل معها إخراج الكلام . ويمكن فهم هذا جيداً إذا علمنا أن انتباه المريض أثناء الكلام يكون يكون عادة موزعا بين الفكرة و بين حركات النطق . وأما فى السليم فإن الانتباه يتركز فى الفكرة ، وأما حركة النطق فإنها تحدث بطريقة آلية صرفة . لهذا كان محتملا أن الانتباه الجزئى لحركة جديدة يحرر أجهزة النطق من تركيز الانتباه فيها . ولكن وجه الخطأ فى هذا أن العلاج ينصب على العرض دون السبب الأصلى . وما دام السبب الأصلى موجوداً دون معالجة فإن الانتكاس محتمل الظهور فى أى وقت .

خاتمـــة

يتبين من دراسة هـــذا الموضوع ودراسة سابقة أن صعوبات النطق والحركات العصبية بوجه عام ليست مجرد اختلالات محلية خاصة بالمواضع التى تظهر فيها ، فصعوبة النطق ليست خاصة بالنطق فى ذاته . بدليل أن الذين يتعثرون فى النطق يتكلمون بطلاقة عندما يغنون ، أو يلعبون ، أو يحلمون ، أو يتحررون من الخوف أو الرقابة ، وبدليل أن الأشخاص العاديين يتعثرون فى النطق أحيـانا عندما يريدون التكلم مع الغير وهم فى حالة خوف ، أو فى حالة انفعالية أخرى يبرز فيها عنصر الخوف .

فالنطق نظراً لأنه أداة الاتصـال الاجتماعى ، يعتريه الاختلال بحيث يترتب عليه صعوبة هذا الاتصال . ولم يتفق العلماء اتفاقا تاما بشأن العامل الأساسى المسئول عن صعوبة النطق ؛ واختلفوا فيه بقدر ما اختلفوا فى أى ظاهرة أخرى من ظواهر الشذوذ ، فبينما يرى البعض أنه يرجع لاختلال المراكز العصبية ، يرى البعض الآخر أنه يرجع لضعف التوافق بين سهولة التعبير وسرعة التفكير . واختلف كذلك علماء النفس المحدثون فيرى المحللون النفسيون منهم أن أساس التهتهة قلق مكبوت مرتبط أصلا بالشكوك والمخاوف المتعلقة بالمسائل الجنسية . ويذهب دنلاب[1] إلى أن التهتهة تحدث مع الألفاظ البذيئة أو ما يرتبط بها بأى رباط . ومدى هـــذه الألفاظ واسع للغاية . فهناك فى نظره كبت مرتبط باللغة الجنسية . ويرى آخرون أن القلق أو الخوف لايخرج عن كونه عاملا مساعداً على جانب كبير من القوة ، ولا يفسر فى نظرهم صعوبات النطق فى جميع الحالات ، وبذلك يدخلون التقليـــد والوراثة والتأخر فى نضج أجهزة النطق ، وما إلى ذلك .

ولكن الجميع اتفقوا ، رغم اختلافهم فى التفسير ، على طريقة العلاج . فقد أجمعوا على أن التحليل النفسى وحـــده غير كاف للعلاج . فقد قرر بريل (Brill) أنه عالج

(١) K. Dunlap : Journal of Abnormal Psychology, 1917,

ستمائة حالة تهتهة ، ولجأ إلى طريقة التحليل فى تسع وستين حالة منها ، ولم ينجح إلا فى أربع حالات ، وحتى هـــذه الأربع حالات يقول عنها بنفسه إن نجاحه فيها قد لايكون راجعاً إليه . ويلاحظ أن بريل من أكبر أنصار التحليل النفسى . وقد دعم رأيه فى ذلك الكثيرون[1] .

ويتلخص العلاج فى إعطاء الطفل ثقة فى نفسه بجعله يتحدث وهو فى حالة تراخى وبتمرينه تمريناً متدرجا على الكلام ، ويشترط أن يكون التمرين بما يناسب كل حالة على حدة . ويسبق التمرين على النطق عادة تمرينات على التراخى . ويجب بجانب هذ كله ، أن يدرس مجال حياة الطفل فى المنزل والمدرسة دراسة جيدة ، وأن تعالج هذه المجالات المختلفة بما يعطى الطفل شعور الهدوء والقوة والثقة بالنفس ، وبما ينمى شخصيته من جميع نواحيها .

معنى ذلك أنه إلى جانب علاج العرض تعالج الشخصية كلها بنواحيها المختلفة . ويرى البعض أنه يجب الانصراف عن تركيز ذهن الطفل فى الأعراض ، ولكن إذا اقتصر العمل على إحداث هـذا التركيز على القائم بالعلاج دون غيره من والدين ومعلمين ، فإن النتيجة النهائية تكون عادة فى صالح الطفل . وقد ثبت من خبرة المجربين أن الاقتصار على علاج الشخصية عامة دون الاتجاه إلى العرض نفسه لايؤتى ثمرات مؤكدة .

---

(١) Hollingworth ; Abnormal Psychology; P. 440

المراجع

Blanton: For Stutterers.

Boenheim: Practical Child Psychotherapy.

Boome and Richardson: The Nature and Treatment of Stammering.

Burt: The Backward Child.

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

Lewis: Infant Speech.

Patri: Child Training.

Seth and Guthrie: Speech; Its Development and Disorders.

Stinchfield: Speech Disorders.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

Ward: Defects of Speech.

الفصل الثامن عشر

الخوف وضعف الثقة بالنفس

الخوف العادى والشاذ

لاحظنا من دراسة ما تقدم من مشكلات السلوك ، سواء فى ذلك التهتهة أو التبول اللاإرادى أو الحركات العصبية أو النوم المضطرب أن عاملا هاماً يدخل فى أغلب أنواعها وهو عامل الخوف . ويرى كثير من المشتغلين بالعلاجات النفسية أن الخوف لايقتصر فقط على بعض هذه المشكلات ، وإنما يوجد فى كل حالات اضطراب الشخصية سواء فى ذلك حالات الصغار أو حالات الكبار . فالخوف بصورة إما صريحة وإما مقنعة يظهر — بحسب رأى ألرز (Allers) — فى مشكلات السلوك بمختلف أنواعها[1] .

ويرى فرويد أن الخوف أو القلق أساس جميع الحالات العصبية ، غير أن الخوف يرتبط فى رأيه بالمسائل والمواقف الجنسية وما يتعلق بها[2] . وسواء أخذنا بهذه الآراء أو لم نأخذ فموضوع الخوف جدير بالدراسة ، لاسيما وأن الخوف حالة يحسها كل إنسان فى أثناء حياته . ونعلم أنه من الطبيعى للكائن الحى سواء فى ذلك الإنسان أو الحيوان أن يخاف فى بعض المواقف التى تهدده بالخطر أو يصح أن تهدده به فإذا واجهتنى فجأة سيارة فى الطريق ، فلا بد أن أشعر بالخوف ، وإذا

(١) R. Allers says: «There is no case of characterological anomaly either in children or in adults, no case of dissociation, as in neurosis, no case of difficult upbringing, or of childish shortcomings. in which open or variously disguised fear does not lurk.» The Psychology of Character; p. 115.

(٢) S. Freud in his Introductory Lectures on Psychoanalysis; p. 336. says. «It remains incontestible that for the average human being anxiety is cloosely connected with sexual restrictions».

جرى خلفي كلب كبير وهو ينبح ، فلا بد أن أشعر بمثل هـذا الشعور . فالخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان فى بعض المواقف ، ويسلك فيها سلوكا يبعده عادة عن مصادر الضرر . وهـذا كله ينشأ عن استعداد فطرى أوجده الخالق فى الإنسان والحيوان ، ويسمى كما قلنا غريزة . ولابد أن يكون الخالق قد أوجد هـذا الاستعداد الغريزى لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحى . فالخوف هو الذى يدفعنا لحماية أنفسنا والمحافظة عليها . فإذا كنا لانخاف النار مثلا فقد تحرقنـا ، وإذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا ، وإذا كنا لا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا . وهناك كذلك الخوف من الزلل ، وخوف الإنسان على سمعته . . وما إلى ذلك . ومن الطبيعى أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية وهى الخوف بالسلوك الملائم وهو الخلاص من الخطر . والحالات التى ينفصل فيها بين الخوف والخلاص ويكتفى فيها بالشعور الانفعالى تعتبر حالات غير صحية .

فالخوف أمر طبيعى معقول ضرورى يؤدى إلى حماية الفرد مما يجوز أن يسبب له ضرراً . وجميع الطرق الوقائية التى نتخذها لوقاية أنفسنا عوادى الطبيعة ، أو المرض أوسخط المجتمع أو غير ذلك تدل على نوع من الخوف نسميه الحذر أو الحيطة ، ويصح أن نسميه الخوف الواقى ، ومما لاشك فيه أنه فى درجاته المعقولة صفة طيبة يجب الاتصاف بها .

وإذا تأملنا أدركنا إن كان الخوف فى وقت ما حالة طبيعية أو شاذة . وحيث أن الشاذ هو ما يشذ عن المألوف أو يخرج عنه ، فالخوف الكثير المتكرر الوقوع لأية مناسبة يكون شاذاً ، وكذلك تضخم الخوف فى موقف ما تضخماً خارجاً عن النسبة المعقولة التى يتطلبها هذا الموقف عادة يعد أمراً شاذاً . فإذا وجدنا طفلا فى السابعة يخاف هبوب الهواء ، أو يخاف الصراصير أو القطط ، أو يخاف الظلام نعد هذا أمراً غير عادى . وإذا وجدنا طفلا فى الثالثة يخاف الظلام قليلا نعد هـذا أمراً عادياً ، ولكنه إذا خافه لدرجة الفزع والجزع ، ووصـل فى انفعاله لدرجة ينقلب فيها اتزانه

فلا شك أننا نعد هذا أمراً غير عادى . فكأن تضخم الجوف فى موقف ما تضخما خارجا عن الحد المعقول ، وكذلك تكرر الخوف تكراراً خارجاً عما هو مألوف يعد أمراً شاذاً يحتاج إلى تأمل وفحص وعلاج .

وكذلك يمكننا أن نأخذ نقيض الخوف ، فانعدام الخوف فى شخص ما أمر غير عادى ، وهو نادر للغاية ، ويغلب أن يكون سببه قلة الإدراك . وذلك كالطفل الذى يكون فى سن الثانية ويرى لأول مرة فى حياته عقرباً تجرى قد يظنها (كما حدث بالفعل) لعبة لطيفة يحسن مسكها واللعب بها . والسبب فى ذلك أن الطفل لايدرك خطر هـذا الكائن المتحرك غير المألوف . وكثيراً مايحدث أن يكون الطفل ضعيف العقل (Mentally Defective) فيقوم بأعمال تدل على عدم إدراكه مواقف الخطر أو الضرر . ومن أمثلة ذلك أن طفلا ضعيف العقل قفز ذات مرة من الطابق الثانى فى منزله إلى الطريق العام . ونفس هذا الطفل أصيب فى رأسه بجرح كبير سال منه دم غزير لأنه كان يلعب ويمثل خروفاً وأخذ يناطح درج سلم من الحجر مرات متوالية .

نرى مما تقدم أن لدينا خوفاً معقولا من حيث درجته ، ومبلغ تكرره ، واكتمال حلقاته من انفعال وسلوك . ولدينا خوف شاذ من هذه النواحى الثلاث . والخوف الطبيعى المعقول مفيد لسلامة الفرد . وأما ماعدا ذلك فهو ضار بشخصية الفرد وسلوكه . وقد لاحظنا فى الفصول السابقة أن الخوف قد يكون من مظاهره الانكماش ، وعدم الجرأة ، والتهتهة ، وغير ذلك من الخصال المعطلة عن النمو .

أنواع المخاوف

يقسم فرويد[1] المخاوف إلى قسمين كبيرين : الأول ويسميه المخاوف الموضوعية أو الحقيقية ، والثانى ويسميه المخاوف العامة أو غير المحددة . والنوع الأول يرتبط فيه الخوف بموضوع معين محدد ، كالخوف من الحيوان أو من الظلام أو من الموت . . .

(١) Frend; op. cit P. 333.

أو غير ذلك . أما النوع الثانى فلا يرتبط فيه الخوف بأى موضوع . فحالة الخوف تكون كأنها هائمة عائمة لا تستقر على موضوع ما . وصاحب هذه الحالة الأخيرة متشائم حزين يتوقع الشر والرعب وسوء الطالع فى أى لحظة وفى أى شىء . ويسمى فرويد هذه الحالة باسم القلق العصبى (Anxiety Neurosis) . أما المخاوف الموضوعية فيقسمها فرويد إلى ثلاث مجاميع ، بحسب ما يتوقعه الشخص العادى منها من خطر . فالنوع الأول يكون فيه عنصر الخطر بارزاً ، كالخوف من الثعابين أو من النار . أما النوع الثانى فإن فيه عنصر الخطر ، ولكن وقوع هذا الخطر يرجع للصدفة المحضة ، كالخوف من السفر فى قطار أو باخرة ، أو الخوف من دخول زحام خشية انتقال مرض إليه كالتيفوس ، أو الخوف من التلوث (Misophobia) ، والنوع الثالث ليس فيه عنصر الخطر إطلاقا ، كالخوف من الخنافس والصراصير ، والخوف من صعود الأماكن المرتفعة (Acrophobia) والخوف من السير فى مكان متسع كالميادين والحدائق (Agoraphobia) ، والخوف من الأماكن المقفلة (Claustrophobia) ، إلى غير ذلك .

ويقسم آخرون المخاوف بحسب واقعيتها ومثيراتها إلى قسمين : أحدهما المخاوف الحسية أو الواقعية ، وثانيهما المخاوف الوهمية أو الذاتية أو غير الحسية .

مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها

ومن المفيد من الناحية العملية التربوية أن نقسم مخاوف الأطفال — وهى التى تهمنا — بحسب موضوعاتها إلى حسية وغير حسية . فموضوعات الأولى يمكن الطفل إدراكها بحواسه المختلفة ، وأما موضوعات الثانية فلا يمكن الطفل إدراك حقيقتها . فمن النوع الأول الخوف من (الشحاذ أو العسكرى) مثلا ، أو من بعض أنواع الحيوان كالحصان أو القرد أو الصرصور أو غير ذلك . أما النوع الثانى فهو المخاوف غير الحسية كالخوف من الموت ، أو الخوف من جهنم ، أو العفاريت ، أو الغيلان ،

أو غير ذلك . ويمكن أن يضاف الخوف من الظلام والخوف من النوم فى حالة صغار الأطفال إلى النوع الثانى . وسواء أكانت المخاوف حسية أو غير حسية فإن الطفل — شأنه كشأن غيره — يخاف على العموم من الأمور الغريبة عنه غرابة كبيرة ، ويخاف كذلك من الأمور التى ترتبط فى ذهنه برباط الخوف .

من هذا نتبين بساطة الخطة التى يمكن اتباعها للوقاية من الخوف وعلاجه ، وهى توضيح الغريب وتقريبه من إدراك الطفل ، ثم ربط مصادر الخوف بأمور سارة محببة بدلا من ربطها بأمور تثير الخوف فحسب . فإن كان الطفل يخاف الكلاب مثلا فيصح أن نساعده على تربية كلب صغير فيطعمه ويتعهده ويحميه ويلاعبه ويلاحظ نموه يوماً بعد يوم . . . . إلى غير ذلك ، ثم يصح أن نوجه ذهنه إلى دراسة أنواع الكلاب ومزايا كل نوع وعاداته ، وأن نجمل له غرفته بصور لطيفة لهذا الحيوان . وبعبارة أخرى نجعله يدرك الكلاب وخصائصها إدراكا واضحاً يربطها فى ذهنه برباط جميل وينمى اهتمامه بها وشوقه إليها . ويجب علينا كذلك أن نوقفه على مدى ما يجب أن يتبعه إزاء هذا الحيوان من حرص واحتياط .

ومن الأمثلة الواقعية أن طفلة فى الثالثة من عمرها كانت تخاف الخيل خوفاً شديداً ، وتكرر منها الخوف بدرجة تلفت النظر . وبتحليل الموقف من وجهة نظر الطفلة أمكن الظن بأنها قد لاحظت أن وسائل النقل فى مجموعها هادئة قليلة الجلبة ، أما الخيل فإنها عندما تدب بأرجلها تحدث صوتاً عالياً ، فطبيعى أن تخاف الطفلة . وفى ساعة من ساعات هدوئها سألت والدتها (لماذا يفعل الحصان هكذا ؟) . وبالمناقشة اتضح أن الطفلة تريد أن تعرف الصوت أو مصدره . وكانت الأم قد فهمت ماتقصده إبنتها فقالت لها (لأنه لابس جزمة حديد) . فسألت البنت (ولماذا يلبس الجزمة الحديد ؟) . فقالت لها (لتحفظ أرجله) ، وحدث بعد ذلك أن ركبت البنت مركبات تجرها الخيل وكانت تنصت لصوت (الجزمة الحديد) ، ثم أبدت رغبتها فى رؤية (جزمة الحصان) ورأتها بالفعل ، وكان هذا مصدر سرور عظيم لها .

ثم ظلت مدة تقلد حركة الخيل وتقلد أصواتها . وأصبح ركوب المركبات ، ورؤية الخيل ، والاقتراب منها ، أموراً محببة إلى نفسها . وأدت هذه الطريقة إلى زوال عنصر الغرابة ، وربط الموضوع فى ذهن الطفل برباط الاهتمام والشوق واللذة . هذه حالة عادية يعرض مثلها كثير للآباء ويتبين منها كيف أن خوفاً نراه بسيطاً ربما يكون مؤلماً للطفل . والاحتمال كبير فى أنه قد يرسخ ويقوى بسوء التوجيه ، ومع ذلك يمكن بسهولة محوه وتحويله إلى مصدر تعليمى قيم للطفل نفسه .

وبهذه المناسبة أشير إلى أن بعض الآباء أو بعض الخدم يكتشفون غالباً خوف الطفل من أمر معين كالحصان أو الكلب أو القرد ، ويستغلونه إما لتسليتهم الخاصة أو لدفع الطفل للقيام بعمل معين ، أو الإحجام عن عمل آخر . أما تخويف الأبناء للضحك والتسلية من جانب الكبار فهذا أمر متكرر الوقوع . فخوف الطفل من القرد مثلا قد يكون مثاراً للضحك عند الكبار من أخوة وخدم وأحياناً من الآباء أنفسهم وما دام الأمر مصدراً للضحك والتسلية فلاغرابة أن يندفع بعض الكبار فيه لسرورهم . الخاص على حساب تألم الصغار وانزعاجهم . وليس هناك أقسى من أن يجلس الوالد أمام ابنه ويثير خوفه ، والولد يصرخ والوالد يضحك . ومن المحتمل جداً أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف نتائجه السيئة على علاقة الطفل بوالده ، وفى شخصية الطفل وفى سلوكه بوجه عام .

ومما يقوى الخوف فى نفوس الأطفال استثارته لحفظ النظام أو لدفع الطفل لعمل معين ، أو منعه من القيام بلعب أو ضوضاء أو غير ذلك . فكثيراً ما يخوّف الطفل ليقلع عن اللعب والحركة ليهدأ جو المنزل حتى يتمكن الوالد مثلا من النوم ، أو تركيز انتباهه فيما يشغله . وفرق بين أن يقلع الولد عن لعبه ونشاطه خوفاً من العقاب وبين أن يفعل ذلك ليؤدى خدمة لوالده . وما دام المقصود هو هدوء الجو ، فيمكن توجيه الطفل للعب فى مكان آخر ، أو لنوع من اللعب أكثر هدوءاً أو غير ذلك . والمهم أن يكون هناك تفاهم مع الطفل . وقد يظن أن الصغير لا يدرك المقصود فى مثل

هذه المواقف ، والواقع أنه يدرك أكثر مما نظن . ويرى بعض الآباء والمدرسين أن أساليب التخويف والعقاب تنجح دائما أكثر من أساليب التفاهم فى الحصول على سلوك طيب من الأطفال . ولكن ليست العبرة بالسلوك الطيب المؤقت وإنما العبرة بالسلوك الدائم الذى يستمر مع الشخص طول حياته بعد انفصاله عن منزله وعن مدرسته . والعبرة كذلك بالسلوك التلقائى المقصود لذاته ، وليست بالسلوك الذى يؤتى خوفاً من عقاب الوالدين أو المدرسين وتوبيخهم .

وكثيراً ما يهدد الطفل الصغير فى مثل الأحوال التى أشرنا إليها بأن يقال له : (إذا لم تكف عن كيت وكيت فسيأخذك العسكرى أو الشحاذ أو الزبال أو القرد ، أو سنضعك فى الغرفة المملوءة بالفيران) . وتكون النتيجة أحد أمرين : إما أن الطفل لايقلع عما يفعل ، ولا توقع عليه العقوبة ، فيكتشف بذلك ضعف الوالدين وعدم تحقيقهم لوعيدهم ، ويدرك مبلغ قوته عليهم تبعاً لذلك ، وإما أن يصدع الأمر ، ويهدأ ، ويشل نشاطه ، ويشب جباناً خضوعاً لغير سبب معقول . والنتيجة وبال فى كلتا الحالتين .

وقد قال لى طفل جرىء ذات مرة (لقد حبستنى المدرسة فى غرفة الفيران) . فدهشت وقلت له : (إذن ستقلع عما فعلت) . فضحك وقال : (لا ، لأنى عندما حبست قتلت جميع الفيران ، ولا مانع عندى من أن أحبس فى الغرفة مرة أخرى) ويبين هذا المثال مبلغ احترام الطفل الجرىء لهذا النوع من أساليب حفظ النظام ، ومبلغ استعداده للتمادى فى عبثه . وهذه النتيجة التى يكشف فيها الطفل خطأ من حوله من الكبار ، ويواجه فيها المواقف مواجهة صريحة جريئة — رغم مافيها مما لايروق أصحاب الأساليب التقليدية للتربية — خير من النتيجة الأخرى وهى الجبن والانكماش ، وضعف الشخصية .

ومن أخطاء الآباء المعروفة أنهم لاستثارة الخوف فى أبنائهم قد يربطونه بأمر لم يقصد به أن يكون مخيفاً ، وإنما قصد به أن يكون مفيداً فالطبيب مثلا وهو إنسان

يقوم بخدمات إنسانية واجتماعية مفيدة لمن يتصل به يستعمل اسمه فى كثير من الأحيان أداة للتخويف ، وكذلك الدواء والشرطى والمعلم والمدرسة . وهذه الموضوعات المختلفة التى يجب أن ترتبط فى ذهن الطفل بفائدتها وقيمتها الحقيقية. تستعمل أحياناً كما قلنا ، وسائل للعقاب أو لاستثارة الخوف فينقلب معناها فى ذهن الطفل فتصبح مصدر خوف له ، وتقل مقدرته على الاستفادة منها . فأحياناً يعاقب الطفل بأن يرغم على النوم ، أو على المذاكرة ، أو بأن يعطى دواء ، أو توضع فى عينيه قطرة ، أو ما شابه ذلك . هذه كلها أشياء يجب أن تكون محببة للأطفال وأن يربوا على الإقبال عليها من تلقاء أنفسهم ، ولا يجوز أن تصبح رموزاً للإرهاب ووسائل للتخويف والعقاب .

ولعل أشد مثيرات الخوف ذات الأثر الثابت هى خوف الآباء أنفسهم ؛ فحالات الخوف كغيرها من الحالات الانفعالية تنتقل من فرد إلى آخر بالتأثير . وهذا ما سبق أن سميناه المشاركة الوجدانية . ويدخل معها فى حالة صدور الخوف من شخص كبير عامل آخر وهو عامل الإيحاء . ومن الأمثلة التى توضح ذلك أن معلمة كانت تلقى درساً فى روضة من رياض الأطفال عن الضفدعة ، وكانت هى تخاف الضفادع ، ولكنها تشجعت وأخذت معها ضفدعة فى صندوق صغير ، ولما فتحته قفزت الضفدعة ففزعت المعلمة وصرخت فصرخ كثير من الأولاد ، ورفض معظمهم بعد ذلك أن يقربوا الضفادع هذه حالة خوف انتقلت إلى الأطفال عن طريق التأثير ، فحالة الفزع انتقلت إلى الأطفال بفعل المشاركة الوجدانية ، وبفعل إيحاء سلوك شخص له مكانته فى نظر الأطفال وانتقلت معها فكرة أن الضفدع حيوان مخيف .

وكثيرا ما يحدث أن يبدى بعض الآباء والأمهات خوفاً وقلقاً على أبنائهم ، وتنتقل هذه الحالة عادة إلى الأبناء فيصبحون بذلك قلقين على أنفسهم . فإذا جرح الطفل جرحا صغيراً ، أو وقع على الأرض ، أو ارتفعت درجة حرارته تجد الأم تذعر وتظهر — بسخاء شديد — كل علامات الخوف من جرى وارتباك واصفرار الوجه

وغير ذلك . ينتج عن هذا أن الطفل نفسه يذعر ، و بعد أن كان لا يشعر بأى ألم أو بألم قليل يمكنه تحمله ، يصبح عادة غير قادر على تحمل الألم . وفى العادة نجد الأسرة التى يقلق فيها الآباء على أبنائهم ينمو الطفل فيها وهو سريع التأثر ، شديد الحساسية لأقل ألم ، شديد الاهتمام بنفسه ، فإذا أصابه جرح صغير تألم و بكى و بالغ فى الاهتمام به ، و إذا أصابه صداع خفيف اعتكف ، و إذا شعر بارتفاع فى درجة حرارته نظر إلى وجهه فى المرآة ليرى مبلغ صفرة لونه ، وتأمل لسانه ليرى ما قد يكون عليه من علامات ، وجس نبضه ، وقاس درجة حرارته . و بهذه الطريقة يتضاعف مظهر المرض الخفيف الذى قد يكون لديه . ونجد عادة أن أسراً بمجموعها من هذا النوع تكون عادة سريعة التأثر ، كثيرة المرض ، وأفرادها مفرطون فى العناية بأنفسهم . ويغلب أن يكون هذا هو نوع الجو الذى تتكون فيه حالات الرعب من المرض (Hypochondria) .

وأعرف طفلا نشأ هذه النشأة بكى بكاء شديداً فى يوم ما وجرى إلى أمه يقول لها إن رجله قد جرحت . فنظرت الأم إلى الجرح المزعوم ، فإذا به لون أحمر وليس بجرح . وسببه أن الطفل كان يلبس جور با جديداً أحمر اللون وابتل بالماء فترك أثراً أحمر على ساقه . فإذا لم يكن هناك جرح ولا ألم فمن أين ينشأ الخوف والتألم ولماذا الصراخ ؟ نشأ هذا من أن الطفل شديد الخوف على نفسه ، لأن من حوله شديدو الخوف عليه . وهناك من هذا النوع أمثلة واقعية كثيرة منها أن فتاة احمر ذراعها وسبب هذا الاحمرار ذعراً شديداً . وفكرت بسببه فيما قد يتبع هذا الاحمرار من نتائج غير محمودة . هذا مع العلم بأن السبب الحقيقى بسيط للغاية ، وهو جلوسها فى الشمس فترة طويلة . وحتى عند ما ذكر لها ذلك لم يزل خوفها وظلت قلقة على نفسها يومين كاملين حتى زال أثر الشمس زوالا تاماً . نشأت هذه الفتاة فى نوع الجو الذى نحن بصدده . وفى العادة نجد الخوف من الآلام الجسمانية ، والخوف من الأمراض ، والتعرض فى كثير من الحالات للأمراض الهستيرية ، وتمركز المرء حول نفسه ،

وخوفه عليها من كل طارىء خارجي ، سببه امتلاء الجو المنزلى بالقلق والخوف على من فيه . ومن المهم أن نتذكر أن الخوف على من فى المنزل يكون فى العادة إسقاطاً للخوف على الذات .

فلتكن إذن خطة الآباء والأمهات إذا أصاب أبناءهم شيء ما أن يكونوا عمليين فيلتزموا الهدوء ، ويضبطوا انفعالاتهم ويقللوا من جزعهم ، ومن كل ما يركز انتباه الطفل على ما أصابه من مرض أو غير ذلك وليقوموا بعمل إيجابى هادىء لتخفيف الإصابة وعلاجها .

ومما يساعد على إثارة الخوف عند الأطفال تشاجر الكبار ، كتشاجر الأب والأم ، أو كثرة صخب الأب وغضبه . ولهذا كله تأثير سيء لأنه قد يزعزع ثقة الطفل فى والديه ، وكثير من حالات الاضطراب العصبى فى الكبر تنشأ من تزعزع ثقة الطفل فى العلاقات بين والديه .

وهناك نوع من الخوف فى غاية الخطورة وهو الخوف من المسائل المجهولة غير الحقيقية أو التى لا يمكن للطفل إدراكها إدراكا حسياً ، كالغول وجهنم والموت . والخوف من مثل هذه الأمور يكون عادة أعمق أثراً فى حياة الطفل من الخوف من المحسوسات . والواجب هو عدم إثارتها إطلاقاً وإذا هى كانت موجودة فيجب البحث عن سبب تكوينها ، وإزالتها من أساسها ، مع شرح حقيقتها ، قدر الإمكان ، بما يلائم عقل الطفل ، أو السماح له على الأقل بالتحدث فيها وعدم كبتها بإعطاء الموقف الصحيح إزاءها .

الخوف من الموت

ومن أمثلة هذا النوع الخوف من الموت. ويصاب كثير من الأطفال به بدرجات مختلفة ، ويكون سببه أحياناً أن يعيش الطفل مع كبار يخاف أحدهم الموت بشكل بارز ، وقد يكون سببه أن يموت للطفل قريب أو رفيق له به صلة شديدة . والسبب

الأصلى لهذا أن موت القريب المهم يهز فى الطفل ثقته فى بيئته التى يحتمى فيها و ينتمى إليها هزاً عنيفاً ، فتصبح دنياه فى نظره خلواً من الأمن . فكما ماتت جدته مثلا يصح أن يموت أبوه أو أن تموت أمه فى أى لحظة ـ أى أن بيئته تصبح خلواً من القاعدة الثابتة مضطربة ، أو عرضة للاضطراب والانقلاب . وهذا يؤدى إلى اضطرابه . وسبب أصلى آخر أن موت القريب يهز ثقته فى نفسه فيشعر أنه يصح أن يموت هو فى أى لحظة . وسبب ثالث أن الموت ظاهرة غريبة غامضة فى ذاتها وليس من السهل على الطفل ، بل على الكبير ، أن يتصور نفسه فى حالة الموت ، أو فيما يحدث لجثته بعد الموت ، رغم معرفته الأكيدة بتعرضه له . ولهذا يطرد الناس هذه الفكرة عن أذهانهم ، بل لا يدخلونها فيها فى غالب الأحيان . ومن أهم أسباب خوف الأطفال من الموت ما يحاط به الموت مما يأتيه الكبار عادة من بكاء فردى وجمعى وغير ذلك مما تقضى به بعض التقاليد ، فخوف الأطفال من الموت ليس كله خوفاً طبيعياً وإنما أغلبه مشتق من خوف الكبار وسلوكهم إزاءه .

وللحصول على بعض الوقاية للأطفال من هذا النوع من الخوف ، يحسن أن يكون بالمنزل أو فى خبرة الطفل المتكررة بعض الحيوانات . ولا بد أن يموت بعض هذه الحيوانات فيدرك الطفل الموت بذلك إدراكا طبيعياً هادئاً خالياً مما يحيط بموت الإنسان عادة من انفعالات ، ومن محاولات لتخبئة الموت وظواهره من ناحية ، وتجسيمها من ناحية أخرى . ويحدث أن يسمع الطفل بوفاة جار ليس له به قرابة فيسأل والدته أو والده أسئلة عن الموت ومعناه وميعاد حدوثه . . الخ ، ويندفع إلى السؤال بدافع الرغبة فى الاطمئنان . وهذه فرصة ذهبية للتحدث الهادىء مع الطفل عن الموت ، لأن الخوف من الموت يكون أسوأ أثراً إذا كانت الخبرات الأولى بالموت ترتبط فى ذهن الطفل بصدمة شديدة حادة تتعلق بقريب أو عزيز . ويحسن ، قدر الإمكان ، ألا يحاط الموت بما يحاط به من تقاليد تثير فى الأطفال رعباً شديداً دون أن ندرك ذلك غالباً . وإذا لم يكن هناك بد من متابعة هذه التقاليد ، فيحسن إبعاد

الطفل عن جوها إلى أن تنتهى . على أنه من الخطأ الفاحش ، إذا مات للطفل قريب محاولة التمويه عليه وعدم إيقانه على الحقيقة بمختلف الأساليب ، وذلك لأن التمويه والتغيير الفجائى يكونان مصحوبين بجو غير عادى يثير شكوك الطفل وحيرته . والحيرة أشد أثراً فى نفس الطفل من الصدمة الناشئة عن المواجهة المؤلمة للواقع .

الخوف من الظلام

يمكن أن يكون خوف الأطفال من الظلام أمراً طبيعياً كما يمكن أن يكون غير طبيعى . ويجب أن يتجه العلاج منه بتعويد الطفل النوم فى الظلام ، وألا يكون بتعويده النوم فى مكان مضاء . وخوف الطفل من الظلام يكون عادة لارتباط الظلام فى ذهنه (بالعفاريت) أو ما شابهها مما يثيره الكبار . ولكن قد يكون الخوف من الظلام ، كما قلنا ، طبيعياً . وذلك لأن الطفل فى صغره له خيال قوى وخبرة ضئيلة ، ولأن الظلام نفسه يساعد على ظهور الخيالات والأشباح . فالظلام فى ذاته لا يثير خوفاً غريزياً فطرياً وإنما يخيف لما يستثيره فى الأطفال عادة بطبيعته من عناصر مخيفة ، وذلك لأنه إن كان الظلام حالكا يصبح فى إدراكه مجرداً من الحدود والنهايات . وإن كان الظلام جزئياً فإن ما به من مرئيات يسهل أن تتحول فى نظر الطفل إلى أشباح غريبة . فالطفل قد يقوم من نومه غامض الشعور والإدراك ، وجو الغرفة يكون وسطاً بين النور والظلام ، فيرى المشجب مثلا فى ركن الغرفة وفى أعلاه طربوش وعليه (جاكتة) فيخيل إليه أنه رجل . وربما هب الهواء وهز ذراعى (الجاكتة) ، مما يساعد على وضوح الصورة المتكونة للرجل فى خياله . وإذا كان لدينا طفل يخاف الظلام فيمكن أن ينام فى غرفة بها ضوء ، ويقلل الضوء ليلة بعد أخرى ، ولا مانع من أن يحتفظ (بمصباح سهارى) ، ولا مانع من (بطارية) يحفظها تحت وسادته ليضىء بها إذ شعر بالحاجة لذلك ، ثم يفهم الطفل بالدليل المحسوس وبالمناقشة أن الظلام لا يدعو لكل هذا الخوف . ومن أهم العوامل التى

تساعد على زوال الخوف من الظلام أن يكون الكبار أنفسهم ممن لا يخافون الظلام . ويصح ألا يعوّد الطفل الظلام فجأة وإنما يعوّده بالتدريج . ويجب أن يراعى لوقاية الطفل أو علاجه من الخوف من الظلام نوع القصص التى تحكى له قبل النوم مباشرة ، فيجب أن تنتقى بحيث تخلو بقدر الإمكان من عناصر الإزعاج ، ويجب كذلك أن تمتنع استثارة الخوف عند الأطفال وهم فى الظلام ، لأن مجال الظلام يصعب على الأطفال تحديد موقفهم فيه ، خصوصاً إذا اضطربوا .

القلق والخوف العام

ونلاحظ فى بعض الناس قلقاً أو خوفاً عاماً ، فنجد شخصاً يخاف أى نوع من المخاطرة ويخشى مقابلة من لايعرف ، ويخشى التكلم فى مجتمع ، ويخاف الامتحان . وهو يشك فى مقدرة نفسه فى كل خطوة من خطوات حياته . وإذا درسنا حياة هذا النوع من الناس — وهو موجود بدرجات مختلفة — نجد أن من حوله من الكبار كانوا يحذرونه باستمرار أو ينتقدونه باستمرار أو يتبعون معه غير ذلك من الأساليب المسببة للقلق وليس معنى هذا أن التحذير المستمر أو النقد المستمر لايؤدى إلا إلى القلق ، وإنما يحتمل أن يؤدى إليه أو إلى نقيضه . فهو إما أن يضعف ثقة المرء بنفسه ، أو ثقته بالناس فيقف منهم موقف المتحدى .

واجب الآباء إزاء مواقف الخوف

ومن القواعد الوقائية الهامة التى يجب أن تراعى أنه إذا حدثت لطفل ما حادثة مزعجة فلا يجوز أن نترك الطفل ينساها لأنه ينساها غالباً بفعل الكبت ، وبذلك تصبح فى حالة لاشعورية ، ولكن أثرها لاينتهى إذ يحتمل أن تصبح مصدراً للاضطرابات النفسية . وقد حدث أن طفلا صرخ صراخاً شديداً للغاية ، كله ذعر وخوف ، وظهر أن السبب فى ذلك أنه كان قد رأى قطته تأكل أحد أولادها . هذا الحادث

ربما كان يترك أثراً دائماً فى نفس الطفل لولا أن من حوله عالجوا المسألة بكثير من الحكمة . وكان من أسئلته التى سألها فى ذلك الوقت : (هل كل أم تأكل أولادها ؟) والظاهر أن الطفل خيّل إليه أنه كما أن القطة الكبيرة أكلت أولادها ، فمن المحتمل ألا يكون هناك ما يمنع من أن الأم البشرية قد تأكل هى أيضاً أولادها ، وعلى ذلك فقد تأكله أمه فى يوم من الأيام ، ولكن أفهمه من حوله إذ ذاك أن القطة الشرسة فقط هى التى تأكل أولادها . ثم إن الموضوع لم يترك لينسى ، بل كان من حوله يتحدثون معه فيه من آن لآخر ، ويطلبون منه أن يصف طريقة القطة عند أكلها لأولادها إلى غير ذلك من التعليقات حول الحادث . وكان من المحتمل أن يقوم الكبار المحيطون بالطفل بالاستهزاء من خوفه من الحادث التافه فى نظرهم ، ويضحكون على سؤاله ، أو يجيبونه كذباً بأن كل أم تأكل أولادها إلى غير ذلك ، مما يثبّت آثار الخوف فى نفسه .

وعلى العموم ، فليتذكر الآباء والأمهات أن الخوف يتكون غالباً بالاستثارة والتكرار . فالقاعدة العامة إذن هى منع الاستثارة . وعليهم أن يتذكروا أن فهم الشىء على حقيقته وتكوين عاطفة طيبة نحوه من أهم العوامل التى يجب إقامتها لتعمل ضد الخوف .

ومن أهم القواعد التى يجب توكيدها أن الخوف ينتقل بالإيحاء والمشاركة الوجدانية ، ولنتذكر أن إيحاء السلوك أقوى من إيحاء الألفاظ . فإذا أردت لأطفالك ألا يخافوا الدواء مثلا ، فلا معنى لأن تظهر علامات التألم وأنت تأخذ الدواء ، أو فى الوقت الذى تعطى فيه الطفل دواء ثم تطلب منه التجلد إزاءه . فعليك أنت أولا ألا تخاف هذه الأشياء ، وإن كنت تخافها فلتروض نفسك على تحملها ، وإذا استحال عليك ذلك فاستر خوفك عن أطفالك . ومن الوسائل السهلة التطبيق التشجيع الجمعى ، فتعطى مثلا طفلا شجاعا دواءه تحت تأثير التشجيع أمام آخرين ، ثم تعطى الآخرين دواءهم بعد ذلك تحت تأثير التشجيع أيضاً ، وبالتكرار تجد أن هذه الأشياء تنفذ بسرعة

وسهولة ، وعلينا أن نتذكر فى مثل هـذه المواقف ما يحسه الأطفال من نشوة عند التغلب على الخوف .

ويجب على الآباء أن يروضوا أنفسهم على عدم القلق على أبنائهم ، أو أن يخفوا عنهم قلقهم إن كان خارجاً عن إرادتهم ، وأن يقللوا من التحذير والمبالغة فى النقد وأن يمتنعوا عن الاستهزاء بالأطفال والسخرية بهم .

وعلى الآباء أن يتذكروا كذلك أن أغلب أخطائنا فى تربيـة الطفل سببها أن المرء ينسى ما كان فيه من عالم الطفولة بسرعة وسهولة . فعالم الأطفال عالم دقيق الحس سريع التأثر ، شديد الانفعال ، قليل الإدراك ، نادر الخبرة ، ضئيل الحيلة . وهـذه من أهم العوامل التى تسهل احتمال نمو الخوف بصورة غير سوية .

ضعف الثقة بالنفس

ويرتبط بموضوع الخوف ارتباطاً شديداً صفة كثيرة الشيوع وهى ضعف الروح الاستقلالية فى الأفراد . ويكون هذا دالا فى الغالب على فقد الأمن أو وجود الخوف. ومن مظاهر هـذا الضعف التردد ، وانعقاد اللسان فى المجتمعات والتهتهة واللجلجة ، والانكماش ، والخجل وعدم القدرة على التفكير المستقل ، وعدم الجرأة ، وتوقع الشر وزيادة الخوف وشدة الحرص ، وتضييع الوقت بعمل ألف حساب لكل أمر — صغيراً كان أو كبيراً — قبل البدء فيه حتى لايخرج منحرفاً قيد شعرة عن الكمال . ومن الغريب أن من مظاهره كذلك التهاون والاستهتار وسوء السلوك والإجرام .

وهذه الصفات كلها يجمعها أو يجمع ماوراءها مايسميه الناس عادة شعوراً بالنقص أو ضعف ثقة بالنفس أو جبناً . . أو ما إلى ذلك . ولا شك فى أن هـذه الخصلة الهدامة للرقى المفككة للشخصية ، إنما تتكون عادة فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويغرسها فى نفسه أعز الناس إليه وأقربهم إلى قلبه ، وهم الوالدان .

الثقة عند الطفل الصغير

وأول ما نلاحظه أن الطفل الصغير العادى يعيش عادة فى جوكله أمن واطمئنان . فحاجات الطفل كلها مشبعة ورغباته مجابة . فإذا صرخ فإن الأم تهرع إليه لترضعه ، أو لتغير له الملابس أو لتدفئه فى حاله البرودة ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه . فالطفل الصغيرعادة لايرفض له طلب ، ولذا نجده يبدو كأنه يتحكم فى دنياه ، فهو يأمر ويصرخ ولا يصبر حتى تحضر له أمه فى تأنٍ وهدوء ، وإنما يرفس ويصرخ بعنف وإلحاح إلى أن يجاب طلبه ؛ فكأن حياة الطفل تشعر بشىء كثير من الاطمئنان إلى من حوله والثقة بهم ، وكأنه يشعر شعوراً ضمنياً بأن من المسلم به ألا يرفض له طلب بحال من الأحوال .

ولكن يلاحظ أن الطفل قرب السنة الثانية يتعلم المشى والكلام ، ويزداد نشاطه ، وتكثر حركته ، ويكون مملوءاً ثقة بنفسه وتزداد رغبته فى اللعب والصياح والحركة ، ويتضاعف شوقه للمس الأشياء وفحصها . وهو لا يعرف منعاً ولا زجراً . ولكن ازدياد النشاط عنده لايجد من الكبار عادة تشجيعاً ولا قبولا . فالحركة واللعب ولمس الأشياء وفحصها خصوصاً إن كانت مما يملكه الكبار ويقدرونه ، تجد معارضة ومقاومة . فكلما لمس شيئاً منعه الكبار وكلما صاح ضربوه وكلما فعل مالا يروقهم زجروه . والمنع والضرب والزجر وما إلى ذلك كلها أمور جديدة بالنسبة للطفل فى هذه السن ، فلم يكن يألف منها شيئاً من قبل ، ولم يكن يعرف غير السعادة ، والرضا والطمأنينة . وأما الآن فهذا كله يقل ، أو ينعدم ، ويحل محله اضطراب نفسى وقلق داخلى وشعور بفقد السند وفقد ما كان عنده من قوة يسخّر بها من حوله لقضاء مصالحه وإجابة مطالبه .

فكأن هذا الانتقال الفجائى فى المعاملة الذى يحدث عادة حوالى السنة الثانية من حياة الطفل ، والذى يحدث دون قصد سيىء من الوالدين ، بل بالعكس ، يحدث

وفيه قصد التوجيه والتأديب والتربية ، هو الذى ينقل الطفل من امتلاك الثقة إلى فقدها ومن الإيمان بالقوة الشخصية إلى التشكك فى وجودها . فيجب أن تكون القاعدة الأساسية أن الانتقال فى المعاملة من السنتين الأوليين إلى ما بعدهما بنوع خاص يجب أن يكون انتقالا تدريجياً ، وأن يعطى الطفل الفرص الكافية لتصريف ما عنده من النشاط فى جو تتوافر فيه العوامل المحققة لحاجات الطفل النفسية من تقدير وعطف ونجاح وحرية وتوجيه وشعور بالأمن والاستقرار .

بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص

ويلاحظ كذلك أن مجموع الظروف المحيطة بالأطفال تجعلهم عادة يشعرون بشىء غير قليل من النقص ، فالطفل بطبيعة طفولته نظراً لصغر جسمه ، ونظراً لضعفه ونظراً لاعتماده على والديه ، ونظراً لقصور إدراكه يشعر بأن أمه وأباه بنوع خاص مخلوقان قويان عظيمان ، وبالتالى يشعر بأنه فرد ضعيف . ولذا نلاحظ أن نفس الطفل تشتاق للكبر ، وتتعطش للنمو وكسب القوة . فهو يقلد أمه وأباه فى كل أمر تقريباً ، لأنه يريد أن يكبر مثلهما ، وهو يفرح لأى ظاهرة عنده من مظاهر النمو ، فإذا شعر مثلا بأنه أصبح قادراً على أن تصل يده إلى الصنبور أو إلى مزلاج الباب بعد أن كان غير قادر على ذلك فإن هـذا الشعور يكون مصدراً عظيما للنشوة والفرح ، فكأن ضعف الطفل وقوة من حوله يشعرانه بقلته ونقصه وضعفه . ولكن يتضاعف أثر هذا العامل الطبيعى بفعل بعض التغيرات الحادثة فى مجال حياته كتكرر الحوادث التى تقع بفعل القضاء والقدر أو بفعل معاملة الوالدين .

القصور الجسمانى والعقلى

وقد يكون لدى الطفل بالإضافة إلى ضعفه الطبيعى الذى يشترك فيه مع بقية الأطفال نقص جسمانى خاص به كالحول ، أو العرج ، أو العسر ، أو النحافة ،

أو البدانة ، أو فرط القصر ، أو فرط الطول ، أو تشوه جسمانى معين ، أو غير ذلك . ويجب فى هذه الحالات أن يكون موقف الكبار مع الصغار موقفاً عادياً ، كأن الطفل ليس به شيء غريب إطلاقا ، فلا تجوز الموازنة ، ولا تجوز السخرية . ولا يجوز العطف الزائد . فالعطف الزائد من شأنه أن يركز انتباه الطفل على عاهته ، بل يجب أن يكون سلوك الكبار مع هذا الطفل كسلوكهم مع أى طفل آخر ، فأى سلوك غير السلوك العادى يصح أن ينتج لنا شخصاً منكمشاً ، راكداً متباعداً ، منزوياً ، غير ميال للنشاط ، أو شخصاً ناقماً ، ثائراً يتجه فى كثير من الأحيان بنقمته وثورته ضد المجتمع وأنظمته وآدابه ، وتقاليده . هذا كله من ناحية الشعور بالنقص المتكون من الضعف الجسمى ، وأهم ما يرعى فيه أن حساسية الطفل لنقصه أو لموقف الكبار نحو نقصه الجسمى حساسية كبيرة للغاية . فليكن موقفنا الوقائى إزاء الصحة النفسية للطفل أن نضمن أولا صحة الطفل الجسمانية ، وأن نساعده على أن يشعر بقوته وصحته شعوراً معقولا معتدلا .

وهناك نوع آخر من الشعور بالنقص ، وهو الشعور بالنقص العقلى أو الضعف العقلى ، فمن الجائز أن يتأخر الولد عن زملائه فى المرحلة الدراسية كأن يجد نفسه فى سنة دراسية كل أطفالها أصغر منه فى السن . ووجوده فى هذه البيئة قد يشعره بالبؤس ويفقده احترام نفسه وتقديره إياها . ومن الجائز أن يكون سبب التأخر هو كثرة تنقلات الوالدين من جهة إلى أخرى ، وبالتالى كثرة تنقل الطفل من مدرسة إلى أخرى ، وارتباكه فى تحصيله العقلى تبعاً لذلك . فإذا حدث هذا التأخير ، وكان المعروف أن ذكاء الطفل يسمح له بالتقدم ، فيحسن مساعدته حتى يصل إلى المستوى المناسب له ، ثم يترك بعد ذلك ليشق طريقه بنفسه . ويحسن أن يقف الطفل على الأسباب التى أدت إلى تأخره ، فكثيراً ما تغيب هذه الأسباب عن ذهن الطفل بل عن ذهن الوالدين أنفسهم . ووقوف الطفل والوالدين والمعلمين على عوامل تأخر الطفل يجعلهم أقدر على التحكم فيها . ومن الجائز أن يتصف الطفل بقصور حقيقى

فى استعداده الإدراكى . وفى هـذه الحالة لا يجوز وضع الطفل فى عمل دراسى أكثر مما يتحمله مستواه الإدراكى ، لأنه سيشعر دائماً إزاءه بضعفه وعجزه وعدم مقدرته .

ومن أحسن ما يقوى فى الطفل ثقته بنفسه نجاحه وشعوره بالنجاح ، فإذا قام بعمل ونجح فيه فهـذا هو أحسن حافز له على مواصلة العمـل والنشاط ، فإذا كنت تكلّفه عملا ما فمن الجائز أن يكون العمل صعباً جداً فييأس أمامه ، ويظن أنه ضعيف ومن الجائز أن يكون العمل سهلا جـداً لا يشعر الطفل معه ببذل المجهود ، أو بلذة النجاح ، وينشأ عنده احتقار للعمل أو شعور بالغرور . فيحسن أن يكون العمل الذى يكلّفه عملا أعلى من مستواه بحيث يتحدى قواه العقلية ونشاطها ، وبحيث يهيىء له فرصة للنجاح ، وبالتالى فرصة احترام نفسه لنجاحه . وهـذا هو نوع النشاط الذى يحفز إلى الاستمرار فى النشاط بعد ذلك .

أثر الموازنات

ومما يثبط همة الطفل أن نحط من قيمته بالموازنة . فكثيراً ما يوازن الآباء بين طفل وطفل آخر بقصد تحميس الطفـل المتأخر إلى العمل والنشاط وهـذا النوع من الموازنات يأتى غالباً بأسوأ النتائج .

ومن بين الحالات التى عرضت لنـا حالة ولد متوسط الذكاء وله أخت تصغره سناً وتفوقه ذكاء ، وكان الوالدان يوازنان علانيـة بينهما موازنة تشعر البنت بأنهـا قد بلغت الذروة وتشعر الولد بأنه قد هبط إلى الحضيض . وهكذا ثبطت همة الولد ، وانكمش فى نفسه ، وتراخى فى عمله ، وتشجعت البنت ، وتقدمت فى عملهـا ، وكلما ازدادت الموازنة زاد الولد تألماً ، وزاد انحرافاً عن عمله ، وزادت البنت نشاطاً وتحمساً فى عملها . فإذا نظرنا لهـذا الولد وجدنا أن كل ما حوله يفقده شعوره بالقوة فهنـاك توبيخ الوالدين ، وهناك رسوبه ونجاح أخته . وهذا كله يترك فى الطفل آثاراً يترتب عليها شعوره بعدم الجدارة ، وبنقص الكفاءة ، وبعدم القدرة على العمل .

وكان الولد يعمل فى الظاهر أحياناً ويستذكر ؛ ولكنه يقول إنه يستذكر ولا يفهم ، وإنه إذا جلس يستذكر يتشتت فكره ، ويطير عقله ، ويشرد انتباهه مما أمامه . وعقل الولد فى هذه الحالة مقسم بين قوتين : إحداهما الرغبة فى النجاح والتفوق والأخرى شعور خفى يستولى عليه ، ويمزق جهوده ، ويشعره بأن الإخفاق أمر لابد منه . والولد فى كل هذا مخلوق بائس يرغب ويعجز عن تحقيق رغبته ، ويعقد النية ولا يقوى على تنفيذها . وهو لايدرك سر القوى الخفية التى تعمل بداخله ، والتى هى من غرس الجو المنزلى المحيط به ، والتى تجعله غير قادر على العمل . وبالإضافة إلى هذا فإن الأب والأم لايسمحان له بالاشتراك مع بقية الأسرة فى الحديث أو الفسحة ، أو المجالسة ، أو غير ذلك . وكل هذا بالطبع يزيد فى شعوره بنقصه وعدم جدارته .

وطفل آخر له أخ أصغر وأذكى منه بكثير . ذكاء الأكبر أقل من العادى بدرجة ضئيلة . بدأت الموازنة بين الأخوين بتشجيع الوالدين للأصغر وتقريبه منهما . والعطف عليه ، وإقصاء الأكبر والإكثار من توبيخه وضربه وحرمانه من كل امتياز . كل هذا ، إذا أضيف إلى شعور الطفل بإخفاقه الدراسى ، لايربى فيه شعوراً بالقوة ، بل يهدم فيه كل ما يمت للشعور بالقوة بصلة . وخير لوالد هذين الطفلين وأمثالهما أن يدرك أن الإخوة يختلفون فى قواهم العقلية ، وأن الواجب توجيه كل للتعليم الذى يلائم قواه العقلية . فإذا اتجه الأصغر للتعليم الثانوى المعروف ، يصح أن يتجه الأكبر للتعليم الصناعى — مع احترام نوعى التعليم فى نظر كل من الطفلين .

ويجب أن تكون القاعدة هى عدم الموازنة ، وأن يستبدل بالنقد والتوبيخ والزجر وما إلى ذلك تشجيع الطفل وإشعاره بما فيه من النواحى الطيبة وإبراز هذه النواحى بصورة عملية محسوسة . وليس من المعتاد أن تكون الموازنة دائماً صريحة . فقد تكون ضمنية ، إذ يكون جو المنزل أحياناً بحيث يشعر بالمحاباة ، وتقريب طفل وإبعاد الآخر ، وإظهار الحب وعلامات الاستلطاف لطفل دون الآخر . فالمساواة فى المعاملة قدر الإمكان شرط أساسى لإعادة الثقة فى البيئة المحيطة ، وإعادة الثقة فى الذات .

اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره

ولعل أكبر أخطاء الآباء هى أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم ، أو يعملون لأنفسهم . فبعض الآباء يتدخلون فى تفكير الطفل وحديثه وعمله ولعبه بمناسبة وغير مناسبة . وواجبنا أن نترك الطفل يكسب كثيراً من خبراته بنفسه ، فنتركه يلعب ، ويتسلق ، ويجرى ، ويقفز ، ويفحص عن الأشياء ، ويجرب . . إلى غير ذلك . ولكن الآباء كثيراً ما يخافون على الطفل ، ويمنعونه من عمل هذا ولمس ذاك بقصد حمايته . ولكنهم بهذه الحماية التافهة يفقدونه صفات استقلالية هامة لنأخذ مثالا عادياً وهو رغبة الطفل فى الدق ، أو فى القص . ومعروف أن الطفل تشتاق نفسه لمثل هذا النوع من النشاط ، فيعمد الآباء إلى إبعاد (الشاكوش أو المقص) عن الطفل ، ومنعه من إجراء تجاربه ، وكسب خبراته ، خوفاً عليه من أن يجرح أصبعه . ولكن حتى إذا جرح الطفل نفسه ، فهذا يكون مدعاة لتعليمه الطرق الصحيحة لاستعمال هذه الأدوات . وجرح صغير فى الأصبع يستمر أثره يومين أو ثلاثة أقل أثراً فى تكوين الطفل من جرح كبير دائم يتناول ثقته فى نفسه ، ويضعف أهم ركن من أركان شخصيته .

وبعض الآباء لا يتركون الطفل الصغير يطعم نفسه ، أو يلبس نفسه . وحجتهم فى ذلك أنهم إذا أطعموه فإنهم يوفرون على أنفسهم بعثرة الطعام ، واتساخ الملابس ، ولكن الطفل إذا أطعم نفسه ، أو ألبس نفسه فإنه يكسب مهارات يدوية بسرعة كبيرة ، ويكسب عادات الأكل الصحيحة فى زمن قصير . ويشعر بالإضافة إلى ذلك بمقدرته وقوته من أيام الطفولة الأولى ويوفر كثيراً من وقت أمه فى المستقبل .

وبعض الأمهات يذهبن فى مساعدة أبنائهن إلى حد بعيد جداً ، فإلى سن السابعة أو الثامنة يلبسن أطفالهن الملابس . وأعرف أماً من هذا النوع كانت لا تترك لابنها (وكان فى سن السابعة) شيئاً يعمله قط ، فهى تلبسه ، وتطعمه ، وتوصله إلى

المدرسة . ولما قوبل الطفل وسئل عن اسمه تبرعت بالإجابة عنه . هذا الطفل يشعر شعوراً خفياً بضعفه الشديد ، ويشعر بحاجته دائماً إلى المعونة ، وبالإضافة إلى ماتقدم فإن الولد له أخت تجد من الأم معاملة حسنة جداً ، فالأم تقول إن البنت حسنة ، وأنها تسمع الكلام ، إلى غير ذلك . وأما الولد فإنها تصفه بجميع الصفات السيئة ؛ فإلى جانب أنها تشعره بضعفه بعدم تركه يعمل شيئاً لنفسه ، تشعره أيضاً بعدم جدارته بموازنته بأخته موازنات سيئة . فالنتيجة أن الولد شذ فى سلوكه من نواح عدة ، بحيث أصبح من الصعب علاجه إلا إذا أقلعت الأم عن خطئها فى كثرة المساعدات وفى التفرقة فى المعاملة بينه وبين أخته (حالة صفحة ٢٧٧) .

ومن نوع المساعدة التى تفقد الطفل ثقته بنفسه إرسال خادم أو غيره لحراسة الأولاد عند ذهابهم للمدرسة وإيابهم منهـــا إلى سن متقدمة ، وكذلك الدروس الخصوصية فى بعض الحالات ، وإعطاء النقود ثم الإشراف على إنفاق كل مليم منها ، والتفكير للطفل فى نوع التعليم الذى يجب أن يتعلمه ولون البدلة التى يلبسها ، والصديق الذى يختاره لنفسه . . إلى غير ذلك مما يبالغ فيه الآباء أحياناً مبالغة كبيرة ، ويترتب عليه إما تكوين أفراد ضعفاء جبناء مترددين ، أو تكوين أشخاص ثائرين متمردين ميالين للتحكم والاستبداد ، أو تكوين أفراد يجمعون بين هذين الاتجاهين المتناقضين . وتأخذ ثورة الفرد ضد هذا النوع من المعاملة أبرز صورها عادة فى دور المراهقة والسنوات الأولى من البلوغ .

السلطة الوالدية

يفرض الآباء على الأبنـاء أحياناً سلطة جائرة . والشغف بالسلطة يكون فى الغالب مظهراً من مظاهر الضعف المستتر . فيتحكم الكثير من الآباء فى الطفل مشعرين إياه بأن لا حول له ولا قوة بجانب سلطتهم وقوتهم ، ويرغم الطفل إذ ذاك على إطاعة الوالد دون أن يفكر أو يتردد ، أو يتأمل . فيطلب الوالد من الطفل

إطاعته لا لغاية أخرى أهم منها بل للطاعة نفسها . وكذلك ترى الكبار يسخرون من الصغار ويستهزئون بهم وبقوتهم العاجزة وتفكيرهم القاصر ، ويجعلون من ضعف الطفل وعدم اكتمال نموه مصدراً لسرورهم وتسليتهم . كل هذه الأمور من آثار للاحساس بالضعف الطبيعى ومن سلطة جائرة ، وطلب للطاعة العمياء ، وتهكم واستهزاء تفقد الطفل أهم سلاح يجب أن نسلحه به وهو الثقة بالنفس . وإلى كل ما تقدم نضيف جفاء الكبار ، وعدم إظهارهم عطفهم . ويبالغ بعض الآباء فى مخاصمة الأبناء ومقاطعتهم ، أو إبداء إهمالهم إياهم ، فتحدث أحياناً أن نجد الوالد مثلا يتحدث إلى شخص آخر ، ثم يجىء الصغير يطلب من الوالد شيئاً ، فيهمله إهمالا تاماً ، وربما لا يدرك وجوده . ويحدث غالباً أنه ينهره ويبعده ويزجره ولا يستمع له .

ليس معنى هذا أننا نريد أن يربّى الطفل على مقاطعة الناس فى أحاديثهم ، وإنما معناه ألا يهمل باستمرار ، فيشعر على الأقل أننا نحس وجوده . وأما تكرار إهماله وعدم إقامة أى اعتبار لوجوده فإنه يشعره بأنه ليس جديراً بالالتفات ، ويشعره بأنه مخلوق حقير أو على الأقل بأنه ضعيف عديم القوة . هذا النوع من المعاملة لا يسهّل على الطفل تكوين عاطفة احترام الذات ، وهى المركز الذى تنمو حوله الشخصية نمواً متزناً .

ومن أخطر مظاهر السلطة الوالدية تذبذبها ، مما يزعزع ثقة الطفل فيها وقد يترتب على هذا اضطراب ثقة الطفل فى نفسه .

العلاقات بين الوالدين

ومن أهم العوامل التى تجب الإشارة إليها الجو المنزلى نفسه . فإذا كان الجو المنزلى مليئاً بالمحبة والعطف والهدوء والثبات يكون الطفل فى الغالب مطمئناً على نفسه . ويلاحظ أن شعور الطفل بقوته وثقته بنفسه وظهوره بمظهر الاستقرار والثبات يعكس صورة منزل تسوده العلاقات الطيبة . وأما الاضطراب المنزلى والمشاجرات والمنازعات

بين الآباء فإنها من أقوى العوامل التى تؤدى إلى فقدان ثقة الطفل بنفسه . نتيجة لفقدانه اطمئنانه إلى الجو المنزلى .

وقد يقول قائل ومن يدرى الطفل بما بين والديه من نزاع ؟ ولكن الطفل حساس للغاية فهو يلتقط ما فى جو المنزل بنوع غريب من الإلهام يطلق عليه المشاركة الوجدانية والإيحاء . فليكن جو المنزل متصفاً بالطمأنينة والثبات والاتزان ، ولتكن سلطتنا مع الطفل مشبعة بروح الحرية والصداقة [1] دون أن تفقد شيئاً من الحزم فى التوجيه .

وقد تصل العلاقات بين الوالدين إلى درجة أن يتعلق كل منهما بالآخر تعلقاً يهمل معه الأولاد . وينسى بعض الآباء واجبهم إلى حد أنهم يتغازلون أحياناً أمام أطفالهم . وكثير من الاضطرابات العصبية ينشأ بسبب هذا النوع من المواقف .

التربية والروح الاستقلالية

لا يقصد بوجود الطفل فى حضانة والديه مدة طويلة أو قصيرة إلا أمر واحد ، وهو وجوده فى جو آمن يحميه فى أثناء مراحل النمو الأولى ، ولكن لا يجوز أن تصل الحماية إلى الحد الذى يجعله غير قادر على الاستقلال بنفسه . ويمكن النظر إلى نمو الطفل على أنه سلسلة من الانفصالات أو الاستقلالات . فالطفل يقضى شهوره الأولى شديد الالتصاق بأمه ، ثم ينفصل عنها انفصالا جزئياً ليتصل ببقية أفراد الأسرة ، ويساعده فى ذلك المشى والكلام ، ثم ينفصل عن أفراد الأسرة انفصالا جزئياً ليتصل برفقائه اتصالا جزئياً ، وتزداد صلته برفاقه تدريجياً إلى أن يصل إلى دور المراهقة ، حيث تبلغ هذه الصلة أعلاها ، ويصبح شديد الولاء لمجموعة معينة من الناس ، ثم ينفصل عن هؤلاء انفصالا جزئياً ليتصل بالمجتمع الأكبر . فيكون معنى التربية الاستقلالية هو تكوين شخص يعتمد على نفسه فى الفكر والعمل ،

(١) راجع الباب الثانى : فصل « الطفل ووالداه » .

ويتصل بالمجتمع ويشعر بمسئوليته نحوه وبحقوقه عليه ، وينسجم مع المجتمع بحيث لا يتلاشى فيه ، بل يحتفظ بفرديته ، ويشعر بالأمن الشخصى ، ويتصف بروح الإقدام ، والمخاطرة ، والشعور بالثقة بالنفس . والثقة بالنفس لا يقصد بها الغرور ، فالغرور هو تقدير المرء لنفسه بمقدار أعلى من الحقيقة ، ونقيضها احتقار الذات ، وهو تقدير المرء لها بمقدار أقل من الحقيقة . وأهم أسلوب يساعد على تقدير المرء لذاته حق قدرها هو التفاعل الكافى مع العالمين المادى والاجتماعى تفاعلا عملياً يترتب عليه وضعه فى المكان اللائق باستعداده ، ويترتب عليه إقناعه بصحة هذا الوضع .

ويلاحظ أن ما يصدر من الآباء من مظاهر الحب ، والافتخار ، والخوف ، والغضب والنقد والموازنة ، والتشجيع والتثبيط وغير ذلك ، يمكن أن تكون كلها مظاهر طبيعية إذا بدت بدرجات معقولة . ولكنها قد تصل كلها أو بعضها إلى درجة من القوة بحيث تهزم معها الأغراض التى ترمى إليها . وهذه الأغراض هى أن يصبح الطفل مسلحاً من النواحى الجسمية والعقلية والخلقية أو الاجتماعية حتى يصبح مؤهلا للنضال مع زملائه فى الحياة بحيث لا يتقبل محاباة ولا يخاف فشلا ، أى أن الغايات التى يجب العمل على تحقيقها هى التحرر من الوالدين أو من شابههما . وبعض الأطفال لا يتحررون من آبائهم مدة الحياة . وقد سبق أن أعطينا من ذلك أمثلة عديدة (راجع فصل الطفل والوالد) .

مظاهر ضعف الثقة بالنفس

من مظاهر ضعف الثقة بالنفس الجبن والانكماش ، والتردد ، وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل ، والخوف منه ، واتهام الظروف عند الإخفاق فيه . وأحياناً يكون من مظاهره التشدد ، والمبالغة فى الرغبة فى الإتقان للوصول إلى درجة الكمال . وهذا الاندفاع للكمال يدل عادة على ما تحته من خوف من نقد الآخرين . ومن مظاهره كذلك أحلام اليقظة ، وسوء السلوك ، والمبالغة فى التظاهر بطيب الخلق ،

والحالات العصبية ، والمرضية كالتهتهة ، والتبول ، و بعض حالات الشلل ، وغير ذلك . معنى هذا أن ضعف الثقة بالنفس ، مع اختلاف العوامل التى تؤدى إلى ظهوره ، قد يؤدى إلى أساليب انسحابية أو سلبية كالكسل أو الانزواء أو الجبن وما إلى ذلك . وقد يؤدى إلى أساليب تعويضية كالنقد والسخرية والتحكم والتقنع بالوقار المصطنع وما إلى ذلك . وقد تظهر هذه الأساليب السلوكية بنوعيها فى صور مَرَضِيَّة .

المراجع

Adler: Guiding the Child.

Allers: Psychology of Character.

Blanton: Child Guidance.

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Burnham: The Wholesome Personality.

Chaloner: The Mother's Encylopaedia.

Dodge: The Craving for Superiority.

S. Freud: Introductory Lectures on Psycho-analysis.

G. Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

F. Howard: Mental Health.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

H. Lane: Talks to Parents and Teachers.

Miller: Advances in Understanding the Child.

Miller: The Growing Child and Its Problems.

Neill: The Problem Child.

Ponsonby: The Application of Psychology to Everyday Life.

Roback: Overcoming Self Consciousness.

Russell: On Education.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Thom: Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل التاسع عشر

الكذب

من المشكلات التى تتصل بالخوف اتصالا وثيقاً مشكلة الكذب ، ويرى بعض الباحثين أن الكذب الحقيقى عند الأطفال لا ينشأ إلا عن خوف ، والغرض الأساسى منه حماية النفس . ونظراً لشيوع الكذب و بالغ أهميته نتجه لدراسته قائماً بذاته . ويرجع الاهتمام بهذا الموضوع إلى أسباب عدة : أولها أن الكذب يستغل فى العادة لتغطية الذنوب والجرائم الأخرى ، وثانيهما وجود علاقة كبيرة بين خصلة الكذب وخصلتى السرقة والغش . وقد وجد الباحثون فى جرائم الأحداث بنوع خاص أن من اتصف بالكذب يتصف عادة بالسرقة والغش . ولا غرابة فى هذا إذا علمنا أن هذه الخصال الثلاث تشترك فى صفة واحدة وهى عدم الأمانة . فعلى حين أن الكذب هو عدم الأمانة فى وصف الحقائق ، نجد أن السرقة هى عدم الأمانة نحو ممتلكات الآخرين ، وأن الغش هو عدم الأمانة فى القول أو الفعل بشكل عام .

ولنبدأ أولا بتحديد معنى الصدق ومعنى الكذب . فكثيراً ما يشكل علينا الأمر فيما إذا كنا نعتبر الشخص كاذباً أو صادقاً . ويخيل لنا لأول وهلة أن الصدق هو مطابقة القول للواقع . ولكن كثيراً ما يحدث ألا يكون القول مطابقاً للواقع ، ومع ذلك نعتبر الشخص صادقاً ، كقول القدماء مثلا بأن الأرض مسطحة ، وكقولهم أحياناً أن الشمس تدور حولها وغير ذلك . وكثيراً ما يحدث أن يكون القول مطابقاً للأصل ، ولكنا نعتبر أن الشخص كاذب ، كقول بعضهم ويل للمصلين والوقوف عند ذلك .

ويهمنا فى الصدق أن تكون النية متوفرة لمطابقة القول للواقع مطابقة تامة .

ويلاحظ فى الكذب توفر النية لعدم المطابقة والتضليل . ولا ضرورة للتوسع فى هذا فهو بحث طويل ، ويحسن أن نترك الكلام فيه إلى أكاذيب الأطفال . ونحن نعلم أن الأطفال كثيراً ما يكذبون . فليس بغريب على الطفل أن ينكر أمام والديه فعلة قد أتاها ، كما إذا كسر آنية أو خرب شيئاً ثميناً مثلا . ولكن الغريب أن يتألم الآباء لهذا أشد الألم ، ويقلقون له وينزعجون ، معتبرين أن الكذب فاتحة لعهد تشرد وإجرام فى تاريخ حياة أطفالهم .

وقد جرت العادة أن ينصبّ الآباء على الأبناء بالتقريع والإذلال والتشهير والضرب اعتقاداً منهم أنهم بذلك يصلحون أبناءهم ، ويقطعون دابر الكذب منهم . ولكن أغرب من هذا أن تأتى هذه المعاملة بعكس ما يتوقع منها من نتائج ، فيصر الأطفال عادة على صحة كلامهم ، ويتفننون فى إخفاء الحقائق وتزييفها .

الاستعداد للكذب

وقبل التوغل فى الموضوع يجب أن نتذكر أن الأمانة فى القول أو فى غيره خصلة مكتسبة وليست فطرية ، وهى صفة تتكون فى المرء عن طريق التقليد والتمرين وغير ذلك من طرق التعلم المختلفة . ويجب أن نتذكر أيضاً أن الكذب ما هو إلا عرض ظاهرى ، والأعراض لا تهمنا كثيراً فى ذاتها ، وإنما الذى يهمنا هو العوامل والدوافع النفسية والقوى التى تؤدى إلى ظهور هذا العرض .

وهناك استعدادان يهيئان الطفل للكذب : أولها قدرة اللسان ولباقته ، ولعل هذا يوافق ما كانت جداتنا تقلنه عن بعض الأطفال على سبيل المزاح ، فكن يعتبرن أن الطفل الذى يخرج فى الأسابيع الأولى لسانه ويحركه يمنة ويسرة سيكون فى مستقبل حياته قوالا كذاباً . وثانى هذين الاستعدادين خصوبة الخيال ونشاطه .

فخصوبة الخيال هى التى دفعت طفلا صغيراً لم يتجاوز الثالثة من عمره لأن يقول بأن برغوثاً كبيراً خرج من كتاب أخته وطار إليه ليلسعه ، وذلك بعد أن كان

قد رأى صورة مكبرة لبرغوث فى كتاب للمطالعة كانت تقرأه أخته . وما ذكره الطفل نفسه عن أنه رأى قطة ذات قرون ، وكان هذا بعد إحضار أهله خروف العيد فانتزعت مخيلته قرون الخروف وركبتها على رأس قطته ، وصار يقول باسماً منشرحا بأنه رأى قطة ذات قرون . وادعى طفل آخر بأنه رأى رجلا ذا أنفين ، وأنه رأى فانوس الشارع يطرح موزاً ، إلى غير ذلك من الأمثلة المتعددة المألوفة التى تظهر فى ألعاب الأطفال المصحوبة بالخيال ، والتى تسمى باللعب الإيهامى ، والتى يمثلون فيها آباء وأمهات ومعلمين وعرائس وفرساناً ولصوصاً وغير ذلك .

الكذب الخيالى[1] Imaginative or Playful Lie :

يسمى هذا النوع من الكذب بالكذب الخيالى ، وإذا حكمنا على الطفل الذى يصدر منه هذا النوع من الكلام بأنه كاذب ، كان ذلك كحكمنا على الشاعر ، أو الروائى أو المسامر بأنه كاذب فى المادة التى يأتينا بها بمساعدة خياله الخصب ولسانه الذلق .

ومما يريح نفوس الآباء والمدرسين أن يعلموا أن هذا ليس إلا نوعا من أنواع اللعب يتسلى به الأطفال . وعند كشف هذه القوة الخيالية الرائعة يحسن توجيهها ، والاستفادة منها ، ولتوضيح معنى الاستفادة نأتى بالمثال الآتى : —

كانت هناك بنت صغيرة اعتادت أن تجلس إلى والديها ، وتقص عليهما حكايات عجيبة وتدعى بأنها حقيقة . وكانت تسترسل فى حديثها استرسالا مشوقا جذابا يملك تفكير المستمعين وانتباههم ، فأخذها والدها إلى إحدى العيادات النفسية الشهيرة فى لندن لمعالجتها من هذا النوع من الكذب . فلما درس الإخصائى النفسى حالة هذه البنت وجد أنها على مقدار عظيم من الذكاء ، وأنها رائعة الخيال ، طلقة اللسان ، فأشار على والديها بأن يفسحوا لها مجال التأليف والتمثيل . و بعد مدة قصيرة نبغت

(١) التقسيم الذى فى هذه الدراسة هو فى أساسه تقسيم الأستاذ سيرل بيرت . وقد أدخلنا عليه تعديلا طفيفا ، وقد نشره بيرت فى كتابه :
C. Burt: The Young Delinquent; p. 376.

فى التمثيل والأدب نبوغا ظاهراً ، فألفت عدداً من الروايات وقامت بإخراجها على مسرح المدرسة وكان هذا فاتحة لمستقبل باهر لها .

وإذا لم تتح للطفل فرصة توجيه هذه الملكة وإنمائها ، فلا داعى للقلق والاهتمام بعلاج هذا النوع من الكذب ، فالزمن وحده كفيل بذلك ولكن قد يفيد إذا نحن سألناه بطريقة لطيفة بين آونة وأخرى إن كان متأكداً من صحة ما يقول ، وإذا نحن جعلناه يحس من نبرات صوتنا ، بأننا نحب هذا النوع من اللعب ، ونشاركه فيه مشاركة فعلية فنبادله قصة بقصة ، وخيالا بخيال . ونشعره أيضاً بأن هذه القصص مسلية ، ولكنها مخالفة للواقع .

ويقرب من هذا النوع إلى حد كبير نوع آخر يلتبس فيه على الطفل الخيال بالحقيقة ولذلك فهو يسمى الكذب الالتباسى .

الكذب الالتباسى Confusional Lie

وسببه أن الطفل لايمكنه التمييز عادة بين ما يراه حقيقة واقعة وبين ما يدركه واضحاً فى مخيلته . فكثيراً ما يسمع الطفل حكاية خرافية ، أو قصة واقعية ، فسرعان ما تملك عليه مشاعره ، وتسمعه فى اليوم التالى يتحدث عنها كأنها وقعت له بالفعل .

ومن هذا النوع ما وقع حديثاً من أن طفلا شديد الخيال فى الرابعة من عمره رأى فى غرفة الزائرين شيخاً معمماً مستدير الوجه ، واسع العينين ، عريض الجبهة فذهب إلى جده وأبلغه أن الشيخ محمد عبده ينتظره فى غرفة الزائرين . واتضح أن جد الولد كان قبل ذلك بأيام قلائل يصف الشيخ فى مجلس من مجالسه لبعض زائريه وكان الطفل يستمع فارتسمت فى ذهنه بعض الأوصاف ؛ فلما جاء الزائر قال الولد إن هذا هو الشيخ محمد عبده .

وكثيراً ما يحدث أن يقص الطفل قصة عجيبة ، ولو تحقق الوالدان الأمر ، لعرفا أنها وقعت للطفل فى حلم . ومن هذا النوع أن بنتاً فى الرابعة قامت من نومها تبكى

بالفعل ، وتقول إن بائع الثلج المقيم فى آخر الشارع ذبح خادمتها فى منتصف الطريق ، ووصفت بشىء من التطويل كل ما رأته فى الحلم . ولم تفرق الطفلة بين الحقيقة والحلم فقصت كل هذا على أنه حقيقة ، وكان ضرورياً إذ ذاك توضيح ما جرى للطفلة .

وهذا النوع من الكذب يزول عادة من تلقاء نفسه إذا كبر الطفل ، ووصل عقله إلى مستوى يمكنه فيه أن يدرك الفرق بين الحقيقة والخيال . وليس معنى ذلك أن نتركه حتى يزول من نفسه ، فشىء من الإرشاد مع مراعاة مستوى عقل الطفل يفيد فائدة كبيرة من الناحيتين الانفعالية والإدراكية .

ويمكن أن نسمى هذين النوعين من الكذب ، بالكذب البرىء ، وننتقل منهما الآن إلى أنواع أخرى .

الكذب الادعائى

من أمثلته أن يبالغ الطفل فى وصف تجاربه الخاصة ، ليحدث لذة ونشوة عند سامعيه ، وليجعل نفسه مركز إعجاب وتعظيم . وتحقق كل من هذين الغرضين يشبع النزوع للسيطرة . ومن أمثلة ذلك أن يتحدث الطفل عما عنده فى المنزل من لعب عديدة أو ملابس جميلة ، والواقع أنه ليس عنده منها شىء . أو يفاخر بمقدرته فى الألعاب أو فى القوة الجسمية دون أن يكون له فيها أية كفاية وكثيرون من الأطفال يتحدثون عن مراكز آبائهم وكفاياتهم ، وصداقتهم لحاكم البلد بل سيطرتهم عليه . . . إلى غير ذلك مما يخالف الواقع عادة . وأمثلة هذا النوع كثيرة لاحصر لها .

فهذا الكذب الموجه عادة لتعظيم الذات وجعلها مركز الانتباه والإعجاب ينشأ عادة من شعور الطفل بنقصه . وتعظيم الذات عن طريق الكذب ، طريقة لتغطية هذا الشعور بالنقص ، وإذا سلمنا بهذا علمنا أن هذا الكذب الادعائى قد يتسبب فى بعض الحالات عن وجود الطفل فى بيئة أعلى من مستواه فى ناحية ما ، وعلمنا أن نفسه تتوق للوصول إلى هذا المستوى ، وأنه إن لم يتمكن من الوصول إليه بالطرق

الواقعية الحقيقة ، فإنه يحاول ذلك بطرق بعيدة عن الحقيقة مخالفة للواقع يخترعها من مخيلته . و بعبارة أخرى قد يتسبب الكذب الادعائى من عدم مقدرة الطفل على الانسجام مع من حوله ، ومن ضيق البيئة التى يعيش فيها كالمنزل مثلا ، بالنسبة للبيئة التى تضطره ظروفه لها كالمدرسة ، أو من كثرة الإذلال والقمع الواقعين عليه ممن حوله من الذين لا يريدون له الظهور . ففى مثل هذه الأحوال يحسن أن نكشف النواحى الطيبة فى الطفل ، ونوجهها لتنبت نباتاً حسناً ، ونشعره حقيقة بأنه وإن كان يقل عن غيره فى ناحية ما ، فإنه يفوقهم فى نواح أخرى كثيرة ، فيتمكن الطفل بذلك من أن يعيش فى عالم الواقع بدلا من أن يعيش فى عالم خيالى واهٍ ينسجه لنفسه . و بهذا ترتد للطفل ثقته و يزول عنه إحساسه بنقصه .

ومن أنواع الكذب الادعائى أن الطفل يدعى المرض ، أو يدعى أنه مضطهد مظلوم أو سيء الحظ إلى غير ذلك ، وهذا ليحصل على أكبر قسط ممكن من العطف والرعاية . ويحدث هذا عادة من الطفل الذى لم يحصل من والديه على العطف الكافى ، والذى وجد بالتجربة أنه يحصل على قسط وافر منه فى حالة المرض أو المسكنة .

هذا النوع من الكذب ، المعروف بالكذب الادعائى ، يجب الإسراع إلى علاجه فى حالة الصغر ، و إلا نما مع الطفل وزاد حتى أصبح ديدناً له يصاحبه فى غدوه ورواحه . وهذا ما يسمى عند العامة (بالمعر) وكثير من الناس يتحدثون عن رتبهم ، أو كفاياتهم أو أوسمتهم أو شهاداتهم ، وعن أسفارهم وأبحاثهم ، وجلائل أعمالهم وخدماتهم . ونحن على ثقة من أنهم لم يؤتوا شيئاً ولم يقوموا بشيء .

الكذب الغرضى أو الأنانى

وقد يكذب الطفل رغبة فى تحقيق غرض شخصى ، ويسمى هذا النوع بالكذب الغرضى أو الكذب الأنانى . ومن الأمثلة الشائعة لهذا النوع أن يذهب طفل لأبيه

مطالباً إياه ببعض النقود مدعياً أن والدته أرسلته لإحضارها منه لقضاء بعض حوائج المنزل ، والواقع أن الطفل كان يريدها لنفسه لشراء بعض الحلوى . ومثال آخر من طفل — سبق أن أشرت إليه — كان يرسم على حيطان الحجرات بالفحم الذى يشترى فى المنزل للتدفئة ، فأحضر له والده سبورة ليرسم عليها ، فيشغل بها عن الكتابة على الجدران أو التخطيط على أثاث المنزل . وفى يوم ذهب إلى والده طالباً قطعة من الطباشير فأخرج له أصبعاً وأعطاه نصفه فقط . ولما كان يريد الحصول على أصبع الطباشير كاملا أخذ النصف الذى أعطاه إياه والده وخرج من حجرة الوالد ، ثم غاب فترة قصيرة وعاد يقول إن قطعة الطباشير قد فقدت ، فخرج معه والده وبحث عنها فوجدها مخبأة خلف السبورة فأخرجها له وقال له إنها لم تفقد ، فقال الطفل ولكنها لا تكتب . فى هذه الحالة كذب الطفل مرتين ، وكان غرضه من هذا الحصول على نصف الأصبع الآخر . ولعل الدافع للكذب الغرضى أو الأنانى هو عدم توافر ثقة الطفل بالكبار المحيطين به ، نتيجة عدم توافر ثقته فى والديه لكثرة عقابهم له ولوقوفهم فى سبيل تحقق رغباته وحاجاته .

الكذب الانتقامى

وفى أحيان كثيرة يكذب الأطفال ليتهموا غيرهم باتهامات يترتب عليها عقابهم أو سوء سمعتهم ، أو ما شابه ذلك من أنواع الانتقام . ويحدث هذا كثيراً عند الطفل الذى يشعر بالغيرة من طفل آخر مثلا ، أو عند الطفل الذى يعيش فى جو لا يشعر فيه بالمساواة فى المعاملة بينه وبين غيره . وكثيراً ما يحدث هذا النوع من الكذب من فتيات فى دور المراهقة ، فتكذب الواحدة منهن متهمة فتى بمحاولة التقرب منها والتحبب إليها . وقد تدل أمثال هذه الحوادث على أن الفتاة تقوم بعملية عقلية لا شعورية من النوع الذى سميناه إسقاطاً (Projection) والذى يترتب عليه سرورها لأن لديها ، حسب ما ترى ، من الجاذبية الجنسية ما يحرك الشبان نحوها . وقد تكذب الواحدة

منهن لأنها ترغب فى الانتقام من الفتى لعدم قيامه إزاءها بما كانت تتمناه منه . وقد يحدث مثل هذا من البنين .

ويجب أن يكون الآباء والمعلمون غاية فى الحرص إزاء هذا النوع من الاتهامات إذ أنها تكون فى كثير من الأحيان على غير أساس كاف من الحقيقة .

الكذب الدفاعى

ومن أكثر أنواع الكذب شيوعا الكذب الدفاعى ، أو الكذب الوقائى ، فيكذب الطفل خوفا مما قد يقع عليه من عقوبة . وظاهر أن سبب الكذب هنا هو أن معاملتنا للطفل إزاء بعض ذنوبه تكون خارجة عن حد المعقول . وقد يكذب الطفل ليحتفظ لنفسه بامتياز خاص لأنه يشعر بأنه إن قال الصدق ضاع منه هذا الامتياز . مثال هذا الطفل الذى يسأل عما بيده فيقول إنه شىء حريف (يح) والواقع أنها حلوى . وكالطفل الانجليزى الذى سئل ذات مرة عما إذا كان يعتقد فى (بابا نويل) (Father Christmas) ، فقال إنه بالطبع لا يعتقد فى هذه الخرافة ، فقيل له ولم لا تجاهر بهذا أمام أمك وأبيك ؟ فقال إنه يخشى أن يفقد شيئاً من عطفهما عليه ويحرم من هداياهما له فى عيد الميلاد . ومن أمثلة هذا أيضاً ماحدث معى منذ زمن ، ذلك أنى كنت خارجاً للتنزه ، فطلبت من ابن أخى وكان إذ ذاك فى سن الثالثة أن يستعد ليخرج معى ، فذهب ليستعد ، وما مرت دقيقتان حتى عاد إلىّ قائلا : (المشمش طلع ياعمى وأنا شفته) فلأول وهلة لم أدرك ما يقصده فسألته : (مشمش إيه اللى طلع ؟) ، فقال : (المشمش ، علشان أروح وياك) وحتى بعد هذا لم أفهم ما يقصده ؛ ولكن بعد الاستفهام وجدت أنه كان قد قال للخادم فى فرح وسرور : (أنا رايح أتفسح مع عمى) ، فقال له الخادم : (إيه . . ؟ ده لما يطلع المشمش) ؛ فتركه وأسرع إلىّ قائلا إن المشمش قد ظهر ، وإنه رآه بالفعل . فهنا كذب الطفل لأنه يخشى أن يحرم من الخروج معى إن هو قال الحق . ولكن مثل هذه الحوادث

لا توقفنا على صلة الكذب ببقية الشخصية . ولبيان هذه الصلة يجب القيام بدارسة تفصيلية لإحدى الحالات .

لنأخذ حالة أخرى لولد عمره ١٤ سنة ، وهو متأخر جداً فى فصله بالسنة الثالثة الابتدائية و يتبول ليلا فى فراشه . وهو كثير الكذب إذ أنه لا يصرح لوالديه بكل ما يفعل . فبعد انصراف المدرسة يذهب إلى المنزل فى ساعة متأخرة ، و يقدم أعذاراً يتضح من البحث أنها غير صحيحة .

والولد ثانى إخوته ، وهو كسلان فى أداء واجبه ، يميل إلى الإفراط فى اللعب ، ولكنه هادىء مطيع مسالم و يقبل فى الظاهر كل ما يفرض عليه . أخوه الأكبر لم يواصل تعليمه ، و يتحدث عنه الجميع فى المنزل حديثاً مشيناً ، ولو أنه يتمتع بقسط كبير من الحرية فهو يخرج للفسحة وللخيالة دون أى تقيد . وأما صاحب الحالة فإنه يحرم من الخروج للنزهة ، ويقضى الأجازة الأسبوعية فى المنزل خوفا عليه من الترام والعربات والبحر وغير ذلك . ولا يسمح له بالذهاب مع أخيه الأكبر إلى الخيالة التى لا يذهب إليها فى نظر والديه إلا الفسدة الأشرار .

والوالد رجل عادى فى الظاهر ، ولكن الأم متشددة جداً . و بلغ من تشددها أن كوت ابنها بالنار فى جانبه لتبوله أثناء الليل فى فراشه . والحالة الصحية للولد فى حاجة إلى بعض العناية .

والذى يعنينا فيما نحن بصدده عن هذه الحالة أحد أعراضها وهو الكذب وسببه كما يبدو — الشعور بالنقص ، والرغبة فى وقاية النفس من السلطة الجائرة فى المنزل . ويلاحظ أن الولد كان يكذب فى المنزل على حين لا يكذب قط فى المدرسة . ويلاحظ أن العوامل التى أدت مع أحد الأولاد إلى الكذب والمخادعة ، أدت هى نفسها مع أخيه إلى التمرد والخروج عن الطاعة ويمكن القول بأن الأول تكيفٌ بالضعف والثانى تكيفٌ بالقوة (ص ٣٨٩) .

وقد عولجت الحالة من الناحية الصحية وعدلت علاقة الولد بوالديه ، وأرشدت

الأم إلى ما كانت تحتاج إليه كتحديد النسل ، إذ أن من بين أسباب تشددها وعصبيتها إرهاقها بكثرة الأولاد . وأرشدت الأسرة كذلك إلى اختيار مسكن تتوافر فيه الإضاءة ، والتهوية ، ودورة المياه الخاصة به والقرب من المدرسة ومن عمل الوالد فى الوقت نفسه ، وأرشدت الأسرة كذلك الولد إلى مايعمل إزاء التبول ، والفسحة ، والتغذية و إزاء المذاكرة من حيث تنظيمها وطرق أدائها . وقد نجحت الحالة نجاحا باهراً لحسن استعداد الوالدين ، وشغفهما بإصلاح الولد ، و إصلاح نفسيهما ولم تتكرر شكوى الوالدين بعد ذلك من كذبه ، ولا من مشكلاته الأخرى .

ومن أنواع الكذب الوقائى كذلك كذب الإخلاص أو الكذب الوفائى (Lie of Loyalty) . وفى هذه الحالة يكذب الطفل عادة على أصحاب السلطة عليه كالآباء أو المدرسين ، ليحمى أخاه أو زميله من عقوبة قد توقع عليه ، ويلاحظ هذا فى مدارس البنين أكثر منه فى مدارس البنات ، وفى المدارس الثانوية أكثر منه فى المدارس الابتدائية .

كذب التقليد

وكثيراً ما يكذب الطفل تقليداً لوالديه ، ولمن حوله . إذ يلاحظ فى حالات كثيرة أن الوالدين نفسيهما يكذب الواحد منهما على الآخر مثلا فتتكون فى الأولاد خصلة الكذب . وفى إحدى الحالات كان من شكاوى الوالدين كذب الطفل ، واتضح أن أمه كانت توهمه بأنها تريد أن يصحبها للنزهة ، ثم يكتشف أنه يؤخذ للطبيب . وأن والديه يخرجان ليلا ويتركانه بعد أن يوهماه بأنهما ناما معه فى المنزل .

الكذب العنادى

وأحياناً يكذب الطفل لمجرد السرور الناشىء من تحدى السلطة ، خصوصاً إن كانت شديدة الرقابة والضغط قليلة الحنو . وقد أشار توم[1] إلى حالة تبول لاإرادى

(١) Thom : Everyday Problems of The Everyday Child ; Ch. XVI.

وكانت الأم من النوع الشديد الجاف ، فكانت تقول للطفل إنه لايجوز له أن يشرب قبل النوم . ولكن الولد رغبة فى المعاندة فكر فى أن يقول إنه لابد أن يغسل وجهه قبل النوم . وعند غسله وجهه يشرب كميات من الماء ، وأمه واقفة إلى جانبه دون أن تتمكن من ملاحظة ذلك . وكان الولد يشتق لذة كبيرة من استغلال غفلة أمه على الرغم من تشددها فى الرقابة .

الكذب المرضى أو المزمن Pathological Lie or Mythomania :

وأحياناً يصل الكذب عند الشخص إلى حد أنه يكثر منه ، ويصدر عنه أحياناً على الرغم من إرادته . وهذا نلاحظه فى حالة الكذب الادعائى ، لأن الشعور بالنقص يكون مكبوتاً ، ويصبح الدافع للكذب دافعاً لاشعورياً ، خارجا عن إرادة الشخص . وحالات الكذب المزمن معروفة فى كل زمان ومكان .

لنأخذ حالة توضح هذا النوع وهى حالة لولد أرسل بتهمة التشرد ، وجمع أعقاب اللفافات . والولد عمره ١١ سنة ، وقال إن والدته ماتت وهو فى الثانية من عمره ، وأبوه مات وهو فى التاسعة والنصف ، وإن والده كان مزارعاً صغيراً فى شبين الكوم وليس له إخوة ، ذكوراً كانوا أو أناثاً . وقال إنه هو ووالده كانا يعيشان بعد وفاة الأم فى كوخ صغير ، وكثيراً ما كان والده يتركه بمفرده فى الكوخ ليلا . وقد مات أبوه منتحراً بإحراق نفسه فى الحقل ، ولم يترك سوى (قفطان) به ١٧٨ قرشاً . وأصبح الولد وحيداً فأخذ المبلغ وذهب إلى شبين الكوم . ووجده صاحب سيارات اسمه حسن عويضه ، فأخذه وعطف عليه ، وكان يستصحبه معه من شبين الكوم إلى الاسكندرية ليعمل على كسب رزقه . وبالفعل أمكنه أن يعمل (كصبى مكوجى) تابعاً للجمرك ، ثم نزح من الاسكندرية إلى القاهرة ماشياً على الأقدام ، يستريح قليلا فى كل بلدة . وسبب حضوره إلى القاهرة أنه يبحث عن عمه سالم محمد سالم الذى يعمل صانع أحذية فى عزبة الورد فى جهة الشرابية . وعند وصوله إلى القاهرة

نام الليلة الأولى فى صندوق من صناديق التليفونات العامة أمام قسم الأزبكية ، واشتغل حمالا فى ميدان المحطة إلى أن قبض عليه وأحيل علينا لدراسته .

وضع الولد فى أحد الملاجىء ، وكان يطلب التصريح له بزيارة عمه ، فبعد أول مرة خرج فيها للزيارة جاء شاب إلى الملجأ ، وقال إنه يريد أن يرى أخاه . واتضح أنه أخ الولد الذى نحن بصدده ، واتضح أن الولد ليس مسلماً كما أدعى ، واتضح أن والده ووالدته على قيد الحياة ، وأن له إخوة كثيرين ، وأن شيئاً مما قصه علينا لم يحدث . واتضح كذلك أنه قبض عليه ثلاث مرات قبل ذلك ، وكان يفلت فى كل مرة بحيلة . ويشكو أهله مر الشكوى من أكاذيبه التى لا تنقطع ، وقد تبين كذلك أن الولد هرب من المنزل عدة مرات واتضح من البحث أن الوالدة مريضة من مدة كبيرة ، وهى مقيمة مع أهلها ببلدتهم بسبب مرضها ، وأن الوالد نجار عادى يكد طول يومه ليكسب قروشاً قليلة .

وللولد أخ أكبر عمره يزيد على العشرين سنة ويعمل عند أحد صانعى الأحذية ، وهو ناجح فى عمله ويتقاضى عليه أجراً طيباً . ويلى الأخ الأكبر أخت تقيم مع والدتها ببلدة أهلها ، ثم أخ يزيد على الولد الذى نحن بصدده بسنة واحدة فقط ، وهو فى عمل ناجح يكسب منه رزقه . أما الولد نفسه فلم ينجح كثيراً ، وكان أخوه الأكبر يضربه ضرباً مبرحاً .

ويلاحظ أن الوالد مشغول جداً ، والوالدة مريضة وبعيدة عن المنزل ، والأخ الأكبر فى غاية القسوة على الولد ، ثم إن الولد أقل نجاحا فى حياته من أخيه الأكبر منه مباشرة ، ويلاحظ أن الولد بعده بنتان ثم ولد يصغره بتسع سنوات ، ولذا فقد شغل مركز الذكر الأخير مدة طويلة ، وما زالت بادية عليه آثار التدليل من أمه فى حديثه . يضاف إلى كل ذلك أنه فقد عطف أمه بمرضها وبعدها عنه .

لهذا كله يسهل تفسير هربه وكذبه ؛ ويسهل تفسير أنه فى كذبه كان كمن يحقق رغباته فى حلم ، فقضى على إخوته جميعاً ، وعلى والده ، ثم سافر وخاطر وعمل

ونجح ، وتنصل من والديه ومن دينهم ومن دينـه ، ومن إخوته ، ولو أنه حاول أن يبرر مسلكه بعد ذلك بأن تغيير دينه كان لأجل ألا يضطهد فى الملجأ ، وتدل الدلائل على أن هـذا غير صحيح تماماً . لأنه إذا كان صحيحا فكيف تفسر تكرر كذبه طول حياته وتحت ظروف غـير التى ذكرناها ؟ فالغلام مدفوع للـكذب دفعاً قويا بعوامل لاشعورية خارجة عن إرادته . وقد نصحنا بتوجيهه إلى ما يلائمه ، و إعطائه فرصـة إثبات نفسه فى ألعاب الملجأ ، و إشعاره بعطف شخص معين عليه . وقد تقدمت حالته كثيراً جداً .

بعض القواعد العامة

انتهينا من شرح أهم أنواع الـكذب ، و يتبين فى كل نوع ما يدفع عادة إليـه ، ويلاحظ أن النوع الواحد لا يظهر غالباً قائماً بذاته . فالخبر الـكاذب قد يؤدى وظيفة وقائية ادعائية عنادية فى نفس الوقت . ويلاحظ كذلك أنه لا ترسل للعيادة فى الغالب حالة تكون الشكوى فيها من الـكذب وحده ، و إنمـا يكون الـكذب عادة عرضاً إلى جانب الأعراض الأخرى كالسرقة أو شدة الحساسية أو الخوف أو ما شابه ذلك والقاعدة الأولى للآباء والمدرسـين هى أن يتبينوا إذا ما كذب الطفل إن كان كذبه نادراً أم متكرراً ، و إن كان متكرراً فما نوعه وما الدافع إليه ؟ وأن يحجموا عن علاج الـكذب فى ذاته بالضرب ، أو الانتهار أو السخرية أو التشهير أو غير ذلك . و إنما يعالجون الدوافع الأساسية التى دفعت إليه . ويغلب أن يكون العامل المهم فى تكوينها هو بيئة الطفل ، كالوالدين أو المدرسين أو أصحاب السلطة على وجه العموم .

ويجب كذلك أن نتجنب الظروف التى تشجع على الـكذب ، فمثلا إذا كان لدينا طالب نعهد فيه هذه الخصلة ، فلا نجعله المصدر الوحيد للشهادة فى حادثة ما لأن هـذا يعطيه فرصة لترويض عادة الـكذب ، وتثبيتها بالتكرار والتمرن . وزيادة على ذلك فلا يصح أن يعطى الـكاذب فرصة الإفلات بكذبه دون أن نكشفه لأن النجاح

فى الإفلات بالكذب له لذة خاصة تشجع على تثبيته واقترافه مرة أخرى ، بل تشجع أيضاً على الاسترسال فى سلسلة من الأكاذيب المقصودة التى تصدر عن نفس هادئة مطمئنة ، وإن أردت ألا يفلت الكاذب بكذبه فسلح نفسك أولا بالأدلة القاطعة ولا تلصق به التهمة وأنت فى شك ، لمجرد أنه تعثر فى حديثه مثلا ، أو ظهرت عليه علامات أخرى للاضطراب فى أثناء مناقشته . وعليك أن تأخذ أقواله بشىء من الثقة والتقدير ، وحاذر أن تظهر أمامه بمظهر الشك أو التردد سواء فى حديثك أو حركاتك . يلاحظ كذلك أنه لايجوز فى الأحوال العادية إيقاع العقوبة على الطفل بعد اعترافه بذنبه ؛ فالاعتراف له قدسيته ، وله حرمته . ومن شأن إيقاع العقاب على الطفل بعد أن نحمله على قول الصدق والاعتراف ضد نفسه ، أن يقلل من قيمة الصدق ومكانته فى نظر الطفل . وعلى العموم فمن الخطأ الفاحش أن نعمد إلى إرغام الطفل على الاعتراف ، لأن الطفل الذى يأتى ذنباً ، كأن يسرق ، أو يخرب ، ينتظر منه عادة أن يكذب . والواقع أن الكذب أسهل الذنوب اقترافاً وأولها خطوراً على ذهن الطفل ، والكذب كما نعلم يساعد على تغطية كثير من العيوب والذنوب . من هذا نشعر أن الطفل الذى يعترف بذنبه يمكن إصلاحه ، وأما من يصر على الإنكار فلا يجوز أن نبدأ باستجوابه ، لأن هذا نتيجته الاسترسال فى الكذب ، والتفنن فيه ومما يجب على الآباء والمدرسين تذكره باستمرار أن الطفل لايسر بما عنده من أسرار إلا لأصدقائه ومحبيه . وأما أصحاب السلطة كأبيه وناظره ومدرسيه فإنه يخاطبهم عادة بشىء من الحرص والخوف . فالاعتراف والصدق والصراحة كلها امتيازات خاصة لايحبوها الطفل إلا لأخلائه وخلصائه ، ولا يتقدم بها إلا لمن تطمئن إليهم نفسه وترى أنه لضمان الصدق والصراحة ، يجب أن يحل التفاهم والأخذ والعطاء مقام القانون ، والعطف والمحبة محل السلطة والشدة ، وأن نحجم عن العقوبات التى لاتتناسب مع الذنوب ، وألا نوقع بعضها إلا إذا أدرك الطفل إدراكا تاماً أنه أذنب ، وإذا اقتنع بأنه يستحق العقاب . فالعقوبات التى تجرى على غير هذا المنوال تهدم

الأغراض التى ترمى إليها ، فهى تفقد الطفل توازنه ، وشعوره بأمنه وسلامته فى بيئته وتدفعه إلى تغليف نفسه بأغلفة الكذب والغش لوقاية نفسه من أصحاب السلطة ، ومن البيئة المستبدة القاسية . فليفهم المهيمنون على تربية الأطفال أن الكذب نوع من التكيف لبعض الخصائص فى بعض البيئات ، وأهمها خصائص هؤلاء المهيمنين .

وإذا كان الأطفال يكذبون ، كما قلنا ، فى أحيان كثيرة لتغطية نقص يشعرون به ، فعلينا أن نكثر لهم من الأسفار والرحلات ونواحى الميول والنشاط والهوايات ، فكل هذه تعطى الطفل نواحى حقيقية يظهر فيها ويتحدث عنها . وفى حالة الخياليين البالغين ليس هناك ما يمنع من تشجيع الخيال عن طريق دراسة الشعر والأدب . وأما فى حالة الخياليين قبل سن المراهقة فلا ننصح ، وفقاً لرأى بيرت Burt [1]، بالقصص الخيالية الخرافية ، ولا برؤية أغلب أشرطة الخيالة . وإنما بالاستزادة من الإنشاء الشفهى المبنى على المشاهدات الدقيقة والتفكير المنظم . وإذا علمنا أن قول الصدق يتطلب مقدرتين هما صحة الإدراك ، ودقة التعبير ، لرأينا أنه فى الإمكان تدريب الطفل فى هاتين الناحيتين ، وهذا يكون عن طريق اتباع المشاهدات ، والقياس ، والقيام بعمل التجارب ، وتدوين نتائج كل هذا بمنتهى الدقة . ويتهز المدرس هذه الفرصة لتعويد تلاميذه الدقة فى الملاحظة والدقة فى التعبير فى جميع ضروب الحياة ، وبهذه الطرق يتعود التلميذ الصدق فى صورة بسيطة ، وهى جعل القول مطابقاً للواقع مع توفر النية . ومثل هذا يمكن أن يقوم الوالد بتدريب ولده عليه بسهولة .

يضاف إلى كل ما تقدم وجوب اتصاف الكبار المحيطين بالطفل بالصدق بأنواعه فلا غش ، ولا كذب ، ولا تجسس ، ولا اختلاق أعذار ولا تفادى للمواقف وكذلك يتحتم وجوب احترام الصدق وتقديره . ويجب ألا تلفظ بوعد للطفل إلا إذا كنت قادراً على تنفيذه ، وأن تنفذه بالفعل متى وعدت مهما كلفك ذلك .

---

(١) D. Burt: The Young Delinquent; p. 396.

العوامل المدرسية التى تشجع على الكذب

وأخلص الآن بعض ما يشجع على الكذب فى المدارس . وأول ذلك العقوبات وما يصاحبها من شدة وصرامة ، فهى تنفر التلميذ من المدرس وتدفعه إلى تغليف نفسه لوقايتها منه . ومن هذه العوامل الواجبات المنزلية التى تعطى جزافاً للطفل . فكل مدرس يعطى فى العادة التلميذ واجباً بصرف النظر عما أعطاه إياه المدرس الآخر ، فيذهب التلميذ إلى منزله بعد يوم مدرسى طويل بكمية من العمل لا بد له من إنجازها فى الجزء الصغير الباقى من النهار ، فيضطر التلميذ إلى طلب مساعدة شخص آخر . ثم يقدم ما أنجز فى اليوم التالى على أنه من عمله الخاص ، وتبالغ بعض المدارس ، وحتى الرياض أحياناً ، فى كمية ما يعطى للأطفال من واجبات . وعامل آخر هو عدم تناسب العمل الذى يكلف به الطفل مع مقدرته ، مما يضطره إلى استعمال حيل للتخلص من الظهور بمظهر العجز ، وكذلك عدم تناسب البيئة مع مستوى الطفل كوجود طفل فقير فى وسط غنى ، أو طفل غبى فى وسط أذكياء .

ومن العوامل المهمة التى تدفع المدرسين لدفع التلاميذ لعمل ما لا يلائمهم من حيث الكم أو الكيف ضغط الامتحانات وما اكتسبته من قوة وقدسية .

ومن أخطاء المدارس أحياناً عرض بعض الأعمال فى المعارض على أنها من أعمال التلاميذ ، وتبرير ذلك بأن جزءاً منها من أعمال التلاميذ ، ويكون الواقع أن ما قام به التلاميذ من التفاهة بحيث لا يبرر عرضه على أنه من عملهم ، والتلاميذ يشعرون عادة فى قرارة أنفسهم بهذا ، ويتعودون الكذب والتساهل فيه فى صميم نشاطهم المدرسى ، وذلك عن طريق المثال والممارسة الذاتية .

خلاصة

ويمكن تلخيص ما تقدم ، فى أنه إذا نشأ الطفل فى بيئة تحترم الصدق ، ويفى أفرادها دائماً بوعودهم ، وإذا كان الأبوان والمدرسون لا يتجنبون بعض المواقف بأعذار واهية كادعاء التغيب والمرض . وبعبارة أخرى إذا نشأ الطفل فى بيئة شعارها الصدق قولا وعملا ، فطبيعى جداً أن ينشأ أميناً فى كل أقواله وأفعاله . وهذا إذا توافرت له أيضاً عوامل تحقيق حاجاته النفسية الطبيعية من اطمئنان ، وحرية وتقدير وعطف وشعور بالنجاح والاسترشاد بتوجيه معقول . إذا توافر هذا كله فإن الطفل لا يلجأ إلى التعويض عن نقص ، أو التغليف ضد قسوة أو الانتقام من ظلم ، أو غير ذلك من الاتجاهات ، التى تجد فى أنواع الكذب صوراً مناسبة للتعبير عن نفسها .

المراجع

Adler: Guiding the Child.

Allers: The Psychology of Character.

Blanton: Child Guidance.

C. Burt: The Young Delinquent.

Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.

Hartshorne and May: Studies in Deceit

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

J. Larson: Lying; Its Dectection.

Miller: Advances in Understanding the Child.

Patri: Child Training.

Russell: On Education.

Thom: Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل العشرون

السرقة

حالة فى السرقة

ولد عمره أربع عشرة سنة قام بسرقة كتب زملائه بالمدرسة فضُبط وقام ناظر المدرسة — بخلاف ما يتوقع منه — بتسليمه (للبوليس)، وهذا حوّله إلى نيابة الأحداث، التى رأت أن تستأنس برأى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة. وقام الاخصائى النفسى بالمكتب بدراسة الولد دراسة وافية اتضح له منها أن ذكاءه عادى ومستواه الدراسى يتفق مع كل من عمره ومستوى ذكائه، إذ أنه كان فى السنة الثانية الثانوية. أما الوالد فإن دخله لا يزيد على ثلاثة جنيهات فى الشهر، والرجل مشغوف إلى حد بعيد جداً بأن يعلم أولاده. والولد هو الإبن الأكبر، والذكر الوحيد، وله أخت واحدة تتعلم مجاناً فى مدرسة أميرية مثل أخيها. وقد بلغ من شدة قلق الوالد على تعليم أولاده، أنه يشرف بنفسه على مذاكرتهم، ويضرب ابنه ضرباً مبرحا، ويأتى له بالإضافة إلى ذلك بالمدرسين الخصوصيين غير الأكفاء للقيام بضربه وتعليمه، ووصل شغف الوالد بالتعليم إلى أنه علم زوجته القراءة والكتابة إلى أن أتقنتهما، وقد كانت أميّة عندما زوج بها. والرجل يندب حظه لأن تعليمه اقتصر على نيل الشهادة الابتدائية فقط. ويتحدث دائماً عن كفايته ورجاحة عقله، ومقدرته، وأنه لو كان قد تعلم لكانت حالته غير ما هى عليه الآن. فالرجل مدفوع بعنف، ليحقق فى ابنه ما لم يتحقق له فى نفسه[1] والولد يكره والده

(١) وربما كانت هنا فى نفس الوالد عوامل لا شعورية أخرى أكثر خفاء وأشد عمقاً مما ذكرنا. فالوالد، لما أصابه ناقم على الحياة. وقد يحول بحيلة عقلية لا شعورية، نقمته إلى إبنه =

من غير شك لمعاملته الشديدة له ، والأم ضعيفة لاحول لها ولا قوة .

لما وصل الولد إلى سن الرابعة عشرة وبدأ فى دور البلوغ أخذ يتفتح ذهنه للمستوى الاجتماعى الذى يتعلم فيه . ووجد أنه لا يأخذ مصروفاً كافياً يجعله يظهر أمام إخوانه كما يظهرون ، فهم يلبسون الملابس الأنيقة ويدخنون اللفائف (السجاير) الفاخرة إلى غير ذلك . فبدأت يده تمتد إلى كتب إخوانه ، فيسرقها ، ويبيعها فى محلات بيع الكتب القديمة ، ويستغل ثمنها فى الظهور مثل إخوانه . ومن الغريب أنه شكا لإدارة المدرسة غير مرة من أن كتبه تسرق منه . ولعله كان يبيعها ثم يشكو لتبعد الشبهة عنه . ولكنه ضبط فى هذه المرة متلبساً بفعلته . وقد يكون واضحاً أن الولد يسرق مندفعاً إلى التعويض عن شعور بالنقص ناتج من موازنة نفسه بزملائه . وهذا الشعور بالنقص كان من الممكن تعويضه بالتفوق الدراسى ، كما يحدث عادة من الأولاد الفقراء ، العاديين منهم والأذكياء . ولكن الولد كان متأخراً جداً فى الفصل بين زملائه ، فكأنه لم يجد لما عنده من النقص إلا هذا المخرج ، وهو السرقة من زملائه .

ولكن الشعور بالنقص الاجتماعى مع عدم التفوق الدراسى ، وعدم التفوق الرياضى لا يكفى لتفسير السرقة . وإذا رجعنا لتاريخ حياته نجد أنه الولد الأول ، وأنه كان مدللا تدليلا شديداً جداً فى أول حياته ، فكانت كل طلباته تجاب . فلم يتعلم إذ ذاك كيف يقاوم رغباته الخاصة . وكان المستوى الاقتصادى للأسرة لا بأس به ، فكان هناك بعض الرخاء ، وكان دخل الوالد لأمر ما أكبر مما هو عليه الآن ، وكان الولد هو الطفل الوحيد . أما الآن وقد زاد عدد الأطفال ، وكبروا ، وزادت مطالبهم ، وفى الوقت نفسه انخفض الدخل ، وارتفعت تكاليف المعيشة ارتفاعا باهظاً

= وكثيرون من الآباء يعاملون أبناءهم عامة والابن الأكبر بنوع خاص كما لو كانوا سبب إخفاقهم وشقائهم ومحنتهم . إلى غير ذلك . وتجد فى هذه الحالة مظاهر الاسقاط والتحويل والتبرير وما إلى ذلك . وهناك احتمالات أخرى كالنزوع إلى تعذيب الذات النابع من إحساس مكبوت بالخطيئة (Repressed Sense of Guilt) . وهذا الإحساس المكبوت بالخطيئة بدوره له تفسيره فى طريقة تكونه .

(بسبب الحرب التى نشبت عام ١٩٣٩) ، وبدأ الوالد يشتد على ابنه لتوتر فى نفسه من حالة الغلاء ، ولتوتر فى نفسه من تراخى ابنه — كل هذا جعل الولد ينتقل تدريجياً من حالة تمتع ذاتى وتقدير ممن حوله إلى حرمان وعدم تقدير وتضييق وعقاب و إيلام . وقد جاءت هذه التغيرات كلها فى وقت تنزع فيه النفس نزوعا شديداً إلى التقدير الاجتماعى ، واتساع الأفق ، والسيطرة ، وهو وقت المراهقة والبلوغ .

و بعد كشف حوادث السرقة أدى الولد امتحاناً آخر العام ورسب فيه ، وما كاد يعلم بالنتيجة ، حتى وقع تحت سلسلة من التعذيبات أجراها عليه الوالد ، فهرب ولم يظهر مدة تزيد على شهرين . وله فى أثناء ذلك ، و بعد ذلك ، عدد من التصرفات العنيفة ، والمخاطرات التى تدل على كراهيته لوالده وثورته عليه وميله الشديد إلى البعد عنه ، مما لا تهمنا تفاصيله فى هذا المقام .

حالة أخرى فى السرقة

فتاة عمرها اثنتا عشرة سنة تشتغل بالخدمة فى أحد المنازل ، واتهمت بحق بسرقة ملابس ومصوغات ممن تعمل معهم . وبدراسة الحالة اتضح أن ذكاء البنت أقل من العادى . ولكنها لا تعتبر ضعيفة العقل . فمستوى ذكائها يعادل مستوى ذكاء شخص عادى عمره يقع بين ثمان وتسع سنوات . وتتصف البنت بشىء من عدم الثقة بالنفس ، والجبن ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر إذ إنها تبكى لأقل سبب ، واتضح بالدراسة أن الأسرة التى تعمل البنت فى خدمتها مكونة من سيدة وزوجها ، وليس لديهما أولاد ولا خدم آخرون . وهما سكيران ، ويشربان الخمر معاً فى منزلهما إلى أن يفقد كل منهما صوابه . وفى هذه الحالة يصبح البيت بخزاناته (بدواليبه) المفتوحة تحت تصرف البنت إذ تصبح الرقابة عليها قليلة جداً . ونظراً لجبن الفتاة ، وضعف ذكائها ، فإنها يسهل وقوعها تحت تأثير شخص آخر . يلاحظ كذلك أن والدى الفتاة منفصلان بالطلاق ، وأن الأب تزوج بغير الأم وليس له بالبنت أية علاقة .

والأم كذلك ، وهى فى الخمسين من عمرها ، تزوجت برجل أصغر منها سناً بعشرة أعوام ، وهو رجل متعطل كسلان كان يطمع فى بعض ما لديها من النقود ، وهى ضعيفة أمامه ، فهى تعمل وتكسب وهو لا يعمل شيئاً . يصرف كثيراً من وقته فى التنزه والجلوس على المقاهى ، وتدل الدلائل على أن الأم تستغل البنت للسرقة حتى تغدق على زوجها وترضيه ، وللبنت بالفعل — على غير ما كان ينتظر — مكانة لا بأس بها عند زوج الأم .

خلاصة الحالة أن الفتاة نظراً لقلة ذكائها ، ولجبنها ، يسهل إغراؤها . وهى مكروهة من أبيها ومقربة من أمها بقصد استغلالها . وترغب البنت فى المحافظة على الصلة بينها وبين أمها ، وهى الصلة الوحيدة الباقية بالنسبة إليها . ويهم الصغار بنوع خاص أن يكون هناك من يشعرون بالانتماء إليه . وقد نجحت الفتاة فى تحقيق هذا عن طريق السرقة .

السرقة والاستعداد لها

يتبين من دراسة الحالتين السابقتين أن السرقة ليست حدثاً منفصلا قائماً بذاته وإنما هى سلوك يعبر عن حاجة نفسية . ويمكن فهم هذا السلوك فى ضوء دراسة شخصية الطفل وطريق تكوّنها ، والوظيفة التى تؤديها السرقة لها . فبينما نجد السرقة فى الحالة الأولى وسيلة لإثبات الذات ، نجدها فى الحالة الثانية وسيلة لحماية الذات .

ولا بد من فهم وظيفة السرقة ومكانتها من تكوين الشخصية قبل الاتجاه نحو علاجها ، والسرقة وما يضادها وهى الأمانة ليست صفات فطرية طبيعية ، وإنما هى صفات مكتسبة . وللسرقة أسسها الطبيعية فى الإنسان وهى الميل للتملك والاستمتاع بالقوة ، إذ أن السرقة هى الاستحواذ على ما يملكه الآخرون بدون وجه حق ، ونظراً لأن السرقة ذنب اجتماعى — أى يتضمن على الأقل طرفا آخر — فإن المجتمع يعطيها أهمية كبرى . بخلاف الصفات الشخصية السيئة كالتدخين أو العادة السرية ، فإنها

لاتهم المجتمع كثيراً لأنها لا تتضمن فيما ينسب إليها من ضرر أشخاصاً آخرين بطريقة مباشرة . أما السرقة والكذب والاعتداء والتشنيع ، وما إلى ذلك فإنها تعتبر صفات سيئة للغاية لأن الضرر الذى تتضمنه يؤثر فى الآخرين تأثيراً مباشراً .

وهناك مهارات عقلية وجسمية تساعد على السرقة ، إذا توافرت لدى الشخص الرغبة فيها . ومن هذه المهارات ، سرعة حركة الأصابع ، وخفة الحركة عامة ، ودقة الحواس من سمع ، وبصر ، والقوة الميكانيكية ووفرة الذكاء العام ، ودقة الاستنتاج والملاحظة . . وما إلى ذلك . ففى كثير من الحالات كان صاحب الحالة يفتح أقفالا معقدة بقطعة من سلك ، ويقطع جيباً لمسافر بموسى دون أن يحس المجنى عليه ، أو يخطف سلعة معينة ويفر هارباً جريا ، أو راكباً دراجة ، أو غير ذلك من مئات الحيل والمهارات التى يلجأ إليها السارق . وكثيراً ما تجتمع لباقة الحديث ، وبشاشة الوجه ، وحسن التسلية والتظاهر بالأدب الجم والميل للمساعدة مع هذه المهارات فتجعل عملية السرقة تتم بسهولة كبيرة للغاية . ويهمنا الوقوف على هذه المهارات العقلية والحركية والحسية حتى يمكننا توجيهها فى اتجاهات لصالح صاحبها وصالح المجتمع نفسه .

الشعور بالملكية والمساواة

وهناك اتجاه عقلى يبدأ من سنوات الطفل الأولى وهو عدم التمييز ، أو عدم الاهتمام بالتمييز بين ما يملكه وبين مالا يملكه . وفكرة التمييز بين ما للفرد فيه حق وبين ما ليس له فيه حق ليست سهلة . فالطفل يعيش عادة فى منزل كل ما فيه ملك للكبار ، فليس له ما يعده ملكاً له ، وأحياناً يغلق الأمر عليه ، فلا يعرف إن كانت لعبة معينة ملكا له أو لأخته . والآباء بشرائهم لعبة واحدة لجميع الأطفال أو ألعابا مختلفة يلعب بها كل الأطفال ، دون تمييز ، يظنون أنهم يعلمونهم الإيثار بدلا من الأثرة . والواقع أنهم يربكون تفكيرهم . فالطفل يشعر بالحاجة للملكية شعوراً تلقائيا فى سن مبكرة جداً ، إذ يبدأ يشعر بها أحياناً خلال الفترة الأخيرة من السنة الأولى .

ويجب أن يشجع الشعور بالملكية من وقت ظهوره ، ولكن لا يجوز أن يبالغ فى تشجيعه إلى أن تتكون الأنانية والجشع للتملك ، ولا يجوز أن يهدم بحيث لا يجد الطفل فرصة لفهم حقوقه وحقوق غيره .

وإذا أردنا أن يحترم الطفل ملكية غيره وجب أن نبدأ نحن باحترام ملكيته . فيجب قدر الإمكان أن يكون للطفل ملابسه الخاصة التى لايجوز أن تستعمل له ولغيره بدون تمييز ، ويكون له مكان خاص بالنوم ، وكرسى خاص يجلس عليه حين يأكل ، وإذا أمكن فليكن له أطباقه ، وملاعقه ، ومنشفته وغير ذلك . ويسهل إحضار هذه الأشياء بألوان مختلفة بحيث يسهل على الطفل تمييز متعلقاته عن متعلقات غيره . ويحسن أن يكون للطفل أدوات لعبه المختلفة ، وبعض الكتب والمجلات القديمة ذات الصور الجذابة . وفى الأسر التى بها أطفال ذوو أعمار متقاربة ، تحدث أحياناً مشاحنات يحسن ترك الأطفال للفصل فيها بأنفسهم ، وإذا تدخلت الأم فلتفصل بالعدل ، فكل طفل يستعمل حقه ، ولكن يصح أن يعطى الخيار فى أن يترك لعبته لأخيه أحياناً ، ولا بد من حدوث هذه المنازعات قبل أن يتعلم الطفل الأخذ والعطاء . والتعاون يجىء متأخراً عن تعلمه الملكية واعتزازه بها . فلا يجوز أن نتسرع فى تعليم الطفل التعاون خوفاً من تعوده الأنانية ، وإذا ترك الطفل ليعطى من تلقاء نفسه وبدون تدخل خارجى لعبته الخاصة به لأخيه أو لصديقه مدة من الزمن فإنه يشتق من هذا التطوع لذة كبرى لايجوز أن نحرمه من التمتع بها .

وإنماء الشعور بالملكية ثم إتباعها فى الوقت المناسب بإنماء روح التعاون والأخذ والعطاء مهم فى تكوين الذات Ego Fromation وفى التكوين الخلقى الاجتماعى على وجه العموم[1] .

ويلاحظ أن تمييز الفرد بين حقوقه وحقوق غيره ، أو اهتمامه بهذا التمييز ، يبدأ فى المنزل ، وينتقل مع الطفل إلى المدرسة ، ثم إلى المجتمع الأكبر . ففكرة الأمانة

(١) راجع فصل « تكامل الشخصية » وفصل « اللاشعور » .

أو عدم الأمانة يمكن تكوينها بحيث تصبح فكرة عامة تبدأ بدورها فى السنوات الأولى من حياة الطفل . ويجب أن يقوم الوالدان بتفهيم الطفل ما يجب عمله فى المناسبات التى يمكن أن تسمى اعتداء على ملكية الآخرين . افرض مثلا أن شخصاً له مكتبة جذابة أو ساعة ، أو غير ذلك . وأراد الطفل أن يتناول الكتب ، أو الساعة ليلعب بها ، فليكن هناك اتجاهان : الأول تفهيم الطفل بمنتهى الهدوء والحزم أن هذه الأشياء ليست ملكا له ، ولا يصح له اللعب بها . والاتجاه الثانى الذى يؤخذ فى نفس الوقت هو مراعاة أن الطفل تكون له متعلقات خاصة به ، شبيهة إلى حد ما بالتى ينزع إلى اللعب بها ، فيكون له كما قلنا ، بعض الكتب التى لا يحتاجها الوالدان والتى يكون بها بعض الصور لكى يلعب بها ، وقد تتمزق منه فيُعَلَّم كيف يحافظ عليها .

وفى إحدى الحالات ، وجدنا أن الولد عنده حقيقة أشياء كثيرة جداً ، منها مجموعة طوابع بريد منسقة تنسيقاً جميلا . ولكن يحفظها الوالد فى خزانته (دولابه) الخاصة . خوفاً من ألا يحافظ عليها الولد رغم أن سنه اثنتا عشرة سنة . وهذا هو موقف الوالد من سائر ممتلكات الولد من طوابع وكتب وصور وهدايا وغير ذلك .

وفى حالة أخرى أخذ الوالد كمية من النقود كان الولد قد ادخرها ، ولم يردها إليه . فلا عجب أن كان الولد لا يحترم ملكية والده بنوع خاص ، وقد ينتقل عدم احترام الملكية فى مثل هذه الحالات إلى خارج المنزل (حالة ص ٢٩٤) .

فكرة الأمانة كفكرة الصدق تكتسب عن طريق الممارسة الشخصية ، والاقتداء بالمثال ، والتعلم عن طريق الفهم والموازنة والإرشاد . والمنزل هو البيئة الأولى لتعلم فكرة الأمانة . ولكن ليس معنى غرسها فى المنزل أن تضمن فاعليتها بعد ذلك فى محيط المدرسة أو المجتمع . فهذه الفاعلية تتوقف على ظروف المدرسة وظروف المجتمع ، من تحقق الأمانة فى قادتهما والقائمين بالأمر فيهما ، ومن مبلغ شعور الفرد بالأمن والعدالة الاجتماعية ، والاطمئنان على تحقق الحاجات الأولية .

الدوافع للسرقة

فى كثير من الحالات تكون الدوافع للسرقة دوافع مباشرة ظاهرة . فكثيراً ما يسرق الطفل لسد رمق . ويلاحظ أن أطفالا كثيرين جداً يعيشون عيشة الكفاف ، أو يعملون بأجور زهيدة لا تكفى الحيوان الصغير بله الإنسان ، فيسرقون . ومن هؤلاء من يسرق نقوداً أو أدوات أو سلعاً ، ومن هؤلاء من يخطف الأطعمة المعروضة على العربات ، وفى المحال التجارية ، وغير ذلك . وقد وجدنا فى بعض الحالات أولاداً يسرقون لسد رمق أم مقعدة عاجزة عن أى عمل ، وعدد من الأخوة الصغار ، وذلك يكون مثلا بعد وفاة الأب وتشغيل الولد بأجر لا يزيد يومياً عن قروش لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وكنا نجد عادة أن هـذا النوع من الحالات أسهلها علاجاً .

وفى بعض الحالات تحدث السرقة لإشباع ميل ، أو عاطفة ، أو هواية ، كميل بعض الأولاد لركوب الدراجة ، أو للخيالة ، أو لفتاة معينة ، أو لمجرد الصرف على هواية معينة ، كالتصوير وتربية الحمام ، وغير ذلك . وهـذه أيضاً حالات لا يتعسر عادة علاجها .

وتحدث السرقة كذلك ليستعين المرء بما يسرق على التخلص من مأزق معين . مثال ذلك : الولد الذى كان يذهب للمكتب ليحفظ القرآن ، ولم يكن له أى ميل لحفظه ، فأغراه العريف بأنه إذا سرق له بعض كتب والده ، فإنه يعفيه من التسميع ، ولا يبلغ شيخ المكتب ، وبذلك ينجو من عقاب صارم . فلم يتأخر الولد عن سرقة الكتب وتقديمها رشوة للعريف .

وقد يسرق الطفل من منزله ليعطى زملاءه بالمدرسة مثلا ، لأنه كشف أن سياسة إعطاء الحاجيات المادية هى الوسيلة الوحيدة التى تجعله مقبولا فى جماعة زملائه .

ولكن يلاحظ أن هذه الدوافع ظاهرية فقط . فالولد الذى يسرق الكتب ليعطيها رشوة للعريف كان متأخراً فى دراسته من أول الأمر ، وكان والده يقسو عليه بعد تدليل ، وكان يوازن بينه وبين إخوته موازنة تحط من قدره . ففقدانه عطف والديه بعد أن كان يتمتع بعطف كبير كان هو العامل الهام فى تكون الاستعداد للسرقة . نرى من هذا أنه يجب البحث عن عوامل أخرى غير الدوافع الظاهرية للسرقة . وفى العادة نجد بعض العوامل اللاشعورية المتكونة نتيجة علاقة الطفل ببيئته ، ونتيجة التغييرات الطارئة على هذه العلاقات .

وهناك سرقة للانتقام ، وسرقة لتعويض شعور بالنقص ، وسرقة بسبب فقد العطف . ففى كثير من الحالات نجد الطفل يسرق من شخص معين كوالده أو والدته . ويمكن تفسير السرقة فى بعض هذه الحالات بأن الطفل كان حائزاً لعطف الوالد مثلا ثم فقد هذا العطف ، فالسرقة منه تشعره بأنه يستحوذ على شىء بدل هذا العطف . نجد طفلا يسرق مثل هذا من والده نقوده وكتبه ويضع يده فى جيوبه ليطلع على ما فى جيبه ويعرف ما فيه من أسرار ويقرأ خطاباته . . إلى غير ذلك . كذلك المحب الذى يتشكك فى أنه ربما لا يحصل على كل عطف معشوقته ، كثيراً ما يسرق منها شيئاً يكون بمثابة رمز للحب المفقود[1] . وفى هذا النوع من الحالات نجد أن الشخص لا يسرق إلا من شخص معين ، وأحياناً يسرق نوعاً معيناً من الممتلكات ، ويمكن فى العادة تفسير هذا التخصص إما على أساس الرمزية (Symbolism) أو على أساس الوظيفة . ففى غالب الحالات التى درسناها ، ووجدنا فيها أن الطفل يسرق من والده ، وجدنا أيضاً أن لدى الولد كراهية مستترة للوالد . فتفسر السرقة هنا على أنها انتقام ، أو على أنها تعويض للعطف المفقود ، أو على الدافعين مجتمعين .

وإذا كان الدافع للسرقة متجهاً نحو شخص معين فقد ينتقل إلى أشخاص

---

(١) هذا ما يسمى بالفيتيشية Fetishism

آخرين ، فالسرقة من الأب قد تنتقل إلى سرقة من أصحاب السلطة على وجه العموم . والسرقة من الأخ قد تنتقل إلى سرقة من الزملاء ، وذلك بتحويل الدوافع نفسها من الموضوع الأصلى إلى موضوعات مشابهة له . ويمكن أن يكون التحويل أوسع انتشاراً وأقل تخصصاً مما ذكرنا ، فبعد أن كان يسرق الطفل من والده فقط أصبح يسرق من أى إنسان .

لنأخذ حالة تبين السرقة من شخص معين ، وهى حالة ولد كان يساعد والده فى عمله التجارى . ذهب الولد إلى أحد (زبائن) والده ، وكان جالساً فى أحد المقاهى وقال له إن والده يطلب منه ثمن بضاعة أخـذها فى ذلك الوقت إلى المنزل . وكان الثمن خمسة وعشرين قرشاً إلا قليلا . أخذ الولد النقود واختفى ، وانكشفت حقيقة المسألة بعد أن رجع الرجل إلى منزله . ثم أبلغ الوالد الذى طلب منه إبلاغ الشرطة . واتضح أن الولد هو أكبر أبناء الأسرة ، وأن الرجل فى منتهى القسوة والشدة . وهو متعسف فى تمسكه بالدين حتى خرج بذلك عن المعقول خروجاً كبيراً . وقد أحاط نفسه بكل الرموز التقليدية للتدين ، واتخذ « السنية » ، مذهباً له ، وكان يشغل وظيفة يكتسب منها ، فاستقال منهـا لأنه كان يشعر أنها لا تطابق الدين . واتخذ التجارة فى أبسط صورها وسيلة للرزق . ومن شدة قسوته أن الولد إذا أتى ذنباً صغيراً فإنه يربطه بالأحبال ربطاً وثيقاً ، ويتركه ملقى على الأرض ، ثم ينهال عليه ضرباً ، ويترك فى جسمه آثاراً واضحة كما (يتبين فى الصورة المقابلة) . وكان فى بعض الأحيان يتركه موثوقاً بالأغلال ثلاثة أيام متتاليات ، ويقذف له برغيف من العيش وكوبة ماء فى مواعيد الأكل .

بعد أن قابلنا الولد ، ودرسنا الحالة جيداً من كل نواحيها ، اتضح أن السرقة لم تكن الأولى ، فقـد كان كثيراً ما يسرق من والده . وظهر عند مقابلتنا لـكل منهما على انفراد شدة التجافى ، فقربنا ما بينهما ، وأفهمنا الوالد خطأه ، واتفقنا مع الولد على حسن السير ؛ ونظمنا علاقة الولد بوالده من حيث الإنفاق ، ومن حيث

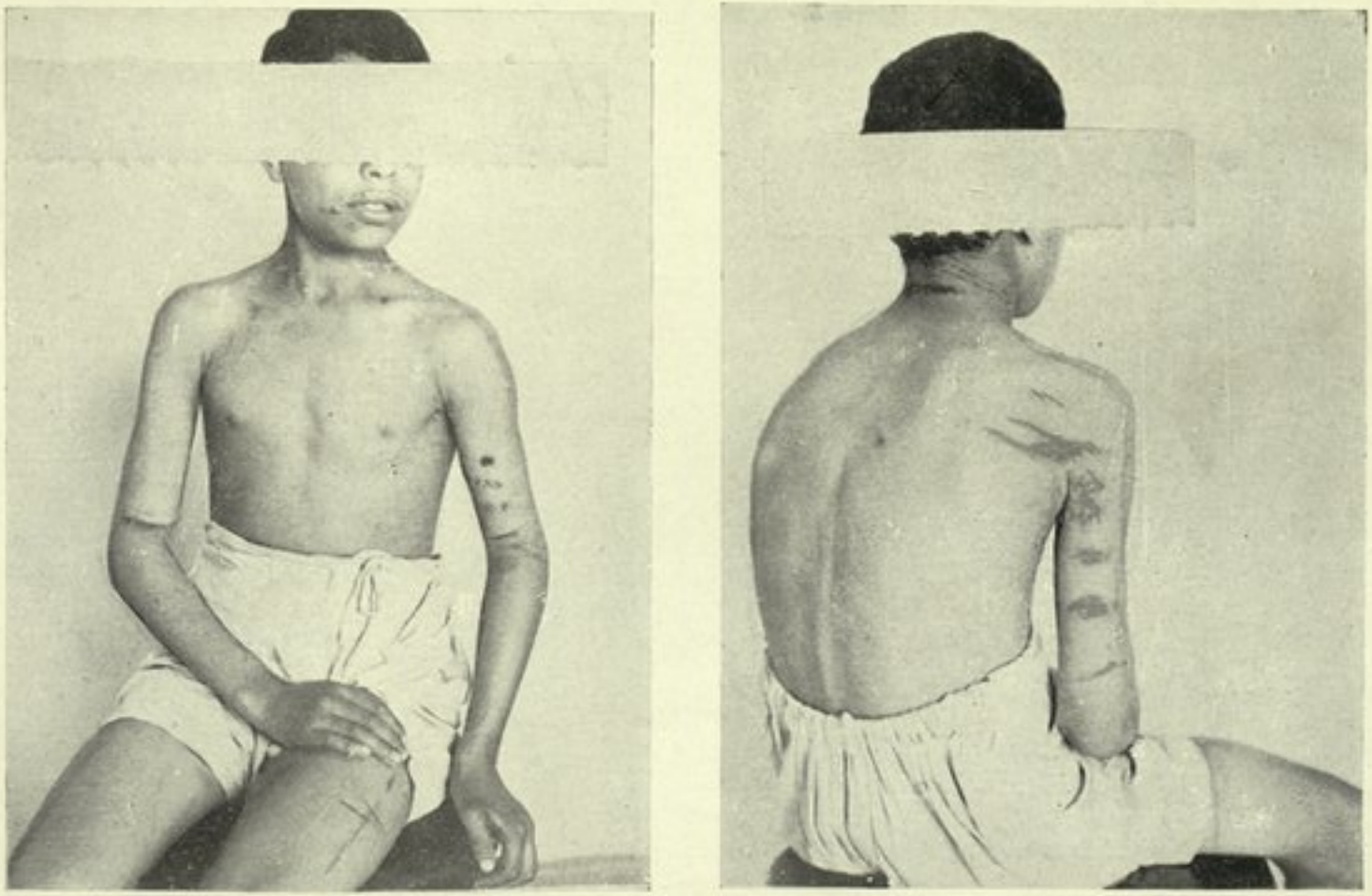

صورة ظهر ووجه صاحب الحالة المشروحة فى صفحة ٣٨٢ ، ويرى على رجليه وذراعيه ووجهه وظهره ورقبته
آثار الضرب والكى والتقييد فى الأغلال

الثقة التى يجب أن يضعها الوالد فى ولده . إلى غير ذلك . وقد نجحت الحالة نجاحاً كبيراً بموالاة توجيه الولد والوالد وأخذهما بالنصيحة والتوجيه والإشراف والمتابعة .

وقد يكون العامل الأصلى لتكوين الدافع للسرقة هو ما يطرأ على الشعور بالأمن والشعور بالاستقرار من نقص قد ينشأ من تغيير فجائى فى معاملة الوالدين ، أو من تفكك روابط الأسرة ، أو ما شابه ذلك .

لنأخذ مثالا لهذا حالة تلميذ فى سن الرابعة عشرة يهرب من المدرسة يومياً تقريباً ، ويسرق كل ما يمكن أن تصل إليه يده مما خف حمله وغلا ثمنه . هذا على الرغم من وفرة ما يصل إلى يديه من نقود ، وعلى الرغم من حسن استعداده للعمل الدراسى . وبمتابعة تاريخ هذه الحالة وجدنا أن والديه انفصلا بالطلاق وهو صغير السن جداً . ثم تزوج كل من والديه بعد ذلك وأنجب كل منهما له إخوة غير أشقاء . وقامت الجدة منذ طلاق الوالدين باحتضان الولد ، ولم تدّخر وسعاً فى إجابة جميع مطالبه ، وبالغت فى العطف عليه عطفاً كبيراً فى شىء غير قليل من الضعف والتساهل والقلق . ولما وصل الولد إلى دور المراهقة لم يكن يعرف بالطبع كيف يقاوم كل ما يطرأ على ذهنه من نزوات . واتصل به أولاد آخرون وفتحوا له آفاقاً جديدة للاستمتاع بالهروب والفسحة والتدخين والذهاب للخيالة وغير ذلك . وأغروه بالسرقة ، بل علموه أساليبها ، حتى برع فيها وأصبح الولد يشعر الآن بعدم القدرة على الاستقرار عند جدته أو والدته أو والده . ولا يشعر أن واحداً من هؤلاء يمكنه أن يطمئن معه إلى الجو الذى يعيش فيه . أما المدرسة فلم تكن من التشويق بحيث تصرفه عما يطرأ على ذهنه من نزعات ، ولم تكن بحيث تشبع فيها نواحى القوة التى تتوق إليها نفس المراهق . نتيجة كل هذا هروب من المنزل والمدرسة وعدم استقرار وبحث عن اللذة والسرور وسرقة لتحقيق كل هذا .

ويحدث أحياناً أن تبدأ السرقة بصورة مصغرة كسرقة الحلوى ، أو سرقة السكر ، أو سرقة النقود . وقد يكون الدافع بسيطاً وهو الحاجة للحلوى أو الحاجة إلى تجريب

عمليات البيع والشراء أو غير ذلك . وقد يكون لموقف الوالدين نحو الطفل فى السرقة الأولى أثر فى تثبيتها . فيتفنن الوالدان فى تخبئة ما يُخاف عليه مثلا ، ويتفنن الطفل فى أساليب الوصول إلى هـذه الأشياء . ويلاحظ أن المبالغة فى تخبئة الأشياء تغرى الطفل بمحاولة الوصول إليها ، وإذا نجح الطفل فى ذلك ، فإنه يشتق لذة كبرى من انتصاره على الكبار المحيطين به ثم تتكرر سرقاته ، ويتكرر تكوينه لميول وعادات يشبعها عن طريق السرقة كالتدخين ، أو الظهور الاجتماعى ، أو الإشباع الجنسى ، أو غير ذلك . وبهذا تثبت السرقة وتصبح عادة راسخة ، كما نراها عند بعض الأشخاص ، وسبب رسوخها أنها طريق سهل سريع تتحقق به شهوات ورغبات لا يقوى الفرد على مقاومتها ، ولا سيما بعد تعود إشباعها .

دراسة حالات السرقة

عند دراسة أية حالة من حالات السرقة يجب أن نعرف إن كانت السرقة عارضة أم متكررة ، وأن نعرف إن كان صاحب الحالة يسرق أشياء معينة أو كل الأشياء . فبعض الأولاد يسرق مصابيح الترام ، وبعضهم يسرقون مصابيح الإشارات الأرضية فى الشوارع ، وبعضهم الآخر يسرقون الملابس المنشورة للتجفيف فى حدائق المنازل أو فوق سطوحها ، وبعضهم يسرقون (وابورات الغاز) فقط . ويدلنا نوع السرقة — إن كان موحداً بمثل هذه الصورة — على اتجاه عقلى منظم إما من تلقاء نفسه ، وتحت تأثير زعيم لعصابة مثلا ، أو يدل على اتصاف السارق بمهارة معينة فى اتجاه خاص . وعلينا كذلك أن نعرف هل السرقة انفرادية أم جمعيـة . فكنا نجد فى كثير من الحالات أن الولد يسرق ضمن عصبة من الأولاد الآخرين ، فثلاثة تلاميذ بإحدى المدارس نظموا أنفسهم تنظيما محكما لسرقة بعض الأدوات التى يمكن خلعها من عربات السكة الحديدية . وكانوا يبيعون ما يسرقون لتاجر معين كان يمدهم بالنقود لهـذا الغرض . وعلينا أن نعرف كذلك إذا كانت السرقة جمعيـة ، هل

السارق تابع أم متبوع ؟ وفى كثير من الحالات كنا نجد أن شخصاً من الأقوياء المتعطلين (البلطجية) يدفع بعض الأولاد للسرقة تحت إغراء . و بعد مرة أو مرتين يستمر يدفع الأولاد تحت التهديد . وكثيراً مايحدث هذا مع خادمات المنازل الصغيرات السن ، الساذجات العقل . فأحد الباعة المتجولين هدد خادمة بالقتل إذا لم تسرق له من سيدتها بعض النقود ، ووصل ما سرقته فى إحدى المرات إلى عشرة جنيهات . وأحد باعة الثلج كان يهدد خادمة فى سن الحادية عشرة بالاعتداء الجنسى عليها إذا لم تسرق له ما يريده . وعلينا أن نتبين كذلك المادة المسروقة ، وطريقة السرقة ، وما يدل عليه كل هذا من ذكاء أو غباوة . فبعض الناس يسرقون أشياء كبيرة ظاهرة، ذات ألوان براقة ، يتحتم ضبطهم بها . و بعضهم يسرقون ما خف حمله وغلا ثمنه فى ظروف لا يمكن ضبطهم فيها إطلاقا .

وعند دراسة حالة السرقة لابد من محاولة الوصول للوظيفة التى تؤديها السرقة ، أى أنه لابد من دراسة الدوافع الظاهرة والعوامل المستترة التى تؤدى إلى السرقة . و بالإضافة إلى كل ذلك لابد من دراسة أنواع المهارة الجسمية كسرعة اليدين ، وخفة الحركة ، وسرعتها ، والقدرات العقلية كالذكاء العام والقدرة الميكانيكية ودقة الحواس، وكذلك المهارة الاجتماعية كالقدرة على الزعامة وخفة الروح ولباقة الحديث وترتيب المواقف وغير ذلك . وتساعدنا دراسة هذه المهارات على حسن دراسة الشخص وحسن توجيهه توجيهاً صالحاً .

بعض القواعد العامة

إذا امتدت يد الطفل الصغير إلى شىء ما لا يحق له أن يأخذه فعلمه بغاية الهدوء أنه يجب عليه أن يستأذن قبل أخذ شىء ليس له ، ثم علمه بهدوء أيضاً ماله فيه حق وما ليس له فيه حق ، ولا تنفعل ، أو تسخط ، أو تعاقب ، أو توبخ ، أو تصف الولد بأنه (حرامى) ولو عن طريق المزاح ، فإنك بذلك قد تعلمه لأول مرة فى حياته معنى

كلمة لص . ومن الجائز أنه يجد بعض اللذة فى هذا العمل فيستمر فيه لأن فيه بعض الجرأة، أو لأن فيه انتصاراً على الكبار، أو لأن فيه وسيلة سهلة لإشباع لذاته الأخرى التى لايجد سبيلا آخر لإشباعها . لهذا يجب أن تتأمل لتعرف الرغبة التى دفعته إلى السرقة لتشبعها بالطريق السوى قدر الإمكان ، ولتعلمه شيئاً عن ضبط رغباته وتحكمه فيها .

وعليك أن تبذل جهدك لخلق شعور بالملكية عند الطفل ثم عوده كيف يحافظ على ما يمتلكه ، وكيف ينظمه ويهتم به . فيكون للطفل (دولاب) صغير مثلا يجمع فيه ممتلكاته ومقتنياته من صور إلى طوابع بريد إلى أقلام إلى غير ذلك . ويمكن أن يعلم كيف ينظم هذه المقتنيات ويحسن عرضها ، ويفخر بها . كذلك يصح أن يعطى الطفل عندما يصل إلى العمر المناسب مصروفاً منظما ، ويعلم بين آن وآخر كيف ينفق وكيف يدخر . وأما الخدم ومن شابههم فيجب ألا توضع فى طريقهم المغريات التى هم محرومون منها كالحلوى والنقود وما شابهها .

ويراعى فوق ماتقدم أن الطفل لايسرق قط ممن يشعر بصداقته له وعطفه عليه . فلتكن معاملتنا للأطفال — كما بينا مراراً وتكراراً — متجهة نحو العطف فى غير ضعف ، والحزم فى غير عنف .

المراجع

Adler: Guiding the Child.
Allers: The Psychology of Character.
Blanton: Child Guidance.
C. Burt: The Young Delinquent.
Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.
Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.
Hartshorne and May: Studies in Deceit.
Hutchinson: Motives of Conduct.
Kanner: Child Psychiatry.
J. Larson: Lying; Its Detection.
Müller: Advances in Understanding the Child.
Patri: Child Training.
Russell: On Education.
H. Smith: Psychology of Crime.
Thom: Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل الحادى والعشرون

الميل إلى الاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب

مقدمة

يدخل الكثير من أنواع المشكلات التى درسناها — تفصيلا أو إيجازاً — تحت نوع يمكن أن نسميه النوع السلبى أو الانسحابى ، أو كما يسميه بيرت[1] النوع الضعيف ، ومن هذه التهتهة والانزواء والحركات العصبية . . وما إلى ذلك . ويدخل الكثير مما ذكرناه أيضاً تحت نوع يمكن أن نسميه النوع الاعتدائى أو الايجابى ، أو كما يسميه بيرت النوع القوى ، ومن هذه قرض الأظافر وبعض أنواع السرقة وبعض أنواع الكذب الادعائى وجنون العظمة . . وما إلى ذلك . وتتميز هذه الأنواع الإيجابية عادة بطابع معين تستحق أن تدرس من أجله دراسة خاصة قائمة بذاتها.

ويلاحظ هذا الطابع المعين فى الميل للاعتداء والتشاجر والانتقام والمشاكسة والمعاندة ، والميل للتحدى والتلذذ من نقد الآخرين وكشف أخطائهم وإظهارهم بمظهر الضعف أو العجز ، والاتجاه نحو التعذيب والتنغيص وتعكير الجو والتشهير وإحداث الفتن والنوبات الغضبية بصورها المختلفة المعروفة . فكل هذه الحالات ومشابهاتها بصاحبها فى العادة الحالة الانفعالية المعروفة بالغضب بدرجاتها المختلفة . والغضب فى صوره المتعددة ودرجاته المتفاوتة تظهر آثاره ومظاهره للآباء والمعلمين بكثرة فى حياتهم اليومية . وليست المشكلة قاصرة على الأطفال وحدهم ، وإنما تظهر عادة فى جميع الأعمار

---

(١) يقسم بيرت فى كتابه The Subnormal Mind جميع الحالات العصبية إلى قسمين : أحدهما يمكن أن يسمى عصاب الضعف Asthenic neurosis ، والثانى يمكن أن يسمى عصاب القوة Sthenic Neurosis

ولا سيما الأعمار التى تحدث فيها تغيرات أساسية فى حياة الفرد . فهى تظهر فى السنة الأولى عند الفطام ، وتظهر عند مجىء مولود جديد فى الأسرة ، وعند الانتقال من حياة الحضانة المنزلية إلى المدرسة ، وعند دور المراهقة والبلوغ . وسواء ظهر الاستعداد البارز للغضب فى الأدوار الأولى أو المتأخرة ، فبذوره توجد عادة من سنى الطفولة الأولى .

والغضب حالة نفسية يشعر بها كل إنسان ، ولكن الفرق بين فرد وآخر ، هو أن المواقف المثيرة للغضب تختلف من فرد إلى آخر ، وكذلك تختلف أساليب التعبير عن الغضب من فرد إلى آخر اختلافات بينة سواء فى نوعها أو فى درجتها ، وكذلك تختلف فى ترددها وشدتها من شخص إلى آخر اختلافات واسعة المدى . فالمواقف التى تثير الغضب عند تلميذ ما قد تكون تقدم زميل عليه فى الدراسة ، وقد تكون عند آخر الازدراء بملبسه ، وعند ثالث إظهار الاحتقار لقوته الجسمية . . إلى غير ذلك . وأما أساليب التعبير عن الغضب فقد تكون بتهشيم السبب المثير نفسه بالاعتداء عليه بالأساليب البدائية من ضرب وعض ، وقد تكون بالاعتداء على ممتلكاته أو ما يتصل به وذلك بالتدمير والحريق والسلب ، وقد تكون كذلك بإظهار الغضب دون اعتداء ملموس على الشخص المقصود بالاعتداء ، وإنما باللجوء إلى التهديدات والشتائم والنقد وما إلى ذلك . هذه كلها أساليب مباشرة للاعتداء وهناك أساليب غير مباشرة ينتمى معظمها إلى أساليب الضعف التى سبق أن أشرنا إليها ، ومن هذه السرقة والكذب والهروب والاستغراق فى النوم . . وما إلى ذلك .

وحيث أن استعداد الإنسان للغضب فى مواقف معينة استعداد فطرى الأصل — أى أنه موجود بالطبيعة ، فموقفنا نحو الغضب يجب أن يكون موقف تعهد وتوجيه وإنماء فى الاتجاه الصالح ، ولا يصح أن يكون موقف استئصال بحال من الأحوال . فالنزوع للغضب والمقاتلة ليس أمراً يغرس أو ينزع وإنما هو ناشىء عن مصدر ثابت للطاقة لا يمكن القضاء عليه . ولاشك أن لانفعال الغضب وغريزة المقاتلة قيمة حيوية

كبرى لحياة الفرد . وغاية نشاط هذه الغريزة التغلب على مافى بيئة الكائن الحى من عوامل تقف دون تحقيق الغايات الحيوية الأخرى . ولها كما لبعض الغرائز الأخرى وسائلها وأسلحتها . ومن هذه القرون والفم والأسنان والعضلات والأطراف والأشواك والحمى .. وما إلى ذلك . ولها عند الإنسان بعض هذه الأسلحة ، ولكن يضاف إليها ماينتجه عن طريق الحيلة والاختراع . وقد وصل حتى الآن إلى حرب الأعصاب والقنبله الذرية وأساليب المناورات السياسية الدولية ، وأصبح بذلك عنده مدى واسع جداً من أساليب المقاتلة .

ونظراً لفطرية هذا الاستعداد فإنه يخضع غالباً لقوانين الوراثة المعروفة . ولكن نظراً لأنه صفة نفسية ، فإنه يخضع أيضاً لأثر البيئة خضوعاً كبيراً . لذا نجد أن أثر الوراثة ، وإن وضح فى بعض الحالات ، فإنه يختفى فى أغلبها . وقد عرفت بعض الأمم والقبائل بميلها للمقاتلة أكثر من غيرها . ونعلم أن البنين على وجه العموم أشد ميلا للمقاتلة من البنات ، مما جعل البعض يميل إلى اعتبار المقاتلة صفة ذكرية . ويتضح الميل للمقاتلة كذلك فى أصحاب مهنة دون مهنة أخرى . وهذه الصور المختلفة من أساليب توزيع المقاتلة بين مجاميع الناس يعطى أدلة فى اتجاه أثر الوراثة ، كما يعطى أدلة فى اتجاه أثر البيئة . وقد دلت دراسة بعد الحالات الفردية الشاذة على أن أثر الوراثة بارز فيها بصورة واضحة لا تحتمل الشك[1] . ويتأثر الغضب بعوامل بيئية أومادية مختلفة ، كالتقاليد والمثل والمعاملة ودرجة الحرارة الجوية ونوع التغذية وبعض المشروبات والمكيفات . . وما إلى ذلك .

ويرجع الكثير من قيمة هذه الغريزة إلى حدة الانفعال المصاحب ، وإلى كمية النشاط العظيمة التى يمكن إطلاقها عن طريقها . وتشترك فى هذا النشاط أغلب أجزاء الجسم وأجهزته وغدده وعضلاته . . وما إلى ذلك . ولذا كانت غريزة المقاتلة عظيمة القيمة فى خدمة أغراض الغرائز الأخرى كالجنسية والملكية والطعام والسيطرة . . وما

(١) مثال ذلك حالة ابرين الواردة فى كتاب C. Burt. op. cit, P. 434

إلى ذلك . وهى تنشط لخدمة الحاجات والميول الفطرية والمكتسبة بمختلف صنوفها، وبذلك تصبح المقاتلة ضرورية أحياناً لصون الشرف والسمعة والكرامة والمال . . وما إلى ذلك . وحيث أنها قوة ضرورية للتغلب على الصعاب فهى تفيد فى النزعات للتجريب والمخاطرة والتفوق وكسب الثقة بالذات . وهى قوة تستغل لتقدم المجتمعات ومحاربة مافيها من أمراض جسمانية وخلقية . وهى من العوامل الهامة التى تعطى العلماء والمكتشفين قوة تغلبهم على ما يعترض أعمالهم من مصاعب ومقاومات . وهى من المصادر التى ساعدت على إخضاع الطبيعة بقواها وثروتها للانسان .

نرى مما تقدم أن النزعات الاعتدائية بمختلف أنواعها صادرة عن استعداد راسخ فى طبيعة الإنسان ويمكن أن يتجه نشاطها اتجاهاً هدمياً ضاراً . ويمكن أن يتجه اتجاهاً مفيداً لكل من الفرد والمجتمع ، وقد قال مكدوجل [1] إن غريزة المقاتلة لعبت دوراً أكبر مما لعبته أى غريزة أخرى فى تطور التنظيم الاجتماعى .

دراسة حالات

ولكى نفهم أصل النزعات الاعتدائية الشاذة وصورها وأساليب توجيهها ندرس بعض الحالات . ومن الحالات التى يمكن اعتبارها كلاسيكية حالة جرى Jerry [2] وهو غلام فى السابعة والنصف قتل زميلا له بإغراقه عمداً فى النهر . كان جرى يلعب مع زميله هذا قرب النهر، وأراد أن يأخذ منه لعبة كانت فى يده ،فرفض هذا الزميل ، وأصر جرى على طلبه، وصمم الزميل على الرفض،ثم شتم جرى وعيره بأنه لا أب له ، فهاج جرى وما كان منه إلا أن دفعه فى النهر ، فتشبث المجنى عليه بحافة النهر ، فركله برجله ، وما زال به حتى أغرقه ، واستراح منه . لايكفى هذا الحادث وحده لتفسير الجريمة . فنحن إذا درسنا تاريخ الولد نجد أنه ابن سيدة فقيرة ولدته سفاحا ، وعاش الولد مع أمه

---

(١) Wm. Mc. Dougall: Social Psychology ; Ch. 5, p. 240

(٢) C. Burt: The Young Delinquent. Ch. 1.

عيشة الكفاف . وكانت أمه تعمل بالخدمة المتقطعة فى المنازل ، ولذا كانت تتركه بغير نظام بلا رقيب و بلا غذاء فى غالب الأيام . وكانت المدرسة التى كان يذهب إليها الولد بعيدة عن مسكنه . وكل من بعد المدرسة وضعف رقابة أمه عليه شجعه على الهروب من المدرسة فى كثير من الأحوال ، بذلك أصبح متأخراً فى دراسته ، عرضة للتشرد . وكان الأولاد يعرفون أنه طفل غير شرعى مما كان يدفعهم إلى تعييره بذلك ، ومما جعل الولد يحس بالنقص الشديد والنقمة البالغة على من حوله . تراكمت آثار هذه الظروف وظلت مكبوتة فى نفسه إلى أن جاء حادث اللعبة مثيراً له فانفجر الحقد المتراكم من الماضى بالصورة التى ذكرناها .

لم يذكر بيرت ما تم لهذا الولد من علاج . لهذا نشرح إحدى الحالات التى درسناها وعالجناها بنجاح ، وهى حالة لولد فى الثانية عشرة من عمره ، يعيش فى حى المذبح — أحد أحياء القاهرة ، وكان مصدر الرعب لكل أهل الحى ، فهو يخطف و يسرق و يضرب ولا يبالى . و بلغ من قوته أنه كان يسرق اللحم من الجزارين — وهم قوم عتاة جبابرة . و بلغ من عنفه أن رجال الشرطة كانوا يعملون له ألف حساب، فإذا قبض عليه خطأ وأرسل إلى القسم ، فسرعان ما يطلق سراحه ، ولا سيما أنه يرشدهم أحياناً إلى تجار الحشيش ومهربيه . ولكن حدث ذات مرة أن قبض عليه وهو يسرق صندوق زجاجات غازوزة من عربة فى أثناء سيرها فى شارع خيرت — أحد شوارع القاهرة . ثم أرسل إلى القسم ومنه إلى النيابة ثم إلى مكتب لدراسة الأحداث . واتضح أنه حوكم قبل ذلك مرتين : إحداهما لسرقة دراجة والأخرى لسرقة (وابور غاز) . وعندما بدأنا بحث حالة الولد عانى الأخصائى الاجتماعى كثيراً جداً ، فكان فى الغالب لا يعثر عليه ، وعندما يجده يعتدى عليه ، أو يهرب منه ، وعندما تمكن من استدراجه ليسير معه اشتبك فى الطريق العام فى عدة مشاجرات ، وتكرر هذا مرات عدة حتى يئس من بحث حالته . وأخيراً نجح فى أن يصل به إلى المكتب ، وما كاد يغفل عنه قليلا حتى فر الولد هارباً ، ثم عاود المحاولة ، و بعد

مرات عدة تمكن الولد من أن يثق أن ضرراً ما لن يلحقه ، وبأن الإخصائى النفسانى والإخصائى الاجتماعى سيعملان لصالحه . وفى إحدى مقابلات الولد قال له الإخصائى النفسانى : « إننا لا نريد أن نضطره لمقابلتنا فإن أراد فلصالحه ، وإن لم يرد فله كامل الاختيار فى عدم الاتصال بنا » . مثل هذا الاتجاه السلبى (فى الظاهر) جعل الولد لا ينظر إلى الإخصائى النفسانى نظرات عدائية ، بل اطمأن إليه واستمع لكلامه وجلس بهدوء ليؤدى ما أجراه عليه من اختبارات . وهكذا واصلنا العمل معه بهدوء وتدرج إلى أن ألحقناه بمؤسسة تسير مع أمثاله على أساس استعدادهم . وبالفعل أصبح من أحسن أولاد المؤسسة ، والتحق بالعمل ، ونبغ فى النواحى الرياضية نبوغا كبيراً ، وأصبح غيوراً جداً على سمعة « الأسرة » التى ينتمى إليها فى المؤسسة ومهتما بسمعة المؤسسة كلها وأصبح من قادة الأولاد فى المؤسسة .

وبدراسة حياة الولد اتضح أن أباه رجل شرير مدمن على تعاطى المخدرات ، وكان ينتهز فرصة الإظلام أثناء الغارات الجوية فيصطحب ابنه للسرقة من الجيران ، وعلى الرغم من اعتدال مكاسبه فإنه لم يكن يعطى ابنه نقوداً ، بل يشجعه على الخطف والسرقة ليحصل على قوته . وقد تركت الأم زوجها وابنها اشمئزازاً من سلوكهما ، وهى تعيش مع أهلها من مدة طويلة ، وينام الرجل وابنه إما على الرصيف وإما فى مدخل منزل يملكه بالاشتراك مع أخيه . فالولد أصبح هو وأبوه منبوذين من الأم . ووالده يقربه إليه بالقدر الذى يتمكن معه من استغلاله ، ويشعر الولد بنقمة عامة على المجتمع ، وهو متفزز دائماً للانتقام والاعتداء .

ومن العجيب أننا بعد أن تولينا توجيه الولد إلى الحياة الجديدة أصبح ميالا إلى حياة العمل والكسب الشريف ، إذ ألحقناه بعمل ميكانيكى ، وهو العمل الذى يلائم استعداده الجسمى والعقلى والخلقى ، وأصبح كثير النقد لوالده الذى يسلك فى نظره سلوكا سيئاً للغاية . ووالده الآن فى السجن لسرقة ارتكبها .

نرى من هذه الحالة أن مصادر النزعات الاعتدائية يمكن تحويلها من المسالك

السيئة المضادة للمجتمع إلى المسالك المقبولة فى المجتمع . وذلك عن طريق وضع الولد فى بيئة اجتماعية تعطيه التقدير والأمن ، وتزوده بنشاط اجتماعى صالح ، وعن طريق إعطاء الفرصة لنزعاته القوية للظهور دون إنماء للأنانية ، ومع مراعاة إنماء الشعور بالمسئولية الاجتماعية . وليس هنا مجال التفصيل فى هذه الناحية .

حالة فى نوبات الغضب لطفل فى سن الخامسة

وهذا ولد فى سن الخامسة شديد المعاندة والرغبة فى الإتلاف ، عنيف جداً فى تصرفاته . إذا لم يجب إلى ما يطلب فإنه يعبر عن غضبه بنوبات يصرخ فيها بشدة ، ويرتمى على الأرض ، ويرفس إلى أن يجاب طلبه ، وهو يعيش مع أمه فى بيت جده ، لأن الوالدة انفصلت عن زوجها بالطلاق عند ما كانت حاملة ذلك الإبن . فالولد يعيش فى منزل متعدد السلطات فهناك سلطة الجد ، وسلطة الجدة ، وسلطة كل من الأخوال ، وسلطة الأم . ولذلك انعدمت وحدة السلطة الضابطة أو الهيئة الموجهة ، وعرف الولد كيف يستغل نواحى الضعف الكامنة فى جو الأسرة لمصلحته . يضاف إلى ذلك أن الولد نفسه مرتبك ، ولا يشعر بأنه ينتمى إلى والد كبقية الأولاد . ويشعر فى الوقت نفسه شعوراً ضمنياً بأن هناك غموضاً كبيراً حوله وحول مستقبله من حيث اطمئنانه على استمرار بقائه مع أمه ، أو عدم بقائه معها . فالولد يعيش فى جو يشعر بأنه لا يفهمه إطلاقا ، ويمكنه مع ذلك أن يصل فيه إلى كل رغباته . وقد ساعد ارتفاع ذكاء الولد على سهولة كشفه لخصائص هذا الجو فى سن مبكرة ، إذ أن مستوى عقل الولد وهو فى الخامسة يساوى مستوى عقل طفل فى سن السادسة والنصف .

وللولد مشكلات أخرى عديدة تعتبر كلها نتائج لمركزه ممن حوله ، حيث أنه يعيش فى جو غامض غير مفهوم ، ولا يمكنه أن يطمئن إليه تمام الاطمئنان ، ومع ذلك فهو جو ضعيف فى مجموعه بالنسبة إليه ، يخضع من فيه عادة لإجابة طلباته . فتهيج الطفل

ونوبات غضبه فى هذا الجو تساعده على إجابة طلباته ، وينم تهيُّجه فوق ذلك عن نقمته على هذا الجو وعدم اطمئنانه إليه (حالة ص ٢٦٤) .

حالة غضب ومعاندة لتلميذ فى السادسة عشرة

وتلميذ فى سن السادسة عشرة كانت تصيبه نوبات عصبية شبيهة بالصرع ، ذكر عنه والداه فوق ذلك أنه عنيد ، لا يهتم برأى والديه ، كثير الزجر والمشاكسة لأخوته ، منصرف عن مذاكرة دروسه مما أدى إلى تأخره الدراسى تأخراً كبيراً . وقد اتضح بدراسة الحالة أن هذه الاتجاهات وغيرها ظهرت كلها فى مرحلة التعليم الثانوى ، أى فى دور المراهقة . ويلاحظ أن الولد يريد أن يثبت وجوده بالأساليب التى يؤدى أغلبها فى نفس الوقت إلى إثارة الغيظ فى والده ، وبذلك تصبح وسائل اعتدائية غير مباشرة بجانب وظيفتها فى إثبات الذات ، وهذه الأساليب هى :

١ — عصيانه لوالديه .

٢ — التدخين .

٣ — المشاجرة وتقديم الشكوى لرجال الشرطة عمن يخطئون نحوه مهما كان الخطأ تافهاً .

٤ — بطاقته التى وضعها بجانب بطاقة والده على صندوق البريد .

٥ — الخروج مع أصدقائه إلى ساعة متأخرة جداً من الليل .

٦ — استقبال ضيوفه وأصدقائه أيّاً كانوا فى المنزل فى أى وقت يشاء وبغض النظر عن رأى بقية من فى المنزل فى ذلك .

٧ — رغبته فى أن يكون له فى حركة المنزل صوت مسموع (لا يقل عن صوت والده) .

٨ — كتابته مذكرات خاصة عن نفسه .

٩ — خروجه من المدرسة فى أى وقت شاء وبغير استئذان .

ويلاحظ أن والده رجل عنده بعض العصبية ، وهو كثير النقد لابنه هذا ولا سيما أنه ابنه الأكبر وكان يركز فيه كل آماله . يضع الوالد بعض القيود على ابنه ولو أن بعضها قيود معقولة ، ولكنه يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياته ، ويهمه أن يكون رأيه هو المتغلب فى النهاية ، والوالد فوق كل ذلك يتهيج على ابنه لدرجة تخرجه أحياناً عن حدود صوابه . وهو يخشى ألا يكون هناك أمل فى إصلاح حال ابنه ، إذ أنه يرى أنها لا بد أن تكون وراثية . ويستند فى ذلك إلى بعض الأدلة غير القوية . هذه الحالة تعتبر حالة ثوران أو عدم استقرار ، وهى وإن كانت لا تتميز بنزعاتها الاعتدائية المباشرة ، غير أن ما بها من النواحى الاعتدائية يظهر مع غيرها من النواحى الأخرى . وبذلك نرى أن النزعة الاعتدائية فى هذه الحالة والحالات السابقة لا تخرج عن كونها عرضاً واحداً من مجموعة أعراض للشخصية كلها . مثلها فى ذلك مثل أى سلوك مشكل .

أسباب الغضب فى الحالات الشاذة

ومما يكثر ظهوره عند الأطفال ما يسمى بنوبات الغضب ، وهى تظهر بأسلوبين : أسلوب إيجابى مصحوب بالثورة ، أو الصراخ ، أو الضرب ، أو الرفس ، أو الرجم بالحجارة ، أو دفع الأبواب ، أو إتلاف الأشياء ، أو ما شابه ذلك ، وأسلوب سلبى مصحوب بالانسحاب أو الانزواء أو الابتعاد أو التجهم ، أو الإضراب عن الكلام أو الأكل ، أو ماشابه ذلك . أما الأسلوب الأول فهو أسلوب الظاهريين ، أو المنبسطين (Extroverts) وأما الثانى فهو أسلوب الباطنيين أو المنطوين (Introverts) . وهذا النوع الثانى الهادىء فى ظاهره ، وإن كان مريحاً للآخرين إلا أنه أضر بالشخص من النوع الأول ، إذ أنه يصحبه كبت لانفعال الغضب ، قد يتبعه بعد مدة قصيرة أو طويلة إغراق فى أحلام اليقظة التى قد يتصور فيها نفسه منتصراً أو مظلوما أو مقصوداً

بالظلم من غيره ، أو غير ذلك ، أو قد يتبعه انفجار أو تحويل[1] (Transfer) . وأما النوع الأول فمن مميزاته على الأقل أنه يعطينا فرصة لفهم الشخص ، ودراسة سلوكه الظاهر غير المكبوت . ومن مميزاته أيضاً شعور الشخص بشيء من الراحة ، بعد تعبيره عن انفعاله بصورة ظاهرة .

وتظهر نوبات الغضب أحياناً إذا كانت السلطة الضابطة متغيرة ، فإذا طلب طفل من أمه مثلا أمراً ما وامتنعت ، ثم صرخ فأجابت طلبه ، فإنه يغلب أن امتناعها بعد ذلك فى فرصة أخرى يؤدى إلى صراخه . وكثيراً مايحدث أن تتنبه الأم إلى أن الولد قد يتغلب عليها إذا لم تصمد فتصر على الامتناع ، ويصر هو على رفع صوته فى الصراخ ، وقد تستمر الحال إلى أن تجيب الأم طلبه . وهذه طريقة من الطرق التى تنشأ بها نوبات الغضب . فالطفل يدرك حدود السلطة فى بيئته . لذا نجده قد يصرخ مع أمه ، ولا يصرخ مع أبيه . أو يصرخ مع أمه فى حضور جدته ، أو خالته ، لأنه يضمن إذ ذاك شفيعاً له به خبرة سابقة . بذلك تصبح نوبات الغضب بدرجاتها المختلفة سلاحا يستعمله الطفل بالمقدار الكافى فى الظرف المناسب . وتصل أحياناً نوبات الغضب إلى درجة شديدة كاحتقان الوجه ، واحتباس الكلام ، أو الإغماء أو القىء ، أو كثرة البكاء ، وغير ذلك . والإغماء فى مثل هذه الحالة يكون أسلوبا عقلياً لاشعورياً يصدر من الطفل للحصول على حاجة مادية أو معنوية . فمما يترتب عادة على الإغماء ، أن الأسرة كلها تجتمع ذعراً حول الطفل ، وكل فرد منها يقوم بنصيبه فى مساعدته ، وينظر إليه نظرة ملؤها الخوف والحنان والتأثر . وهكذا يصبح الإغماء وسيلة تؤدى غالباً إلى اهتمام الأسرة به ووضعه فى مركز عناية كل فرد منها .

هذا النوع من الإغماء نعرفه فى الحالات التى تشبع حاجاتها كلها ، وتدلل فى أول الأمر ثم تعامل بالشدة فى المراحل المتأخرة . ولذا فإننا نجدها عادة فى الطفل الأول ، أو فى الحالات التى يعيش أصحابها فى جو تتذبذب فيه المعاملة بين أساليب

(١) راجع عملية التحويل صفحة (١٣٢) .

الشدة وأساليب التراخى الصادرة من شخص واحد ، أو فى الجو الذى تتعدد فيه أساليب مختلفة لسلطات متعددة كسلطة الأم والأب ، أو سلطة هـذين مضافاً إليها سلطة الأجداد والخالات ومن شابههم .

ومن أسباب نوبات الغضب والعنف فى السلوك الشعور بالخيبة الاجتماعية ، كتأخر التلميـذ فى دراسته أو إخفاقه فى التقرب من والديه أو معلميه ، ولذا نجد أن الشعور بالغيظ والحنق والتعبير عنهما كثيراً ما يكون حاداً واضحاً فى حالات الغيرة . كذلك يؤدى إلى نفس النتائج شعور الطفل بظلم يقع عليه من المحيطين به من مدرسين أو آباء أو إخوة . وأشد حالات الشعور بالظلم ما كان بجانبها شعور الشخص بمحاباة ذوى السلطة لغيره ، إذ أن جزءاً كبيراً من الشعور بالظلم هو فى الواقع شعور نسبى . ويضاف إلى ما تقدم الشعور بفقد العطف وفقد الاطمئنان إلى البيئة المحيطة .

ومن أهم أسباب الغضب أيضاً تقييد الحريه سواء فى ذلك حرية الحركة الجسمية أو اللعب الحر عند الصغير . ويخطىء بعض الآباء فى أنهم يتدخلون كثيراً فى ألعاب الطفل ليحلوا لهم مثلا لغزاً استعصى عليهم حله أو غير ذلك مما يحرمهم لذة المحاولة الذاتية والنجاح الذاتى . ومن أسباب الغضب كذلك تقييد حرية التعبير عن الرأى ، وتقييد إثبات الذات ولا سيما عند المراهقين والكبار ، ويدهش كثير من الآباء من ميل أطفالهم إلى المعاكسة والمشاكسة بعد بدئهم حياتهم الدراسية ، والسبب فى ذلك هو أن جو المدرسة — بكل أسف — جو مقيد فى العـادة لحرية الحركة ، وحرية التعبير عن الفكر ولا يسمح فيه بإثبات الذات إثباتاً كافياً . ولـكن الطفل لا يمكنه فى الغيرة أن يثور مباشره على السلطة القائمة فى هـذا الجو ، فيقوم دون أن يقصد أو يشعر بعملية تحويل للثورة أو الغضب إلى أشخاص أو أشياء لها بمصدر السلطة بعض العلاقة ، وتكون العلاقة قائمة على وجه شبه بعيد ، وأحياناً لا تكون هناك علاقة ظاهرة إطلاقا . فعند عودة الطفل إلى المنزل يغضب على أمه أو على إخوته ويكون كثير المطالب قليل الصبر كثير النقد شديد التدقيق لغير سبب جوهرى شديد الغضب .

ومثل هذا ينطبق على كل جو يسوده الضغط والتقييد سواء أكان جواً اجتماعياً عاماً أو مجالا اجتماعياً محدوداً .

ولا يجوز الخلط هنا بين تقييد الحرية ووجود المقاييس الضابطة ، فالطفل فى حاجة إلى توجيه لمعرفة الحسن والردىء مع عدم تقييد حريته بإرغامه على اتباع نظام معين محدود التفاصيل .

وليس من الضرورى أن يتم دائما تقييد الحرية بالطرق العنيفة من جانب السلطة، فقد يتم بطرق تبدو غاية فى الضعف . وقد شوهد هذا فى عدد غير قليل من الحالات . ومن أمثلته أن شابا ، وهو فى سن السابعة عشرة أو أكثر ، كان إذا خرج مع أصدقائه للتنزه فإن الأم تبكى ، ويبدو عليها الشقاء . وفى ذات مرة مرضت الأم أسبوعا لأن ابنها خالفها ، وسهر فى الخارج مع أصدقائه إلى ما بعد التاسعة مساء . وكانت النتيجة فى هـذه الحالة بالذات أن الولد يكره البقاء بالمنزل كرهاً شديداً ، ويخشى الخروج منه خوفاً على أمه التى يقول إنه يحبها حباً جماً . وبهذا وقع فى صراع عقلى عنيف بين نزعتين متناقضتين وهما تشوقه لإثبات ذاته وحرصه على إرضائه لأمه . نتيجة هـذا أنه ينفجر أحياناً فى أمه وأحياناً يدخل غرفته ويحبس نفسه فيها ، ويصرخ بصوت مرتفع . وقد أصبح مضطرباً قليل الاستقرار ، يفكر أحياناً فى الانتحار ، قليل القدرة على تركيز جهده فى أعماله الدراسية . وحالات كثيرة من المرض العصبى والعقلى منشؤها السيطرة بالضعف من جانب الأمهات والآباء[1] .

وقد يكون الغضب عند الأطفال صورة من الغضب عند الآباء وقد تحدث هذه الصورة إما بالتقليد والنقل ، وإما تحدث كرد فعل على غضب الوالدين وما ينتج عنه لأتفه الأسباب ، فبعض الآباء يغضب إن لم يجد طعامه مهيئاً فى اللحظة التى يريده فيها، أو إن فقد زرار قميصه فى أثناء لبسه فى الصباح أو إن قطع رباط حذائه فى أثناء شده

(١) هذه هى نفس الحالة (ص٢٦٨) ، ويلاحظ أن النزعات الاعتدائية تتجه نحو أمه فلا تجد منفذاً فترتد عليه . ومثل هذه الحالات كثير فى حالات الانتحار وما هو أخف من ذلك من حالات عقاب الذات (Self Punishment) ومجاهدة النفس (Asceticism) .

له . وهكذا تجد بعض الآباء متفززين للغضب فى كل لحظة . كذلك غضب الأطفال مع إخوتهم أو مع الخدم قد يكون صورة ظهرت عن طريق التقليد أو الرغبة فى الانتقام منشؤها غضب الآباء معهم . وفى الحالة الثانية يكون الغضب متسبباً من كثرة مشاجرات الوالدين أنفسهم مما يهز ثقة الطفل بالجو المنزلى ، ويجعل الطفل متحزباً مع أحد الوالدين ضد الآخر[1] وبذلك يصبح ناقماً على الجو المنزلى كله ، أو على جزء منه ، وقد تنتقل معه هذه النقمة إلى الجو الخارجى فى علاقته بالمجتمع عامة أو ببعض أجزائه كالزملاء أو المرؤوسين أو الرؤساء أو السلطة الحاكمة أو القانون نفسه .

ومن العوامل التى تساعد على تفزز الأشخاص وتعرضهم لنوبات الغضب حالتهم الجسمية ، فأى نقص عام أو محلى يؤدى إلى إضعاف قدرة الشخص على السيطرة على موقف ما قد يجعل الشخص هائجاً متفززاً . فبعض الأطفال ، لعدم قدرتهم على المشى أو الكلام أو الرؤية أو اللعب أو ما إلى ذلك قد تجدهم فى حالة تفزز واستعداد للغضب والهيجان .

مشاجرات الإخوة

ولسنا مبالغين إن قلنا إن كل أسرة بها أكثر من طفل واحد لا بد أن يحدث فيها شىء من النزاع والتشاجر . فمن الأمور العادية أن يقوم أخ بتعيير أخته مثلا بلون شعرها أو ضخامة قوامها أو غير ذلك . كذلك يحدث أن تعير الأخت أخاها بأمور مختلفة . ويتشاجر الإخوة مثلا عند تسابقهم لعمل ، أو لعب ، أو الحصول على امتياز معين من أى نوع كان . كما يجوز أن ينال طفل ما عقابا سببه له طفل آخر مثلا ، فيقوم هذا الطفل الآخر بإثارة المعاقب ، فيثير غيظه بكلمات معينة أو بتعبيرات معينة يرسمها على وجهه ، مما يهيىء الجو لشجار من النوع العنيف . كذلك يحدث

(١) يتحزب الطفل عادة للشخص الذى يميل إليه ، وقد يعتقد هو أنه مظلوم أو ضعيف . ويكون الطفل غالباً فى جانب الأم ، ويترتب على انقسام جو الأسرة بهذه الصورة مشكلات عديدة .

أحياناً أن يرغب الأخ الأكبر فى فرض سلطته على الأصغر فيتهيج الأصغر لهذا ، ويلجأ لوالديه . وكما جرت العادة قد يكون الأصغر معززاً من الوالدين . يحدث بعد ذلك (على سبيل المثال) أن يخرج الأخوان معاً أصغرهما فى حراسة الأكبر لقضاء مهمة معينة ، ويريد الأكبر أن يسير الأصغر حسب هواه ، والأصغر يمانع ، فيستعمل الأكبر سلطته ، وينهر أخاه ويدفعه ، وإنما يفعل ذلك بشىء من الخوف وعدم الاسترسال فيه ، لأن الأصغر مسنود من الوالدين . فتجد إذ ذاك أن الأصغر يتشاجر بعنف وشدة لنفس السبب ، وهو أنه معزز من الوالدين . ولذا تتجدد المشاجرات بين الإخوة ، ويكون لموقف الوالدين بعض الإثم فى اتجاه المشاجرات ودرجة عنفها . ويحدث أحياناً أن يشعر الأخ الأول والثانى أن الثالث مدلل من الوالدين فيكونان ضده عصبة ، ويكثران من التشاجر معه . وأحياناً يتفق الأول والثالث ضد الثانى مثلا لأن الثانى أميز منهما لخفته أو لجمال شكله ، أو لشدة ذكائه ، أو لرقة صحته التى جعلت الوالدين يغدقان عليه عناية لم يشعر الآخران بمثلها . وهكذا من التشكيلات الأخرى العديدة .

ويتشاجر الإخوة إذا اعتدى أحدهم على ما يعتبره الآخر ملكا له ، أو على ما يعتبره أنه ليس ملكا للمعتدى . فالطفل يتشاجر مع أخيه إذا لعب هذا فى كتبه أو أدواته ، أو ملابسه ، أو إذا لعب فى كتب والده مثلا : إلى غير ذلك .

ونجد على وجه العموم أن الإخوة الذين لا يتشاجرون قل أن نسمع عنهم . ومجرد اجتماع طفلين أو أكثر فى مكان واحد ينصب المسرح عادة لمنازعات تختلف فى نوعها وموضوعها ، ودرجة عنفها اختلافات كبيرة . وهذه المنازعات قد تطول وقد تقصر ، وتتخللها عادة معاهدات للصلح لا يراعى فى تنفيذها أى نوع من الدقة .

ويتألم الآباء عادة من مشاجرات أبنائهم ، وسبب ذلك أن صوت هذه المشاجرات قد يصل إلى مسمع الجيران ، وبذلك يتولاهم الخجل ، إذ يظنون أن الجيران ربما يرمونهم بالخيبة فى تربية أبنائهم . ومما يزيد الآباء تألماً عنف الأبناء

أحياناً فى هذه المنازعات ، إذ أن المشاجرات بين الإخوة تصل أحياناً إلى درجات يخيل إلى الوالدين معها ، أنه لو أتيحت الفرصة لأحدهم ، فلا مانع عنده من أن يفتك بالآخر . ويعتقد الآباء إذ ذاك أن مثل هؤلاء الأطفال سيشبون على كراهية بعضهم بعضاً ، وسينشأون غير قادرين على حسن معاملة الناس . ولكن الأمر أهون من هذا بكثير ، فكل الإخوة ولا سيما المتقاربين منهم فى العمر ، لا بد أن يتشاجروا . وتقل عادة هذه المشاجرات كلما تقدم الأطفال فى السن . وليس معنى هذه المنازعات كراهية الإخوة بعضهم بعضاً ، فكثيراً ما يحدث أن يتشاجر أخوان ، فإذا تدخل غريب للإصلاح بينهما ، فغالباً ما يتضامنان ضد هذا التدخل ، ولا يرضيان به مهما نبل غرضه وحسنت نيته .

ومن البحوث التى أجريت فى الخارج على الأطفال دون الثامنة من العمر بحث خلص منه القائم به إلى النتائج الآتية :

١ — استعداد الذكور للتشاجر أكثر من استعداد الإناث له .

٢ — الاستعداد للتشاجر يقل عادة بالتقدم فى السن .

٣ — الاستعداد للتشاجر يكثر بين الأطفال الذين تربط بعضهم ببعض روابط الصداقة .

وإذا أخذنا بهذه النتائج ، وإذا تذكرنا أن الأولاد عموما يفوقون البنات فى الميل إلى النشاط والعنف والشدة والسيطرة وإثبات الذات ، لوجدنا أن الشجار قد يدل على وجود صفات طيبة للغاية . فهو يدل على الحيوية والنشاط والجرأة وأحياناً يدل على الميل إلى التمسك بالحق والمثابرة والشدة ، وغير ذلك من الصفات اللازمة لنجاح المرء فى الحياة . هذا ، ويمكن أن يكون الشجار مع حسن التوجيه مقدمة لأمر آخر يكسبه المرء بالخبرة الشخصية وهو القدرة على ضبط النفس ومجاهدتها ومكافحة الصعاب .

وطبيعى جداً أن الأطفال باجتماعهم تختلف رغباتهم ، وتختلف طرقهم فى

الحصول عليها ، وتتعارض هذه الرغبات . وهذا يؤدى إلى الاحتكاك الدال على النشاط والحيوية ، ويمكن أن يترتب على كل هذا أن يتعلم الطفل كثيراً من أساليب التعامل ، ومعنى الحق ، ومعنى الواجب ، وأساليب الأخذ والعطاء . ولهذا يكون التشاجر أحياناً دليلا على عدم اكتمال النمو الاجتماعى ، ولكنه يصح أن يؤدى إليه إذا أحسن توجيهه .

يضاف إلى كل هذا ، ما سبق أن قلناه فى أسباب الغضب ، فمن الجائز أن يكون التشاجر بين الأخوة دالا على غيرة ، أو إخفاق اجتماعى ، أو شعور بظلم الكبار ، أو غير ذلك مما يجب على الآباء أن يبحثوا عنه ليزيلوا أسبابه بادىء ذى بدء .

بحث حالات الغضب والتشاجر

أول ما يجب بحثه ، إن كثر الشجار وظهرت ثورات الغضب ، هو دراسة الحالة الجسمانية ، فقد يكون التفزز وسرعة الغضب ناشئاً عن اختلال فى مصادر النشاط فى الجسم ، كازدياد فى إفرازات الغدة الدرقية ، أو الغدتين فوق الكلويتين ، أو الغدد التناسلية ، أو ما شابه ذلك ، مما قد يحدث والشخص غير مهيأ للقيام بالنشاط الكافى لتصريف الطاقة المتدفقة فيه . وقد يكون السبب هو تسمم الجسم عن طريق مباشر أو غير مباشر ، بسبب الإمساك ، أو التعب الشديد ، أو الإصابة بالبرد العادى ، أو قلة النوم ، أو سوء التغذية ، أو غير ذلك من الأسباب الجسمانية العديدة[1] . ويمكن فى بعض الحالات إرجاع التعرض للغضب إلى عاهة أو نقص جسمى يتسبب عنه عجز فى القدرة ، أو تعيير من الآخرين ، أو عطف زائد منهم ، مما قد يجعل صاحب العاهة شاعراً بعاهته ناقماً على نفسه وناقماً على من حوله .

ويلاحظ عادة أن أطفال المدارس يرهقون أحياناً بالعمل . سواء أكانت تسميه المدرسة عملا دراسياً أم رياضة بدنية . ثم يذهب الطفل إلى منزله محملا بواجبات

(١) فى الكبار يكون الاستعداد لسرعة الغضب متأثراً أحياناً بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم .

منزلية ، وقد تضاف إلى هذا دروس خصوصية ، وبذلك يحرم الطفل من الاستجمام ، ومن اللعب الحر ، ومن التنزه الضرورى لكل إنسان . فعلينا إذن أن نبحث حياة الطفل المدرسية ، وعمله الدراسى من حيث نوعه وكميته ودرجة ملاءمته لقواه العقلية والجسمية ، وأن نعرف علاقة الطفل فى المدرسة بزملائه ومعلميه . وعلينا أن نبحث كذلك فى علاقة الطفل بوالديه وعلاقة كل منهما بالآخر ، وأن ندرس أصدقاء الطفل خارج المدرسة ، ونوعهم ، ودرجة ملاءمتهم له ، وكيف يقضى وقته معهم ، وأن نعرف كيف يشغل وقت فراغه ، ونوع هواياته . وذلك لأن الطفل كلما كان مشغولا بهوايات ، وبعمل لذيذ ، كان أقرب إلى الهدوء منه إلى الغضب . ويجب أن نعرف الكثير عن حياته الانفعالية فربما يكون هناك ما يدعو إلى الغيرة ، أو القلق ، أو ضعف الثقة بالنفس ، أو الانشغال بمسائل جنسية أو غير ذلك . وعلينا أن ندرس نظرته إلى مستقبله فالمستقبل المظلم غير الآمن قد يكون صاحبه بسببه قليل الصبر كثير الغضب .

يضاف إلى كل هذا وجوب النظر إلى احتمال وجود عوامل وراثية ، فغريزة المقاتلة وما يصاحبها من نشاط الغدد اللازمة لها ، قد تكون موروثة بكمية عالية من جيل سابق ، يصبح الفرد معها أقل قدرة على تكييف نفسه للمشكلات التى تقابله .

وعلينا بالجملة أن ندرس فى نوع المشكلات التى نحن بصددها كل ما يمكن أن يقلل من شعور الفرد بالسعادة فى الحاضر والماضى والمستقبل من عوامل جسمية وعقلية واجتماعية مختلفة .

بعض القواعد العامة

وزيادة على ما تقدم عن دراسة الحالات العادية أو الشاذة يجب مراعاة مايأتى :

١ — لا يجوز الإكثار من التدخل فى أعمال الأطفال ، أو تحديد حركتهم ،

أو إرغامهم على الطاعة لمجرد الطاعة ، و إنما يكون التدخل بمقدار ماسبق أن أشرنا إليه (ص ١٦٨) .

٢ — لا يجوز إظهار الأطفال بمظهر العجز أو الاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، أو إذلالهم أو كبتهم أو تخويفهم أو العمل على تهدئتهم بالعنف والشدة . فالسماح لهم بالتعبير عن انفعالاتهم العنيفة أحياناً أمر صحى .

٣ — لا يجوز اغتصاب ممتلكات الأطفال ، أو تخريب أدواتهم خصوصاً فى ساعة غضب .

٤ — لا يجوز الظهور أمام الأطفال بمظهر الضعف ، والقلق ، ولا بمظهر الإهمال لهم ، وعدم الاهتمام بهم .

٥ — لا يجوز أن يسمح للطفل أن يحصل على ما يريده بطريق الصراخ ، ولا يجوز محايلته أو تدليله فى هذه الحالة .

٦ — يحسن عدم توجيه انتباه الطفل إذا قام بثورة غضب لسبب غير معقول .

٧ — يجب أن نضبط أنفسنا قدر الإمكان أمام الأطفال ، بل يجب أن يتعود الآباء الانشراح لاسيما عند عودتهم من العمل .

٨ — لايجوز استثارة الأطفال لتسلية أنفسنا . ولا يجوز إثارة غضبهم بمنع امتياز معين عنهم ثم التنازل لهم خوفاً منهم أو عليهم .

٩ — لايجوز مناقشة سلوك الطفل مع غيره على مسمع منه .

١٠ — لايجوز إثارة الغيرة بين الأطفال ولا يجوز الإكثار من الموازنات العلنية بينهم ولا خلق جو يشعر بالتفريق بينهم .

١١ — يجب أن يكون الطفل مشغولا فى وقت فراغه بنشاط لذيذ منتج كلعب أو هواية أو عمل أو غير ذلك . وأن تعطى له فرصة اللعب العنيف أحياناً ، ويجب أن تكون التربية لوقت الفراغ غرضاً هاماً من أغراض التربية .

١٢ — يجب أن يكون جو المنزل جو عطف وهدوء وتقدير وعدل وثبات فى المعاملة.

١٣ — يجب أن يوجه نشاط الناشىء لخدمة المجموعة التى ينتمى إليها وللنواحى الخلقية وللنواحى الابتداعية الإيجابية .

خاتمة

و بعد إزالة الظروف الخاصة التى أشرنا إليها فيما تقدم ، ومراعاة القواعد السابقة الذكر ، يحسن معالجة الطفل إن كان من النوع العنيف بشغله فى عمل يحتاج إلى جهد كالحركة واللعب الذى يتطلب تحريك الجسم كله ، كالقفز ، والجرى ، ولعب الكرة مثلا . والألعاب الجسمية العنيفة أفضل لهذا النوع من الأطفال من الألعاب العقلية . و إذا ظهر على الطفل ميل عام بارز للمشاجرة فيحسن إدماجه مع جماعة من الأطفال يساوونه فى القوة حتى يناضلهم و يناضلوه ، فينتصر أحياناً و يغلب على أمره أحياناً أخرى . واندماج هذا النوع من الأطفال فى الفرق الرياضية له أحسن الأثر إذا تم تحت إشراف مستنير .

وعند تشاجر الإخوة بعضهم مع بعض يحسن بالآباء تركهم يحلون مشكلاتهم بأنفسهم ، و إذا تدخلوا فليكن تدخلا موجها هادئاً خالياً من التحيز يترتب عليه تعليمهم كيفية حل مثل هذه المشكلات بأنفسهم إذا ظهرت بعد ذلك فى مناسبة أخرى .

وعلى الآباء والمعلمين أن يتريثوا فلا يقابلوا غضباً بغضب ، إذ يحتمل أن يكونوا هم مصدر المشكلة كلها . فعليهم أن يدرسوا دائماً تصرفاتهم مع أبنائهم فى مثل هذه الحالات وعليهم أن يصلحوا من أنفسهم أولا و إلا تعذر عليهم إصلاح أبنائهم .

المراجع

Blanton: Child Guidance.

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.

Goodenough: Anger in Young Children.

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

Lane: Talks to Parents and Teachers.

Neill: The Problem Child.

Ponsonby: The Application of Psychology to Everyday Life.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثانى والعشرون

التخريب

ميل الأطفال إلى الفحص والتخريب والحركة

لأجل أن نتفهم ميل أغلب الأطفال إلى إتلاف الأشياء يجب أن نبحث بعض القوى الفطرية التى تهيىء الطفل لذلك . وسبق أن عرفنا أن من بين هـذه القوى ما نسميها غريزة الاستطلاع وغريزة الحل والتركيب . وهذه الغرائز تظهر فى ميل الأطفال إلى العمل والتجريب والكشف وسؤال الكبار . ويقوى ظهور هذا الميل أن الطفل حديث العهد بهذا العالم ومحتوياته غريبة بالنسبة إليه ، ولا بد له من معرفتها حتى يشعر نحوها بأمنه وسلامته ، ولا سيما إذا اضطر للتعامل معها .

وأول ما يشعر الطفل بالشوق إلى معرفته وإدراكه هو العالم المادى . فهو يريد أن يلمس الأشياء ، ويحملها ، ويقذفها ، ويعضها ، ويمر بيده عليها . . إلى غير ذلك فإذا أعطيت طفلا فى السنة الأولى من حياته كرة صغيرة ملونة ، فإنه كما قلنا ، يتأملها ويعضها ثم يقذفها فتعطيها له فيقذفها مرة أخرى ومرة ثالثة وهكذا . وهـذا تحقيق لنزعة التجريب أو إدراك خواص الكرة عن طريق القيام بالتجارب والملاحظات . فالطفل يدرك بطريقته هذه وزن الكرة وشكلها وألوانها ويدرك ارتدادها فى الأرض ، ويدرك المسافة التى يلقيها فيها وهكذا ، وفوق كل هذا يشعر بقوته ومقدرته على العمل . لهذا يكرر القيام بتجاربه مرات عدة . ويذكرنا تكراره لتجاربه نوعا ما بما يفعله العالم الذى يتبع المناهج الصحيحة للبحث العلمى ، والذى لا يقطع بنتيجة إلا بعد أن يكرر تجاربه ومشاهداته مئات المرات .

و إذا أردنا أن نصف الطفل فى هذه الحالة — وهو فى معمله الصغير — قلنا إنه يلعب . وعنصر اللعب — أو بعبارة أخرى عنصر الشعور باللذة والسعادة ضرورى لاستمرار الطفل فى هذه التجارب وانهماكه فيها . هذا اللعب هو الذى يكسب الطفل خبرة سريعة واسعة المدى يدرك بها خواص العالم المادى . فسرعان ما يدرك الفرق بين الساخن والبارد والكبير والصغير ، والناعم والخشن ، والأسود والأبيض والحاد وغير الحاد — وغير ذلك من الصفات الظاهره بالنسبة إلينا ، والتى لا يكسبها الطفل إلا عن طريق المحاولات الحسية العديدة والتجارب الشخصية الطويلة .

ومما نلاحظه من هذا النوع ميل الأطفال إلى اللعب بالماء مثلا — فما مصدر هذا الميل ؟ مصدره أن العناصر المألوفة التى يتعامل معها الطفل هى الأجسام الصلبة ، فهو يمسك تفاحة أو كرة أو مفتاحاً ، فيجد أنه يستقر فى يده . ويمسك بالماء فيجد أنه يزول من يده . وهذه خبرة جديدة أو موضوع جديد يستحق البحث والفحص. ماذا يفعل ؟ يلعب بالماء ،فإذا وجد إناء ماء فإنه يضع يده فيه و يحركها ،وإذا وجد الماء نازلا من صنبور (حنفية) فإنه يحاول أن يمسك به — والطفل كله مرح وسعادة وضحك وهو يحاول أن يمسك بالماء والماء يفلت من يده . فهو فى هذا المعمل الخاص يدرك الفرق بين الأجسام السائلة والأجسام الصلبة . وكان طفل صغير فى الثالثة من عمره يلعب بالرمل والماء فكان يملأ كوزاً من الماء ويصبه فيسيل الماء فى كل مكان، ثم يملأ أكواز الرمل ويصبها فتتكون فى شكل قوالب ، ثم سأل أمه (ليه ياماما الميه ما تتكومش زى الرمل) — سؤال بديع جدا فى الفرق بين الأجسام السائلة والصلبة ، أو فى مبادىء الطبيعة . وهذا بعينه يحدث عند استعمال الطفل للصابون ، وملاحظته لفقاعاته ، واستعمال أنبوبة مفتوحة من طرفها لنفخ هذه الفقاعات وتكبيرها وتصغيرها وتطييرها ، أحياناً فى الظل وأحياناً فى الشمس ، ومشاهدة الألوان المتعددة الناتجة عن انكسارات الضوء فيها . فالطفل إذن يميل بطبيعته إلى اللعب والتجريب الحسى ، وبهذه الطريقة يكسب كثيراً جداً من الخبرة الحسية والمهارة الحركية .

يرى الطفل ساعة والده مثلا ، وهـذه فى نظره جسم مستدير براق غريب ، لاتتاح له فرصة لمسه إلا لحظات صغيرة ، من وقت لآخر . وفى هذه اللحظات التى يسمح له فيها بذلك يلعب بها لعباً مقيداً محدوداً لايكفى لإشباع نفسه . وعقل الطفل وحواسه تتعطش لكسب الخبرة وهضمها كما يتعطش جسمه لتناول الطعام وهضمه[1] فيمسك الساعة و يقلبها بين يديه ، و إتماماً للتجربة قد يقذفها على الأرض ، فإن تهشمت فقد يصيح فرحاً لنجاح التجربة . ولكن سلوك والده إزاء ذلك يكون فى العادة سلوكا غريباً فى نظره ، ففى الحال يقطب الوالد جبينه ، وقد يصيح صيحة الغاضب ، فينهر الطفل أو يضربه . هذا السلوك يثير دهشة الطفل ، و يشعره بأن هذا العالم كله ظلم وقسوة وجور . الطفل أراد أن يمسك الساعة ليفحصها و يفهمها ، وقد قذف بها وتكسرت ، فأدرك خبرة جديدة ، وشعر بقوته ، واشتق من كل هذا لذة كبيرة . فلماذا الانتهار ولماذا الضرب ؟ بطبيعة الحال يضرب الوالد ابنه لأن الساعة ثمينة ، ولكن الطفل لا يدرك شيئاً من هذا . وقيمة الساعة فى نظره قد تساوى ، أولاتساوى قيمة أتفه لعبة من لعبه . ومافعل الطفل هذا ، إلابسبب الدوافع الطبيعية المتدفقة عنده التى تنشط للتعبير عن نفسها ، وترمى إلى الاتصال بالعالم الخارجى وفهمه ، فإذا بهذه الدوافع تقابل بالعقبات الشديدة القاسية . ولكن هذه العقبات لاتقتل ماعند الطفل من دوافع ونزعات ؛ فرغبة الطفل فى لمس الأشياء واللعب بها لاتختفى ، وإنما هو ينفذها مستتراً خائفاً ، ويكون سلوكه إذ ذاك مصحوباً بشىء من الرعونة ، ومن سوء فهم الأشياء وقيمتها ، فيتلف الطفل بذلك أشياء كثيرة . ومن تحليل هذه الأمثلة ندرك أن ما يسمى فى العادة إتلافاً أو تخريباً ، أساسه غالباً حب استطلاع طبيعى ينفذه الطفل بطريقة تجريبية حسية ، و يصحبه غالباً سوء تقدير لقيم الأشياء و بعض الرعونة لعدم اكتمال النمو ، وشىء من الخوف والتستر نتيجة سوء معاملة الوالدين . وتلك القوة التى تدفع الطفل للبحث والتجريب ، والاستطلاع ، والتى يريد الوالد

(١) ذلك لاشباع الحاجة للنمو العقلى والحاجة للنمو الجسمى — راجع موضوع الحاجات النفسية

أن يخمدها — ولن يقوى على إخمادها — هى من أكبر الوسائل التى خلقها الله لصالح الإنسان من حيث نموه وتعلمه وكسبه القدرة على فهم البيئه والتأثير فيهاوحسن التكيف معها .

وكذلك الطفل يرى والده يقوم بحركات بسيطة حين يكتب مثلا ، فيترك آثاراً سوداء على ورق أبيض . وهذه تجربة غريبة بالنسبة للطفل ، فتشتاق نفسه للإمساك بالقلم و إجراء نفس الحركة والنظر إلى النتيجة . إذا تنبه الوالدان لهذا الشوق وأدركا قيمته فإنهما قد يعطيانه ورقا وقلما ليخط ما يشاء ، و إن لم يكن هذا (فلوح إردواز) أو سبورة وأما إذا لم يعط الولد فرصـــة لهذا ، فإنه قد يخطط خفية فى كتب والده ، وكراساته ، و يتلفها أشد إتلاف . أو كما حدث من طفل أعرفه أخذ قطع الفحم . وشوه بها الحيطان والأبواب والأثاث .

وطفل آخر يرى والدته تستعمل المقص ، فهى تقوم بحركات بسيطة تؤدى إلى قطع الأشياء وتمزيقها وهذه أيضاً عملية جذابة للغاية فماذا يفعل الطفل ؟ نفسه تشتاق لإجراء التجربة بنفسه ، فيمسك بالمقص ، فإذا لم يلاحظ و يوجه فقد يقص كتاباً ثميناً أو مجلة محفوظة أو مفرشاً أو ما شابه ذلك . وأما إذا لوحظ ومنع ، فهو فى الغالب يقوم بالعملية سراً . والنتيجة فى الحالتين ونال على الوالدين لما سيحدث من إتلاف ، ووبال على الطفل لما سيلاقيه من عذاب وعقاب . أما إذا عرف الوالدان قيمة هـذا الشوق إلى القص ، وقيمة التجربة الحسية والحركية التى يكسبها الطفل من قيامه به ، فإنهما قد يوجهانه إلى قص الجرائد القديمـة ، أو الخرق البالية إلى أن تشبع نفسه من هذه التجربة الجديدة و يتجه لغيرها من التجارب الطبيعية .

نرى مما تقدم أن ما يسمى فى العادة تخريباً لا يكون مقصوداً لذاته ، وإنما هو يحدث عرضاً فى أثناء النشاط الطبيعى للطفل وهذا النشاط الطبيعى الذى نسميه لعباً ، أو حلا وتركيباً أو استطلاعاً يشبع حاجات نفسية ،ملحة و يحقق غايات حيوية للطفل وهى نموه وتعلمه بمعانيهما الواسعة . غير أن الطفل فى أثناء هذا النشاط ، لا يكون

فى العادة قد استكمل التناسق الحركى أو التوافق العضلى الذى يساعده على تناول الأشياء والفحص عنها دون إتلافها ، ولا يكون كذلك قد أدرك قيم الأشياء على نفس المستوى الذى يدركها عليه الكبار المحيطون به . إذا أدركنا هذا علمنا أن واجبنا هو أن نعطى الأطفال الفرص الكافية لكسب هذا النوع من الخبرة دون أن تظهر مشكلة تعارض القيم التى أشرنا إليها .

بعض الظروف التى تعارض ميل الطفل إلى اللعب

يلاحظ أن سكان المدن الكبيرة أصبحت أغلب بيوتهم وشوارعهم غير صالحة للعب الأطفال ، فقد حدث فى البيوت تطور كبير أساء إلى الأطفال أكثر مما أساء إلى الكبار . فالمنازل كما عهدناها قديماً ، كانت متسعة ، كبيرة الغرف ، كبيرة الأفنية قليلة الأثاث . وكان الأطفال يشعرون فى هذه المنازل بالحرية والمرح . وكانت تكثر فى المنازل الحيوانات والطيور يلعب معها الطفل ، ويتسلى بها ، ويكسب من اتصاله بها خبرات عدة كلها على جانب كبير من الأهمية . وإذا لم يكن بالمنزل فناء فقد كان فى أعلى المنزل سطح متسع . أما فى الوقت الحاضر فقد حلت العمارات فى المدن الكبيرة محل البيوت المعروفة . وأصبح المسكن الحديث عبارة عن أربع غرف تقريباً ، وكل غرفة منها مزدحمة بالأثاث القابل للكسر ، وغير القابل للمس أو النقل ، ووجد فوق ذلك عشرات الأدوات البراقة الجذابة التى يسهل كسرها ولا يجوز للطفل لمسها ، وليس للطفل عادة مكان للعب أو الحركة ، فإن دخل غرفة ما فهو مقيد مراقب ، وإذا تسلق كرسياً ضُرب ، وإذا أمسك بزهرية مُنع . وهكذا أصبح الطفل فى المدن الكبيرة ، يعيش فى جو لا يمت للطفولة بصلة . وبعبارة أخرى أصبح الطفل غريباً فى منزله ، وأصبح ضيفاً ثقيلا على أمه وأبيه . وزيادة على ماتقدم فالطفل لا يمكنه أن ينزل إلى الشارع فهو صاخب بالحركة ملىء بالخطر ، ولا يمكنه أن يذهب إلى أعلى العمارة فهو ملىء بالخدم ولا يؤمن عليه معهم .

فيجب على الأقل أن تخصص كل أسرة غرفة للطفل ، أو على الأقل ركناً للأطفال يفعلون فيه ما يشاءون من لعب وحركة وتجريب وتخريب وتمثيل ... وغير ذلك. ويعود الأطفال أن يستعملوا لهذه الأغراض غرفتهم دون أى جزء آخر من المنزل، ويزود الأطفال فى غرفتهم بما يناسب سنهم من أدوات النشاط ، فيعطون الجرائد والمجلات القديمة ، ليقصوها فى شكل زخارف ، أو لقص صورها ولصقها فى شكل مجموعات . ويعطون سبورة وطباشير وصلصالا ، وصندوقا خشبياً مملوءاً بالرمل النظيف وبضعة مكعبات وبعض العلب الفارغة ، وغير ذلك مما لا يكلف كثيراً ويساعد على خلق مجال كبير لنشاط لذيذ منتج واسع المدى . وإذا انشغل الأطفال بنشاط لذيذ يلائم سنهم وقواهم العقلية والجسمية كانوا أقرب إلى الهدوء منهم إلى القلق والغوغاء. وأمكن الآباء إذ ذاك أن يتحملوهم ، بل يشاركوهم نشاطهم .

إزاء هذا التغير فى طرق المعيشة يتحتم العمل الجدى على إقامة منشآت للأطفال حيث يتمكنون من تصريف نشاطهم تصريفاً مفيداً لنموهم وشعورهم بالسعادة . ولهذا قطعت الأمم الأوربية أشواطاً بعيدة فى تنظيم الحدائق العامة للأطفال وتزويدها بكل ما يهيىء للنشاط المنظم المفيد[1]. وقطع بعضها أشواطاً بعيدة كذلك فى إنشاء أندية خاصة للأطفال ودور للحضانة . ومما يجعل إنشاء مثل هذه المؤسسات ضرورياً تحديد النسل وقلة عدد الأطفال تبعاً لذلك فى الأسرة الواحدة وشعور الأطفال بالحاجة الملحة للعب مع أطفال آخرين وكذلك انشغال الأم الحديثة بالعمل إما داخل المنزل أو خارجه ، وعدم صلاحية المساكن الحديثة لنشاط الأطفال بحال من الأحوال .

عوامل التخريب

عرفنا مما تقدم الأسباب العادية المباشرة والظروف العامة التى يمكن أن يعزى

(١) أثبت الأستاذ بيرت فى كتابه The Young Delinquent أن جرائم الأحداث فى لندن تزيد حيث تقل مساحات الحدائق العامة التى يسمح للأطفال فيها باللعب ، وتكثر حيث تقل مساحات هذه الحدائق .

إليها الإتلاف على وجه العموم ، وتفيدنا معرفتها فى دراسة الحالات الفردية . ولكنا عند دراستنا لطفل مخرب ، كثيراً ما نجد أن التخريب ناشىء من زيادة النشاط الجسمى زيادة بارزة ، مع عدم توافر المسالك المنظمة لتصريف هذا النشاط . ففى بعض الحالات نجد اختلالا فى الغدة الدرقية أو فى الغدة النخامية . مثال ذلك حالة كان الولد فيها نامياً جداً وعنده جميع أعراض زيادة النشاط فى بعض إفرازات النخامية . بالإضافة إلى هذا كان متأخر الذكاء جداً . ومعنى ذلك أن جسمه ونشاطه فى مستوى جسم ونشاط ولد كبير السن لا يقل عمره عن عشرين سنة بينما عقله فى مستوى عقل طفل عمره عشر سنوات . فلم يكن له من الذكاء مايعينه على توجيه نشاطه توجيها يتفق ومظهره . كان مخربا جداً إذ أتلف كثيراً من أثاث المنزل الفاخر . وكان كثير التخريب والتكسير للأدوات الدقيقة الموجودة فى المنزل . وفى حالة أخرى كان الولد متأخراً فى ذكائه ، إذ أنه كان فى الثانية عشرة من العمر ، وذكاؤه كان فى مستوى ذكاء ولد عادى عمره أربع سنوات وكان الولد موفور النشاط نحيف الجسم حاد التقاطيع ، له عينان براقتان غير مستقرتين فى محجريهما . ولما أجرى عليه اختبار (Basal Metabolism Test) وجد مايدل على ازدياد نشاط غدته الدرقية وكان الولد شديد التخريب إلى حد يصعب تصوره . وسبب ذلك أن لديه نشاطاً كبيراً لايتمكن مع ضعف عقله من حسن استغلاله . ومما زاد الحالة سوءاً أن الأسرة تعيش فى مسكن ضيق مملوء بالأثاث الفاخر فى جهة مزدحمة جداً بالمبانى المتراصة بعضها بجوار بعض . والجهة خالية من الحدائق العامة التى يصرف فيها الأطفال كثيراً من نشاطهم . وقد لاحظنا أن أغلب المتأخرين جداً فى الذكاء إذا كانوا نشطين فإنهم يكونون عاده مخربين ، لاسيما إذا كانوا من أسرة متوسطة أو غنية ، وإذا كانوا يقطنون معهم فى المدينة .

نلاحظ كذلك فى بعض الأحيان كثرة حوادث الإتلاف من الخدم وهم فى دور المراهقة ، حيث يزداد نشاطهم العام بنشاط غددهم الجنسية ، ويزداد نموهم ويتميز

دور المراهقة كما قلنا ، ببعض الرعونة فى الحركة وبعض النقص فى التناسق الحركى وتكثر الحوادث فى المراهقين بنوع خاص إذا كانوا أقل ذكاء من العاديين .

فمن الواجبات الأولى عند فحصنا حالات التخريب الشاذة أن ندرس ما يمكن أن يكون هناك من الأسباب الجسمانية التى يصح أن يترتب عليها تهيج عام . هذا التهيج أو العصبية أو نفاذ الصبر . . أو ما إلى ذلك قد يكون نتيجة مباشرة للحالة الجسمية أو نتيجة غير مباشرة لها . فضعف الحيلة الناشىء عن قصور جسمى قد تنشأ عنه نزعات هدمية تخريبية .

وقد يظهر التخريب نتيجة لعوامل انفعالية مكبوتة ، كما تظهر الأعراض العصبية المعروفة ، كقضم الأظافر ، أو التبول اللا إرادى ، أو ما إلى ذلك . فأحياناً نجد واحداً أو أكثر من العوامل الآتية وهى : الغيرة أو كراهية السلطة الضاغطة غير المعقولة ، أو الشعور بالنقص أو غير ذلك . وبذلك يصبح التخريب مظهراً من مظاهر الانتقام أو إثبات الذات .

ومن أمثلة ذلك حالة لبنت فى سن السابعة كانت مخربة جداً ، فكانت تفتح صنابير الحديقة حتى تغرقها إغراقا . وكانت أحياناً تقطع الأزهار فى الحديقة — وهى كبيرة — من أولها إلى آخرها . وتتلف الزرع إتلافا واضحاً . وقد خدشت ظاهر البيانو بقطعة من الصفيح . هذه كلها لا تخرج عن كونها نماذج لسلوكها . وكانت لها فوق ذلك مشكلات أخرى سبق أن أشرنا إليها .

والبنت تعيش بمنزل خالتها التى تزوجت بجدها لأبيها ، وليس للجد والخالة أطفال . فتعلقت الخالة بالبنت وأحبتها وأخذتها من أمها . فيحتمل أن يكون التخريب أسلوباً لاشعوريا للانتقام من الخالة بإتلاف ممتلكاتها ، ويحتمل أن يكون مظهراً لعصبيتها وتضايقها لفصلها عن إخوتها ، ولأنها تعيش فى جو غير طبيعى بالنسبة لها ، إذ هو خال من الأطفال ، بعيد عن والديها . ويحتمل أن يكون السببان مجتمعين هما اللذان يرجع إليهما هذا السلوك (حالة ص ٢٨٧) .

وكثيراً مايحدث التخريب بصورة عامة فيتجه لممتلكات الشخص أوممتلكات غيره بدون أى تفرقة ، أو يحدث بعد تحويل الانفعال المصاحب له أن تجد تلميذاً يخرب ممتلكات إخوته فى البيت بعد عودته من المدرسة التى كانت تضيق عليه طول النهار . وكثيراً ما نجد تلاميذ يخربون فى المدرسة مثلا ، وبالبحث نجد أنهم تعساء فى المنزل إما لعدم التوافق بين الوالدين ، أو لعدم وجود الأم بسبب الوفاة أو الطلاق ، أو لسوء المعاملة التى يلقاها فى المنزل ، أو ما شابه ذلك .

ولتوضيح ما تقدم نلخص إحدى حالات الدكتور توم[1] ، وهى لبنت كانت فى العاشرة من عمرها . حالتها الصحية جيدة ومستوى ذكائها وتحصيلها فوق المتوسط ، وسلوكها فى المدرسة حميد . وقد أرسلت له بسبب ميلها الشديد إلى التخريب والعناد ؛ ففى أثناء الشتاء تفتح صنابير المياه الباردة فى خزان المياه الساخنة ، أو تفرغ الخزان مما به من مياه ساخنة ، وأتلفت البيانو ، وكسرت ألواحا (أسطوانات) موسيقية ثمينة ثم أخفتها ، وكانت تعبث بكل مافى المنزل من أثاث وتعبث بالمنزل نفسه فتخرب حيطانه وأنابيب مياهه . . إلى غير ذلك . وبدراستها وجد أنها البنت الكبرى لخمسة إخوة ولم يظهر سلوكها بهذه الصورة إلا بعد وفاة أمها . والوالد رجل مشغول جداً فى عمله ، وقد حاول بكل مافى وسعه أن يهيىء أسباب الراحة لأولاده بعد وفاة زوجته . ولكن يلاحظ أن الزوجة كانت قد بذلت جهداً كبيراً حتى تمكن الوالد من توفير المال اللازم لبناء البيت وتأثيثه . فكانت تعمل بنفسها حتى تستغنى عن الخدم ، وكانت تحرم نفسها من الغذاء والملبس ، ومن شراء الدواء حتى تدخر شيئاً من المال لبناء البيت . وبعد أن بنى البيت كانت قد مرضت اشتد عليها المرض ، وما انتهى الوالدان من تأثيثه حتى ماتت الأم .

وكانت الأم تبالغ فى تضحيتها لدرجة جعلت الأولاد يشعرون بجسامة هذه التضحية ، وأصبح البيت بعد وفاة الأم مرتبطاً فى ذهن البنت بفقد والدتها . فكأن

(١) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child, p. 185

البنت بسلوكها كانت تنتقم من البيت الذى تكرهه كراهيـــة مكبوتة ، ويدعم ذلك الاستنتاج اقتصار سوء سلوكها على المنزل دون المدرسة .

كانت هذه إحدى الحالات التى بذل فيها المعالج جهداً كبيراً ، ولكنه لم ينجح لعدم تمكن الوالد من تنفيذ جميع التعليمات التى أعطى إياها . ونعتقد أن نجاح الحالة كان ممكناً لو أن الدكتور توم لجأ إلى طريقة التحليل النفسى ، وهى طريقة لا تتفق مع مبادىء المدرســة التى ينتمى هو إليها . ومن حالات محكمة الأحداث التى قمت بدراستها بضع حالات من هذا النوع نجد فيها مثلا أن الأم قد ماتت أو مرضت فتزوج الأب بغيرها ، فيقوم الحدث بمحاولة إحراق المنزل ، أو بإتلاف بعض الأشياء ولاسيما ما تملكه زوجة الأب . وهذا النوع من السلوك كان يصدر غالباً من الفتيات ، كما فى حالة الدكتور توم السابقة الذكر . ولعل الانفعال الأساسى غيرة مكبوتة .

التدمير وعقاب الذات

رأينا فيما تقدم أن التخريب يمكن أن يكون عرضياً أثنـاء لعب الأطفال وحركتهم وكشفهم للعالم المـادى وكسبهم المهارات الحركية المختلفة ، ويمكن كذلك أن يكون مقصوداً للتجر أو للانتقام . وتكون دوافعه أحياناً شعورية وأحياناً لاشعورية . ويلخص بعض علماء النفس هـذه الاتجاهات فى أن التخريب يكون للمخاطرة والبحث عن الخبرة ، ويحدث أحياناً أن يكون التخريب بدافع لاشعورى نحو الانتقام ، وفى هذه الحالة يترتب عليه شعور باللذة والارتياح .

وهناك اتجاه ثالث لم نشر إليـه وهو التدمـير الذى يتجه للذات أو لممتلكاتها أو ماشابه ذلك . فيلاحظ أن بعض الناس يقطعون كراساتهم ، ويتلفون ملابسهم . كأنهم يفعلون ذلك عمداً ، ويصل بعضهم إلى عض أصابعهم لدرجة الإدماء ، وأكل المواد الحريفة بكثرة كأنما يعذبون أنفسهم . فهناك ميـل عند بعض الأشخاص إلى تعذيب الذات أو عقابها يبدو فى مظاهر متعددة منها ماذكرناه ، ومنها تبديد الممتلكات

وتبديد النقود والإسراف الشديد . ومنها ركوب المخاطرات بصورة لايمكن أن ينجو الواحد منها إلاعن طريق الصدفة ، كالإسراع الشديد بالعربات والدراجات ، وفى عبور الشوارع وما إلى ذلك ، ومنها تعذيب الجسم ومجاهـــدة النفس ، ومنها الانتحار نفسه أحياناً .

هذا الميل إلى تعذيب الذات يكون — كما قلنا — من بين أعراضه إتلاف الممتلكات . ومنشؤه إما شعور مكبوت بالخطيئة ، أو كراهية للذات . وتنشأ الكراهية للذات عادة من كراهية السلطة . وهذه الكراهية للسلطة لا يمكن عادة مواجهتها والتعبير عنها ، فيعكسها الشخص على نفسه فيكره نفسه ويقضى عليها إما قضاء جزئياً أو قضاء تاما .

لهذا نرى أن التخريب يكون أحياناً من مظاهر النزعات الاعتدائية الموجهة ضد الغير أو ضد الذات ويكون خارجا عن إرادة الشخص خروجا يكاد أحياناً يكون تاماً .

ونلخص كل ما تقدم فى أن التخريب فى حالاته العرضية والمقصودة قد يكون لكسب المهارة وكسب الخبرة المصحوبين بسوء تقدير القيم وبانعدام التوافق الحركى ، وقد يكون لكسب اللذة ، وقد يكون للبحث عن الألم . وهذا البحث عن الألم لا شعورى خارج عن تحكم الإرادة . ويلاحظ أن العنصر اللاشعورى ليس هو الألم نفسه ، وإنما هو الرغبة فى إيلام الذات . ونرى بذلك أيضاً أن كثيراً مما قيل فى التدمير يمكن أن يضم إلى الفصل السابق الذى يبحث فى النزعة للاعتداء .

خاتمـــة

يتبين مما تقدم أن التخريب فى ذاته لا يهمنا كثيراً فهو لا يخرج عن كونه عرضاً لعلة أخرى . وإنما المهم هو الدوافع ومصادر النشاط التى تؤدى إلى ظهوره ووظيفة هذا النشاط . فإذا تبينا أن مصدره الثورة على البيئة فعلينا بإزالة أسباب هذه

الثورة من أسامها فى كل من البيئة والشخص . و إن كان مصدره الميل للمعرفة فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة تفيد الطفل ، ولا تتعارض مع رغبتنا فى المحافظة على ماتملك. و إذا تبينا أن مصدره ازدياد النشاط الجسمى ، وعدم تكافئه مع المستوى العقلى ، فعلينا أن نشغل الشخص فى عمل يحتاج إلى جهد جسمى أكثر مما يحتاج إلى جهد عقلى . وعلينا أن نذكر الآباء بأنهم فى محاولة جعل أولادهم هادئين ساكنين قليلى الحركة ، قد يسلبونهم مفاتيح المعرفة ، وأساليب التعلم ، ويسلبونهم وسائل إنماء روح العمل .

فيجب أن يقوم الآباء بإعطاء أبنائهم — كما ذكرنا — فرصة النشاط المنتج . وبذلك ينمو تناسقهم الحركى ، وينمو فهمهم للعالم المحيط بهم ، ويزيد استقرارهم ، ويقل تخريبهم ، ويزيد إنتاجهم . ويجب أن يفكروا ملياً قبل اختيار اللعب لأطفالهم . وخير الألعاب هى ألعاب الحل والتركيب التى تختار لتناسب السن . وكثير من اللعب الخاصة بالحل والتركيب التى تباع فى الأسواق تلائم الكبار أكثر مما تلائم الأطفال . وأما اللعب الميكانيكية فهى لا تسمح عادة للطفل بنشاط كاف إلا إن خربها . واللعب الميكانيكية يفرض فيها عادة إدارتها ، ثم تركها تجرى ، والتفرج عليها . وعملية التفرج ولو أنها ليست فى نظر علماء النفس سلبية صرفة ، إلا أنها أقل فى الإيجابية من عملية النشاط التى تبرز فيها فاعلية الطفل . فلتكن اللعب إذن على وجه العموم مما يسمح بحركة الطفل ونشاطه وفاعليته على مدى واسع يتوافر فيه الإنتاج المحسوس .

ومن الخطأ أن يوضع تحت تصرف الطفل لعب كثيرة . فهذا يقلل من قيمتها ويزهده فيها بسرعة ،ويجعله مهملا فى استعماله إياها . فإذا كثر عدد اللعب ، فيصح أن يعطى لعبة أو اثنتين فى الوقت الواحد ، وأما الباقى فيحفظ . ويصح أن يستبدل بما معه ماهو محفوظ ثم يعود إليه مرة أخرى إن شاء . وبذلك تحتفظ اللعبة باشتياق الطفل إليها . ويلاحظ أن للطفل عادة فى اللعبة الواحدة فى كل مرة وجهة نظر جديدة

ولا سيما إذا تباعدت الفترات التى تعطى له فيها .

وإذ لوحظ فى بعض الأطفال ميل إلى الألعاب العنيفة فيجب إعطاؤهم كل فرصة لهذا حتى يمكن دراستهم عن طريقها ويمكن توجيههم توجيهاً منتجاً ، وحتى يقل — نوعا ما — ضغط الدوافع وحالات التوتر التى تجعل هذا العنف ملحاً فى غير الوقت المناسب .

المراجع

Blanon: Child Guidance.

S. Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson: Motives of Conduct in Children.

Kanner: Child Psychiatry.

Lane: Talks to Parents and Teachers.

Miller: Advances in Understanding the Child.

Miller: The Growing Child and its Problems.

Neill: The Problem Child.

Patri: Child Training

Russell: On Education.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثالث والعشرون

الغـــــيرة

معنى الغيرة

سبق أن أشرنا إلى الغيرة كأحد العوامل الهامة فى كثير من المشكلات ، فذكرناها عند التكلم عن التخريب ونوبات الغضب والنزعات الاعتدائية والتبول اللا إرادى وضعف الثقة بالنفس ... وغير ذلك . والغيرة كما نعلم ليست سلوكا ظاهرياً ، وإنما هى حالة انفعالية يشعر بها الفرد ، ولها مظاهر خارجية يمكن الاستدلال منها أحياناً على الشعور الداخلى ، وفى غالب الأحيان لا يكون هذا سهلا ، لأن الشخص فى العادة يحاول أن يخفى الغيرة بإخفاء مظاهرها قدر جهده .

ولعل كل واحد قد شعر فى وقت ما بالغيرة شعوراً خفيفاً أو حاداً . وهناك أناس يتعرضون لهذا الشعور أكثر من غيرهم . وهو شعور مؤلم ينتج عادة من خيبة الشخص فى الحصول على أمر محبوب ، كشخص أو مركز أو قوة أو مال ، ونجاح شخص آخر فى الحصول عليه . لهذا نجد أن انفعال الغيرة انفعال مركب من حب تملك ، وشعور بالغضب لأن عائقاً ما وقف دون تحقيق غاية هامة . ولا يعترف الفرد عادة بالغيرة ، وسبب هذا ما تتضمنه من الشعور بالنقص الناتج من الإخفاق . بل كثيراً ما تكبت الغيرة لأن النفس الشعورية لا تقبل ألم الخيبة ولا شعور النقص .

إذا طبقنا ما تقدم على الغيرة فى موقف ما كغيرة زميل من آخر تفوق عليه ، نجد أن من يشعر بالغيرة يشعر بعدم حيازته ، أو بعدم قدرته على حيازة المركز الذى ناله زميله ، ويكون مع شعوره بالخيبة والضعة شاعراً بالغيظ إما من نفسه ، أو من زميله ، أو منهما معاً . ويكون عنده شوق ، وإن كان خفياً ، للحصول على ما نال

الزميل ، ويقوم الشخص الغيران عادة باتهام الزميل أو اتهام الظروف أو اتهام سوء الطالع ... أو ما إلى ذلك .

والغيرة نشعر بها عادة دفعة واحدة ، فهى انفعال مركب له خصائصه ، وهو ليس مجموعاً حسابياً للانفعالات الثلاثة التى ذكرناها، مثل الغيرة فى ذلك مثل المثلث الذى لا يمكن أن يوصف بأنه مجموع ثلاثة مستقيمات ، ومجموع زاويتين قائمتين وإنما هو مثلث به صفة المثلثية ، وهى صفة ليست موجودة فى المستقيمات ، ولا فى الزوايا .

كذلك انفعال الغيرة لا يعتبر أنه غضب مضاف إليه حب تملك ومضاف إلى هذين شعور بالنقص ، وإنما هو أكثر من ذلك . هذا مع إمكان ذكر بعض عناصره كما فى حالة المثلث .

ونظراً لتعقد الغيرة نجد أن مظاهرها متعددة يختلف بعضها عن بعض اختلافات بينة ، ولكنها مع اختلافها يفصح كل منها عن مركب من مركبات الغيرة . فمن مظاهر الغيرة الغضب بمظاهره المختلفة من ضرب ، أو سب ، أو هجاء ، أو تشهير ، أو نقد ، أو مضايقة ، أو تخريب ، أو ثورة ، أو عصيان ، أو ما شابه ذلك . ومن مظاهرها كذلك الميل للصمت ، أو التجهم ، أو الابتعاد . أو الانزواء ، أو الإضراب عن الأكل ، أو فقد الشهية ، أو التسليم ، أو النكوص ، أو بالشعور بالخجل ، أو شدة الحساسية . إلى غير ذلك من مظاهر الشعور بالنقص . وقد تبدو الغيرة فى محاولة الطفل الحصول على ما فقده بمختلف أساليب التحايل . ومن هذا النوع أن يقوم الأولاد أحيانا بتقبيل المولود وملاطفته حتى يحتفظ بمركزه عند أمه . وبعض الأولاد يتخلقون بأحسن الخلق حتى يرضوا الكبار الذين بدأوا ينصرفون عنهم أو يميلون لغيرهم . وقد يكون السلوك تعويضاً للشعور بالنقص، وذلك بمحاولة الظهور بمختلف الأساليب . وكثيراً ما يكون للغيرة مظاهر جسمانية ، كنقص الوزن والصداع والشعور بالتعب . وهذا التنوع الكبير فى أساليب الغيرة من سلوك سلبى إلى إيجابى ، ومن سلوك ردىء إلى سلوك طيب ، يجعل كشف الغيرة أمراً صعباً . ومما يزيد صعوبة

كشف الغيرة كبتها أو تحويلها . فمظاهر الغيرة بدل أن تتجه نحو المولود ، قد تتجه نحو أى شيء فى المنزل . ومن الحالات التى ذكرها الدكتور توم فى كتابه الذى أشرنا إليه أن بنتاً مرضت لها أخت فانصرفت الأم عن بقية من فى المنزل إلى الأخت ، فقامت البنت بعمليات تخريب عنيفة موجهة نحو حديقة المنزل وأثاثه دون أن يشعر بها أحد .

الغـــيرة والثقة

ويلاحظ أن كل حالة غيرة تتضمن درجة من ضعف ثقة المرء من حيث مركزه فى البيئة ، ويعبر عن هذا بطريقة أخرى ، وهى ضعف ثقة المرء بالبيئة . لنأخذ غيرة الأزواج كمثال ، فإن كان أحد الزوجين على ثقة تامة بالآخر ، فإن احتمال ظهور الغيرة يكون قليلا . ونجد أن الموقف الواحد يؤدى مع بعض الأزواج إلى غيرة شديدة ومع بعضهم الآخر إلى غيرة خفيفة ، أو إلى لاشيء ، فكأن نوعاً من الخوف الاجتماعى أو من قلة الثقة بين الطفل و بين من حوله يكون عاملا مساعداً على ظهور الغيرة فى الموقف المناسب . وهذا بعينه ينطبق على جميع أنواع العلاقات بين الأطفال والكبار مثلا ، أو بين الرؤساء ومرءوسيهم ، أو بين الأفراد والحكومات ... أو غير ذلك . فالنقص الناشيء من موقف الغير نحو الشخص وضعف الثقة بالنفس ، الذى يمكن إرجاعه آخر الأمر عادة إما لنقص ذاتى أو لخيبة متكررة أو لموقف الغير نحو الشخص ، تجعله فى العادة مهيئاً للشعور بالغيرة عند اجتماع الظروف الكافية لذلك .

وأقسى أنواع الغيرة هو ما ينشأ عن شعور بالنقص مصحوب بشعور بعدم إمكان التغلب عليه ، كنقص فى الجمال أو نقص فى القدرة الجسمية أو الحسية أو العقلية . لهذا نجد أن المعرضين للغيرة معرضون للشعور بالنقص ، والمعرضون للشعور بالنقص معرضون أيضاً للشعور الشديد بالغيرة . وتكوّن كل من الغيرة والشعور بالنقص حلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل جزء منها فى الآخر .

كيف تنشأ الغيرة

لعل أهم أسباب الغيرة أن يشعر الشخص بحقه فى امتياز معين (اجتماعى فى العادة) ، أو أن يحصل عليه بالفعل ، ثم يفقده كله ، أو يفقد جزءاً منه ، ليحصل عليه شخص آخر . فالذى يشعر بأنه يستحق شهرة معينة ، ولا يحصل هو عليها ، وإنما يتمتع بها شخص آخر — يشعر بالغيرة . والذى يريد أن يكسب جاهاً معيناً بالمال أو بغيره و يناله آخر يشعر كذلك عادة بالغيرة . والاستعداد للغيرة فى الكبار ينشأ فى سنى الطفولة الأولى . وتظهر الغيرة فى حياة صغار الأطفال فى سنواتهم الخمس الأولى عن طريق المصادفة ، أو عن طريق التنشيط المقصود من الكبار المهيمنين عليهم .

و يلاحظ أن الطفل فى أول حياته تجاب له عادة كل طلباته ، و يسترعى فى العادة انتباه الجميع ، و يسلم بعد مدة قصيرة ، بأن كل شىء له ، وكل جهد له ، وكل انتباه له . ولكن الذى يحدث هو أن العناية التى كانت تستغرق كل جهد الكبار قد تنحسر عنه فجأة أو بالتدريج كلما نما . وقد تتجه هذه العناية إلى مولود آخر أو إلى شخص آخر فى الأسرة . هذا التغير قد يترتب عليه فقد الطفل ثقته فى بيئته ولا سيما فى أمه ، وفقده الثقة فى نفسه تبعاً لذلك ، إذ يشعر بأنه غير مرغوب فيه . و بذلك يبدأ شعوره بالقلق ، وشعوره بالكراهية لبيئته ، والميل للانتقام منها أو الابتعاد عنها ، أو شعوره بالنزوع إلى سلوك يترتب عليه جلب العناية إليه مرة أخرى ، كالبكاء ، أو التبول اللا إرادى ، أو المرض .

وكلما كبرت الامتيازات التى تعطى لطفل ما ، زادت الغيرة عند إنقاصها منه و إعطائها لطفل آخر . ولذلك كان الطفل الذى يتمتع بامتياز معين ، هو أكثر الناس استعداداً للشعور بالغيرة ، وذلك كالطفل الأول أو الأخير أو الوحيد ، أو الذكر الأول أو من شابه ذلك من الأطفال الذين يحتلون مركزاً يعطيهم فرصة التمتع بامتياز واضح .

كذلك يغار الطفل أحياناً إذا وجهت الأم إلى والده عناية فائقة . وذلك لأن الطفل فى سنواته الأولى كان يتمتع — كما يبدو له — بعناية أمه كلها ، ثم يلحظ أن الوالد يأخذ كثيراً من هذه العناية ، فتبدو عليه علامات الغيرة، واضحة أو غير واضحة . ويحدث أحياناً أن يتغيب الوالد عن المنزل مدة طويلة ، وبمجرد عودته تنصرف الأم إليه بكلياتها وجزئياتها فيغار الطفل . والغيرة من الأب سببها أنه ينازع الطفل المركز الذى يرغب فيه لنفسه عند الأم . والسبب فى أن غيرة الأخ من أخيه أكثر ظهوراً من غيرته من أبيه يرجع إلى الكبت الناشىء عن التقاليد الاجتماعية ، والصراع بين حب الوالد (الذى يطعم ويكسو) من ناحية ، والغيرة منه من ناحية أخرى . ويمكن أن تدخل الغيرة من الوالد تحت النوع الناتج عن الشعور بالنقص المصحوب بشعور بعدم إمكان التغلب عليه .

وتدل دراسة الحالات على أن كثيراً من الحالات الشاذة التى تتصف بالقلق والاضطراب الجنسى والتعرض للغيرة الحادة يرجع ما بها من اضطراب إلى الغيرة مما يلمسونه من المواقف الجنسية بين الوالدين . وهذا يحدث بنوع خاص عند الأطفال الذين ينامون مع أمهاتهم ، والذين يلحظون أحياناً ما يحدث بين الوالدين من مغازلة أو اتصال جنسى يعتقد الوالدان أنهما غير ملحوظين فيه ، لأن الأطفال عادة يتغافلون أو يتناومون فى هذه المناسبات .

وتحدث الغيرة كذلك من الموازنة الصريحة أو الضمنية ، ونقصد بالضمنية أن الجو نفسه يوحى بالموازنة ، وبتفضيل واحد على الآخر . تؤدى هذه الموازنات سواء فى المنزل أو فى المدرسة إلى الإشعار بالنقص ، وإضعاف الثقة بالنفس لدرجة تجعل الشخص عرضة لهذا الشعور . وتقوم الموازنات عادة حول جمال الخلقة أو القدرة العقلية أو القدرة الاجتماعية ، أو ما إلى ذلك مما قد لا يجد الطفل لنفسه حيلة فى التغلب عليه .

بعض الحالات

حالة لطفل وحيد سبق أن أشرنا إليها فى (ص ٣٠٢) ، حدث مرة أن كان واقفاً بجانب أمه وزارهم بعض الضيوف ، فحملت الأم ابنتهم لتقبلها ، فما كان منه إلا أن صرخ ، وشد ملابسها ، فحملته فتبول عليها فى الحال . والتبول هنا يحتمل أن يكون انتقاماً للغيرة تم غالباً بحيلة لا شعورية .

وحالة أخرى لبنت فى السادسة والنصف ، ظلت الوحيدة مدة خمس سنوات ، ثم ولد لأبويها طفل ذكر . والأب رجل هادىء يدلل البنت تدليلا شديداً ، وأما الأم فإنها سيدة ضعيفة لا سلطة لها على أولادها ، وهى تترك أغلب العناية بأولادها للوالد ، وحالتها العصبية سيئة . تتصف البنت بشدة الحساسية ، وتشتت فى الانتباه ، وتأخر فى الدراسة على الرغم من ارتفاع ذكائها ، وهى تحلم بالليل أحلاما مزعجة بصوت مرتفع ، وتدور أغلب أحلامها حول أخيها ، ويصفونها بالغيرة والحقد فى المدرسة والمنزل . ومن المحتمل جداً أن يكون أساس مشكلة البنت غيرتها من أخيها .

وحالة أخرى لطالب فى الدراسة العليا عمره أربع وعشرون سنة لا ينجح فى كل عام إلا فى امتحان الدور الثانى ، وشعر فى إحدى المرات بتوعك قبل الامتحان ، فقرر ألا يدخله . يلاحظ أن المرض هنا ربما كان حيلة دفاعية من حيل اللاشعور وظيفتها حمايته من دخول الامتحان . وقد نجح جميع من دخلوا الامتحان إذ ذاك فتألم الطالب جداً ، ولم يقو على مقابلة من تقدموا عليه ، وظهر عليه بعد ذلك عدم الاهتمام بالدراسة ، ولم يذهب إلى كليته ، وظل شغله الشاغل أن يردد : « وما قيمة التعليم ؟ » ، « إن زملائى أصبحوا أحسن منى ؟ » ، وأصبح شديد التبرم والحنق ، شديد الاحتقار للناس أجمعين ، يعلن أن معاشرة الناس لا قيمة لها لسوء خلقهم ، وانحطاط عقلياتهم . وخير له أن يبتعد عمن يعرفهم ، ويعيش بمفرده بعيداً عن هذا

العالم . يلاحظ من هذا أنه يسقط شعوره بالخيبة على الناس ، أما هو فإنه أرق الناس جميعاً ، وأحسن منهم عقلا وخلقاً ، وهم لا يستحقون معاشرته إياهم . وحتى التعليم نفسه لا قيمة له . فهو لا ينسب انعدام القيمة لنفسه ، وإنما ينسبه للتعليم ، وهذا أيضاً إسقاط . ثم أصبح كثير التدين ، يكثر من الذهاب إلى مسجد سيدنا الحسين ، ويطلب أن تقرأ عليه الأوراد المختلفة ، ولعل فى تدينه بحثاً عن الشعور بالطمأنينة الذى لا يشعر به فى حياته الواقعية وفى علاقته بعالم الناس والعمل . وهذا الطالب هو الابن الوحيد لوالديه ، ويحب دائماً أن يكون قريباً من أمه ، إلى حد أنه يقضى وقته دائماً معها ، ولا يتركها إلا قليلا . وإذا جاءهم ضيوف فهو لا يجالسهم ، وإنما يلازم أمه إلا إذا اضطرت لمقابلة الضيوف ، وفى هذه الحالة ينتظرها على مضض إلى أن تفرغ منهم .

وبعد حادثة الملحق التى أشرنا إليها ترك (البنسيون) الذى كان يسكنه فى القاهرة ، واستأجر (شقة) واستحضر معه أمه وأباه ليعيشا معه فى القاهرة . وبذلك تركا مصالحهما وتكبدا نفقات إضافية باهظة ، ومع كل ذلك لم يقو على الذهاب إلى كليته . وفى مرة جلس معه أبوه يرجوه ، ويتوسل إليه أن يذهب إلى الكلية ، والولد يقول إنه لا يقوى على مواجهة من نجحوا وكانوا معه ، وأخيراً بكى الولد وترك المنزل ، وبكى الوالد وظل يبكى زمناً طويلا .

يعتقد الوالدان أن « عين السوء » قد أصابت نجلهما . معنى ذلك أن ابنهما كامل من كل ناحية و « عين السوء » هى المسئولة عن ما هو فيه ، مما يترتب عليه أن الولد ينسج حول نفسه فكرة عظيمة جداً ، ويتهم كل من حوله بسوء النية وسوء الخلق . وبلغ من شدة اعتقادهما فى الخرافات أن التف حولهما نصاب يدعى أنه يحول النحاس إلى ذهب ، وباعوا فى هذا السبيل أربعة أفدنة من عقارهم الذى لا يتجاوز أربعة وعشرين فداناً فى مجموعه .

وهناك حالة أخرى شبيهة بالحالة السابقة كان الولد فيها شبيهاً بالوحيد ، إذ أنه

كان الذكر الأول ، و بعده عدة بنات وعدة وفيات ثم ولد . وكان الوالد يشتغل بحرفة تدر مالا كثيراً ، إلا أن المجتمع لاينظر إليها نظرته إلى حرفة راقية ، وكانت الأم تشعر لهذا بالنقص . ثم أرادت أن تربى ابنها فى المدارس العادية ، وكانت مشغوفة بأن يعوض لها فى نظرها النقص الذى تراه فى زوجها . صحب هذا احتقارها واحتقار الولد بعد نموه للوالد . نشأ الولد مدللا معظما محترما ، وكان إذا رسب فى امتحان بالمدرسة تعتقد الأم أن المدرسين يقصدون رسوبه ، وكانت تعلن هذا وتعلن أمثاله من التصريحات حول زملائه فى اللعب ، وزملائه فى المدرسة ، وبذلك نشأ الولد وعنده فكرة عظيمة جداً عن نفسه . ولم يقطع فى تعليمه إلا سنتين من التعليم الثانوى ، واشترك بعد ذلك اشتراكا مشرفاً فى عمل من الأعمال الوطنية . وعزا كل خيبته بعد ذلك إلى تضحيته فى سبيل الوطن . وبذلك زادت فكرته عن نفسه عظمة على الرغم من خيبته فى الدراسة التى لم يحاول إعادة مواصلتها . بعد ذلك شغل وظيفة حكومية ولكنه كان يقضى كل وقته فى محاربة المؤامرات التى يتوهم أن أغلب زملائه يدبرونها ضده . وظل طول حياته متألماً أشد الألم كلما رأى غيره يتفوق ممن هم فى نظره أقل منه .

الغيرة عند الطفل الوحيد

يتبين مما سبق أن الطفل الوحيد ينشأ بين أبويه وليس معه أطفال آخرون يغتصبون امتيازاته ، وينمو محاطاً بكل أنواع الرعاية ، فينشأ بفكرة أنه مركز كل انتباه ، وينشأ أنانياً إذ لم يتعود من الحياة أخذاً وعطاء ، وحقاً وواجباً . فالحياة كما نشأ فيها أول الأمر كلها أخذ ، وليس فيها عطاء ، وكلها حقوق وليس فيها واجبات . فإذا خرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد عن دائرة والديه للعب مع الآخرين ، فإنه يصدم ، لأن الأطفال لا يدعونه يأخذ ولا يعطى ، ويعتدى ولا يعتدى عليه . فيحدث مثلا أن يضرب أو تخطف لعبته ، فيجرى عادة إلى أمه باكياً وهذه تضمه إليها ، وتسب الأولاد الآخرين ، وتفهمه أنه رقيق الطبع ، حسن الخلق ، وأنه من

طينة راقية غير طينتهم . وأما الآخرون فإنهم على درجة كبيرة من الشراسة ، وسوء التربية ، وخير له ألا يلعب معهم ، وأن يمكث إلى جانبها .

وبنفس الطريقة يخرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد إلى المدرسة فيجد أن المعلمة لا تفرده بالتدليل ، بل أنها تعامل الجميع معاملة واحدة تقريباً . وإذا غلبه زملاؤه فى لعب أو درس أو غير ذلك ، فهو كما تعلم من أمه له حسناته ونواحى رقته التى لا يعلمها أحد غيره هو وأمه . وهذا يكبر ، ويخرج إلى الحياة ويجد أن مجال التمتع بامتيازاته معدوم ، ويقابل الخيبة بزيادة اعتقاده فى عظمة ذاته ، وزيادة اعتقاده فى سوء حظه فى الحياة ، ومؤامرات الناس حوله ، وأثر عين السوء وما شابه ذلك . وهكذا تصاحبه تلك الحال طوال حياته ، وتخلق له من المشكلات ما يظهر أثره فى ميدان الحياة الزوجية ومع أولاده وفى مهنته .

وهذه الحالات كلها يصحبها الانفعال المركب المسمى بالغيرة ، وهو كما قلنا مكبوت فى غالب الأحيان ، ولذا لا يسهل دائماً تشخيصه . وسلوك الطفل الأخير من هذه الناحية يشبه فى حالات كثيرة سلوك الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد . ويلاحظ أن الغيرة التى يشعر بها الطفل الوحيد ، أو الشبيه بالوحيد عند خروجه للمدرسة أو للحياة أقسى وأشد من أى نوع من أنواع الغيرة التى تحدث داخل الأسرة.

الغيرة من المولود

يحسن بالوالدين تنظيم الحمل والولادة بحيث تكون الفترات الواقعة بين طفل وآخر لاهى بالقصيرة ولا بالطويلة، أى أنها لاتكون قصيرة بحيث تحرم الطفل الموجود فعلا من النمو الكافى ، ولا تكون طويلة بحيث يتمتع الطفل الموجود بامتيازات يصعب عليه التنازل عنها فيما بعد . ونعتقد أن فترة طولها من سنتين إلى ثلاث أو أربع سنوات فترة معقولة . ويجب عند الحمل إعداد ذهن الطفل الموجود لما يتوقع حدوثه ، فقبل الولادة بمدة كبيرة ، يجب أن يقلل من الالتصاق بالأم ، ويجب إعداد

ذهنه كذلك بأن تفهمه الأم بأنه سيكون له أخ صغير يلعب معه ، ويرعاه . وكثير من الأطفال يلاحظون ظاهرة الحمل ، وقد ينزعجون للتغير الظاهر غير المفهوم . ويظن الآباء إذ ذاك أن الغيرة بدأت قبل حادث الولادة ، وبعض الأطفال يسألون الأم عن سبب التغيير الظاهر ، فيجب على الأم أن تجيبه بهدوء بأنه يوجد بداخلها طفل صغير سيكبر ثم يولد بعد أن ينمو نمواً كافياً . ويكتفى الأطفال عادة بما يقال لهم إذا كان معقولا صريحاً يلائم عقولهم . ويصح أن تكمل هذه المحادثات بمحادثات أخرى ومشاهدات عن التوالد عند الطير والحيوان ، وتكون هذه المحادثات جزءاً أساسياً من التربية الجنسية اللازمة لصحة الفرد النفسية[1] . وبعد أن يولد الطفل لا يجوز إهمال الكبير وإعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه ، فيجب ألا يعطى المولود إلا بقدر حاجته ، وهو لا يحتاج إلى كثير . والذى يضايق الطفل الأكبر عاده كثره حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمى ، الذى يضر بالمولود أكثر مما يفيده .

فواجبنا إذن تهيئة عقل الطفل إلى حادث الولادة وكذلك يجب فطامه فطاما وجدانياً تدريجياً قدر الإمكان ، فلا يحرم حرماناً فجائياً من الامتياز الذى سيغدق مثله على أخيه .

الغيرة بسبب الموازنة

نعلم بطبيعة الحال أن الأطفال يولدون باستعدادت مختلفة من حيث الذكاء أو النواحى المزاجية . وينشأون مختلفين اختلافات تكون أحياناً شاسعة . ويوازن الطفل نفسه عادة بغيره من أخوته من حيث الجنس (ذكر أو أنثى) أو من حيث السن (كما بين الصغير والكبير . فالأصغر يغار أحياناً من الأكبر لمجرد أنه أكبر منه) ، أو من حيث المقدرة ، أو من حيث الجمال الطبيعى ، أو غير ذلك . ولكن الخطأ هو فى اهتمام الآباء والمدرسين وأصدقاء الأسرة والمجتمع عامة بإبراز هذه الفروق

(١) أنظر كتاب « قصة الحياة فى جميع الأحياء » للدكتور القوصى والأستاذ الطنطاوى .

وإشعار الأطفال بأنها مهمة فى نظر غيرهم . وتختلف درجات إبراز هـذه الفروق اختلافات كبيرة ، وتختلف تبعاً لها النتائج المترتبة عليها من غيرة ، وحقد ، وغرور وغير ذلك .

فيجب على الآباء أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، وعن خلق الجو الذى يشعر بالموازنة ويجب اعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها مزاياها واستعداداتها الخاصة بها ، فإذا نجح طفل فى عمل ما فيكفى أن يشجع عرضاً ، ولا يوازن بغيره. وكل طفل مهما خاب ، فله ناحية طيبة يمكن كشفها وإبرازها ، والاعتزاز بها . وبذلك يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى إلى الشعور بالذلة والنقص .

ومنعاً للموازنات بين الأخ وأخيـه أو التلميذ وزميله ، يمكن الموازنة بين الطفل ونفسه فى أوقات مختلفة . فإن تقدم فى وقت ما عما كان عليه فى وقت سابق ، فهـذا كاف لتشجيعه ، وإذا كانت المدرسة أو الأسرة تعنى بالهوايات ، فيحسن أن يكون لدى الأولاد هوايات مختلفة كالموسيقى والتصوير ، وجمع الطوابع ، وجمع عجائب الطبيعة من الحفريات ، وأنواع البيض ، وغير ذلك . وبذلك يتفوق كل فى ناحيته ، ويوازن نفسه بنفسه . وإن اختار الأطفال هوايات متشابهة ، فيجب الامتناع عن الموازنة التى تقلل من قيمة بعضهم ، مما يجعلهم يكفون عن نشاطهم ، ويفقدون اهتمامهم به .

وتخطىء بعض الأسر بأن تعامل الولد معاملة تختلف اختلافاً تاماً عن معاملة البنت ، مما يخلق الغرور فى الولد ، ويثير حفيظة البنات ، وينمى عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها فى صـور أخرى فى مستقبل حياتهن ، ككراهية الرجال عامة وعدم الثقة بهم وغير ذلك من المظاهر ، ومما يجعل الولد أيضاً معرضاً للغيرة عند خروجه للحياة .

وبعض الأسر يخطىء فى إغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل كما حدث بالفعل فى حالة معينة من إحضار علب (الشيكولاته) ، والملابس الحريرية ، واللعب وإعطاء النقود ، وغير ذلك مما لا علاقة له بعلاج المرض نفسـه . وهذا يثير الغيرة

فى الإخوة الأصحاء . وتبدو مظاهرها فى تمنى المرض ، وكراهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة أو المستترة . ويستنتج من هذا أنه لا يجوز إعطاء الطفل أى امتياز أكثر من العناية التى يتطلبها المرض ، وإن كان المرض شديد الوطأة طويل المدة يتطلب امتيازات كثيرة بارزة ، فيجب أن يحرر الطفل تدريجياً من هذه العناية مع خروجه التدريجى من حالة المرض . وعلى هذا يجب ألا يعطى الطفل فى أى وقت من الأوقات امتيازاً يصعب عليه التنازل عنه فيما بعد ، أو يشعر معه غيره من أخوته بالظلم والتحيز البالغ .

خلاصة ما تقدم أنه يجب مهما كانت الفروق المرضية أو الدائمة بين الأخوة أو الزملاء ، فلا يجوز استثارة الموازنات مما يؤدى إلى الغيرة . وهذا لا يمنع بالطبع من إجراء مباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر مما يحفزهم لبذل الجهد ، ويخلق الفرصة أحياناً لتعويد التلميذ تقبل الخيبة المؤقتة بصدر رحب .

خاتمة

يصح أن نلخص صفات الغيران لنبين مبلغ الضرر الذى قد يحدثه الآباء والمدرسون باستثارة الأطفال بالموازنة الصريحة أو الضمنية . فالغيرة شعور مؤلم جداً يجعل صاحبه قلقاً ، ناقماً ، تعباً لا يستريح لنجاح غيره ، وتجده فوق ذلك قليل التعامل مع الناس ، لا يسهل انسجامه معهم ، ولا يميل إلى التعاون أو الأخذ والعطاء ، أنانياً يهتم لحقوقه أكثر مما يلتفت لواجباته ، يميل أحياناً إلى الانزواء وإلى نوع من الهجوم بالتشاجر أو النقد أو التشهير أو الإيقاع بغيره . ويشعر عادة فوق ذلك بأنه مظلوم مضطهد سيء الحظ ، وأن الناس يعملون عادة ضده ، مما يجعله قلقاً مبالغاً فى الحذر من الناس والبعد عنهم .

وفى بعض الحالات ينتحل الشخص الغيران سلوكا طيباً ، ولكنه مع ذلك تجده يتصف ببعض الصفات السابقة الذكر .

ويلاحظ أن الأساس فى الغيرة فى أغلب الحالات كما بينا هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، مما يجعل من الواجب الاتجاه دائماً إلى زيادة هذه الثقة بالنفس من مختلف النواحى زيادة تخفف من النقص وتقلل من صدمة الخيبة وتزيد من الأخذ والعطاء ، وتزيد من القدرة على التعاون الاجتماعى . وإذا تم هذا ، تم كسر الحلقة المفرغة التى تربط بين الغيرة وضعف الثقة .

وننبه إلى وجوب اهتمام الآباء بالطفل الذى لا تظهر عليه الغيرة إطلاقا ، إذ يحتمل أن يقوم الطفل بكبت الغيرة والتظاهر بمظهر الإنشراح وعدم الاهتمام وما إلى ذلك . والغيرة المكبوتة أشد خطراً على النفس من الغيرة الصريحة ، فالنوع الأول يزيد معه التوتر ويزيد معه القلق إن عاجلا وإن آجلا .

كذلك لا يجوز أن يبهر الآباء ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة فى إطاعتهم وتقليدهم ومسايرة آرائهم والعمل على إرضائهم والإعجاب بهم والتظاهر بالحب لهم إلى غير ذلك . ولا يجوز لهم أن يقربوا هذا النوع من الطفل على حساب الآخر صاحب الرأى الجرىء الحر . هذا الموقف من الآباء كثير الانتشار ، وهو سبب من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الإخوة ، وتنشئة بعض الأولاد على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النقمة على الوالدين و بعض أفراد الأسرة .

ويجب أن نشير هنا إلى أننا أغفلنا إغفالا تاماً رأى مدارس التحليل النفسى فى الغيرة ، وهو الرأى الذى يرجع الغيرة كلها إلى الاتجاهات الجنسية المثلية (Homosexual tendencies) وهو رأى لا يوافق عليه الكثيرون أمثال مكدوجل وغيره ، وقد اكتفينا هنا بما اتفقت عليه الآراء اتفاقا تاما .

---

(١) a) Flugel : Men and their Motives.
b) Flugel : Psycho-analytic Study of the Family
c) McDougall : Abnormal Psychology.

المراجع

Blanton: Child Guidance.

Blatz and Bott: The Management of Young Children.

Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.

Flügel: Men and Their Motives.

Flügel: Psycho-analytic Study of the Family.

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Kanner: Child Psychiatry.

McDougall: Abnormal Psychology.

Miller: Advances in Understanding the Child.

Neill: The Problem Child.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child

الفصل الرابع والعشرون

التأخر الدراسى

مقـــدمة

كثيراً ما تتقدم الشكوى من الآباء أو المدرسين عن بعض تلاميذ المدارس لتأخرهم فى الدراسة . ويحدث فى بعض الحالات أن نكشف مبالغة من جانب الآباء ، فبعضهم يشكو من أن درجات ابنه فى السنة الأولى الثانوية ضعيفة ، وبالبحث نجد أن عمر الولد إحدى عشرة سنة فقط . وتكون حجة الوالد إذا عارضت فكرته ، أن هناك أولاداً ينالون الشهادة الابتدائية فى عمر أقل من عشر سنوات . وينسى الوالد فى ذلك أمرين : أولهما أن الآباء يدفعون أحياناً بأبنائهم دفعاً فى الدراسة ويكون هذا الدفع غالباً على حساب صحتهم ، وإضعاف حيويتهم ، وخروجهم فى مستقبل حياتهم بأفق ضيق . ويكون له فى أغلب الحالات رد فعل سيء على دراستهم نفسها فى مرحلة التعليم الثانوى أو العالى . وكثير منهم يقفون فى الطريق ولا يتمون تعليمهم . والأمر الثانى الذى ينساه الوالدان هو أن هناك فروقاً شاسعة فى استعدادات الأفراد ، إذ أنه ثبت أن ذكاء الأطفال قد يختلف اختلافات شاسعة من طفل إلى آخر . ويمكن باستعمال مقاييس الذكاء تحديد مستوى الذكاء الذى يسمى بالعمر العقلى[1] .

ونظراً لقلة شيوع استعمال مقاييس الذكاء ، فإن الآباء والمدرسين فى مصر مثلا يحكمون عادة على تأخر التلميذ فى دراسته إذا كان عمر الولد أكبر بكثير مما ينتظر لمثله من نفس مستواه الدراسى ، فإذا تكرر رسوب تلميذ عمره فوق السادسة عشرة فى

(١) لدراسة موضوع الذكاء وأساليب قياسه وبعض نتائج تطبيقه فى المدارس المصرية يقرأ كتاب قياس الذكاء للاستاذ « اسماعيل القبانى بك » من مطبوعات معهد التربية .

السنة الرابعة الابتدائية فإنه يعتبر متأخراً دراسياً ، ولكن يحدث أحياناً أن يتمكن الأب من النظر إلى المسألة من ناحية أخرى ، وهى درجة ملاءمة المستوى الدراسى لاستعداد الطفل ، إذ يجوز أن يكون عمر التلميذ ستة عشر عاماً ، ولكن استعداده العقلى لا يؤهله إلا للسنة الرابعة الابتدائية .

تحديد معنى التأخر الدراسى

ولكن ما تقدم يعتبر كله تقديراً وصفياً تخمينياً ، وقد تقدمت البحوث فى بعض البلاد مما أدى إلى إمكان تحديد معنى التأخر الدراسى . وأول خطوة فى هذا الاتجاه هى قياس الذكاء .

ويقاس الذكاء بمقاييس مقننة (Standardised Tests) ، إذا طبقت على طفل ما نصل منها إلى معرفة مستوى ذكائه أو عمره العقلى . فإذا كان عمر الطفل الزمنى عشر سنوات ، وعمره العقلى ثمان سنوات ، ، فمعنى ذلك أن مستوى ذكائه هو مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمنى ثمان سنوات . أى أن ذكاء هذا الطفل أقل من العادى بسنتين عقليتين .

كذلك إذا قسنا ذكاء طفل آخر عمره ثمان سنوات ، ووجدنا أن مستوى ذكائه ست سنوات عقلية ، يكون معنى ذلك أن مستوى ذكاء هذا الطفل يساوى مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمنى ست سنوات ، وبذلك يعد متأخراً فى الذكاء بمقدار سنتين عقليتين .

وواضح أن الطفل الثانى أكثر تأخراً من الطفل الأول ، إذ أن تأخراً مقداره سنتان فى الثامنة أكبر نسبياً من نفس المقدار من التأخر فى العاشرة . لهذا يحسن حساب ما يسمى نسبة الذكاء ، وهى عبارة عن نسبة العمر العقلى إلى العمر الزمنى ، ويضرب الناتج فى ١٠٠ للتخلص فقط من الكسور .

أى أن نسبة الذكاء = $\frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$

وواضح أن الشخص المتوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه ١٠٠ ، وأما من تزيد نسبة ذكائه على ١٠٠ فهو فوق المتوسط ، ومن تقل عن ١٠٠ فهو دون المتوسط ، ويعين البيان الآتى نسب الذكاء المختلفة[١] : —

إذا كانت نسبة الذكاء أقل من ٧٠ كان الشخص ضعيف العقل ، وإذا كانت نسبة الذكاء من ٧٠ إلى ٨٠ كان الشخص غبياً جداً .

وإذا كانت نسبة الذكاء من ٨٠ إلى ٩٠ كان الشخص دون المتوسط .

« « « « « ٩٠ « ١١٠ « متوسط الذكاء .

« « « « « ١١٠ « ١٢٠ « فوق المتوسط .

« « « « « ١٢٠ « ١٤٠ « ذكياً جداً .

« « « « « ١٤٠ فما فوق « عبقرياً .

وأما الخطوة الثانية لتحديد معنى التأخر الدراسى فهى قياس المستوى الدراسى باستعمال المقاييس الدراسية المقننة ، ويسمى مايقاس المستوى التحصيلى (Educational Age) أو العمر التحصيلى . ومعنى العمر التحصيلى بالنسبة للدراسة كمعنى العمر العقلى بالنسبة للذكاء . فإذا وجدنا أن تلميذاً عمره الزمنى عشر سنوات وعمره التحصيلى سبع سنوات مثلا ، كان مستوى تحصيله فى الدراسة يساوى مستوى تحصيل طفل متوسط عمره سبع سنوات . وهذا الطفل يعد متأخراً ثلاث سنوات تحصيلية عما ينتظر له بالنسبة لعمره الزمنى . ولكن يجوز أن استعداده العقلى لايتمشى مع عمره الزمنى ، أى أنه يجوز مثلا أن يكون عمره العقلى سبع سنوات مثلا ، وبذلك لايعد متأخراً فى مستوى تحصيله عما ينتظر له بالنسبة لمستواه العقلى . وفى هذه الحالة يعتبر عادياً من حيث التحصيل .

---

(١) كتاب الأستاذ القبانى بك فى قياس الذكاء ص ٤٩ .

لهذا نشأت فكرة حساب النسبة التحصيلية ، وهى نسبة العمر التحصيلى إلى العمر العقلى ، ويضرب الناتج فى ١٠٠ لنفس السبب السابق الذكر فى حساب نسبة الذكاء .

أى أن النسبة التحصيلية = $\frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر العقلى}} \times ١٠٠$

فإذا أمكننا أن نعرف هذه النسبة التحصيلية لتلميذ ما ، ووجدنا أنها أقل من ١٠٠ بدرجة واضحة ، حكمنا عليه بالتأخر الدراسى ، ووجب علينا دراسة العوامل التى أدت إلى ذلك ومعالجة الحالة .

وفى العادة لا تزيد النسبة التحصيلية (بخلاف نسبة الذكاء) عن ١٠٠ ، إلا فى حالات نادرة ، وهى حالات التلاميذ الذين يرهقون أنفسهم بالمذاكرة ، أو الذين يساعدون كثيراً بدروس خصوصية . ولكنها فى أغلب الحالات تكون ١٠٠ ، وكثيراً ما تقل عن ١٠٠ . وقد دلت بحوث برت (Burt) على أن هذا النقص عن مائة يحدث بنوع خاص عند الأغبياء وضعاف العقول ، إذ أنه وجد فى جميع حالاتهم تقريباً أن المستوى الدراسى أقل من المستوى العقلى[١] ، ولعل من العوامل المؤثرة فى هذا أثر الشعور بالنقص المصاحب عادة للقصور العقلى ، وهذا الشعور بالنقص يجعل مستوى إنتاجهم أقل مما ينتظر لهم حسب مستواهم العقلى .

ويلاحظ أن المستوى الدراسى ، إن كان لا يتوقف إلا على مستوى الذكاء ، لكانت النسبة التحصيلية دائماً ١٠٠ ولكن التحصيل يتوقف على وجه العموم على عوامل أخرى كالظروف المحيطة بالتلميذ وحياته الوجدانية وما عنده من دوافع مختلفه .

وليس من السهل علينا فى مصر فى الوقت الحاضر أن نحدد بالدقة درجة التأخر الدراسى ، ولذلك أسباب عديدة منها عدم توافر الاختبارات المقننة التى تقيس المستوى

---

(١) C. Burt : The Backward Child P. 35

التحصيلى ، ومنها عوامل أخرى تدخل فى التنظيم العام للتعليم ، كتفاوت الأعمار فى الفرقة الدراسية الواحدة تفاوتاً كبيراً . ففى بعض الأحيان نجد فى السنة الرابعة الابتدائية تلاميذ عمرهم عشر سنوات ، وآخرون يقرب عمرهم من سبع عشرة سنة . فتصعب الموازنة بين تلميذين كهذين من حيث درجة تأخرهما الدراسى[1] . يضاف إلى هذا نظام الامتحانات الذى عود بعض التلاميذ و بعض المدرسين الوصول إلى حيل خاصة تمكن من حفظ المعلومات بصورة تكفى لوضعها يوم الامتحان على الورقة المخصصة لذلك . وبذلك تقل قيمة التحصيل الدراسى بمعنى كسب قوة معينة ، نتيجة لفهم المواد الدراسية وهضمها وحسن تطبيقها والكفاية فى استعمالها .

بعض حالات فى التأخر الدراسى

وسنعرض الآن بعض الحالات التى عرضت على العيادة السيكلوجية بمعهد التربية للمعلمين بسبب التأخر الدراسى ، وقد بينا مع كل حالة نوع التأخر كما وصفته المدرسة أو كما وصفه المنزل . و بينا السنة الدراسية ، والعمر الزمنى والعمر العقلى . ومن موازنة هذين أحدهما بالآخر و بالسنة الدراسية ، يمكننا أن نتبين على وجه التقريب درجة التأخر الدراسى الظاهرى من مقارنة السنة الدراسية بالعمر العقلى . وقد أثبتنا كذلك بعض العوامل الأخرى (غير الذكاء) التى نعتقد أنه ربما كان لها دخل فى التأخر الدراسى .

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
١	تأخر دراسى عام	٤ — ابتدائى	١١ ½ سنة	١٣ سنة	ضعيف التذكر مشتت الانتباه . زيادة سريعة مطردة فى الوزن . الوالد شديد التضييق على ولده يتدخل فى أتفه المسائل الخاصة به .

(١) والصعوبة فى هذه الحالة صعوبة إحصائية أكثر منها صعوبة سيكولوجية

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٢	تأخر دراسى عام	٣ — ابتدائى	١١ سنة	٩ سنوات	الجو المنزلى كله قسوة، وشدة، وإشراف مما جعل الولد بائساً كثير السرحان
٣	تأخر دراسى عام	١ — ابتدائى	٨ سنوات	٨½ سنوات	انتباه الولد مشتت، وهو غير محبوب من زملائه. وله أزمات انفعالية بسبب وفاة والده الذى كان يدلله، وشدة إخوته معه.
٤	تأخر دراسى عام	١ — أولى	٥½ سنوات	٤ سنوات	الظروف كلها عادية فى الظاهر.
٥	تأخر دراسى عام	٣ — ابتدائى	١٠½ سنوات	٩½ سنوات	معاملة المنزل له متقلبة جداً. أنيميا شديدة.
٦	تأخر دراسى عام	٣ — ابتدائى	١١ سنة	١٠ سنوات	ضعف صحى عام وسمنة شديدة وروماتزم بالغشاء المبطن للقلب نتيجة لبعض النزلات الروماتزمية العضلية.
٧	تأخر دراسى عام	٣ — ابتدائى	٩ سنوات	١٠ سنوات	تغيب كثيراً بسبب المرض ويمكن معرفة معاملة والديه له من أنهما حولاه قصداً من مدرسة إلى أخرى يضرب فيها التلاميذ ضرباً

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					شديداً حتى يعامل هو بنفس الطريقة .
٨	تأخر عام	٣ — ابتدائى	١١ ١/٢ سنة	١١ ١/٢ سنة	قلة اهتمام بالعلوم المدرسية التى يقول إنها مملة ، وميل للعب ، يسخر كثيراً من المدرسين .
٩	تأخر عام	٣ — ابتدائى	٩ ١/٣ سنوات	١١ سنة	ضعف صحى ، تقلب شديد مع ضعف زائد من جانب الوالد ، الولد قليل الاستقرار والتركيز.
١٠	تأخر عام	٣ — ابتدائى	١٢ ١/٤ سنة	٨ سنوات	ظروفه تبدو كلها عادية .
١١	تأخر عام	٢ — ابتدائى	٨ ٣/٤ سنوات	٨ ٣/٤ سنة	حريته مقيدة ، يأخذ دروساً خصوصية باستمرار، ويعامل معاملة جافة من والديه .
١٢	تأخر عام خصوصاً فى اللغات	٤ — ابتدائى	١٢ سنة	١١ سنة	ضعف سمعى والتهابات فى مناطق التنفس مصحوبة بكثرة إفراز البلغم الذى ربما يرجع إليه ما عنده من هبوط عام فى الحيوية وضعف فى القدرة على التركيز وبذل الجهد ، سوء إشراف من الوالدين .

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
١٣	تأخر دراسى عام	٢ — ثانوى	١٧ سنة	ذكى جداً	هروب من المدرسة ، وانشغال بالسرقة وتنظيم العصابات ، والمسائل الجنسية وشرب الخمر . يعتقد أن أحداً لم يكن عظيما بسبب التعليم ويضرب مثلا بهتلر وغيره . وحيد والديه وتوفيت والدته بعد مرض ألزمها الفراش سنوات عدة .
١٤	تأخر عام	٤ — ثانوى	١٦ ½ سنة	١٣ ½ سنة	لم يعتمد على نفسه فى حياته قط إلى حد أن استحمامه كانت تقوم به والدته إلى سن السادسة عشرة [1] .
١٥	تأخر عام	٢ — ابتدائى	٩ ¼ سنوات	٩ ½ سنوات	الولد متوسط فى ذكائه ولكنه يقارن فى المنزل دائماً بإخوته الذكور والأناث وعندهم جميعاً تفوق كبير فى الذكاء ، مما جعل الولد منزويا خاملا قليل النشاط على الرغم من أنه فى الحقيقة متوسط الذكاء .
١٦	تأخر دراسى عام	٣ — ابتدائى	١٥ سنة	١٠ ¼ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية .

(١) هذا التلميذ وصل إلى السنة الرابعة الثانوية رغم أن ذكاءه أقل من المتوسط بكثير وهذا يدل على أن الامتحانات فى مدارسنا لا يمكن بحال أن تعتبر مقاييس مضبوطة للمستوى التحصيلى .

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
١٧	تأخر عام	٢ — ثانوى	١٤½ سنة	فوق المتوسط	للولد مركز ممتاز ، وقد دلل كثيراً فى صغره وانتابته فى صغره أمراض كثيرة ، لم يعتمد على نفسه قط فى أى عمل ، قليل التركيز يميل إلى الملذات الحسية من أكل ونواح جنسية وماشابهها.
١٨	تأخر عام	١ — ثانوى	١٤ سنة	أقل من المتوسط	ضعف البصر ، وانحطاط ظروفه الاقتصادية وانحلال جو الأسرة بعد وفاة والده فجأة .
١٩	تأخر عام	٣ — ابتدائى	١٥ سنة	٩ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢٠	تأخر فى الحساب	٢ — روضة	٦½ سنوات	٤½ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢١	تأخر دراسى عام	٤ — ابتدائى	١٤ سنة	١١½٠ سنة	ضعف فى جميع العمليات الأولية من ضرب وقسمة الكسور الاعتيادية والعشرية. كانت كثيرة التغيب بسبب المرض .
٢٢	تأخر دراسى عام	٢ — ابتدئى	٩½ سنوات	٨½ سنوات	حرية الولد مقيدة جداً ولم يعوَّد أن يستقل بنفسه فى عمله .

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٢٣	تأخر دراسى عام	٢ — ثانوى	١٤ سنة	متوسط	المستوى الاقتصادى للمنزل منحط جداً ، والوالد فى غاية القسوة والقلق على تعليم ابنه ، كانت النتيجة تأخر وسرقة وتدخين .
٢٤	تأخر دراسى عام	١ — ثانوى	١٣½ سنة	١٣½ سنة	الوالدة توفيت والوالد لا يكاد يكون له بابنه إلا صلة الإنفاق عليه فى مدرسة داخلية ، والولد كثير النسيان والسرحان ، وأخيراً يهمل تنظيف نفسه لدرجة ظاهرة .
٢٥	تأخر دراسى عام	٣ — ثانوى	١٦½ سنة	متوسط	نوبات عصبية بدأت مع المراهقة ، وسوء علاقته بوالديه لدرجة تؤدى إلى الاحتكاك المستمر ، انشغاله بالمسائل الجنسية و إفراط فى الاستمناء .
٢٦	تأخر عام وبنوع خاص فى اللغات	٢ — ثانوى	١٧ سنة	متوسط	يشترك مع أخيه فى صفة عدم الاكتراث بالتعليم . يقول أنه يؤمن من خبرته ببعض أقاربه بأن المركز

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					والمستقبل فى الحياة لا يتوقف على التعليم وبذل الجهد المدرسى وإنما يتوقف على عوامل أخرى لا تكسب فى المدرسة .
٢٧	تأخر عام وبنوع خاص فى اللغات	٣ — ابتدائى	٩ ١/٣ سنة	٩ ١/٣ سنوات	ضعف عام فى المطالعة ، والده شغوف جداً بتعليمه وبخاصة نحيبة أخيه الأكبر
٢٨	تأخر عام	٤ — ابتدائى	١٦ ٣/٤ سنة	٩ ١/٢ سنة	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢٩	عدم رغبة فى المذاكرة	أولى عالى	١٨ سنة	ذكى جداً	ينظر الولد للمستقبل فيجده غير براق له بوجه خاص وأن إخوته الذين سبقوه نجحوا جميعاً ، وخرجوا للحياة ، أما هو فمازال أمامه أربع سنوات على الأقل ويشعر أنه غير مهيأ عقلياً ومزاجياً للمهنة التى يعد لها ، ويشعر الولد بالفارق الكبير جداً بين التعليم الثانوى والعالى ، إذ كان كل شىء يقدم له فى التعليم الثانوى مهضوماً

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					وكانت هناك صلة بين التلميذ والمدرسة ، وكان التلاميذ قليلين فى الفرقة الواحدة والكتب قليلة وصفحات كل كتاب قليلة .

العلاقة بين التأخر الدراسى والتأخر العقلى

وإذا فحصنا الجدول السابق نجد فى حالات التأخر العقلى أن التأخر الدراسى أقل مما كان ينتظر من التلميذ بالنسبة لما لديه من تأخر عقلى . وذلك لأننا لو حسبنا العمر الدراسى للتلميذ على أنه العمر المتوسط للفرقة الدراسية التى هو فيها فإننا نجد فى الغالب أن الفرق بين العمر الزمنى والعمر الدراسى أقل من الفرق بين العمر العقلى والعمر الزمنى .

فإذا اعتبرنا أن العمر المتوسط على وجه التقريب فى السنوات الأولى والثانية والثالثة والرابعة الابتدائية هو ٨ سنوات ، ٩ ½ سنوات ، ١١ سنة ، ١٢ ½ سنة على التوالى[1] ، وإذا أخذنا من الجدول السابق جميع حالات المتأخرين عقلياً من حالات تلاميذ المدارس الابتدائية ، فإننا نحصل على النتائج الآتية :

---

(١) وهذه الأعمار محسوبة على وجه التقريب من الرسوم البيانية الواردة فى كتاب قياس الذكاء للأستاذ إسماعيل القبانى بك ص ٨٥ .

رقم الحالة	٢	٥	٦	١٠	١٢	١٦	١٩	٢١	٢٢	٢٨
مقدار التأخر الدراسى بالنسبة للعمر الزمنى بالسنوات	صفر	١/٣	صفر	١ ١/٤	١/٢	٤	٤	١ ١/٢	صفر	٤ ١/٤
مقدار التأخر العقلى بالنسبة للعمر الزمنى بالسنوات	٢	١ ١/٣	١	٤ ١/٤	١	٤ ٣/٤	٦	٢ ١/٢	١ ١/٤	٧ ١/٤

فبالموازنة بين التأخر العقلى والتأخر الدراسى كل منهما بالنسبة للعمر الزمنى ، نجد أن التأخر الدراسى فى هذه الحالات أقل مما كان ينتظر بالنسبة لما عند التلميذ من تأخر عقلى.

ومن الغريب أن هذه النتيجة تخالف ما وصل إليه الأستاذ (Burt)[1] من نتائج مع التلاميذ الإنجليز ، إذ أنه وجد أن التأخر الدراسى أكبر فى العادة من التأخر العقلى فى حالات الأغبياء . ولعل السبب فى أن نتائجنا جاءت مخالفة لما كان ينتظر هو ماسبق أن أشرنا إليه من أن التلاميذ يدفعون دفعاً بالدروس الخاصة مما يرهقهم ويزيد شعورهم بالخيبة . ولعل هناك مجموعة أسباب أخرى ، وهى أن التلاميذ أحياناً ينقلون من فرقة إلى أخرى أعلى منها بناء على عوامل أخرى غير المستوى التحصيلى ، وذلك كنقل التلميذ رغم ضعفه إلى فوقة أعلى حتى لاينفصل من المدرسة .

طريقة بحث حالات التأخر الدراسى

يتبين من الجدول السابق (ص٤٤١) أنه لابد لفحص حالات التأخر الدراسى من فحص نواح متعددة ، حتى يمكن أخذ صورة حقيقية للعوامل المختلفة المؤثرة سواء فى ذلك العوامل الأصلية والعوامل المساعدة .

فيجب التأكد أولا مما إذا كان التأخر الدراسى عاماً فى جميع المواد الدراسية أو خاصاً بمادة أو مجموعة معينة من المواد ، ذلك لأنه يحدث أحياناً أن يكون التأخر

(١) C. Burt : The Backward Child ولعل هذا الاختلاف يرجع فى الأصل إلى اختلاف المقاييس . فبينما اعتمد بيرت فى الوصول إلى نتائجه على مقاييس التحصيل المقننة ، اعتمدنا نحن على الفرقة الموجود بها التلميذ وهذه كثيراً ما لا تدل دلالة صحيحة على المستوى التحصيلى .

عاماً فى جميع المواد ، ويحدث أن يكون فى المجموعة الرياضية أو المجموعة اللغوية أو المجموعة الفنية أو العلمية . كذلك يحدث أن يكون فى مادة دراسية واحدة . ويجب التأكد أيضاً مما إذا كان التأخر طارئاً حديثاً أو مستديماً .

ونجد عادة أن العوامل المؤثرة يمكن أن تقع تحت الأقسام الآتية :

(ا) عوامل عقلية عامة كالتأخر فى الذكاء أو التأخر فى القدرة على القراءة بسبب عدم إتقان أسسها . إذ أن القراءة تدخل فى العلوم المدرسية بمختلف أنواعها . أو عوامل عقلية خاصة كالقدرة على التذكر أو إحدى القدرات الخاصة التى يلزم وجودها بنسبة كبيرة للتقدم فى مادة دراسية معينة كالقدوة اللغوية أو القدرة الهندسية ، أو غير ذلك.

(ب) اتجاهات عقلية وعوامل وجدانية عامة كضعف الثقة بالنفس والخمول ، أو اتجاهات عقلية وعوامل وجدانية خاصة ككراهية مادة دراسية معينة لارتباطها فى الذهن بموقف مؤلم من جانب المدرس أو الزملاء ، أو غير ذلك من الحالات الوجدانية المختلفة التى قد تنشأ داخل الفصل أو خارجه .

(جـ) عوامل جسمانية عامة تؤدى إلى نقص عام فى الحيوية ، فتقلل من مقدرة الشخص على بذل أقصى جهده . من ذلك الأنيميا والإصابة بنزلات البرد المتكررة والأمراض الطفيلية كالإنكلستوما وغير ذلك . وكذلك عوامل جسمانية خاصة كضعف السمع العام أو الخاص أو ضعف البصر بأنواعه المختلفة وما شابهها .

(د) عوامل بيئية تنشأ فى المدرسة أو المنزل أو خارجهما ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

١ — كثرة تنقل التلميذ من مدرسة إلى أخرى بسبب تنقل الوالد من بلدة إلى أخرى ، مما يترتب عليه اضطراب التلميذ بين طرق تعليمية مختلفة ، وضياع لبعض أجزاء المنهج . وكذلك انتقال الطالب انتقالا فجائياً بالنسبة إليه من نوع من التعليم إلى نوع آخر كما يحدث عند تنقل التلميذ بين مدارس أجنبية وأخرى مصرية .

٢ — كثرة تغيب التلاميذ عن المدرسة لأسباب قوية أو تافهة .

٣ — هروب التلاميذ من المدرسة لقلة جاذبية العمل بها ولوجود مغريات

أخرى خارج المدرسة كالخيالة ، أو تأليف عصابات ، أو الجرى وراء المسائل الجنسية ، أو ما شابه ذلك .

٤ — علاقة الطفل بوالديه و إخوته وزملائه ومدرسيه وعلاقة والديه أحدهما بالآخر ، وفكرتهما عن التعليم وأهميته ، وما ينشأ عن ذلك من اتجاهات عقلية وحالات وجدانية تؤثر فى التلميذ أحياناً بطريق مباشر وأحياناً بطريق غير مباشر .

٥ — مقدار شعور التلميذ بقيمة العمل المدرسى خصوصاً بعد سن المراهقة .

٦ — طريقة استغلال التلميذ لوقت فراغه .

٧ — تنقلات المدرسين بعد بدء الدراسة من فرقة دراسية إلى أخرى بسبب تغير الجداول .

٨ — درجة ملاءمة المواد الدراسية وطرق التدريس لاستعداد التلميذ ومستوى تحصيله .

٩ — الجو المدرسى العام (راجع الفصل الحادى عشر) .

١٠ — ملاءمة جو المنزل واستعداده للعمل الهادىء المنتج .

وليس من الممكن فى هذا المقام أن نتكلم بالتفصيل عن هذه النواحى كلها .

مصاحبات التأخر الدراسى

لاحظنا فى الجدول السابق (ص ٤٤١) أن هذه الحالات ليست حالات تأخر دراسى فحسب ، و إنما توجد معها مشكلات أخرى كالهرب وشرود الذهن والاعتداء ، وغير ذلك من المشكلات التى قد تكون مصاحبة فقط للتأخر الدراسى ، وقد تكون مسببة له ، وقد تكون ناتجة عنه .

وقد لاحظنا فى حالات جرائم الأحداث العديدة التى فحصناها ، والتى كان الأحداث فيها من تلاميذ المدارس أنهم كانوا متأخرين جداً فى الدراسة . وكان هؤلاء أحياناً ينظمون أنفسهم فى شكل عصابات للسرقة من عربات الترام أو عربات السكة الحديد أو السطو على المنازل أو غير ذلك . وكانوا يتصلون بأحد الباعة ليكون بمثابة مصرف لمسروقاتهم يبيعونها له .

والتلاميذ الذين يلبون أول داع للخروج على النظام ، والذين يكونون مصدر اضطراب فى حياة المدرسة هم فى العادة المتأخرون دراسياً . ولا يخرج مسلك التلاميذ الذين من هـذا النوع عن أنه تعويض للشعور بالنقص الذى يسببه لهم الإخفاق الدراسى . وهذا الشعور بالنقص أو الشعور بعدم تحصيل المستوى المنتظر لهم ينتج أساساً من موازنتهم بزملائهم الناجحين . كذلك قد يفسر هذا المسلك ضد النظام المدرسى أن التلاميذ يعتبرون أن المدرسة عائق فى سبيل تحقيق ذاتياتهم تحقيقاً يجلب لهم السرور ، ولذلك فهم يثورون ضد المدرسة .

* وفى المراحل المتقدمة يفقد التلميذ ثقته فى نفسه إزاء نوع المستقبل المترتب على النجاح المدرسى . وربما لا يجد ما يشعره بالاطمئنان من هذه الناحية فتتسبب عنده أنواع من التألم واليأس ، وما يتبع ذلك من مشكلات نفسية .

ونجد فى المراحـل الأولى من التعليم أن التأخر الدراسى يصحبه إغراق فى أحلام اليقظة ، لأنها الطريق الوحيد للتخلص من صعوبات الدرس ، وفى أغلب حالات التأخر الدراسى نجد سلوكا يحتاج إلى إصلاح كالاستكانة ، والإغراق فى أحلام اليقظة والشعور بالخجل والنقص . وأحياناً نجد التلميذ يمارس عمـلا آخر يجد فيه بعض السلوى كالتـدخين أو الاستمناء أو متابعة المسائل الجنسية ، وأحياناً أخرى نجد محاولات للنقد أو المشاكسة أو التسلط أو كشف عيوب الناس أو الثورة على النظام ، وأحياناً نجد أنواعاً من الحركات العصبية العامة أو الخاصة .

لذلك وجبت دراسة درجة ملاءمة الدراسة للتلميذ من أول الأمر ، حتى يمكن تلافى التأخر الدراسى فى المراحل الأولى ، ولا سيما أن التأخر الدراسى قد يكون قليلا فى أول الأمر ، ولـكنه فى العادة يتضخم أثره كلما تقدم الطفل فى الدراسة ، إذا هو لم يعالج . فإذا فرضنا أن تأخراً قليلا فى قدرة الطفل على المطالعة أو الحساب وجد فى سن الثامنة ، فإن أثر هذا التأخير يتضح ويزيد كلما تقدم الطفل فى مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائى ، ذلك لأن الدراسات التالية تترتب عادة على ما يسبقها ، ولذا يجب التيقظ — كما قلنا — لأى نوع من التأخر الدراسى وتداركه من أول الأمر بطرق الفحص العلمية .+

المراجع

Board of Education: The Backward Child.

Burt: The Backward Child.

Craig: School Life and Mental Instability.

K. Frazer: The Backward Child.

Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.

Hamley and Others: The Backward Child.

Hutchinson: Motives of Conduct.

Hildreth: Psychological Problems.

Miller: The Growing Child and its Problems.

Sayles: The Problem Child at School.

Shaffer: The Psychology of Adjustment.

Symonds: Mental Hygiene of the School Child.

Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.

Valentine: The Difficult Child.

الفصل الخامس والعشرون

المشكلات الجنسية

أنواع المشكلات الجنسية

تتجه بعض الآراء فى الوقت الحاضر إلى أن المشكلات الجنسية هى أساس كل مشكلات السلوك الأخرى، ذلك لأن الغريزة الجنسية فى نظر أصحاب هذه الآراء هى مصدر الطاقة البشرية . فالتوالد والتكاثر هما أهم ظاهرة فى الطبيعة ، وكل ظاهرة أخرى فى الحياة إنما تعمل فى خدمة هذه الظاهرة الأساسية . والغريزة الجنسية فى الإنسان تحوطها قيود وتقاليد شديدة ، تجعلها خاضعة للكبت ، مما يظهر أثره فى أنواع السلوك الشاذ بدرجاته المختلفة .

ويتجه الرأى السائد إلى أن الغريزة الجنسية ، وإن كانت شديدة الأهمية فى حياة الإنسان ، إلا أنه توجد إلى جانبها غرائز أخرى ، كالسيطرة والهرب والوالدية وغير ذلك . ولما كانت الغريزة الجنسية أكثر الغرائز خضوعا للكبت والمقاومة ، فهى أكثرها تعرضاً للشذوذ فى مظاهرها .

وتتلخص مشكلات الغريزة الجنسية فى أنها قد تحيد من حيث الموضوع الذى يستعمل للتعبير ، فبدلا من أن يكون التعبير متجهاً نحو الجنس الآخر فى ظروف توافق عليها التقاليد ، فإنه يتجه نحو الأفراد من نفس الجنس كما يحدث فى اللواط ، والسحاق ، أو يتجه نحو موضوعات مادية ، أو نحو المومسات ، أو نحو الذات ، كما يحدث فى الاستمناء . وقد تتناول درجة التعبير مما يترتب عليه الميل إلى الإفراط الجنسى ، أو الصدوف عن المسائل الجنسية صدوفاً قد يصحبه التقزز والاشمئزاز ، أو مجرد عدم الرغبة . وإذا استثنينا اختلال إفرازات الغدد التى تعمل فى النشاط الجنسى

و بعض الصفات التناسلية التى يترتب عليها الإفراط أو الصدوف ، نجد أن المشكلات الجنسية ترجع غالباً لنتائج الخبرة ، ونتائج التربية الأولى وتدخل العقد وآثار الصراع ضمن هذه النتائج .

الناحية الجنسية فى مراحل النمو المختلفة

وجه فرويد وأنصاره نظر الباحثين إلى أن الغريزة الجنسية توجد فى الطفل منذ ولادته ، غير أن مظاهرها فى الطفولة تغاير مظاهرها فى المراهقة واكتمال النمو . والطفل فى نظر فرويد وأتباعه يشتق فى سنواته الأولى لذة من الامتصاص بالفم ، ومن التبول والتبرز ، كما يشتق لذة من أجزاء جسمه المختلفة . وهـذه اللذة فى نظر فرويد لذة جنسية ذاتية (Auto-erotism) ،وتدخل بعد ذلك فى مركبات التلذذ الجنسى المعروف عند الكبار . وفى الوقت نفسه يرى بعض الباحثين الآخرين أن هـذه الأنواع من التلذذ ضرورية للطفل ، لقيمتها الحيوية بالنسبة إليه.

ونحن نسلم من غير شك بأن الطفل يشتق فى أول حياته لذة ذاتية، سواء أكنا نعتبرها جنسية أو غير جنسية[1]. وقد يحدث تثبيت اللذه الذاتية فى صورة مص الأصابع أو قضم الأظافر أو اللعب بالأعضاء التناسلية ، وقد يستمر هذا التثبيت إلى آخر الحياة .

وبعد المرور فى دور اللذة الحسية الذاتية تأتى مرحلة يعجب فيها الطفل بنفسه ويقف ساعات أمام المرآة ، ويهتم بجماله الخاص ، ويسمى فرويد وأنصاره هـذه المرحلة مرحلة عشق الذات أو النرجسية (Narcissism ، ولكن يمكننا أن ننظر إليها كمرحلة اهتمام الفرد بذاته ، ونمو فرديته (Ego Formation) . وتأتى بعـد ذلك مرحلة يهتم فيها الطفل بالعالم الخارجى اهتماما بارزاً ، ويستقر فيها نموه الجسمانى ويزيد نشاطه واتصاله بالعالم الخارجى زيادة كبيرة ، ويسمى أنصار فرويد هذه المرحلة بالدور الكامن (Latency Period) ويعتبرونها دور كبت للنزعات الجنسية التى تبدو بعض مظاهرها قبل ذلك .

(١) راجع رأى هادفيد (ص ٧٠)

وتظهر عند المراهقة نزعة لاختلاط البنين بعضهم ببعض ، والبنات بعضهم ببعض . ويحتقر البنون البنات لضعفهن ، ويحتقر البنات البنين لخشونتهم . وربما كان سبب هذا الانفصال حداثة الإحساس الجنسى ، وبدء النظر إلى الجنس الآخر نظرة جديدة تجعل كلا منهما حذراً من الآخر .

وفى سن السادسة أو السابعة عشرة يبدأ كل من الجنسين يهتم بالآخر ويبحث عنه . ويسمى أنصار فرويد المرحلة التى يهتم فيها الفرد بأفراد جنسه « مرحلة الجنسية المثلية » (Homo Sexuality) ، ومرحلة اهتمام الفرد بأفراد الجنس الآخر « مرحلة الجنسية الغيرية » (Hetero Sexuality) . ويرى فرويد وأتباعه أيضاً أن الطفل منذ بدء إدراكه لوالديه وبسبب اشتقاق كثير من لذته عن طريق الرضاعة ، واللمس والحمل ، والربت ، والتحسيس والدغدغة ، يربط فى ذهنه والديه كمصادر للذة أو للحب ، أو مصادر لعدم اللذة ، أو الكراهية . وتنشأ بحسب رأى المحللين النفسيين من مثل هذه المواقف العقد المعروفة باسم عقدة أوديب (Oedipus Complex) وعقدة الكترا (Electra Complex) . ويرى فرويد أن هذه العقد طبيعية فى نمو الأفراد بحكم الصلة بينهم وبين الوالدين . ومع أننا نسلم بأثر علاقة الوالدين بالأطفال ، وأثر هذا فى نمو علاقتهم الجنسية المستقبلة ، إلا أننا نرى أنه يمكن الاستغناء عن مثل هذه التفسيرات كما سنرى فيما بعد .

وكل ما يمكن أن يقال هو أن اللذة الذاتية موجودة منذ الطفولة ، وقد تمر هذه اللذة ، وقد تثبت متصلة بالنشاط الجنسى أو بمظاهر أخرى غير جنسية كالتدخين وما إليه . ثم يأتى نمو الذاتية أو الفردية ثم يتجه جل الاهتمام إلى كسب المعرفة ، وكسب المهارة التى تؤدى إلى حسن التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية ، ويدخل فى هذه البيئة المحيطة بعض عجائب الطبيعة بما فيها من ظواهر النمو ، والتوالد ، والوظائف الجسمية المختلفة ، وبدء المخلوقات ، وتكونها ونهايتها ، وغير ذلك مما يتصل بالمسائل الجنسية اتصالا وثيقاً . ثم يأتى بعد ذلك دور المراهقة والبلوغ بما فيه من نزعات

جنسية جديدة قد يكون الفرد مهيأ لمقابلتها عن طريق الخبرة السابقة — بمعناها الواسع . وقد تأتى فجأة فتحدث صدمات نفسية عنيفة . ومما يزيد فى أثر هـذه الصدمات العوائق والتقاليد التى تقوم فى وجه التعبير عن هذه النزعات .

بعض الحالات

ولأجل أن نفهم كيفية ظهور المشكلات الجنسية ، نأخذ حالة شخص وصل إلى العقد الرابع من عمره . وتتلخص مشكلته فى أنه لا يمكنه أن يجتمع اجتماعاً جنسياً طبيعياً بمن يتزوجها مما يؤدى عادة إلى الانفصال . هذا مع أنه يمكنه أداء هذه العملية بسهولة مع المومسات ، ولكنه حاول مع من تزوجهن فأخفق إخفاقا تاما . وبدراسة تاريخه وجد أنه ينحدر من أسرة محافظة متدينة ، لاتشير إلى المسائل الجنسية أو ماحولها بأى إشارة ، بل تستنكر هـذه الموضوعات استنكاراً شديداً . نشأ الولد فى هذا الجو ، لا على احترام أمه فحسب ، بل على ما يقرب من تقديسها ، مما جعله يرى فى زوجته صورة الأم التى بلغ من أمر تقديسه لها أنه أخفق مع زوجته إخفاقا تاما . ولكن كان يمكنه مع ذلك الاجتماع بالمومسات ولعل هذا لبعد الشبه فى ذهنه بينهن و بين أمه . ومما زاد مشكلة هذا الرجل أن نصحه أحد الناس فى سن البلوغ المبكر بوجوب الاتصال الجنسى ، حتى يقى نفسه شر الجنون ، فاتصل بالمومسات ، وبذلك كانت الصورة الأولى التى ارتبطت فى ذهنه بالإشباع الجنسى هى صورة المومسات . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أنه كان كثيراً مايحلم بالليل أنه يجتمع اجتماعاً جنسياً بأمه أو بأخته أو بزوجته . وكانت تتحول فى الحلم صورة من يجتمع بها أحياناً من الزوجة إلى الأم أو الأخت أو العكس . قد يدل هـذا على شده حب الولد لأمه وأخته واحترامه لها ، وعلى إدراكه (لاشعوريا) وجه الشبه بينهما و بين زوجته ، وعلى ما يتمناه من الصلة الجنسية الناجحة مع زوجته التى تشتق صورتها فى ذهنه من أمه . ومما زاد فى تعقيد الحالة أن حدثت له وهو صغير خبرة جنسية مع ولد آخر فى مثل سنه ، وقد كان

موقفه فى هذه الخبرة سلبياً غير إيجابى ، الأمر الذى جعله شديد الشغف فى مستقبل حياته بإثبات رجولته مع الخوف من الإخفاق . وزاد الحالة تعقيداً فوق ذلك أن خطيبته الأولى لم تكن تميل إليه ، وكان يعلم ذلك بنفسه و يشعر به شعوراً واضحاً .

وهذه حالة أخرى لفتى يدمن العادة السرية إدماناً شديداً ، ولا يوفق فى علاقاته الاجتماعية ، ولا سيما حين يتحدث مع فتاة أىّ حديث ولو كان عادياً ليس وراءه أىُّ مقصد سيىء . واتضح من دراسة حالته أن كانت له محاولات جنسية فى سن السادسة مع صغار الفتيات بقصد اللعب والتجريب . وقوبلت محاولاته بالاشمئزاز والاستنكار والتعيير المستمر من الوالدين ، فنما عنده شعور بالخطيئة ، ترتب عليه فى مستقبل حياته تشدده مع نفسه ، وشعوره بحقارتها ، واعتقاده باحتقار الناس له ، وميله للابتعاد عنهم . وترتب عليه أيضاً سلوك تعويضى فيه تعسف فى التدين ، والنظافة ، والأناقة . لكنه كان فى نفس الوقت لا يقوى على مقاومة الرغبة الجنسية ، فلا يجد وسيلة للتعبير عنها إلا فى الاستمناء باليد . والولد يغار من والده الذى تزوج بعد وفاة والدته بفتاة صغيرة السن ، وكان الفتى إذ ذاك فى أول دور المراهقة . والغيرة فى هذه الحالة مكبوتة كبتاً تاما .

وحالة ثالثة لفتى شغل ذهنه ليل نهار بالمسائل الجنسية ، يحلم بها فى يقظته أحلاما يقول إنها جميلة ، فيدبر فى عقله الحيل للوصول إلى الفتيات الجميلات ، ويحلم بها فى أثناء نومه أحلاما مزعجة ، تشمئز منها نفسه أشد الاشمئزاز . وكان لا يقوى على القيام بمحادثة ولو كانت بريئة مع أية فتاة ، ولا يقوى على مناقشة أية مسألة جنسية مع أى إنسان . ومع شدة اشمئزازه من المسائل الجنسية ، واعتبارها مسائل قذرة ، فإنه أحياناً يتكلم عنها كأنها أمور شبه مقدسة ، بل إنها فوق البحث العلمى ، وفوق المعرفة الصحيحة . وهو شديد الاحتقار لنفسه يرى أنها قذرة ، وضيعة ، رغم نضج عقليته ، و إتقانه نظم الشعر على الرغم من صغر سنه . مات أبوه وتركه صغيراً فعنيت أمه به و بإخوته عناية وصلت بها إلى أقصى حدود التضحية . وترتب على ذلك

أنها لم تترك لهم صغيرة أو كبيرة يفكرون فيها بأنفسهم ؛ مما جعلهم يكبرون ملتصقين بها معتمدين عليها كل الاعتماد . والأم تحزن أشد الحزن ، بل يصيبها المرض أحياناً إذا خالف أحدهم أمرها ، أو حاول أن يثبت وجوده ، كما يثبت الشبان وجودهم ، مما جعل الفتى وإخوته يخضعون لأمهم ، ويستسلمون لضعفها . وكان الأب رجلا ضعيفاً من الناحية الجنسية ، وكان لهذا قاسياً مع الأم . (والقسوة كثيراً ما تظهر للتعويض عن ضعف جنسى) . وكانت الكراهية بينهما مستحكمة ، وكان ذا تاريخ طويل فى المسائل الجنسية لا يتسع له هذا المقام .

نشأ الولد كارهاً للمسائل الجنسية ، يشمئز منها ، محباً لأمه يعطف عليها ، ولكن يود التحرر من سلطانها ، فلا يقوى ، ومع ذلك فكان أحياناً يتطلع للمسألة الجنسية ويراها مقدسة فى نظره ، ولعل ذلك لشعوره الغامض بارتباطها بأمه وبوجوده . وأمه تتأفف جداً من هذه المسائل . فعند ما كانت تغسلهم وهم صغار ، كانت تتناول كل جزء من أجزاء جسمهم ولكن حين تصل إلى الأجزاء الإخراجية والتناسلية تكف يدها وعليها علائم التأفف ، فتأمر أولادها بغسلها بأيديهم . كانت الأم شديدة المحافظة والمراقبة والدقة مع نفسها ومع أولادها . كل هذا وكان لها من صغر سنها ، وجمال شكلها ، ووفرة ذكائها ما يفسح لها الفرصة فى مجال الزواج وكانت مع هذا تقابل عروض الزواج برفض حاسم ، وكانت كذلك تقابل أية إشارة إلى أية مسألة جنسية من جانب أولادها بعاصفة من الانفعال والمرض .

لهذا كله نشأ الولد متناقضاً فى الشعور إزاء المسائل الجنسية : فبينما تجده يقدس الأمور الجنسية ويحترمها احتراما شديداً تجده يحتقرها ويستقذرها . وحيناً تجده مشغوفاً بها منشغل الذهن باحتمالات اتباعها ليل نهار ، يدبر فى ذهنه الحيل لذلك ، وحيناً آخر تجده منصرفاً عنها يخافها وتتقزز نفسه منها ، وهكذا تجده ممزق النفس فى اتجاهات مختلفة ، مما أنهك قواه وشتت مجهوده الذهنى ، وجعله متناقضاً فى اتجاهاته وأفكاره وأقواله عصبياً مبعثر الذهن على الرغم من شدة ارتفاع ذكائه .

هذا الولد مصاب بحالة قلق عصبى أساسها الحياة الجنسية فى الأسرة ، وأساسها موقف الأم من العالم الجنسى عامة ، وهذا الموقف من شأنه أن يخيف الناشىء من العالم الجنسى ، مع أنه عالم تدفع الطبيعة البشرية إلى دراسته والفحص عنه والوقوف على أسراره .

وهناك حالة لفتاة جاوزت العقد الثانى من عمرها بدأت تعتكف ولا تتصل بالناس وتقضى وقتها فى نوم وانقباض وشرود ذهنى و بكاء . وكتبت كثيراً مما يجيش بصدرها من آمال وآلام فى صورة شعر أو نثر . ونعتقد أن أساس المشكلة هنا جنسى ، إذ اتضح بدراسة الحالة أن بين الأم والأب شقاقاً مستمراً ، مع تعاظم من ناحية الأم ، وشعور من ناحيتها بسوء الطالع لتزوجها من رجل تعتبره أقل منها مكانة وثروة وعقلا . وبذلك نشأت أمام البنت صورة لما قد تتوقعه فى المستقبل من شقاء فى الحياة الزوجية ، إن هى تزوجت . يضاف إلى ذلك أن البنت تعطف على الأب ، والأم تشعر بهذا مما ترتب عليه اضطهاد الأم للبنت . وللبنت أخت أخرى أصغر منها ، مانعت الأسرة فى زواجها ، إلى أن تتزوج الكبرى ، مما جعل البنت تشعر بخطيئتها نحو أختها الصغرى ، إذ أنها ترى نفسها عائقاً فى سبيل زواجها . والبنت فوق ذلك على درجة كبيرة جداً من الذكاء ، والنشاط ، والحساسية ، ولا تجد منفذاً لكل هذا لأنها قابعة فى البيت ليل نهار ، بحكم تقاليد الأسرة .

وخلاصة الحالة أن المستقبل الطبيعى للبنت — وهو الزواج — أصبح فى نظرها بعيد التحقق . و إن تحقق ، فصورة زواج أمها لا تغرى البنت بتوقع الخير من زواجها . ومن ثم كانت لا تتوقع خيراً على أى حال . وتتعقد صورة الحالة النفسية هنا بالعلاقة المنزلية الداخلية بينها و بين الوالدين ، و بينها و بين الإخوة ، و بين الوالدين والإخوة ، و بين أفراد الأسرة جميعاً ، والأسرة التى تنتمى إليها الأم ، وتلك التى ينتمى إليها الأب إلى غير ذلك .

وفى عدد من الحالات نجد أن سبب الشذوذ الأصلى هو المثال الذى يُكشف

فى الأب أو الأم أو كليهما ، وقد يكون هذا المثال ظاهراً ، لا محالة للتخفى فيه ، وقد تكون معه محاولة للتستر . لكنه يصل عادة ، وعلى أى حال إلى علم الطفل ، كما يصله عادة ، فى نفس الوقت تحذيرات وقيود شديدة مرتبطة بالمسألة الجنسية . فنى الأسرات التى يتصف أربابها بسوء السلوك ، كثيراً ما يصحب سلوكهم محاولة تَسَتُّر يشتد معها الآباء على الأبناء بدرجة غير عادية ، مما يخلق صراعاً نفسياً شديداً بين الرغبة فى إشباع النزعة الغريزية التى تشجعها الأمثلة الواقعية ، وبين الخوف أو الاشمئزاز أو غير ذلك مما يغرسه الآباء أنفسهم . ومن ثم نجد تذبذباً ، وعدم استقرار فى الاتجاه الجنسى ، تصحبه نوبات من ممارسة العادة السرية ، أو الاجتماع بالمومسات ، أو الاجتماعات الجنسية الشاذة ، أو ما شابه ذلك . ويبحث الفتيان والفتيات عن اللذة الجنسية لشغفهم باستطلاعها ، وقد تثبت لديهم بحكم الممارسة والتعود ، ويبحث بعضهم عن الاتصال الجنسى للحاجة إلى العطف ، ولذا نرى مع بعض الحالات أن تفكك روابط الأسرة عامل أساسى يتبعه أحياناً فقد الطفل لعطف أسرته . ويقع كثير من الفتيات فى حبائل الشبان ، إن كن يعشن مثلا مع زوجات آبائهن أو أزواج أمهاتهن ، إذ أن نفورهن من الجو الجاف أو القاسى يسهل لهن الوقوع فى جو آخر يبدو أكثر عطفاً وأكثر حنواً . والعلاقة الجنسية يشعر فيها الشخص عادة بنوع من عطف الفاعل ، أو على الأقل بنوع من اللذة الجنسية يطغى على الألم أو الشقاء النفسى (١) .

وكنا نجد فى بعض الحالات طفلا ذكراً ، وسيم الوجه ، تعيس النفس ، بسبب سوء معاملة والديه له ، أو لجفاف جو المنزل ، أو لتفكك الروابط العائلية أو غير ذلك — يقع هذا الطفل فريسة لآخرين فيستغل استغلالا جنسياً مفرطاً . ونجد هذا أحياناً فى المؤسسات التى يعيش فيها الناشئون بالقسم الداخلى . وهناك قد تتخذ المسألة الجنسية

---

(١) يلاحظ أن فقد السعادة قد تعوضه إما سعادة أخرى أو لذة حسية . ولذلك يبحث تعساء النفس أحياناً عن شرب الخمر ، أو الإغراق فى التدخين ، أو الشره فى الأكل ، أو الاستمناء ، أو غير ذلك من اللذات الحسية التعويضية التى سبق أن أشرنا اليها فى الفصل الثالث عشر (ص ٢٥٢)

أداة للتخويف ، ويقع بعض الأولاد فيها بسهولة جرياً وراء العطف والحماية ، أو هرباً من التهديد بالضرب أو تشويه السمعة . (ونعلم كذلك أن العلاقات الجنسية من نوع اللواط والسحاق وما شابه ذلك ، تكثر حين يكبر العائق بين اختلاط الجنسين ، وتكثر كذلك حين توجد حاجة ملحة للعطف). ولعل هذا يفسر مايحدث فى السجون والملاجىء من اتصالات جنسية تقع عادة على مدى واسع .

نرى مما تقدم أن المشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات توضع جل بذورها عادة من السنوات الأولى بسبب انعدام استقرار الجو المنزلى أو قلة استقرار العلاقات بين الوالدين وموقفهما من المسائل الجنسية ومقدار ما يوضع عليها من قيود غاشمة . ويتأثر السلوك الجنسى كذلك بالظروف الحالية والآمال المستقبلة ، كما يتأثر بعوامل أخرى كامنة فى كل من الأسرة والمجتمع .

الاستمناء

ومن العادات التى يذعر لها الآباء والمدرسون ما يسمونه بالعادة السرية أو الاستمناء ، وهى عادة بين المراهقين من البنين أكثر منها بين البنات . وتعلل شرلوت بهلر [1] ذلك بأن الحاسة الجنسية عند البنين محلية ومركزة فى الأعضاء التناسلية ، ولكنها فى البنات عامة وموزعة على مساحة كبيرة من سطح الجسم .

وقد يبدأ اللعب بالأعضاء الجنسية فى سنى الطفولة الأولى عن طريق اللعب العادى أو الرغبة فى الكشف العادى لأجزاء الجسم أو أى دافع سطحى بسيط . وقد يشتق الطفل من هذه الملامسة لذة كما يشتقها من أى جزء آخر من أجزاء جسمه ولكن يحدث أحياناً أن يلفت نظر الطفل إلى ما يعمل بقصد صرفه عنه ، فتكون النتيجة أن يتجه ذهن الطفل إليه ويكسب فى نظره أهمية بالغة وذلك لما يظهره الوالدان أمامه من علامات الانزعاج والتألم والرغبة فى منعه من الاستمرار فى هذا النوع من اللعب .

(١) C. Buhler : From Birth to Maturity.

وقد وصل المنع فى إحدى الحالات إلى ربط يدى الطفل ورجليه إلى جانبى السرير حتى لايحدث احتكاك من أى نوع . مما ركز اهتمام الطفل بأشد صورة ممكنة فى العضو التناسلى وزاد من أهميته فى نظره ومما وجه انتباه الطفل كذلك إلى قبح العضو وقذارته وارتباطه فى ذهنه بارتباطات قد يكون لها أثر سيىء فى مستقبل حياته .

ومما يساعد على تثبيت اللعب الجنسى عند صغار الأطفال عدم شعورهم بالسعادة لسبب من الأسباب ، أو شعور عام غامض لديهم بحالة القلق وعدم الارتياح وحسرة الطفل على نفسه ، واستغراقه تبعاً لذلك فى نوع من اللذة شبيه بمص الأصابع يصبح سلواه فى شقاء نفسه ، وهذا النوع من اللذة قد يكتشفه — كما قلنا — عن طريق الصدفة فى أثناء اللعب وكشف العالم المحيط به وموقف الناشىء من اللذة الجنسية فى هذه الحالات شبيه بما سبق أن ذكرناه عن الشره أو التدخين . . أو ما إلى ذلك .

ولذلك يجب العمل على أن ينشغل ذهن الطفل ببعض الميول والهوايات العملية التى يشعر مع تحقيقها بالإنتاج الملموس . وبذلك يتجه إلى الابتداع والإنتاج والعمل اليدوى كمصدر للسرور ، بدلا من أن يتجه إلى أجزاء جسمه المختلفة كمصادر للذة ومجرد السلوى . كما يجب أن تراعى القواعد البسيطة التى قد تساعد الطفل على وقايته من الاستمناء كاتساع الملابس ، والنظافة المحلية ، ومنع المهيجات بأنواعها المختلفة ، والتمتع بالفسحة ، والهواء الطلق ، ومنع كل ما يترتب عليه الشعور بالوخم ، والميل إلى النوم . . . وما إلى ذلك .

ويجب عند علاج الاستمناء عند الأطفال أن نلاحظ أنه إذا كان يصاحبه انفعال واستغراق كان راسخاً عميق الأصل ، وإن كان لا يصاحبه انفعال واستغراق ، فهو لعب عادى ، بسيط سريع الزوال . ويراعى عند العلاج كذلك عدم تناول العرض الظاهرى فقط ، وإنما نتناول أسبابه ، والظروف التى تساعد على ظهوره ، فنغيّر منها حتى ينصرف الطفل عن هذه العادة . على أن جزءاً من العلاج يتجه إلى الأغراض

تلخيص المشكلات الجنسية وأسبابها

يتبين من كل ما تقدم أن المشكلات الجنسية بأنواعها المختلفة ، مرتبطة بنمو الفرد ، وعلاقته ببيئته الأولى ، وخبراته المشتقة من هذه البيئة . إذ يقف الطفل غالباً فى أول حياته من أعضائه التناسلية موقفاً بريئاً ، ولكن الآباء قد يكون عندهم اتجاه الاستقذار ، والخوف ، والشعور بالجرم نحو اللعب الجنسى العرضى ، فيتأثر الأبناء بذلك فى الاتجاه غير الصحى .

وقد يحدث تثبيت على الأب ، أو الأم بسبب التدليل ، وميل الآباء أو الأمهات إلى حمل الأطفال ولمسهم والتمسح فيهم والإسراف فى تقبيلهم وضمهم إليهم بشره ، واشتقاق اللذة من هذا كله ، مما يثير الأطفال ويجعلهم ميالين أحياناً إلى اشتقاق اللذة من اللمس وما إليه . وقد يترتب على هذا كما قلنا تثبيت على الأم أو الأب ، فيترتب عليه انحراف فى الاتجاه الجنسى ، وهذا أحد التفسيرات التى تعطى لتكوين الأساس للنزعة الجنسية المثلية (Homosexuality) ، أو التعبيرات الشاذة للنزعة الجنسية الغيرية (Heterosexuality) .

وأما إهمال الأطفال ، وعدم إشباع حاجاتهم الطبيعية إلى العطف ، فقد يترتب عليه رغبة الطفل فى الانتقام والإيذاء ، حتى يشعر الناس بوجوده . وهذا أحد الآراء التى تعطى لتفسير نزعة حب التعذيب أو السادية (Sadism). وقد يفضل الطفل المهمل فى بعض الأحيان أن يضرب ويؤذى ، لأن الضرب والإيذاء فى نظره مصدر للذة ، لأنه نوع من الاعتراف بوجوده . وهذا أحد تفسيرات ظهور الميل إلى حب العذاب أو إيذاء الذات أو الماسوكية (Masochism) . وقد تتخذ السادية عند اكتمال النمو ميلا إلى إيذاء المحبوب ، وضربه ، حتى يتم الاستمتاع الجنسى ، أما الماسوكية فقد تتخذ عند اكتمال النمو اتجاهاً إلى أن يضرب الشخص ويعذب من محبوبه ، حتى يتم الاستمتاع الجنسى .

وخلاصة هذا أن المشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات — التى سبق الكلام عنها — تنشأ عن طريق التربية الأولى للطفل وصلته بمجال حياته فى مختلف أدوارها. فعن طريق التربيـة الأولى ، ومركز الفرد فى مجال حياته ، والتغيرات الطارئة على هـذا المركز تتكون عند الطفل اتجاهات نفسية عامة تتخصص بفعل الظروف الحالية من اسـتثارة وتقليد ، وبفعل الحالة الجسمية والمزاجية . وما إلى ذلك . ولعل ما تقدم كله يدلنا على شدة الحاجة إلى دراسة التربية الجنسية .

المراجع

Adler: Guiding the Child.
Blanton: Child Guidance.
Buhler: From Birth to Maturity.
C. Burt: The Young Delinquent.
Chaloner: The Mother's Encyclopaedia
Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.
Gruenberg: Parent Education.
Hollingworth : The Psychology of Adolescence.
Howard: Mental Health.
Kanner: Child Psychiatry.
Meagher: A Study of Masturbation.
McDougall: Character and Conduct of Life.
N. Haire: Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Neill: The Problem Child.
Neill: The Problem Parent.
Shaffer: Psychology of Adjustment.
Stekel: The Homosexuel Neurosis.
Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.
Thom: Normal Youth.
Van De Velde: Ideal Merriage.
Waters: Youth in Conflict.
Weatherhead: The Mastery of Sex.

الفصل السادس والعشرون

التربية الجنسية

لا يفكر الناس عادة فى أن هناك مشكلة جنسية يمكن أن تحل عن أى طريق منظماً كان أو غير منظم مقصوداً أوغير مقصود . ويرى البعض الآخر أن يتركوا أولادهم يتعلمون ما يتعلمونه عن المسائل الجنسية بأنفسهم ، فيرون ألا يكون هناك جهد إيجابى من ناحيتهم كآباء أو معلمين أو مرشدين فى هذا الاتجاه . ويرى آخرون ألا يتركوا هذه المسائل للطبيعة ، بل يرون وجوب المنع بين الناشىء و بين كل ما يمكن أن يوحى بالمعرفة عن المسائل الجنسية ، فلا يصح أن يرى ما يحدث مثلا بين الحيوان من اجتماع جنسى . وبذلك تصبح المسائل الجنسية فى نظر الطفل سراً شائناً ، ولغزاً مغلقاً . وقد يبقى جاهلا بكل مافيه ، إلى أن تتدفق فيه الأحاسيس الجنسية فجأة تدفقاً عنيفاً ، و إلى أن تظهر عليه علامات البلوغ الظاهرية ، مما قد يزعجه ويزيد من تنحيه عن المعرفة أو التوجيه . ويترتب على هذا التدفق الجنسى المصحوب بالجهل و بالخوف ، والشعور بالقذارة أغلب المشكلات الجنسية المعروفة فى دورى المراهقة والبلوغ . وفى الحياة الزوجية يترتب عليه أغلب أنواع الشقاء الزوجى . ويترتب عليه أيضاً مشكلات أخرى تظهر نتيجة تعقد المشكلة الجنسية ، كجنون التدين وحالات السيكاستينيا (وكانت تسمى إلى عهد قريب بالنيوراستينيا) ، والهستيريا ، والملانكوليا وغير ذلك .

يضاف إلى ما تقدم أن تطور المدنية فى الاتجاه الذى نألفه ، يزيد فى الضغط والتقييد والاستثارة فى نفس الوقت لنشاط الناشئين من الناحية الجنسية . وهذا يجعل الموقف مليئاً بالصعوبات التى تلح فى طلب الحل فى اتجاه التربية الجنسية .

ويقصد بالتربية الجنسية إعطاء الطفل الخبرة الصالحة التى تؤهله لحسن التكيف فى المواقف الجنسية فى مستقبل حياته . ويترتب على إعطاء هـذه الخبرة أن يكسب الطفل اتجاهاً عقلياً صالحاً إزاء المسائل الجنسية والتناسلية . ومن الواضح أن تكوين الاتجاه العقلى لا يقتصر على إعطاء المعلومات والتفسيرات التى تنير هـذا الميدان أمام الناشىء . فالمعلومات الجنسية بمفردها غير كافية لتكوين هـذا الاتجاه العقلى الذى لا ينمو إلا عن طريق الاحتكاك المستمر بين الناشىء ، وبين بيئته الاجتماعية من آباء ومعلمين وزملاء من الجنسين . كذلك لابد من كسب خبرة مشابهة عن طريق الملاحظة الحسية وغير الحسية لحياة النبات وحياة الحيوان بأنواعها المختلفة[1] . هـذا الاحتكاك المستمر يؤدى إلى كسب المعرفة بنوع خاص ، ويؤدى بوجه أوسع إلى كسب الاتجاه العقـــلى ، ولذا كان من الضرورى الاعتماد على التعليم والتقليد والإيحاء والتوجيه .

ولهذا كله وجب أن نضع فى متناول الطفل مصادر الخبرة الشخصية ، وأن نتصف نحن الآباء والمعلمين ، بالاتجاه العقلى الصالح الذى نرغب أن يكسبه الطفل منا عن طريق الامتصاص أو التقليد والإيحاء . ووجب كذلك أن نستنتج أن التربية الجنسية أوسع بكثير من التعليم الجنسى وأنها لا تقتصر على سن معينة بل تبدأ من السنوات الأولى فى حياة الطفل .

موقف الطفل من المسائل الجنسية

ويجب أن يكون موقف الطفل الأول من المسائل الجنسية كموقفه من جميع المسائل الأخرى . والطفل لحداثته فى هذا العالم ، ولضرورة حسن تكيفه معه ، لا بد أن يكسب خبرة عن البيئة المحيطة به ، فيفحص الأشياء ، ويلعب بها ، ويشتق منها خبرة واسعة ، وبمجرد نمو قدرته اللغوية يكمل وسائل بحثه بالأسئلة التى يوجهها لمن حوله

(١) انظر « قصة الحياة فى جميع الأحياء » للدكتور القوصى والأستاذ طنطاوى .

عامة ، ولوالديه بنوع خاص ، وهو يثق عادة فى قدرة والديه وصدقهما ثقة مطلقة .

ومما يتجه إليه ميله للبحث وشغفه لاستطلاع جسمه ، فكما يضع يده فى فمه ، وكما يعض أصبع رجله وهو مستلق على ظهره ، فإن يده قد تمتد إلى بقية أجزاء جسمه ومن بينها أعضاؤه التناسلية والإخراجية ، ولذا كان اللعب فى الأجزاء التناسلية عند الأطفال فى غالب الأحيان كأى نوع آخر من أنواع اللعب ، ولا سيما إن كان مجرداً من حالة الانفعال والاستغراق الشديدين اللذين يحدثان نادراً .

وحين يتقدم الطفل فى السن ، يبدأ فيلاحظ الفروق بين مختلف الناس من ذكور و إناث ومن كبار وصغار ، ومن إنسان وحيوان ، كما يلاحظ و يدقق فى الفحص عن أوجه الشبه والفروق ، فيسأل أسئلة تتعلق بمنشئه ، ومنشأ إخوته ، ومنشأ والديه ، وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة . وميل الطفل لاستطلاع المسائل الجنسية ميل نقى يتجه إلى المعرفة الخالصة . وقد قال برتراند رسل[1] فى هذا الصدد إن هذا الميل للاستطلاع الجنسى ليس له لون أو طابع معين فى دور الطفولة الأولى ، ولكنه جزء من الميل للاستطلاع العام الذى يتصف به الطفل . وقالت الدكتورة لوراهاتون[2] فى هذا أيضاً إن الاستطلاع الجنسى واللعب الجنسى يتخذان صورة الاتجاه العام للكشف أو النزوع للمخاطرة . ويجب معاملة اللعب الجنسى على أنه لعب ، لا على أنه سلوك سيء ، ولا سيما أنه يحدث مجرداً عن الانفعال الجنسى . و إنما يعقد الموقف و يخلق الانفعال تدخل الكبار وموقفهم تجاه هذه المسائل . ومن ثم يبدى الطفل زيادة الشغف بالبحث عن طريق الخبرة الحسية وعن طريق الأسئلة عن هذا العالم الذى يقع كله فى خبرته بيئة موحدة الأجزاء ، لافرق فيها بين المسائل الجنسية وغير الجنسية . و يدهشه بالطبع أن بعض هذه الأسئلة يجد صدراً رحباً من الوالدين و يجد بعضها الآخر سخرية أو غضباً أو صمتاً أو تحرجاً أو انفعالا من أى نوع ، مما يوحى إلى الطفل بغرابة المسائل الجنسية واختلافها بصورة جوهرية عن غيرها من المسائل .

---

(١) B. Russell : On Education. p. 199.

(٢) L. Hutton: Co-education, British Journal of Medical Psychology 1939, I, pp. 62-71

وقد قام الباحثون المختلفون أمثال بياجيه Piaget ، وغيره ببحث أسئلة الاطفال فوجدوا أنهم يسألون من تلقاء أنفسهم قبل سن التاسعة أسئلة تبين الاهتمام بالأجزاء الجسمية ووظائفها ، و بالأعضاء التناسلية والفروق بينها ووظائفها ، والاهتمام بالعمليات الإخراجية و بأصل الحياة وعمليات النمو ، والفروق بين الصغار والكبار ، والذكور والإناث ، والإنسان والحيوان من حيث تركيب الجسم وحكمة الفروق ، وأوجه الشبه ، وغير ذلك . ويسأل الأطفال أسئلة من النوع الآتى : —

من أين يأتى الأطفال ؟ ولماذا كان لأمه ثدى ، وليس له مثله ؟ وعندما تكبر البنت لتصل إلى سن أمها ، فكيف يكون إذ ذاك شكل الأم وحجمها ؟ وعند ما كانت الأم صغيرة مثله ، فأين كان هو نفسه وكيف ولدت أمه ؟ وتسأل البنت هل سيكون لها شارب مثل أبيها ؟ ولم لا ؟ .

ويرى كثير من الباحثين مثل الدكتورة هتشنسون ، و برتراند رسل ، أن عبء التربية الجنسية يجب أن يقوم به الآباء . ويرى رسل وغيره فوق ذلك أن محور التربية الجنسية هو الإجابة الصريحة عن أسئلة الطفل ، والاتجاه العلمى الخالص الهادىء عند الاستماع لها ، والإجابة عنها .

موقف الآباء من الأطفال فى المسائل الجنسية

نعلم أن الأبناء يمتصون الاتجاهات عن آبائهم عن طريق الإيحاء ، والأم بحكم كثرة تعاملها مع الطفل لا بد أن يكون نشاط الأعضاء التناسلية والإخراجية ميدانا لهذا التعامل . فإذا كانت تظهر اشمئزازها الشديد عند غسل ابنها أو مسحه ، أو توقع عليه عقوبة شديدة إذا حاول أن يراها عارية ، فإن هذا يوحى إليه بما يجب عليه اتخاذه إزاء المسائل الجنسية من تحرز واشمئزاز . وإذا رأى التجهم ، والصمت ، والتحرج إن سأل أى سؤال يتعلق بالناحية الجنسية ، فإنه قد يتجه إلى كتمان كل ما يجيش بخاطره عنها . والطفل فى كل هذا ربما لا يدرك الفروق الدقيقة بين مواقف

والديه إزاء المسائل الجنسية وموقفهما إزاء المسائل غير الجنسية ، ولكنه مع ذلك يتأثر بهذه الفروق مهما كانت دقيقة .

ويترتب على ذلك أن يزداد شغف الطفل بالمسائل الجنسية ، ويشعر بأهميتها ، وضرورة الاندفاع لبحثها ، كما يشعر فى نفس الوقت بأنها تتصف بكثير مما يتصل بالجرم والخطيئة والقذارة والخوف . يضاف إلى كل ذلك أنه يعلم بطريقة ضمنية أو صريحة ما يحدث بين والديه ، كما يعلم أن المسائل الجنسية هى التى أدت إلى وجوده فى الكون ، وبذلك يقع بين أمرين : أحدهما شدة الشغف بأمر تدل كل الدلائل على أنه مهم شائق مرغوب فيه . وتنشأ أهميته بسبب ارتباطه بلغز الوجود ، وبسر العلاقة بين والديه ، وبما يحاط به من الخوف والتستر . وثانى هذين الأمرين أن المسألة الجنسية التى يشغف بالبحث عنها مسألة شبه إجرامية قذرة مخيفة شائنة وبذلك تصبح المسألة الجنسية فى نفسه سراً هاماً ، لذيذاً ، قذراً ، شائناً ، وتبقى بسبب ذلك مصدراً للتناقض فى الاتجاهات النفسية .

ولعل هذا يدلنا على ما يجب أن يكون عليه موقف الآباء إزاء الأعضاء التناسلية والإخراجية والمسائل الجنسية . ومن ثم يكون موقفاً طبيعياً ، هادئاً ، مجرداً من الانفعال ما أمكن ، وبذلك لا يوحى سلوك الوالدين بما يجعل من العسير على الطفل أن يحقق نزعاته الجنسية تحقيقاً تحفه السعادة عند ما يكبر . ويجب على الآباء أيضاً أن يعنوا بالآثار والخبرات الجنسية الأولى للطفل لتكون صحية وصحيحة ما أمكن . كما يجب عليهم أيضاً أن يشبعوا شغف الطفل بالاستطلاع أولا بأول ، إذ أن هذا الإشباع مما يهدىء من حدة الشغف ، ومما يضمن حصوله على معلوماته واتجاهاته العقلية من مصادر طيبة . وإن لم يشبع الطفل هذا الشغف — كما ذكرنا — فقد يحصل على معلوماته من زملائه أو من الخدم أو السوقة والأشرار .

وواجب الآباء أن يجيبوا عن أسئلة الأطفال إجابة صريحة صحيحة، هادئة تلونها الروح العلمية الخالصة ، وأن يجيبوا عن هذه الأسئلة بما يلائم مقدرة الطفل على فهم الإجابات.

ويجب أن يكون موقف الآباء من أسئلة الأطفال ، ولعبهم وشغفهم بالاستطلاع موقفاً ثابتاً ، سواء أكانت هذه الأسئلة متصلة بالعالم المادى أو الاجتماعى ، أم كانت تتصل بجسمه وأجزائه ، ووظائفه ، وخصائصه ، والفروق بين جسمه من هذه النواحى وجسوم غيره من الإنسان والحيوان .

ولعل الفيلسوف العالمى برتراند رسل[1] قد تطرف فى رأيه حيث قال: إنه يجب أن يسمح للطفل من أول الأمر أن يرى والديه وإخوته وأخواته عراة كلما حدث ذلك بصورة طبيعية اعتيادية غير مقصودة . ولا يجوز أن يكون هناك إظهار للتحرج إزاء رؤيتهم عارين . لأنه يكفى أن يعلم الطفل بعد ذلك من ملاحظة ما يجرى من آداب أن التستر أمر واجب . يترتب على ذلك — فى نظره — أن يكشف الطفل فى الحال الفروق بين أمه وأبيه ، ويوازن بينهما ، ويعرف كذلك الفروق بين الإخوة الذكور والأخوات الأناث . وسواء أكنا نوافق على هذا الرأى أم لا نوافق فإن رسل يرى أنه متى كشف الموضوع إلى هذا الحد فإنه يفقد قيمته موضوعاً يشغف الطفل بالبحث فيه . ومثل السر المعروف فى ذلك مثل الصندوق المفتوح لا يسترعى انتباهاً ولا يغرى بالفحص عنه . وكل سؤال يتقدم به الطفل فى هذا الدور (السنوات الأولى) يلزم أن يجاب عنه بما يلائمه كما يجاب عن أى سؤال يرتبط بأى موضوع آخر.

ويخطىء الآباء حين يلتزمون الصمت إزاء أسئلة أبنائهم ، لأن الصمت ليست له نتائج سلبية فحسب ، بل أنه يوحى بأفكار إيجابية ، تتضمن خطورة الموضوع ، ووجوب معاملته كسر شائن . ولذا كان الصمت مؤدياً إلى نفور الأبناء من الآباء ، وإلى بحثهم عن المعرفة من مصادر غير مرغوب فيها إطلاقا كالخدم مثلا .

التربية الجنسية للآباء

يتبين مما تقدم أن من أولى الواجبات أن يتربى الآباء التربية الجنسية الصالحة .

(١) B. Russell: On Education p. 170

وقد قامت مسز جرينبرج[1] بهذه التجربة فى أمريكا منذ أكثر من ثلاثين سنة. وهى ترى أن الآباء بحكم تأثيرهم الأول والمستمر على الطفل من جميع نواحيه، فإن لهم أهمية خاصة من حيث وظيفتهم لتربية الأطفال الجنسية. ومن رأيها أنه ليس من الضرورى أن يصل الآباء إلى نهاية المعرفة والخبرة الفنية فى التربية الجنسية، إذ يكفى أن يتمكنوا من معالجة المسائل الأساسية الأولى. وطريقة تربية الآباء تربية جنسية، هى اشتراكهم فى حلقات للدراسة الجمعية، واستماعهم لأحاديث الإخصائيين، وإعطاؤهم فرصة المناقشة، وتبادل الرأى والخبرة، مما له أثر من حيث التنوير، ومن حيث تهدئة الحالة النفسية. وللمناقشات أثرها القيم بالنسبة للآباء الذين يمنعهم التردد والخجل عادة عن المناقشة الحرة الصريحة، إذ يجرؤون تحت ظروف حلقات الدراسة الجمعية، على التكلم والمناقشة مما يساعد على تخليصهم من كثير من النزعات المكبوتة، ولو تخليصاً جزئياً. وترمى هذه الحلقات أيضاً للوصول إلى سلوك جنسى طيب قد يؤدى إلى توطيد دعائم السعادة الزوجية. ولا بد أن يتوافر فى محيط الطفل إزاء الأمور الجنسية مستوى راق وجو يشعره بالسعادة الزوجية، كى يتكون لديه اتجاه جنسى صحيح.

ويتلخص برنامج التربية الجنسية بالنسبة للآباء، فى درسهم المبادىء الأولية، للتشريح وعلم الحياة، وأسس الصحة الجنسية، والفروق الفردية بين الذكور والإناث فى مراحل النمو المختلفة، والخصائص العقلية والجسمية للطفل فى مراحل النمو المختلفة، وما يجب اتخاذه إزاء نزعات الطفل، ووجوب معاملة هذه النزعات كلها على قدم المساواة، بما فيها النزعة الجنسية، ومراعاة أن النزوع الجنسى ليس فى ذاته شراً أو خيراً، إنما الخير والشر فى طريقة توجيهه وأساليب ممارسته. كذلك عليهم أن يعلموا شيئاً عن التربية الخلقية والاجتماعية، وحكمة التشريع، والتقاليد، والآداب الزوجية والتناسلية، وأن يعرفوا أسس الإجابة عن أسئلة الأطفال والمراهقين والبالغين،

(١) Gruenberg : Discussing the Work of the Home : Towards A New Education (N. E. F. p. 244.)

وأن الأساس فى التربية الجنسية هو الموقف العلمى المستقر الهادىء الخالى من الخوف من جانب الآباء .

وقد وجدت مسز جرينبرج[1] أن هـذه الدراسات والمناقشات الجمعية تخلق بالفعل الاتجاه الوجدانى والعلمى الصحيح فى الآباء ، ولها بالتالى أثرها فى الأبناء .

قواعد عامة للتربية الجنسية

وهناك أسئلة عديدة تتعلق بالتربية الجنسية يمكن أن نلخص أهم اتجاهاتها فيما يأتى :

١ — هل تترك التربية الجنسية لمحض الصدفة ؟ أو يبذل فى اتجاه تحقيقها جهد مقصود ؟

٢ — هل يقوم بها الوالدان أو الأطباء أو المدرسون ؟

٣ — وإذا قام بها المدرسون مثلا فهل تعطى بطرق فردية أو بطرق جمعية ؟

٤ — هل تعطى التعاليم الجنسية تعاليما قائمة بذاتها مستقلة عن كل ما حولها أو تعطى جزءاً من معلومات أخرى ؟

٥ — فى أى سن تبدأ التربية الجنسية ؟

وقد سبق أن أجبنا عن بعض هذه الأسئلة فى ثنايا ما تقدم ، وقررنا ألا تترك التربية الجنسية للصدفة ، لأن المسائل الجنسية شائقة وهامة ، ويسعى الطفل إلى معرفتها ، إن هى أخفيت عنه — من الخدم والزملاء . ويحتمل أن يقدم له هؤلاء معلومات خاطئة ، ملونة بلون مثير على غير الصورة التى نتوخاها . ويتلذذ عادة بعض الأطفال من تعليم من يجهلون من زملائهم شيئاً عن هذا السر . ونظراً لأنه سر شائن ، فهم يعلمونهم إياه بشىء من التكتم ، مما يزيد الأمر خطورة فى نظرهم . والطفل الذى يقف موقف المعلم ، يستعمل سيطرته ، يلجأ إلى وسائل التعذيب العقلى والمنع والتكبر والترفع والمبالغة والاختلاق وغير ذلك . ويمهد أحياناً بعض الأطفال

(١) Gruenberg : Guidance of Chidhood and Youth p. 236.

المراهقين لبعضهم الآخر فرصة الحصول على خبرة جنسية حقيقية ، تحت ظروف تترك عادة أسوأ الآثار النفسية وراءها .

ونظراً لمعاملة الزملاء للمسائل الجنسية كأنها سر عظيم فإنهم يميلون إلى التندر بها فى إشاراتهم وأحاديثهم ، ونكاتهم ، ورسومهم فى دورات المياه ، وغير ذلك .

لهذا يجب أن نعمل على إعطاء المعلومات بطريقة صحيحة فى المنزل والمدرسة ، وأن تعطى بحيث لا تصبح سراً شائناً ، أو لغزاً عظيم الشأن . وقد اختلف الباحثون فيما إذا وجب أن تعطى هـذه المعلومات بطريقة فردية أو جمعية ، وإن كان بعض أئمة علماء النفس ، أمثال شتيكل[1] (Stekel) ، وغيره ، يرون الاقتصار على الطريقة الفردية . قال شتيكل فى هذا الصدد إن التعليم الجمعى فى المدارس يسبب مشكلات نفسية عديدة (Enlightenment en masse in schools. starts countless traumas).

ولـكن مع ذلك يتجه أغلب الرأى الآن نحو التعليم الجمعى ، مع إعطاء الفرصة لإجابة الأفراد عن مشاكلهم فى جلسات فردية خاصة ، إن هم أرادوا ذلك .

والذين لا يرضون عن التعليم الجمعى يقولون إن التلاميذ ليس لديهم الاستعداد للاستفادة فى وقت واحد من هـذا التعليم ، ويقولون إن لـكل تلميذ تاريخه الخاص وخبرته مشكلاته الخاصة . ويرى بعض هؤلاء أن من مآخذ الطريقة الجمعيـة أنها تقلل من قدسية الموضوع ، وتسهل التحدث فيه .

غير أن التعليم الجمعى يتميز على الفردى فى ناحيـة هامة : فالطفل الخجول قد يقل خجله فى حالة التعليم الجمعى ، حين يرى زميلا له يسأل سؤالا ، فيجاب عنه إجابة علمية خالية من التحرج . ولا يحتمل أن يحدث هذا فى الجلسة الانفرادية . وإذا كان الطفل تلميذاً فى مدرسة ، فقد تتأثر نفسه إذا استثناه معلمه بهذا التعليم الفردى . يضاف إلى ذلك أن التعليم الفردى قـد يشعر بأن الموضوع على درجة كبيرة من الخطورة ، ولهذا أثر سيء محتمل الوقوع .

---

(١) Quoted by Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth p. 236.

وكانت الأسر فى إنجلترا وأوروبا تلجأ إلى طبيب العائلة لكي يعطى الناشىء ما يلزمه من استنارة جنسية . وفى هذا خطر كبير لأن الطبيب — وإن توافرت لديه المعرفة — قد لاتتوفر لديه أساليب الشرح والتوضيح . ثم إن الطفل ربما ينظر إلى الموضوع كأنه مرض أصيب به ، وربما ينظر إليه كأمر غاية فى الخطورة ، لما يرى فى عيادات الأطباء من آلات ، وأدوات ، وغير ذلك . و بالإضافة إلى كل هذا ، فلا يمكن للطبيب عادة أن يوفر الوقت الكافى للناشىء فى موضوع واسع متشعب النواحى كهذا . والاتجاه إلى هذا الرأى يحرم الطفل عادة من فرص استغلال التعليم الهادىء البطىء ، الذى كان يجب أن يبدأ قبل ذلك بمدة طويلة ليستمر سنوات . ويوجه هذا الرأى جو الأسرة إلى زيادة التكتم ، وتحويل المسئولية من أنفسهم إلى الطبيب نفسه . وهذا الاتجاه و إن ظهر فى أوروبا من زمن بعيد ، فهو فى سبيله الآن إلى الزوال لعدم صلاحيته .

ترى من كل ما تقدم ، أن التربية الجنسية يجب أن تبدأ فى المنزل وتستمر فى المدرسة وتؤدى بالأساليب الجمعية والفردية و بالروح العلمية الصحيحة الهادئة ، و يتفق الرأى على أن تعطى المعلومات الجنسية لا كمعلومات أو دراسات مقتطعة ، قائمة بذاتها ، و إنما تعطى كأجزاء متناسقة ومتكاملة مع دراسات أخرى . وقد قال فى هذا الصدد الدكتور إدسون رئيس لجنة الصحة المدرسية فى الولايات المتحدة، إن الخبرات الطويلة قد دلت على أن الدراسات الجنسية القائمة بذاتها تفصل المعلومات الجنسية عن غيرها من المعلومات وتحملها شحنة انفعالية كبيرة ، وتجعل من الصعب هضمها وتمثيلها فى السلوك اليومى للطفل (١) .

ولذلك وجب أن تعطى الدراسات الجنسية بالمدرسة ضمن دروس مشاهد الطبيعة،

---

(١) Long and varied experien ce of schools has demonstrated that the so-called «Sex Courses» tend to isolate and emotionalise materials, making it difficult to incorporate them into the everyday conduct of the child.

New Education Fellowship; Towards A New Education p. 242.

وعلم الأحياء ، والصحة ، والتشريح . وفى السنوات المتأخرة تعطى الأمراض السرية ، والصحة الاجتماعيـة ، والأخلاق التناسلية ، والجنسية ، وحكمة التشريع الاجتماعى للزواج ، وقواعد تكوين الأسرة تكويناً صحياً .

أما عن سن بدء التربية الجنسية فلا شك أنه يجب أن يبدأ منذ السنة الأولى بتكوين اتجاه عام لدى الطفل إزاء المسائل الجنسية . وعندما يبدأ الطفل أسئلته ، يلزم أن يجاب عنها فى حينها بما يلائم مقدرته على الفهم . ويجب على العموم أن يلم كل ناشىء ، ذكراً كان أو أنثى ، قبل سن المراهقة بجميع المعلومات الأساسية فى هذا الموضوع ، إذ لاتكون الحالة الانفعالية بعد هذه السن ملائمة لتقبل المعلومات بسهولة . ويجب أن تعطى الخبرة والمعلومات فى كل مرحلة بالطريقـة التى تلائمها . وإن كان أغلب الباحثين لا يحـدد سناً معينة يتم قبلها الإلمام بالتعاليم الجنسية ، غير أن جميعهم ينصحون بعدم التأخر إلى بدء المراهقة ، وبوجوب البدء المبكر متى جاءت الفرصة . بل ويرى رسل وجوب إعطاء الطفل جميع المعلومات اللازمة قبل سن العاشرة ، حتى ولو لم يشعر الطفل بالحاجة إلى الاستفسار عنها من غيره .

بعض المحاولات فى التربية الجنسية

دأبت بعض الهيئات العلمية والتعليمية فى انجلترا وأمريكا على نشر مايجب اتباعه إزاء التربية الجنسية، ومن هذه نشرة قامت بإعدادها الدكتورة بياتريس وب للمجلس البريطانى للصحة الاجتماعية ، ومن رأيها أن مهمة شرح المعلومات الجنسية ينبغى أن تقع كلها على عاتق الأم ، على أن يساعدها الأب فى هذا السبيل . ولا يجوز أن يوكل إلى الطبيب شىء من هذا العمل . غير أن المدرس يمكنه أيضاً أن يتولاه بعد الاتفاق مع الوالدين . وترى أن يبـدأ التعليم الجنسى بالرد على الأسئلة التى يوجهها الطفل ، ويحسن التبكير بالرد كلما أمكن ذلك . ويجب أن تشمل المعلومات التى تعطى له حقائق عن التلقيح والتوالد فى النبات والحيوان ، وبعض الحقائق عن التغييرات التى

تحدث فى النمو ، و بعض قواعـــد الصحة العامة ، والأخلاق والتقاليد المتعلقة بالجنس والتناسل وحكمة هذه الأخلاق والتقاليد . و بينت المؤلفة ، ما سبق أن بيناه ، فقالت إن الموضوع لايجوز أن يعامل كلغز ، ولا يجوز أن نعتبر أنه لايهم الأطفال إلا بعد وصولهم إلى المرحلة التى يحتاجون فيها للناحية الجنسية احتياجاً مباشراً ، إذ أن ترك الطفل إلى ذلك الوقت المتأخر يوقعه فى يد من يتطوعون لإعطائه معلومات وخبرات مشوهة .

وأهم ما يراعى عند إعطاء التعاليم الجنسية — فى نظرها — هو الاتجاه العقلى العام للوالد أو المدرس و إيجاد رأى عام نحو هذه المسائل[١] .

وقد قامت هيئة المؤتمر السنوى للصحة الاجتماعيـة بأمريكا بنشر ما قررت أنه النقط المتفق عليها نهائياً فى التربية من حيث الصحة الاجتماعية[٢] ونلخص أهم هـذه النقط — كما أوردها جرنبرج — فيما يأتى : —

١ — يقصد بالتربيـة الجنسية جميع المسائل التربوية التى يترتب عليها إعداد الناشئين لمقابلة جميع مشاكل الحيـــاة التى يكون مركزها الغريزة الجنسية ، والتى تظهر بصورة من الصور فى خبرة كل إنسان عادى . وتشمل هـذه المشكلات مدى واسعاً جداً من خبرة الإنسان : أبسطها المسائل الأوليـة المتعلقة بالصحة الجنسية الشخصية ، وأعقدها المشكلات الجسمية والاجتماعية والنفسيه التى تتعلق من قريب أو بعيد بالسعادة الزوجيه وحياة الأسرة بوجه عام .

٢ — لايجوز أن يكون هناك دراسات قائمة بذاتها تسمى الدراسات الجنسية ، ولايجوز أن يكون هناك أجزاء من المناهج الدراسية فى المدارس أو الكليات تسمى الدراسات الجنسية .

٣ — تقدم التربية الجنسية فى المدارس ضمن دراسات أو موضوعات أخرى .

---

(١) B. Webb : The Teaching of Children as to the Reproduction of Life : British Social Hygiene Council.

(٢) Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth p. 243

وحيث إن التربية الخلقية الجنسية لاتخرج عن أن تكون جزءاً من التربية الصحية أو الخلقية وجب أن يكون التوجيه الجنسى والدراسات الجنسية المقصود بها تكوين اتجاهات عقليـة صحية وعادات طيبة ومثل عليا جزءاً لايتجزأ من المنهج التعليمى والتربوى العام .

٤ — تدل الدراسات السيكولوجية على أن التوجيه الجنسى للانسان ، وتدبير سلوكه الجنسى يجب أن ينبنى على أساس الاختيـار الذاتى الحر ، المبنى على الإدراك والمعرفه وبمعنى آخر يجب أن تكون هناك ضوابط إرادية للدوافع والرغبات الغريزية التى تستثيرها أنواع المغريات والمثيرات المحيطة ، وتقويها ذكريات المـاضى المتراكمة من أيام الطفولة .

٥ — ترمى التربية الجنسية إلى إعطاء الناشىء أسساً للضوابط الإرادية للسلوك ومن هذه الأسس : احترام الرأى العام المتعلق بالمسائل الجنسية ، وتذوق الآداب الجنسية وتقديرها ، ومعرفه النتائج القانونية والاجتماعية والطبية ، والشعور بالمسئولية الشخصية والاجتماعية ، وتقليد بعض الأشخاص المثاليين ، والتعفف الرقيق المناسب بدلا من الخجل والرعونة اللذين كنا نلاحظهما قديماً ، أو الوقاحة التى نلاحظها الآن، واحترام الأنوثة والرجولة ، وتكوين عادات ضبط الذات ، ومعرفة العلاقات العـامة بين المسائل الجنسية والحياة ، وإنمـاء وسائل الترفيه العقلى والجسمى لا كوسائل لإعلاء الغريزة الجنسية ، بل كوسائل لابدالها ، والعـلم بجزاء الامتناع والتعفف عند الناشئين ودراسة الأدب الذى يصور الحب فى أسمى الصور وأرقاها .

٦ — تدل الدلائل على أن الآباء لا يعرفون إن كانت هنـاك وقاية كافية ضد معرفة أولادهم للمسائل الجنسية بأسوأ الوسائل . فمن المؤكد أن كل طفل تقريباً سيصل إلى المعلومات الجنسية على أقصى تقدير فى السنوات الأولى من بلوغه من مصادر غير مرغوب فيها ، ويترتب على هذا فساد الصحة ، وانحطاط الخلق والطريق الآمن الوحيـــد هو خلق اتجاه صحى فى عقل الناشىء بتعليمه بالتدريج ، وأولا

بأول ، كل ما يتعلق بما يخطر على باله من المشكلات الجنسية .

٧ — تجمع التربية الجنسية بين أوجه من التربية الخلقية والتربية الصحية ، ولذا لايمكن اكتمالها بكل عناصرها فى وقت واحد ، فهى عملية تدريجية بطيئة تشمل العناية الصحية والتوجيه والتعليم وحسن المثال . وهذا يضع على المنزل جل مسئولية التربية الجنسية المباشرة فى المراحل السابقة للمراهقة . ولهذا يجب إعداد الآباء ، وكل من لهم صلة بالطفل عن طريق النشرات ، والمحاضرات ، والمناقشات ، ليعدوا أنفسهم لتعليم النشء ، وتوجيههم فيما يختص بالمسائل الجنسية .

وقد عنيت بإيراد هذه النقط بالتفصيل لسبب هام ، وهو ما يقع فيه الكثيرون ممن يقومون بعلاج الشبان علاجا نفسياً ، إذ يوجهونهم أحياناً إلى اتباع الحرية فى ممارسة المسائل الجنسية ، مما يترتب عليه الوقوع فعلا فى مشكلات نفسية أخرى أعقد بكثير مما كان لديهم .

ومن أمثلة ذلك أن عرض أحد الشبان نفسه على أحد المعالجين النفسيين فقال له القائم بالعلاج — على خلاف ما يتفق مع المبادىء الأولية فى العلاج النفسى — إنه يشكو من كبت فى الغريزة الجنسية ، وأفهمه أن التقاليد والآداب الجنسية وغير ذلك إنما هى من عمل الإنسان ، وليس لها فى ذاتها قيمة . حاول الشاب بناء على هذا أن يشبع نزعته الجنسية ، ثم كف بعد مدة عن ذلك إذ تولاه الاشمئزاز والتقزز وزيادة الكبت . وكان اتجاهه العقلى أنه كان كشاب صغير لا يمكنه أن يتمتع بحرية جنسية فى نظام تقاليدنا الحاضرة إلا مع فتاة منحطة الخلق وهذا يبعث فيه الاشمئزاز مما زاد فى اضطرابه فى ذلك الوقت ، وجعله يتردد بين شدة التدين والانكباب على الاستمناء والإدمان على شرب الخمر . ووصل به الأمر إلى تعاطى الحشيش وأنواع المكيفات وانصرف عن عمله ، وكانت تنتابه حالات شديدة من الانقباض وضيق الصدر وبقية أعراض القلق العصبى .

التربيـة المختلطة

وقد قامت بعض المدارس بتجارب فى التربية الجنسية ، ورأى بعض النظار[١] أن التربية المختلطة وهى تعليم البنين مع البنات ضرورية للتربية الجنسية فى جميع مراحل التعليم . فإن كان يراد بالمدرسة أن تكون صورة من المجتمع ، فيجب أن تكون صورة حقيقية منه . وحيث أن البنين والبنات يختلطون فى المجتمع ، فيجب أن يختلطوا قبل ذلك تحت ظروف المدرسة خاضعين لبعض التوجيه . وهذا التعليل ينقصه بعض القوة ، إذ قد يرد عليه بأن الواجب مراعاة المرحلة التى نكون بصددها ، وفى ذلك تحقيق لحاجات المرحلة التالية لذلك . ولـكن الأصول فى التربية تقوم على مراعاة الخصائص الحـالية والمستقبلة معاً .

وترى الدكتورة هاتون[٢] وهى تعتمد على ملاحظاتها القائمة على التحليل النفسى أن التعليم المختلط يزيد عادة من النزعات الاستقلالية للبنات ، إذ يحررهن من اعتمادهن على أمهاتهن ، ويجعلهن كذلك أقل قلقاً ، وأكثر هدوءاً . وللتعليم المختلط — فى نظرها — أثر طيب على الأولاد أيضاً ، فهو يجعلهم أكثر دقة وحزماً مع أنفسهم . فهى بذلك تؤيد التربيـة الجنسية فى التعليم المختلط من حيث تكوين الاتجـاه العقلى العام .

ويلاحظ أن مدى الحرية المعطاة فى التربية المختلطة يختلف من مدرسة إلى أخرى بدرجة محسوسة . ومن المدارس التى قطعت فى الحرية المعطاة شوطاً بعيداً دار تجنتون هول (Dartginton Hall) . ويقول ناظرها الأستاذ كرى[٣] (Curry) إنه إذا كان الطريق الوحيد للاعداد للحياة فى المجتمع هو ممارسة الحياة الاجتماعية ،

---

(١) T. Blewitt: The Modern Schools' Handbook

(٢) I. Hutton : On Coeducation : British Journal of Medical Psychology Vol. XVI 1936, 62—71.

(٣) Curry : Dartginton Hall : The Modern Schools' Handbook pp. 62, 63.

وجب أن تكون البيئة المدرسية أبعد ما يكون عن الجو الصناعى ، ويجب أن يباح للأطفال مواجهة نوع المشكلات التى سيقدر لهم مواجهته فى مستقبل حياتهم . لهذا وجب جعل التعليم مختلطاً ، ولكى يجىء تطبيق التعليم المختلط بأحسن النتائج ، يجب أن تزول كل الحواجز الصناعية بين الجنسين ، ويعتقد ناظر المدرسة أن أساليب الوقاية والتحفظ التى أقيمت بالمدارس التى تمارس التعليم المختلط تؤدى إلى نفس الأخطار التى يراد تجنبها من إقامة هذه العوائق . وإذا كان من بيدهم السلطة يعتقدون أن اجتماع البنين مع البنات اجتماعاً منفرداً لا بد أن يؤدى إلى أسوأ ما يمكن تصوره من نتائج ، فإن سبب ذلك هو أن انفراد البنين بالبنات يصحبه فى هذه الحالات جو صناعى ملىء بخوف كل منهما مما عساه يحدث ، وبذلك يصبح هذا الاجتماع من الخطورة بمكان . لهذا كله فإن مدرسة دار تجنتون تسير بحيث لا يوجد فيها أى قوانين أو نظم حول علاقة البنين والبنات بنوع خاص . فالبنون والبنات يعيشون فى نفس البيوت (houses) على نظام الأسر . وتوجد بين أعضاء هيئة التدريس الذين يعيشون بالفعل معهم وبينهم جو الصداقة العميقة ورفع الكلفة رفعاً تاماً ، مما يضمن وقوف المعلمين على كل ما يمكن أن يحدث ، ومما يضمن التوجيه المقبول إذا احتاج إليه الأمر .

ويعترف ناظر المدرسة بأن علاقات الحب فى مدرسته المختلطة لا بد أن تنشأ ، لكنه يؤكد أيضاً أن التربية الانفعالية الجنسية لا تتم إلا إذا واجهناها أولا فى ظروف خاضعة للارشاد والتوجيه الصحيح .

وهناك مدرسة أخرى وهى مدرسة سمرهل وناظرها نيل[1] ، وقد قطعت شوطاً أبعد من المدرسة السابقة فى مدى الحرية التى تعطى للتلاميذ من الجنسين فى اختلاطهم وأحاديثهم ونكاتهم . فناظر المدرسة يسمح للأولاد — إن أرادوا — أن يتحدثوا فى المسائل الجنسية علناً وبحرية تامة ، حتى يشبعوا منها وتزهدها نفوسهم ويملوها ،

(١) A. S. Neill : Summerhill ; The Modern Schools' Handbook.

ويترك لهم الحرية التامة فى اختلاطهم بعضهم مع بعض ، ولـكنه يستغل الرأى العام فى مدرسته ، ويستغل قيمة سمعة المدرسة فى نظر هذا الرأى العام لتكوين المستويات الخلقية اللازمة لتوجيه سلوك تلاميذه . ومن أمثلة ذلك (١) أنه قبل فى مدرسته فتاة وفتى أتى كل منهما من مدرسة أخرى من المـدارس العادية ، فتـكونت بينهما فى الحـال صداقة . وبدأ ينفرد أحدهما بالآخر بطريقه مثيرة للشبهة . فقال لهما الناظر الأستاذ نيل إنه من الناحية الخلقية لا يهمه شخصياً ما يفعله كل منهما مع الآخر ، غير أن سلوكهما هذا سيسىء حتما إلى سمعة المدرسة كلها ، وإذا هما أنجبا باختلاطهما هـذا طفلا فإن المدرسة لا يمكنها أن تتكفل به (هذا تهـكم) ، ولـكن النتيجة الحتمية الخطيرة فى هذه الحالة هى انتهاء حياة هذه المدرسة والقضاء عليها قضاء تاماً . واسترسل قائلا لهما إنهما يظنان خطأ أن ما يفعـلانه يسمى حرية ، وإنهما لحداثة عهديهما بالمدرسة لا يكنان فى نفسيهما شعوراً بالإخلاص لها . واستمر نيل يخاطبهما بهذه اللهجة الحازمة المملوءة بالثورة والغضب مما يدل بطبيعة الحال على أن الحرية فى هذه المدرسة ليست كما يظن بعض الناس مطلقة بلا حدود ، وإنما يحددها كما قلنا الرأى العام فى المدرسة . ووصلت الحرية حقيقة فى هذه المدرسة إلى درجة الرقص والسباحة المختلطة للبنين مع البنات . وكانت تسير المدرسة فى الظاهر على قاعدة الحرية التامة ، ولـكن التلاميذ كانوا يضعون دستور المدرسـة وقوانينها فى ضوء خبراتهم ومشكلاتهم . وكانوا يعدلون من هذه القوانين والتعليمات على ضوء ما يستجد من المشكلات . وبذلك جاءت كل قوانينهم ونظمهم عن اقتناع ذاتى تام . وذلك فى جميع المسائل صغيرها وكبيرها سواء فى ذلك المسائل الجنسية وغـير الجنسية .

والفرق بين مدرسة نيل ومدرسة دارتجنتون مثلا . أن الأولى أكثر حرية من الثانية ، وأن تقاليد المدرسة يضعها المجتمع المدرسى تبعاً للحاجة الطارئة . ومدرسة نيل قوامها الصراحة التامة فى المسائل الجنسية ، فهى تناقش فيها علناً وبكل صراحة .

فلا سر ، ولا غموض ، ولا استقذار ، ولا قداسة . وكانت هذه المدرسة تصبح مدرسة مثالية حقاً ، لو أن المجتمع الذى سيخرج إليه التلاميذ يشبه مجتمع مدرستهم . ولكن المجتمع له تقاليده ومبادئه الدينية والخلقية وله قوانينه ومثله ونظمه الثابتة التى يجب أن يخضع لها التلاميذ . فيجب مع الحرية أن نوجه التلاميذ إلى تقدير هذه التقاليد ، وفهم الحكمة منها . ويعترف نيل بأن الناشئين لا يمكنهم أن يضبطوا أنفسهم بغير دين أو أخلاق ، ولكنه يريد من التلاميذ أن يكونوا مستويات سلوكهم — كما قلنا — بأنفسهم فى المدرسة . وهذه فى رأينا مرحلة قد تكون طويلة ، ولا تضمن انسجام نتائجها مع المستويات الكائنة فعلا فى المجتمع .

ومن مدارس التعليم المختلط الأكثر تقيداً من المدرستين السابقتين مدرسة بدالس (Bedales) ، ويقول ناظرها إن الناحية الجنسية وما يجب إزاءها فى دورى الطفولة والمراهقة لها مشكلات تظهر فى كل مدرسة . وتظهر هذه المشكلات بنوع خاص فى مدارس التعليم المختلط . وأساس معالجتها الصراحة التامة ، وفهم حاجات الطفولة والمراهقة ، والعطف على الناشئين إزاء هذه الحاجات . وهو يعطى فى مدرسته الدراسات الجنسية ضمن الدراسات العادية بالمدرسة . فهى جزء من التشريح ، وجزء من علم الحياة . وفى السنوات الأخيرة من المدرسة تناقش الصحة الشخصية والاجتماعية المرتبطة بالناحية الجنسية . وهذا يكفى فى رأى ناظر المدرسة ، إذ أنه يعنى فى المدرسة بالتعبيرات الوجدانية عناية كافية فى التمثيل ، والموسيقى ، والشعر ، والفن التصويرى . ويضاف إلى ذلك ، الجهد المشترك الذى يقوم به البنون مع البنات فى كثير من أعمال المدرسة ، وفى الدراسات الاجتماعية ، والخدمات الاجتماعية للأسر المجاورة للحى الذى به المدرسة . وتدريب التلاميذ على العمل المشترك بين الجنسين يعودهما الاشتراك فى نشاط يهمهما دون أن يشغل ذهنهما بالمسائل الجنسية .

ويرى لين هاريس[1] وهو ناظر لمدرسة ناهضة بانجلترا اسمها (مدرسة سان

(١) Lynn Harris: St Christopher School : The Modern Schools' Handbook.

كرستوفر) أن يعلم البنون مع البنات ، وألا يجبر أحدهما على اتباع نظام معين تكون فيه الخواص الجنسية هى الخواص الأساسية . ويراعى فيمن يقومون بالإشراف على بيوت الطلبة أن يكونوا سعداء فى حياتهم الزوجية ، وأن يشتركوا هم وزوجاتهم فى الإشراف الفعلى والسكنى مع الطلبة والطالبات . ويرى لين هاريس أن إشباع الاستطلاع الجنسى وتوجيهه يجب أن يبدأ فى البيت ، ويستمر فى المدرسة ، وألا تعطى معلومات صريحة قائمة بذاتها ، وإنما تعطى أجزاء متكاملة مع التربية المستمرة خلال الحياة المدرسية ، وتعالج المسائل الجنسية بتعاون الآباء والمدرسين ، حتى يمكن توحيد وجهات النظر ، وضمان استمرار الوجهة الصحيحة . أما التعليم الجنسى فإنه يدخل ضمناً فى مشاهد الطبيعة وعلم الحياة وعلم الصحة .

وأما بول روبرتس (Paul Roberts)[1] ناظر مدرسة « فرنشام هيتس » وهى من المدارس الحديثة ، فإنه ينفذ التعليم المختلط ، والتعليم الجنسى ، ويسير على خطة أن الحرية فى التكلم فى المسائل الجنسية تزهد نفوس التلاميذ فيها . ويرى أن ما يتعلق بالمسائل الجنسية يجب أن يفصل فيه البنون عن البنات ، وأن يعطى لمجموعات صغيرة ، وأن تعطى فيه أحياناً الفرصة للمناقشات الفردية . ويبدو بول روبرتس فى كل هذا أميل إلى أساليب المحافظين من زميليه السابقين نيل وكرى .

وتتجه بقية المدارس الحديثة إلى العناية بالمسائل الجنسية عناية كبيرة ، ويختلفون اختلافات بسيطة فى درجة الحرية المعطاة ، أو الأسلوب المستعمل ، أو غير ذلك .

تجارب فى التعليم الجنسى

نعلم مما تقدم أن التعليم الجنسى على الرغم من عظم أهميته لا يخرج عن كونه جزءاً من التربية الجنسية العامة ، وقد اتفقت الآراء بين المربين ونظار المدارس الحديثة — كما بينا — على أن تعطى معلومات جنسية كاملة للناشئين على فترات

(١) Paul Roberts: Frensham Heights School ; The Modern Schools' Handbook.

مختلفة فى حياتهم ، وأن تعطى ضمن علوم أخرى كمشاهد الطبيعة ، أو التشريح ، أو الصحة أو علم الحياة ، أو غير ذلك .

وكان المتبع إلى عهد قريب أن يكتفى بأن يدرس الأطفال عمليات التلقيح والتكاثر فى النبات ، ثم يتركون ليستنتجوا الباقى بأنفسهم . ويلاحظ أن الاقتصار على دراسة النبات أو الاكتفاء بمد هذه الدراسة إلى الأسماك والضفادع عديم الفائدة ، بل قد يضر ، إذ أنه قد يثير مشكلات فى ذهن التلميذ لا يمكنه التفوه بها أمام معلمه أو والده .

وقد قام الأستاذ سمث[1] ناظر إحدى مدارس مقاطعة الينواس بأمريكا بتجربة فى إعطاء دراسات جنسية للتلاميذ ، ومن رأيه أن تكون الناحية الجنسية جزءاً متكاملا مع الدراسة ، لا يمكن فصلها عنها ، وأن تعالج بطريقة طبيعية كما تعالج مواد الدراسة الأخرى . فالتلاميذ فى السنوات الدراسية الخمس الأولى يقومون فى المدرسة بتربية الدواجن والأسماك وغيرها ، وملاحظة هذه الكائنات ، ومناقشة ما يحدث لها . كل هذا يعطى الطفل فكرة أولية صحيحة عن أصل الحياة ، وفكرة التكاثر ، وفكرة الأسر عند الحيوان ، وغير ذلك . وفى السنوات الدراسية السادسة والسابعة يتعلم التلاميذ بطريقة منظمة كثيراً من أجزاء الحيوان ، ووظائفها . ويدخل ضمن هذه الدراسات الجهاز الهضمى ، والتنفسى ، مع الموازنة دائماً بين الإنسان والحيوان . وفى السنة الدراسية الثامنة يتعمق التلاميذ فى علوم الحياة أكثر من ذى قبل ، ويقومون بالتشريح العملى . وفى السنة التاسعة ينتقل التلاميذ إلى دراسة الأجنة ، ودراسة التطور ، وبذلك يستعملون المعلومات المتعلقة بالتشريح والوظائف والعمليات الجنسية . وبعد ذلك — أى عند ما يكون التلاميذ فى سن السادسة عشرة تقريباً — يدرسون شيئاً عن الصحة الجنسية الفردية ، والصحة الجنسية الاجتماعية ، والتقاليد والآداب الاجتماعية المتعلقة بالناحية الجنسية ، فيدرسون البغاء ، والانتاج غير الشرعى ،

---

(١) P. D. Smith : Towards A New Education ; Ch. 5.

والأمراض التناسلية وغير ذلك . ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الجامعة . مزودين بالكفاية من التربية الجنسية التى تتوقف إلى حد كبير على نوع جيد من التعليم الجنسى .

وينفصل البنون عن البنات فى بعض الدروس فى هذه المدرسة من السنة الدراسية الثامنة ، أى بالتقريب من سن ١٣ إلى ١٨

وقد قام اثنان[١] من الباحثين فى ويلز بإجراء تجربة تعليمية فى التربية الجنسية فى المدارس ، بدأت سنة ١٩٢٩ بعد موافقة السلطات التعليمية المحلية عليها . وهى تعتبر ولا شك من التجارب الفريدة فى نوعها من هـذه الناحية ، ومن حيث الروح العلمية التى أجريت بها ، واتساع نطاق إجرائها فى المدارس الأولية المختلفة . وقد وصل عدد هذه المدارس إلى ٩٢ مدرسة ، ووصل عدد التلاميذ الذين خضعوا للتجربة إلى ١٦ ألف تلميذ تقريباً . وقد بدأت التجربة بعمل استفتاء للآباء ، وعقد المؤتمرات لهم . وكانت نتيجة هـذا أن وافق ٩٣ ٪ من الآباء على أن تقوم المدرسة بواجب التربية الجنسية ، وأما الذين لم يوافقوا على ذلك ونسبتهم ٧٪ فبعضهم يرى أن يقوم الوالدان بهذا الواجب ، وبعضهم يرى وجوب عدم التعرض للمسائل الجنسية إطلاقاً . وفريق يرفض التعرض لها فى المنزل أو المدرسة على أسس يرى هو أنها دينية . وفريق رابع التزم الصمت ولم يبد سبباً ما . ويعتقد القائمون بالتجربة والمدرسون الذين ساعدوهم فى إجرائها ، أن الحياة الجنسية الخاصة لهذا الفريق الرابع من الآباء محرجة إلى حد أنهم لا يتعرضون لإبداء أى سبب ، ويحتمل أن يكون لديهم كبت شديد خاص بالمسائل الجنسية .

وبعد فحص ردود الآباء وافقت السلطات المحلية على بدء التجربة ، وهى إعطاء أحاديث بالفصول الدراسية تبدأ بحديث عن الصحة الجسمية . النمو ، وحديث أولى بسيط عن أثر التفكير فى السلوك ، ثم الانتقال إلى الغدد وشرح قيمتها فى النشاط ، والنمو بوجـه عام مع تبسيط كبير . فشرحوا الغدة الدرقية ، والنخامية ، والغدتين

(١) Tucker and Pout Sex : Education in Schools.

فوق الكلوتين ، والغدد الجنسية . وبنفس الطريقة العلمية الهادئة التى شرحوا بها وظائف الغدد ، انتقلوا إلى شرح الوظائف الجنسية الثانوية للغدد التناسلية مع التكلم عن التشريح التناسلى ، وتناولوا بعض القواعد الصحية العامة الخاصة بوجوب لبس الملابس الواسعة التى لاتضغط على هذه الغدد ، ووجوب النظافة المستمرة حتى لاتهيج هذه الغدد ، وغير ذلك . وأحاديث البنين تختلف عن أحاديث البنات ، وتعطى لكل فريق على حدة ، ويقوم رجل بإعطاء أحاديث البنين وسيدة بإعطاء الأحاديث الأخرى . بعد هذا تبدأ أحاديث فى علم الحياة متعلقة بالتكاثر والتلقيح ، والنبات ، وما فيه من الأعضاء التشريحية التى تقوم بهذه الوظائف كالميسم ، والقلم ، والمبيض ، والبويضات ، وحبوب اللقاح . ثم يحدث الانتقال بعد ذلك إلى تكاثر الأسماك ، وبعض مظاهر الحماية والوقاية التى يقوم بها السمك الكبير نحو صغاره حتى يكبر ، ويستقل فى حياته . ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الطيور ثم الحيوانات الثديية ، ثم الإنسان . ويبين فى هذه الأنواع الأخيرة نمو الجنين داخل الرحم الذى يشبه فى وظيفته المبيض فى النبات . ويسمون الرحم بالعش (Nest) لأنه شبيه بعش الطير الذى يحفظ فيه البيض إلى أن يفقس . أما الحديث فى حالة البنات فإنه يضاف إليه شىء عن العادة الشهرية ، ودلالتها ، ووجوب العناية الصحية إزاءها .

ويشار فى الأحاديث التالية لذلك ، إلى أهمية الذكر فى الإنسان ، وطريقة وضعه للخلايا الذكرية داخل الرحم ، حيث يقابل الحيوان المنوى البويضة الأنثية ويتم التلقيح ويبدأ النمو ، ويشار إلى بعض القواعد الصحية الواجب مراعاتها أثناء الحمل حتى ينمو الجنين نمواً حسناً (١) .

ومن أهم الأحاديث مايلى ذلك عن التقاليد الجنسية ، ووجوب مراعاتها ، والحكمة فى ذلك . . إلى غير هذا .

وكانت تتخلل هذه الأحاديث أسئلة يلقيها الأطفال على القائمين بالتجربة

(١) Tucker and Pout (Ibid) p. 115.

حول هـذه المسائل ، ومن أمثلة الأسـئلة المتعلقة بموضوعنا ما يأتى : —

هل يخرج الجنين من السرة أو من مجرى البول ؟

لماذا يلد بعض النساء والبعض الآخر لا يلد ؟

لماذا يولد بعض الأطفال ميتاً ؟

ما طول المدة اللازمة لإنجاب توأمين ؟

هل يمكن أن تلد المرأة مهما كانت عجوزا ؟

هل يمكن أن تلد المرأة دون أن تتزوج ؟

ما وظيفة الوالد فى إنجاب الأولاد ؟ وما الذى يفعله بالضبط لذلك ؟ لمـاذا لا يلد الأطفال ؟

و بعد انتهاء التجربة وجـه أصحابها إلى معلمى المدارس التى أجروا بها تجاربهم استفتاء لاستيضاح رأيهم فى التجربة . وكان أكثر من ٩٠٪ من المعلمين يؤيد التجربة بالطريقة الجمعيـة التى أجريت بها . كما يؤيد ترتيب الأحاديث وتسلسلها ، وكذلك فكرة أن يقوم بإعطائها إخصائى من خارج المدارس وليس من ضمن أعضاء هيئة التدريس بها . ومما لاشك فيه أن نجاح التجربة يرجع بعضه إلى مهارة القائمين بها ، و بعض صفاتهم الشخصية الخاصة . وهذا ينطبق على كل نوع من أنواع التربية والتعليم ، بل وعلى كل عمل فنى من هـذا النوع . ويرجع نجاح التجربة أيضاً إلى موقف القائمين بها إزاء المسائل الجنسية ، والاتجاه العقلى العلمى الهادىء الذى يمكنهم مواجهة التلاميذ به . ويرجع أيضاً إلى نوع المصطلحات والألفاظ التى استعملوها .

وهذا كله لا يعفينا من أن نتذكر دائماً وجوب مراعاة الفروق الفردية فى السن والمزاج والتربيـــة الأولى ، والنظرة الاجتماعية العامة إلى الموضوع ، ونظرة البيئة الخاصة إليه وغير ذلك .

و يقول وليام براون (W. Brown) تعليقاً على هذه التجربة إن أحسن من يقوم بالتربية الجنسية هم الوالدان ، ولـكن حيث أن أغلب الآباء يعوزهم الوقت والرغبـة

والمعرفة الجنسية والمزاج الخاص ؛ فيجب النظر فيما يمكن عمله فى المدرسة للوصول إلى التربية الجنسية اللازمة .

ويلاحظ أننا لم نشر فى هذا الباب إلى التربية الجنسية فى مصر ، وكيف يجب أن تكون . ولكننا اقتصرنا على ما يعمل فى الخارج ، حتى يتبين ما يمكن عمله عندنا مع مراعاة ظروفنا وتقاليدنا الاجتماعية ، ولكن على أى حال يمكننا أن نلمس فى الفصلين السابقين أهمية المشكلة ومدى انتشارها وتغلغلها ، وندرك كذلك الحاجة الملحة إلى وجوب العمل من جانب القائمين بأمر التعليم فى هذا الاتجاه الجديد .

المراجع

قصة الحياة فى جميع الأحياء : للدكتور القوصى والأستاذ طنطاوى

B. Webb: The Teaching of Children as to the Reproduction of Life.

Bennett: The Sex Education of Children.

Hutton: Co-education; British Journal of Medical Psychology, 1936.

Tucker and Pout : Sex Education in Schools.

Russell: On Education.

Schweintiz: How a Baby is Born.

T. Bleitt: The Modern Schools' Handbook.

Valentine: The Psychology of Early Childhood.

ثبت بالمصطلحات

الواردة فى هذا الكتاب ومرادفاتها[1]

قدرة ... ... Ability

التفريغ الانفعالى (المقصود فى التحليل النفسى) ... ... Abreaction

النسبة التحصيلية (العمر التحصيلى / العمر العقلى × ١٠٠) ... ... Accomplishment Quotient

النسبة التحصيلية ... ... Achievement Quotient

مكتسب ... ... Acquired

التملك (غريزة) ... ... Acquisition (Hoarding)

الخوف من المرتفعات ... ... Acrophobia

تكيف (تلاؤم) ... ... Adaptation

» » ... ... Adjustment

بلوغ (بعد المراهقة) ... ... Adolescence (See Puberty & Maturity)

قشرة الكظرية ... ... Adrenal Cortex

الكظرية (الغدة فوق الكلوية) ... ... Adrenal Gland

الأدرنالين ... ... Adrenalin

لب الكظرية ... ... Adrenal Medulla

نزعات اعتدائية ... ... Aggressive Tendencies

الخوف من الأماكن المفتوحة المتسعة (كالميادين أو الصحارى أو...) Agoraphobia

---

(١) ملحوظة : رأينا أن نذيل الكتاب بثبت بالمصطلحات التى استعملت فيه وعددها ٣٠٠ تقريباً وقد استعمل أغلبها بنجاح منذ عام ١٩٣٤ وقد روعى عدم التقيد بإيراد كلمة واحدة للمصطلح الواحد . وروعى كذلك عدم التقيد بالترجمة الحرفية للمصطلح ، إذ ثبت لنا بالخبرة أن من الخير أن يترجم المصطلح بحسب معناه لا بحسب تركيبه اللاتينى . وقد اعتمدنا فى إيراد ترجمة هذه المصطلحات على ما أفدنا من التجريب بالاستعمال . على أننا أفدنا من خبرة زملائنا وتلاميذنا ومن سبقونا من الأساتذة .

Ambivalency ..... التناقض الوجدانى

Anabolism (See Katabolism & Metabolism)..... الهدم الحيوى

Analytic Psychology (See Psycho-Analysis)..... علم النفس التحليلى

Anger ..... غضب

Anorexia ..... فقدان الشهوة (للطعام)

Anxiety ..... قلق

Anxiety Equivalents ..... المعادلات القلقية

Anxiety Hysteria ..... الهستريا القلقية

Anxiety Neurosis ..... القلق العصبى

Appetite (See Needs & Instincts) ..... شهوة

Asceticism ..... مجاهدة النفس

Assertion ..... السيطرة (غريزة)

Association ..... ترابط (ليست تداعى)

Association by Contiguity ..... الترابط بالاقتران

Association by Similarity ..... الترابط بالتشابه

Asthenic Type (See Athletic & Pyknic) ..... النوع الهزيل

Athletic Type ..... النوع الرياضى

Auto-Sexuality ..... الجنسية الذاتية

Auto-erotism ..... التلذذ الجنسى الذاتى

Auto-suggestion ..... إيحاء ذاتى

Behaviour ..... سلوك

Censor (Resistance) ..... رقيب (مقاومة)

Character ..... خلق

Choleric (See Temperament) ..... صفراوى (مزاج)

Chorea ..... الخوريا

Chromosomes ..... الكروموسومات (الصبغيات)

Chronological Age ..... العمر الزمنى

Claustrophobia ..... الخوف من الوجود داخل أماكن مغلقة

Coeducation ..... التعليم المختلط (التربية المختلطة)

Complex ..... عقدة

Complex/Electra ..... عقدة الكترا

Complex/Father ..... عقدة الأب

Complex/Homosexual ..... عقدة الجنسية المثلية

Complex/Inferiority ..... عقدة النقص

Complex/Mother ..... عقدة الأم

Complex/Oedipus ..... عقدة أوديب

Conation (See Will) ..... نزوع (انظر إرادة)

Concommitant Learning ... ... التعلم العرضى (التعلم المصاحب)

Condensation ... ... تكثيف

Conflict/Mental ... ... صراع نفسى

Congenital (See Hereditary) ... ... ولادى (أنظر وراثى)

Compensation ... ... تعويض

Construction ... ... حل وتركيب (غريزة)

Constructive Method ... ... المنهج الانشائى

Contra-suggestibility ... ... القابلية للايحاء العكسى

Contiguity ... ... الاقتران

Contiguity/Spatial ... ... الاقتران المكانى

Contiguity/Temporal ... ... الاقتران الزمانى

Conversion Hysteria ... ... الهستريا التحولية

Coordination ... ... توافق

Correlation/Coefficient of ... ... معامل الارتباط

Correlation/Partial ..... الارتباط الجزئى

Curiosity ..... الاستطلاع (غريزة)

Customs (See Habits) ..... تقاليد (أنظر عادات)

Cycloid ..... المتقلب

Cystitis ..... التهاب المثانة

Dementia Praecox ..... الجنون المبكر

Destructiveness ..... التخريب (التدمير)

Disintegration ..... الانحلال

Dissociation ..... الفصل (فى اللاشعور)

Dramatisation ..... التمثيل (التقنع)

Dream ..... حلم (رؤيا)

Dream/Day ..... حلم اليقظة

Educational Age ... ... العمر التحصيلى

Educational Quotient ... ... النسبة التعليمية ($\frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$)

Ego ... ...

Genes ..... جينات (مفروض أنها حوامل الصفات الوراثية)

Genetic Metbod ... ... المنهج التتبعى

Genius ... ... عبقرى

Gland/Adrenal (supra-renal) ... ... الغدة الكظرية (الغدة فوق الكلوية)

Glands/Parathyroid ... ... الغدد جارات الدرقية

Gland/Pineal ... ... الغدة الصنوبرية

Gland/Pituitary ... ... الغدة النخامية

Gland/Thymus ... ... الغدة التيموسة (الصعترية)

Gland/Thyroid ... ... الغدة الدرقية

Glands/Sexual (Gonads) ... ... الغدد الجنسية

Gluttony ... ... الشره

Glycogen ... ... نشا حيوانى

Gregariousness ... ... الاجتماعية (غريزة)

Habits (See Customs) ... ... عادات

Happiness (See joy & Pelasure) ... ... سعادة

Harmony ... ... توافق

Health/Mental ... ... الصحة النفسية

Hereditary (See Congenital) ... ... وراثى (انظر ولادى)

Heroworship ... ... عبادة البطولة

Heterosexuality ... ... الجنسية الغيرية

Heterosuggestion ... ... الايحاء الغيرى

Homosexuality ... ... الجنسية المثلية

Hormones ... ... هرمونات

Hygiene/Mental ... ... علم الصحة النفسية

Hypocondria ... ... توهم المرض

Hysteria ... ... الهستيريا

Id ... ... الـ « هى » (النزعات)

Identification ... ... تقمص

Imagination ... ... خيال

Imitation ... ... تقليد

Impulses ... ... الدوافع

Inborn (See Innate) ... ... ولادى

Incontinence (See Enuresis) ... ... التبرز اللا ارادى

Inhibition (See Repression & Suppression) ... ... الكف

Innate (See Inborn) ... ... فطرى

Innervation ... ... استثارة عصبية

Insight ... ... بصيرة

Instinct (See Repression & Suppression) ... ... غريزة

Instinctive behaviour ... ... سلوك غريزى

Instinct of combativeness (pugnacity) ... ... غريزة المقاتلة

Instinct/Escape ... ... غريزة الخلاص (الهرب)

Integration ... ... تكامل

Intelligence Quotient ... ... (العمر العقلى / العمر الزمنى × ١٠٠) نسبة الذكاء

Interest ... ... ميل (استعداد) — اهتمام (عملية)

Introversion ... ... الانطواء النفسى

Introvert ... ... المنطوى

Jealousy ... ... الغيرة

Joy (See pleasure and happiness) ... ... سرور

Katabolism (See Anabolism & Metabolism) ... ... البناء الحيوى

Lalling ... ... لثغة (قلب الراء لاماً)

Latency Period ... ... دور الكمون

Latent Content (In Dreams) ... المحتويات الباطنة (فى الأحلام وهى ليست كامنة)

Libido ... ... الطاقة الحيوية

Lie of loyalty ... ... الكذب الوفائى

Lie of revenge ... ... الكذب الانتقامى

Lie of vanity ... ... الكذب الادعائى

Lisping ... ... لثغة (قلب السين ثاء)

Lying/confusional ... ... الكذب الالتباسى

Lying/exculpatory ... ... الكذب الدفاعى

Lying/excusive ... ... الكذب الدفاعى

Lying/imaginative ... ... الكذب الخيالى

Lying/pathological ... ... الكذب المزمن

Lying/selfish ... ... الكذب الأنانى

Manifest/content ... ... المحتويات الظاهرة (فى الأحلام)

Manual skill ... ... المهارة اليدوية

Masochism ... ... الماسوكية (حب العذاب)

Masturbation ... ... استمناء (جلد عميرة — العادة السرية)

Maturity (See Adolescence) ... ... اكتمال النمو (الرشد)

Mechanism/unconscious ... ... حيلة لاشعورية

Melancholia (Temperament) ... ... سوداوى (مزاج)

Memory ... ... ذاكرة

Mental Age ... ... العمر العقلى

Mentally Defectives ... ... ضعاف العقول

Metabolism (See Anabolism & Katabolism) ... ... التغاير الحيوى (الهدم والبناء)

Migraine ... ... صداع مزمن

Misophobia ... ... الخوف من التلوث

Mood ... ... حالة مزاجية

Moral defect ... ... النقص الخلقى

Moral sense ... ... إحساس خلقى

Motives (See Impulses) ... ... دوافع

Nail Biting ... ... قرض الأظافر

Narcissism ... ... النرجسية (عشق الذات)

Need For Adventure ... ... الحاجة للمخاطرة

Need For Affection ... ... الحاجة للحب والمحبة

Need For Being Loved ... ... الحاجة للمحبة

Need For Control ... ... الحاجة للضبط (التوجيه)

Need For Freedom ... ... الحاجة للحرية

Need For Growing Up ... ... الحاجة للنمو

Need For Loving ... ... الحاجة للحب

Need For Recognition ... ... الحاجة للاعتراف (التقدير)

Need For Security ... ... الحاجة للأمن

Need For Success ... ... الحاجة للنجاح

Needs/Psychological ... ... الحاجات النفسية

Negative Adaptation ... ... التكيف السلبي

Neurasthenia (See Psychasthenia) ... ... الضعف العصبي (نيوراسثينيا)

Neurosis ... ... مرض عصبي

Non-Epileptic Fits ... ... النوبات اللاصرعية

Normal ... ... عادى (متوسط)

Old Maid's Insanity ... ... جنون العوانس

Organic Changes ... ... التغيرات العضوية

Organic Inferiority ... ... نقص عضوى

Ouvert Action ... ... السلوك (الفعل الظاهر)

Parasympathetic ... ... الباراسمباتوى

Parental instinct ... ... غريزة الوالدية

Perception ... ... الإدراك الحسى

Perceptual Consciousness ... ... الشعور الإدراكى

Personality ... ... الشخصية

Perversion ... ... قلب

Phobias ... ... مخاوف

Phlegmatic (Temperament) ... ... بلغمى (مزاج)

Play ... ... اللعب

Pleasure (See joy & happiness) ... ... لذة

Polyuria ... كثرة البول

Positive Method ... المنهج الايجابى (الإنشائى)

Pre-conscious (Pcs) ... ما قبل الشعور

Preventive Method ... المنهج الوقائى

Proctitis ... التهاب المستقيم

Propensities ... قُوى (استعدادات)

Projection ... إسقاط (إلصاق)

Psychasthenia ... سيكاستينيا (تحل هذه الكلمة الآن محل نيوراستينيا)

Psychiatry ... علم النفس الطبى

Psychic Inferiority ... نقص نفسى

Psycho-Analysis ... التحليل النفسى

Psycho-Neurosis ... عصاب نفسى

Psycho-Pathology ... علم الأمراض النفسية

Psycho-Somatic Medicine ... علم الطب النفسى الجسمى

Psychosis ... مرض عقلى

Psycho-Therapy ... العلاج النفسى

Puberty ... المراهقة

Pyelitis ... التهاب حوض الكلى

Pyknic Type ... النوع الممتلىء القصير (السمين)

Questionnaire Method ... طريقة الاستفتاءات

Random Movements ... الأفعال العشوائية

Rationalisation ... تبرير

Reaction ... رد الفعل

Realism ... الواقعية

Reality ... الواقع

Re-education ... التعليم المجدد

Reflex Actions ... الأفعال المنعكسة

Reflex Actions/Conditioned ... الأفعال المنعكسة الشرطية

Regression ... نكوص (تراجع) ...

Relativity ... نسبية .....

Relaxation ... تراخى ...

Relaxation Exercise ... تمرين تراخى ...

Religious Mania ... جنون التدين ...

Remedial Method ... المنهج العلاجى ...

Repression ... كبت ...

Repulsion ... النفور (غريزة) ...

Resistance (See Censor) ... مقاومة (رقيب) ...

Sadism ... السادية (حب التعذيب) ...

Sanguine (Teperament) ... دموى (مزاج) ...

Schizoid ... المنطوى (المائل للانطواء) ...

Self Abuse (See Masturbation) ... استمناء ...

Self Punishment (See Masochism) ... عقاب الذات ...

Self Realisation ... تحقيق الذات ...

Sense of Guilt ... الإحساس بالخطيئة ...

Sentiment ... عاطفة ...

Sentiment /Master ... عاطفة سائدة ...

Sentiment/Self Regarding ... عاطفة اعتبار الذات ...

Sentiment of Self Respect ... عاطفة احترام الذات .....

Septic Focus ... بؤرة توكسينية ...

Sexual Aberrations ... الحيودات الجنسية ...

Sexual Abnormality ... الشذوذ الجنسى ...

Spina Bifeda Occulta ... تأخر التحام العمود الفقرى ...

Spontaneity ... التلقائية ...

Stammering ... عىّ — حبسه — عقلة ...

Standardisation ..... التقنين

Stuttering ... فأفأة — تمتمة .....

تسامى ، إعلاء تصعيد ... ... Sublimation

الخنوع (الخضوع) ... ... Submission

إبدال ... ... Substitution

القابلية للإيحاء ... ... Suggestibility

الإيحاء — الاستهواء ... ... Suggestion

الـ « أنا » العليا — الذات العليا ... ... Super Ego

قمع ... ... Suppression

الدهشة ... ... Surprise (See wonder)

رمزية ... ... Symbolism

الانفعال بالتأثير المشاركة الوجدانية ..... Sympathetic Induction of Emotion

المجموع العصبي السمبتاوى ... ... Sympathetic Nervous System

المشاركة الوجدانية ... ... Sympathy

المحرمات ... ... Taboos

طبع ... ... Temper (See mood)

نوبات غضبية ... ... Temper Tantrums

مزاج ... ... Temperament (See mood)

ميول — نزعات — اتجاهات ... ... Tendencies

مص الأصابع ... ... Thumb Sucking

الثروكسين ... ... Thyroxin

اللزمات ... ... Tics

مص اللسان ... ... Tongue Sucking

تحويل ... ... Transference

الإصابة النفسية ... ... Trauma/psychic

المحاولة وحذف الاخطاء ... ... Trial and Error

هروب ... ... Truancy

التوائم المتحدة ... ... Twins/identical

اللاشعور ... ... Unconscious (Ucs)

التلذذ الجنسى للمجارى البولية ... ... Urethral Erotism

التهاب مجرى البول (للذكور) ... ... Urethral Inflammation
التلذذ الجنسى للمجارى البولية ... ... Urinary Sexuality
تشرد ... ... Vagrancy
التهاب مجرى البول (للأناث) ... ... Vulvo Vaginitis
التجول ... ... Wandering (See Fugue)
فطام نفسى ... ... Weaning/Psyshological
إرادة (أنظر نزوع) ... ... Will (See Conation)
عجب (أنظر دهشة) ... ... Wonder (See Surprise)

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

DATE DUE

JAFFE LIB.
04 APR 2005
Circulation Dept. I

131.3:K97uA:c.1
القوصى ،عبد العزيز
اسس الصحة النفسية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01021541

131.3
K97uA